

برترام توماس

العربية السعيدة

(عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)

ترجمة وتقديم

د.صبرى محمد حسن

العربية السعيدة

(عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)

- الكتاب: العربية السعيدة

(عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)

ARABIA FELIX

ACROSS THE EMPTY QUARTER OF ARABIA

- الكاتب: برترام توماس BERTRAM THOMAS
- الطبعة الأولى ٢٠١٨.
- الكتاب الأصلى صادر باللغة الإنجليزية
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب،

كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة.

ت: ٢٥٧٧٥١٠٩/٢٥٧٧٥٠٠٠

فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢)

ص. ب: ٢٣٥ــ الرقم البريدى: ١١٧٩٤رمسيس

WWW.gebo.gov.eg

Email: info@gebo.gov.eg

توماس، برترام.

العربية السعيدة: (عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)/ برترام توماس؛ ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن. ــ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦.

٤٨٤ ص؛ ٥, ٢٣ سم. ــ (الألف كتاب الثانى)

تدمك ١ ٠٩٥٤ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ــ شبه الجزيرة العربية ــ وصف ورحلات

أ ــ حسن ــ صبرى محمد (مترجم ومقدم)

ب ــ العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٦٣٩ / ٢٠١٦

I.S.B.N - 978 - 977 - 91- 0954 - 1

ديوى٣ , ٩١٥

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

برترام توماس

العربية السعيدة

(عبور الربع الخالى فى الجزيرة العربية)

ترجمة وتقديم

د. صبرى محمد حسن



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٨

الألف كتاب فى سطور .....

صدر مشروع الألف كتاب الأول عام ١٩٥٥ بإشراف الإدارة العامة للثقافة، التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد اهتم بأمهات الكتب العالمية والكلاسيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية، والمعارف العامة، والفلسفة وعلم النفس، والديانات، والعلوم الاجتماعية، واللغات، والفنون الجميلة، والأدب بفروعه، والتاريخ والجغرافيا والتراجم. وتوقف العمل به عام ١٩٦٩.

صدر مشروع الألف كتاب الثانى عام ١٩٨٦عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد اهتم بترجمة الكتب الحديثة محاولةً منه للاتصال بالثورة العلمية والثقافة العالمية المعاصرة .

وقد قُسمت إصدارات المشروع إلى ١٩ فرعًا هى: الموسوعات والمعاجم، والدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر، والعلوم والتكنولوجيا، والاقتصاد والعلوم الإدارية، ومصر عبر العصور، والكلاسيكيات، والفن التشكيلى والموسيقى، والحضارات العالمية، والتاريخ، والجغرافيا والرحلات، والفلسفة وعلم النفس، والعلوم الاجتماعية، والمسرح، والطب والصحة، والآداب واللغة، والإعلام، والسينما، وكتب غيرت الفكر الإنسانى، والأعمال المختارة.

(انظر القائمة آخر الكتاب)

الإهداء

إلى السير آرنولد ولسون الحاصل على: لقب فارس، نوط القدِّيسيْن: ميخائيل وجورج، وسام الهند، ووسام الخدمة المتميزة.

صاحب المشورة القاطعة، سريع التصرف لفضله وتشجيعه ونصيحته فى الفترة من ١٩١٨ - ١٩٣١

أهدى إليه ترَحالى فى الجزيرة العربية

أهدى له هذا الكتاب إعجابًا به وشكرًا وامتنانًا له

"وأصعدنى من جُب الهلاك، من طين الحمأة، وأقام على صخرة رجلى، ثبَّت خطواتى"(*).

(المزمور الأربعون: الآية ٢).

(*) أخذنا ترجمة هذه الآية من ترجمة الكتاب المقدس الصادر عن دار الكتاب المقدس فى مصر، ص ٦٤٠. (المترجم).

محتويات الكتاب

مقدمة المترجم

برترام توماس، العربية السعيدة وترجمة المصلح العربى

اسمه بالكامل برترام توماس وهو حاصل على نوط الإمبراطورية البريطانية، وزير سابق فى بلاط صاحب الجلاله سلطان مسقط وعُمَان، ضابط سياسى سابق فى العراق، ومساعد الممثل (المندوب) البريطانى فى شرق الأردن. وهو المؤسس الرئيس للجمعية الجغرافية الملكية، حاصل على ميدالية بيرتون التذكارية من الجمعية الآسيوية الملكية؛ حاصل أيضًا على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية فى آنتويرب، وحاصل أيضًا على الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية.

الاهتمام بالجزيرة العربية

تُرى، ما سر اهتمام برترام توماس هو وغيره من المستكشفين والمستشرقين بالجزيرة العربية؟ ألأنَّ الجزيرة العربية تقع فى منتصف الطريق بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب من العالم المأهول بالبشر؟ وتراقب دوماً باهتمام "وتجرد كوميدى" الصراع الإنسانى المستمر؟ أم أن الجزيرة العربية هى أرض البحر Sea land على حد قول البابليين القدامى؟ أم لأن الناس لا يزالون يطلقون عليها اسم "الجزيرة" Island بل يضيفون إلى الجزيرة كلمة "العرب" ليصبح الاسم الكلى "جزيرة العرب"؟ وهى جزيرة صحراوية. أم لأن لغة هذه الجزيرة النقية هى التى أعطت الإنجليزية كلمة "طور" Tor التى نجدها عند أهل مقاطعة كورنول؟ أو لأنها أعطت الإنجليزية أيضاً كلمة Aber فى لهجة أهل ويلز؟ أم لأن الكلمة الرومية ides تعيد إلى الأذهان الكلمة الوثنية "عيد" id وهى الكلمة التى

يطلقها المسلمون على عطلاتهم الإسلامية، أم أن ذلك يرجع إلى أن اسم بلاد البرازيل يذكِّرنا بكلمة "برازين" Brazin العربية التى تطلق على نوع من القلاع والحصون؟ أو لأن الجزيرة، فى زمن برترام توماس ومن سبقوه، كانت لا تزال غير معروفة لقسم كبير من عالم ذلك الزمن، الأمر الذى يزيد من جمال الأعمال التى تصدر عن أصحاب العقول المفكرة؟

الرَّبْع الخالى

الربع الخالى الذى تعادل مساحته نصف مساحة أوروبا، يبلغ من الكبر حدًا جعل واحدًا من البشر، برترام توماس يعود إليه مرتين أو ثلاث مرات، قبل أن ينبرى للتعبير أو الكتابة عنه. برترام توماس هو آخر الرجال الذين حاولوا التجوال فى الربع الخالى، وقد قام برحلته بالطريقة العتيقة، على ظهور الإبل، وحيدًا فى زمانه ومتحملاً تكاليف رحلته. كان بوسع الرجل ركوب طائرة، وكان بوسعه أيضاً الجلوس فى سيارة أو ركوب دبابة من الدبابات. وعوضًا عن ذلك كله انتزع الرجل فى الوقت المناسب النصر وخلَّصنا من هواجسنا. تُرى، ما هو ذلك الربع الخالى؟

وهل كان ذلك الاسم معروفًا للبدو الذين يعيشون فيه؟

جغرافية الربع الخالى

توضح الخرائط التى رسمها البريطانيون للمنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، والتى يحدُّها من الشمال خط طول ٤٨° الموازى لخط طول ٢٠° ، ويحدها من الجنوب خط طول ٤٦° باستثناء شريط ساحلى ضيق، أن هذه المنطقة هى ما يطلق عليه الإنجليز اسم "الربع الخالى"، هذا الاسم الذى لا ينطبق على هذه المنطقة كلها. يزاد على ذلك أن هذا الاسم لا يعرفه من العرب سوى أولئك الذين يقرءون ويكتبون؛ لكن القبائل التى تعيش فى الربع الخالى لا تستعمل هذا المصطلح، ولا تفهم مدلوله الجغرافى.

الربع الخالى عبارة عن صحراء، لكن القسمين الشرقى والجنوبى، من هذه الصحراء، يشكلان ثلث مساحة الربع الخالى. هذان القسمان اللذان يشكلان حدوة فرس عبارة عن سهوب كما هو الحال فى سهوب السِّيح فى الشمال، وجدَّة

حراسيس فى الجنوب. وسكان هذه الجدَّة والسهوب يطلقون على هذه الصحراء اسم "الرمل" أو "الرمال". وقبائل هذه المنطقة يطلقون أسماء محددة على أماكن معينة من الرمال. من هنا نجد منطقة من مناطق السهوب تشتق اسمها من اسم القبيلة التى تعيش فيها. كما هو الحال فى القراوين الذين يعيشون فى جبال قارة. وقد أثبت برترام توماس فى رحلتين سابقتين، أن الحافة الجنوبية للرمال، وإن شئت فقل: الربع الخالى موازية للساحل الجنوبى من الجزيرة العربية، فى المنطقة من موجشين إلى شمالى حضرموت، وأنها تنحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق.

الحافة الشرقية للربع الخالى

تمتد هذه الحافة من الشمال إلى الشمال الشرقى من موجشين، ولمسير أربعة أيام إلى قرن السَّهامة؛ وتمتد من جبل السَّهامة إلى أن تطوق جبل حافت، لتمتد بعد ذلك على شكل حافة بارزة تُنصِّف شبه الجزيرة العمانية؛ يزاد على ذلك أن منظومة جبال عروق الضاحية تشكل حدوة فرس كبيرة، يرتكز الجزء الرئيس منها على الحدود الجنوبية.

ذراعا حدوة الفرس

تطوق الذراع الغربية أو تحتضن مناطق جعاميات، الحويَّه، وشويكيله؛ فى حين تطوق الذراع الشرقية مناطق كُلٍّ من عروق ميجوره، طاميشه، شيبه ومارنجا. وفيما بين هاتين الذراعين نجد قبيلة المُرَّه إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من ناحية الشمال الغربى؛ وفيها أيضاً بطن من بطون قبيلة الرشيد، وبطن من قبيلة إيمانى، وهاتان البطنان تنتميان إلى الكثارين، إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من ناحية الجنوب الأوسط وإذا ما اقتربنا من حدوة الفرس هذه من ناحية الشمال الشرقى، نرى أيضاً (وعلى نطاق محدد) العوامير والمناصير.

خارج حدوة الفرس

فى المنطقة ما بين حدوة الفرس والسهب، نجد الرمال الحدودية التى تستعملها بطون مقيتة من قبائل السُّهوب فى مواسم محددة. وإلى الشمال من

هذه المنطقة نجد قبائل: البوشميس، دروع، الحراسيس، الأفار. وفى الجنوب نجد بيت الكثارين، المناهيل، العوامير (العناصر الجنوبية)، السَّعارين، والكرابين، لكن هذه القبائل تعيش على بُعْد مسافة آمنة من ثقوب الماء.

تنويه

يجب ألا ينصرف ذهن القارئ إلى المنظر العام للجزيرة العربية الذى يرتفع فجأة فى الجانب الغربى من البحر الأحمر وفى جروف صدع البحر الميت لينحدر بصورة متدرجة فى اتجاه الشرق، وبخاصة فى سهول العراق ومياه الخليج الفارسى، نظراً لأن هذا الارتفاع لا يمتد إلى الربع الخالى. هنا فى الربع الخالى نجد أن الأرض ترتفع بصورة مفاجئة فى ثلاثة اتجاهات: الشمال الشرقى، سلسلة جبال حجار فى عُمان؛ فى الجنوب الأوسط، حيث توجد منظومة ظفار؛ وفى الجنوب الغربى، حيث توجد جبال حضرموت ونجران. وهذه المستويات المختلفة تشير إلى الخليج الفارسى وإلى سواحل البحر العربى فى الجنوب الشرقى من الصحراء. من هنا نجد أن انحدار الرمال إلى الخليج الفارسى تتضح فى هذه المنطقة: وهذا يحتِّم وجود منخفض فى وسط الجنوب الشرقى. هذا يعنى أن الحافة الشرقية للرمال تنحدر من الشمال إلى الجنوب.

سهوب ووديان

هناك سهب كبير يجاور الحافة الشرقية للرمال ينبثق منه: وادى العين، الوادى الأسود، وادى العميرى وأيضاً وادى المُسَلَّم؛ وتشق هذه الوديان لنفسها مسارات متوازية متجهه صوب الجنوب الغربى لتختفى فى نهاية المطاف فى الحدود الشرقية للربع الخالى. وهناك سهب آخر فى موجشين تحده من الناحية الجنوبية الشرقية وديان: فادان، دونيب وجيتام التى تتجه إلى خليج سوكيرا فى الجنوب الشرقى، وأهم ما فى الأمر أن برترام توماس زار هذه الوديان الثلاثة الأخيرة فى العام ١٩٢٨ الميلادى.

الجزيرة العربية السعيدة
(عبور الربع الخالى)

تشير بعض المصادر إلى أن العنوان الرئيس ينطبق، عند كل من سترابو، بلنى، وبطليموس على كل الجزء الجنوبى من شبه جزيرة العرب الواقع جنوبى الصحراء السورية (وهو ما يطلق عليه صحراء الجزيرة العربية)، وعلى الجبال المنتشرة فى سيناء (أى الجزيرة العربية الأم).

هذا المصطلح لا ينسجم ولا يليق بقفار الربع الخالى المقززة، المنفرة، التى تشكل قسمًا كبيرًا من الجزيرة العربية، ولذلك فهو ينطبق بدرجة أكبر على الجزء الأوسط من القسم الجنوبى، الواقع على حدود المحيط الهندى، تلك الأرض التى كانت فى يوم من الأيام، فريدة فى حسنها، وشهيرة بعراقتها. من هنا أكتفيت بترجمة العنوان ليكون "**العربية السعيدة**"؛ اعتماداً على أن العنوان الفرعى "عبور الربع الخالى" يزيد الأمر وضوحًا وتحديدًا.

قام توماس برحلته فى زمان كان عامراً بالمقاتلين الحقيقيين فى مسألة الجزيرة العربية، وعلى رأسهم شارلز دوتى(*) ذلك العملاق الشامخ، الذى كان عالماً مستقلاً مضى وانتهى؛ ومن بعد دوتى جاء ولفريد سكاون بلنت(**) الذى يحتل المرتبة الثانية بعد دوتى. وإذا كان صوت دوتى فيه شىء من التدليل فضلاً عن طبعه الحلو، فإن بلنت هو بمثابة النار التى تعتلى رماد الغضب القديم.

ويجىء هوجارث هو وجرترود(***) بِلّ بعد هذين العملاقين، وينفقان قرابة عشرين عاماً فى الدراسة والبحث إلى أن بنيا لنفسيهما سمعة طيبه فى مسألة الجزيرة العربية.

(*) له كتاب شهير بعنوان "**ترحال فى صحراء الجزيرة العربية**"، والكتاب من إصدارات المركز القومى للترجمة، ومن ترجمة الدكتور صبرى محمد حسن.

(**) له كتاب بعنوان "**حج إلى نجد**"، وهو من إصدارات المركز القومى للترجمة، ومن ترجمة الدكتور صبرى محمد حسن.

(***) يجب ألا يغيب عنا هنا أن جرترود بل هى رائدة فكرة تقسيم الجزيرة العربية إلى كيانات صغيرة.

كان هناك أيضًا ضباط شباب واعدون مثل النقيب شكسبير ومعه ولشمان، وكان معهما أيضاً السياسى ويمان بيرى، استطاعوا معًا أن يبدءوا بداية حسنة. هؤلاء العظماء الكبار لَقُوا رَبَّهم؛ ويجب ألا يغيب عنا هنا أن الحرب العالمية الأولى أثقلت كاهلَىْ هوجارث وجرترود بل بالكثير من المسئوليات السياسية. هذا يعنى أن زمان أولئك المستكشفين كان أوسع وأفسح، من منطلق أن "رؤية الجزيرة العربية بحد ذاتها، كانت هى الهدف والمبتغَى".

لماذا هوجارث؟

الدكتور ديڤيد جورج هوجارث، كان بمثابة الساعد الأيمن للحكومة البريطانية فى كل الأمور ذات المضمون والمغزى فى الجزيرة العربية. ولما كان الدكتور هوجارث هو مدير المكتب العربى فى زمن الحرب العالمية الأولى فى القاهرة، فقد أصبح الرجل بمثابة أعلى سلطة رسمية فيما يتعلق بالشئون العربية. كان الدكتور هوجارث قد نشر فى العام ١٩٠٤ الميلادى، تحت عنوان اختراق الجزيرة العربية(*) كتابًا يعد موجزًا جامعًا مانعًا لكل الجهود التى بُذلت فى استكشاف الجزيرة العربية منذ أيام نارخيوس وعويس وجاليوس Gallius إلى بدايات القرن العشرين. كانت الفجوة التى لاحظها الدكتور هوجارث، فى معرفة الباحثين والمستكشفينْ للجزيرة العربية، لا تزال فى معظمها هى الفجوات نفسها بعد مُضىّ أربعة عشر عاماً. وأن أكبر تلك الفجوات كانت تتمثل فى ذلك الفراغ الكبير على خريطة العالم خارج المناطق القطبية. كان الدكتور هوجارث مكتفيًا بتأمل هذه الفجوة دون أن يشجع المغامرين المتهورين على الإقدام على قدرهم المشئوم. كان الرجل على يقين من أن أهداف العلم يمكن خدمتها بطريقة أخرى. لو يتمكن الأكسجين من صعود قمة إفرست فإن الطائرة والسيارة يمكن وبكل تأكيد أن تكشفا عن فراغ الربع الخالى فى الوقت المناسب. لكن الرجل لم يكن يحبذ تكهناً مفاده أنه خلال أربعة عشر عاماً أخرى يمكن أن يفضى الربع الخالى بأسراره كلها- ليس مرة واحدة، وإنما مرتين- للرحالة العاديين غير المزودين بوسائل التنقل، التى لم تكن فى خدمة المستكشفين منذ بداية الخليقة، ومع ذلك

(*) هذا الكتاب من إصدارات المركز القومى للترجمة، وهو من ترجمة الدكتور / صبرى محمد حسن.

لم يكن هناك أحد يرغب بحق فى معرفة الطابَع الدقيق لذلك الفراغ الكبير، ولمحة التهكم الكتيمة الحريصة، أكثر من إنسان لديه بحق مسحة من الوحى والإلهام. والذى يؤسفنى أكثر أن الدكتور هوجارث مات والقناع لم يرفع بعد عن سر أرضى، ربما كان الدكتور هوجارث هو الأقدر والأجدر بتفسير عظمة هذا السر.

ترجمة المصطلحات العربية

بقى أن نقول: إن برترام توماس، على الصعيد اللغوى، كان شديد الدقة والحساسية فى ترجمة المصطلحات العربية إلى الإنجليزية عن طريق تدوين المصطلح تدويناً صوتياً حسبما سمعه ثم يقوم بعد ذلك بترجمته، الأمر الذى زاد الكتاب موسوعية على موسوعيته، ويُمكِّن قارئ الكتاب من الوقوف على الدلالات الدقيقة للتعبيرات والمصطلحات. وما أورده هنا هو مجرد غيض من فيض. وهو عندما يتناول الزنوج الذين التقاهم فى رحلته، نجده يترجم:

- عيد النيروز فى الصفحة رقم ١٢ بالمصطلح New year's day
- ونجده يستعمل الكلمة ab ، فى الصفحة ذاتها ، ويترجمها:

a magistrate to whom negro disputes were usually referred for settlement.

- ونجده أيضاً فى صفحة ٣١ يستعمل كلمتَىْ: aulad and banat ويترجمهما boys and girls؛ ليدل بهما على "العبيد والعبدات".
- ونجده يترجم كلمة "كافر" فى صفحة ٤٠ بالكلمة الإنجليزية: infidel
- وهو يترجم كلمة "نقوش" بالكلمة الإنجليزية inscriptions.
- ويترجم Zars, Jinniyat, Jinns بالمصطلح الإنجليزى evil spirits ، فى صفحة ٤٤ من الفصل الخامس.
- ونجده يترجم "عفاريت" afarit بالمصطلح Allah's worst afflictions فى الصفحة رقم ٤٤.
- وهو يترجم: بيّض الله وجهك "Allah baiyidhwijhak": God whiten your face.

- وفى صفحة ٥٦ من النص الإنجليزى يترجم مصطلح: الختوم khutum =
The cow sacrificed on the third day of the death of some one.

- ويترجم مصطلح "يوم النحيرة" youm el nahaira فى الصفحة رقم ٥٦ على أنه:

a sacrifice of ten, fifteen or twenty cows made before the big sacrifice.

- وفى صفحة ٥٧ يترجم "الشريعة الإسلامية": Muslim holy Law

- وفى صفحة ٥٨ يترجم: Hamar al 'ain! ain! على أنه Red of eye. وهذا التعبير يستعمله البدو للتعبير عن الشجاعة والجرأة وامتداحهما.

- ونجده يترجم فى صفحة ٦١: kabsh an nabi (كبش النبى)= The prophet's ram ، وهو التعبير الذى تطلقه قبيلتا الكرابين والسّعارين على "الضبع".

- ونجده يترجم فى صفحة ٦٢ "عليه وعليك السلام": upon him and you peace.

- ويترجم "والله": By God.

- وهو يترجم كلمة "تاجويد" The war alarm= taguwid ؛ "ليدل بها على الإنذار بالحرب".

- يترجم مصطلح "بهايم تحت الله" العامى No better than=Bahaim that allah Cattle under God: مجرد بهائم فى رعاية الله ، ص ٦٧.

- ويترجم الكلمة العربية "رزق" God's bounty= rizk ، ص ٧٥.

- ويترجم "عين إبليس" Evil Eye= Ain Balis ، ص ٨٠

وهذا المصطلح له من الناحية الدلالية علاقة بالأمراض التى تصيب البشر ونقص الحليب فى الإبل.

- ويترجم المثل العامى البدوى: "كسرت كود والشر ما يعود"،

A twig (incense?) is = kesert Cud: Was her ma'aud broken: evil return not.

المقصود بكلمة "كود" فى هذا المثل هو "عود البَخُور" بصفة خاصة. والبدو يقولون هذا المثل بعد علاج الإبل بالكى كيما تشفى من العَرَج.

- يترجم كلمة "نفخ" nafakh ص ٨١ = Vaginal blowing.

والمقصود بالنفخ فى هذا المصطلح هو العلاقة بين هذه العملية وزيادة إدرار حليب النياق. وفى هذه العملية يأخذ النافخ نَفَسًا عميقًا ويقوم بتفريغ ذلك النَّفَس فى رحم الناقة، ويقوم النافخ بتمرير يده على ضرع الناقة، كيما يتبين إدرار الحليب؛ ويقال أن هذا النفخ يتم فى بعض الأحيان بنفخ الملح داخل رحم الناقة.

- يترجم مصطلح "حكم الحوز" hukmalhuz ص ٨٢=System of precedents And ancient sanctions law, generally based on eye- for- eye.

حكم الحوز: يقوم على منظومة السوابق والعقوبات القديمة، وهو :eye ، يقوم فى الأصل على مبدأ "العين بالعين، والسن بالسن".

- يترجم "الرابية" rabia ص ٨٨= is a representative of the tribe Whose presence ensures protection from that particular tribe

الرابية: ممثل القبيلة الذى يعد وجوده حماية من تعدى هذه القبيلة.

- يترجم "رَدّ السلام" rud- as- salam ص ٨٤= response to salutations.

- يترجم "ثمن البطن" thamn- al- batn = stomach price. يتعلق هذا المصطلح بمسألة إكرام الضيف لمدة أربعة أيام وأربع ليالٍ يحرَّم فيها التعدى على الضيف أو على قبيلته وإن حدث ذلك، يحدث الحق العربى الذى يسمونه "ثمن البطن".

- يترجم كلمة "نصارَى" Nasara ص ٨٧= Nazarenes (نسبة إلى مدينة الناصرة)، ويترجمها أيضًا = Christians.

- يترجم "كُفَّار" Kuffar ص ٨٩ = infidels.

- يترجم "هام كتيب" (هذا مكتوب) ham katib ص ٩= it is written.

- يترجم "الحمد لله رب العالمين" ص ٩٣= Glory beto God, Lord of the Two worlds.

- يترجم "بنت عم" ص ٩٥= paternal cousin.

- يترجم أيضًا "ابن عم" ص ٩٩= paternal cousin.
- يترجم "جيلاب" بمعنى المهر الذى يدفع للزوجة ص٩٧=bride's marriage portion.
- يترجم "هت بخير" (هل أنت بخير؟)=are you well? het bikhar.
- يترجم "الله أعلم" ص ١٠٣= God knows.
- يترجم "صيام رمضان" ص ١٨= fast of Ramadan.
- يترجم "رمضان شهر الصوم" ص ١٠٨=the fasting month of Ramadan lll.
" يترجم "عِلْم"ilm"= Science.
- يترجم "فى أمان الله" ص ١١٤= to God protection.
- يترجم "يا جماعة! يا قوم! " ص ١١٥= O Assem = Yajuma'a! O Ya Gom blybraves!
- يترجم "أستغفر الله" Istaghfirullah ص ١٢١= May God Forgive them.
- يترجم "ربىّ يحاسبهم" Y'hassabhum ص ١٢١= My Lord will hold them to reckoning (in the neat).
- يترجم "الاعتماد على الله" ص ١٥٠=Reliance on God.
- يترجم "المقدَّر لابد من نفاذه" ص ١٥٠=What is written must come to pass.
- يترجم "أم ظُرقه" umm Dharka ص ١٧= Mother of Wind.
- يترجم "أبو فلان" abuFulan ص ١٧١= the father of a Son's name.
- يترجم "قوم! قوم!" ص ١٧١= Raiders! Raiders! بمعنى (غزو).
- يترجم "سَلِّمنى" Sellemni ص ١٧٣= The desert equivalent of pax and as atoken of submission the rifle is held above the head, O thrown to one side.
- هذه إشارة الاستسلام فى الصحراء، وإذا ما نطق البدوى بكلمة "سَلِّمنى" فهو يقوم برفع بندقيته فوق رأسه أو يلقى بها جانبًا، وإذا ما استجاب الخَصْم لذلك الرجاء، فإن المستسلم يعود بلا بندقية أو أى سلاح يكون معه.

- يترجم كلمة "بندق" وجمعها "بنادق" banadig ص ١٧٣= tifles ، وهذه كلمة هندوسية تسللت إلى اللغة العربية.
- يترجم "شهمان" ص ٢١٣= The massive sword of abuzaid.
- الشهمان: سيف أبى زيد.
- يترجم "يا طويل العمر" ص ٢١٦= O Long of life.
- يترجم "الحين وغير الحين" بمعنى الآن وغير الآن dhilhin, ghairdhilhin =now and not now
- يترجم "عفيره" ذلك التعب المعدى الذى يصيب الإبل afera ص ٢٢٤= The most stomach trouble.
- يترجم "قفَّار" بمعنى "قصَّاص الأثر" gaffar ص ٢٥٢= foot- tracker ، وهذا المصطلح مستعمل فى "عُمَان".
- يترجم "عَطِيَّة الله" Atay Allah ص ٢٥٧= The gift of Allah.
- يترجم "تلَبَّسه الجن" ص ٢٥٨= Jinn haunted
- وإذا مد الله فى الأجل، فإن هذه المصطلحات تشكل من حيث ترجمتها منظومة، آمل أن أتمكن من بحثها بحثًا دقيقًا، فى محاولة منى لتعرف هذه المنظومة ومُكوِّناتها.
- يُزاد على ذلك أن برترام توماس، جعل كتابه مقروءًا بأن أورد ملحقًا على امتداد ثلاث صفحات شرح فيه المصطلحات الطبوغرافية الواردة فى الكتاب، وهو ما يسهل على قارئ الكتاب الاسترسال فى قراءة حدُّوتة الكتاب بطريقة جذابة ومتسلسلة.
- ملاحق الكتاب غاية فى الأهمية ومن دونها لا تكتمل الفائدة من هذا الكتاب الموسوعى الذى تعده الجمعيات الجغرافية، والجمعيات التاريخية وكذلك الجمعيات الأنثروبولوجية مصدرًا أو مرجعًا بالغ الأهمية فيما يتعلق بالربع الخالى وسكانه وقبائله.

ملاحظة :

أستميح القارئ عذرًا لعدم وضوح الصور، وذلك لتعذر الحصول على صور بديلة، وعليه أدرجنا الصور بالشكل التى هى عليه حفاظًا على أهميتها فى الكتاب.

تصدير

لم أحاول، أثناء إعداد هذا الكتاب وتجهيزه، تضمينه الملاحظات العلمية الوفيرة التى جاء بها الرحالة السابقون من المناطق المجاورة، والتى قد يكون أو لا يكون لها صلة بالمشكلات التى تناولتها أنا. لو فعلت ذلك، فلربما جاء خارج نطاق التسجيل الشخصى. ومن هنا أكون قد كفيت القارئ مئونة الرجوع إلى قائمة طويلة من المراجع. لقد حاولت أن أحكى بصورة مباشرة عن الأشياء التى رأيتها وسمعتها، فضلاً عن التجارب والخبرات التى مررت بها. وإذا كنت قد قَصَّرت فى المعايير التى حددها لى أولئك الذين سبقونى فى مجال الترحال فى الجزيرة العربية، فإن عذرى الوحيد فى ذلك يتمثل فى أن هذه الرواية كتبتها وسط مشاغل أخرى كثيرة انتابتنى طوال الأشهر القليلة التى أعقبت عودتى من الجزيرة العربية. وفى المواضع التى كنت أسجل فيها الحوارات والقصص الشعبية الفلكلورية، سواء أكانت عربية، مهرية أم شهارية، كنت أدِّون الكلمات التى استعملتها، كما هى واردة فى اللهجة المحلية التى وردت فيها هذه الكلمات، وبذلك أكون قد تحاشيت المعجم العربى.

وأنا مَدِين لكل من السير آرثر كيث، الذى تعاون مع الدكتور و. م. كروجمان، فى إصدار ملحق لهذا الكتاب، لا من أجل التشجيع، وإنما من أجل تحليل ملاحظاتى ومعاييرى الأنثروبولوجية، الأمر الذى جعل هذه الملاحظات والمعايير ذات معنى ومغزى علمى.

يسعدنى أن أجد نفسى ملزمًا بتوجيه أسمى آيات الشكر للجمعية الجغرافية الملكية على قيامها بمقارنة ملاحظاتى الفلكية فى هذه الرحلة مع الرحلات السابقة، وقيام الجمعية المبجلة بعمل الخريطة المرفقة بهذا الكتاب؛ وأوجه

شكرى بصفة خاصة إلى رئيس الجمعية الأدميرال السير وليام جود إنَفْ Goodenough ، وإلى السيد أ. د. هنكس أمين الجمعية، وإلى رسام الخرائط السيد إيه. إس. ريفز.

ولا يفوتنى هنا أيضًا توجيه خالص شكرى إلى الدكتور و. ت. كالمان هو والأعضاء الآخرين فى متحف التاريخ الطبيعى، جنوب كنسنجتون، على موافقتهم لى على نشر ملاحظاتهم عن العينات، على شكل ملحق فى هذا الكتاب.

ولا يفوتنى أن أشكر الصديق العزيز إيرافتمانى تى. أى مشاو (العقيد لورانس) على تفضله بقراءة المخطوطة المضنية، وكتابة التمهيد الخاص بهذا الكتاب؛ وأوجه شكرى أيضًا إلى الأستاذ الدكتور هـ. إيه. ر. جب على تعليقاته ومقترحاته القيِّمة؛ كما أتوجه بالشكر أيضاً إلى كل من السيد/ د. و. بولارد قنصل صاحبة الجلالة لدى لينتجراد، وقنصلها من قبل فى مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية؛ وخالص الشكر أيضاً إلى السير آرنولد ولسون، رئيسى السابق فى بلاد الرافدين، ولولا نصيحة هذين الرجلين وعونهما لما تمكنت من الدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة دون تأخير.

برترام توماس
نادى الخدمات الموحدة فى شرق الهند
سينت جيمس سكوير
١٢ ديسمبر ١٩٣١

تمهيد

صدمنى برترام توماس عندما طلب منى أن أكتب تمهيدًا لهذه الرحلة العظيمة، ولم تكن صدمتى ناجمة عن أن كتابة المقدمات تعطلنى (لا لأنه ربما يكون هو ممن يتمتعون بالمقدمات)، وإنما نجمت هذه الصدمة عن التجاء الرجل إلىَّ فى هذه المسألة. وقد استغرق تفكيرى فى هذه الهفوة الغريبة شيئاً من الوقت.

لعل القارئ يعرف أن زمانى كان عامرًا بالمقاتلين الحقيقيين فى مسألة الجزيرة العربية. ومع كل عائد من الشرق كنت أعود إلى شارلز دوتى ذلك العملاق الشامخ، الذى ابيَضَّ شعره بفعل الأعوام الثمانين، إبيض شعر رأسه وشعر لحيته كما لون إشعياء، عصر النهضة، كان دوتى، بحد ذاته، عالمًا مستقلاً مضى وانتهى؛ ومن بعد دوتى جاء ولفريد سكاون بلنت، الذى كنت أعود إليه بعد دوتى. كانت الفرس العربية هى التى تجذب زواره إلى منزله المبنىّ من الحجر الواهن داخل غابة سسكس، والذى زُينت جدرانه بلوحات صوفية من الطراز الموريسى. كان الرجل جالسًا على كرسى فخم، مستعدًا وجاهزًا لى كما لو كان عملاً فنيًا مُهْمَلاً، ويرتدى ملابس عربية بالية، ووجهه واضح المعالم يحيط به إطار من الشعر الفضى المجُعد. كان صوت دوتى فيه شىء من التدليل، فضلاً عن طبعه الحلو. جاء بلنت بمثابة النار التى تعتلى رماد الغضب القديم.

كان ذلك هو حال أساتذتى فى مسألة الجزيرة العربية، رجال عاشوا منذ أربعين أو خمسين عامًا مضت. وهذا هو هوجارث هو وجرترود بِلّ، استطاعا بدورهما خلال عشرين عامًا من الدراسة الدءوبة، أن يبنيا لنفسيهما سمعة طيبة من نوع ما؛ كان هناك أيضًا ضباط شباب واعدون مثل النقيب شكسبير ومعه

ولشمان، ومعهما أيضا السياسى، ويمان بيرى، استطاعوا معًا أن يبدءوا بداية حسنة. هذا يعنى أن التطلع إلى الحكمة العربية، لم يكن طموحاً سريعاً أو خفيفاً.

هؤلاء العظماء الكبار، لقوا ربهم جميعاً؛ كان الشاعران مُسنين ومكرَّمين تكريماً كبيراً، وتُوفِّيا وفاة طبيعية. لقد أثقلت الحرب كاهلَيْ كل من هوجارث وجرترود بل بالكثير من المسئوليات السياسية. هذان الاثنان أسلما نفسيهما لعملهما تماماً، وشاهدا عملهما بعد اكتماله، ثم لقيا ربهما بعد ذلك. لقد تُوفِّى الرجال الثلاثة الأصغر سناً من كل من هوجارث وجرترود بل، بسبب قيامهم بواجبهم؛ وهذا هو السبب وراء مجىء توماس إلىَّ.

وأنا أرى أن أى سياسى سابق لا يمكن أن يغيب عنه ما قام به أولئك العظام إذا ما انضم هو إلى مدرستهم. هل بوسع أحد من جمهورنا المؤسف الصغير، فى أيامنا هذه، المشاركة فى هذا الموروث؟ أخشى أن أقول لا. وأنا أرى أن الرغبة بحد ذاتها فى أن يكون الإنسان واحداً من المهتمين بالجزيرة العربية، كفيلة وبعيدًا عن التلاعب بالكلام وألفاظه، وبتحقيق المطلوب؛ لكننى أرى أن زمان من سبقونا كان أوسع وأفسح من منطلق أن رؤية الجزيرة العربية، بحد ذاتها، كانت هى الهدف والمبتغى، هؤلاء الذين سبقونا كتبوا وألَّفوا كتبًا عن التجوال فى الجزيرة العربية، كما أن شبه جزيرة العرب حسَّنت نشر هؤلاء الكُتَّاب. (من هنا جاءت الكتب المقروءة عن الجزيرة العربية، مؤلفة كلها بالإنجليزية، باستثناء كتاب واحد؛ هذا يعنى أن اليهود "السويسريين" والإيرلنديين تضافرت جهودهم على مساعدة الإنجليز فى تأليف هذه الكتب. هناك أيضاً بعض الكتب الألمانية القيِّمة بالإضافة إلى كتاب هولندى واحد). صحراوات الجزيرة العربية هى التى صقلت وأقرت قلم شارلز دوتى هو وبالجريف، وكذلك بوركهاردت، وبلنتس، كما ساعدت هذه الصحراوات أيضًا رونكاير فى كتابه الذى ألفه عن الكويت، وساعدت أيضًا كلا من بيرتون هو وواقل فى كتابيهما اللذين اتخذا من الحج عنواناً لهما؛ كما ساعدت هذه الصحراوات أيضا بيرى فى كتابه عن النجوع والكفور اليمنية التى تضربها حرارة الشمس.

أما نحن الأضعف من أولئك الذين سبقونا، فلا نجرؤ على أن نكون من ضمن من اهتموا بالجزيرة العربية، من أجل عينيها- لا أحد منا يجرؤ على ذلك

باستثناء روتر Rutter ، الذى أثبت أنه صالح تماماً لذلك، ويا للعجب من كتابه الأصيل! وكل من هم عدا هذا الرجل لابد أن يلتمسوا الأعذار للأسفار والترحال. أحدهم يتعلل بمسألة خطوط العرض، وآخر يتعلل بأشياء سخيفة أخرى، وثالث يجمع النباتات والحشرات لا ليأكلها ولكن ليعود بها إلى الوطن، ورابع يشعل نار الحرب لتكون وقوداً فى نيوكاسل، هذا يعنى أننا نبدد ولاءاتنا وموالاتنا.

وكان حتمياً بطبيعة الحال أن تظهر هذه الشوائب. ومعروف أن البرَك عندما تنكمش لا يصيبها الركود. وهذا هو رالى Raleigh يُشَجِّع سلفيا ويشد أزرها عندما يقول: "الغش والخداع" نحن لا نعرف عن العالم الكثير، - لكن منذ عصرها أصبحت منطقة القطب الشمالى، الدائرة القطبية الشمالية، الأراضى اليباب فى كل من آسيا وأفريقيا، وغابات أمريكا، بدأ ذلك كله يكشف عن أسراره. وفى العام الماضى، كان بوسعى القول - لم يعد أمامنا ما لا نعرفه سوى شىء واحد، - وكان ذهنى منصرفاً إلى الربع الخالى البكر، تلك البقعة التى لم يكتب عنها أحد والتى تبلغ من الكبر حداً جعل واحداً من البشر يعود إليها مرتين أو ثلاث مرات، قبل أن ينبرى للتعبير أو الكتابة عنها. ومع ذلك، فإن هذه الفقرات القليلة التى أكتبها هنا هى التى تحول بين الشهية وحكاية غزو الربع الخالى أو قهره - لقد أصبحنا الآن على علم بالأرض كلها. ومبلغ علمى أن الشباب الجوَّال سيظل غير راضٍ إلى أن يهبط جيل مجنح على الكوكب التالى.

قلة قليلة من الرجال هم الذين يستطيعون إنهاء حقبة من الحقب، نحن لا نستطيع معرفة الرجل الأول الذى سار على الأرض المحرمة طلباً للبحث عن الجديد: **لكن توماس هو آخر هؤلاء الرجال؛ وقد قام برحلته بالطريقة العتيقة، على ظهور الإبل، وحيداً فى زمانه، ومتحملاً تكاليف رحلته. كان بوسع الرجل ركوب طائرة، وكان بوسعه أيضاً الجلوس فى سيارة أو ركوب دبابة من الدبابات- وعوضاً عن ذلك كله انتزع الرجل فى الساعة الثالثة والعشرين النصر وخلَّصنا من هواجسنا**. وبعد أن كان كل شىء يتم بطريقة شديدة البطء، أصبح بوسعنا التركيز على السرعة، ونحن نستطيع تكبير عين السلحفاة لتكون مثل عين الأرنب البرى وعين الطائر. كل الشكر والتقدير منا إلى توماس، وإلى الجمعية الجغرافية

الملكية لمنحها ميداليتها لهذا الرجل... فضلاً عن حصوله أيضاً على ميدالية ونوط ضابط الإمبراطورية البريطانية.

أنا لا أستطيع التعبير عن مدى حبى لهذا الكتاب، مخافة أن يروح جوناثان ينقِّب عن الجملة المقتضبة التى كُتبت على غلاف كتابه. لقد مَكَّننى توماس من قراءة المخطوطة، وها أنا أعلق تعليقاً مفيداً؛ وأرانى أبديت، ذات مرة، ملاحظة مفادها أن حدوتة الكتاب مناسبة تماماً لهذه الرحلة، ولم أعلق بالرفض على أى شىء يتعلق باستكشاف هذا الجزء من الجزيرة العربية. كل ما ورد فى هذا الكتاب يمكن قراءته بسهولة ويسر، والسبب فى ذلك أن هذا الرجل يتسوَّد كل فنون الصحراء. فى هذا الكتاب نجد توماس متدثراً بدثار رحًّال الجزيرة العربية. كانت لمسات هذا الرجل الدقيقة هى التى دفعتنى لا مرتين وإنما عشرين مرة إلى تذكر هذه الأرض الواسعة التى أحببتها حباً جماً، قبل عشرين عاماً، وتمنيت لو أن هذا الإحساس لا يستبد بى مرة ثانية. وعليه، أحسب أن ذلك كان هو السبب الذى دفعنى إلى كتابة هذا التمهيد عديم النفع؛ يضاف إلى ذلك أنى أتفهَّم تماماً مخاطر هذا الرجل. هذا الإنسان استطاع عن طريق اختيار الموسم المناسب، وبعد الحرص البالغ والإعداد الجيد، أن يقامر بحياته، معتمداً فى ذلك على التضامن الأمنى الذى تدين به الصحراء لابن سعود. وأنا أرى أن توماس حظيظ ويستحق الثناء والتقدير.

كرافتمان. ت. إى . شاو

(العقيد لورانس)

مقدمة المؤلف

الجزيرة العربية "السعيدة"! غريب أن يضفى هذا الوصف، أو هذه الكُنية "السعيدة"، شرفاً على جزء من سطح الأرض، كان الإنسان فيه، طوال القسم الأكبر من التاريخ، فى حرب مستمرة مع البنية من ناحية ومع جيرانه من الناحية الأخرى. ومع ذلك فليس هناك لبس ولا إبهام فى كلام الجغرافيين القدماء، الأصلاء. ونحن نجد عند كل من سترابو، بلنى، وبطليموس إن المصطلح الجزيرة العربية السعيدة "Arabia Felix" ينطبق على كل الجزء من شبه جزيرة العرب، الواقع جنوب الصحراء السورية (وهو ما يُطلق عليه: صحراء الجزيرة العربية) وعلى الجبال المنتشرة فى سيناء (أى الجزيرة العربية الأم). صحيح أن هذا المصطلح أو هذه الكنية لا تنسجم ولا تليق بقفار الربع الخالى المقززة والمنفرة، والتى تشكل قسمًا كبيرًا من الجزيرة العربية، ومع ذلك نجد أن الجزء الأوسط من القسم الجنوبى، الواقع على حدود المحيط الهندى، أرضٌ، كانت فى يوم من الأيام، فريدة فى حسنها وشهيرة بعراقتها، وإذا كان فى الجزيرة العربية منطقة أخرى تستحق وصفها "بالسعادة" غير اليمن الذى عرف القدماء أمجاده حق المعرفة، فإن هذه المنطقة هى تلك التى يُطْلَق عليها اسم مقاطعة ظُفار، التى هى بمثابة أرض عامرة بالمراعى والغابات الفاخرة التى تكسو الجبال المنحدرة التى تطل على البحر، والتى فيها مَجارٍ مائية دائمة ومروج خضراء عامرة بضوء الشمس، وفيها أيضًا مشاهد واسعة يراها الرائى من خلال الأشجار، وفيها أيضًا ممرات خضراء تسر الخاطر. فى هذه المنطقة، ونقلاً عمن قام بتدوين سِفْر الخروج، **حددها يهوه على أنها آخر العالم المعروف "وأنت ذاهب شرقاً إلى جبل سيفار (ظفار)"**؛ يضاف إلى ذلك أن المصريين القدماء جاءوا إلى هذا المكان طلبًا

للبَخُور الذى كانوا يستعملونه فى تحنيط جثامين الفراعنة المقدسين؛ ومن هذه المنطقة أيضًا، ربما تكون العُمُد (الأعمدة) المستعملة فى معبد سليمان (عليه السلام)، قد قُطعتْ من صخور هذا المكان، هذا إن لم تكن ظفار هى نفسها أوفير التى أتى العهد القديم على ذكرها؛ يزاد على ذلك أن هذه المنطقة هى السوق التقليدية للعاج وريش الطاووس.

لقد حاولت فى صفحات هذا الكتاب تدوين قصة الرحلة التى قمت بها مؤخراً إلى الربع الخالى، هى والأبحاث التى قمت بها فى مقاطعة جلفار الجميلة، مدخل أو بوابة الرحلة التى قمت بها، والتى أرى أنها هى الجزيرة العربية السعيدة فى أيامنا هذه.

الربع الخالى البكر، الصحراء الجنوبية الكبرى! مسألة بذل جهد جهيد فى الجزيرة العربية تعنى أنك لابد وحتمًا أن تكون قد خبرت سحرها وجاذبيتها، وأنا عندما غادرت إدارة شرق الأردن قبل ست سنوات، متوجهًا إلى بلاط مسقط وعُمان، كانت تراودنى بالفعل أحلام كثيرة؛ كنت أعلم أن وهاد الأرض النائية، هى ومنطقة القطب الشمالى، وكذلك قارة أنتاركتيكا، وأيضاً منابع نهر الأمازون، فضلاً عن الفراغات الداخلية الشاسعة فى كل من آسيا وأفريقيا، كل هذه الأماكن، الواحدة بعد الأخرى، راحت تُسْلِم أسرارها للفضول الإنسانى، وإنها لفرصة غريبة أن يبقى الربع الخالى بمثابة الأرض الأخيرة التى لم يعرف البشر أى شىء عنها إلى يومنا هذا، ولا تزال تثير دهشتنا وفضولنا وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارنا مسألة عراقة وقدم الجزيرة العربية المستقرة، التى تلامس مناطقها الحدودية الحضارتين الباكرتين المصرية القديمة والحضارة البابلية.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت الجزيرة العربية بمثابة الأرض المحظورة أو المحرمة، وعلى امتداد القرون استطاع عشرون من المستكشفين الأوروبيين أن يحققوا نجاحاً فى اختراقها وصولاً إلى قلبها الطارد. وهناك سببان يقفان وراء ذلك، أولهما: أن نقص المطر وحرارة صحراء الجزيرة العربية الشديدة لا تسمح سوى بوجود مجتمعات بدوية شبه همجية، هى فى حرب مستمرة، حتى فيما بينها وبين نفسها، الأمر الذى يجعل حياة مثل هذه المجتمعات غير آمنة ومعرضة للخطر، وثانى هذين السببين، أن دين هؤلاء البشر الذين يسكنون الصحراء، يكون

من حيث الممارسة متعصبًا ومتطرفًا وحصريًا، هؤلاء السكان يرون بين الحين والآخر، أن نشر الإسلام وفرضه بقوة السيف، هى فضيلة من الفضائل. فى الجزيرة العربية الأم، نجد أن كل من زاروها كانوا أفراداً؛ ولم يحدث سوى فى مرة واحدة فى تاريخ الجزيرة العربية كله، وكان ذلك فى زمان الرومان- الذين ظنوا أنها بلد وهمى غنى بالذهب - يوم أن أثارت الجزيرة العربية جشع الغزاة الأوروبيين، الأمر الذى أدى إلى ترك سكانها لحال سبيلهم، وقد أفضى ذلك بدوره إلى زيادة العزلة، والتعصب، والتشدد فى سلالة أصيلة. ومن هنا يمكن القول: إن مساحة تعادل مساحة نصف أوروبا بقيت بيضاء على خرائطنا.

انبهر رتشارد بيرتون بالجزيرة العربية، ولذلك عرض الرجل فى العام ١٨٥٢ خدماته على الجمعية الجغرافية الملكية، بهدف إماطة اللثام عما أسماه "إزالة العار الذى لحق بمسألة المغامرات الحديثة"، لكن الرجل استسلم فى نهاية المطاف للاعتراضات الرسمية، ولم يعاود مطلقاً فتح هذه المسألة مرة ثانية، تمتعت أنا بهذه المزايا. فقد تمكنت بفضل السنوات الثلاث عشرة التى أمضيتها بعد الحرب العالمية الأولى، فى مناصب سياسية فى ثلاثة جوانب من الجزيرة العربية، من اكتساب معرفة خاصة بى أنا شخصيًا، بلهجات القبائل، وبالأساليب العربية، الأمر الذى جعلنى أتأقلم مع هذه اللهجات والأساليب. وأنا بدورى كنت قد كرست نفسى منذ سنوات على حل مشكلتين مهمتين- أولهما البحث عن منفَذ يمكن أن يساعدنى على المرور إلى المنطقة الداخلية، وثانية هاتين المشكلتين هى مسألة الطريقة التى يمكن إتباعها فى تثقيف هذه القبائل. ونظرًا لأنى كنت وزيرًا فى مجلس وزراء الدولة العُمَانية، فقد أصبح اسمى معروفًا فى سائر أنحاء الجزء الجنوبى الشرقى من الجزيرة العربية؛ ونظراً لأنى كنت وزيرًا للسلطان ونظراً أيضاً للعلاقات الودية التى كانت بينى وبين الحاكم؛ فقد مكَّننى ذلك كله من أن أكون على اتصال شخصى مع كبار العرب المؤثرين فى هذا الجزء من الجزيرة العربية. من هنا كنت أحظى بموقف متسامح معى بشكل عام، رغم أنى كنت إنجليزيًا ومسيحيًا، ولولا هذا الموقف لما استطعت الابتعاد عن المسار المحدد.

ولما كنت أعرف عقلية السلطة، فقد تحاشيت الوقوع فى فخ طلب الموافقة على ما أقوم به. وهنا خطر على بالى السؤال التالى: ألم يكن رتشارد بيرتون قد

حاول ذلك من قبلى؟ ولعل القارئ يسمح لى هنا بالقول: أننى كنت متعاطفًا بشكل عام مع الموقف الرسمى البريطانى فى ذلك الوقت، والذى كان مبنياً على فرضية أن الفوضى العادية السائدة فى صحراء الجزيرة العربية، كانت معادية لعملية الاستكشاف. والمسئول الجيد، يتعين عليه تحاشى المسئولية، وألا يمانع فى مسألة أن المهمة الاستكشافية يجب أن تنطوى على تفويض ضمنى. وعليه رحت أتفكر فى خططى ومخططاتى فى الظلام، وإن شئت فقل: فى السر لا فى العلن؛ وعليه كانت رحلاتى وتجوالى ينبئ عنها اختفائى بين الحين والآخر، وكنت أنفق من مالى الخاص على هذه التجوالات والرحلات، وأنفذها أنا بنفسى وتحت رعايتى. وعلى امتداد خدمتى الرسمية فى مسقط، كنت أحرص دوماً على قضاء إجازاتى الصيفية هناك، حتى أتمكن من تحاشى مسألة إجازتى المحلية (التى كانت السلطة ترى أن أقضيها فى الهند هرباً من حرارة مسقط)، وأستغلها فى استكشاف الجزيرة العربية فى فصل الشتاء، لأنه هو الفصل الذى يمكن للإنسان فيه القيام بعملية من هذا القَبيل.

وبذلك أكون قد تمكنت شيئًا فشيئًا، من استكشاف الربع الخالى ورسم خريطة له - وعليه قمت فى العام ١٩٢٧ / ٢٨ برحلة على ظهر جمل، قطعت خلالها قرابة٦٠٠ ميل، تجولت خلالها فى الأراضى الحدودية الجنوبية، وقد بدأت هذه الرحلة من ذلك الجزء من الجزيرة العربية القريب من الهند، وانتهت فى ظفار؛ وفى العام ١٩٢٩ / ٣٠، قمت باستكشاف منطقة السهوب إلى مسافة ٢٠٠ ميل شمالى ظفار إلى أن وصلت إلى حافة الرمال. كنت فى هاتين المرتين أرتدى ثيابًا بدوية ولا أتكلم سوى اللهجة المحلية، وعشت حياتى كما لو كنت واحداً من هؤلاء البشر، وتحاشيت الدخان والكحول كيما أحظى بسمعة طيبة فى مسألة الالتزام، التى يمكن أن تساعدنى فى نهاية المطاف، فى مسألة عبورى الصحراء الكبرى من البحر إلى البحر.

هاتان الرحلتان أكدتا لى عدم صواب الانطباع العام الذى مفاده أن هذا الجزء من الجزيرة العربية، يمكن استكشافه على نحو أفضل باستعمال الوسائل الحديثة مثل السيارات والطائرات. كان هناك اقتراح يفيد أن طائرتنا المشئومة طراز ١٠١ يتعين عليها الطيران فوق هذه الصحراء المجهولة، فى رحلة العودة من

الهند. قبل ذلك بثلاث سنوات كان مليونير أمريكي قد فكر فى خطة مماثلة، واقترح استئجار منطاد ذى محرك، وطلب الرجل منى أن أكون عضوًا ضمن أعضاء هذا الاستكشاف.

وأنا لم أندم على فشل خطة هذا المليونير، لأنى تعلمت من خبرتى ومن تجاربى أن وسيلة النقل التى من هذا القَبيل، وعلى الرغم من جدواها فى زمانها ومكانها، لا يمكن أن ننتظر منها الحصول على نتائج علمية إيجابية. كانت المشكلات التى تنتظر الحلول متمثلة فى اكتشاف تضاريس منحدر الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية من ناحية، وصرف هذا المكان هو وتركيبه الجيولوجى بغية ملء الفراغات الكبيرة الموجودة على الخريطة، من الناحية الأخرى؛ فضلاً أيضًا عن استكشاف الحياة الحيوانية، والبشر الذين يسكنون هذا المكان، هم وقراباتهم وصلاتهم العرقية واللغوية، إضافة إلى سلوكياتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأسلوب حياتهم. هذه الأهداف لا يمكن، تحت أى ظرف من الظروف، دراسة أى منها دراسة مفيدة ودقيقة عن طريق المسح الجوى، هذا يعنى أننا لن نستطيع إضافة أى اسم إلى الخريطة، ناهيك عن عجزنا عن تأكيد ولو مجرد حقيقة واحدة من الحقائق الأنثروبولوجية، الحيوانية، أو الجيولوجية أو الحقائق المهمة.

يُزاد على ذلك، أن تعدى الماكينات الغربية على الصمت العذرى لهذا المكان ينطوى على شىء من الغلظة وانعدام الكياسة؛ ويجب عدم الخلط بين هذا الإحساس وبين هِزَّة الفرح بالمجهول، الذى تطوقه هنا حافة الطبق السماوى المقلوب؛ كما يجب أيضاً عدم الخلط بين هذا الإحساس وبين الحافز العقلى أو الذهنى الناجم عن الخطط عندما تكون فى طور التحقق البطىء المتأرجح. لكن كل هذه الأشياء لها وزنها وحساباتها. ومن خبر هذه الأمور، وتعلم فن الحديث مع رفاقه حول هذه المسائل على امتداد شهور متواصلة - وعلى الرغم من وقاحة عصابات الصحراء وجهلهم، وكذلك الإعجاب ببعض سماتهم الرجولية - يعلم علم اليقين أن ظهور الإبل، هى والمسيرات الطويلة هما اللذان يشكلان سحر الجزيرة العربية وجاذبيتها.

الجزيرة العربية

(قصيدة بقلم ولتر دى لامار)

بعيدة ظلال الجزيرة العربية،

حيث يركب الأمراء مطاياهم عند الظُّهْر،

وسط الوديان الخضراء والأحراش

تحت روح القمر؛

السماء دَكْناء إلى حد أن الأزهار ذات اللون الأرجوانى ترتفع فى الغابة

ومشرئبة يانعة على خلفية نجوم الطيف

وهى شاحبة فى سماوات الظَّهيرة

حلوة موسيقى الجزيرة العربية

فى قلبى، عندما أكون خارج الأحلام

ولازلت فى غلاف الفجر الرقيق

ألمح وأشاهد مجاريها المائية المنزلقة؛

أستمع إلى ناياتها الغريبة على الضفاف الخضراء

تدق بصوت عالٍ حزنًا وفرحًا

من موسيقييها أصحاب الشعور داكناء السواد شديدة النعومة

فى صمت الليل البهيم

تتملَّكنى- ناياتها وغاباتها؛

لا أرى على الأرض جمالاً غير هذا الجمال

لكن استظلالى بهذا الحلم يعيد إلى ذاكرتى حبى لها:

لاتزال الأعين تنظر إلىَّ ببرود،

أصوات باردة تهمس وتقوى -

"إنه مجنون بسحر الجزيرة العربية النائية،

لقد سَرَقَتْ منه عقله"

الفصل الأول

بداية تُبشر بالخير

كان الوقت مصادفاً لمنتصف ليل اليوم الرابع وصباح اليوم الخامس من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠ الميلادى، وكان النوم مخيمًا على مرفأ مسقط العربى الصغير. ولم يكن أحد من سكان هذا المكان مستيقظًا سوى شخص واحد فقط، أو بالأحرى هو ذلك الذى يشغل بينهم منصب الأمير سيد سعيد بن تيمور، الذى عُهِد به إلى والده السلطان أثناء غيابه، وكان يَطَّلع على انفراد على الأنشطة التى تجرى على الشاطئ.

وعلى الشاطئ كان هناك بادان (قارب تجديف محلى صغير) جرى سحبه ليكون قريباً ما أمكن إلى الشاطئ؛ وقام خادمى المخلص محمد بنقل صناديق سيده الغريبة، ومعها بندقيته وسُرُج الإبل إلى ذلك البادان، وإن شئت فقل القارب الصغير. هذا يعنى أنى شرعت فى تحقيق المطمح الذى كان يراودنى منذ زمن طويل، ألا وهو إماطة اللثام عن صحراء جنوب الجزيرة العربية غير المعروفة. وغدًا سيثير اختفائى دهشة كبيرة فى السوق، وسوف يخترع الخيال الشرقى الخصب شكوكاً متباينة يفسر بها ذلك الاختفاء.

كانت سفينة صاحبة الجلالة واقفة تتلألأ فى المياه العميقة، وكنت أنا قد اقتربت من هذه السفينة لآخذ أيقونة الحظ التى أهدانى إياها بمبرتون، رُبَّان هذه السفينة، الذى كان قد تناول عشاءه معى، وقال: إنه سيترك معى هذه الأيقونة وسيقوم بمراقبة ما يحدث بعد ذلك. ومن ثَمَّ استحلفت بحارتى البلوشيين، بالحفاظ على السرية مستقبلاً، ثم انطلقنا بعد ذلك إلى عُرض

البحر. كان القمر بدرًا ولذلك سمح لى ضوؤه بالتقدم مباشرة للحصول على الأيقونة- كانت تلك الأيقونة عبارة عن القصيدة التى ألَّفها ولتر دى لامار، بعنوان "الجزيرة العربية"- والأهم من ذلك، أنى تأكدت بنفسى من محتويات البرقية التى بين يدى وتقول:

"تصل الباخرة البريطانية جرينادير Grenadier عند الساعة السادسة صباح يوم الأحد، وستكون على بعد ثلاثة أميال من شاطئ مسقط - سيدى".

بدأت تلوح أمامنا الكتلة المعتمة لناقلة البترول التى تحمل عشرة آلاف طن من الزيت. وهنا عمل العلم الذى رحت أُلوِّح به، حسب المتفق عليه، عمله؛ وجرى على وجه السرعة نقلى إلى السفينة البريطانية جرينادير، التى كانت متجهة إلى الوطن، واستأنفت مسيرها مرة ثانية قبل دقات الجرس الأربع، وبذلك تكون هذه السفينة قد أخذتنى بعيدًا عن مسقط.

كنت قد خططت للنزول من السفينة فى ظفار، أى عند منتصف الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وذلك فى حال ما سمحت ظروف الطقس فى نهاية موسم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وإذا ما فشلت فى ذلك، يجرى إنزالى فى أول دهو عربى(*) يقابلنا. أدت الريح النشطة فى اليوم التالى إلى التقليل من سرعتنا بعض الشىء، وهنا بدأت تراودنى الشكوك حول مسألة وصولنا إلى صلالة فى ضوء النهار، ولم أستسغ مسألة بقائى طول الليل فى البحر، وعليه تركز تفكيرى على الدهو العربى، ولذلك قصدنا أول دهو يصادفنا. وعليه اتجه القارب الصغير المرافق للدهو، مقتربًا من السفينة مستجيباً للنداء الذى وجَّهناه إلى الدهو عن طريق آلة التنبيه فى السفينة؛ ارتديت أنا ومحمد خادمى زيًا عربياً، ونزلنا إلى القارب الصغير بواسطة سُلَّم القبطان. أدت صناديقى إلى تأرجح الحمولة، لكن القارب الصغير جاء موفياً بكل ما طلبنا وحملنا بسلام عبر التموجات إلى المكان الذى يرسو فيه الدهو.

(*) الدهو : مركب شراعية مألوفة فى جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. (المترجم).

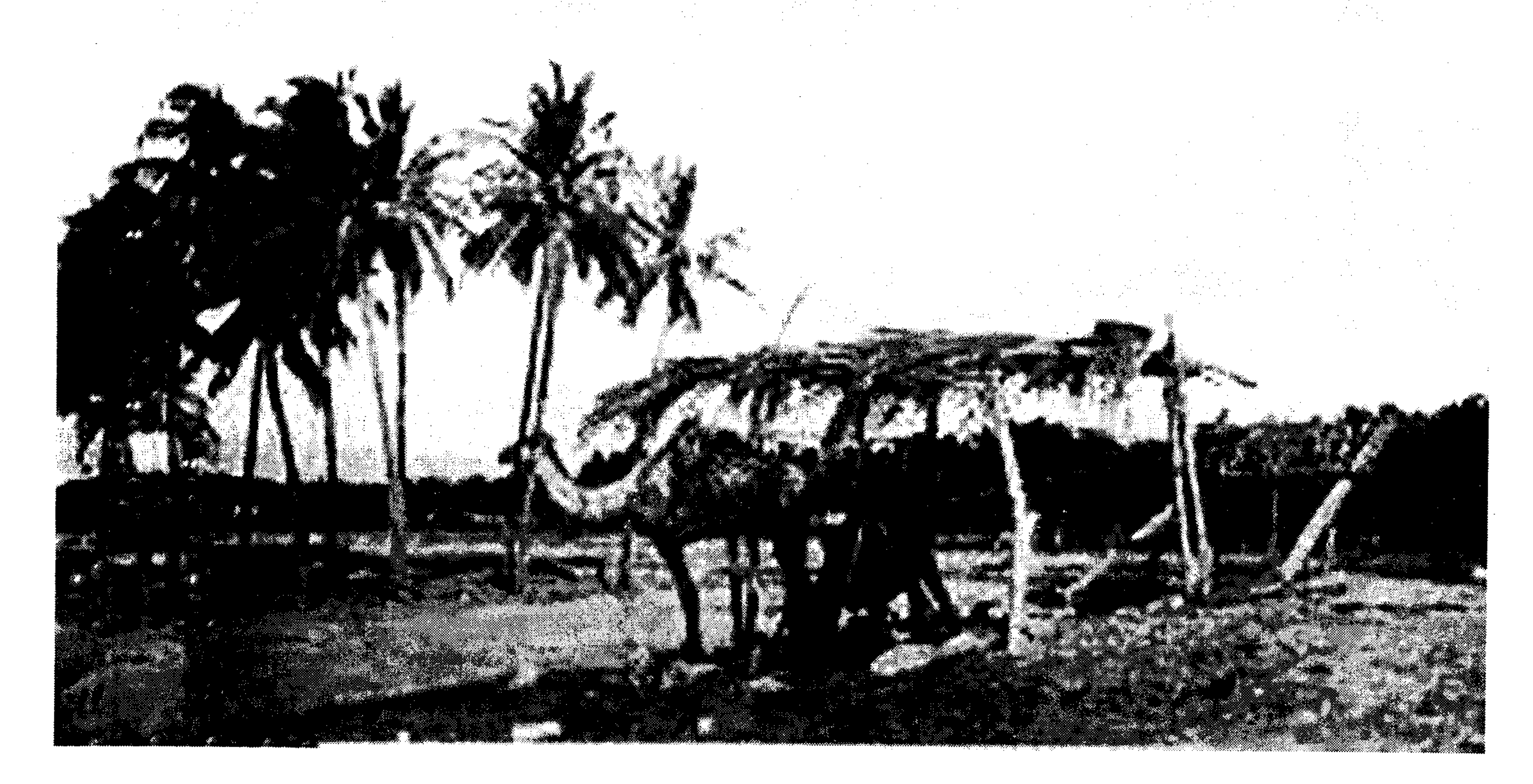
وهنا أطلقت السفينة جريناديرإشاراتها توديعًا لنا، وراحت بعد ذلك تمخر عُباب الماء لتختفى بعد ذلك بين الموج المتلاطم رمادى اللون الذى غربت الشمس عنده.

أومأ ريِّس الدهو العربى، الذى يحمل الاسم فتح السلام، برأسه علامة الموافقة عندما حدثته عن نزولى إلى البر؛ واقع الأمر، أن ريِّس الدهو، كانت له آراء ووجهات نظر مختلفة. هناك بروز أرضى على امتداد هذه الشواطئ المنحدرة انحداراً خفيفاً، يسفر عندما يكون الطقس معتدلاً عن أمواج عارمة تصطدم بالشاطئ. وعليه؛ فإن مركب صيد الحيتان، أو أية سفينة مبنية فى إنجلترا يمكن أن تنقلب وتتكسر بفعل هذه الأمواج العارمة، لكن البانوش المحلى (الأخشاب المخيطة) يستطيع المرور بسلام عبر هذه الأمواج، وذلك على الرغم من أنه، فى بعض اللحظات، يبدو كما لو كان منتصباً، الأمر الذى يخيف راكبه، لأنه يعلم أن البحر، عبارة عن غلاية متفاقمة فى المنطقة المحيطة بالبانوش، ولن يرحم من يقوم بالسباحة فى هذه المنطقة.

نظراً لحرصى على الكرونومترات(*)، أقنعت ريِّس الدهو بعد نقاش طويل، بالتوجه إلى رسيوت، ذلك الخليج المحمى الواقع أسفل الساحل. وبعد ساعتين من طى وخفض الشراع الرباعى، كان لا يزال يرفرف بعض الشىء، فى الوقت الذى كان فيه منظر القلعة البيضاء هى والمسجد وسط بيارة من نخيل جوز الهند ومن خلفهما جبال قارة زرقاء اللون، وهذا هو كل ما يمكن رؤيته من ظفار بواسطة القادم إليها عن طريق البحر، كل ذلك أوضح لنا أننا بدأنا التحرك البطىء بصــورة أو أخرى.

وهذا هو حوت لَعُوب راح يسلينا بتزجية الوقت - هذا الحوت عبارة عن وحش بطىء الحركة لونه أخضر أدكن، جاء وجعل نفسه موازيًا للدهو العربى الذى نحن على ظهره؛ كان الحوت فى وضعه هذا شبيهاً بالغواصة التى تراقب السفينة الأم، وكان يتباهى بنفسه على أنه لا يَصّغر كثيرًا عن فتح السلام (الدهو). بدا لى ذلك على بعد أقدام قليلة على الجانب الآخر ويروح يشق عباب الماء محدثا نخيرا قبل أن يغوص فى الماء بشدة مرة أخرى، مخلفاً وراءه رذاذًا قليلاً ومُحّدثاً فقاعات كثيرة، فى إشارة منه إلى غروبه عنا. لم يكن البحارة غير

(*) واحده كرونومتر: جهاز لضبط الوقت فى الملاحة البحرية والبرية. (المترجم).



بيارة جوز الهند فى ظفار : جملان غير مصنفين عند بئر الماء

معنيين بما يحدث. وبينما كانت عيناى مركزتين على الدَّنفى (القارب الصغير) الذى يسحبه الدهو، كان البحارة يواصلون طنينهم وضجيجهم التخويفى الصادر عن دقهم وطرقهم على صفائح الكيروسين الفارغة. وهمت الريح هى الأخرى إلى تخليصنا، ومع دخول وقت الظهيرة كنا قد أوشكنا على الرُّسُو فى خليج رسيوت(١)، الذى كنت أود النزول عنده إلى البر.

ركبنا الإبل بعد ذلك، واحتضنَّا الشاطئ إلى أن تجاوزنا أوقاد (أبكيد)، تلك القرية الصغيرة الموجودة فى السهل، وواصلنا مسيرنا من أُوقاد وعلى حافة بيارة نخيل جوز الهند لنصل إلى قلعة ظفار عند غروب شمس اليوم الثامن من شهر أكتوبر. هنا، فى قلعة ظفار، وأنا مُتْعبٌ تماماً بعد أربع وعشرين ساعة لم أذق النوم خلالها، تحتم علىَّ شغل أو احتلال غرفتى القديمة فى مكانها الآمن. لكن الليل لم يكن هينًا. كانت هناك فيالق من البعوض، وجحافل من الزنابير صفراء اللون؛ كانت تبنى لنفسها منزلاً فى العوارض الخشبية الموجودة فوقنا: كانت هناك حشرة أخرى، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، وشبيهة بذبابة الرمل، راحت تُقلقنى وهى تتغذى على دمى.

علمت صلالة بوجودى: لكن يجب ألا تعرف شيئًا عن خططى أو مخططاتى. هذا يعنى أن السرية كانت أمراً محتوماً. يزاد على ذلك أن الكشف عن هذه الخطط والمخططات يمكن أن يتسبب فى معاداتى، ويمكن أن يتسبب فى ذيوع ذلك الخبر فى الخارج، ومعروف أن الأخبار تنتشر فى الجزيرة العربية الأمية، بسرعة التلغراف، يزاد على ذلك أن هذه التراكمات غير المرخص بها يمكن أن تشرح صدر الصحيفة اللندنية المسائية.

---

(١) كان المغامرون البرتغاليون فى القرن السادس عشر، هم الأكثر قسوة وغلظة فى ذلك الزمان، فى آسيا، وقد ظن هؤلاء المغامرون أن رسيوت جديرة بُصلبانهم ودمائهم؛ ولا يزال موجوداً فى هذا المكان سلم مكون من بضع درجات وبعض التحصينات المهدمة، وشهود على وجود البرتغاليين من قبل فى هذا المكان. وفى يومنا هذا، تعد رسيوت القاعدة الوحيدة الممكنة لطائرات البحرية فى هذا المكان من الجزء الأوسط من ساحل الجزيرة العربية الجنوبى، وبخاصة فى شهور الصيف التى تهب فيها الرياح الموسمية.

تُرى، أين كان سهيل الرشيدى؟ إلى هنا ينتهى حديثنا عن الوعد الذى يقطعه البدوى على نفسه. وأنا بدورى كنت أعلِّق أشياء كثيرة على هذا العضو من أعضاء الرحلة الأخيرة ضمن قافلة العام الماضى، وكنت قد اتفقت معه فى السر على أنه يتعين عليه مقابلتى فى صلالة فى منتصف شهر ربيع الأول ومعه مجموعة من الإبل حتى يقوم بنقلى إلى الرمال العظيمة. وكان الرجل قد أقسم على أنه لن يحول بينه وبين المجىء سوى الموت. كانت تحرياتى غير المباشرة قد أكدت أن أهل ظفار لم يسمعوا عنه شيئًا من يوم أن سافر إلى قبيلته ومعه مائتا دولار وخنجر- وهذه ثروة كبيرة- كنت أعطيته إياها سراً فيما بينى وبينه. إذا كان هذا ووعدى إياه بالمزيد قد أدى إلى منعه من المجىء وفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه، فذلك يعنى إحباطاً لآمالى المرتقبة. وقبيلة الرشيد، التى ينتمى إليها سهيل، هى القبيلة الوحيدة من بين قبائل الرمال الجنوبية، التى يمكن الاعتماد عليها، وبدون مساعدتها لى تصبح مسألة عبورى حلمًا ضائعًا لا طائل من ورائه.

كانت أخبار الصحراء سيئة فى ظفار. إنها الحرب! كان الرشايدة والسَّعارين يتحاربان، وكان الرشايدة هم هدفى المبتغى، أما السَّعارين فكانوا عدوهم القوى اللدود فى شمال حضرموت - ثأر دموى قديم. هذا يعنى أن المناطق الداخلية كانت معرضة للغزو ولما هو أسوأ منه. وعلى ما يبدو فإن سهيل، على افتراض حسن نواياه، ربما يكون عجز عن تشكيل جماعة من إخوانه فى القبيلة بغية مساعدتى على المرور من بين الأعداء إلى الساحل. ويُحتمل أن تكون قبيلة سهيل مشتبكة فى عمليات هجومية فى حضرموت أو ربما تكون قد انسحبت إلى مكان آمن فى أعماق الرمال. كان ذلك هو مربط الفرس. هذا يعنى أن باب الرمال كان موصداً فى وجهى.

أُقفلت الأبواب فى وجهى، ولم يكن هناك مخرَج. كان رجلان من قبيلة الرشيد: معيوف وحويتيم، قد جاءا من ظفار لحصاد البخور، وأرسلت فى طلبهما، وعلى الرغم من أنهما لم يكن معهما إبل وبعيدان عن قبيلتهما، فلربما كانت لديهما أخبار عن ذلك السُّهَيّل. يزاد على ذلك، أن مسألة الحصول على ثقة البدوى، تعد أمراً صعباً ما دام لم يثق بك أنت، وقد يكون من الخطر علىَّ أن أمد يدى فى غير الوقت المناسب، ولذلك رحت أتجاذب معهما أطراف الحديث كل يوم

على امتداد بضعة أيام، إلى أن عرفت منهما أن قبيلة الرشيد قد تكون على مبعدة مسير شهر من الشمال إلى الغرب، وأن القبيلة لا تميل بالقطع إلى ترك أو مغادرة ذلك الملاذ الرملى.

وهذا يُحتِّم علىَّ، فى أفضل الأحوال، الترتيب لتشكيل أو تكوين قافلة مستقلة، إذا ما استطعت ذلك، بغية أن تنقلنى هذه القافلة إلى حفرة من حفر الماء الموجودة عند حافة الرمال (لم يكن هناك سوى ثلاث حفر فقط)، وثوقاً منى بقدرة الرشايدة وبرغبتهم فى المجىء إلىَّ ومواصلة الرحلة معى، لكن الخبرة المريحة التى اكتسبتها من رحلة العام السابق، كانت قد علمتنى حدود وقيود القوافل الجبلية من ناحية، وخوف الرجال على أنفسهم وإبلهم حتى فى حال عدم وجود حرب أو احتراب بين القبائل. حاول الحاكم المَنوب، الذى كاشفته بهذا الجزء فقط من مخطط، اللجوء إلى عملية المداهنة، لكن هذه الجبال لا تعرف شيئاً عن السلطة الملزمة، واستطعت أنا بدورى أن أعرف أن هناك عداءً خفيًا، يجعل مسألة سيرى فى الصحراء مع حلفاء من هذا القبيل، يعد ضرباً من الخَرَق والجنون. وهنا خطر على بالى أن خططى الطموحة التى وضعتها بعناية، وحافظت على سريتها فى العام الماضى، ربما تكون قد باءت تماماً بالفشل.

هل من الأمن والسلامة، أن أفضى بسرى إلى هذين الرشيديين وأثق بهما؟ كان الأمل الوحيد أمامى هو الإيحاء إلى هذين الرجلين بأنى أثق بهما، وأكسب ولاءهما، عن طريق إعطائهما الحافز الصحيح، بأن أخاطر وأعطيهما رسالة إلى شيخ قبيلتهما، وأحفِّز شيخ القبيلة بنفسه على نقل قبيلته معه، وهنا وجدتنى فى لحظة من لحظات اتخاذ القرارات الجريئة الشجاعة، عرضت على هذين الرجلين خططى بعد أن حلفا اليمين؛ وقلت لهما: إن هذه الخطط يجب ألا يعلم بها أى أحد غير الشيخ نفسه. ولوحت لهما أنه ستكون هناك مكافآت سخية - وتحالفنا وتعاهدنا فيما بيننا. وسوف يقومان بما تعاهدنا عليه. وقالا: إن الله، عندما يخلصهما من السَّعارين وينجيهما منهم، فسوف يروحان يفتشان الرمال، وإذا ما عثرا على الرشايدة، فهما يعرفان المهمة المطلوبة منهما، وأن المكافأة ستكون على قدر النتائج.

شاعت الروح البدوية الحقيقية فى الملاحظات التى أبدياها وهما يفارقاننا، ومن خلال هذه الملاحظات عرفنا المعدن الحقيقى لهذين الرجلين.

قلت منادياً: "عفوًا يا خويتيم، ليس لديك بندقية. خذ هذه البندقية. إنها مجرد هدية صغيرة أعطيك إياها".

ورد علىَّ خويتيم وهو يتناول البندقية ويفحصها فحصاً دقيقاً، "أقول: ألَن تعطينى معها بعضًا من الذخيرة" هل هذا هو جحود البدو، أم عفويته؟ البدوى يعزو ما يصيبه من وفرة أو نعمة إلى الله !.

تأخر رحيل الرجلين إلى ما بعد صلاة الظهر فى المسجد. أما أنا، فقد كنت اقترحت عليهما أن يرحلا على الفور، نظرًا لإحساسى بأن الوقت كان قصيراً ولا يحتمل التعطيل. لكنهما رفضا هذا الاقتراح.

رد علىَّ خويتيم متسائلاً: "ألسنا مسلمين".

انصرف الرجلان سيرًا على الأقدام، قاصدين الجبال، حيث استطاعا الاتفاق سراً مع زميل سفر قديم كانا يعرفانه، ويدعى سليم التمتيم، على أن يزودهما بأحسن ما لديه من إبل الركوب، وعليه ودون أن يعلم أحد بذلك، اختفى الرجلان فى الصحراء التى ضربها الجفاف.

لم يعرف هذان الرجلان موعد عودتهما. قد يكون ذلك فى غضون ثلاثين أو أربعين يوماً، وربما لا يعودان على الإطلاق.

إذا ما استطاعا العودة من الرمال ومعهما مجموعة من الرجال فهذا خير وبركة؛ وإذا لم يعودا، فلابد لى من التسليم بالفشل.

كنت أعلق على هذا الخيط الرفيع الأمل المرتقب فى بداية القيام بالرحلة التى كانت تراودنى منذ زمن بعيد.

كان لابد من الرضى بالأمر الواقع، والانتظار أسابيع طويلة اعتماداً على آمال واهية.

الفصل الثانى

فى ظُفَار: الفوضى، الخيانة، وكرم الضيافة

كان شاطئ البحر أسفل نافذتى فى القلعة، والذى تنتشر عليه أشجار جوز الهند، ينحدر ناحية البحر. وكان فى المرسَى دهو، وإن شئت فقل ذلك المركب الشراعى المألوف فى جنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، قد وصل لتوِّه قادمًا من البصرة وعليه حمل من تمور هذا الموسم، يُلوِّح بأعلامه القماشية الملونة من ناحية وإطلاق الدانات من مدفعه الهاون، مدللاً بذلك على أنه ليس غريبًا على ظُفار.

تمتد مديرية ظفار على شاطئ البحر فى هذه المنطقة من حضرموت إلى ضَرْبات على. وهذه المديرية مكونة من كتلة يصل ارتفاعها قرابة ٣٠٠٠ قدم تهبط هبوطاً متدرجاً نحو البحر فى الناحيتين: الشرقية والغربية، ثم يتراجع هذا الانحدار فى الوسط مطوقًا السهل البحرى هلالى الشكل فى جوربيب وظفار، طبقاً للمعايير العربية، وهى تعد واحدة من المديريات الحظيظة بالعناية الإلهية. وهى مدينة لذلك المناخ الفريد، العامر بالرياح الموسمية الجنوبية الغربية الهندية، التى تشكل هنا مطلبًا أوليًا وضروريًا، لأنها ينتج عنها تساقط زخات المطر على هذه الجبال فى فصل الصيف، الأمر الذى يجعل هذه المديرية أو الإقليم يفيض حليباً وعسلاً. وفوق هذا الانقسام الجبلى مباشرة توجد وتزدهر بيارات البخور فى الجزيرة العربية. هذا المنتج الثمين إذا ما أرسل إلى معابد الهند يعود على ظفار[١] بالأرز، والقماش، والبن، والتوابل التى تذهب إلى أصحاب بيارات البخور

---

(١) الكلمة ظفار، نفسها لها أيضا بعض التطبيقات المحدودة، وهى فى بعض الأحيان تمثل عاصمة المديرية فقط، أى مجموعة من ثلاث قرى هى: صلالة، حافة، والحُسن، وهذه تتفق بصورة أو أخرى مع عادة بدو الرمال عندما يطلقون اسم الحسا (الإحساء) على الهفوف، وعندما يطلقون اسم الدوحة على قطر.

(العود)، ويعد هذا المنتج، من قديم الأزل، سببًا من أسباب رواج ظفار وازدهارها؛ وهنا يجب عدم الخلط بين ظفار هذه، وظفار الآربه الموجودة على مقربة من مدينة صنعاء فى اليمن، وبذلك نكون قد تحاشينا الخلط الذى وقع فيه الرحالة أبو الفدا. القبيلتان المستقرتان من قبائل هذه المديرية هما: قبيلة قارة فى الجبال، والتى تعيش على تربية قطعان الأغنام والماشية من ناحية وعلى عائدات البخور من الناحية الأخرى؛ أما القبيلة الثانية فهى قبيلة الكثير أو الكثارين، التى تعيش من عملية صيد الأسماك، والزراعة وعلى التجارة من القرى إلى السهل. وفى شهور المطر الصيفى وعندما تكون البحار عاصفة على نحو يصعب معه استعمال الأطواف المحلية، تحدث هجرة عامة[1] من السهول إلى الجبال، حيث تكون بيارات البخور بحاجة إلى الحصَّادين من ناحية، والحليب وفيرًا من الناحية الأخرى.

ماء الأبيار وفير فى هذه المنطقة وعادة ما يكون على عمق قامة أو ستة أقدام حول القرى، ولولا يد القبيلة العاصية التى تصيب كل ما تمتد إليه بالشلل، لكانت الأبيار الارتوازية قد حوَّلت السهل بكامله إلى أرض زاهرة. وتُستعمل مياه الأبيار الموجودة تحت بيارات نخيل جوز الهند، والتى يقوم على استخراجها العبيد، والثيران أو الإبل لاستعمالها فى رى حقول العلف، قصب السكر، ونباتات الحَمَل وهى من النباتات الضارة، والقمح والسرغم، القطن ونبات النيلة. ويدفع المزارعون للحكومة $\frac{١}{١٦}$ من قيمة هذه المحاصيل وإذا لم يتيسَّر الحصول على هذه المحاصيل، فإن بيت المال أو خزانة الدولة تتقاضى قيمة إسمية مقدارها ٥ فى المائة فقط، على اعتبار أن ذلك هو حصة خزانة الدولة من إنتاج الجبال. وفى هذه المنطقة نجد أن السائد هو "القاعدة الذهبية القديمة" الخُطة البسيطة، التى مفادها أن من لديه القوة هو الذى يجب أن يأخذ، وأن القادر هو الذى يتعين عليه الاحتفاظ بما لديه، وإذا كانت سلطة السلطان مفروضة على الساحل بكامله، فإن هذه السلطة فى الجبال متباينة وتدور من حولها الشكوك.

---

(١) هذه الحركة لها شبيه أو موازٍ فى حركتين أخريين للإنسان فى جنوب شرق الجزيرة العربية – أى الهجرة إلى البساتين لجمع محصول التمر فى عمان، والهجرة الثانية إلى ساحل المهادنة حيث توجد مصايد اللؤلؤ فى فصل الصيف.

ظفار من الناحية العرفية ومن الناحية الجغرافية تعد أرضًا مسدودة المسالك. والموروث القبلى فى هذه المديرية موروث عامر بالفوضى - وهو عبارة عن صراع مُهْلك طويل الأزل، يتحول فى بعض الأحيان إلى حكم مشتت لفترات قصيرة. ولا نجد للتاريخ المُدوَّن أثراً بين المواطنين، وذلك على الرغم من مُقاساتى الأمَرَّين وأنا أحاول استقصاء ذلك من بعض المواطنين المتعلمين. لكن الأمية هى الشكل الأعم هنا، وليس هناك من يستطيع أن يروى تاريخ ظفار بطريقة مترابطة، سوى القاضى العجوز وحده، وحتى عندما يفعل هو ذلك، تكون روايته مفككة وغير مترابطة. والبشر فى هذه المنطقة، وهم عبارة عن قبائل متحاربة ومتنافسة، يرون أن القانون والنظام أمران شاقان وثقيلان عليهم. هذا يعنىَ أن هؤلاء البشر يحبون الحرية الشخصية غير المُقَيَّدة أكثر من حبهم للحياة نفسها، وأكثر أيضاً من حبهم للعظمة فى حروبهم الوراثية الأزلية. يضاف إلى ذلك أن مسألة قبولهم للسلطة الغريبة عليهم فى الماضى، كانت تجرى باستعمال القوة لإجبارهم على الانصياع لهذه السلطة، وكانوا أيضاً يرضخون لمثل هذه السلطة بعد فترات الإجهاد واستنفاد القوى، وذلك من باب أن الدروس المستفادة من جيل من الأجيال يجب أن يتعلمها الجيل الذى يأتى بعده، هذا يعنى أن الأُسَر الملكية لم تستطع أى منها تحصين نفسها.

معالم ظفار التاريخية قليلة. وتبدأ هذه المعالم بحكم محمد بن أحمد المِنْجَوى، فى فترة ما بعد دخول الإسلام إلى هذه المنطقة، والذى تقع أنقاض عاصمته على بحيرة خـــور الرورى[١].

والاسم مِنْجوى، قديم، وكثير التردد على ألسنة الناس هنا، أكثر من أى اسم آخر، هذا بالإضافة إلى أن الناس هنا يعزون كل الأنقاض القديمة إلى ذلك الاسم "مِنْجوى".

---

(١) تحتل الأنقاض الموجودة حول خور الرورى - هى حسن مرحاض ومدخل الكلتان (خاتيه) - الموقع المحتمل لقلعة موسكا البربلوسي وإن شئت فقل (أبسابولس البطلمية على حد ما ذكر عند بنت Bent). الجغرافيون العرب يرون أن مرباط هى موقع المرفأ البحرى القديم وعاصمة ظفار، والتى استمرت إلى القرن العاشر الميلادى. ومرباط الحديثة تقع على بعد قرابة عشرين ميلاً فى اتجاه الشرق، من مرباط التى كانت فى هذا المكان. ومرباط من لغة قبيلة الشهارين معناها السِّيك Sik، ويبدو أنها تحتفظ بخصائص الاسم القديم موسكا.

جاء فى العام ١٢٧٩ الميلادى ساليم بن إدريس الحبيضى بعد محمد بن أحمد المنجوى، جاء الرجل إلى ظفار بفعل الجفاف الذى ضرب موطنه حضرموت؛ وكان فى بداية الأمر طامعاً فى مُلك غيره ثم قام بعد ذلك بغزو ظفار والاستيلاء عليها، وفى القرن السادس عشر جاء سيف الإسلام الغسَّان، وهو وريث صغانى، اتخذ من قلعة باليد قصراً له، والذى يعد فى أيامنا هذه أكبر الأنقاض الموجودة فى سهل ظُفار. ويجئ الكثيرى سيد الأرض لينهى مائة عام من الفوضى القبلية، ويجىء بعد الكثيرى عصر لا يحمل اسماً، ويستمر على امتداد القرن الثامن عشر بكامله. ويقوم بعد ذلك سيد مستقل، من نسل النبى (ﷺ) برفع لوائه وبيرقه فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ويستمر حكمه طيلة خمسة وعشرين عاماً إلى أن قامت قبيلة القارة وإن شئت فقل القراوين، باغتياله، وبعد ذلك بخمسين عاماً، أى فى قرابة العام ١٨٨٠ الميلادى، تغير المشهد بفضل رجل يدعى فضل بن عَلَيُّوِى الحضرمى، الذى راح يطالب بأخذ السلطة من الحكومة العثمانية، لكن الرجل لم يتمكن من تعزيز نفسه وقوته ولذلك جرى طرده من البلاد.

وهنا تحول أهل ظُفار ناحية البيت الحاكم فى مسقط مطالبين إياه بالاستيلاء على بلادهم. وعلى الرغم من أن ذلك لم يتجاوز الخمسين عاماً بكثير، فإن النفوذ السعيدى، وصل وذاع إلى أن أصبح بالشكل الذى هو عليه الآن، وإذا كانت السلطة تمارَس بسهولة ويسر فى سائر أنحاء السلطنة، فإن السلطة فى ظفار يقبلها أهلها ويرحبون بها عن رضا وطيب خاطر. ومع ذلك فإن هذا الرضا وطيب الخاطر ناتجان عن قرابة الدم. وقصة هذا الرضا وطيب الخاطر تستحق السرد هنا، لا من قَبيل السرد التاريخى التأهيلى، وإنما لإلقاء الضوء على سيكولوجية الحكام القبليين والمحكومين القبليين أيضاً فى هذه المواضع النائية من الجزيرة العربية.

كان سيد تركى بن سعيد، جد السلطان الحالى، حاكماً على مسقط عندما تحول إليه أهل ظفار طلباً للحماية. فى ذلك الوقت كان لدى تركى عبد، يدعى سليمان بن سويلم، وكان ذلك العبد محل ثقة تركى الكاملة؛ ولذلك أعتقه ورفعه إلى منصب المستشار، وجعله قائدًا عامًا لقواته. ولم يكن ذلك ببعيد على أو مستحيل على مصير أى عبد من العبيد فى الجزيرة العربية. كان سليمان

صاحب نفوذ كبير بين القبائل العمانية بسبب خصاله وسماته الشخصية. كما كان من النوع الجرىء الذى لا يعرف الخوف، حازمًا وقويًا. وإذا ما دعا الداعى، وبدأ استخفاف الظفاريين بالقانون، يصبح سليمان هو الرجل الجديد بإعادة ترسيخ نفوذ مسقط من جديد، مع شىء من الدعم القليل من جانب مسقط لهذا السليمان. وعليه، جاء سليمان بمثابة الرجل الذى أوفده السلطان إلى ظُفار ليكون أول والٍ عليها (أو حاكمها المَنُوب).

قال الراوى الذى يرافقنى، متسائلاً: ألم يَعْتَدِ الحاكم على مخاطبة ومناداة عبده بقوله أبانا (والدنا)؟. هذا الراوى جندى على المعاش، جاء إلى ظفار منذ زمن بعيد، بصحبة جيش الاحتلال الرئيس، وبقى فى ظفار منذ ذلك التاريخ. اسم هذا الراوى هو عبود بن عيسى، وهو نجدى، ومحارب قديم جيد، له عينان عسليتان، وصاحب لغد كبير، وأذنان كبيرتان تفيدان أنه ليس من أهل جنوب الجزيرة. وعبود هذا، شأنه شأن الكثيرين من أمثاله، يعرفه العمانيون على أنه من أهل الغرب؛ وقد هجر الرجل موطنه عندما كان صبياً صغيراً وجاء للعمل فى جيش حاكم مسقط، بسبب افتتانه بالأجر الذى كان يتقاضاه - والذى كان يقدر بثلاثة دولارات لكل بدوى من بدو الجزء الداخلى من الجزيرة العربية، ويُعَدُّ مكافأة مجزية. كان ذلك الجيش المكون من المرتزقة، بمثابة العمود الفقرى فى قوة حاكم بلده عامر بالمتنافسين على العرش؛ لم يكن عبود من سلالة تجيد الحرب والقتال فقط، وإنما كان موالياً ولاءً شديداً نظراً لعدم تأثره بالولاءات المحلية.

جاء بصبحة الوالى سليمان ثمانية عشر من هؤلاء النجديين، لاحتلال ظُفار. كانت تلك قوة صغيرة، لكنها مكّنت من إحداث البداية، وقبل وصول الحامية العُمانية المكونة من مائة عسكرى، كان سليمان قد شرع فى بناء سجن على شكل قلعة فى صلالة، وعلى الطريقة العمانية، واستخدم لذلك أيدى عاملة من بين العبيد ومن بين الضعاف[1].

---

(١) ضعاف، ظفار فيها منظومة طبقية تقل عن طبقة النبلاء المكونة من رجال القبائل، وعليه نجد أن هناك طبقة يطلقون عليها اسم البهرة، وطبقة أخرى يطلقون عليها اسم الضعاف فضلاً عن طبقة العبيد. الضعاف (تساوى الكمة الإنجليزية weak من الناحية الحرفية) على الرغم من اتفاق هذه التسمية مع "مياسرة" عُمان وهم أعلى درجة من البهرة، من منطلق أن نساءَهم لا يظهرن للملأ. يضاف إلى ذلك أن البهرة والعبيد هم الذين يقومون بعملية الصيد.

لكن حيوية الأعمال التى كان الرجل يقوم بها، هى وتحصيل الضرائب الذى أُسند إليه، لم تحظ برضاء القبائل، وسرعان ما تعالت همهمات وغمغمات الاستياء التى جاءت من قبيلة القراوين. لو كان سليمان واحداً من خائرى العزم لخاف وأصابه الرعب جراء هذه الهمهمات والغمغمات. لم ينحرف سليمان عن الخط الذى سار فيه ولو قيد أنْملة؛ وكانت أعماله لا تعرف أى شكل من أشكال الاعتدال، لأنه كان يتصرف بطريقة عرفية مستبدة. وهنا وجد سليمان نفسه وجهًا لوجه أمام التحدى. فقد جرى نصب كمين لواحد من جنوده فى حمران وأسفر ذلك عن مقتل ذلك الجندى، كان ذلك الكمين عبارة عن شَرَك جرى وضعه لهذا الجندى على الماء. لكن سليمان لم يجرؤ على وضع فنخور، شيخ قوى لفخذ من قبيلة القراوين، فى السجن والذى تورط فخذه فى مقتل الجندى، على الرغم من أنه كان مجبراً على تحمل هذه الإهانة. ودارت معركة فى طاقة، جرى خلالها قيام عناصر من قبيلة الكثارين، بمساندة العسكريين الحكوميين، لكن هذه المعركة لم تسفر عن أية خسائر فى الجانبين - وهذا الأمر ليس بغريب على أمور العمليات الحربية العربية التى يجرى خلالها تبادل إطلاق النار من مسافات بعيدة. لكن هذه المعركة أسفرت عن إحساس بالارتياح، الأمر الذى جعل الجانبين ينخرطان فى عملية سلمية مشرِّفة لكل منهما. كان المكان لصالح سليمان، ومع أداء يمين الطاعة والولاء قدمت قبيلة القراوين هدية عبارة عن مائة رأس من الماشية.

وفى ظل عدم وجود القوة اللازمة التى تجعله يحكم حكمًا عادلاً، واصل سليمان اللجوء إلى الأساليب الإرهابية التى كانت تناسب شخصيته على نحو أفضل، ولم يمضِ وقت طويل على لجوء قبيلة القراوين مرة ثانية إلى مسار الحرب. وبعد أن اجترأ أحد رجال القبائل على الغزو (يعد الخوف من الغزو القادم من الجبال هاجساً يومياً يراود سكان السهل بصفة يومية إلى يومنا هذا)، وهنا قام سليمان بفرض عقاب مشهود على ذلك الرجل. لم يكن ذلك العقاب متوافقاً مع الذهنية القبلية، التى استشاطت غيظاً وتأججت، الأمر الذى لم يكسر حدته سوى القيام بمحاصرة الجبال(١) -

(١) اقتصر الحصار فقط على نقل السردين، والسِّر وراء نجاح هذا السلاح يكمن فى الحقيقة التى مفادها أن ثروة الجبال تعتمد على الماشية بشكل أساسى، وفى بعض مواسم الجفاف أثناء العام، هنا فى ظفار، كما هو الحال فى عُمان يصبح السردين هو العلف الأساسى للماشية.

تلك الخطوة الجسورة الجريئة التى جعلت قبيلة القراوين تركع خاضعة.

فاض كأس الغضب القبلى من سليمان، لكن الكأس لم تطفح إلا بعد أن قام سليمان بإجازة إلى عُمان، ومعه كل الأسباب التى تجعله راضيًا تمامًا عن الإنجازات التى قام بها طوال سنوات ثلاث، ونصَّب سليمان ولديه علىّ ومسعد ليحلا محله فى حكم هذه البلاد، وهنا وجد آل كثير الذين استطاع سليمان بفضل مساندتهم له، التعامل مع منافسيهم القدامى من قبيلة القراوين، إن الفرصة قد سنحت لهم أثناء غياب سليمان، وبخاصة أن مخازن القلعة كانت عامرة بخراج العشور والرسوم الجمركية الأخرى- الزبد، الأرز، والتمر. وهنا تحركت فى آل كثير مؤامرة، افتعلت فيها جماعة من الكثارين تقديم التماس ضد جماعة أخرى من القبيلة نفسها، وأثناء نظر القضية جرى استدعاء المزيد من الشهود إلى أن امتلأت المدينة بجيش كبير من الكثارين وهذا هو ما حدث بالفعل. لو جاء الكثيريون بغير هذه الطريقة لآثار مجيئهم الشك فى نفس ولدَىْ سليمان. والذى حدث هو أن القوات الحكومية كانت مبعثرة فى مهامها اليومية فى سائر أنحاء السهل. فى ذلك الصباح، شأنه شأن الصباحات الأخرى، كان الحاكمان الشابان جالسين عند بوابة القلعة فى جلسة الاستقبال الصباحى. وكانت فناجيل القهوة توزع على جميع الحاضرين من رجال قبيلة الكثارين. وجاءت اللحظة المناسبة. خيانة قصوى!

وبناء على إشارة صدرت عن زعيم البدو قفز البدو وراحوا يهاجمون مضيفيهم، وهم يحملون سيوفهم فى أيديهم. وجرى اغتيال ولدَى سليمان: على ومسعد ومعهما جنودهما، وقُتِّلوا تقتيلاً بلا رحمة أو هوادة، واندفع البدو إلى المخازن ونهبوا ما فيها وقاموا بعد ذلك بهدم القلعة الحكومية الجديدة.

ولم يتبقَّ من حكومة مسقط فى ظفار سوى شخص واحد يدعى بخيت بن نوبى، ومعه أربعون جندياً كانوا قد هربوا جميعاً إلى مرباط وطلبوا من بعض رجال قبيلة القراوين حمايتهم بوصفهم أصدقاء لهم. كان بخيت عبدًا زُنجيًا، وكان هو الآخر شخصية. كان بخيت عبداً لسليمان وذلك لأن العبد يمكن له أن يتملَّك عبداً آخر أو ممتلكات، على الرغم من أنه لا يكون له توريث أو الوصية،

لأن العبد عندما يُتوفّى تئول كل ممتلكاته ومتعلقاته إلى سيده. وكان يتعين مرور أربعة أشهر، قبل أن تصل أنباء ما حدث إلى مسقط، نظراً لأن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية قطعت الاتصال مع عُمان، وعندها يمكن إرسال التعزيزات. وآلَى بخيت على نفسه التصرف لوحده، ولابد أن أعمال بخيت كانت تتسم بالحكمة والشجاعة، والسبب فى ذلك أنه مع مرور الأيام واقتراب ساعة الانتقام، استطاع بخيت إقناع المتمردين أن مساندتهم له هى أأمن من الطرق التى يمكن أن تؤدى إلى سلامتهم ونجاتهم.

كانت الأحداث قد حتمت بقاء سليمان فى عُمان، إلى حد أنه عندما جاء بعد ذلك إلى ظفار، كان فى زيارة قصيرة لمناقشة الترتيبات المستقبلية. قام أحد رجال الحرب البريطانيين بجلب سفير من سفراء السلطان، وتقرر معاقبة القبائل المخطئة، وتحقير مشايخ هذه القبائل وإهانتهم ؛ كانت مسألة رد الحق إلى صاحبه الأصلى قد فات أوانها اللهم باستثناء مدخل القلعة القديمة، الذى أُعيد ليزين القلعة الحكومية الأكبر والأقوى التى تقرر بناؤها فى موقع القلعة السابقة التى جرى هدمها بواسطة الكثارين؛ ولايزال هذا المدخل موجودًا إلى يومنا هذا. وجرى تنصيب بخيت حاكمًا على ظفار. وكان سيده القديم سليمان (الذى جرى اغتياله بيدَىْ واحد من القتلة الموجودين فى عُمان، بعد ذلك بفترة قصيرة) قد ترك معه الرسالة التالية: "إذا سمعت بأن بيت كثير اختاروا شيخاً من بينهم وأن الشيخ قد بقى على قيد الحياة، فسوف أقطع رأسك أنت". لم يخيب بخيت ظن سيده. وطوال حكم بخيت الذى استمر سبع سنوات كان رؤساء العصابات العشرة، الذين كانوا سببًا فى القلاقل والمتاعب، قد جرى الإجهاز عليهم والتخلص منهم بأيدى عبيد أُرسلوا لتحقيق هذا المهمة بصفة خاصة، صحيح أن هؤلاء المشايخ، قد مُنحوا عفوًا عامًا عن طريق مبعوث من مسقط، لكن هذا العفو لم يؤثر على ضمير أى منهم، والسبب فى ذلك أن الخيانة عندما تصبح عادة من عادات الذهن والعقل، فإن الضروريات المشدَّدة هى التى تحرك البشر، وعندها تغيب مبادئ الأخلاق.

تعد الفوضى وعدم الاستقرار الملمح الرئيس لأى نظام من أنظمة الحكم القبلية فى الجزيرة العربية. وهذه الفوضى وعدم الاستقرار شىء متأصل فى

العبقرية العربية، وهى تنبع من الدور الراجح الذى تلعبه الشخصيات من ناحية، وعدم الأهمية النسبية للآلة الحكومية من ناحية أخرى. وحيثما كانت الشخصية القوية من الحكومة أو ميَّالة إلى الحكومة فإن الأمور ستكون على ما يرام. وعليه، عندما استُبدل حكم بخيت بحكم عبد الله بن سليمان، ذلك الرجل ضعيف الشخصية، تدهور نفوذ الحكومة وتوقفت القبائل عن دفع الرسوم القانونية. وراحت القبائل تحتقر الوالى الجديد بسبب ضعفه وعلى نحو أكثر من إعجابها به بسبب إحسانه، إلا أن الرجل عندما توفى لم يحزن عليه أحد من الرجال الأجواد، كما خلَّف وراءه - التركة العجيبة الحالية - لمن جاء بعده الذى أَحُلُّ أنا ضيفاً عليه فى الوقت الحالى، مهمة إعادة تأسيس السلطة بعد أن أصابها الوهن الشديد.

بينما كنت واقفًا عند تلك الحصون القديمة أستعيد مشاهدها فى خيالى، جاءوا إلىَّ من الإسطبلات الملكية بالخيول التى ستنقلنى إلى المدخل الموجود فى الأسفل - وهذه الخيول هى الفريدة فى نوعها فى إطار الأميال الثلاثمائة التى تحيط بنا فى هذه المنطقة. هذه الخيول جرى انتقاؤها من بين اثنى عشر حصاناً تقريباً كان السلطان يجلبها من حين لآخر، نظراً لارتباطه الشديد بظفار، وصيد غزالها والتصقر فى جبالها؛ وطوال مدة خدمتى وجدت هذا الرجل يمضى فترة الصيف أكثر من مرة فى هذا المكان.

وأنا اليوم أركب دابتى متجهًا وقاصدًا صلالة لزيارة سعد بن عبد العزيز، أغنى التجار الموجودين فى هذه المدينة، وهو من سلالة مبهمة وغير معروفة، وهذا هو دوماً حال الأمراء العرب الذين يعملون فى التجارة. كان طريق سيرنا يقع خلف السوق الصغيرة جدًا الموجودة خارج المدخل المؤدى إلى المدينة، ويمر خلال بيارة عميقة من بيارات أشجار جوز الهند (فى ظفار نجد أن بيارات أشجار نخيل جوز الهند تحل محل بيارات نخيل التمر الموجودة فى أماكن أخرى من الجزيرة العربية) ويمتد بعد ذلك عبر حقول القطن والنيلة، ليصل إلى ذلك الشريط من السهل المواجه لبلدة صلالة.. واقع الأمر أن ابيضاض المنازل العالية متعددة الطوابق الذى يخطف الأبصار، يبعث على الاحترام، وبخاصة أن الأحجار المستعملة فى بناء هذه المنازل جرى اقتطاعها من السهل المقامة فيه هذه المنازل

- وإن كانت زينيات[١] هذه المنازل تضفى عليها مظهر احترام العصر الذى بُنيت فيه والذى لا يتناسب مع قذارة واتساخ هذه المنازل من الداخل. كان منزل سعد يرتفع مثل القصر فى منتصف الطريق الممتد بطول واجهة البلدة؛ ولكننا حتى فى هذا المنزل وجدنا فناءه عامراً بالذباب وتفوح منه رائحة غير طيبة بسبب الأبقار التى كانت مربوطة فى ذلك الفناء. كان هذا دَرَجًا (سُلَّم) شديد الضيق، يوصِّل إلى غرفة الضيوف الموجودة أعلى المنزل وهى غرفة كبيرة، فيها دعامة مركزية كبيرة من خشب السيج المليارى، تحمل سقف الغرفة، التى تجرى تهويتها عن طريق نوافذ كثيرة غير مُزَجَّجة نظرًا لأن الناس لا يعرفون شيئاً عن ألواح زجاج النوافذ[٢]. كان أثاث الغرفة قليلاً لكنه من النوع الفاخر. كانت كل قطعة من قطع هذا السجَّاد تسر الخاطر، لكن كل القطع لم تكن منسجمة أو متناغمة بعضها مع البعض الآخر، كان فى الغرفة ما لا يقل عن عشر من المرايا كبيرة الحجم، موضوعة فى أُطر مذهبة؛ كانت هذه المرايا تزين الجدران، كما لو كانت الغرفة بروفة فى محل خياط من الخياطين؛ كانت الفتحات الموجودة داخل الحوائط عامرة بالمباخر فضية اللون، ودلال القهوة، والطوب الملون بألوان صارخة. دخلنا غرفة الجلوس وجلسنا على شكل صف حول أركان الغرفة الأربعة، أما أنا فقد أُشير إلىَّ بالجلوس فى ركن يوجد فيه الكثير من المخادِّ غير اللينة مثل الكرات الطبية، لكنها تلذ للعين الشرقية بفعل شراشيبها ذات اللون الأحمر الفاقع أو اللون الزمردى. كان مضيفنا هو وأولاده وعبيده يقفون لتكريمنا بجوار مائدة أو طاولة حافلة بقوارير شراب اللوز، والشربات مختلف الألوان، وكئوس غاية فى الجمال. وكما هو الحال فى كل التجمعات الاجتماعية فى البلدان القبلية العربية،

---

(١) تعد الزينية التى يطلق عليها الناس هنا اسم الطباشير ملحمًا أساسًا من ملامح المنازل والمساجد الكبيرة، وهذه الزينيات تكون على أركان السقف وعلي بعد مسافات متساوية على طول الأجناب - وتصميم هذه الزينات يذكِّرنا بالزينيات النبطية الموجودة فى مكان من بترا ومدائن صالح. وقيل أن هذه الزينيات موجودة أيضاً فى المُكلا وفى شيهر وفى أماكن أخرى من حضرموت لكنى لم أرَ هذه الزينيات فى مسقط أو عمان.

(٢) يستعمل الناس بشكل عام فى ظفار نخلة جوز الهند فى عمل شيش النوافذ، وفى عوارض الأسقف، وخشب هذه النخلة جيد ويصلح لهذا الغرض، وذلك على العكس من خشب نخيل التمر المستعمل فى المبانى فى عُمان.

فإن المرأة لا تُرى أو يرد ذكرها على الألسنة. وقد جرت العادة، أن تقوم النساء ذوات الصفة الاجتماعية بستر وتخبئة أنفسهن إلى أن يغادر الغريب منزلهن، وأى شكل غير مُحجب يُرى فى فناء المنزل لابد أن يكون لواحدة من العبدات اللائى فى المنزل.

كان سليم السيل جالسًا بجوارى، وهو أيضًا تاجر يخشى الله ويخافه وهو مثل سليمان بين غيره من التجار، دفعه ضعفه الإنسانى إلى القول: إنه ينحدر من سلالة بيت غسَّان النبيلة، فى حين راح كل الحاضرين يتهامسون بأنه طفل لقيط من أصل شهارى وضيع، جرفه سيل الجبال الصيفى الجارف فى مياهه المتجهة صوب البحر(١). كانت عينا سليم، البالغ من العمر ثمانين عامًا، تزدادان ضعفًا على ضعفهما، على الرغم من أنهما كانت ترمشان، عندما كان يسألنى فيما بينى وبينه عن عُقَّار إثارة الشهوة. وفى مرات أخرى، كما هو حاله الآن، كان يُبدى اهتماماً كبيراً بالجنس البشرى، سألنى" هل هناك أمم متحاربة، يا صاحب؟، ما الذى حدث للألمان؟" و"هل الإيطاليون أصدقاؤك؟".

يزاد على ذلك أن قرب ظفار من الصومال من ناحية ومن التأثير أو النفوذ الإيطالى فى اليمن، من ناحية أخرى هو الذى يُفَسِّر الحقيقة التى مفادها أن الإيطاليين يحظون فى عقول البشر فى هذه المنطقة باهتمام كبير أكثر من الأوربيين الآخرين، وأنا لم أسمع شيئاً سوى الثناء والكلام الطيب فى حق الإيطاليين وفى حق إدارتهم.

كان يجلس بجانبى شيخ من شيوخ الجبل، راح يضفى على الحوار والحديث طابع الإشراق.

"لماذا أنتم رجال كبار على هذا النحو، ونحن أصغر منكم كما ترى".

قلت: "ربما كان ذلك راجعاً إلى تربيتنا وهوائنا".

---

(١) فصول السنة الأربعة على النحو التالى:

الخريف : من يوليو إلى سبتمبر - شهور المطر.

السروب : من أكتوبر إلى ديسمبر.

الشتاء : من يناير إلى مارس.

القيظ : من أبريل إلى يونيه.

"لكن الله عليم، أننا أصغر حجماً من أجدادنا. لعلك تلقى نظرة على مقابرهم فى خور الريرى - يصل طول القبر الواحد إلى عشرين قدماً. لقد كانوا أصحاب أجسام ضخمة".

قلت له: "الله أعلم". وحرصت أثناء حديثى معه على تجنب الإساءة إلى المسائل والحساسيات الدينية، لأن شارحاً من شراح القرآن (الكريم) يقدر طول آدم (عليه السلام)، بقرابة ست وثلاثين قدماً، أما البطاركة الآخرين، (فأحجامهم متواضعة بالمقارنة فى رأى بعض الشراح والمفسِّرين). "أليست هذه رحمة من الله؟".

سألنى: "كيف تكون هذه رحمة من الله؟".

أجبته: "صعب فى أيامنا هذه إيجاد التغذية والغذاء اللازم للبطون التى من هذا القبيل" (وهنا أشرت بيدى إلى كرة خيالية من كرات القدم): "لو بقينا على هذا الحجم لكنا بحاجة إلى جوال من الأرز فى كل وجبة من الوجبات؛ لعلك تفكر جيداً هنا فى مسألة التكاليف!".

سرت بين الجالسين ضحكة مكتومة، وأوضح صمت المتسائل أنه كان راضيًا عن إنهاء الموضوع.

احضروا بحاراً يدعى خميس الأوقادى وقالوا لى: إنه زار بلادنا. (لم يكن لدى هذا المواطن أية فكرة عن اتجاه أوروبا وراح يشير إلى الشرق، فى اتجاه الهند، مفترضًا ومسَلِّمًا أن ذلك، هو وطن الرجل الإنجليزى). وعلى الرغم من أن خميس يعد رجلاً حراً، فإنه كان أباً لمولود عبد، ذلك إن الرجل كان قد تزوج من عبدة رجل آخر، وعليه وطبقاً للأعراف المحلية فإن الطفل ينتمى إلى مالك هذه العبدة. وأن الثلاثمائة دولار التى سبق دفعها للمرأة كانت بمثابة مهر طلب يدها فى الزواج، وليس مقابل عتقها، وإن المطلوب منه عندئذ هو دفع خمسمائة دولار أخرى ليد هذه العبدة، وذلك ثمناً لتحرير طفله(١).

---

(١) اكتشفت إن هناك استثناء من هذه القاعدة الخاصة بذرية أو خلف الزوجة العبدة وأيلولة ذلك إلى مالك العبدة، وأن هذه القاعدة تطبق فقط فى البلاط السلطانى. إذا ما تزوج عبد من عبيد البلاط عبده من عبدات البلاط أيضًا فإن نسلهما يجرى تقاسمه، أسفر ذلك عن أن مالك العبدة لا يرضى بزواجها من عبد فى البلاط لأن ذلك لن يكون مربحاً لمالك العبدة، ومن هنا يتعذر على عبد البلاط العثور على عروس من خارج دائرة البلاط السلطانى.

تعد الفُوالة، تلك الوجبة الخفيفة، ملمحاً من ملامح أى زيارة من زيارات المجاملات، وقد قام واحد من العبيد بتقديم الفُوالة - التى هى عبارة عن صينية محملة بالأطباق الكبيرة التى تحتوى على لحم بقرى مشوى، ومعه مكرونة سباجتى مخلوطة بصلصة الطماطم، بالإضافة إلى شرائح من الأناناس، وقدمت القهوة بعد ذلك، ثم البخور بعد ذلك؛ لكن المبخرة هنا لا يجرى تقريبها من فتحتَى الأنف لبضع ثوانٍ؛ والمبخرة هنا لا تنقل من شخص لآخر بواسطة عبد من العبيد كما هو الحال فى عُمان، وإنما تركت مستقلة إلى جواره. وفى أرض البخور الذى لا مثيل له فى الدنيا كلها، كان مُضَيفِى يميز نفسه عن طريق استعمال نوع مستورد من البخور، وهذا النوع المستورد أقل جودة ولا يضارع البخور الحضرمى فى رأيى أنا، لكن هذا النوع المستورد غالى الثمن هنا فى ظفار - هذا النوع المستورد يطلقون عليه اسم العود، وهو نوع من خشب الصندل الذى أعرف أنه يُستخدم بديلاً عن البخور فى الكنائس الأوربية. وهناك مثل عربى يقول: "بعد العود لا تقعد" ومعناه "لا تتلكأ بعد البخور". هذا يعنى أن تقديم البخور إشارة لا يمكن تجاهلها، وعليه بعد دقيقة أو اثنين من الصمت المهذب، يغمغم الضيف قائلاً: "ترخوص" بمعنى (بعد إذنكم) ثم يهم بالانصراف.

قال مُضيِّفى من باب المجاملة من ناحية وإنهاء الحديث من ناحية أخرى: "ليت مُقامك يطول معنا".

قلت: "نعم، أنا فعلاً فى إجازة مدتها شهران. لقد وافق الشيخ حسن على اصطحابى معه إلى جباله فى رحلة صيد فى الأسبوع القادم؛ لقد وعدنى بفهد أسود ووعل".

بعد أن صحوت مباشرة فى اليوم التالى قمت بتجهيز أجهزة ضبط الوقت (كرونومترات)، وعندها سمعت دق الطبول وأصواتًا نسائية، الأمر الذى استرعى انتباهى. وسرعان ما رأيت فى فناء السجن الموجود فى الأسفل قرابة عشرين عبدة زُنجية، يرقصن رقصة خليعة، ورءُسهن شبيهة برءُوس مجموعة من الأفاعى، إذ كانت كل واحدة منهن تحمل فوق رأسها جرة مملوءة بالماء. هذه هى جوقة الاستحمام، وهذا تقليد ثابت يتكرر عندما يكون السلطان أو أنا فى هذا المكان، فضلاً عن أن خزان الحمام يتعين ملؤه بالماء كل يوم. وعندما اصطففن

أمام المدخل المؤدى إلى غرفتى توقفن عن الغناء؛ وهنا بادرت واحدة منهن وهى واثقة تماماً من شبابها وجريئة إلى أبعد الحدود بأن غمزت لى بعينها، لأنهن يعلمن أنهن فى عالمهن فى ظفار لا يمكن أن يكُنَّ أى شىء آخر غير ذلك الذى هن عليه. وعندما بدأن الانصراف كانت الواحدة بعد الأخرى منهن تنحنى لى إجلالاً وتكريماً. وهنا انبرت من بينهن عبدة عجوز وراحت تتسكع وتسأل عن أشقاء وأزواج فى بلاط مسقط، وما إن كنت أحمل منهم بعض الرسائل؟ وسرعان ما حوَّلت الحديث إلى مسألة الأجر المعتادة، والحق أقول أن هذه المرأة خير ممثل للجمال الأسود الذى لا يُنازع. وانقسمت الفتيات إلى مجموعتين كل واحدة منهما مشغولة بمسألة "البقشيش".

صاحت واحدة منهن : "هل عرفت عددنا يا سيادة الوزير؟ نحن هنا أربعة وعشرين" وأربع أخريات فى الأسفل، قالت أخرى (وهذا من قبيل الكذب):

"أحصِ عددنا يا سيادة الوزير! مُرْ خادمك محمد يقوم بإحصاء عددنا!".

وَعَدْتُهن وأنا أبتسم بسلة من التمر وبعض الدولارات أعطيهن إياها فى الصباح، وجاء ردهن على شكل اصطفافهن فى فنائى العلوى وهن يقلن: "نحن نأتى إلى هنا لجمع المكسرات فى شهر مايو" وبدأن ينزلن الدَّرَج (السلم) بعد رقصة من الرقصات الصاخبة المعربدة، على نغمات الطبول والغناء وبعد ذلك رحت أتمتع بالحمَّام الذى قمن بتجهيزه على أنغام أصواتهن، التى أخذت تخبو شيئاً فشيئاً إلى أن تلاشت.

الفصل الثالث

قياس الجمجمة ورقصة الشيطان

"من أى عرب أنت؟" هذا هو السؤال الذى طرحه علىَّ فى الصحراء، أولئك المواطنون الذين يعرفون ويعون أنى من عرق مختلف عن أعراقهم، ذلك أن البشر هنا يستعملون الكلمة " عربى" بمعنى "بشر" من غير الجنس الذى ينتمون إليه.

لكن هل العرب أنفسهم متأكدون من أنهم ينتمون إلى عرق واحد؟ وهذا هو الباحث جلاسر Glaser ومعه بيرتون الرحَّالة لا يعترفان بذلك أو يُقرَّانه. جلاسر، على سبيل المثال، يرى أن عرب جنوب الجزيرة العربية حاميون وليسوا ساميين. أما بيرتون Burton فيقول إنه عثر على ثلاثة أدلة تثبت وجود ثلاثة أعراق متباينة. وفى كل الأحوال، نجد أن توقع بيرتون الذى يفيد بوجود اختلافات فسيولوجية تكفى لتأكيد تساؤلنا عن وجود أصل مشترك للأسرة العربية، يعد توقعاً سليماً. وأنا بدورى اكتشفت الكثير من هذه الاختلافات فى هذه المنطقة الرئيسة فى جنوب الجزيرة العربية:

وهذه الفروق ليست فروقًا فسيولوجية فحسب وإنما هى أيضًا فروق ثقافية وفروق لغوية أيضاً؛ وهذه الفروق فى مجملها تشكل تحدياً خطيراً لمفهوم الكيان العرقى الواحد فى شبه الجزيرة العربية كلها.

وأنا بدورى، جئت إلى هذه المنطقة بعد أن تزودت بمعايير ومقاسات الرأس كيما أتمكن من تسجيل مقاسات الجمجمة(١). يزاد على ذلك أن الملاحظات

---

(١) تكرم علىَّ السير آرثر كيث وساهم معى بالملحق رقم ١ الذى يحتوى على أبحاث هذا الرجل على المعطيات التى قدمتها له.

البصرية التى يقف عليها الأجنبى الذى عاش سنوات فى الجزيرة العربية، تعد أموراً مهمة أيضاً، نظراً لأن ذهن وعقل مثل هذا الأجنبى ينطبع، دون أن يعى هو ذلك، بالسمات والخصائص الجسمانية للمواطنين، الأمر الذى يجعله واعيًا تمامًا بالانحرافات والاختلافات العرقية التى يمكن أن تصادفه. وهذا هو ما حدث لى أنا شخصياً، إذ أقمت بصورة مستمرة فى الجزيرة العربية فى الفترة بدءاً من العام ١٩١٥ فصاعدًا، وكنت أشغل مناصب جعلتنى على اتصال وثيق ومباشر مع عرب بلاد الرافدين، شرق الأردن، وكذلك عرب الخليج الفارسى، الأمر الذى جعلنى أتأثر بمواطنى الجزء الرئيس من جنوب الجزيرة العربية - أقصد "كتلة" ظفار، كما ولَّد ذلك عندى إحساساً مفاده أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذه الأعراق. وهذا هو اللواء ميتلند Maitland المقيم السياسى فى عدن، كان لديه انطباع مثل انطباعى أنا، وعلى النحو التالى:

"أهل الجزيرة العربية ينتمون إلى عرقين متميزين ومختلفين اختلافاً تاماً. والفكرة العامة والشائعة عن العرق العربى.. الرجل فارع الطول، الملتحى، صاحب الوجه الشبيه بوجه الصقر. عرب جنوب الجزيرة العربية أقل طولاً، وبشرة أدكن وملامح أكثر خشونة ويكادون لا يكونون ملتحين. وتتفق كل المصادر على أن عرب جنوب الجزيرة العربية مرتبطون بعلاقة مع الأجناس. والغريب بحق إن العرق المصرى - الأفريقى هو الذى يشكل العرب الخُلص، فى حين نجد أن عرب الشمال الساميين هم عرب مُستعرِبون.. أى عرب بالتبنِّى والإقامة أكثر منهم عرب سلالة ونسب".

الباحثون العرب أنفسهم لديهم موروث يفيد أن عرقهم مُستقًى من سلالتين أو جدين: قحطان وعدنان، لكن القبائل المنتشرة فى شبه جزيرة العرب فى أيامنا هذه، التى تزعم أنها منحدره عن هذا أو ذاك السلف، هى نفسها من أصول عرقية واضحة؛ ومن ناحية أخرى، نجد أن الفروق التى لاحظها كل من بيرتون، ميتلند وجلاس، والتى لاحظها أيضاً من جيلنا، الباحث راثجنز Rathjens تعد أموراً شديدة الوضوح، كما أن القبائل التى تتجلى فيها هذه الفروق والاختلافات لا تدخل ضمن التحديد القحطانى - العدنانى.

زد على ذلك، أن الأوروبيين الذين أتيت على ذكرهم هنا لم يتعرف أحد منهم مجموعة قبائل ظفار التى التقيتها وصادفتها أنا، والتى فيها الكثير من الدلائل الأنثروبولوجية والدلائل اللغوية التى تجعلنا نقطع باستقلالها العرقى، أو اختلافها العرقى فى أضعف الأحوال.

تعد نقوش وأنقاض مدن الجنوب الغربى من الجزيرة العربية شهودًا على حضارتين قديمتين: الحضارة المنيائية والحضارة السبئيَّة. اللتان تحللتا قبل ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى. ونحن نعرف أيضاً أن غزوين باكرين أحدهما حبشى والآخر رومانى، وقعا فى هذه المنطقة ونعرف أيضاً أنه كانت هناك مستوطنات يونانية ومستوطنات آرامية فى هذه المنطقة. تُرى، من يكون هؤلاء البشر الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة العربية؟ إذا كان حل هذه المشكلة مرهونًا بعلماء الأنثروبولوجيا - وهذا أمر لا مفر منه - فذلك يعنى أن المعطيات التى قمت أنا بجمعها أثناء ترحالى، تعد أمراً بالغ الأهمية.

كانت قد راودتنى من قبل آمال نبش القبور وإرسال بعض الجماجم القديمة إلى الوطن، لكن مسألة استثارة الحساسيات الدينية فى الجزيرة العربية كانت أعظم وأكبر من هذه الآمال.

زد على ذلك أن أى عبث بجثمان مدفون على الطريقة الإسلامية هو أبشع تدنيس للمقدسات، وأن هذه المسألة نفسها تعد مصدرًا خصبًا من مصادر إثارة المتاعب، وذلك مثلما حدث فى بلاد الرافدين أثناء الحرب، عندما قام شخص ما، على غير وعى منه، بقيادة سيارة خلال جَبَّانة مهجورة. وعليه فإن القبور الصخرية المغلقة بأحجار سائبة، والتى صادفتها فى وادى ضيكور فى العام ١٩٢٧/ ١٩٢٨ كانت أرضًا محظورة. وفى الرحلة التى قمت بها فى العام ١٩٢٩/ ١٩٣٠ الميلادى، كنت أسعد حظاً، لأنى مررت فى الحسيك على كهف جرى فتح بابه عنوة بواسطة ذئب أو حيوان برِّى آخر. كان الوقت نهارًا. كما كان وجود رفاقى العرب بمثابة حاجز أو عائق أمام أية مضاعفات يمكن أن تترتب على ذلك، لكنى حاولت الاقتراب من ذلك الكهف والتوقف عنده، ولم يعرف أى أحد، فى صبيحة اليوم التالى، أن الجمجمة التى عثرت عليها، أصبحت فى طيات فِراش سريرى - وذلك على الرغم من أن تلك الجمجمة كان ينقصها عظمة

الفك، وكان الجزء المتبقى من الهيكل العظمى قد اختفى تماماً - أخذت هذه الجمجمة معى إلى مسقط ومنها إلى كلية الجراحين الملكية فى لندن. وفى منزلى فى مسقط، وبعد أن فككت كنزى، أصبح خادمى مبروك، ذلك العبد المعتوق، على علم بهواية سيده العجيبة، وقال لى فى اليوم التالى إنه أحضر لى هدية وتناول من صُرة كانت معه، جمجمة بشرية كاملة - وهنا جاء خادم عربى آخر متلصصًا من خلف الباب ليوضح لى أن مبروك ذهب أثناء الليل إلى مدفن والده، وهو يقدم لى حالياً ذلك الذى كان يشكل ذات يوم جزءًا مهمًا من والده الموقر. وفى تلك الليلة، قام مبروك الذى لم يحصل على مكافأة وجرى توبيخه، بإعادة الجمجمة إلى مكانها السابق. أما مسألة ما إذا كانت المشاعر العربية قد أُصيبت بالأذى ولأسباب دينية، فى هذه الحالة، لا يمكننى القطع بها، والمؤكد أن العبيد لا يُصَلُّون فى هذا الجزء من الجزيرة العربية، وبالتالى ومن الطبيعى أن ينظر الناس إلى هؤلاء العبيد من منطلق أنهم ليسوا مسلمين خُلَّصًا.

نعود إلى ظفار وإلى قياس الرأس، ولم يكن سهلاً علينا العثور على موضوعات راغبة فى هذا العمل. يضاف إلى ذلك أن عقول السذَّج من البشر تخاف من السحر وما هو أسوأ منه، فى حين يكره المتدينون من بين هؤلاء البشر، أن تلمسهم أيادى الكفرة. وفى الصحراء، وعلى سبيل المثال، لم أكن لأجرؤ على المخاطرة بوضع أجهزة القياس على رأس أى واحد من البدو - فلربما أدى ذلك بالقبلى البليد إلى رفع خنجره علىَّ، وقد حدث ذلك لى فى بعض الأحيان، عندما كان واحد من البدو يتحدانى عندما كنت أهمُّ برفع آلة التصوير فى اللحظة غير المناسبة - لكنى هنا فى ظفار شعرت أن بوسعى العمل بطريقة آمنة مع المسجونين، والسجانين، والأصدقاء القدامى خلف الأبواب المغلقة، وبفضل هؤلاء هم وبعض التجار الأجانب المستنيرين تمكنت خلال مقامى فى ظفار، من قياس خمسة وأربعين رأساً، كانت تغطى مَدًى جغرافيًا كبيرًا، كما تمكنت أيضًا من التقاط مائة صورة "نمطية".

تخلل هذا العملَ الكثيرُ من الفقرات المرحة التى بثت فيه الحياة والحيوية، لكن العمل لم يكن شارحًا للصدر من الناحية البدنية، نظرًا لأن العينات كانت من البدو أصحاب الشعر الأشعث المملوء بالتراكمات الرملية والتراكمات الأخرى



مجموعة من أفراد قبيلة الشهارة

مجموعة من أفراد قبيلة يافع

أو من الحضر المقيمين فى المدن، الذين تُعد خصلات شعورهم كُتَلاً من الدهن بسبب زيت النخيل الذى يدهنون به الشعر. تصادف ذات صباح أن كان زبائنى من الصوماليين؛ والصوماليون سلالة تعبر البحر الأحمر لتقوم بنشاط تجارى محدود فى السوق، أو يعملون وسطاء فى إبرام عقود مع بساتين البَخُور. جاءنى ستة من هؤلاء البشر، وتحاشوا جميعاً فى إجاباتهم عن أسئلتى الإقرار بأنهم صوماليون خُلص، بمعنى أنهم صوماليون من ناحية الأب والأم - وهذا شرط من الشروط الضرورية؛ لأن العينات مختلطة الأب أو الأم يعدها علماء الأنثروبولوجيا غير ذات قيمة وعديمة الفائدة أو النفع، ولكنى بعد أن فحصت أنوفهم القصيرة المربوعة فحصًا دقيقًا، وبعد أن فحصت رءُوسهم الشبيهة بالبلطة، تأكدت أنهم من أصل زُنجى، الأمر الذى جعلنى أرفضهم لأنهم لا يلبون ما أطلبه وأبتغيه. سألت شرطيًا صوماليًا كان دوره بعد المجموعة سالفة الذكر، "هل أنت متأكد من أنك من أصل صومالى خالص؟"، وأجابنى قائلاً: "لكن الله هو الذى يعلم فى المقام الأول، وتأتى أمى من بعده!».

وهنا تمتع ذلك الألمعى بطرفته ثم اختفى وغرب عنى وهو يضحك، ووعدنى بأنه سيجىء فى الصباح ومعه بعض الزملاء العينات غير الملوثين.

جاء بعد ذلك الدور على العسكر الحكوميين. هؤلاء المرتزقة من رجال القبائل الحضرمية أو من المناطق الداخلية فى عدن، ويجيئون إلى الخدمة ضمن قوات سلطان مسقط، شأنهم شأن النجديين القدامى؛ والعمانيون المحليون ينعتون هؤلاء البشر بأنهم حضاريم أو حضارمة. كان أربعون منهم يقومون بالخدمة فى ظفار، وعليه لم أجد صعوبة فى العثور على ستة أفراد من سلالة قبلية نقيه غير مخلطة. كان هؤلاء الستة من أهل يازيد، أهل ياهار، وأهل سعد من اتحاد اليفاع، فقمت بقياس رءُوسهم وقمت أيضاً بتصويرهم، لكنى سرعان ما اكتشفت إنهم يعترضون على مصطلح الحضاريم وأنه لا ينطبق عليهم. قالوا لى: "أيها الصاحب، إطلاق المصطلح حضاريم علينا، يعنى أننا ننتمى إلى الطبقة.. المتدنية من الشَّهارين Shahar هم وغير القبليين الآخرين: القَبَلِى الأصيل لا يرضى إلا بأن يكون منسوباً إلى واحد من اتحادين متنافسين: اليفاع، والهمدان- ولا شىء غير ذلك!".

فى اليوم التالى كنت مشغولاً بقياس رأس عضو من عرق آخر، يدعى على الضّبّعان، أحد بدو المشايع الذين يسكنون الصحراء الواقعة شمالى حضرموت. كان على من النوع القادر على القيام بأعمال عدة على حد قول العرب، كان الرجل قد سبق له مرافقتى فى رحلة العام الماضى التى قمت بها إلى مجشين، وأصبح الآن مرافقاً لى بصفة يومية، فضلاً عن كونه خبيرًا ضليعًا فى مسألة الصحراء. كان الرجل يعرف الحدود الجنوبية حق المعرفة، وكان أيضًا قد قتل عضواً من أعضاء قبيلة الرشيد، ثم تزوج من واحدة من بنات هذه القبيلة من باب تحاشى الثأر، كان على الضبعان يريد منى هدية الافتراق قبل أن يصحبنى إلى جبال القارة كيما نطلب من قبيلة الكثارين تقديم أربعة رءُوس من الأغنام، على اعتبار أن هذه الرءُوس الأربعة تشكل جزءاً من الدية المقررة لولده الذى قتل قضاء وقدراً على يد واحد من قبيلة الكثارين فى العام السابق.

اتضح لى أن ما يريده الضبعان منى كان طلبًا متواضعًا تَمثَّل فى خمسين طلقة من الذخيرة – معروف أن البدو يمكن أن يطلبوا المستحيل وبلا خجل!

قلت : "لا" وقد خطر على بالى سجل هذا الرجل وميوله الفطرية "بالقطع لن أعطيك هذه الطلقات". وكان الناس يقولون إن على الضبعان أزهق حيوات خمسة عشر شخصًا؛ وآن آخر قتيل له كان قبل ثلاث سنوات، وكان ذلك مباشرة عقب الزيارة التى قام بها على الضبعان إلى مخيمى فى العوهى: كان الضبعان قد قتل أحد العماريين رميًا بالرصاص، عندما قابله فى البرية، طمعًا منه فى الاستيلاء على جمل القتيل. والمؤسف بحق أن الجمل لم يستطع مواصلة الرحلة إلى ظفار، والأدهى من ذلك كله أن على الضبعان لم يكن لديه ما يبرر به هذا القتل سوى عزو الأمر إلى الله! ولم يحس هو شخصيًا بالندم على فعلته، لكنه لم يجرؤ على مقابلة أى فرد من أفراد هذه القبيلة بعد ذلك الحادث. أردفت قائلاً: "يا على سوف أعطيك ثلاثة دولارات، إذا ما رافقتنى فى رحلة الصيد التى سأقوم بها فى الجبال فى الأسبوع القادم: أما الذخيرة فلن أعطيك إياها! تريد هذه الذخيرة لهدف شرير. وأنا لا أرضى أن أكون شريكًا أو متورطًا فى هذا العنف".

"قل لى كيف يعيش الإنسان؟".

"افلح الأرض، أو اشتغل بصيد الأسماك".

نظر الضبعان إلىَّ نظرة شك، وارتياب ثم قال: "هذا ليس هو العمل الذى يقوم به رجل من الرجال".

"إذن، ما هو فى رأيك العمل الذى يقوم به الرجل؟".

"عمل الرجل هو البندقية والجنبية (الخنجر)".

قلت له: "هذا كلام فارغ. القتال أمر طيب لكن عندما يئون أوانه" لكن ما رأيك فى أننا نحن الإنجليز يمكن أن نكون بهذه القوة التى نحن عليها، دون أن نعمل ونبذل جهدًا؛ "ما رأيك فى السفن والبنادق التى لدينا، هل حصلنا عليها بدون عمل؟".

رد على رداً مقتضباً "إنها النقود!"، وهنا عرفت أن الكلام معه مضيعة للوقت. وتلت ذلك فترة صمت بيننا.

"يا على، لو عاش كل منا من بندقيته وجنبيته (خنجره)، فمن أين لنا بالطعام؟ نحن مَدِينُون بما نأكله للزراع وصيادى الأسماك".

"ما الذى يجعل القبيلى (القبلى) يصل إلى هذا الحد من التدنى؟ تقول صيد السمك! هذا مستحيل! تقول: فلاحة الأرض! نعم، سوف أطلب من سيد تيمور (السلطان) إعطائى قطعة من الأرض ثم أجىء بعد ذلك بعبد من العبيد يقوم بزراعتها نيابة عنى".

"لكن لماذا لا تزرع الأرض أنت بنفسك؟".

"آه! لا تخف، سأدفع للعبد أجره، كان هذا هو رد الضبعان علىَّ دون أن يقف على ما أقصده وأعنيه؛ لكنه أردف قائلا "وسوف أعيش على إنتاج هذا البستان".

عجز خيالى عن تصور الطريقة التى يمكن أن يحصل بها علىّ الضبعان على العبد المطلوب - يُزاد على ذلك أن ثلاثمائة دولار فى ظفار هى ثمن ذلك العبد، ولو قُدِّر لعلى الضبعان أن يكون لديه مثل هذا المبلغ، فإن الصحراء ستناديه وسوف يستثمر هذا المبلغ فى شراء ناقة. لكن خيال الضبعان شطح منه وراح يحلق فى السحاب، وها هو يعود إلى الأرض أو الواقع من جديد.

قال على الضبعان: "أيها الصاحب أعطنى خمسين طلقة من الذخيرة!" وراح يفك الجبخانة (حزام الذخيرة) من حول وسطه ليرينى إياه فارغاً من الذخيرة. وهنا كتمت ابتسامتى لعدم اتساق فقره المُدقع مع تفاؤله المفرط.

قال الضبعان: "والله ! أنا أفضل الذخيرة على الجمل. والناقة تموت بين يدَىْ صاحبها لكن الذخيرة! تُمكِّننى من صد العدو عندما يلاحقنى، وأستعملها أيضاً فى صيد الوعول عندما أجوع".

"لا، يا على! تعالَ غداً وسوف أعطيك ثلاثة دولارات، لكن خذ بالك من نفسك! تصرف تصرفاً حسناً وأنت فى الجبال وإلا سيكون هذا هو اليوم الأخير من أيام صداقتنا".

قال على الضبعان عندما هَمَّ بالانصراف: "لعل سيد تيمور يدرجنى ضمن كشف الأجور" - ربما تصور الضبعان أنى سوف أعطيه ثلاثة دولارات كل شهر.- "وعندها سيكون شقيقاً لكل البشر".

كان من عادة الوالى القيام بزيارتى صباح كل يوم فى القلعة. كان سعيد بن سيف رجلاً أصفر الوجه، ضعيفًا وهزيل البنية كما لو كان رجلاً فى منتصف العمر من رجال أواخر العصور الوسيطة. كان كلامه يتركز دومًا على فقر الحكومة، وأن راتبه لا يكفيه، هو وأسرته كبيرة العدد: وذلك على العكس من الرواتب الضخمة التى يجب أن يتقاضاها الإنجليز طبقاً لما هو مبيَّن فى كشوف الرواتب الرسمية. كان سعيد بن سيف حزيناً على نصيبه البائس وكان يعزو ذلك إلى الله! كان الرجل ينظر إلى العمل على أنه يقلل من شأنه ومن احترامه، وأن العمل هو للعبيد فقط؛ كانت يداه شاحبتين ورقيقتين مثل يدَى المرأة، كما أن قدميه لم تكونا قادرتين على السير سوى بطريقة بطيئة، توحى بالاحترام والوقار ومعه سرية من الجنود الذين يسير بعضهم من أمامه والبعض الآخر من خلفه. كان كل ما يقوم به هذا السعيد بن سيف مجرد الصلاة خمس مرات فى اليوم - وفيما عدا ذلك، كان الرجل بلا أى هدف، سوى صمته الذى يتخلله النوم، الذى كان يصحو منه بين الحين والآخر مردداً، "الحمد لله! الحمد لله" - فضلاً عن أنه كان أيضاً رفيقاً منفراً.

كانت هناك أصوات عريدة تصدر من بُعد، وهنا صعد أحد الجنود إلى سطح المنزل وعاد ليقول لنا أن تلك الأصوات صادرة عن العبيد. كانت أصوات الطبول التى تتعالى شيئاً فشيئا تنبئ باقتراب ذلك الموكب، وهنا اندفعنا جميعاً وانحنينا لنرى ذلك المنظر المفرح.

كان ذلك الموكب خاصاً بوفاة واحد من العبيد، لكن هنا فى ظفار وعندما يُتوفَّى عبد من العبيد وبعد أن يُدْفن، يظن العبيد أنه بدلاً من الملكين اللذين يلازمان المتوفى فى قبره عند المسلمين، أن روحاً شريرة تدخل إليه لتنقضَّ عليه فى نومه، ومن هنا يقوم العبيد بدق الطبول ويرقصون رقصة الشيطان لطرد هذه الروح الشريرة وإبعادها عن المتوفى.

غمغم العمانى المنافق الجالس إلى جوارى قائلاً: "سامحهم الله!".

"لا، ولا حتى على النايات؛ لكن هؤلاء عبيد ولا يعرفون شيئاً أفضل مما يفعلون".

قلت له: "لكن قبيلة المقابيل فى عُمان تستعمل النايات؟".

"نعم ! لكنهم سُنِّيون. نحن أباضيون، والأباضيون العمانيون يمنعون استعمال أدوات الشيطان هذه".

كان الموكب فى الوقت ذاته يشق طريقه بهمة وشجاعة نحوى كيما يعرب عن تقديره واحترامه لى؛ أملاً فى الحصول على مكافأة ربما كانت سلة من التمر، لأن الموت عند هؤلاء الزنوج، كما هو عند الإيرلنديين، يعد مناسبة للعزائم والولائم. كان حامل البيرق وقارعو الطبول يسيرون ببطء فى مقدمة الموكب؛ كان القسم الأكبر من الجنود محيطين بحامل البيرق وقارعى الطبول، رافعين عكاكيزهم إلى الأعلى، وهم يرقصون ويغنون، ثم جاءت مجموعة الزنجيات اللاتى كنَّ يرقصن بخفة ودلال فى المؤخِّرة. وعندما اقترب الموكب من بوابة القلعة اندفعت مجموعة من الرجال متقدمة إلى الأمام؛ مهددين من باب التهويش بأنهم سيفتحون الباب عنوة علماً بأن الباب كان مفتوحًا.

توقف الموكب فى فناء القلعة الداخلى وتغير إيقاع الطبول. ثم تجمعت الطبول والبيارق فى الوسط، وتحلق الرجال من حولها على شكل صف واحد، وهم

يحجلون مرة على هذه القدم وأخرى على تلك القدم، وهم يتغنون بأغنية سواحيلية فى حين كانت النساء يتحركن من حول الإطار الخارجى لحلقة الرجال بخُطًى غريبة متناغمة وهن يرفعن عباءاتهن من الأمام. انفصل بعض آخر من الزنوج، عن الجماعة وراحوا يمثلون قتالاً هيكلياً، واستلقى واحد منهم على الأرض وكأنه يشخص روحًا شريرة، فى حين راح الزنوج الآخرون يهاجمون هذه الروح الشريرة من كل جانب.

تجمع عدد كبير من النظارة والمشاهدين فى مدخل القلعة الخارجى؛ الأمر الذى صعَّب من خروج العمانى الذى كان يجلس إلى جوارى، لأنه لم يكن يرغب فى مشاهدة هذا المنظر. وقف ذلك العمانى مشدوهاً من هذا المشهد الوثنى، الذى كان يود قمعه لو أتيحت له الفرصة والسلطة اللازمتان لذلك؛ هذا فى الوقت الذى شعرت فيه بأنى كنت هدفاً لانتقادى أنا فيما بينى وبين نفسى، وبخاصة عندما رحت ألتقط صورة دقيقة لما يجرى أمامنا.

وفى فترة العصر، كُتِبَ علىَّ أن أشاهد المزيد من الطقوس الخارجية، فى الحدائق، نظراً لأن السلطان منع ممارسة هذه الطقوس فى محيط المدينة؛ الأمر الذى جعله يحظى بثناء وتقدير كل المؤمنين المخلصين.

"ألم تدخل هذه المواكب فى عيد الفيروز (عيد رأس السنة) بكل استهزائها منزل العاهرة وهى تحمل معها قُطَيْطة - وليدها المفترض؟" لكن على حد قول الراوى المتدين الذى كان يرافقنى، "لكن مبادرة السلطان إلى قمع هذه الأعمال هو الذى عجَّل، للأسف، بزيادة العُهر والفُجْر منذ ذلك الحين".

الجالية الزنجية تكاد تكون منكفئة على نفسها، وهى الجالية الوحيدة التى تشكل أكبر العناصر بين سكان عاصمة ظفار. وهذا هو عوَّاض، ذلك العبد من عبيد البلاط السلطانى، والذى يتمتع بمنزلة رفيعة بين إخوانه العبيد، يحتل مكانة الأب بين العبيد، وهو أيضاً القاضى magistrate الذى تُحال إليه منازعات الزنوج ليقوم هو بتسويتها والبت فيها. ولم يكن ذلك العوَّاض، أو الآب، بلا مساعد، كان هو الآخر يحمل اسم "النقيب"، لكن بقية العبيد على اختلاف مشاربهم كان يطلق عليهم اسم أولاد وبنات؛ هذان الاسمان هما تعبيران رقيقان فى التعامل مع الزنوج المسنين والزنجيات المسنات.

هؤلاء العبيد لهم أيضًا محرماتهم الخاصة بهم، وهم على سبيل المثال لا يلمسون الحيوانات الميتة اللهم باستثناء تلك التى يجرى ذبحها ليقتاتوا بها. هذا يعنى أن سيد العبد وليس العبد نفسه هو الذى يمكن أن يزيل أو يبعد قطة ميتة عن المنزل، ألا يُستثنى من ذلك عبد البلاط السلطانى الذى يوافق، عن طيب خاطر، على سحب جثة حصان ميت لإبعادها عن المكان؟ الخروقات التى من هذا القبيل هى والخروقات الأخرى يُعاقب عليها (عادة بالنبذ) أى أن العبيد يرفضون قبول من يقوم بهذه الخروقات، فى مجتمعهم، ويجرى نشر مثل هذا القرار فى سائر أنحاء البلدة عن طريق قوقعة يبوقون فيها فتحدث صوتًا عاليًا – وهو ما يطلق عليه اسم إنذار العبيد: كما تُقْبل توبة العبد فى احتفال يذبح فيه العبيد شاة أو خروفاً، يقوم التائب بوضع قدمه فى دم هذا الخروف المذبوح.

العبيد الزنوج قنوعون. وهم أصحاب طابَع بهيج على العكس من سادتهم، الأمر الذى يجعلهم يغنون ويرقصون غير عابئين بعاهاتهم السياسية والاجتماعية. ويصعب على الأوروبى الذى لم يَعشِ فى بلاد إسلامية تكوين رأى مدروس عن ممارسة العبودية والرق. ولابد من مقارنة مصير العبد بمصير الحر فى البيئة نفسها. ونحن عندما نطبق هذا المعيار أو المقياس، نجد أن حياة العبد فى مجملها لا تدعو إلى الرثاء. هذا لأن المستوى العام للحياة يعلو قليلاً على حد الكفاف- هذا يعنى أن صاحب العبد أو سيده يتعين عليه، ومن مصلحته أن يُطعم عبده ويكسوه على وجه التقريب مثلما يطعم ويكسو هو نفسه.

يتمثل الفارق الرئيس بين العبد وسيده فى العمل. العبد فى أرض الكسل والتكاسل هو الذى يقوم بالعمل اليدوى. هذا يعنى أن العبد يتحتم عليه أن ينتج ما يكفى لإعالة نفسه وإعالة سيده، وتتمثل مَهمَّة الحر أو السيد فى التأكد من أن العبد يفعل ذلك المطلوب منه. لكن القول بأن هناك فارقًا فى الجزاء من قبيل الفارق الصارخ شديد الوضوح، فى الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة الأمريكية أو فى مستعمرات غربى الهند قبل إلغاء الرق، يعد ضرباً من الزيف والكذب. هذا الفارق الصارخ غير موجود فى الجزيرة العربية.

العبيد لهم أيضاً بعض المزايا والامتيازات المحصَّنة. من ذلك مثلاً، أن العبد يكون فى منجاة من الأخطار الناجمة عن الصراعات الثأرية التى تحوِّم على

القَبَلىّ "الحر"، وعندما يجرى الإمساك به فى غزوة من الغزوات فإن الغزاة لا يقتلونه؛ علماً بأن العربى يمكن أن يقتل العربى فى هذه الغزوات، صحيح أن العبد يجرى أسره ويمكن بيعه لسيد جديد، لكن مصيره لا يزداد سوءًا عن ذلك. وفيما يختص بالإناث، أو إن شئت فقل: العبدات، فإن العبدة تتمتع بحرية اجتماعية هى على النقيض تماماً من حرية المرأة العربية "الحرة". والمرأة العربية الحرة تتزوج وهى فى سن الخامسة عشرة من الزوج الذى يختاره لها والدها، دون أن يأخذ الوالد رأيها ودون أن ترى ذلك العريس. ويُكْتَبُ عليها أن تظل بعد ذلك حبيسة منزلها بقية حياتها اللهم باستثناء بعض الجولات النادرة التى تقوم بها خارج المنزل، وهى تكون محجبة عندما تخرج من المنزل، وتزداد شدة هذه الأعراف كلما ارتفعت المرأة فى السلم الاجتماعى، وإذا ما وقعت المرأة العربية الحرة فى الانحراف الجنسى - وهذا هو النقيض مما هو مصرح به لزوجها - فإنها قد تُعدم وتخسر حياتها ثمناً لهذا الانحراف.

تُعد الفتاة العبدة، من ناحية أخرى، خالية الفؤاد من الحب، وعلى الرغم من أن سيدها هو الذى يرتب لزواجها، فإن عينيه تتركزان على منفعته الخاصة، وهى تمشى سافرة وبلا حجاب طول حياتها، وهى تغازل من تشاء وتؤاخيه .

كانت هناك مجموعة من بدو الصحراء، راحوا يشاهدون بشغف شديد رقصة الشيطان فى فترة العصر، وعلى الرغم من أنهم جميعهم كانوا مسلمين، فإن أحداً منهم لم يشعر بتأنيب الضمير، وذلك على العكس تماماً من الروح الضيقة للمسئولين الرسميين العُمانيين أشباه المتقدمين. وهنا نتساءل، إذا كانت الأعراف الرعوية فى الصحراء قد وضعت آلهتها فى السماوات، لأنها درجت على النظر إلى الأعلى طلباً للمطر، واهب الحياة، فلماذا لا يتعين على الأعراف الزراعية، هى الأخرى، التى تضع أعينها على التربة، أن تكون أرواحها فى الأرض؟ لكن الطرفين المذكورين هنا لا علاقة لهما بهاتين الفكرتين.

جرت العادة أن يقوم الزنوج بطقوسهم بعد ثلاثة أيام من الوفاة، أمام قرية حافة Hafa حيث الخلفية الرائعة لنخيل جوز الهند. وقد شدنى العزف الجيد على الطبول إلى الذهاب للتفرج على ذلك الحشد. وسط هذا الجمع من البشر، كان المكان واسعاً وفسيحاً كما لو كان مدرسة لتعليم فن ركوب الخيل. كان عازفو

الطبول يجلسون فى ركن من الأركان، وقد شبوا ناراً من أمامهم كيما يفيدوا من حرارتها فى شد جلد طبولهم. ومن حولهم كان "صبية الطبول" يرقصون، وكان يقدر عددهم باثنى عشر زنجياً من ذوى العضلات المفتولة. كان هؤلاء الصبية عراة تماماً فيما عدا ما يسترون به عوراتهم؛ وكانوا يلفون حول رُكبهم جُلْجلاً مصنوعًا من حبات المانجو المجففة. كان ذلك الجلجل أو الخشخش، على حد قولهم متوافقاً مع قرع الطبول، وبخاصة عندما كان الراقصون يضربون الأرض بأرجلهم أو عندما يدورون حول أنفسهم.

كان **النقيب** يقف فى الجانب الآخر المواجه للدائرة، وكان يضع يديه على شفتيه وهو ينشد أغانيه :

يا الله يا ملنجى، يا الله يا ملنجى- فى الوقت الذى كانت فيه جوقة مكونة من اثنى عشر فرداً، كانوا يقفقون فى مواجهته ويرددون القرار وراءه.

كان عوّاض الأب، رئيس الاحتفالات، يجرى هنا وهناك حول الحافة الداخلية للدائرة، وهو يطرقع بسوطه أمام أقدام المتفرجين الحفاة كلما حاولوا تضييق الدائرة.

يوجد على بعد قرابة اثنتى عشرة خطوة داخل الدائرة ممر العارضين الرئيسين - مجموعة من الشبان الزنوج والشابات الزنجيات، دخلوا جميعا وراحوا يدورون حول الدائرة فى استعراض رائع - العبدات الشابات، فرادى أو أزواجًا، مفتولات العضلات، سوداوات سواد الآبنوس، صدورهن متمردة على أجسامهن، جرى اختيارهن لفضائلهن السامية فى أعين الرجال. كانت كل واحدة منهن متشحة بقناع من حرير الموسلين أسود اللون، وخفيف جداً، لا يخفى عينيها، وإنما يؤجج من تأثير عينيها المتلألئتين، شفتاها الغليظتان المزينتان باللون الأحمر القرمزى، حلقة أنفها، حلق أذنيها قلادة جِيدها المصنوعة من الذهب. ثوبها، جديد بلا شك وأُعد خصيصًا لهذه المناسبة، كان عبارة عن عباءة مُنَشَّاة زرقاء اللون تلمع وتتلألأ فى ضوء الشمس. وكانت الواحدة منهن تمسك طرف العباءة الطويلة بين السبابة والإبهام، وذراعها ممدودة محاذية لكتفها، والذراع الأخرى قريبة من جانبها بحيث تبعد اليد مسافة شبر واحد تقريبًا عن عجيزتها، وراحة اليد مبسوطة إلى الخلف فى هذا الوضع؛ ورأسها بلا حراك، ووجهها

لا يتجه يمينًا أو يسارًا، وجسمها يتحرك حركة مكوكية مثل زلاقة من الزلاقات، ومن أمامها يقفز شاب هيمان، فى يده سيف مشهور، ينقر الشاب نقراً خفيفاً على مقبضه، ويتحرك من هذا الجانب إلى ذاك، ثم يستدير ليواجه الفتاة، يبدو أنه مبهور بها، مثلما تنجذب الفراشة إلى ضوء الشمعة.

يصطفُّ العبيد الآخرون على شكل ثلاثيات أو رباعيات، وهم يرفعون البنادق فوق رءُوسهم، ويدورون كما لو كانوا يؤدون رقصة الحصان وهم ينظرون إلى الأمام بغَضٍّ النظر عن الجمال الذى يحيط بهم.

وتمضى فترة العصر ويدخل المزيد والمزيد من الشبان إلى دائرة الطبول الصاخبة. ويقترب هذا الطقس من طقوس العبيد من ذروته. هذا يعنى أن الروح التى تُقلق جثمان المتوفى لابد من انسحابها لتتملَّك "صبيًا من صبية الطبول" والذى يجرى اختياره لقواه، والذى ينسحب من رفاقه فى هذه اللحظة، وتتجه إليه الأنظار كلها. وتزداد حدة ضرب الأرض بالأقدام؛ وهنا ينبرى من تملكته هذه الروح، يقدم كل صنوف التهيج الشديد التى يستطيع جسمه القيام بها - ويتشوه وجهه، وتجحظ عيناه وتحملقان، ويرمى بنفسه وهو يتلوى على الأرض، ويروح يمرغ رأسه فى التراب، ويسيل اللعاب من شفتيه كما لو كان مصابًا بنوبة. ويتضح أنه غُلب على أمره بسبب الإرهاق والاجهاد، ولما كنت أنا قد أعيانى هذا المنظر، آثرت الرحيل عن المكان عندما بدأت طلقات البنادق تدوى فى الهواء، لتزيد بدورها من هذا الضجيج.

وهنا يضع صوت المؤذن حدًا لهذا الاحتفال، هذا إن لم يكن من تملكته الروح قد أغُمى عليه قبل ذلك، وذلك يرمز إلى خروج الروح التى كان يمكن أن تقلق جثمان المتوفى بغير هذه الطريقة. لكن من تملكته الروح كان قد سقط على الأرض مغشياً عليه وبلا حراك؛ وهنا يقوم الأولاد والبنات بالإمساك بأطرافه وينقلونه إلى المنزل، وعندها يتفرق الجميع.



صورة رقم (٣) رقصة من رقصات العبيد

الفصل الرابع

فى جبال قارة: عين الريزات

اضطررت فعلاً إلى البقاء فى ظفار طيلة ثلاثة أسابيع، دون أن أرى أية إشارة أو علامة على مجموعة الإبل التى طال انتظارى لها على أمل مجيئها من الرمال (الصحراء)، ولم أسمع طوال هذه المدة شيئاً عن سهيل، أو المبعوثين اللذين أوفدتهما مؤخراً؛ لم أسمع سوى أخبار الصحراء التى كانت تتقاطر علينا، هى وأخبار الحروب المزعجة وأيضًا شائعات الحروب.

والذى لا شك فيه أن خططى ومخططاتى[1] أثارت فضول الناس فى السوق، وشعرت بأن أفضل الوسائل لتهدئة هذا الفضول هو قيامى برحلة فى جبال قارة. وهذا الجزء من البلاد بِكْر ولم يزُرْه سوى تيودور ومابل بِنِتْ قبل قرابة أربعين عاماً. الأرض هنا تعج بالاضطرابات القبلية، إلى حد أن السلطان لم يفكر ممثله حتى ولو لمرة واحدة أن الوقت مناسب للقيام بجولة فى هذه الجبال، كما أن من سبقوهم لم يزوروا مطلقاً هذه الجبال. يزاد على ذلك أن ظفار وبالأحرى جبال قارة هى بمثابة المدخل إلى الصحراء الكبرى. كنت أتطلع إلى جعل هذه الزيارة

---

(١) على الرغم من أنى كنت أشغل منصب وزير مع صاحب السمو السلطان، وعلى الرغم من أنى سبق أن أدخلت العملة النحاسية المسقطية إلى ظفار فى العام ١٩٢٦ الميلادى (قبل ذلك كانت المعاملات تجرى بطريق المقايضة)، فإنى لم تكن لى أية ولاية قضائية فى ظفار؛ أو على مجلس الدولة فى كل من مسقط وعمان، الذى كنت أنا عضوا فيه. كان السلطان يتعامل مع ظفار من منطلق أنها من الخاصة الملكية. كان حكمه على ظفار من خلال الوالى مسألة شخصية ولا يخضع لأى نفوذ أجنبى؛ كان الحكم قبليًا، وأنا أرى أن ذلك هو أفضل أساليب الحكم للجزء القبلى من الجزيرة العربية.

أكثر من مجرد ستّر لخططى ومخططاتى الأكبر من ذلك، لأنى كنت أتطلع بشغف إلى الفرصة التى تتيح لى العيش بين هؤلاء البشر الذين قمت أنا من قبل بالحصول على مقاييس رءُوسهم؛ كنت أتطلع إلى استكشاف عاداتهم، خرافاتهم، موروثاتهم، وإلقاء الضوء على سيكولوجيتهم وأسلوب حياتهم، وهذه كلها ستكون بمثابة المفاتيح الرئيسة لعالم الأنثروبولوجيا. تُرى، هل يمكن للغاتهم وثقافتهم أن تجعلهم صنوًا لعرب الشمال، أم هم صنو لعرب الجنوب الغربى، وهل يتَحدُّون أى شكل من أشكال التصنيف الموجود داخل حدود الجزيرة العربية؟

تمثل افتتانى بهذه الجبال، من ناحية أخرى، فى كون هذه الجبال قنيصًا مهماً. وأنا بدورى كنت قمت بالفعل بتنظيف بندقيتى الونشستر الجديدة هى والذخيرة، وجهزت أيضاً شبكة صيد الفراش، والصناديق اللازمة لذلك، وكذلك الأدوات الجراحية، وبرطمانات الفورمالين، ولفائف الصابون المطهر، فضلاً عن الصوف القطنى المطلوب لمثل هذه العمليات. ولما كانت الجزيرة العربية على حدود ثلاثة من المناطق الحيوانية الكبرى التى ينقسم إليها العالم، فقد أصبح ذلك يشكل مسائل ذات أهمية وطابع خاص، ولما كانت المتاحف العالمية خالية من أية عينات من الحياة الحيوانية التى فى هذه المنطقة الجنوبية المركزية بصفة خاصة، فإن ذلك كله سوف يعزز من مسألة الصيد ويزيدها أهمية على أهميتها.

كنت قد تعمدت عدم إحضار بندقيتى، نظراً لأنى إذا ما اصطدت طائراً أو أكثر فإن مسألة تجهيز هذه الطيور لتكون عينات، يمكن أن يستغرق قسماً كبيراً من وقتى. كان سكرتيرى المسقطى المدعو على محمد، الذى سبق أن رافقنى فى ترحالى فى شهر مارس السابق، خلال هذه الجبال فى العام ١٩٢٩/ ٣٠، وقام بمهمة تجهيز الطيور التى اصطدتها، قد أصابه المرض فى مسقط قبل أن نبدأ ترحالنا ولذلك خلَّفناه وراءنا. ولما كانت كل عينة من العينات تتطلب أن يكون لها اسمٌ، والمكان الذى جرى جلبها منه، فضلاً عن الارتفاع، فضلاً عن جنسها (نوعها) وتاريخ صيدها إلى جانب تجهيزها، وهنا أصبحت المشكلة التى يتعين علىَّ حلها تتمثل فى طريقة تقسيمى بين هذه الأعمال وبين عمل الخرائط وتدوين الملاحظات. لكن خبرتى ساعدتنى على حل هذه المشكلة، وعلى سبيل المثال؛ فإن مشكلة سلخ ثديية من الثدييات الكبيرة- وبخاصة بعد أن أقوم أنا بعمل الشرح

الرئيس- يمكن إسنادها لواحد من البدو وتكون لديه القدرة على ذلك، وذلك على الرغم من أنى لا يمكن أن أسند إليه مسألة القيام باللمسات النهائية. يزاد على ذلك، أن الجمجمة يمكن وضعها فى ماء ساخن وتترك لتنظف نفسها بنفسها، أما الثعابين هى والزواحف الأخرى فيتعين إخراج أحشائها منها قبل وضعها فى برطمان الفورمالين؛ وأما الفراش والحشرات فليست بحاجة سوى الاهتمام والرعاية؛ وإذا كان الطائر المعتاد الصغير بجلده الرقيق مثل الحرير، يشكل فى زمنى مشكلات كثيرة، فقد آثرت التخلى عن مطلب صديقى الموقر ن. ب كنيار من إدارة جنوب كنسنجتون، وبخاصة أن تشجيع هذا الرجل لى هو الذى جعلنى واحداً ممن يجمعون العينات ويقدمونها لمتحف التاريخ.

بدأنا ترحالنا عصر اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠ الميلادى. وكان رفاقى اثنين من الكثارين ومعهما على الضبعان (وهم ثلاثة رفاق من رحلتى التى قمت بها فى العام الماضى) ومعهم خمسة من العبيد الحكوميين. وكنا قد حددنا موعد ومكان لقائنا بمضيفينا من جبل قارة، فى مكان ما عند سفوح الجبال.

يَمَّمَنا مسيرنا شرقًا فى طريق موازٍ لشاطئ البحر فى المنطقة، بعد حافة (هافه) Hafa ، وعبر بيارة نخيل جوز الهند التى تفصل حافة عن بلدة باليد ذات الأنقاض القديمة. ومن هنا دخلنا السهل الموجود خلف هذه البيارة والذى تنتشر فيه أيضاً أنقاض سطحية[1] قديمة ويطلقون على هذا المكان فى الوقت الحالى الاسم حيلة، ومع ذلك هناك حضارة أخرى أقدم عمراً من الحضارة الموجودة أمام أعيننا، وتشهد على وجودها الأنقاض والآثار الموجودة بالفعل، كما تشهد أيضًا على هذه الحضارة، الأبيار الارتوازية القديمة، ومجارى المياه الجافة والحواف

(١) يتمثل أهم معلم بين هذه الأنقاض فى عمود بدائى ثُمانى الأضلاع وثمانى الزوايا، وتاج مرتكز على ركيزة مربعة الشكل وقاعدة مربعة الشكل أيضاً، أى عمود منفصل مكون من كتلة حجرية واحدة. ويصل ارتفاع هذا العمود إلى ست أقدام فقط، والعمود هو وركيزته يوحيان بأنهما كانا يحملان عقودًا. وهناك قاعدة عمود ترتفع على شكل سلم يطاول قامة الإنسان، وتحمل عمودين أو أكثر اعتمادًا على الحجم، وتنتشر حول هذه القاعدة بقايا أحجار مربعة الشكل اسْودَّ لونها بفعل الزمن.

العالية التى تنتج عن عملية الحرث؛ كل ذلك يشهد على وجود صناعة سابقة فى هذا المكان. يزاد على ذلك أن المحاجر الكثيرة الضحلة الموجودة فى السهل الصخرى، تشير إلى زمان سابق كان الناس فيه يستعملون الحجر على نطاق واسع فى عملية البناء. والزُّراع فى الوقت الحالى يقومون ببعض الزراعات الصغيرة فى هذه الأماكن الضحلة؛ لأن رطوبة التربة تحت السطحية تناسب هذا النوع من الزراعة، والأماكن البعيدة فى هذه المحاجر الضحلة يستعملها الناس ملاذات يهربون إليها كلما اجتاح الجذام والجدرى منطقة السهل(١).

شرعنا بعد مبيت ليلة أزعجنا البعوض خلالها فى السهل الموجود خلف ريزات، فى التوجه صوب جبل ناشيب، أو إن شئت فقل الجانب المنحدر، من جبال القارة. تجاوزنا حديقة السلطان التجريبية فى مهمولة ودخلنا منطقة سفح الجبال الموجودة فى الخلف.

توقفنا فى دغل من الأدغال، بجوار مجرى مائى له خرير، رأينا فيه قطيعاً من الماشية تخوض ببطء فى مائه على شكل طابور واحد، أو واقفة متكاسلة فى ظل الأشجار والشجيرات الكثيفة.

ينبع مجرى ريزات المائى هذا من بُعد قرابة ميلين فوق بلدة ملوة العود، التى تشكل الأشجار إكليلاً على رأسها، ومن هناك تنساب مياه هذا المجرى أو النُّهير، من خلال قناة قديمة، خضراء اللون بفعل الطحالب من ناحية وكزبرة البئر من الناحية الأخرى، وتسير هذه القناة محاذية لضفاف جرداء حمراء اللون التى تغير اتجاهها عبر السهل، من خلال مجريين من صنع البشر، ويتجه واحد من هذين المجريين إلى ضريح أو مزار حمران، فى حين يتجه المجرى الآخر متجهاً إلى الريزات من خلال منطقة المحمولة، وعندها يتغير فضل أو هبة هذا المجرى، هذا يعنى أن ماء هذا المجرى يشحُّ فى هذه المنطقة.

أخذت فى صبيحة اليوم التالى شبكة صيد الفراش ونزلت من مخيمى قاصداً الجانب البعيد من مجرى السيل الصخرى الجاف، لدراسة وتحرى بعض الأجناب

---

(١) يحسب الناس هنا أن العدوى بهذين الوباءَين تنتج عن الضوء المنبعث من الخليج الفارسى.

القديمة. ثبت لى أن تلك الأحجار عبارة عن قبور كبيرة الحجم - أشكال بيضوية الشكل من شرائح الصخر الكبيرة المنبسطة، يصل طول الأثر الواحد منها إلى قرابة اثنتى عشرة خطوة، وهى من قَبيل الآثار التى رأيتها فى كل من خور الريرى وخور السُّولى. والعرب يعدون هذه الآثار دليلاً على أجسام البشر الفارعة فى الزمن الماضى!

نزل إلى الوادى أحد رجال الجبال ماشياً على قدميه. رحبنا به، صمت الرجل فترة قصيرة وبعد أن تعرف نداءنا من خلال رفعه لبندقيته فوق رأسه، بدأ يقترب من المكان الذى كنا نقف فيه.

كان ذلك الرجل واحداً من رجال هذه الجبال الخُلَّص، إذ كان قصير القامة، أسمر البشرة، له شعر طويل متموج، يكاد يكون بلا لحية، وتميزه سماته وملامحه عن عرب الشمال، جبهته العريضة، أذُناه الصغيرتان جداً، أنفه غير الأرمنى، ذقنه الضيقة المدببة، وفكَّاه المربعان من تحت أذنيه؛ رِجْلان نظيفتان مكتملتان، لكنه ضعيف البنية والذراعين. كان رداؤه عبارة عن تنورة مفردة زرقاء اللون تصل فقط إلى ركبتيه. كان جسمه الأسود، الوردى فى بعض أجزائه بفعل صبغ النيلة، عارياً، وكانت رِجْلاه عاريتين أيضاً.. وكانت قدماه حافيتين، وكان عارى الرأس اللهم باستثناء مهفت ضيق، وإن شئت فقل: شريط ضيق من الجلد المدبوغ ملفوف تسع لفات حول رأس هذا الرجل، ومرتدياً إياه على شكل عُقال عربى.

سأله واحد من العبيد كان يعرف عبارة التحية بلغة (بلسان) الشهارين: "هت بى خار" Het bi Kaar.

لم يتكلم ذلك الرجل البرى كثيراً، لكنه راح ينظر إلىَّ متعجبًا ومندهشًا.

"حُرّ! وِلد الناس" بمعنى (حر- وِلد أحرار)؛ قاصداً بذلك:

أنا لست من سلالة العبيد.

"هذا كافر، أليس كذلك؟".

"حاشاك! هو وزير من وزراء سلطانك".

سألته وأنا أضحك، الرجل الذى قال إنه من قبيلة القارة، ما إذا كان يود أن يبيعنى الفول الذى يحمله فى آنيته(١)، أو إن شئت فقل: فى حقيبته الجلدية التى يعلقها فى كتفه، فقد اتضح لى أنه كان فى طريقه إلى الريزات لبيع ذلك الفول.

"كم تدفع؟".

"دولارًا واحداً".

تشمم الرجل، مثلما يفعل سائر البشر فى هذه المنطقة، وذلك فى إشارة منه على موافقته على قبول الدولار ثمناً لما معه من فول، وأخذت الفول منه ولم أكن بحاجة إليه، ولكنى فعلت ذلك لتشتيت انتباهه عن المسائل الدينية. وراح ذلك الرجل طوال بقية النهار يرافقنى ويرشدنى فى أعالى الوادى إلى منبع المجرى المائى، الذى جمعت منه حصيلة وفيرة من الفراش كبير الحجم والفراش العادى فضلاً عن السحالى.

كان ذلك النُّهيْر ينبع من كهف عند قاعدة مُدرَّج مرتفع مكون من منحدرات جبلية صغيرة تكسوها الغابات، على شكل بحيرة واسعة تكسوها حافة من القصب الذى يطاول قامة الإنسان. جلست فى ظل مجموعة من الأشجار العملاقة على حافة ذلك النهير ورحت أراقب الأسماك الصغيرة وهى تندفع فى المناطق الضحلة، فى الوقت الذى راح فيه واحد من عبيدى يحاول الإمساك بتلك الأسماك مستخدماً فى ذلك شبكة صيد الفراش. وسرعان ما تحول انتباهى فجأة إلى السُّرغوم وبقايا أخرى من الطعام موجودة فى القاع. قالوا: "هذه نغوش!". البشر هنا يلقون الخبز على المياه الجارية كيما يستعطفون أرواح الموتى Subiro الطافية فوق الماء.

الكلمة Subiro حسب المعادل لها المألوف لنا، تعنى أرواح الموتى، التى تتملكها قوى خيِّرة وقوى شريرة، وهى قادرة على التعامل مع الإنسان بالطريقة التى

---

(١) هذا ملمح من ملامح اللباس الجبلى. حقيبة من الجلد، لها حزام تعلق فى الكتف. ومنها نوع يستعمل فى حفظ النقود ويقولون له هايان. لكن حقيبة الآنية تستعمل فقط للطعام والتمر والماء.

يجرى بها التعامل معها هى نفسها. والمواطنون هنا يقومون أثناء الليل بإلقاء قطع من التبغ والطعام لهذه الأرواح وهم يصيحون قائلين: ونحن أبناؤكم، نحن بناتكم؛ لا تؤذونا، انتبهوا حتى لا نصاب بأذى من البشر الشريرين، أو من الأرواح الشريرة.

تمثل فصل الربيع فى ريزات هذا العام فى حادث شهير من حوادث الشعر، وقع إبان حكم الوالى سليمان. زعم بيت زيان، وهم فخذ من قبيلة الشهارين، إنهم هم أصحاب الحق المطلق فى ممارسة طقس النغوش فى هذه المنطقة. ونازعت قبيلة القراوين قبيلة الشهارين فى هذا الحق الذى يزعمه الشهارين لأنفسهم، وراحت قبيلة القراوين تطالب بنصيب مساوٍ لنصيب الشهارين من القرابين، كما طالبوا أيضاً بحصة مساوية لحصة الشهارين من هذه النعمة الطيفية أو الشبحية. وقام الوالى آخذاً فى حسبانه نصيب أو حصة حكومته فى السهول، وقرر أن يحصل كل طرف من الطرفين على حصة متساوية، كل على حدة، لكنه نبَّه إلى أن الحكومة هى التى ستقدم الضوابط القضائية، الخاصة بالكميات المحددة من القرابين وذلك من باب الاحتراز للغش والخداع، وبذلك تصبح الحكومة شريكاً وطرفاً فى هذه المسألة، ولكن الموعد حان عندما كان سليمان يقاتل هؤلاء البشر الجبليين، وهنا أدرك بيت زيَّان أن الفرصة مواتية لهم؛ وهنا أهاب بيت زيَّان بأرواح أجدادهم، التى جعلت المجرى المائى يتجه إلى أعلى الجبل. وعليه جفَّت السهول وخسرت الحكومة نصيبها؛ أو هكذا تقول الأسطورة.

الناس هنا فى سائر أنحاء هذه الجبال لا يزالون يمارسون الكثير من العبادات الوثنية والروحانية. كل المواطنين يعتنقون هذه الطقوس ويعضون عليها بالنواجذ؛ فى حين تعد هذه الطقوس فى القسم المُسْلم من الجزيرة العربية أموراً لا تمتُّ إلى الرب بأية صلة، هناك أيضًا عادة محلية أخرى تتمثل فى التضحية بالدم التى يمارسها الناس فى جوربيب وذلك قبل الحصاد مباشرة، عندما يقتادون بقرة ويدورون بها حول المحاصيل ثم يذبحونها بعد ذلك، ويجرى صرف الدم الناجم عن عملية الذبح فى قنوات الرى، ثم يقوم الناس بعد ذلك بإلقاء قطع من لحم البقرة بين عبوات القمح فى الحقول.

كانت الجبال التى تكسوها الغابات تتلألأ فى الشمس الاستوائية، وتقف شامخة كما لو كانت برجاً من فوق البحيرة التى كنا نجلس بجوارها فى الهواء المنعش، ونحن نستمع إلى تغريد الطيور بصوت مرتفع فى الوادى. كان هناك قطيع من الأبقار التى كانت ترعى على الجانب المقابل من البحيرة. كانت هناك أيضاً امرأة سوداء شبه عارية وتحيط بها صديقاتها وهن يمشطن جدائل شعرها الأشعث، وكانت صورتها المنعكسة على سطح الماء تتراقص، وكانت هناك امرأة أخرى نائمة فى قيلولة الظهيرة تحت شجرة مجاورة.

وعندما طلبنا منهن شيئاً من الحليب، جاءتنا عبدة أفريقية صغيرة السن وهى تحمل إناءً كبيراً عامراً بالحليب، وحيَّاها وشكرها مرشدى فى الجبال. قالت هذه الفتاة الزنجية لنا إن النساء الأخريات هن سيداتها، وهن متزوجات من سيد محلى هو صاحب الماشية التى رأيناها وأنه سوف يصل خلال فترة وجيزة. وعرفنا منها أيضاً أن القراوى المزعوم الذى يرافقنى ليس من قبيلة القراوين، على حد قوله هو، وإنما هو من قبيلة الشهارين.

الكذب الذى من هذا القبيل هو خصلة من خصال هذا القسم من سكان الجبال، يضاف إلى ذلك أن سكان السهل يتهمونهم بالعجز عن قول الحقيقة. قال الوالى لى: "لو كان هنا شىء يمكن أن يفعلوه على نحو أفضل من الكذب، فإن ذلك الشىء هو السرقة". إنهم لصوص خبراء ومحترفون، الأخ عندهم يسرق من أخيه، والأب يسرق من الابن، والصبى الذى لا يكشف عن هذه المهارة تدور من حوله الشكوك - هذا يعنى أنهم ييأسون من رجولة مثل هذا الصبى. يزاد على ذلك أن الضحية المقصود سرقته، يُعد خائناً إذا ما أبلغ عن لص جرى الإمساك به متلبساً. وإذا ما أمسك المسروق بالسارق متلبسًا فإنهما يتفقان على جزاء محكم متبادل. والمنازعات القضائية تفصل فيها الحكومة، ولكن حوادث السرقة الصغير لا تعد من بين هذه المنازعات؛ وهذا على النقيض مما عند البدو الذين يعدون حوادث السرقة مهما صغرت، شيئاً كريهاً وممقوتاً. ومع ذلك، فإن السطو العلنى على الإبل أمر لا يستأهل اللوم، لأنه لا يدخل ضمن، حوادث السرقة، وإنما هو عمل من أعمال الحرب، التى يقوم بها رجال مستعدون للتعامل مع الموت، بل والموت بحق وحقيقية.

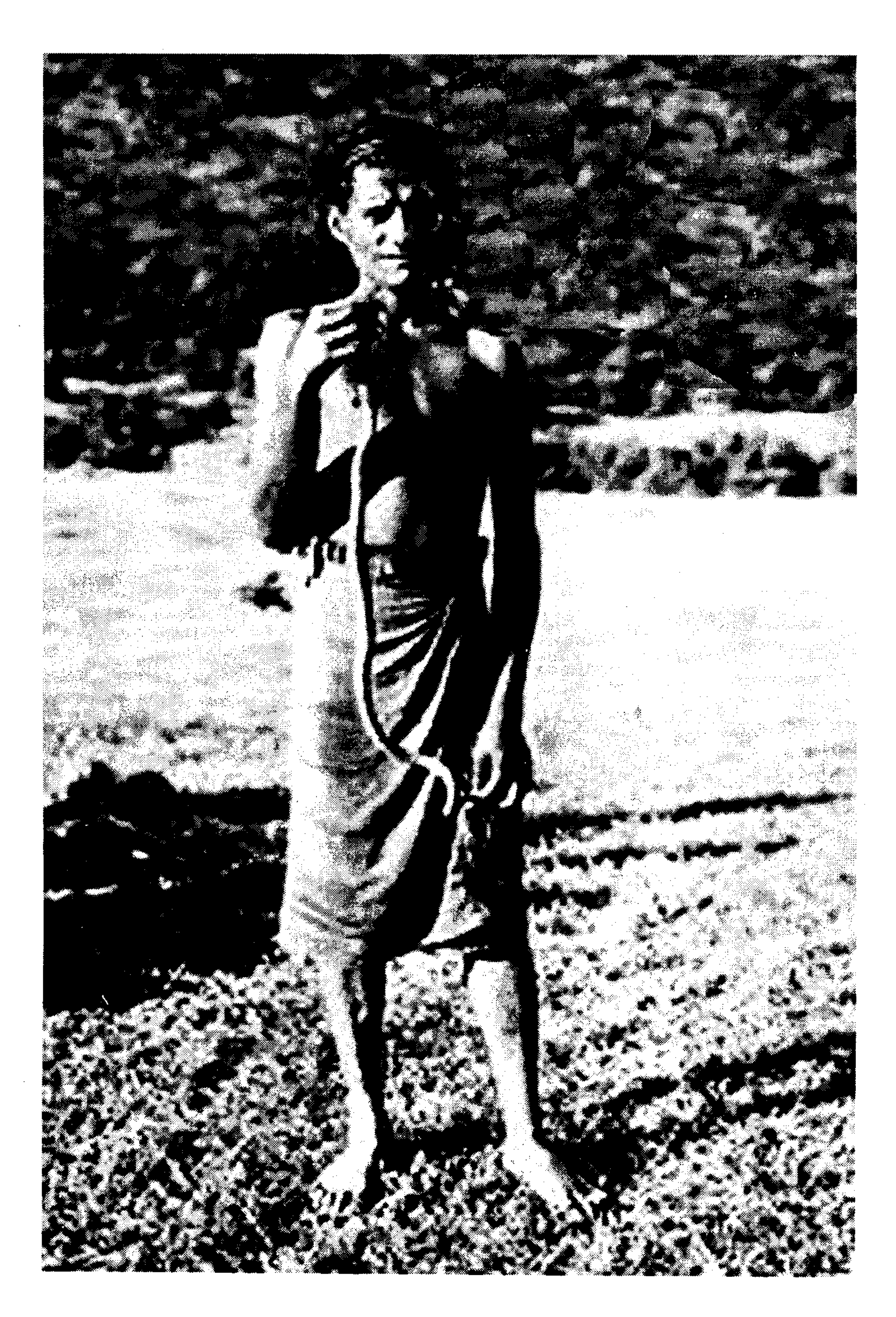
زد على ذلك، إن الشهارى الذى فى الصورة، أراد أن يقدم دليلاً وبرهاناً على أنه هو أيضاً له خصاله وسماته الخاصة به. وقد كشف هذا الصبى عن شجاعة فائقة عندما هاجم وقتل حية من نوع الكوبرا طولها قرابة خمس أقدام وأربع بوصات مستخدماً فى ذلك مشعابه(١). لم تكن المسألة مسألة قتل حيثما يريد الإنسان. والثعبان، أو أى حيوان آخر يكون مطلوباً للمتحف لابد أن يكون رأسه سليماً حتى يمكن الاستفادة منه فى العينات العلمية، ومن هنا كانت مكافآتى للعاملين معى متدرجة، والثعبان عندما يكون رأسه سليماً يجب أن يكون ثعباناً حياً، وهذا الشهارى أمسك بالفعل بذلك الزاحف المميت وهو حى، على الرغم من أن ظهره كان مكسوراً، لمسافة أميال كثيرة على مشعابه الصغير الذى كان يرفعه أمامه. كانت الحية قد ماتت عندما ألقى بها ذلك الشهارى على الحشيش الأخضر، لكن ذيلها كان يتحرك بين الحين والآخر، والذى راح ذلك الصبى يمرره على حاجبيه، قال لنا، إنه يفعل ذلك لأن هذا علاج لعينيه، لكنى تساءلت عما إذا كانت هناك قيمة أو مغزى سحرى مُعَلَّق على طرف انحسرت عنه الحياة.

جاءنا بعد ذلك رجل ضخم البنية من رجال السواحل الذين لا أعرف لهم وصفاً، ومختلف تماماً عن رجال الجبال، ليقول لنا إنه مالك النساء والأبقار التى ترعى على الجانب الآخر من المجرى المائى، وأن اسمه السيد حسن. سألنى ما إذا قد جاءنى ما يكفينى من الحليب؟ لعله يرسل فى طلب المزيد؛ وعليه دخلنا فى حديث ودى عن عالمه وعن أسعار التمر فى ظفار وعن محصول هذا العام فى كل من البصرة وعُمان، وهو ما سوف يحدد السعر مستقبلاً. كان الرجل عند هذا الحد مستعداً ليحكى لى عن الجبال. قال إن السرقات وباء مُتفشٍّ ، وإن الرجال الأخيار والرجال الأشرار، يتعين عليهم الحرص أثناء الليل.

وقال أيضًا إن بندقيته مُعمَّرة بصفة دائمة. وتساءل عن سبب ضعف الحكومة؟ وسألنى أيضاً عن عدم قيام السلطان بقطع يد السارق مثلما كان يحدث من قبل؟ وقال أيضاً إن مسألة أخذ اللص إلى مسقط وإبقائه فيها مدة عام ثم عودته سليماً إلى موطنه من جديد، ليست جيدة أو مفيدة بالمرة.

---

(١) المشعاب: فرع شجرة ينتهى بتفريعة على شكل العدد ٧ . (المترجم).



شهارى وثعبان

لكن المؤكد أن اللص القبلى، على حد تفكيرى، لا يمكن أن يسرق من سيد من السادة، إذ بغير هذه الطريقة لن تساير ظفار الزمن. كان السادة والأشراف(١) هم نبلاء ظفار، ويسبقون رجال القبائل من حيث المكانة؛ يزاد على ذلك أنهم منحدرون من سلالة النبى محمد(ﷺ)، كانوا يرفعون أيديهم إلى فتحات أنوفهم، ويتشممون قليلاً من السعوط، شأنهم فى ذلك شأن كل رجال القبائل المحلية عندما يحصلون على هذا الفضل.

تحول السيد بعد ذلك إلى موضوع العفاريت، التى هى شكل من أشكال الأرواح الشريرة، لكنى أقسمت له بأننا ليس لدينا عفاريت فى بلادنا، ولذلك فأنا لا أعرف شيئاً عن طريقة مهادنتهم. قال الرجل: "أقسم بالله! إن زوجتى حملت سبعة أبطن ولم تلد فى أى بطن منها. لقد أخذت العفاريت هذا الحَمْل".

هناك أرواح شريرة أخرى كثيرة: الجان، الجنِّيات وكذلك الزار. والزار من بين كل ذلك هو الأكثر ملاءمة، والجان يستسلم فى بعض الأحيان للزار، لكن العفاريت لا تستسلم للزار! والعفاريت هى أسوأ المضايقات والمنغصات.

كنت أنا وعلى الضبعان قد رتبنا للسهر فى تلك الليلة إلى ساعة متأخرة من الليل على أمل اصطياد ضبع، لأن الضباع والذئاب تكثر فى هذه المنطقة من سفوح الجبال(٢).

كنا فى الليلة السابقة قد سمعنا دغدغة الضباع التى كانت تتناهى إلى مسامعنا قادمة إلينا من الجبال الصغيرة المجاورة؛ اتضح أن نار مخيمنا لم تشكل أى فارق لهذه الحيوانات وهى فى جحورها وكهوفها. قام على الضبعان اليوم،

---

(١) السادة هم أحفاد الحسن، والأشراف هم أحفاد الحسين. وهم فى واقع الأمر ليسوا من سلالة النبى (ﷺ) وإنما من سلالة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) الذى تزوج من فاطمة ابنة النبى(ﷺ). والعمانيون الذين يتبعون المذهب الإباضىّ (خوارج الزمن الفائت) والذين يشكل الاسم "على" عندهم سُبَّة ولعنة لديهم مثل سائر يقول على العكس من ذلك: "واسأل البغل من هو أبوه" ويجيب البغل قائلا : "كانت أمى فرساً".

(٢) ينبغى التنويه هنا إلى أن الفهد الأسود يوجد فى الوديان الغابية غير المطروقة؛ ووعل الجزيرة العربية يعيش دوماً وراء الجبال المأهولة بالبشر وأيضاً فى جبل سمهان؛ أما الثعالب فهى موجودة فى كل مكان، كما أن الغزال يوجد بأعداد كبيرة فى السهول.

أثناء غيابى عن المخيم ببناء ملجأ مجبينى بالطريقة المتفق عليها؛ هذا الملجأ المجبينى عبارة نصف دائرة من الطوب أو الحجر المُكوَّم تتَّسع لنا نحن الاثنين، وتخفينا عن الحيوانات التى تقترب منا داخل هذا الملجأ. كانت المزاغل المطلوبة لبنادقنا مُمَوَّهة بفروع الشجر شأنها شأن حائط الملجأ. وفيما يتعلق بالطُّعْم، كان على الضبعان قد وضع فى الليلة الأولى أمعاء خروف على بعد قرابة ثمانى خطوات من حائط الملجأ، وشب ناراً بعد غروب الشمس مباشرة بالقرب من تلك الأمعاء، كيما تحمل الرائحة إلى مسافة بعيدة. وفى الليلة الثانية استعمل على الضبعان السردين طُعْماً، ولم يحدث شىء بمعنى لم يأتِ الحيوان المطلوب. وفى الليلة الثالثة انسحبت أنا وحل محلى بدوى من بدو الكثارين. وجاء الضبع بالفعل. سمعت طلقتين سريعتين، وفى إثرهما سمعت عواء استيقظت فى أثره قبل منتصف الليل بفترة قصيرة وهرولت مسرعاً إلى مكان الملجأ. صاح الرجلان قائلين: "هرب مجروحا"، وكانا يشيران إلى بركة من الدم. ولما كانا واثقين من أن الإصابة مميتة، فقد راحا يقتفيان أثر الحيوان إلى المسافة التى يسمح بها ضوء القمر، وأقسما أنهما سوف يجدان الحيوان ميتاً، ولكنى استيقظت فى الصباح لأعرف أن الحيوان استطاع الهرب، والأرجح أنه سيموت فى كهف من الكهوف.

قال البدويان: "لو حدث ذلك فى صحراء مفتوحة، لاستطعنا اقتفاء أثره إلى مثواه الأخير، لكن وصوله إلى الوادى الصخرى، يعنى أن ذلك هو ملاذه الأخير".

الفصل الخامس

فى جبال قارة: الرواسب القديمة والتضحية بالدم

"باطنهم أن بيوتهم إلى الأبد، مساكنهم إلى دور فدور. يُنَادَوْن بأسمائهم فى الأراضى". - المزمور التاسع والأربعون، الآية (١١).

لا تزال جبال القارة معروفة على المستوى المحلى باسم الشهارين(١)، سادة الأرض الأصليين، الذين يُعْرفُون على المستوى الكونى كله بأنهم أقدم قبيلة فى هذه الأماكن؛ يزاد على ذلك أن الموروث المحلى يشير إلى أن الشهارين من سلالة شدَّاد ابن عاد، لكنهم فى أيامنا هذه ضعاف، ومفككون، محتقرون، فضلاً عن أن الآخرين لا يتزوجون منهم، وهم أيضاً عرق آخذ فى الانقراض والتناقص، كما أن عددهم فى الوقت الحالى، لا يزيد على أربعمائة رجل يعيشون على شكل جماعات سادتهم من القراوين، ويعملون فى نحت خشبهم وجلب مياههم؛ ومع ذلك يقول البشر: إن الأنقاض الموجودة حالياً فى رُباط Robat ، هى أنقاض البلدة إريوت التى كانت موجودة هنا فى يوم من الأيام، وأن ذلك مبعث مباهاتهم Eriyot وتفاخرهم.

(٢) السلف الشهرى	الفخذ القراوينى(*)	الاسم المحلى الحالى	اللهجة الشهرية
زوفيرول	بيت تابوك	حاد بى ضمارى	حاد بى ضمارى
جوفاريم	بيت كاشوب	حاد بى ضمارى	حاد بى ضمارى
زارت	بيت قطون	الخاتى	Atkhuti بيت خوتى

---

(١) السوابق ait ، at هى الصورة الشهارية لكلمة bait (بيت).

(٢) السوابق : bir ، air هى الصور الشهارية لكلمة bin (ابن).

(*) نسبة إلى جبل القراوين. (المترجم).

عينارون	بيت المعشانى	قرهه	Ai Qarho
			بيت قرهو
حيزول	بيت المعشانى	فياح	Ait Fat
	بيت جابوب		بيت فات
بلزيون	بيت سعيد	قبله	قبولات
كيتون	بيت عمر (إينر)	ديان	آدين
At Ghuzub.	Airt zurbaig	Ai Zuftair	The Kathir wedge zabriq

لو صح ذلك، فهو يعنى أن اندحار الشهارين وتدهورهم غيَّر وجه الجبال، ذلك أن القراوين، وهم سادة هذه الصحارى بلا منازع بدءاً من ضربات على إلى حضيرام(١) لم يبنوا مدينة أو مسجداً، لكنهم يعيشون فى العراء تحت أشجار الغابات أو فى كهوف أو منازل يصنعونها من القش. وتتمثل ثروة القراوين فى الإبل، وقطعان لا تُحصى أو تُعد من الماشية، وكذلك بيارات البخور. لكن سيطرة القراوين على الشهارين تشير إلى أنهم تمثلوا ثقافة الشهارين، والسبب فى ذلك أن لغة هذه الطائفة من أهالى الجبال، وكذلك ملبسهم وتصرفاتهم يُعْتقد أنها مستقاة من سادتهم الذين جُرِّدوا من ممتلكاتهم.

لا أحد يعرف متى حدث ذلك. وهذا هو ابن بطوطة، الرحَّالة المغربى الشهير وعالم الدين، يكتب فى القرن الرابع عشر الميلادى بعد خمسة وعشرين عاماً أمضاها فى الترحال خلال مصر، الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين، يكتب قائلاً عن ظفار: "شىء آخر هو أن شعب (ظفار) يشبهون تماماً البشر الموجودين فى شمال غرب أفريقيا من حيث العادات... كما أن الجزء البعيد عن وسط الجزيرة العربية ليس عربياً، وإنما هو من أصل سودانى".

وفيما حول جبال قارة وورائها، وذلك فى المنطقة من خط طول ٥١° و١٠′ إلى خط طول ٥٦° و٢٠′ ، نجد قبائل مختلفة من الناحية البدنية عن عرب شمال

(١) وذلك باستثناء الوتد الكثيرى فى الغرب الأوسط فيما بين جورزاز وثيقا.

الجزيرة العربية، كما تستعمل هذه القبائل لغات أُمًّا(١) غير عربية. وهذه القبائل هى: القراوين(٢)، الشهارين(٣)، المهارين(٤)، البراهيم، البلحافيين، بيت الشيخ، البتهاريين، الحراسين، الأفارين(٥)؛ وأهل عمان أو الشعب العمانى يطلقون على كل هذه القبائل اسم أهل الهدارة، ويرجح أن يكون هذا الاسم له علاقة بالاسم حادورام الذى ورد ذكره فى سِفْر التكوين (من حذف حرف الـ m الأخير الذى يشكل صيغة الجمع فى اللغة السامية، يضاف إلى ذلك أن الحرف m يشكل أداة فى اللغة السبئية القديمة)، وهى أيضاً آدراميتاى عند المؤرخ بلنى. يزاد على ذلك أن حادورام وكذلك هذرا مافت (وهما عادة ما تتساويان فى حضرموت)، تردان هما الاثنتان فى سفر التكوين وتسميان شقيقتين، ومعروف أن ظفار مجاورة لحضرموت.

يبدو أن جبال القراويين (القارة)، التى تقع من الناحية الجغرافية فى وسط تلك الأرض العرقية المحاطة بأراضٍ أجنبية، أو إن شئت فقل مسدودة المسالك، فى جنوب الجزيرة العربية، كانت تشكل ملجأ وملاذاً طبيعياً للسكان الأصليين أو المستوطنين الأوَّلين الذين طُردوا فى اتجاه الجنوب والشرق بواسطة بشر أكثر منهم رجولة وفحولة، أو جرى الهجوم عليهم من البحر.

---

(١) من بين اللغات الأربع وبالتحديد اللغة: الشهارية، المهرية، البتهارية، الهرسوسية، حاولت تشكيل بعض المفردات، وكانت كل مجموعة مكونة من خمسمائة كلمة، واستطعت من خلال هذه الكلمات استخلاص بعض القواعد النحوية. وهذه اللغات تنتمى إلى المجموعة السامية، لكن بينها صلات بنيوية تربطها باللغة الإثيوبية أكثر من ارتباطها باللغة العربية.

(٢) الشهرية: يتكلمها القرويون، الشهارين، البراهيم، وبيت الشيخ.

(٣) المهرية: يتكلمها المهريون البتهاريون.

(٤) البتهارية: يتكلمها البتهاريون.

(٥) الهرسوسية (الأفروتية) يتكلمها الهراسين والأفارين.

اللغة الشهرية لا يفهمها من يستعملون اللغات الأخرى، وبرغم ذلك يستطيعون فهم بعضهم البعض بصعوبة بالغة.

لم أكن أعرف أن اللغة المهرية هى واللغة الشهرية قام بتدوينهما الدكتور ماكسميليان بنتر، الفقيه اللغوى الألمانى، الذى كان يشتغل علي مادة قام يجمعها من كل من حضرموت وسوقطره بواسطة الدكتور مولر، فى رحلته التى قام بها إلى الجزيرة العربية (فى العام ١٩٠٢) والرحلة التى قام بها الكونت لاندبرج (فى العام ١٨٩٨ / ٩٩).

جدير بالذكر هنا أن لغة الهرسوى واللغة البوهترية اللتين تبدوان وكأنهما شكلان متباينان من اللغة المهرية، لم يسبق تدوينهما على حد معرفتى.

يا له من مكان جليل! جبال يصل ارتفاعها إلى قرابة ثلاثة آلاف قدم تقف شامخة وعامرة بالدفء والضوء فوق محيط مدارى، ومنحدراتها نحو البحر بغاباتها المتموجة تشبه القطيفة، وتيجان هذه الجبال معطرة بمروج متدحرجة صفراء اللون، تنحدر الجبال من ورائها إلى ناحية الشمال على شكل سهوب مترامية الأطراف حمراء اللون وعامرة بالنِّبُوت الصحراوية. أمران متناقضان، لكنهما واقعان حقيقيان فى سائر أنحاء ذلك الشريط من الأرض الذى يعلو سهل جورييب. ازددت فرحاً وسروراً عندما وقعت فجأة على هذا الشريط من الأرض فى العام ١٩٢٨ الميلادى، بعد خروجى من المنطقة المجدبة القاحلة.

أخيراً بدأ يَحِلُّ محل الأشجار سهل مرتفع معشوشب مضاء بضوء القمر، الذى كان بدراً فى ذلك الوقت وتوقفنا فى هذه المنطقة لقضاء الليل. وهنا ومن خلال جئير وخوار القطعان، ثم بعد ذلك خوار الرَّحَّالات(١)، التى هى أنواع من الأبقار ذوات القرون المتجهة نحو الأسفل، عرفنا أننا توقفنا على بعد مسافة قصيرة من قرية مدسيب. وسرعان ما جاءتنا سلطانيات مملوءة بالحليب، لكنى كنت متعباً إلى الحد الذى حال بينى وبين التعامل مع الثعبان الذى أمسك به حياً أحد المواطنين، وعليه وضعت ذلك الثعبان فى برطمان، وإن شئت فقل قارورة، انتظاراً لطلوع النهار.

استيقظ المخيم فى ساعة مبكرة ووجدت نفسى فى وادٍ معشوشب جليل، فيه قمم صخرية على الجانبين، تنتشر هنا وهناك الكهوف الصخرية الطبيعية التى يتصدرها الصواعد والهوابط(*)، التى أوحت لنا بفكوك ضخمة. كانت هناك جمالونات من القش أو القش الشوكى تحدُّ الكهوف التى يسهل الوصول إليها، والتى يلجأ البشر إليها أثناء برد الشتاء وهرباً من رطوبة الصيف، وهذان الأخيران يعدان نوعين من الترف عند سكان هذه الجبال. وهذا هو حسن آخر،

---

(١) الرحالات: اسم يطلق على سكان هذا المكان على نوع من الأبقار ذوات القرون المتجهة نحو الأسفل. وهذه الأسماء تعد من الموروثات (كما هو الحال فى عائلات الجمال والخيل)، وهذا الاسم مشتق من الاسم الأم. يزعم رعاة القطعان أنهم قادرون على معرفة كل رأس من هذه الأبقار التى يرعونها، إذا ما سرقت. بعد عام أو عامين، حتى وإن كانت هذه الأبقار ضمن قطعان غريبة.

(*) واحدة صاعدة وهابطة: والصاعدة أو الهابطة عبارة عن عمود من ترسبات كربونات الكالسيوم. (المترجم).

وهو رجل ضرير يعانى الشيخوخةَ، يصر على ترك مكانه فى الدائرة ليجلس بجوارى، قُدمت لنا القهوة مع التمر، وتسبب ذلك الرجل فى إضحاكنا جميعاً عندما راح يغمس التمر فى القهوة، واقع الأمر أن الرجل لم يكن معتاداً على هذه الأشياء الترفيهية، هذا إن كان ينظر إلى هذه الأشياء بهذا المنظار.

أثار شيخنا حسن غمغمات الإعجاب المثيرة لأنه كان يرتدى العباءة الزرقاء النيلية التى أهديته إياها، وقلت للرجل العجوز إنى أود أن أرسل له هدية هى مثل عباءة الشيخ حسن بالتمام والكمال.

صاح العجوز قائلاً: "عليك بيض"، وهذا التعبير عبارة عن صورة تعبيرية مغايرة للتعبير الشائع "الله بيض وجهك" (بمعنى بيَّض الله وجهك)، وهو تعبير يدل على الود والاعتراف بالجميل أو الفضل.

واصل الرجل كلامه قائلاً: "والله ! أنا أحبك، يا صاحب. أنا عجوز وأوشكت على الموت، لكن إذا ما قلت، "لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله"، فسوف أعطيك بنتين زوجتين لك، وسوف أعطيك كل ثروتى".

سَرَتْ بين الحاضرين ضحكة مكتومة وأشار الشيخ حسن له بالتقليل من كلامه.

كان صندوق أدويتى قد جر علىَّ شهرة كبيرة، كما هو الحال فى كل الأحوال، وجلب هذا الصندوق علىَّ رهطًا كبيرًا من المرضى والمصابين. وفى هذه المرة جاءوا إلىَّ بصبى صغير، ضعيف وهزيل بسبب إصابته بالسل الرئوى، إذ كان يتفل دماً وكان نهبًا لأنواع كثيرة من الحمَّى.

سألنى والد هذا الصبى متوسلاً، "هل عندك دواء لهذا الصبى، يا سيادة الوزير؟ الناس يقولون إن الكفرة لديهم عقاقير لكل شىء".

أطال رفاقى النظر إلى المتكلم، وحاولوا إفهامه أن المصطلح "كافر" مكروه منى، على الرغم من أن الرجل لم يقصد المساس بى بأى حال من الأحوال، لأنه استعمل هذا المصطلح فى "غير المسلم". قالوا له: "هو وزير السلطان".

كانت عملية التحميل عملاً غير سار نظراً لأن الندى كان كثيفاً. وبعد مسير نصف ساعة محسوبة من بداية التحرك وصلنا إلى نقطة غادرنا عندها الوادى

ودخلنا ممر السَّعارين، لنصعد إلى ارتفاع خمسمائة قدم لندخل منطقة حجرية منحدرة.

وسرنا بعد ذلك فى مروج صفراء اللون متدحرجة، يصل ارتفاع العَلَف فيها إلى حزام الإنسان، وكانت تصادفنا بين الحين والآخر تجمعات من أشجار التين العملاقة التى كانت تتوج قمم الجبال الصغيرة أو توجد فى التجاويف التى بين الجبال. كنا نرى وراءنا وأسفلنا، من بعد، البحر بمياهه خافتة الزرقة، ومن حولنا كنا نرى منطقة منخفضة متوجة صخورها والتى تكسوها الغابات فوق نيهاز، والتى كانت تحدُّ الأفق الغربى بين الحين والآخر. هنا، وعلى ارتفاع ١٥٠٠ قدم نجد أن حياة الطير التى تجود فى الوديان المنخفضة تتناقص هنا وتكاد تكون مقصورة على الصقور العصفورية، وعلى الكثير من اللقالق كبيرة الحجم، لكن الفراشات، الجنادب، والجراد متباينة الأنواع وكثيرة العدد.

ألقينا نظرة على الأسفل حيث يوجد واد يشرح الصدر، هو بمثابة مقصدنا الذى عقدنا العزم إلى الوصول إليه، ويُطْلَقُ عليه اسم العين، وهو عبارة عن مستوطنة من مستوطنات حادبى ضُمارى، وفيها تنبثق من الأرض عين من عيون الماء الموجودة فى بطن الغدير الذى تكسوه الغابات. كانت هناك شجرتان من أشجار التين البرى، وكانت الشجرتان كبيرتين وظليلتين مثل أشجار الجوز الإنجليزية، وكانتا تحملان ثماراً شبيهة بالتفاح، الأمر الذى شدنى إلى التخييم فى العراء، وهنا طالبت بعمل وقفة. أدى التسلق الذى دام ثلاث ساعات إلى إحساس بالعطش، لكن يستحيل الحصول على الحليب فى فترة الظهيرة، يضاف إلى ذلك أن اللبن الرائب الذى أحضروه إلىَّ، جاء بعد أن ارتويت من حليب ثمرة طازجة من ثمار جوز الهند.

ظهرت لنا ونحن ننظر، من حرف الجبل، أو إن شئت قل طُنف الجبل، مجموعة من رجال قبيلة القراوين التي يتزعمها الشيخ حسن، وكانت المجموعة تغنى النشيد الخاص بالقبيلة، وإن شئت فقل الدنادون[1] الخاص بالجبال. هَمَّ بعض أفراد قبيلة القراوين الموجودين فى العين للقاء زملائهم من أفراد القبيلة،

(١) أوردنا فى الملحق رقم ٦ قائمة بأغانى الإبل وأغانى الجبل، قمنا بتسجيلها طبقًا لأصول التدوين الأوربى.

وكان واحد منهم شاهرا سيفه ليرقص تكريمًا للقادمين والترحيب بهم. توقفت الجماعة القادمة على شكل جمهور أو جمع من الناس حول قائدهم، وهو يقوم بحركات بطولية هيكلية مرتجلة احتفالاً بالمناسبة، واصطفوا بعد ذلك وراحوا يتغنون بثنائيات جديدة، ثم جاءوا بعد ذلك إلى أن أصبحوا وجهاً لوجه من المرحبين بهم الذين تمثل دورهم فى ارتجال رد مماثل على أغنية أو نشيد القادمين. وبذلك يستمر الغناء بالتناوب مدة خمس دقائق بين الطرفين.

يشكل رجال الجبال أصحاب البشرة الدَّكْناء، وذوى الشعر الطويل الأشعث الذى يرفعونه ويعقصونه فوق رءُوسهم فى بعض الأحيان، على شكل كعكة، لكنهم فى كثير من الأحيان يتركون شعر رءُوسهم أشْعثَ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البشر لا يتركون الشعر ينمو فى وجوههم، اللهم باستثناء خصلة (سكسوكة) من الشعر فى أسفل الذقن، هؤلاء البشر من نوعية غريبة تمامًا، ووجوهم ليست عربية. لباسهم هو العباءة المعتادة نيلية اللون، والتى يقطعها الأثرياء بحيث تكسو نصف الجسم، وتسمح بوربها على كتف من الكتفين. والواحد من هؤلاء البشر يتمنطق بحزام من الجلد، به فتحات مثل جبخانة(*) الذخيرة، رءُوس هؤلاء البشر مكشوفة، اللهم باستثناء شريط من الجلد يُثَبِّت الرجل به شعره؛ أذرعهم السوداء وأرجلهم من تحت الركبتين عارية. السواد الأعظم من هؤلاء البشر يلبس الواحد منهم فردة حلق واحدة فى الأذن اليمنى وسوارًا مفردًا فوق الكوع الأيمن، شأنهم فى ذلك شأن المهرة أو المهريين والقبائل المعروفة المجاورة لهم.

تطلَّب استقبال رجال الشيخ حسن، منى ذبح بقرة على حسابى الخاص، ووضع على الضبعان فى حسبانه مسألة أن تكون منطقة ذبح البقرة على مقربة من الشجرة، التى سنسهر تحتها، كنت أنا وعلى الضَّبعان مستلقيين فى انتظار شىء ما، وعند الساعة العاشرة مساء جاء حيوان إلى المكان الذى توجد فيه أمعاء البقرة. استحال علينا، حتى على بعد ياردات معدودات، تبين حقيقة ذلك الوحش، كما أن مسألة استعمال النظارات المكبرة عديمة الجدوى مع مثل هذا الظلام. كان كل ما استطعنا عمله هو الانتظار إلى أن يقترب الوحش إلى مسافة تمكِّننا من التنشين الجيد عليه، وهنا يمكن الاستفادة من كل من البندقية التى بحوزتى

(*) الجبخانة: الحزام الذى توضع فيه طلقات الذخيرة، والكلمة من أصل تركى. (المترجم).

وتلك التى بحوزة على الضبعان. وعندما اقترب ذلك المخلوق وهو يتشمم طريقه صوَّبنا بندقيتنا نحوه على أفضل نحو ممكن. وعندما أصبح ذلك المخلوق لا يبعد عنا أكثر من سبع ياردات، لمس على الضبعان قدمى بقدمه، وهى الإشارة التى سبق أن اتفقنا عليها. دوَّت طلقتان فى آنٍ واحد وقفز الحيوان فى الهواء مُحْدثاً نخيراً وسقط ميتاً على الأرض وسط بركة من الدم. قفزنا نحن الاثنين، وكان على شاهراً خنجره احترازًا وتحوطًا للمكر والخداع، لكن جسم الحيوان لم يُبدِ أية استجابة بعد أن ركله على برجله، وبعد فحص الحيوان وجدنا أن طلقة من الطلقتين كانت فى العنق، والطلقة الثانية فى جسم الحيوان - كان الحيوان عينه رائعة لضبع كامل النمو، وكان ذلك أول ضبع من بين خمسة ضباع حصلت عليها خلال الأسابيع القليلة التى تلت ذلك.

تمنيت أن تُتاح لى فرصة اصطياد ذئب من الذئاب، وجاء جئير الأتان فى ساعة مبكرة من الليل - ذعراً على وليدها - إشارة إلى وجود ذئب. كان الطُّعم الذى قدمناه للذئب كافياً، والسبب فى ذلك أنه على الرغم من قيام الذئب بمهاجمة صغار الحيوانات الأليفة، والماعز، والحملان والعجول الصغيرة - فهو مثل الضبع يعيش على الرمم والجيَف. الضبع على العكس من الذئب يحتقر الأجسام الباردة، وعليه فإن الضبع، مثل الإنسان، يعيش على ما يصطاده فقط. ومن هنا يمكن أن يكون الضبع تهديداً للإنسان والحيوان على حد سواء، وفى أضعف الأحوال للإنسان الذى فشل فى الهجوم عليه فى مكان ضيق، وهذا هو السبب الذى يجعل مواطنى هذه الجبال يتعاملون مع الضبع على مدى يزيد على المائة ياردة بخمول ينم عن الاحترام والتقدير. والناس هنا لا يفتحون النار على الضبع إلا عندما يهاجمهم بطريقة مفاجئة وعلى مدى قريب.

تساءل الشيخ حسن، وهو يحاول الرد على إلحاحى ولجاجتى، "تقول الضباع؟ إنها نادرة، أما الذئب، فبإمكانك الحصول على واحد هذه الليلة. أرسل على الضبعان إلى حيث يقيم عَمِّى. وهم سيذبحون الليلة ست بقرات على سبيل القربان لعمتى التى تُوفِّيت فى منتصف القمر (الشهر) الماضى، يزاد على ذلك،

أن رجالى ذاهبون هذه الليلة لحضور هذه الوليمة، ومن المؤكد أن ذئباً سيأتى هذه الليلة إلى مكان الذبح".

وهنا نجد موروثاً عظيماً شديد الأهمية - قربان الدم والقربان المحروق. هنا وفى سائر أنحاء جبال القراوين، نجد قاعدة لا يمكن كسرُها أو الخروج عليها، ومفادها أن نصف أبقار المتوفى يتعين ذبحها بعد وفاته وذلك على سبيل القربان. وبذلك يتعين تبديد نصف ثروة هذا المتوفى من أجل روحه - وذلك من باب الانتقام من منقولاته وإرثه، وذلك على الرغم من أن ذبح بقرة واحدة أو شاة واحدة تكفى عندما يكون المتوفى من الفقراء، قربان المتوفى الذى يُقدر بقرابة عشرين من البقر؛ هذا يعنى أن من يملك ما يزيد على أربعين بقرة، يزيد قربانه على هذا الحد. ومع هذه الأبقار التى يجرى ذبحها، يمكن أن يضاف إليها جمل وبعض من الأغنام، لكن يبدو أن قيمة البقرة فى القربان لا تتناسب مع قيمتها الحقيقية.

وفى يوم الدفن، وعادة ما يكون هو يوم الوفاة، يجرى ذبح بقرة أو اثنتين على قبر المتوفَّى، مع ترديد العبارة التالية Dai bi Huduktos Hadhail ir Hadail .

وهنا يتعين انقضاء ليلتين وفى الليلة الثالثة تقدم بقرة أخرى على سبيل القربان - وهذه البقرة الثالثة التى يجرى ذبحها يطلق على مناسبة ذبحها اسم "الختوم". وتمر فترة أخرى، وهى تتباين حسب أحوال أقارب المتوفى وإمكاناتهم. وهذا القربان الكبير يُطلق عليه اسم يوم النحيرة (يوم النحر). ويجرى تقديم قربان الختوم (الخاتمة) وقربان النحيرة فى المكان الذى كان يعيش فيه المتوفى وليس على قبره. ويقوم أقارب المتوفى بذبح المزيد من الأبقار على سبيل القربان، والشىء نفسه يفعله أصدقاء المتوفى والذين يكون المتوفى قد قام بتقديم قرابينهم من باب المجاملة يوم أن كان على قيد الحياة. يجذب هذا الذبح الذى يجرى على نطاق واسع كل الجيران فضلاً عن البطن من القبيلة التى ينتمى إليها المتوفى، إذ يقوم أفراد هذه البطن بتقسيم اللحوم فيما بينهم وينصرفون إلى حال سبيلهم حاملين معهم هذه الأنصبة الطيبة من اللحوم. والزوار الآخرون الذين لا ينتمون إلى القبيلة ليس لهم هذا الحق، لكن يُدْعون إلى المشاركة فقط فى الوليمة، التى يجرى فيها ذبح بقرة واحدة وطهيها.

يجرى بعد ذلك توزيع ما تبقى من الثروة على أقارب المتوفى(١).

قبائل الحدود الجنوبية أمثال بيت الكثارين، وأيضاً فى جبال القراوين لا تسود بينها الشريعة الإسلامية، وإنما يسود بينها الأحكام العرفية. وبيت الكثارين على سبيل المثال لايمكن أن يعطوا الدائنين أكثر من ثلث تركة المتوفى. والثلثان الباقيان بعد ذلك يجرى تقسيمهما بواقع الربع للزوجة التى أنجبت أبناء للمتوفى، أما الباقى من التركة فيجرى تقسيمه على الأبناء طبقاً للنسبة المعتادة؛ أى طبقاً للمبدأ الذى يقول: للذكر مثل حظ الأنثيين. ويختلف العرف عن الشرع عندما لا يكون للمتوفى ولد وإنما لديه أقل من ثلاث بنات، وفى حال وجود ثلاث بنات أو أكثر، فإنهن يأخذن التركة كلها، وهنا لا يحصل أبناء العم على أى شىء.

قوانين الميراث فى جبال القراوين عجيبة - هؤلاء البشر مقيدون بتأليه قربان الوفاة، وثروة هؤلاء القراوين مثلما سبق وأوضحنا، تتمثل فى الأبقار بصفة عامة، والإنسان عندهم، عندما يُتوفَّى، يقومون بذبح نصف ماشيته على سبيل قربان الدم. والدائنون يحق لهم أخذ ما يقدر بعُشْر التركة، وما يتبقى بعد ذلك يجرى تقسيمه بين الزوجات والأبناء والبنات. والزوجات يأخذن العُشر عندما تكون التركة صغيرة، وعادة ما يأخذن خمس بقرات عندما تكون التركة كبيرة. وهناك ملمح عجيب بين هؤلاء البشر وإن شئت فقل: هذه المجموعة من القبائل؛ ومفاد هذا الملمح العجيب هو أن أقرب أقارب المتوفى. من الذكور لا يحصل على شىء من التركة؛ مع أن الشريعة الإسلامية تجيز له النصيب الأكبر.

وإذا ما كان للزوجة ابنتان، فإن ذلك يجعل نصيباً من التركة لأقرب أقارب المتوفى. وهذا يجعلنا نتفكر قليلاً فى مسألة العددين ١ و ٢، وهناك نقطة خلاف أخرى بين منظومة الجبال وبين قبائل جنوب الجزيرة العربية، لكن طبقًا للشرع فإن الزوجات كلهن يحصلن على نصيب واحد بغَضِّ النظر عن إنجابهن أو عدم إنجابهن.

---

(١) تنص الشريعة الإسلامية على الطريقة التى يجرى بها تقسيم ثروة المتوفى. يضاف إلى ذلك أن حق الوصية محدود للغاية، ويكاد يكون غير موجود عند القبائل. والزوجات الشرعيات هن وكل الأبناء لهم نصيب من الثروة: والابنة تأخذ نصيباً واحداً، والولد يأخذ نصيبين والزوجات يأخذن الثُّمن ويقسمنه فيما بينهن. وإذا لم يكن للمتوفى أبناء، جرى توريث العم أو أبناء العم فى حال عدم وجود العم.

الزوجة فى هذه القبائل لا يجوز لها أن تُظْهر حزنها عندما يُتوفى عنها زوجها. أما الأمهات، والبنات والأخوات فيحقُّ لهن البكاء ورفع أصواتهن، وعند القراوين تسدل النساء شعورهن، ويلطمن رءوسهن، ويهلن التراب عليهن؛ لكن مشاركة الزوجة فى حلقات الندب على المتوفى تعد أمراً مشيناً - هذا يعنى أنها يجب أن تخفى نفسها عن مثل هذه الحلقات.

الفصل السادس

جبال قارة: الضباع، العلاجات الإيمانية والختان

"حمار العين! حمار العين! " تلك هى صيحات - التعبير المسكوك المعتاد الذى يقال عند امتداح شجاعة الرجولة - التى استُقْبل بها على الضَّبعان عندما عاد عند الفجر من مكان القربان، وكان معه ذئب ميت، مُحمَّل على ظهر حمار.

لم أستطع الاصطبار، ولم يكن بوسعى فعل أى شىء أكثر مما يدور أمامى، سوى الاستدارة فى اتجاه على، ورفعت يدى محييًا إياه، وبخاصة أنى كنت مدعوًا إلى أديقاف، تلك القرية الصغيرة، الواقعة على الجانب المواجه لمخيمى والتى يقيم فيها جمعان، شيخ قبيلة الشهارين. كان يرقد فى كوخ من أكواخها الحقيرة رجل يُحتضَر. هذا الكوخ المصنوع من القش على شكل خلية من خلايا النحل، لم يكن طول قطره أو ارتفاعه يزيد على طول أو ارتفاع رِجْل من الرجل، وكان مدخله عبارة عن ثقب لا يمكن الدخول منه إلا زحفاً. كان ذلك الكوخ مفروشا بالقش، ولم يكن فيه وجار(*) بطبيعة الحال.

تمثل كل الأثاث الموجود فى هذا الكوخ الحقير فى وعاء مصنوع من أغصان القصب المجدولة ويستعملونه فى حلب الماشية، بالإضافة إلى بعض الأوعية القليلة الخاصة بالماء، الزبد، أو العسل أو ما شابه ذلك - وهذه الأشياء من صنع النساء. وعلى مقربة من هذا الكوخ كانت هناك بنايات أكبر حجمًا وتوحى بشيء من الطموح، وجدرانها مصنوعة من الحجر، غشيمة، غير مشذبة، وليست مُليَّسة

(*) الوجار: عند بدو الجزيرة العربية هو الموقد المستعمل فى عمل القهوة. (المترجم)..

بالأسمنت. كانت تلك البنايات خاصة بالماشية التى توضع بداخلها فى فصول الاعتدال المناخى، لكن هذه الماشية هى والبشر تأوى إلى الكهوف والأكواخ اتقاء لأمطار الصيف وبرد الشتاء؛ وهذه الكهوف موجودة بأعداد كبيرة فى الوهاد والتجاويف التى تبرز فيها طبقات الحجر الجيرى. معروف أن هبوب الرياح هنا وعلى مر العصور تتسبب فى عمل هذه الكهوف والمغارات الطبيعية، التى لا يلزمها سوى تغطية مداخلها بالقش لتصبح ملجأ وملاذاً فسيحاً لكل من الإنسان والحيوان.

هيا بنا إلى الموجود على الجانب المقابل من المرج الأخضر ومعه الضَّبع الذى اصطاده. هبت أثناء الليل ريح الشمال الباردة على ارتفاع ١٦٠٠ قدم؛ بهواء مشوب بضوء الشمس، معبق برائحة التبن والقش والعلف، الأمر الذى ولَّد إحساساً طيباً بالبقاء فى قيد الحياة.

أحضر البدو لى ثلاثة ثعابين، كان أصغرها يجمع بين اللونين: الأبيض والأسود ويعد نوعًا جديدًا من الثعابين؛ وكان الثعبان الثانى ينبض بالنشاط والحيوية الأمر الذى جعلنى لا أركز اهتمامى عليه؛ أما الثعبان الثالث فكان من نوع الدولولات dololat ، وهو حيوان مخيف الشكل غريبه يبلغ طوله قرابة تسع عشرة بوصة فقط، مربوع مثل الكعكة، وعلى جسمه علامات على شكل الرقم العربى ٧ وله رأس ضخم مسطح - وهو أفعى أفريقية تنفخ رقبتها عند الاهتياج. كان البدو يُحضرون إلىَّ يومياً ثعباناً من هذا النوع، الأمر الذى أوحى إلىَّ بأن هذا النوع من الأفاعى هو الأكثر شيوعاً فى هذه الجبال. هذا الثعبان أبطأ من الأفاعى الأخرى فى تحركه وهو سام بدرجة تؤدى إلى الوفاة، وعليه يتعين على كل من يمشون هنا على الأدغال التى تغطى سطح الأرض، الحذر والانتباه، وذلك على النقيض من مطاردة الفراش من طراز الشراكس؛ على الرغم من أن مطاردة الفراشات من هذا النوع (الذى حصلنا عليه كانت هى الوحيدة الممثلة لهذا النوع الأفريقى من الفراش الذى عُثر عليه فى الجزيرة العربية)، تُحتِّم أن يكون الرأس مرفوعاً إلى أعلى، الأمر الذى يجعل المرء يغفل عن الخطر الموجود تحت قدمه.

وعندما كنت أُخرج أمعاء هذه الأفعى النافخة - وجدت بداخل جسمها سبع عشرة دودة شريطية؛ الأمر الذى خدعنى فترة من الوقت - وفجأة أحسست

بلدغة حادة فى إصبعى وأمضيت ساعة كاملة بعد ذلك وأنا ينتابنى القلق وعدم الارتياح، على الرغم من حذرى واحترازى عن طريق استخدام الملاقط، مخافة أن يكون أى جزء من الأجزاء الداخلية فى هذه الأفعى ساماً. لم تترتب على هذه اللدغة آثار سيئة، وهنا توصلت إلى أن بقعة من الفورمالين قد لمست جزءاً من يدى وإن هذا الجزء ربما كان مصاباً بخدش بسيط.

متسلقو الجبال، أو بالأحرى سكان الجبال، لا يأكلون لحم الضباع أو الثعالب؛ يضاف إلى ذلك أن البيض، والدجاج هو والطيور على اختلاف أنواعها محظور أكلها أو أكل لحومها؛ شأنها فى ذلك شأن الضفادع والقواقع المحرم أكلها فى إنجلترا (١). هذا يعنى أن المسموح به وغير المسموح به فى سائر أنحاء منطقة الحدود الجنوبية للجزيرة العربية أمر يتباين ويختلف من مكان إلى آخر فى هذه المنطقة. وإذا ما استثنينا السكان المستقرين هم وهذه المجموعة المركزية من القبائل التى تتكلم لغات غير عربية، نجد أن الناس يأكلون لحوم الضباع فى كل مكان بدءاً من حضرموت إلى عُمَان؛ وعلى الجانب الآخر نجد أن لحوم الثعالب يحبذها البدو العُمانيون؛ وهذا البدوى المترحل على الضَّبْعان، الصياد العتيد، يُحَبِّذ أكل لحوم الضباع؛ ولحوم الذئاب لا يأكلها أى أحد من البشر. وليست طبيعة اللحم وحدها هى التى يدور الجدل حولها بين المؤمنين، وإنما يدور جدل كبير أيضاً بينهم حول طريقة اصطياد هذه الحيوانات. والشريعة الإسلامية، شأنها شأن الشريعة العبرية، تجيز أكل لحوم الحيوانات التى يجرى صيدها، كما لو كانت قد ذُبحت بسكين جرى تمريره على أزوارها. ومن العبط والسخافة أن نقول لبدوى إن النية، يوم أن كانت الأسلحة النارية غير معروفة، كانت تهدف وترمى إلى مجرد منع أكل لحوم الحيوانات النافقة، ربما حتى بسبب المرض(٢). العربى الأمى يفضل الإرشاد المباشر ويتجنب التكهنات التى من قبيل كفر، بمعنى الزندقة. هذا يعنى أن هذا العربى الأمى قد لا يأكل لحم الطائر الذى له قمة معقوفة. هذا يعنى أن الإيحاء بأن القمة أو العرف المعقوف يدل على أن هذا

---

(١) أبلغونى أن الدجاج والبيض وكذلك الأسماك لا يأكلها رجال القبائل فى منطقة المدينة (المنورة).

(٢) ربما كان الهدف هو استنزاف الدم، وربما كان ذلك لتغذية الإله فى المذبح، قارن هذا بما جاء فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الآية الرابعة، "غير أن لحما بحياته نيئاً، لا تأكلوه".

الطائر آكل للجيف، لا علاقة له بالتحريم الدينى. هذا يعنى أن "لا تفعل" هى القانون؛ وأصل هذا المبدأ هو والسبب الذى يقف وراء، لا يعنى شيئاً أو يهم العربى الأمى، ولا يهمك أنت شخصياً، وعليه، صادفت عسكرياً حضرياً فى عمان، متيماً بأكل لحوم الثعالب، عندما وقف مشدوهاً عندما سألته ما إذا كان لحم الصقور يجوز أكله.

قال: 'هذا مستحيل .. الصقر من ذوات الأعراف المعقوفة. نحن لا نأكل الحُبارى أيضًا، ثم راح يدقق النظر فى على الضبّعان الذى أمضى فترة الصباح فى تقطيع لحم الضبع إلى شرائح طويلة كان يعلقها على شجرة حتى تجف.

سأله الرجل "ما هذا الذى تفعله، يا على؟".

رد عليه على: «أنا آخذ هذا اللحم دواء لصديق مريض فى صلالة (اعتقادًا منه أن لحم الضبع له بعض الخصائص الشفائية فى بعض الأوجاع البشرية، فالمريض الذى يشكو من آلام فى ظهره- يأكل لحم ظهر الضبع، والذى يشكو من ألم فى رجله اليمنى، يأكل من لحم رجل الضبع اليمنى، وهكذا، وهذا الاعتقاد واسع الانتشار). ومن الطبيعى أن يعرف الجميع، بمَنْ فى ذلك العبد الطاهى الذى كان يتلذذ بتداول هذه القصة - أن على الضبعان، ذلك الحضرموتى، كان يدخر هذا اللحم لعائلته وأسرته».

لكن الضبع المحرم أكل لحمه عند سكان هذه الجبال ليس شيئًا أو ضبعًا معتاداً. سكان هذه الجبال لا يمتنعون فقط عن أكل لحم الضبع، وإنما هم لا يقتلونه ولا حتى يساعدون على تدميره والقضاء عليه. البشر هنا يعتقدون أن الضبع حيوان سحرى؛ الضبع هو الجمل الذى يركبه الساحر، والذين يهاجمونه يَجُرُّون على أنفسهم انتقام حَظِيَّته منهم. كما أن الأبقار تنفُق أو قد تحدث أنواع أخرى من العقاب. وعليه، كان القراوين متعودين على رؤية رأس الضبع وأنا أسلقها وأغليها (وهذه هى الطريقة التى أتبعها فى تنظيف الجمجمة) فى الإناء الذى نستعمله فى طبخ الأرز؛ التزم الشيخ حسن، الذى كنت فى حمايته، الحذر، على حد ظنى، لأنه كان يحاول استرضاء ضميره، لأنه كان يؤمن إيماناً راسخًا

بالضبع، ووصل به الأمر إلى حد أنه أقسم لى أنه صادف ذات مرة ضبعًا ميتًا وكان لابساً حلقاً فى أذنيه. والذى لا شك فيه أن سيدة عجوزًا، محظيته مع مجموعة من الطلاسم والتعاويذ السحرية أدت إلى خرم أذنيه ووضع الحلقين فيهما. هذه القصة نفسها أقسم على صدقها شيخ الكثارين فى دارفور، والذى أشهد على صدق ما يقول.

ازدهرت عملية الصيد التى قمت بها فى بلدة العين، لكننى كنت أواجه مشقة كبيرة، بل كنت أفشل فى بعض الأحيان، فى إقناع من يقومون بجمع الفرائس، أن يصطادوها أو يقتلوها على نحو لا يؤدى إلى إتلاف جلد الحيوان على نحو لا ينفع بعده أن يكون عينة علمية. وتمثلت الصعوبة الرئيسة فى مطلب دينى فى إحداث جرح جانبى عميق عبر زور الفريسة، لكن على الضّبعان وأنا معه ابتكرنا حلاً وسطاً يقوم على بمقتضاه بعمل شق طولى فى الجلد أسفل زور الفريسة (وهذا هو ما أبتغيه أنا)، ثم يطويه من جديد ثم يقوم بعمل طقوسه الدينية الأصولية تحت الجلد.

كنت رافضاً تماماً لأى شىء يمكن أن يؤدى إلى إتلاف، وفى ضوء الحل الوسط الذى كنا قد توصلنا إليه، أعرب على الضبعان عن مدى حزنه العميق على الثعلب الذى قتله هو بالطريقة القديمة، ولم يكن مخالفًا للشرع عندما أكل من الفريسة. أعجبتنى هذه التقوى من جانب ذلك القاتل الذى له خمسة عشر ولدا كلهم من الذكور!

ومع ذلك، نظر الجندى العمانى إلى على الضبعان نظرة احتقار، إلى حد أنه قال له: «هذا الذبح ليس شرعيًا - وعليه فلن ألمس هذا الصيد!».

يقضى العرف عند كليهما، أن الحيوان يمكن أن يموت رميًا بالرصاص وأن الأمر سيكون على ما يُرام مادام جرى إحداث جرح جانبى غائر فى الزور، مع البسملة مع اندفاع الدم، «بسم الله الرحمن الرحيم»!.

لا أدرى ما إذا كانت رائحة الطعام الذى يجرى طهيه، أم أن الإحساس بالجوع نتيجة اقتراب موعد وجبة من الوجبات، هى التى جلبت المواطنين إلينا من جميع الاتجاهات. كان من بين هؤلاء المواطنين عجوز من المهارين، لم يأتِ إلينا خاوى

الوفاض، وقف على مقربة منى يراقبنى وأنا أُجْهز على الحرباء التى جاء بها إلينا.

انفجر عجوز المهارين قائلا: «والله! هذه خيانة وغدر ، لقد عثرت على هذه الحرباء بريئة فى دغل من الأدغال، وجاءت وهى واثقة بى، ويا للعجب أنا أوافق على ما يحدث لها!».

أيها العجوز العزيز! أعتقد، أنك ستحصل على دولار. وهنا أخذ العجوز مكانه فى الدائرة بين المتفرجين المسرورين الذين تجمعوا حولى.

سألنى: «هل عندك دواء لامرأة عاقر؟».

أردف شاب قائلاً: «رجل فحل؛ وهنا سرت ضحكة مكتومة بين الجميع».

قلت: «ربما كان هناك دواء، لكن ليس معى دواء - هل هى صغيرة السن؟ عشرين عاما؟».

قال: «أكبر من ذلك، لقد تزوجت من أربعة أزواج قبلى وأنا الزوج الخامس، ومع ذلك لم تنجب لحد الآن».

قلت: «الأرجح أنها ليس لها دواء».

رد علىَّ قائلاً: «هى لا تزال بنت (عذراء) إلى الآن!».

قال الشاب على الفور، وسط ضحكة مكتومة سرت بين جميع الحاضرين: 'قد يتعبك هذا الأمر.. لكنك ستستفيد منه.'

بعد أن انفض الجمع تخلف العجوز وبقى معى، وهنا تبينت أن الرجل لم ييأس.

قال: "أريد منك كتابة" (١) .

---

(١) تعزى إلى المخطوطة التى يلبسها البدوى حول عنقه فضائل سحرية. من يضع هذه التعويذة حول عنقه لا يعنيه ما إذا كانت هذه التعويذة من الكتاب المقدس، على الرغم من أنها فى معظم الأحيان عبارة عن آية من القرآن لأن كاتب هذه التعويذة لا يعرف شيئا غير القرآن. السادة الموقرون يفيدون من هذه المسألة، وبخاصة قبل الخروج إلى الجبال، وهم يبيعون هذه التعاويذ. التعويذة التى تحفظ من عين الحسود تباع بدولار واحد؛ وتعويذة شفاء البقرة المريضة تباع بدولارين، وتعويذة المناعة العامة تباع بأكثر من ذلك.



أول ضبع اصطدناه : الجلد للمتحف . اللحم لعلى الضبعان

«كتابة، لماذا؟».

«كتابة لامرأة لا تستسلم لزوجها».

قلت له وأنا أتهرب من طلب مستحيل: "أنا لا أؤمن بالكتابة التى من هذا القبيل".

رد على قائلاً: "هل تفهم ما أقصده؟".

«نعم، أفهم ذلك تمامًا»، ورحت أكرر عليه قصته.

"لكنها زوجتى - وأنا أود الحصول من السلطان على رسالة يأمرها فيها بالاستسلام لزوجها".

"أخشى أن أقول لك: إن هذا الطلب مستحيل، اعرض قضيتك على الوالى".

طرقع الرجل بلسانه، وتلك إشارة النفى عند سكان هذا الجبل، ثم حوَّل الإشارة إلى كلام:

قال: «لوب! لوب! سيكون ذلك عارًا علىَّ؛ عِدنى أنك لن تفتح هذا الموضوع».

قلت: «أعدك» وهنا هرول العجوز عائداً من حيث أتى، أعتقد أنه عاد إلى زوجتيه الممتنعتين.

كان شيخ القرايين، فى اليوم التالى، يذبح بقرة من باب تكريمى وتشريفى، - وأنا أحذر الرحَّالة الذين يترحَّلون فى الجزيرة العربية من أن هذه هى أغلى الطرق لشراء بقرة من الأبقار - قام أحد الشهارين التابعين لشيخ القرايين بإحضار البقرة المطلوبة. وألقيت على الشهرى نظرة ورحت أتعجب وأسأله إن كانت تلك البقرة "هى كبش من كباشه": والأرجح أنها كانت كذلك. وحضر الجيران كلهم هذه الوليمة، التى أعقبها التغنى بنشيد الهيادانادون hayadanadon ؛ وذلك على الرغم من توصُّلى إلى أن أشعار البطولة والشجاعة تُقال باللغة المهرية، وذلك على العكس من أغانى الحب والغَزَل فى الجبال والتى تُقال باللغة الشهرية. كان الشاعر عبد الله، هو الذى قام بالارتجال الشعرى، وهو رجل مهذار حَبُّوب، سرعان ما سمعت منه حكاية عن أوجاعه وآلامه.

سألنى عبد الله الشاعر، وهو يلفت انتباهى إلى رِجْل من رجليه كانت متورمة تورماً شديدًا، "هل عندك دواء لهذه الرجل؟" من حسن حظى أنى قلت لهم إنى لست طبيباً، ذلك لأنه كان هناك بين المرضى، ميل كبير إلى تصديق قدراتى الطبية وإيمانهم بها.

"منذ متى ورجلك على هذا الحال؟".

رد عبد الله، "منذ ثلاث سنوات، وهى لا تؤلمنى عندما أرتاح، لكنها تتورم وتؤلمنى عندما أجرى، ولم يُجْدِ دم الشاة نفعًا".

تقوم هذه القبائل، فى حال الأمراض البشرية، بذبح بقرة أو شاة، وتنشر دم هذه الذبيحة على كتفَى المريض وعلى صدره عندما تكون الشمس فى كبد السماء. ويتحتم أن تكون الذبيحة أنثى، وهذا تمييز جنسى، لا تجرى مراعاته أو اتباعه فى قربان الموت.

سألته وأنا أشير إلى شامة فوق مجموعة من العروق المصابة بالدوالى، والتى كان يعانى منها معاناة شديدة "ما هذه العلامة؟".

قال: "إنها مكان الكَىّ بالنار". يعد ميسم الكى بالنار دواءً شائعاً فى سائر هذه الأنحاء)، "لكن الكى لم يُجْدِ نفعًا أيضًا. أليس لديك دواء، أيها الصاحب؟ والله! أنا ليس لى ولد، ولو خُيِّرت بين شفاء رجلى والولد، والله! سوف أختار أن تكون رجلى سليمة".

نظر إليه أصدقاؤه وهم لا يصدقون ما يقول.

قلت له : "أنا لا أعرف شيئًا عن رجلك سوى مبضع الجراح، وهذا يعنى أنك يجب أن تقوم بزيارة إلى عدن أو إلى مسقط".

كانت عدن ومسقط عند عبد الله، ذلك الجبلى غير المتحضر، تبعدان بعد المريخ عن الأرض؛ يزاد على ذلك أن الرحلة إلى هاتين المدينتين تنطوى على غياب له غير مسبوق عن زوجاته، وبالتالى أمر لا يمكن القيام به.

قال مستسلمًا: "توكل على الله"، الذى منه هذا الابتلاء، والبلوى، ومنه الشفاء أيضًا.

كانت بشاشة عبد الله شيئاً فريداً. السواد الأعظم من هؤلاء القبليين من النوع العَبُوس، المخادع، الشكَّاك، وكارهين للغير. وهم لا يسعون إلى الاتصالات الشخصية، لكن بالإمكان زرع الروح الاستثنائية بينهم. لا أحد منهم يرى أو يفكر عند وصول ضيف من الضيوف، فى التعبير عن تحية الاحترام السائدة فى كل أنحاء الجزيرة العربية، ولا أحد منهم يلقى تحية الوداع عندما يغادر الجماعة التى يكون بصحبتها، لكنه يمكن أن ينهض فجأة بفعل نزوة من النزوات، ويشد أجزاء بندقيته، ثم ينصرف فى هدوء. وفيما بينهم وبين أنفسهم هم فى شجار دائم وعراك مستمر، وقد اختلطت بهم وأنا متخوف من المتاعب التى تجعلهم يسيئون إلى أنشطتى. وقد تبين لى أن سرقة الأبقار هى السبب وراء كل هذه المتاعب، لأن العلاج لا يكون عن طريق التعويض عن البقرة المسروقة أو إعادتها، وإنما يكون عن طريق الثأر؛ أبلغنى الشيخ حسن نفسه أنه عانى سرقَة قرابة مائة رأس من هذه الأبقار، وأن السرقة كان مبعثها الرئيس ناجمًا عن حقد الأعداء وغِلِّهم، وإن هذه الأبقار جرى تقطيعها وتركها فى مكان ما حتى لا يفيد منها أحد.

قال لى آخرون إن حسن سرق من جيرانه وسلب منهم ما هو أكثر من ذلك بكثير، وقالوا لى أيضا إن قسماً كبيراً من سمعته الحالية مستقى من الصولات والجولات التى قام بها فى شبابه.

حدث اليوم إنذار عجيب!

"يا وُليد! يا فرحة! يا وُليد! يا فرحة!" دوى هذا النداء فى سائر أنحاء المنطقة، وراح الجميع ينظرون إلى الشخص القادم من بعيد عند خط الأفق الشمالى، وكان يرفع التجويد، أو إنذار الحرب! تُرى، هل كان بدو السهوب قادمين، نظراً لأن السَّعارين، سبق لهم فى الماضى، أن قاموا بغزو القطون.

وهنا رأيت بخيت، ولد الشيخ حسن، والذى كنت على وشك إيفاده إلى ظفار لشراء المؤن، وإحضار الأخبار الجديدة، يمسك ببندقيته وراح يجرى وهو يعمرها، بصحبة الآخرين، وتركنى واقفاً مع عدد قليل من الشهارين الذين لم يتحركوا لما

حدث. والشهارين أناس لا حول لهم ولا قوة، وليس لديهم مانع فى أن يسلبهم الغير أو ينهبهم، وهم على استعداد أيضًا أن يسمحوا بقتل واحد منهم، دون أن يرفع أحد منهم حتى ولو إصبعه، دفاعًا عن نفسه.

"بهايم تحت الله" بمعنى "ماشية الله أفضل منهم"، قال الشيخ حسن هذه العبارة فيما بعد عندما كان يتحدث معى وأردف قائلاً: "إنهم يخافون من سفك الدماء!".

هذا، فى واقع الأمر، هو لُبّ الموضوع، وإن شئت فقل الحد الفاصل بين النفوذ والحط من الشأن، بين القبلى وغير القبلى، بين القراوين، والمهرة، والكثارين من ناحية، والشهارين، والبراهمة، وبيت الشيخ، من الناحية الأخرى: أعنى هنا على وجه التحديد القوة والرغبة فى القتال؛ وهذا الفارق نابع من وعى مشترك من جانب القبلى، بأن الأعمال التى يأتيها هو أو أى عضو من أعضاء قبيلته إنما هى أعمال من صنعه هو أو واقعه عليه هو نفسه، وإدراك هذا القبلى لكل النتائج التى يمكن أن تترتب على مثل هذا الوعى.

يقول أحد القبليين، الذى يعد الزواج من عبد لا يمكن أن يخطر على البال: "الشهارين! يا للعجب، العبيد أفضل منهم!" إنه لشين؛ ناهيك عن النبلاء- سادة وتجار الساحل- إنهم يتخذون من بناتهم العبدات محظيات لمجرد المتعة!

تؤكد طريقة معاملة القراوين للشهارين، وبلا أدنى شك للرحَّالة، من هو صاحب الأمر والنهى، على الرغم من أن الشهرى الأصيل (الذى لا يخضع لخطر الزواج من خارج أهله لابد وأن يكون نقياً من الناحية العرقية) يمكن تمييزه عن الشهارين الآخرين بوجهه الأعرض من وجوه جيرانه، ومن أوجه عرب الشمال. يزاد على ذلك أنه يمكن تمييزه أيضاً من سلاحه، ذلك أنه يندر أن تلتقى شهرياً حاملاً بندقية.

لباس أهل هذه الجبال ليس هو الفريد فى نوعه فى سائر أنحاء الجزيرة العربية، وإنما أسلحتهم تعد أيضاً فريدة فى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية - وسلاح أهل هذه الجبال عبارة عن سيف له حَدَّان، وتُرس أو درع (من النوع المستدير الموجود بين القبائل الحامية)؛ بالإضافة أيضاً إلى ما يسمى الآجت -

وهى عبارة عن عصا ثقيلة مستقيمة مصنوعه من خشب المتين(١) ومدببة من طرفيها وترمى بمهارة فائقة. وهذا هو السلاح المعتاد فى الجبال، أما الأثرياء، وهم أصلاً من القراوين، فيحمل الواحد منهم بندقية، وهنا لا يستلزم الأمر حمل سيف بحدين، وإنما سيف بحد واحد، وبدلاً من الآجت، يحمل الرجل منهم عصا عادية.

سألته "من أين جاء هؤلاء الشهارين؟".

"الشهارين هم أولئك البشر الذين قتلوا ناقة النبى صالح (عليه السلام) ، وهم يعانون ويقاسون إلى يومنا هذا بسبب حماقتهم وشرهم، وهم لم يعودوا بعد قبليين، بمعنى أنهم ليسوا أشرافاً".

سألته وأنا أتظاهر بجهلى بقصة الشهارين "وهل كانت لصالح بن هود ناقة؟".

واصل الراوى، وهو مشفق علىَّ لجهلى بفرعه المعرفى «ألم تسمع عن ناقة صالح". هذه الناقة هى الأشهر بين كل مخلوقات الله تعالى!» وأشار بعصاه إلى مسار الشمس فى السماء مواصلاً كلامه، "كانت الناقة تقطع الرحلة من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، وكانت تلك الناقة تنتج العسل والحليب والنبيذ اللازم لكل البشر. كان ذلك فى زمان تلمود Talmud وعاد Ad(*) لكن رجلاً جاهلاً من الشهارين قتل الناقة، وأرسل الله تعالى وباءً من النمل على الشهارين، وراح النمل يزحف على أرجلهم وعلى أجسامهم ثم ابتلعهم، ولم يبقَ منهم فى قيد الحياة سوى عدد قليل جدًا إلى يومنا هذا!».

سمعت هذه القصة، على شكل مسلسل من رجل عجوز قال: "هذا الشهرى الشرير أغوته امرأة وراح يطارد بعير (وليد) ناقة صالح، على أمل أن يقتل ذلك الوليد أيضًا. لكن الله، وضع كهفاً فى الطريق، ودخل وليد ناقة النبى صالح(٢) (عليه السلام) فى ذلك الكهف وأغلق مدخله، ليصبح على شكل حائط جبلى وحال بين

---

(١) هذا النوع من الخشب ثقيل للغاية، ويغوص فى الماء. ولا ينمو سوى فى جبال ظفار.

(*) المقصود هنا هم قوم عاد وثمود. (المترجم).

(٢) يتعين على هنا استعمال الكلمة Colt بدلاً من Colf. أسوة بما جاء فى سفر التكوين فى الإصحاح الثانى والثلاثين، الآية الخامسة عشرة. (المترجم).

ذلك الشهرى الشرير وبين مطاردة الوليد؛ توقف العجوز برهة من الوقت وقال: "شوف! سبحان الله"- "هل نصف ذلك بأنه لا شىء؟".

"وما هو أصلكم أنتم أيها القراوين؟".

"العرب يسموننا القراوين، أما نحن فنطلق على أنفسنا اسم الهكلاى، ونحن جئنا إلى هنا من حضرموت، وقد جئنا إلى حضرموت من عرض البحر".

سمعت ذلك يتردد مرات كثيرة، كما أن الشيخ حسن، شيخ القبيلة يقول: إن القبيلة هاجرت فى اتجاه الغرب مع المهرة، وإن شئت فقل المهارين وأن القبيلتين مكثتا معًا فوق حباروت. وأنا شخصياً أرى أن ذلك غير محتمل، والسبب فى ذلك أن القراوين هم والمهاريين، شأنهم شأن الشهارين والبراهمة، ليس لديهم وشم للإبل، وعليه فإن مسألة القبيلة التى كانت رعوية فى يوم من الأيام ولا تزال تربى الإبل ولا يكون لها، أو ضاعت منها علامة وشم الإبل التى تعد شعار النبالة، أمر لا يمكن أن يصدقه عقل. غياب هذا الوشم أو هذه العلامة يوحى بأن هذه القبائل جاءت عن طريق البحر.

هكلاوى هو سلفنا أما القراوين فقد انحدروا أو جاءوا من قريش. هكلاى هو وباليوز[1] جاءا من عرق واحد: لكننا عبرنا البحر.

وهنا انبرى أحد السادة موضحاً أن قريش المذكورة هنا ليست هى قريش التى ينسب إليها نبيه الموقر، وأن قريش المذكورة هنا هى قريش المذكورة فى موروثات القراوين.

كان كلام ذلك السيد مُهمًا عندى لأنه ينطوى على وعى بالتباين العرقى عن العرق العربى الأصيل. من المفهوم أيضاً أن القراوين هم بقايا عرق من الأعراق - ربما كانوا دردوراً صغيراً من ذلك السيل الحبشى من الغزاة المسيحيين، الذين غزوا جنوب غرب الجزيرة العربية قبل الإسلام وارتدوا عن مِلَّتهم هناك.

---

(١) هذا المصطلح مستخدم فى الخليج الفارسى وعلى ساحل الجزيرة العربية ليشير إلى عامل سياسى بريطانى. ويقال أن هذا المصطلح مشتق عن طريق القلب المكانى للحروف من الكلمة اللاتينية المنخفضة bailus والكلمة اللاتينية bajulus مأخوذة من كلمة Bailo ، لقب ممثل جمهورية البندقية لدى الباب العالى.

لم يكن لدى الرواة المرافقين لى أى علم بهذه المسألة؛ لأنهم يرون أن الدنيا مقسمة إلى قسمين: مؤمنين وغير مؤمنين، على الرغم من أنهم لا يعرفون أى شىء من نصوص القرآن. ويندر أن تجد فى هذه الجبال رجلاً يقرأ ويكتب، اللهم باستثناء قلة قليلة من السادة الجائلين. الكتابة، بطبيعة الحال، لها مغزى ومعنى ساحر، من منطلق أنها حدث مهرى عارض، والكثيرون من المهريين يحبون عرض الكتابة، يضاف إلى ذلك أن من كانوا يترددون على طلب الدواء، كانوا شغوفين عندما يروننى أنظر فى كتابى (كان ذلك الكتاب عبارة عن خريطة منجمة) بغية معرفة سبب مرضهم.

واصلت كلامى قائلاً: "بلغنى أن القراوين منحدرون من حِمّير".

قال السيد العليم: "هل تقصد حميار أم حِمّير، لأن هناك اثنين وليس واحداً".

رد على القراوى: "الله أعلم. أنا لست ابن الأمس - أنا لم أكن موجوداً فى ذلك الوقت، فكيف لى بمعرفة ذلك".

كان قد خطر على بالى أن الكلمتين 'مهرة Mahara' و 'حِمّير Himyar' هما كلمة واحدة وإن القلب المكانى لبعض الحروف له دخل فى ذلك، وذلك على الرغم من أن العرب لا يستعملون سوى الكلمة "مَهرة" Mahr، لكن هؤلاء المهرة يذكرون فى لغة الجبال باسم "إنهارو" Inharo (وإن حرف n (النون) يكون أنفياً) - ولما كانت هناك بعض الفروق البدنية والفروق اللغوية بين المهارين والقراوين، فإن أيًا منهما لا يتفق على أنهما من أصل واحد.

قالوا: هذا شأنهم "وماذا عنكم أيها الإنجليزي؟".

قلت زاعمًا: "نحن لسنا أقل منكم شرفاً وتكريمًا!".

"إذن، هل أنت قُبَيْلى؟(*).

كان ذلك سؤالاً محيراً، ذلك أنه فى ظل هذه الصراحة المباشرة، يصعب الحديث عن منظومة قبلية إنجليزية جديرة بالامتداح والثناء؛ لأن البشر فى هذه المنظومة لا يحملون البنادق، ولا يدافعون عن شرفهم بأيديهم؛ وفيها النساء غير

(*) نسبة إلى القبيلة وتكون بضم القاف وفتح الباء وتسكين الياء. (المترجم).

محجبات ويتساوين مع الرجال. يزاد على ذلك، أنا لا أود أن أضحى بمكانتى فى أعين رفاقى.

قلت لهم: "نحن النصارى (هذه الكلمة مساوية تماماً لكلمة إنجليزى) قبيلة قوية جداً".

"ومن فى رأيك، هو سلفكم؟".

قلت فى شىء من الروغان: "آدم! وهذا يعنى أننا كنا مرتبطين بعضنا ببعض ارتباطاً وثيقاً فى بداية الأمر، ونحن لم نفترق بعد ذلك".

قالوا: "هذا حق" وكانوا جميعاً ينظرون إلى بعضهم البعض وكأنهم يقولون "هو يتكلم عن حقيقة سماوية مقدسة".

"هل تمارسون النظافة؟ (أى الختان)".

قلت مراوغًا تهربًا من الإجابة عن السؤال: "الختان ليس إجباريًا".

"هذا يعنى أن بينكم رجالاً غير مختتنين ونساء غير مختتنات".

أجبته معترفًا: "نعم".

الختان عند هذه القبائل طقس شديد الأهمية، ومختلف عن الختان فى سائر الأنحاء الأخرى من الجزيرة العربية، وهذا يوحى أن الختان فى هذه المنطقة مستقل عن المناطق الأخرى. والذَّكَر يجرى ختانه عندما يبلغ، والبنت يجرى ختانها فى يوم مولدها. نظام ختان الذكور والإناث هنا على العكس مما هو عليه فى الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية[١]؛ وبصفة خاصة فى عُمان حيث يجرى ختان الذكور فى مرحلة الطفولة (قرابة ست سنوات)، وختان البنات يكون فى قرابة سن العاشرة.

وفى الإقليمين، نجد أن ختان الذكور يكون بإزالة كامل الجلد الأمامى الذى يغطى رأس الذكر، لكن فيما يتعلق بختان الإناث، نجد أن عرب عُمان يكتفون

---

(١) قيل أن ختان الذكور فى وادى أعالى نهر الفرات يجرى عندما يصبح الرجل بالغاً جنسياً، أما الإناث فلا يجرى ختانهن مطلقاً؛ وهم يفسرون مرحلة البلوغ الجنسى بأنها تعنى الفترة من سن الثانية عشرة إلى سن الثامنة عشرة.

(١) تصفيف الشعر
(عند البنات)



(٢) تصفيف الشعر
(المتزوجات)

بقطع الجزء العلوى فقط من البظر، فى حين نجد أن قبائل الجزء الأوسط من الجنوب يجتثون البظر بكامله. ختان الذكور هنا يتفق مع عملية الختان عند قدماء المصريين، لأن مومياوات الذكور التى جرى العثور عليها فى طيبة تثبت أن هذا الطقس كان الناس يمارسونه. هنا فى هذه الجبال، تُقام الاحتفالات احتفاء بختان الذكور؛ وفى مثل هذه المناسبة نجد مجموعات من الشباب يجتازون ما يمكن تسميته أقسى اختبار عام لقوتهم فى ذلك اليوم. فى هذه المناسبة، تتجمع أعداد كبيرة من الرجال والنساء من حول ميدان كبير واسع، ويجلس على صخرة فى وسط هذا الميدان مجموعة من خمسة عشر شاباً، يحمل كل منهم سيفه فى يده. هذا السيف الذى يجرى تثليمه لهذه المناسبة، يقوم الشاب بقذفه فى الهواء، ليقوم بالإمساك به مرة ثانية عند هبوطه نحو الأرض، بحيث تمسك راحة يده بحد السيف. ويجلس المُطاهِر[١] (المُختِّن)، ذلك الرجل العجوز، من أمام هذا الشاب؛ ومن خلف المطاهر تقف عذراء كاشفة، وغالباً ما تكون هذه العذراء أخت الشاب أو ابنة عمه، وهى ممسكة أيضاً بسيف فى يدها.

تقوم هذه العذراء برفع سيفها وحفضه فى وضع عمودى، وفى نهاية كل ضربة تقوم هذه العذراء بضرب السيف براحة يدها اليسرى، وهنا يصبح المسرح جاهزاً. ويجلس الصبى، رافعاً راحة يده اليسرى إلى أعلى، فى وضع المبتهل إلى الله، وهو ينتظر بدء عملية الختان. وبعد الانتهاء من الختان، ينهض وهو ينزف مسرعاً ويأخذ فى الجرى حول المتجمعين وهو يرفع سيفه ويخفضه كما لو كان يتناسى الألم، وبهذا العرض يمكن بعد ذلك الحكم على رجولته وشجاعته[٢].

ويكون طقس الختان محاطاً بأغانى الشجاعة وقرع الطبول وإطلاق نيران البنادق، وتقوم النساء بفتح ملابسهن من أعلى فى حركة منهن للكشف عن

---

(١) عادة ما يكون المطاهر شيخاً أو رجلاً من أسرة طيبة، فى حين نجد غجرياً أو عاملاً عادياً يقوم بهذه المهمة.

(٢) كان ختان الرجل عند قبيلة المهرة، يجرى فى وقت من الأوقات، فى ليلة زواجه. ولكن فى هذه الأيام تتم هذه العملية قبل الزواج بفترة كافية للشفاء، وفى هذه المناسبة يتجمع الرجال والنساء حول نيران الصحراء، وهنا تتجمع ثمانية أو عشرة من النساء الحسناوات ويرحن يستعرضن أمام الرجال الذين يحددون الأجمل من بينهن، فى حين تروح الحسناوات الباقيات يعبرن عن احتجاجهن بقولهن: "لا! لا! لا! لا!".

نهودهن، لكن هذا المرح، لا يوجد أى شكل من أشكاله، عند ختان البنات، الذى يجرى فى السر.

يبدو أن تصفيف الشعر فى هذه القبائل مرتبط بالحياة الجنسية. تعد الضفيرة الرئيسة مَعْلماً واضحاً من معالم هذا التصفيف عند الصبية الصغار، وهذه الضفيرة ربما تكون لها علاقة بضفيرة حورس المصرية القديمة، وهى توحى بخوذة رجل الشرطة العالمى، أو تُعيد إلى الأذهان ذكرى طبقة محددة من الهندوس. وهذه الضفيرة لا يجرى قطعها إلا عند عملية الختان، ويُسمح للشعر بعد ذلك أن ينمو بصورة طبيعية.

لا يقل تصفيف شعر النساء غرابة عن تصفيف شعر الرجال؛ ذلك أن شعر البنت الصغيرة يجرى حلقه على شكل شرائط متبادلة على الطريقة البودلية(*)، مع الإبقاء على فرنشة على الجبهة؛ ويجرى حلق الجزء الخلفى من الرأس على طريقة حلق وسط الرأس، اللهم باستثناء ثلاث أو أربع جدائل رفيعة. وعندما تتزوج الفتاة، وعادة ما يكون ذلك فى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، يُترك الشعر ينمو نمواً طبيعيًا. وفى غضون شهر من الزواج، ومن باب الإشارة إلى أن الفتاة لم تعد عذراء، يجرى عمل شرخ يصل إلى قرابة ثلاثة أثمان البوصة، على فرق فى وسط الرأس، وذلك منعًا لنمو الشعر فى هذه المنطقة مرة أخرى[١]، وهذه عملية مؤلمة وقد تكون مميته فى بعض الأحيان.

تزين النساء، فى المناسبات العادية، وجوههن بطلاء عبارة عن علامات سوداء على شكل خطوط مرسومة بطريقة عجيبة، وهن يُزَيِّن وجوههن باللون الأحمر والأسود والأخضر فى الأعياد. وهذا يجعل منظر الوجه مثل البلياتشو، أو المهرج - وهن يُحدثن خطاً أسود يمر من أمام شعر الجبهة، وحول الخدين، والفك ثم الذقن. ويحدثن خطًا أسود آخر يُطَوِّق فتحتَى الأنف ويمتد على شكل خط

(*) البودل: نوع من الكلاب يتميز بالقد الصغير والشعر المجعد. (المترجم).

(١) لا يسمح بوجود شعر العانة أو تحت الإبط عند المرأة. وهى تزيل هذا الشعر عن طريق النتف، أو باستعمال شمعة من البخور.

مستقيم إلى الخدين على الجانبين إلى أن يصل إلى فتحة الأذن. وهن يحدثن خطوطاً مستقيمة لرموش العينين وتمتد هذه الخطوط فى اتجاه ما فوق الصدغين بقليل؛ كما يحدثن خطين عموديين قصيرين تحت العينين. وهن يطوقن أزوارهن بشرائط سوداء. وقد يحدثن بقعة قرمزية اللون فى وسط الجبهة، وهذه لمسة هندوسية، وهن أيضاً يدهِنَّ شفاههن باللون الأحمر. والمرأة المتزوجة تدهن فرق فروة الرأس، الذى يسمونه المنسروت - بخط أسود اللون. ويشيع بين نساء هذه القبائل إحداث علامة وشمية على آذانهن، وهذه العلامة عبارة عن خط بين نقطتين، على النحو التالى ٠١٠، وقد أورد إدوارد لين فى كتابه عن مصر، أنه لاحظ هذا الشىء فى مصر.

مجوهرات النساء فَضْفَاضة ومدندشة. وأذن الأنثى يجرى تخريمها أثناء طفولتها على بعد مسافات متساوية فى ستة أو سبعة أماكن، ويجرى تزيين الأذن بحلق كبير خفيف الوزن، أو بسلسلة فضية صغيرة. وعندما تقترب الأنثى من مرحلة البلوغ الجنسى، يجرى إحداث ثقب فى أنفها تعلق فيه حلقة أنفية، ومتجهة إلى الأمام من فتحة الأنف اليسرى. والخواتم الكثيرة التى تلبسها المرأة فى أصابعها لا علاقة لها بالزواج؛ والأنثى تطوق جيدها بقلادة من المجوهرات رخيصة الثمن، لكن الإناث فى هذه القبائل لا يلبسن خلاخيل، كما هو الحال فى الإناث الساحليات.

جاءت للقائى سيدة عجوز من المهرة، غير محجبة مثل سائر بنات جلدتها، وقد لطَّخت وجهها بلا تمييز بصبغ السُّبور (الذى يحصلون عليه من شجرة محلية). كان الصِّبغ نفسه يلطخ ذراعيها من المرفقين إلى الأسفل، ويلطخ أيضاً رِجْليها من الركبتين إلى الأسفل، ويلطخ الصبغ نفسه أيضاً منطقة الصدر حتى العنق. كان لباسها عبارة عن لباس فضفاض أسود اللون، منخفض فى منطقة العنق وتصل حافته إلى الأرض، ولهذا اللباس زجزاج من قماش الموسلين الحريرى أسود اللون، من حول الكتفين، لكن هذه الملابس كانت خضراء اللون ومثيرة للضيق بفعل القِدم والزمن - **الأمر الذى جعلها تبدو مثل القردة.**

كانت هذه السيدة قد أحضرت لى معها هدية، وعندما فتحت هذه السيدة سلتها المصنوعة من البوص، التى كانت تحمل فيها تحفاً زينية زهيدة القيمة، راحت تستعرض بعضًا من عاداتها الأنثوية. كان السقُوط والتسقُّط من بين هذه العادات؛ وهى عادة أصيلة عند النساء، لكنها لا توجد عند الرجال. الرجال يدخنون ولكن النساء ليست عندهن هذه العادة، على الرغم من أن الجنسين يمضغان- المُضغَة، عبارة عن خليط من التبغ ومادة صمغية تؤخذ من بعض الأشجار، ويضع الرجل أو المرأة هذا الخليط فيما بين اللثة والخد؛ ويقال إن هذا المخلوط له تأثير مخدر.

كانت الهدية التى أحضرتها لى تلك العجوز المهرية، ظناً منها أنها ستشرح صدر المرأة الأوروبية الافتراضية، عبارة عن أداة من أدوات الزينة وتجميل الوجه - قطعة صغيرة من الفَخَّار المحلى جميلة الشكل وتعيد إلى ذاكرتى ذلك المصباح الرومانى- ساقى الأنف الذى يشيع استعماله فى سائر أنحاء هذه الجبال. كان ذلك الساقى ذو البزباز مليئاً بنوع من الزبد النقى، وتروح المرأة وهى مستلقية أو مضطجعة، تضع ذلك السائل على فتحة أنفها، وراحت تُفْرِغ أيضاً جزءاً صغيراً من المحتويات على رأسها. قالت صاحبة الهدية: "هذا علاج للصداع، ويزيد من بريق العينين ويجعل الوجه مشرقًا".

كان شاب بدوى قد أحضر لى غُرِيِّرًا(*)، تلك العينة أو النوع الثمين الذى يصعب الإمساك به؛ وقام هذا الشاب بتقبيل السيدة المهرية العجوز خمس قبلات - وقبلها فى خدها الأيسر، وفى خدها الأيمن، قبلها أيضاً فى صدغها الأيسر وصدغها الأيمن، ثم قبلها فى قمة رأسها- وبذلك يكون قد أثبت أنه على علاقة وثيقة بها.

قالت: "هذا هاليران بن مرعى، ابن أخى. ألا تعرفه؟ لقد كان فى مسقط".

ضحك الولد الشقى وهو يقول: "نعم، بالله! لقد قمت أنت بقياس رأسى وأنا فى سجن الجلالى، لكنى لم أخبر أحداً بذلك، لأنهم كانوا سيقولون "لماذا تركته يفعل ذلك؟".

(*) حيوان ثديِّى صغير على نحو يصعب معه الإمساك به. (المترجم).



(١) تصفيف الشعر (صبيات قبل الختان)



(٢) مجموعة من الصبية

سألته عن السبب الذى أودى به إلى السجن. كان ذلك الشقى قد ضغط على يدَىّ إحدى الفتيات، على ما يبدو، وإن أسرة الفتاة قدمت شكوى للحاكم، ولذلك جرى نفى هذا الشقى لمدة عام: لكن ذلك النفى لم يُصِبْه بسوء، على حد تأكيده لى، لأنه وجد رزقًا فى مسقط، ثم قام برفع البندقية التى حصل عليها ليرينى إياها.

التحية والسلام شىء عجيب عند هذه القبائل. لمس اليد، شىء شائع عند العرب، وهو مخصص للقاء النساء، ثم يتحول إلى مجرد ربتة خفيفة على الأصابع، فى حين تروح الأنثى تسحب يدها بعنف، لكن مسألة أن يضغط الرجل على يد الفتاة أو يقبلها مثلما يحدث فى المصافحة عند الأوروبيين يعد خروجًا على اللياقة؛ وقد يدفع أقارب البنت إلى المطالبة بالعقاب. والرجال عندما يلتقون يحيون بعضهم البعض بقبلة متبادلة على الخد الأيسر ووضع الذراع اليمنى على الكتف اليسرى لمن تجرى تحيته، لكنهم يبلغون من الخشونة حدًا يجعل الجالس منهم لا يكلف نفسه مئونة الوقوف غير عابئ بتناقض ذلك مع المعايير العربية السائدة؛ وفيما يتعلق بما إذا كان الشيخ مُسنًا أو رجلاً عجوزاً فإن تقبيل الخد عادة ما يكون مصحوباً بتقبيل جبهة أو رأس ذلك الشيخ أو المسن؛ وعندما يلتقى الشيوخ أو الأشخاص المهمون، فإنهم يتباوسون ويرجعون إلى الوراء ويقفون يواجهون بعضهم البعض بضع ثوان فى صمت وَقُور، قبل الجلوس.

هنا كافأت المهريين بما يستحقانه، وانسحبا وهما يعربان عن رضاهما بالطريقة المعتادة، "بيَّض الله وجهك"، "وربنا يخليك".

وتناهت إلىَّ أصوات البنات قادمة من النَّبع الموجود فى الوادى حيث مجموعة من بنات القراوين وهن يحملن جرار الماء. قيل أن الأغنية التى كن يتغنين بها كانت واحدة من أغانى الفرح، أما الأغانى المفعمة بالحب فهى بحاجة إلى مواطن يجيد اللغتين حتى يحولها إلى لغة عربية، لكن المؤسف أنى لم أعثر على ذلك المواطن، ولذلك اكتفيت بتسجيل الأغنيات التى من هذا القبيل وتدوينها تدوينًا موسيقيًا، حتى يمكننا الوقوف على الآهات الغريبة لهذا اللحن. تُرى، هل هناك

فى الجزيرة العربية القبلية مكان تجرؤ فيه امرأة كريمة المحْتِد على الغناء فى جمع من البشر، هذا لا يمكن أن يوجد على الإطلاق؟ فى عُمان التطهرية نجد أن المرأة يمكن أن تُضْرب عندما تكون سليطة وقحة، لكن هنا بين هذه القبائل وفى هذه الوديان، كنت أسمع غناء البنات يتناهى إلى مسمعى من مسافات بعيدة، وكانت أذناى تطربان تماماً لذلك الغناء.

الفصل السابع

جبال قارة: طرد عين الحَسُود والبشعة

العين. الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر: دخل علينا البدر وغرب عنا من خلال سحاب بطىء الحركة، وأنا لازلت أتذكر آخر هلال طلع علينا أثناء رحيلنا غير الفضولى عن ميناء مسقط، لكن الفارق كبير الآن بين تلك المشاهد التى شاهدتها وتصورتها آنئذ والبدر الذى أراه الآن، كما أن واقع ذلك مختلف عن واقع الآن، ومع ذلك، ومع أن الرمال بدت لنا صعبة المنال، فإن الأمل المرتقب شديد الحلاوة، وجد لنفسه متنفسًا فى هذه الجبال.

كان منظر أغصان شجرة الملتفَّة على بعضها البعض، على خلفية الظلام، والذى كان يشكل سقفًا من فوق رأسى، رائعًا وبديعًا؛ كان فحيح صراصير الغيط عاليًا ومستمرًا ومضيِّقًا للصدر، هو واندفاع الخفافيش السوداء الكبيرة من شجرة إلى أخرى؛ وهذه اندفاعة من اندفاعات الهواء خدعت النسر الذى انزلق مارًا بسرعة فوق رءوسنا؛ وكانت اللقالق البيضاء وكذلك اللقالق بُنية اللون قد تجمعت كعادتها على قمم الأشجار لقضاء الليل، لكنها استأنفت طيرانها فى ساعة مبكرة من وقت الفجر، لأنها يبدو أنها كانت مستاءة من تعدينا عليها، ولذلك لم تعُد تلك اللقالق تسر خاطر غيطان العين التى أشرقت عليها الشمس، بمنظرها الزِّينى الرائع.

دخل علينا الفجر مبتدئًا بذلك اللحن العجيب الذى كان يعزفه آكل النحل مناديًا خليلته. أليس فجرًا بهيجًا؟ ... لم يكن كذلك لأن الأرنب البرى الصغير الذى كنا قد أمسكنا به قبل ليلتين، وأبقينا عليه حيًا بفضل حليب البقرة، كان

مكوَّمًا على شكل كرة باردة متصلبة. لم يكن ذلك الأرنب بعد بحاجة إلينا، كما أن سعيد ذلك العسكرى الشاب الذى تمثلت مهمته فى المجىء لتدليل ذلك الأرنب، لم يطق ذلك العسكرى رؤية ذلك الأرنب الصغير ونحن نسلخه، لكنه ابتعد عنا مطرق الرأس - كاشفًا بذلك عن إحساس غير عادى فى هذه الأماكن الهمجية غير المتحضرة!

كنا نغادر فى ذلك اليوم، هذا المكان، متجهين غربًا لنقيم مُخيَّمًا جيدًا على بُعد قرابة أربعة أميال. كنت قد أنهيت اتفاقى مع الإبل التى نقلتنا إلى هذا المكان وذلك بناء على طلب أصحابها، الذين كان من رأيهم أن من الأسلم لهم البقاء فى منطقتهم هنا من ناحية، ومن الناحية الأخرى أنى وجدت أنى يمكننى استئجار إبل محلية من هنا، وتتمثل المشكلة فى حال نقل عينات، أو أنواع ثمينة وقيِّمة، فى تجنب وقوع هذه العينات مرتطمة بالأرض الأمر الذى يؤدى إلى تلفها بواسطة دواب الحمل، من هنا كانت مسألة انتقائى للإبل الجديدة تتطلب حرصًا بالغًا.

كان طريقنا يمضى صاعدًا فى اتجاه الغرب بدءًا من حوض العين متخللاً مُرُوجًا حجرية متدحرجة؛ لم تكن هناك مروج بمثل هذا التدحرج والانحدار الأمر الذى كان يُصَعِّب علينا عملية النزول، ومع ذلك كان طريقنا يمر هنا وهناك، عبر أرض مرتفعة تتسود المناظر الرائعة لسلسلة الجبال بكاملها. كانت هناك فى اتجاه الشمال منخفضات متدرجة ومتدحرجة تتبدَّى لنا عند خط الأفق. كانت تلك المنخفضات من خلفنا تخبو فى الأسفل إلى أن تحولت إلى سلسلة من الجبال التى تغطيها الغابات، ثم تتحول بعد ذلك إلى وديان تتجه صوب سهل الجوربيب. توقفت بعض الوقت لتدوين بعض الملاحظات عن بعض النقاط المعروفة على الساحل الموجود فى الأسفل بعد قرابة سبعة عشر ميلاً، فى حين سارع أحد أفراد جماعتى نازلاً من المنحدر المعشوشب إلى مجموعة من الأشجار التى تمثل بداية الربيع فى إيسام، الشهيرة بالنباتات البرية، والليمون المر، وسرعان ما عاد ذلك الرجل وتَنُّورته مليئة بهذه النبُوت البرية. ومن هذه المنطقة انتقلنا إلى حافة واد على شكل غابة، يعد واحدًا من المصادر العلوية لوادى آربوت، الذى نزلنا إليه لنخيِّم فيه على ارتفاع ١٦٥٠ قدمًا.

تعرفت فى ذلك الوادى على الصيحة المألوفة التى يطلقها الرعاة - هب- هب- هب- ر- ر- ر- ر- ر، وعلى الصوت الذى يشبه الصفير الذى ينتج عن تحرك قطعان الماشية، والسبب فى ذلك أن بِرْكة خيونت كانت على بعد مسافة قليلة أعلى الوادى، كانت الجبال الصغيرة المحيطة بالمخيم الذى نقيم فيه تَعُجُّ صباح كل يوم، بجحافل الماشية التى كانت تتوافد بفاصل نصف ساعة بين القطيع والقطيع الذى يليه، وهى ذاهبة إلى ذلك المسقى أو عائدة منه.

لابد أن الثروة الحيوانية فى هذه الجبال كانت مهولة بالقياس على معايير الثروة فى الجزيرة العربية. فى هذه المنطقة نجد أن كل رجل وكل امرأة تملك بعضًا من الأبقار. قلة قليلة من القراوين والشهارين هم الذين يملكون ما يزيد على مائة رأس من الماشية، على الرغم من أن خط الثراء يبدأ اعتبارًا من قرابة عشرين رأسًا من الأبقار، ومن يمتلك أربعين رأسًا يتخطى خط الغنى والثراء.

والناس هنا لا يربون سوى العِجْلات، أى الإناث من مواليد الأبقار - طلبًا لحليبها وزبدتها. ويكفى الاحتفاظ بثور واحد أو ثورين فى القطيع الواحد، ولذلك يذبح هؤلاء الناس العجول الذكور ويأكلون لحومها. ويقومون بعد ذلك بحشو جلد ذلك العجل بعد ذبحه ويضعونه أمام أمه عندما يبدءون فى حلبها، حتى تقوم بلحسه وإعطاء المزيد من الحليب طواعية واختيارًا.. وهذه المسألة شائعة بين سكان الجزيرة العربية وتعيد إلى ذهنى باو bau الإبل فى عُمان.

وتجرى تربية الإبل فى الوديان التى تكسوها الغابات فى الأسفل، ولكن على نطاق محدود بل وتجمعات محدودة أيضًا، ذلك أن عوائد الإبل على الإنسان أقل من عوائد الأبقار؛ هذا بالإضافة إلى أن مطالب رعاية الإبل أكبر من مطالب تربية الأبقار؛ يضاف إلى ذلك أن العملية الجنسية عند الإبل تحتم تدخل الإنسان فيها(١).

نياق الحليب لا تعرف السُّرُج مطلقًا، وهى ركائب بائسة إذا ما ركبها أحد من البشر، وقد عرفت ذلك من الخبرة الغالية التى اكتسبتها من ركوب الإبل. والنياق

(١) راجع ص ٢١٤ من النص الإنجليزى، حيث الهامش الذى يتناول مسألة التلقيح بين الجمل والناقة والتى يتدخل فيها الإنسان.

تُربى لإنتاج الجمال الذكور عن طريق التكاثر، والجمال الذكور أقوى من النياق، فى تلبية احتياجات النقل فى هذه المديرية أو المنطقة، وهى تحمل البخور من الجبال إلى الساحل، وتعود محملة بالسردين الذى يستخدم علفًا للماشية فى هذه الجبال.

يجرى فى قطون تربية القطعان على نطاق صغير، لأن قطون هى سقف هذه الجبال المعشوشب، ويجرى أيضًا تربية القطعان فى سهل جوربيب، ويجرى على نطاق كبير جداً تربية هذه القطعان فى زاولول الموجودة أسفل جبل سمحان وهذه القطعان من الماعز، وليست من الأغنام، لأن سكان هذه الجبال لهم موقف من الضأن، ويرفضون أكل لحم الضأن عندما يحضرون العزائم أو الولائم فى ظفار. هذا يعنى أن تقديم لحم الضأن للضيف يعد إهانة شخصية، شأنه شأن البيض والدجاج عندما يجرى تقديمها فى الولائم والعزائم. هذه الجبال خالية من الكلاب وفيها القليل جداً من الحمير، وهذه الحمير يربيها الشهارين وهم يقتنونها مثل الكثارين.

فيما يتعلق بالزراعة، يبذر القراوين القليل من حبوب البازلاء فى الجبال الغربية أو فى أماكن أخرى، التى لا يوجد فيها مروج ينبت فيها العشب والحشائش؛ وفى اتجاه الشرق وبالتحديد فى جبل سمحان، وفى ظل الظروف نفسها يقوم القراوين بحصاد البخور، أو قد يكلفون المهارين بحصاد بياراتهم نيابة عنهم. لكن تربية الماشية هى وسيلة المعيشة الرئيسة؛ وسبب ذلك هو أن السكَّان هنا هم سلالة من الرعاة غير المترحلين. والذكور فقط هم الذين يحلبون الماشية. ولا تجرؤ أية امرأة على لمس ضرع أية بقرة من الأبقار، أو ناقة من النياق، أو نعجة من النعاج. ولو حدث ذلك فهو إثم من الآثام الكبرى(١).

يُرجع سكان هذه الجبال بصورة مباشرة الأمراض التى من قبيل فشل إدرار الحليب فى حيواناتهم، إلى عين الحسود. التى يطلقون عليها اسم - عين إبليس -

---

(١) هذا على النقيض تمامًا، فيما يتعلق بالأبقار، من القاعدة التى يطبقها عرب عُمان، والتى تقول إن الرجل يقلل من شأن نفسه عندما يقوم بحلب الماشية. المهارين هم والكثارين يسمحون لنسائهم بحلب الأغنام، لكنهن لا يحلبن الأبقار أو النياق.

وتنطوى على مخاوف كثيرة لهؤلاء البشر. ويمارس هؤلاء البشر طرد الأرواح عن طريق الأدعية والتعزيم مستخدمين فى ذلك البخور، وتكون هذه العملية إما عند طلوع الشمس أو عند الغروب، وقد شاهدت هذه العملية بنفسى أكثر من مرة. والذى يقوم بهذه العملية هو مالك البقرة، الذى يقوم بإحضار مبخرة فيها بعض من الخشب المشتعل، ويقوم بتقطيع قطعة من البخور إلى ثلاثة أجزاء، ويتفل عليها ثلاث مرات ثم يقوم بوضع هذه القطع الثلاث فوق الخشب المشتعل. ويقوم اثنان من أفراد القبيلة بالإمساك بالحيوان، إذ يقوم أحدهما بإمساك الحيوان من فكه الأسفل، ويقوم الشخص الآخر بتأمين الحيوان عن طريق إمساكه من ذيله، ورفع رِجْله الخلفية عن الأرض.

وهنا يقوم القبلى الأول بتدوير البخور المشتعل بحركة دائرية حول رأس الحيوان، وهو يتغنى بأغنية قربانية بلغة الشهارين:

"**هذا هو قربانك: بخور ونار: رقيتك من عين الحسود: وعين الجنس البشرى: ومن عين آفار: ومن عين الأقارب: ومن عين القريب ومن عين البعيد: ورقيتك من عينى: ومن كل عين أخرى: من عين الحسود: من الجنس البشرى: أنا رجل: أُكَفِّر عن: عين الحسود: وعن الرجل: وعن المرأة: انتبه هذا هو قربانك: بخور ونار**".

وهنا يرفع رفاقه أيديهم عن الحيوان ويتركانه حرًا طليقًا، وهو يهز ذيله فرحًا، ليلحق بذويه من الحيوانات الأخرى التى ربما تكون قد تجاوزته صاعدة إلى الوادى(١).

قلت وأنا أتحول نحو واحد من الكثارين سكان السُّهوب: "لكنكم أيها البدو ليست لديكم هذه الممارسات؟".

جاء رد هذا الرجل المتدين وعيناه متجهتان إلى أعلى: "توكل على الله، لكننا عندما نكوى جملاً مصابًا بالعَرَج، فقد جرت العادة أن نكسر عودًا من أعواد الشجر ونلقى به خلف الجمل ونحن نقول: "كسرت عود والشر ما يعود".

---

(١) بعد عودة الحيوانات إلى مراحها فى الليل، تقوم النساء فى بعض الأحيان بالمرور بين الحيوانات وهن يحملن البخور المشتعل.

توجهت فى صبيحة اليوم التالى لمشاهدة عملية النفخ، وإن شئت فقل نفخ رحم البقرة، وهى عمليه شائعة بين هذه القبائل، من منطلق أن عملية النفخ هذه تُحفِّز البقرة على إنتاج المزيد من الحليب. يقوم صاحب البقرة، فى هذه العملية، بأخذ نفس عميق ويقوم بتحريك ذيل البقرة إلى جانب من الجانبين، ثم يقوم بوضع شفتيه على رحم البقرة ويروح يفرغ الهواء من رئتيه: ثم يتراجع الرجل قليلاً إلى الوراء وهو ممسك برحم البقرة لمنع خروج الهواء، ثم يأخذ نَفَسًا عميقًا آخر ويكرر ما سبق أن فعله، وهو يمرر يده على ضرع البقرة ليتبين ما إذا كانت البقرة تستجيب لهذه العملية. ويقولون أيضًا إن هذه العملية تجرى فى بعض الأحيان وفم من يقوم بها يكون مليئًا بالملح، لكننى لم أرَ ذلك بعينى، على الرغم من مشاهدتى عملية النفخ مرات عدة.

يبدو أن القراوين فى خيونت كان صفوهم متعكرًا. خطر على بالى فى بداية الأمر، أنى ربما كنت أنا السبب فى النزاع الذى دار بينهم، ورحت أسأل نفسى فيما إذا كانوا سيحتجزوننى طلبًا للفدية - وهو أمر لم يحدث مطلقًا إلى الآن، على حد علمى فى سائر أنحاء الجزيرة العربية. يزاد على ذلك، أن الأمر كان ينطوى بحق على المخاطرة بإهدار الدم، وإقحامى لسوء حظى فى هذه المسألة. يجلس المتنازعون بالقرب من شجرتى، على شكل حلقة من حلقات الزنوج، يجلسون على ركبهم، وكل واحد منهم واضعٌ يدًا من يديه على ماسورة بندقيته المرفوعة إلى الأعلى. يبدءون بداية سلمية تمامًا، ولا يبدر منهم أى شىء يمكن أن يدل على الضحك، ويروحون يغمغمون، وذلك على العكس مما يحدث فى التجمعات العربية، التى تتخللها فترات طويلة من الصمت. ثم تتغير النغمة بصورة مفاجئة، وينهض واحد من هؤلاء البشر واقفًا فى مكانة ومن خلال الحركات والكلمات يروح يستفز الحاضرين حتى يقوم أحدهم بمنازلته، وهنا ينهض أحدهم يتحدى ذلك المنافس بحدة وغلظة وعلى نحو يثير المتاعب والاضطراب. وهنا يتصايح الجميع وعلى نحو لا يستمع فيه أحد لأحد. فى هذه المناسبة، يتعلق صبى صغير بوالده، الذى هو واحد من المتنازعين الأشد استثارة وهياجًا، ويطلب منه الابتعاد. وهنا يروح الآخرون يستهزئون بذلك الرجل أثناء خروجه. وفجأة يستدير الرجل ويعود إلى هؤلاء الجالسين.

ويزمجر الرجل مكشرًا وواضعًا سبابته بين أسنانه وهو يقول: "زر- ر- ر- ر- عليك" ويتحدى الآخرين أن ينهض أحدهم وينازله، بالبندقية أو العصا، وهنا ينهض واقفًا ذلك الذى وقع عليه التحدى، منفعلاً وواضعًا إصبعه على ترباس بندقيته، لكن صوت العقلاء الحاضرين هو الذى يرجح فى النهاية، وهنا تتفرق الجماعتان.

وكما هو الحال فى السواد الأعظم من المجتمعات القبلية فى الجزيرة العربية، فإن السائد هنا هو حكم الحوز، أو إن شئت فقل: منظومة السوابق والعقوبات القديمة(١).

هذا الحوز يتباين من منطقة إلى أخرى، لكن جرت العادة أن يقوم الحوز على مبدأ العين بالعين، بحيث أن يكون العقاب مناسبًا للجريمة. وقد حكى لى حاكم ظفار عن حكم من أحكام الحوز صدر مؤخرًا. حدث أن كان رجلٌ قائمًا برحلة، واصطحب معه رابيا وإن شئت فقل مرافقًا(٢) من القبيلة التى سيمر خلال منطقتها. وعندما وصل الرجل إلى منطقة القبيلة جرى التعدى على حق الحماية المقدس، ووجد الرحَّال نفسه مجروحًا بطلق نارى فى الجزء السمين من فخذه. وعُرضت المسألة على الحوز الذى حكم ببراءة من قدَّم الرابيا أو المرافق، لكن العضو الذى قام بإطلاق النار لابد من خضوعه لجرح مماثل للجرح الذى أصاب الرحال. وتحقيقًا لهذا الحكم جرى إحضار قطعة من الخشب وعمل لها سن مدبب، وجرى غرس هذه العصا المدبَّبة فى رجل المدَّعَى عليه ثم وضعت مكانها طلقة فى الثقب وإخراجها بعد ذلك. وبذلك يكون الضرر الواقع على المدَّعِى قد أزيل.

---

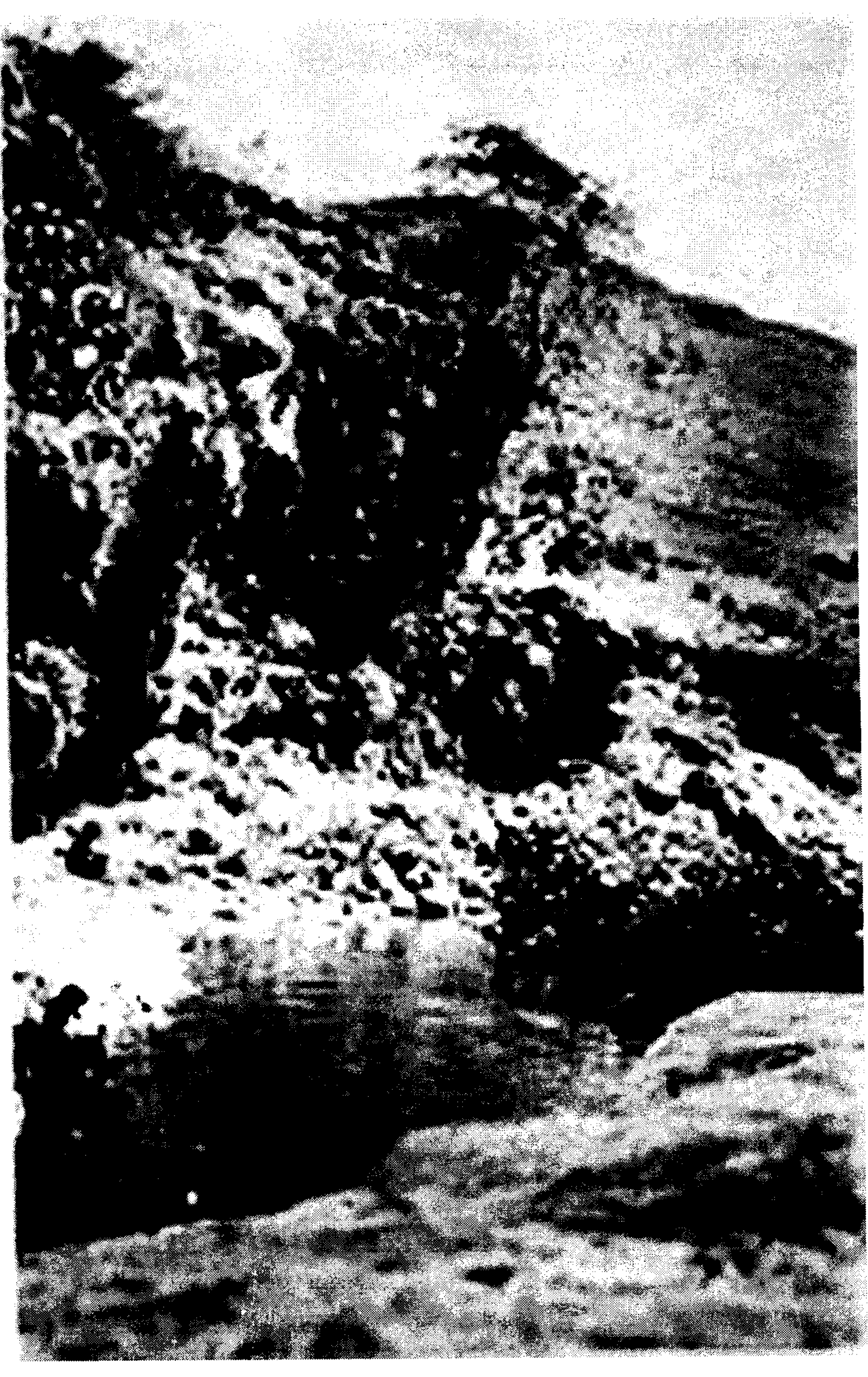
(١) الشريعة الإسلامية أو الدستور الإسلامى مكروه من هذه القبائل، ولا تسرى الشريعة الإسلامية سوى فى المدن الساحلية التى تطبق فيها الشريعة الإسلامية بالقوة. وقد يلجأ الناس، فى مسألة الزواج، إلى الشريعة الإسلامية فى بعض الأماكن الأخرى، لكن المنازعات المدنية هى والجرائم تخضع للحوز، الذى هو رجل القانون فى القبيلة، ويكون شغل هذا المنصب وراثيًا. والحوز يمكن أن يكون أو لا يكون هو شيخ القبيلة.

(٢) الرابيا، أو المرافق هو الشخص الذى يكون من القبيلة التى سيجرى التجول فى منطقتها، وحضور مثل هذا المرافق يوفر الحماية للقائم بالرحلة.

قد تؤدى الخيانة من جانب الرفيق فى عمان إلى احتراب قبيلتين اللهم إلا إذا وافق المعتدَى عليه على عقد جلسة حوز، عندما يتلقى من المتهمين لوم الوجه، والذى يقدر بقرابة أربعمائة دولار. ومسألة القتل فى المجتمعات القبلية تجرى تسويتها فى أغلب الأحيان بدفع الدية التى تتراوح بين أربعمائة وألف دولار تدفع نقدًا (أو ما يساويها عينًا)، وهذا المبلغ يعد مبلغًا كبيرًا جدًا فى هذه الجبال التى يسكنها القراوين، وهذا من الناحية النظرية يصل إلى ما قيمته خمسة آلاف دولار، الأمر الذى قد يستنفد حياة الإنسان كلها فى سداد هذا المبلغ، لكن التسوية عادة ما تكون عملية معقدة بسبب الثأر. قد يكون القتيل رجلاً فقيرًا، إلى الحد الذى يمكن معه تجريد أقرب أقاربه من ممتلكاتهم، لكن يجرى جمع مساهمات من كل أفراد القبيلة، الذين يتعين عليهم، من حيث الشرف، أو طبقًا للأعراف التليدة تحمُّل هذا العبء. والشهرى أو العبد يمكن أن يُقْتل دون وقوع عقاب على القاتل، لأن الشهرى أو العبد لا يعد قبيليًا، بمعنى أنه لا يمكن مساواته بعضو القبيلة، كما أنه ليست له عشيرة حتى يمكن أن تثأر له.

قبائل الجنوب الأوسط سيئة السمعة فيما يتعلق برد السلام[1]. يتفق كل الناس فى الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية على أنه إذا ما تقابل رجلان، بين قبيلتيهما ثأر، وقرأ أحدهما السلام على الآخر قائلاً: "السلام عليكم"، ورد عليه الشخص الآخر قائلاً: "وعليكم السلام"، فذلك يعنى أن هذين الرجلين طرحا العداء الذى بينهما إلى أجل قصير. وإذا ما استغل أحدهما هذه الفرصة وقتله أثناء نومه، على سبيل المثال، فإن ذلك يعد أبشع أنواع الخيانة، ويكون العقاب على هذا النوع من الخيانة بالطرد من القبيلة مُلطَّخ السمعة. الأمر ليس على هذه الشاكلة فى سلالة الجنوب الأوسط التى لا تعرف القانون، والتى تتجاهل أيضًا ذلك الذى يسمى ثمن البطن، ويبدو أن مسألة ثمن البطن هذه تعد امتدادًا لكرم أو ضيافة الأيام الثلاثة. هذا يعنى أنه إذا ما أكل بدوى من بدو جنوب الجزيرة العربية "ملح أحد" من الرجال، فذلك يعنى أن هذا الرجل هو وبضاعته يكون فى مأمن لمدة أربعة أيام وأربع ليالٍ، وهو الزمن الذى تكون فيه

(١) قبائل البوتاهارا لا تعترف بمسألة الرفيق إلا فى فترات متأخرة جدًا.



(ربيع خيونت)

الأفضلية الأخيرة للبدو قد انتهت. وإذا ما قامت قبيلة ذلك البدوى المُضيف بغزو قبيلة الضيف خلال هذه المدة (أى الأيام الأربعة)؛ فإن الغنيمة المسروقة يتعين إعادتها. مسألة ثمن البطن هذه تعد أمرًا مقدسًا عند قبائل الجنوب الحدودية، لكن الجماعة التى تسكن الجبال لا تعرف شيئًا عن ثمن البطن هذا.

هناك عجيبة أخرى من عجائب هذه القبائل، وتتمثل فى إدمان هذه القبائل للقَسَم والحَلِف بالأضرحة (الكثير من هذه الأيمانات تنتمى إلى فترة الجاهلية) وكذلك البشعة. وفى حال الخروج على أعراف القبيلة، فإن جلسة الحوز هى التى تحدد القَسَم أو الحَلِف، أو البشعة.

ومسألة الحلف على المصحف أو الحلف بالله، كما هو سائد فى سائر أنحاء الجزيرة العربية غير معروفة عند هذه القبائل ولا يلقون لها بالاً، وهم على استعداد لأداء هذا القسم كذبًا وهم سعداء. واقع الأمر أن المدعى، قد لا يقبل هذا الحلف أو القسم فى بعض الأحيان، ويصر على أن يحلف المتهم بضريح من الأضرحة المقدسة. وأفراد هذه القبائل يعزون إلى هذه الأضرحة قوى انتقامية متباينة(١). وأول هذه الأضرحة، وهو حضرة عباس، يبدو للعقول المحلية هنا، على أنه هو الأكثر قسوة ووحشية، واندفاعًا، عند الشيعة فى كربلاء. والمدعى فى

(١) القائمة الكاملة للأضرحة المحلية حسب تسلسل قدراتها الانتقامية هى على النحو التالى:

الاسم	المكان
صالح بن هود	بين الحسيك وراس نوس.
بير على	قرباط
بير العربية	رسيوت
الشيخ على عفيف	تاقه
الشيخ عيسى	حورتاقه
زاهير	مُرباط
النبى عمران	صافه

يوجد قبر النبى هود فى حضرموت، والنبى هود أرسل حسب القرآن إلى قوم عاد، وبذلك يعد هذا القبر من أضرحة المرتبة الأولى، لكن ربما كان ضريح ابن جواهير الموجود فى بلاد المهرى، هو الأشهر بين هذه الأضرحة. هذا الضريح هو الذى يجرى القسم به فى مسألة القتل . هناك ضريحان آخران أقل من هذا الضريح؛ هما ضريح ابن عثمان فى ريخيوت وضريح النبى أيوب وهو الوحيد الموجود فى بلاد القراوين.

...ب فى معظم الأحيان الحلف على ضريح من أضرحة المرتبة الأولى، فى ...ين يفضل المدعَى عليه (المتهم) الحلف على ضريح من المراتب الأدنى. والرأى العام للقبيلة، والذى يتشكل من درجة الشك فى المتهم، هو الذى يحدد الضريح الذى يقسم به المتهم. وفى معظم الأحيان يكون المتهم على استعداد للاعتراف بفعلته تحاشيًا للنتائج التى يمكن أن تترتب على اليمين الكاذبة.

حدث أن قام على، ذلك الكثيرى الظفارى الشهير، بسرقة جمل، وذبح هذا الجمل وأكل لحمه. دارت الشكوك من حول الرجل ووجِّه إليه الاتهام، وخطر على باله أن يخاطر بحلف اليمين كذبًا على ضريح ابن عثمان. وأقسم الرجل كذبًا؛ وفى الليلة نفسها لدغه ثعبان فى قدمه وأخذت قدمه تذوى. وسرعان ما بادر على بالذهاب إلى الرجل الذى سرق هو جمله، واعترف له بذنبه ودفع له ثمن جمله، تخوفًا من المضاعفات، وعلى لايزال فى قيد الحياة إلى يومنا هذا، وإذا ما سأله أحد عن ضمور قدمه فإنه يرد قائلاً: "ابن عثمان".

مع ذلك "لا يعد القسم على ضريح من الأضرحة كافيًا بحد ذاته. والقاتل الذى تدور من حوله الشكوك قد يطلب منه الخضوع للتماريت أو البشعة، وقال لى مُضيفى القروينى، الشيخ حسن، إنه خضع للبشعة عندما كان صبيًا صغيرًا، حيث ذهب إلى حضرموت ليخضع للبشعة تحت إشراف المُبْشع، وأنه أثبت براءته، وعاش بعدها، مؤكدًا لى أنه يؤمن بعدالة هذه البشعة.

لا يجرؤ أحد، مهما كانت قواه وعلمه، على الإقبال على هذه الممارسة مخافة التعرض لخنجر الحشاش، الذى عانى منه بيحان، الذى يمتهن الحدادة فى قبيلة ياهام، فضلاً عن كونه مبشعًا شهيرًا فى وادى إرما. قال الراوى الذى يرافقنى: "مَنْ هو ذلك الذى يرفض قرارات على بن عبد الله بن عبد الودود، سواء أكان ذهبًا أم حديدًا، بريئًا أم مذنبًا".

تُعقد جلسة أو تجمع البشعة فى الفترة ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر. تتجمع الأطراف كلها أمام النار. ويقوم المُبشع بوضع حد سكين فى النار، وبعد مرور بعض الوقت يفتح المتهم فمه ويمد لسانه خارج فمه. وهنا يمسك المُبشع بطرف لسان المتهم بواسطة منديل، وإصبعيه السبابة والإبهام؛ ويقوم بيده الأخرى بتناول السكين ويضعها بالقرب من شفتيه من باب التبرك، ثم يقوم بعد ذلك

بالريت مرتين: مرة واحدة بكل جانب من جانبَى السكين، على جانبى اللسان الممتد؛ وهنا يتحتم أن يكون المتهم قادرًا على التفل إذا ما كان الفأل حسنًا، ثم يترك اللسان مدة ساعتين، يجرى بعدها فحص اللسان. وإذا ما ظهرت أعراض التورم أو حرق غير طبيعى أو تأثر الغدة الذى يظهر فى الرقبة، يُعْلن المبشع أن المتهم مذنب ولابد أن يدفع حياته ثمنًا لفعلته، أو طبقًا لما يريده أهل المجنى عليه، لكن إذا لم يظهر أى عَرَض من هذه الأعراض، يجرى الحكم ببراءته.

سألته: "ماذا عن عدالة البشعة؟".

قال سعيد، وهنا خطر على بالى نبيوشادنبزار هو وفرنه النارى الحارق: "إنها صادقة والله، النار لا قوة لها مع البرىء". وخطر على بالى أيضًا "فرن العذاب" عند أشعياء. اكتسب سعيد ثقافته هذه من الرحلات التى كان يقوم بها فى مصايد اللؤلؤ فى عُمان، وزادت أيضًا لأنه كان يستطيع القراءة إلى حد ما. ويواصل سعيد كلامه : "ألا يسمى المُبَشِّع باسم الله ويُشْهِدُه عن طريق تقبيل حد السكين وهو يقول:

"بسم الله، الرحمن، الرحيم، يا نار، يا نار، كونى بردًا وسلامًا، مثلما حدث للنبى إبراهيم" (١).

"ما هذا الذى تقوله، يا سعيد، عن النبى إبراهيم؟".

سألنى، "أكيد أنتم لديكم رواية عن ذلك فى العهد القديم".

رددت عليه، "لا ، ليس لدينا رواية عن ذلك".

قال : "ألا تعرف أن النصارى- الناصرانيين(*) - المسيحيين، أسلافك، كانوا يودون قتل نبى الله إبراهيم، وقذفوا به فى محرقة فى وادٍ من الوديان، وأرسل الله جبريل الملك وأطفأ شهية النار حتى لا تؤذى النبى، ونجا (عليه السلام)!".

---

(١) وردت هذه القصة فى القرآن، لكن المعذبين لم يكونوا مسيحيين.

(*) نسبة إلى مدينة الناصرة . (المترجم).

لقد أطلت فى التركيز على العبادات الوثنية عند سكان هذه الجبال، وأرى أن الرواية لن تكتمل دون أن أقول شيئًا عن السِّحر، الذى يحظى باعتقاد الكثيرين فيه على نطاق واسع، وتدور الشكوك بصفة خاصة حول كبار السن، بل ويجرى قتلهم أحيانًا لأسباب مفادها أنهم لا يمكن أن يكونوا قد بلغوا هذه المرحلة السنية إلا عن طريق التواصل مع قوى خارقة للطبيعة.

يعزو هؤلاء البشر الموت هنا إلى تعزيم ساحر أو ساحرة تدور حوله أو حولها الشكوك، وتجرى مطاردته على الفور. وهذا هو القبلى الذى ينتمى إلى بيت الشيخ، والذى فتح علينا نار بندقيته عندما اقترينا من إبله فى وادى آفار؛ هذا القبلى قام يوم أن كان فى شبابه بقتل ابن عمه الأرمل ظنًا منه أنه ساحر – وقد حظى هذا العمل برضاء الرأى العام، هذا إن لم يكن الرأى العام هو الذى حرَّض عليه؛ وقع حادث من هذا القبيل فى غضون شهر من وصولى، حيث قام مجهولون بقتل هذه المرأة ظنًا منهم أنها ساحرة. واتضح أن هذه السيدة كانت متهمة بالسحر منذ زمن طويل، لكنها أثبتت براءتها عن طريق تقديم نفسها للبشعة والمُبَشِّع. وخرجت بريئة الساحة ولكن ذلك فشل أيضًا فى إقناع قبيلتها. كانت تلك قضية من قضايا قيام العصابات بتوجيه التهم ومعاقبة الناس، بالمعنى الحقيقى لهذا المصطلح.

القتل فى هذه الجبال أمر شائع الحدوث. ويبدو أن قيمة الحياة متدنية فى هذه الجبال. واقع الأمر أن الثأر والنزاعات الدموية هما اللذان يفصلان القروينى عن أخيه القروينى. وهذا الثأر هو والصراعات الدموية موجود أيضًا بين جماعات من القراوين ومجموعات أخرى من الكثارين والمهريين. ولا تعترف أية قبيلة من هذه القبائل بوجود شيخ كبير لها، وعلاقات هذه القبائل بعضها بالبعض تتباين من حين لآخر. والظاهر أن هذه القبائل تنظر إلى الحكومة باعتبارها قوة قبلية أقوى من أية قبيلة.

كان يجرى بجوار جملى الذى أركبه، رجل من القراوين. كانت نوعية بندقيته، وجبخانة ذخيرته، ناهيك عن ثقته بنفسه، تدل على أنه شخصية بارزة، وأنه قُبيلى بحق وحقيقة. كان اسم ذلك القروينى سالم.

ولما كنت راكبًا فى مقدمة جماعتى، فقد راح يمسك بحبل جملى بين الحين والآخر، ليقودنى إلى المسار السالك فى الغابة والذى تتعلق من فوقه أغصان الأشجار، وذلك حتى يكفينى مئونة النزول من فوق جملى.

سألنى سالم بصورة مفاجئة "هل كل الكفرة مثلك، رجال كبار حمر، لحاهم حمراء وعيونهم زرقاء؟".

قلت له: "نعم".

"وكم عندك من الأبقار؟".

"للأسف: أنا لا أملك حتى ولو بقرة واحدة".

ونظر الرجل إلىَّ نظرة تساؤل عن المصدر الذى أحصل منه على دولاراتى.

"وهل صحيح أنكم أيها الكفار تجدون نقودكم فى صخور الجبال؟".

"هذا صحيح تمامًا".

رد علىَّ سالم، وكأنه يطلب العفو والسماح لمن يملكون هذا السحر الأسود: "الله يسامحك".

"هل توجد نقود فى جبالنا؟".

"أنا لا أعرف ذلك، يا سالم".

"إذن، ما سبب مجيئك إلى هنا؟".

"لأنى محب للترحال، والتقاء أبناء الرجال، ودراسة كل مخلوقات الله".

"لكن، هل تحصل على نقود مقابل هذا الذى تفعله؟".

قلت: "لا، إنه يكلفنى نقودًا. هذه الأنواع التى أدفع دولارًا واحدًا، لكل من يأتى بواحد منها، لا أحد من قبيلتى يعطينى دولارًا واحدًا مقابل كل هذه الأنواع".

نظر الرجل إلىَّ نظرة غريبة ثم قال: "وهذه الجبال، ألا تخاف من التجول فيها؟".

"قال سالم فى شىء من التملق: "يا أحمر العين، السلطان تيمور لم يجئ إلى هنا سوى مرة واحدة".

"لكنى أحب بلدكم يا سالم. لأنها تذكِّرنى ببلدى".

كانت مسألة القتل هى الموضوع الذى يؤرق سالم، لأنه كان يعود مرات ومرات إلى الحديث عن هذا الأمر. سألنى وهو يواصل كلامه: "هل أعرف أن رجلاً من قبيلته قام مؤخرًا بقتل عسكرى من عسكر الحكومة؟".

سألته: "لماذا فعل هذه الفعلة؟".

"حسن، ألا تعرف أن الحكومة، فى عهد الوالى سليمان، قتلت رجلاً من القراوين؟".

قلت: "لكن ذلك كان منذ خمسين عامًا، وإن هذا العسكرى الذى قُتِلَ مؤخرًا لم يكن قد وُلد بعد".

قال سالم: "هذا صحيح، لكنه جاء وسخر من القروينى وكان ابن أخى الرجل الذى قتله سليمان. والله! ثم لعن ذاكرة عم الرجل، إلى حد أن الرجل أعماه الغضب ما جعله يفتح النار على عبد الحكومة".

قلت: "حسن، يا سالم ! لدينا فى بلادنا علاج واحد وهو علاج جيد. إذا ما قتل رجل رجلاً آخر فنحن نقتل القاتل. ولا تجرؤ قبيلته على حمايته، كما أن الحكومة لا توافق على أى شىء غير حياة القاتل".

قال سالم: "هذا صحيح، لكن عندنا، يكفى إزهاق روح واحدة من قبيلة القاتل" ثم ألم ترسل الحكومة عبدًا آخر خصيصًا لقتل واحد من رجالنا فى العام الماضى، وبذلك نكون قد أصبحنا متساوين الآن، لكن، لماذا قتلوا حمدان بن جاسم (صنديد القبيلة)؟ والله! لقد كان رجلاً طيبًا، وتمنيت لو أنهم قتلوا ثلاثين آخرين وأبقوا على حياة هذا الرجل. لكن (ها مكتيب) يقصد "هذا مكتوب ومُقدَّر".

سألته عن سالم فى اليوم التالى لأنى كنت بدأت أستطلف هذا الرجل، وخطر على بالى أن آخذه معى إلى ظفار وأعطيه هدية صغيرة، لأنى اكتشفت فيما بعد أنه هو القاتل الحقيقى لعسكرى الحكومة، واعتبر نفسه فى مسألة ثأرية مع حكومة السلطان، التى تمنت أو كانت تود إزهاق روح سالم يوم أن قام بقتل الجندى.

تأملت الساعة التى أمضيناها معًا بالأمس فى الغابة المعزولة، ثم تنفست الصُّعدَاء.

الفصل الثامن

جبال قارة: التوديع

دخل علينا الفجر ومعه ساعة الصلاة. بدأ مظهر رفاقى النائمين فى كل مكان على العشب، يكشف عن دلائل الحياة وعلاماتها. أفراد من القراوين والشهارين، راحوا يوقظون بعضهم البعض حتى يؤدوا الصلاة فى أماكنهم، مستعملين التراب فى التيمم، ولكنى كنت أتساءل كيف سمحت لهم مبادئ المذهب الشافعى بهذا النوع من التكاسل والتراخى؛ هذا فى الوقت الذى راح فيه العمانيون الثلاثة المصاحبون لى، وهم من أتباع المذهب الأباضى الملتزم، ومعهم بنادقهم، فقد جرت العادة فى هذه الجبال ألا يبتعد أحد حتى ولو ميل واحد، دون أن تكون بندقيته بصحبته - متجهين إلى أعالى الوادى بحثًا عن بركة ماء يتوضئُون منها، إذ بدون الوضوء يعتبرون صلاتهم لا شىء وبلا مضمون.

بدت لى الصلاة التى تُؤدَّى بواقع خمس صلوات فى اليوم، وبخاصة عندما يؤديها هؤلاء البشر غير المتحضرين، كما لو كانت أنشودة سحرية أكثر منها إثارة أو تحريكًا للأرواح. يضاف إلى ذلك أن الأصوليين، يعلقون أهمية أكثر على الوضوء الصحيح، والوقت المناسب، والوضع المناسب أكثر من الكلمات نفسها، أو هكذا تبدو الأمور للمشاهد غير المهتم؛ ذلك أن أهل هذه الجبال يغمغمون بأسطر القرآن بصوتٍ عالٍ وبسرعة تنم عن عدم التقوى، لأنهم ينظرون هنا وهناك طوال أدائهم للصلاة.

فيما يتعلق بالمرأة والصلاة، يُقال أن ما يقرب من نصف عدد نساء الجبال يصلّين: والأرجح أن هذا التقدير سخى أكثر من اللازم، نظرًا لأنى لم أَرَ امرأة

واحدة تصلى على مرأى ومسمع من الناس؛ وهنا وكما هو الحال فى الأماكن الأخرى من الجزيرة العربية لا يمكن أن نصدق أن الرجال والنساء يمكن أن يؤدوا الصلاة معًا أو يأكلون معًا فى العلن. ومع ذلك، وإذا ما صح التقرير، فإن الجميع، رجالاً ونساءً على حد سواء، يراعون بدقة وانتظام صوم شهر رمضان الذى يبدو لهم أقل مغزى من الطقوس الدينية الأخرى، وهم ينظرون إلى إهمال صوم رمضان على أنه يمكن أن يجلب عليهم غضب الرب.

جاءنا بعد ذلك من منطقة السهوب الواسعة، خمسة من المترجلين الذين يسهل تمييزهم، نظرًا لأن البيئة والمهنة كانت آثارهما واضحة على هؤلاء الخمسة. لم تكن أرجل هؤلاء الخمسة هى الأقدام المطلوبة لتسلق الجبال، إذ كانت أقدامهم ضعيفة العضلات، كما أن سيقانهم كانت معوجّة بحكم كثرة ركوبهم الدواب؛ يضاف إلى ذلك أن الأرجل المقوّسة إلى الداخل أمر لا يمكن أن تخطئه العين، عندما نؤكد على وجودها فى إنسان السهوب الصحراوية. يزاد على ذلك، أن لباس هؤلاء الخمسة كان عبارة عن موسور ودشداشة طويلة الأكمام تغطى ما بعد الركبتين. وفوق ذلك كله، كانت أسماء هؤلاء الخمسة مؤكدًا آخر على أنهم أغراب على هذه الجبال: كان أحدهم يدعى بير النِّكيد Bir Annekid (١)، والثانى بير عويجة، والثالث بير عنِّجيم، كما هو الحال عندما نقول: ابن كاتى، ابن جين، إلخ، والسبب فى ذلك أن البدو المترحلين ينسبون الرجل إلى أمه بدلاً من نسبته إلى أبيه، وهذه العادة لا وجود لها بين السكان الحضر، أو حتى بين قبائل هذه الجبال، هؤلاء المهارين الخمسة جاءوا إلى سوخى عن طريق البحر، والمعروف أن سوخى إحدى موانئ البخور تحت رأس نوس، جاءوا لتحصيل المستحقات من المدينين (عبيدهم؟) "الذين كانوا يخدمون هذا الموسم فى حقول البخور"، وأنهم كانوا فى طريق عودتهم إلى مكانهم فى وادى راما العتيد (يقال له وادى آرما فى بعض الأحيان).

جاءنى بعد ذلك مهرى آخر، لكن كان واضحًا أنه من قاطنى هذه الجبال، وكان يحمل معه ثعبانًا يلف نفسه مهددًا حول رسغ يد ذلك المهرى. قال المهرى: "لقد

---

(١) فى هذه اللغة الكلمة بير Bir = ابن، وكلمة birt = ابنة؛ وبذلك يكون اسم الشخص الأول: ابن النكيد.. إلخ.

لدغني"، ورفع يده الأخرى إلى أعلى ليريني دمًا على شكل شَكَّة دبوس في إصبعه الوسطى، التي كانت متورمةً ورمًا شديدًا بفعل ربطها ربطة شديدة من منطقة أسفل الإصبع وذلك منعًا لانتشار السم في سائر أنحاء الجسم. وهنا قام بوضع الثعبان على الأرض، وراح الثعبان يثبت أنه لا يزال عامرًا بالحياة. وعندما ابتعدت عن المكان وجدت ذلك المهرى يمد يده ليمسك بالثعبان من جديد، لكن الثعبان كان أسرع منه، إلى حد أن المهرى لم يمسك من الثعبان سوى ذيله. وعلى الفور لف ذلك الوحش نفسه، وبلدغة حادة، عض المهرى من جديد، وهنا فررت هاربًا لأن الحاضرين قالوا إن الثعبان من النوع السام. أمسك المهرى الثعبان من ذيله لمسافة ذراع، وكان رأس الوحش متجهًا ناحية الأرض، وانزلقت يده الأخرى بلطف من الذيل إلى وسط الوحش، وبحركة سريعة جدًا أمسك المهرى بالثعبان من عنقه من الخلف، وراح يعصره إلى أن فارق الحياة. أعطيته الدولار المعتاد، لكن لم تكن هناك النكتة المعتادة، لأنى كنت متحسِّبًا مخافة أن يموت الرجل وتضع هذه المأساة حدًا لعملية الصيد في هذه الجبال، الأمر الذى يمكن أن يفسد خططى الكبيرة.

ومع ذلك، جاءت جماعة أخرى من المهارين المحلين، أو بالأحرى، من بيت الشيطنة، الذى هو اسم على مسمى، جاءوا برئاسة الشيخ المعوّق لبخيت لزيارتى والسلام علىَّ. كان أحد أفراد هذه الجماعة يود علاجًا لقِصَر النفس، أو اضطراب التنفس، الذى يرجع تاريخه إلى جرح ناجم عن الإصابة بطلق نارى فى غزوة من الغزوات. وأرانى ذلك الرجل موضع دخول الطلقة ومكان خروجها من جسمه، الأمر الذى أثر تأثيرًا واضحًا على الرئتين.

"أليس عندك دواء لعلاج لرجُل عديمة النفع؟ صاحب هذه الرجل ليس معنا لأنه لا يستطيع المشى".

سألته: "منذ متى حدث ذلك؟".

"منذ إصابته بطلق نارى فى رأسه".

قلت وأنا أشعر أن هناك نوعًا من الشلل: "لا يوجد أى علاج مفيد فى هذه الحالة، فى العالم كله".

قال أحدهم، وروح اليأس والقنوط تسيطر عليه: "الحمد لله رب العالمين"، وراح الرجال الأربعة ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يائسون، لكنى شخصيًا شعرت وكأنهم يحاكموننى. هذا لأنى بخلت عليهم بالمساعدة، أو لأنى لا أمتلك ذلك السحر أو المهارة التى يظنون إنها عندى. أعطيتهم شيئًا من التمر وصرفتهم بوعود بمكافأة إذا ما أحضر إلى غُرَيِّر، ذلك الحيوان الثديِّى الصغير الذى يصعب الحصول عليه دونًا عن سائر الأنواع كلها.

جاء إلى شجرتى بعد دخول الليل الشيخ هو وأبناؤه الأربعة وراحوا يُسلُّوننى ويرفهون عنى بأغانيهم وأناشيدهم الجبلية بلغة الشهارين، فى حين كانت جثة الكونى، أو الأرنب الأوروبى الذى اصطدته رميًا بالرصاص، موضوعه بعيدًا على أمل أن تجذب رائحتها ذئبًا أو ثعلبًا، معروف أن ثعلب الجزيرة العربية الكبير أحمر اللون - الأنواع المحلية منه أسطُح بطونها دكناء بشكل غير عادى - يشيع فى هذه الجبال، وكنت كلما درتُ بشعلة حول فراشى فى المخيم، رأيتُ عينين متقدتين نحاسيتين لامعتين، كان مفروضًا أن يداوم العرب المرافقون لى، على المراقبة، لكنى فى هذه الليلة توجهت إلى الشجرة التى ينامون تحتها لأجدهم جميعًا غارقين فى النوم، وكان الكثيرى الذى عليه الدور فى الحراسة قد قام بوضع جثة الكونى بين أفرع الشجر، حتى لا يكتشف أمر إهماله فى الصباح. ركلته بقدمى ركلة قفز واقفًا بعدها وهو يصيح دهشة وهو يتناول بندقيته، وهذا هو ما يفعله أى عربى فى مثل هذه الظروف، لأنه لا توجد قبيلة بدون ثأر يجعل من أفرادها صيدًا لعدوهم. وهنا أبلى سعيد بلاءً حسنًا فى نوبته ونتج عن ذلك أنه كوفئ بثعلب راح يجوس فى طريقه، وأفضى ذلك إلى ضبع أُصيب بطلق نارى وضاع فى وادى نيهاز.

هذه القبائل الجبلية بحكم إنها قبائل مستقرة وليست مترحلة لديها حق ملكية غير موجود عند البدو الآخرين. وإذا كانت الأشجار والمراعى ليست ملكًا لأحد من الناحية النظرية، فإن بعضًا من بطون هذه القبائل تدَّعى أنها لها الحق فى احتلال أرض الغير بقصد امتلاكها حتى وإن كانت ملكية هذه الأرض عامة. يزاد على ذلك أن الكهوف هى الأخرى مملوكة لأفراد. وتنتقل ملكية هذه الكهوف من الآباء إلى الأبناء، لكن هذه الملكية ليست دائمة نظرًا لأن المالك الحالى قد يضطر

فى أى وقت إلى التنازل أو التخلى عن كهفه، مادام ليس واقعًا ضمن حدود منطقة قبيلته.

سألت واحدًا من بيت الكثيرى: "وماذا عن كهوفكم الواقعة على حدود السهوب الكبيرة؟".

قال: "إنها حرة حرية الهواء والصحراء. اليوم أحتل كهفًا ثم أنتقل منه، وغدًا يحتله شخص آخر. هذه الكهوف لا تنتمى لأحد، لكنها من خلق الله تعالى".

وفى قرى السهل الساحلى، حيث يبنى الإنسان منزلاً يأوى إليه ويحتمى به، يكون أول ما يفعله ذلك الإنسان، هو دق أربعة مسامير طويلة فى الأركان الأربعة درءًا لعين الحسود. وعندما يكتمل بناء المنزل يقوم صاحبه بذبح خروف على عتبة ذلك المنزل، على سبيل أن يكون ذلك تقرّبًا وقربانًا من أجل متانة جدران هذا المنزل- وهذا الاحتفال مثيل للاحتفال الذى درجنا على القيام به عندما نقوم بتدشين السفن بزجاجة من النبيذ. وفى بعض أجزاء من سلطنة عمان، يقوم الساكن المرتقب للمنزل بعد اكتماله بذبح خروف، ويغمس يديه فى دم الخروف ويروح يضمخ بذلك الدم قوائم باب المنزل.

وهناك عادة مماثلة لهذه العادة فى سهل ظفار، لكن ذلك يكون أثناء عملية بناء المنزل. ويقوم البناءون بأكل لحم الخروف على أن يقوموا بتضميخ الحيطان بالدم. وبعد اكتمال بناء المنزل يقوم ساكنه بكسر بيضتين من بيض الدجاج على عتبة هذا المنزل، وبيضتين أخريين على السلم، ثم بيضتين أخريين على الطرقة المؤدية إلى الدور العلوى.

السن المعتادة للزواج عند الجنسين هى سن الخامسة عشرة، لكن الصبى قد يتزوج فى بعض الأحيان قبل الوصول إلى هذه السن وذلك منعًا له من اكتساب العادات السيئة. يجوز أيضًا تزويج البنت قبل البلوغ إذا كان والدها فى قيد الحياة ويوافق على ذلك - إذا كان أحد الطرفين قد وصل إلى السن المحددة، فإن مسألة نضج الطرف الآخر لا يمكن أن تكون عائقًا أمام العلاقة الجنسية.

سألت الشيخ حسن: "هل هذه الأحوال الزواجية شائعة؟ وماذا عن زواجك أنت؟".

قال: "كنت كبيرًا، كان عمرى ستة عشر عامًا، عندما عثر لى والدى على امرأة لى، لكن لبخيت الموجود هنا". وهنا أشار إلى أخيه الأكبر سنًا، الذى كان على وشك البلوغ :فقد زوَّجته ابنة عمه قبل عامين. وهو الآن أصبح كبيرًا ويحب امرأة أخرى، وأنا إذا ما طردته من ظفار، سوف يعود ويتزوجها".

"وماذا عن ابنة عمه التى هى زوجته؟".

"والله، هى أجمل بنات هذه الجبال، ولديها ثروة أيضًا، لكنه لا يحبها، وإنما يحب المرأة الأخرى".

"هل هى صغيرة السن؟".

"لا، كبيرة فى السن!".

قلت: "عشرين عامًا".

رد على "حاشَ لله، ربما ثمانية عشر عامًا. سوف يطلقها وسوف تتزوج رجلاً آخر".

ليس من الغرابة فى شىء أن نرى الناس فى هذه الجبال يتعاملون مع الزواج بشىء من الاستخفاف. العروسة تُسَوَّقُ هنا كما لو كانت قطعة من المنقولات. أغلى عروس هنا لا يزيد ثمنها على عشرين بقرة (قرابة أربعمائة دولار)، وأرخص عروس لا يزيد ثمنها على بقرة واحدة أو عشرة دولارات- والناس فى هذه الجبال يطلقون على ثمن العروس اسم الجيلاب- يقوم كل من العريس هو وممثل العروس بالنزول إلى السهل قاصدين القاضى الذى يقوم بتوثيق الزواج، وعقب عودتهما، تقوم نساء القبيلة، ومن أمامهن رجال المنطقة، باصطحاب العروس إلى كهف زوجها، الذى يتمثل أثاثه فى قطعة صغيرة من السجاد يجرى شراؤها لهذه المناسبة. وهنا يكون العريس قد قام بذبح بقرة وربما بقرتين، إذا كان ميسورًا، وذلك على سبيل العزيمة أو الوليمة، لكن لا يوجد شىء من الصخب أو المرح فى هذه المناسبة سوى نشيد الرابوت الذى ينشده الرجال (١) : هذا يعنى أن الصخب والرقص البدائى كما هو الحال فى ختان الذكور لا وجود لهما.

---

(١) راجع الملحق رقم ٦.

مسألة الطلاق سهلة للغاية عند الرجل، كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية - ليس على الرجل من شىء سوى الإعراب عن سأمه لزوجته وملله منها وأن يقول ما يعبر عن ذلك بالصيغة المعتادة لذلك، وهنا يتعين على الزوجة العودة إلى منزل والدها ومعها هدية الافتراق والتى تقدر بقرابة نصف بقرة، أى قرابة خمسة دولارات. الطلاق من جانب الزوجة سهل أيضًا، على الرغم من أنه يكون أكثر كُلفَة، إذ يتعين على الزوجة أن تعيد إلى زوجها ثمن الزواج، وقد يصل إلى عشر بقرات، وهنا يصبح الطرفان أحرارًا ولكل منهما الحق فى الزواج من جديد. والطلاق لا يحتاج إلى قاضٍ، وبذلك يكون الزواج والطلاق شيئين متكررين. والرجل من حقه شرعًا الزواج من أربع زوجات فى آنٍ واحد، لكن القاعدة العامة هى زوجة واحدة، أو اثنتان فى معظم الأحيان. وإذا كانت المرأة قد أنجبت لزوجها ابنًا فهو فى مثل هذا الحال لا يكون راغبًا فى طلاقها، لكنه عندما يتزوج مرة ثانية، ولابد أن تكون الزوجة الثانية بنتًا صغيرة السن، فإنه مثلما درج عليه الناس هنا، يحاول استرضاء الزوجة الأولى بهدية تعادل ثمن زواج العروس الجديدة.

ومن هنا تكسب النساء ثروات كبيرة، واقع الأمر أن استقلال ملكية الرجل عن ملكية المرة أمر محترم هنا.

سألت واحدًا من القراوين المرافقين لى "كم طفلاً عندك، يا إنستاهيل؟".

قال: "ثلاثة أطفال، بنت وولدان".

"من الزوجة نفسها؟".

"لا، البنت كبيرة وهى امرأة فضل الله، هنا فى هذا المكان. وأنا طلَّقت أمها".

قلت: "لماذا طلقتها؟".

"لم تنجب لى شيئًا (بمعنى لم تنجب لى ذكورًا). لكن هى التى طلبت منى الطلاق".

"وهل طالبتها بدفع نصف الجيلاب الذى دفعته أنت؟".

"حصلت على ما هو أكثر من نصف الجيلاب. دفعت لها ست بقرات، وطالبت وحصلت على ثمانى بقرات نظير طلاقها".

"ما مقدار الجيلاب الذى حصلت عليه فى زواج ابنتك؟".

"أربع بقرات. كانت تساوى أكثر من ذلك، لكن فضل الله ولد عمها، ولم يقدر على دفع ما هو أكثر من ذلك، ولذلك وافقت على زواجه منها".

"هذا يعنى أنك حصلت على ست بقرات زيادة - بقرتان من زوجتك وأربع بقرات من ابنتك؟".

ضحك الرجل: "والله! أنا كنت أحمق، لأنها تزوجت ابن زيد وأنجبت له أربعة أبناء".

سألته: "ماذا عن زوجتك الثانية؟".

"أنجبت لى ثلاثة أبناء وست بنات، لكن لم يبقَ من أبنائى الذكور سوى اثنين فقط".

"بفرض أنك التقيت زوجتك الأولى التى هى زوجة رجل آخر الآن، فكيف ستكون علاقاتكما؟".

"أنا لا يمكن أن أُحيِّى خدَّها أو يدها، وإنما أكتفى فقط بسؤالها" هت بخير؟- بمعنى هل أنت بخير؟- (هذه هى التحية المعتادة عند أهل هذه الجبال).

تعمل المرأة هنا فى ظل تحريمين غير عاديين. أولهما أنها لا يجوز لها حلب الحيوانات؛ وثانيهما أنها لا يجوز لها إعداد الطعام. وأن هذين العملين المنوط بهما الرجال. وتتمثل مهام المرأة فى رعى الماشية وتربيتها، وجمع الحطب وجلب الماء، وصناعة الأوانى، وقطع القش اللازم للفراش. لكن الهدف الرئيس للمرأة فى الحياة هو الإنجاب، الذكور بصفة خاصة. الإجهاض غير معروف فى هذه الجبال، والفكرة بحد ذاتها مخيفة. الحمل أسهل على المرأة هنا- وتواصل العمل إلى ما قبل ولادتها بيوم واحد، وهى تضع وليدها تحت شجرة من الأشجار فى العراء أو فى كهف من الكهوف، وهى تضع وليدها وهى واقفة على قدميها كما لو كانت من ذوات الأربع، وذلك- إن أمكن- بمساعدة امرأة أخرى من القبيلة، وقد تكون هذه المرأة أمها أو أختها. وفى اليوم التالى تصبح المرأة مستعدة لاستئناف عملها.

الإنجاب غير الشرعى أمر غير معروف تمامًا فى سائر أنحاء هذه الجبال، وذلك على الرغم من اتساع مدى الحرية التى تتمتع بها المرأة، وهذا راجع إلى سهولة الزواج، الطلاق، وكذلك الزواج للمرة الثانية، وأن هذه المسائل لا تخضع

لإجراءات عقابية كبيرة مثلما يحدث فى بعض الأماكن الأخرى من شبه الجزيرة العربية. فى عُمان، على سبيل المثال، نجد البنت التى تخطئ سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة، يمكن أن تقتل على يد والدها، أخيها، أو ابن عمها، لكن زوجها لا يقوم بهذه العملية. هنا فى هذه الجبال، إن أخطأت البنت فإنها تطرد من القبيلة ويسمح الناس لها بالذهاب إلى الساحل لتعول نفسها بنفسها.

وفى عُمان؛ فإن الرجل الذى يزنى بهذه المرأة ويكون ذلك برضاها هى، ينجو من العقاب ويسمح له بالتجول هنا وهناك. وفى جبال القراوين يقوم أقارب البنت بملاحقة ذلك الرجل. وإذا ما أفلحوا فى إحداث جرح فى جسمه بالسيف فذلك خير وبركة، لكنه إن هرب فإنهم يقومون باصطياد زوجته، أو أخته، أو أمه ويفعلون فيها الجريمة نفسها.

هناك قاعدة لا يمكن كسرها فى زواج الفتاة للمرة الأولى؛ وهى أن والدها هو الذى يختار زوجها الأول بدون الرجوع إليها أو أخذ رأيها. هذه القاعدة ملزمة وصارمة عند الأباضيين فى عُمان، وبخاصة بين الصفوة المختارة، وهم يرون أن من العار على الأب أن يعرف رغبات ابنته أو يخبرها حتى عن الزيارة التى سيقوم بها للقاضى فى مسائل تتعلق بالزواج، ولذلك فإن الابنة لا تعرف سوى القليل جدًا عن هذا الأمر إلى أن يحين موعد الليلة التى سيجرى فيها توصيلها إلى بيتها الجديد.

من ناحية أخرى، نجد أن والد العريس يجوز له التحدث مع الخطيبة بنفسه، ويجوز له بل ومن حقه أن يتكلم مع والدة العروس، كيما يمتدح لها صفات وخصال ولده. وبنت هذه الجبال إذا ما طلقت وأصبحت امرأة، يتعين أخذ رأيها وتلبية رغباتها فى زوجها المستقبلى، وهناك بعض الحالات تؤكد أن مثل هذه المرأة تتزوج من الرجل الذى توافق هى عليه، إذا ما وافق والدها أيضًا على هذا الزواج. هذه الجبال لا يجرى فيها الإصرار على الزواج من ابن العم كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية[١]، باستثناء المهارين الذين يعطون والد العروس كل الحقوق فى الأمور المتعلقة بالزواج.

---

(١) كان النبى (ﷺ) هو لب هذه المسألة، والمقصود هنا ليس أبناء العم الذين من نسل واحد وإنما القرابة البعيدة.

غادرنا خيونت. كان طريقنا الذى وصلنا إليه من خلال تسلق ضفة غابية من الوادى الموجود على الجانب الجنوبى الغربى من خيونت، إلى أن وصلنا إلى ارتفاع ١٨٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر، استطعت منه مراجعة موقعى والتأكد منه، بواسطة توجيه البوصلة إلى النقاط الساحلية المعروفة. وانطلقنا مواصلين مسيرنا من هذه النقطة المرتفعة، طوال الفترة المتبقية من اليوم، فى مسار يميل قليلاً ناحية الجنوب الشرقى، مخترقين بذلك مروجًا متدحرجة من الشوفان. وهنا بدأ الطابَع الحجرى يتسود المكان، وبدأت الغابات تبدو منتشرة فى كل مكان؛ وكانت الوديان أكثر عمقًا من غيرها من الوديان الأخرى؛ وعليه آثرت النزول من فوق راحلتى ورحت أسير على قدمىَّ ومعى شبكة صيد الفراش، برطمان القتل، وصرفنا الإبل من طريق أسهل لكنه أطول.

وبذلك أكون قد انفصلت عن جماعتى، وهنا جاءنى يجرى بدوى من بدو الكثارين وهو يصيح مذعورًا.

"وقِّف! أيها الصاحب! أنت ليس معك رابيا أو رفيق، ولذلك قام بيت القطون باحتجاز إبلنا".

بيت قطون، هم بطن من بطون، قبيلة القراوين، وكانوا على خلاف مع الحكومة فى ظفار؛ كنت قد أبقيت واحدًا من رؤسائهم فى السجن فى صلالة؛ لأنهم كانوا قد رفضوا دفع الضرائب السنوية، فضلاً عن أنهم كانوا لا يزالون يمارسون عملية الغزو.

على كل، أنا لم تكن حالتى النفسية تسمح لى بالتوقف.

صاح البدوى الكثيرى قائلاً: "والله! بيت القطون قادرون على فعل الشر بكل أنواعه. ألم يقتلوا عسكرى حكومى فى العام الماضى؟".

لم يكن معى فى ذلك الوقت، أى أحد من القراوين، كما أن واقع الأمر يقول: إن رجوعى أو عودتى إلى الوراء مرة ثانية سيكون عديم النفع؛ وعليه قررت مواصلة السير ولم يكن معى سوى عبد واحد آملاً بذلك ألا يصيبنا شر فى طريقنا. كان الطريق المؤدى إلى حمرير ممتدًا خلال سلسلة جبلية منحدرة على

الجانبين إلى وديان كثيفة الغابات، وكانت آربوت Arbot عن شمالنا، فى حين كانت نيهاز التابعة لبيت القطون عن يميننا. وعليه وفى ساعة مبكرة من فترة العصر، وبعد ثلاث ساعات من مسير بلا حماية، وصلنا متعبين متورمى الأقدام عند ثقب الماء فى منطقة فوزه، التى تطل على آربوت؛ وكان جهاز قياس الارتفاعات قد سجل ١٣٥٠ قدمًا.

اخترت لإقامة مخيمنا فى فوزه، شجرة تقع على رأس حقل من الحشائش والعشب المتموج، كان يشرف على منظر شديد الروعة. كان وادى آربوت المتثائب من تحتنا ينزل منحدرًا انحدارًا كاسحًا إلى المنطقة التى يخرج عندها على شكل مكان ضيق متجهًا إلى جوربيب، كان السهل الواقع على الطرف البعيد لهذا الوادى محدودًا بشريط بحرى فضى اللون.

هنا نجد أن المنحدرات الجبلية المتجهة صوب البحر هى التى تشكل حدود هذا السهل من تلك الناحية، ويتواصل امتداد هذه المنحدرات على شكل منظور متناقص إلى نشيب التى هى هضبة متموجة السطح، ومن بعدها إلى مداخل الوادى الكبير التى تميزها حواف جبلية بارزة استطعنا تمييزها من هذه المسافة البعيدة، بفضل الظلال التى كانت تلقيها كل حافة من هذه الحواف البارزة على الحافة المجاورة لها.

هنا، فى فوزه، لم نصادف عدوًا متربصًا، سوى راعية شابة صغيرة السن هى التى مرت علينا، واشتريت أنا منها عنزة كيما آخذها معى إلى الوادى فى تلك الليلة، وأقوم بربطها بالقرب من الماء حتى تكون شَرَكًا يساعدنى فى اصطياد فهد أسود ذكر.

وَصَلَتْ بعد ذلك بساعتين إبلى المتأخرة، وكان القراوين مترددين فى الحديث عن الأحداث المؤسفة التى وقعت لهم على الطريق. كان يومهم مرهقًا ومجهدًا لهم، ومع ذلك حملوا عن رضا قراب الماء ونزلوا بها إلى آربوت لإحضار الماء من بركة عين فوزه، التى كانت مجرد قطرات غير نظيفة.

هؤلاء الرجال متسلقون رائعون: عضلات أرجلهم نظيفة، ونزولهم منحدر طوله ثمانمائة قدم، ثم تسلق هذا المنحدر من جديد وهم يحملون على ظهورهم قرابًا مملوءة بالمياه ولا تعنى لهم شيئًا، فضلاً عن عدم تخوُّفهم من الغطاء النباتى بعد

دخول الليل، على الرغم من التأكد من وجود لدغات ثعبانية، علاوة على أنى استطعت الحصول على أربعة ثعابين (منهم حيَّتان نافختان سامتان) خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من ساعة وصولى.

كنا قد انقضت علينا ليلتان فى هذا المكان - بقيت مستيقظًا حتى الساعة الثالثة والنصف صباحًا، وكان الليل مظلمًا، وقاسيًا، ورطبًا، وكان السحاب منخفضًا وآخذًا فى التناقص، وفجأة سمعت صوت طلقة بندقية عن بعد، ومن بعدها سمعت صوتًا خافتًا لرجال يغنون وينشدون. كان انطباعى الأول يبعث على الفرح والابتهاج ظنًا منى أن جماعة الضبع التابعة لى والكامنة فوق الوادى الموجود فى الأسفل، كانت تحتفل بقتل الطريدة المطلوبة. لكن اتضح أن ذلك القتل كان من نوع آخر.

كان شيخ قروينى شاب قد تعثر فى فراش نومى فى الظلام، الأمر الذى فاجأنى وأدهشنى، لأنى لم أسمع وقع أقدامه؛ كان الشيخ مندفعًا فى اتجاه الطلقة والغناء ليتحرى ذلك الذى حدث، وفوق جبل صغير لا يبعد عنا سوى ميلين عثر ذلك الشيخ على جثة رجل من المهارين، لا يزال يُحتضَر، وغارق فى دمه بسبب الجرح الناجم عن الطلقة التى أصابت قلبه.

وفى ساعة مبكرة من الصباح جاءنى هذا الشيخ الصغير ومعه الشيخ حسن ليقولا لى إن بقاءنا فى هذا المكان لن يكون آمنا بعد الآن، وهنا وجدت الرجلين الكسولين اللذين من قبيلة الكثارين يوافقان على ما قاله الشيخان. هذا يعنى أن هذين الرجلين بدءا يشعران بقلق غير عادى لأنهما تذكرا مسألة الثأر التى بينهم وبين المهارين. خشى هذان الرجلان أن يكون القتيل هو ذلك الشخص من قبيلتهم الذى عليه الدور فى هذا الثأر، وأن ذلك سيُعَرِّض حياتهما للخطر.

تساءلت: "من الذى فعل هذه الفعلة، فى رأيك يا شيخ حسن؟".

"والله أعلم. أخشى أن يكون ذلك من بيت جابوب (بطن من بطون قبيلة القراوين). ألم تسمع ذلك الوابل من النيران بعد الغناء والأناشيد؟ ذلك الوابل وذلك الغناء الذى جاء من اتجاههم ودوى فى أذنى كما لو كان احتفالاً قبليًا بعملية القتل"، وهذا هو ما حدث بالضبط. "لقد قتل المهارين فى الغزو الذى

قاموا به فى العام الماضى، فردًا من بيت الجابوب. وبذلك يكون بيت جابوب قد ثأروا لقتيلهم الآن".

قلت: "لكن المهرى لابد أن يكون عارفًا ذلك كله ومدركًا له؟ وعليه، لماذا راح يتنقل فى منطقة القراوين؟ ألم تكن هناك هدنة بين الطرفين؟".

"نعم، لقد أبرم السلطان بينهما هدنة لمدة عام. وقد انتهت هذه الهدنة منذ شهرين، وأبرمت القبيلتان فيما بينهما هدنة ثانية لمدة عام".

"إذن، فما حدث هو خيانة؟".

قال الشيخ: "ها مكتيب (بمعنى، هذا مكتوب)".

لقد جرى بالفعل التوقيع على الهدنة.. كما أن المُوَقِّع على الهدنة هو القاتل نفسه. وقد أقسم الرجل على أن قبيلته كلها سوف تتحاشى إهدار الدم المهرى لمدة عام- وبعد شهرين فقط قام ذلك القاتل نفسه بقص أثر واحد من المهارين وقتله أثناء نومه.

عرفت القتيل، وهو رجل يدعى سهيل Sahail . كان سهيل هذا واحدًا من تلكم الأربعة الذين من بيت الشيطانة، والذين جاءوا لمقابلتى قبل ثلاثة أيام، وروى لى قصة فلكلورية. كان القتيل شابًا وعَيِّنَةً رائعة من نوعه. وهذا هو فى واقع الأمر هو أسلوب الثأر. ذلك، أن القاتل ليس هو الذى تجرى دومًا مطاردته أو ملاحقته؛ لكن الذى تجرى ملاحقته أو مطاردته يكون دومًا من الشخصيات البارزة فى القبيلة، وحبذا لو كان ابن عم القاتل؛ هذا الشخص هو الذى يجرى البحث عنه ونصب كمين له، مثلما حدث فيما نحن بصدده هنا.

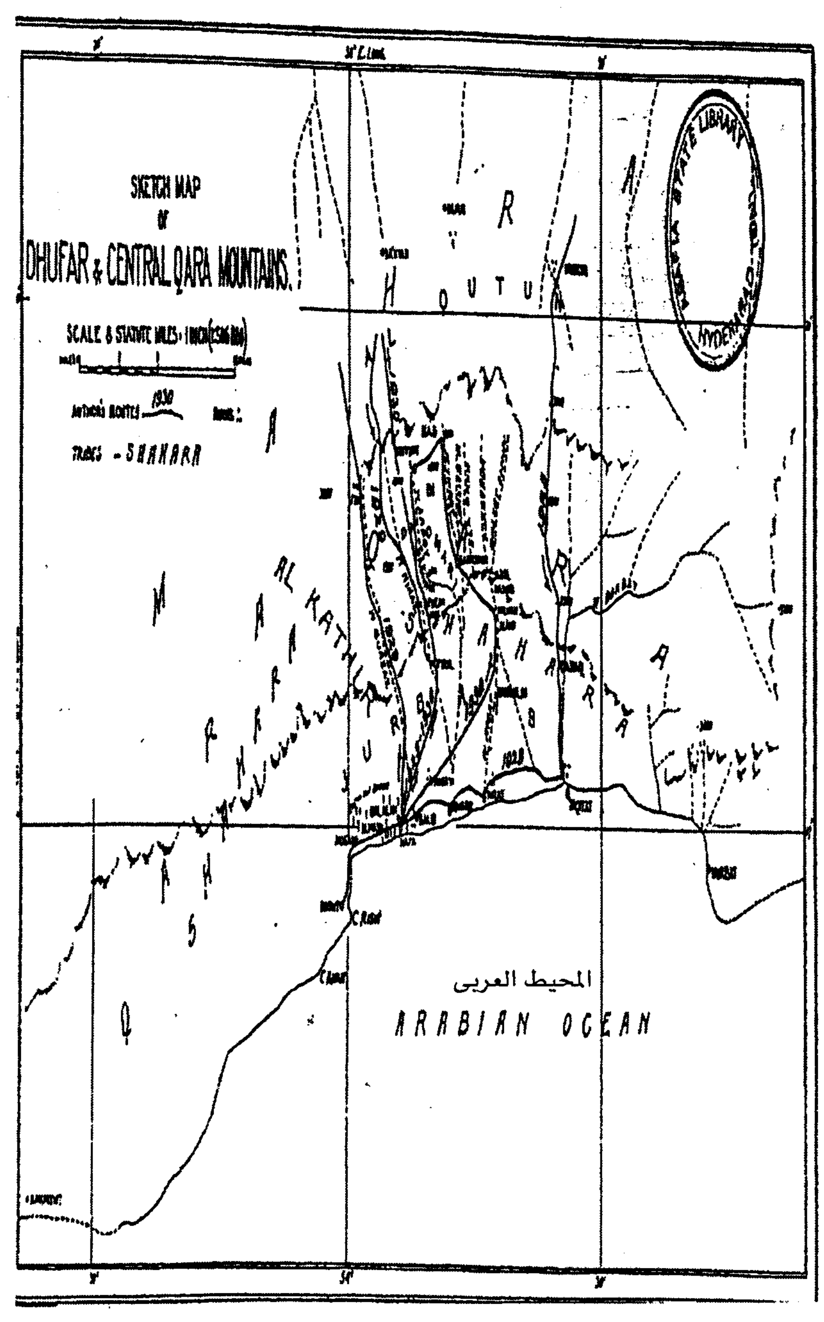
"لكن، يا شيخ حسن" لماذا ذلك على مقربة من مخيمى؟ مَنْطِقَةُ من هذه؟ هل هى منطقة بيت جابو؟.

رد علىَّ الشيخ حسن: "المنطقة منطقتى، لكن فى ضوء عقوباتنا أنا لست مَلُومًا فى ذلك، لأنه لم يكن بصحبته رابيا، أو مرافق من طرفى. لو كان معه رابيا، أو مرافق من طرفى؛ لأدى ذلك إلى اسوداد وجوهنا بفعل جريمة كريهة من هذا القبيل. لو كان لبخيت (كان يشير إلى ولده) رابيا، أو مرافق لأى شخص ثم يقوم القراوين بقتله، فلن يرتاح لنا بال إلا بعد الثأر لمقتل مثل هذا الإنسان".

تحولت إلى الكثيرى، "لابد أنك أحسست بالارتياح، لكن ليس بيد واحد من الكثاريين".

"سامحهم الله، نحن البدو نحترم الهدنة، لكن هذه الجبال قائمة على الخيانة. القراوين هم والمهارين لا يلقون بالاً لانتهاك الشروط التى استشهدوا الله عليها. والله! نحن لا نأمن على وجود الرابيا، أو الرفيق عندما يكون عندهم. هل تعرف- أنت لن تصدق ما سأقول- سهيل هذا، الذى قُتِل فى الليلة الماضية، شرب حليب قاتله أثناء مبيته عنده. سامحهم الله!".

قررت النزول إلى ظفار فى صباح اليوم التالى وإنهاء ترحالى فى هذه الجبال. وفى أضعف الأحوال لن تندم ضباع هذه الجبال على رحيلى. لكن، على الرغم من الأحداث الخطيرة التى وقعت مؤخرًا، فإن مسألة التفكير فى رحيلى لم تكن تسعدنى، لأنى كنت أترك ذلك الذى يُعَدُّ وبكل تأكيد أرضًا فريدة فى الجزيرة العربية كلها، أرض الولائم الدائمة والمستمرة للفنان، أرض المفاجآت التى لا نهاية لها عند المتخصص فى الأنثروبولوجيا، هذه الأرض هى بمثابة فردوس العالم الذى يبحث فى الطبيعة، هذه الأرض عندى، أنا عابر السبيل، مصدر لكثير من الاهتمام والفرح، لم تأوِ جماعتى فى هذه الرحلة الأخيرة إلى الفراش بعد غروب الشمس كما هى عادتهم، وظل المخيم ينبض بالحياة، والضوضاء حتى ساعة متأخرة من الليل؛ واستأنفت الجماعة ترحالها إلى أن وصلت آربوت.... **هنا جزء ساقط من الفصل وهو بالتحديد ص ١٠٥ (النص الإنجليزى)، والجزء الساقط عبارة عن وصف لفترة الصباح فى آربوت، وباقى الصفحة هى بداية الفصل التاسع.**



(مخطط لظفار والجزء الأوسط من جبال القراوين)

الفصل التاسع

ظفار : الساعة الحادية عشرة

(هنا جزء ساقط من الفصل التاسع وهو بالتحديد جزء من ص ١٠٥ (النص الإنجليزى) بالإضافة إلى ص ١٠٦، والجزء الساقط يتناول الرحلة التى قام بها سلطان مسقط وعمان إلى ظفار على ظهر يخته، وقد بحثنا فى كل إصدارات الكتاب واتضح أن هذا الجزء ساقط فى كل الطبعات...).

... مضى علينا قرابة نصف الساعة ونحن فى هذه التأملات والتفكرات الكئيبة، وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما جاءنى خادمى محمد وثبًا وقفزًا.

"عندى أخبار، أيها الصاحب! لقد وصل رجلان إلى السوق قادمين من الصحراء، وهما يقولان إنهما مقدمة لجماعة مكونة من قرابة أربعين شخصًا آخرين معهم إبل، ومن بينهم كل من معيوف وخويتيم، اللذين أرسلت فى طلبهما. وهم سيقضون الليلة عند ثقب الماء الموجود فى فوروم؛ وغدًا، بمشيئة الله، سينزلون إلى جورييب".

هذه أخبار مفرحة، إن صدقت؛ لكن اللنش المسلح سوف يأتى إلىَّ غدًا. تُرى، هل جاءت مجموعتى الصحراوية - إن صح هذا الكلام - متأخرة يومًا عن موعدها؟ أم أنى سوف أُخدع فى الساعة الحادية عشرة؟

ألقيت نظرة على فناء القلعة فى الأسفل على ما يقرب من أربعين جملاً أنيقًا من إبل الركوب، وعدد مماثل من البدو مهلهلى الثياب، قطعوا مسافة مائتَىْ ميل

إلىّ تلبية لطلبى السِّرى وأنا فى الربع الخالى. نظرت فى اتجاه البحر حيث كان اللنش المسلح، الذى يطلقون عليه اسم السعيدى، راسيًا. وهنا جاءنى قبطان هذا اللنش المسلح الشجاع، القبطان صالح المنضارى، ليعيدنى إلى مسقط. رحت أتصفح بسرعة الرسائل التى جاءنى بها. كانت أول هذه الرسائل تحمل خاتم السلطان. وكانت مؤرخة من الهند وكانت فى حوزة تلك اليد الأمينة التى أعرفها حق المعرفة. قرأت هذه الرسالة مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، وفى ضوء قوة الصداقة الحميمة التى ميزت علاقتنا على امتداد ست سنوات، اتخذت قرارى: سوف أعيد اللنش المسلح ثانية إلى مسقط دون أن أكون على متنه، سوف أحاول العودة بطريقة أخرى. سوف أربط مصيرى بمصير هؤلاء الأشقياء الموجودين فى فناء القلعة، وكلهم غرباء علىَّ، وسوف أتجول معهم فى البرية المجهولة غير الموقعة على الخرائط.

أحضر كل من خويتيم ومعيوف الشيخ صالح كيما يقابلنى وراحوا جميعًا يعربون عن المتاعب التى لقوها فى تجميع هذه الجماعة، وإقناع الجماعة بالمجىء، ومخاطر مقابلته لأعدائهم، والجوع الذى يمكن أن يكابدوه على الطرْيق (والذى يشهد عليه الحال التى عليها إبلهم)، وأخيرًا وبصورة حتمية المكافأة السخية التى يمكن أن ينتظروها منى.

سرعان ما استلطفت الشيخ صالح. كان الرجل يحمل اسم بن كالوت - كالوت هذه هى أشهر نساء الرمال كلهن، وهى ابنة المحارب الشهير، وهى أيضًا أم لثلاثة محاربين، ذلك أن مسألة أن يكون للإنسان ذوو قربى قادرون على تدمير عدوهم (ونصرة أصدقائهم) تعد جوهر وأساس النَّبالة فى هذه البيئة. كان صالح رجلاً قصير القامة، متين البنية، له رأس كبير إلى حد ما، أصلع - بدوى غير عادى، على الرغم من أنه يبلغ من العمر ستين عامًا، وله لُغْد من تحت فكه الأسفل. كان الرجل عريض الجبهة، وربما كان السبب فى ذلك هو أنه كان أصلع، وكانت عيناه واسعتين، ووجهه حسنًا ويوحى بصراحته، كان صوته بطيئًا ومحسوبًا؛ كان الرجل يوحى بالثقة.

استحلفته أن يحفظ سرى وأطلعته على خططى. لم أكن أريد سوى عبور الصحراء من البحر إلى البحر.

"لكن ما المكان الذى تود الخروج منه؟".

قلت: "فى أى مكان يسمح لنا بذلك، الرياض، البحرين، أبو ظبى".

قال الرجل مؤكدًا: "إذن، ما هو الممكن؟".

"بوسعنا أن نأخذك إلى منطقتنا، ديرة الرشيدى فى الرمال الجنوبية، ثم نعيدك، وربنا يخلصنا من السَّعارين، لكن لا يمكننا اصطحابك إلى مراعى أية قبيلة أخرى".

تشبثت برأيى. إما عبور الصحراء أو إلغاء الرحلة تمامًا. هذا الذى اقترحه علىَّ لن يفيدنى بأى حال من الأحوال.

رد علىَّ صالح: "لكن صوم رمضان سيحل علينا بعد شهر من الآن. من الذى يمكنه أن يترحل فى وقت مثل شهر رمضان، وهو الوقت الذى يحتِّم على المرء أن يكون صائمًا مع أفراد أسرته؟".

من الطبيعى أن يكون الشيخ صالح، فى حالة نفسية لا تسمح لى بالترحال فى شهر رمضان أو القيام برحلة إلى مسافة لا داعى لها. لكن البدوى لا يمكن تهديده. ولما كان البدوى شخصًا لا يمكن استفزازه، فهو لا يتحمل الابتذال، لكنه يفهم معنى القرار، على الرغم من أنه يُفَضِّل إعطاء البدوى يومًا أو يومين حتى يمكن له أن يتكيف ذهنيًا مع الفكرة التى لم يستسغها فى البداية.

جاءنى صالح فى اليوم التالى للقائى مرة ثانية، وقمت للمرة الثانية بعرض متطلباتى غير القابلة للاختصار أو الانتقاص منها، والتى كنت مستعدًا لدفع مكافآت سخية من أجل تحقيقها. وركزت على مطالبى مذكِّرًا بأنى قد أضطر إلى استقلال اللنش المسلح وأذهب إلى أبو ظبى، وأطلب إلى العوامير مساعدتى فى تنفيذ طلباتى من ناحيتهم. كنت أتمنى أن يصحبنى صالح فى تلك المناسبة؛ راودتنى هذه الأمنية دون أن أفصح. انشرح صدر صالح لهذا التلميح الذى مفاده أنى لدىَّ الوسائل التى تمكِّننى من تحقيق ما أبتغيه دون عون من الرشادين، أو إن شئت فقل: قبيلة الرشيد (على الرغم من أنى لم تكن لدىَّ



(الشيخ صالح بن كالوت)

الوسائل المطلوبة؛ وعلى الرغم أيضًا من أن العوامير كانوا أصدقاء لى منذ زمن بعيد)، وهنا أصبح الشيخ صالح لين العريكة بدرجة أكبر.

"لكن، يا صاحبى، أنت لا تفهم حقيقة الوضع. هذا الذى تطلبه ليس فى استطاعتى. بوسعى أن أصحبك فى أراضى الرشادين إلى أى مكان تريد الذهاب إليه، وربنا يحمينا من الأعداء، لكن المكان الذى تود الذهاب إليه هو أراضى قبيلة المُره. وأنا لست مرافقًا (رابيًا) لدى المُرَّه، ولا يمكن أن أجرؤ على الدخول إلى أراضيهم دون موافقة وحماية منهم. وأنا لا أعرف إن كانوا يقبلونك أو لا يقبلونك فى أراضيهم.. وأنا لا أستطيع إعطاءك التعهد الذى تريده أنت".

كانت مصادفة سعيدة أن يكون السعيدى بيننا. إذا كان البدو مهتمين بهذه المشكلات، فذلك يعنى أنه من العبث أن تبدأ رحلة معهم؛ هذا يعنى أن مقاومتهم سوف تزداد صلابة كلما واصلنا مسيرنا، وهذه خبرة اكتسبتها فى العام السابق عندما بدأت رحلتى دون فهم واضح لأبعاد الرحلة. هذا معناه أنى إذا ما بدأت وفشلت، فذلك يعنى عودتى إلى ظفار فى غضون شهر من الآن مهزومًا دون أن أحقق هدفى الرئيس، ثم تحركى من هناك إلى مسقط بالدهو، وهذا أمر مرفوض. وعليه، كان لابد لى من الاحتفاظ بالسعيدى ليكون لى بمثابة الاحتياطى الجاهز للاستعمال.

إنقضى اليوم الثالث، وبلغنى أنهم بدأ يزداد قلقهم، لأنهم كانوا ينتظرون منى نقودًا، وأنا لم أُعْطِهم سوى الطعام وعلف للإبل فقط.

جاء صالح إلىَّ مرة أخرى ليقول لى إنه كان فى موقف حرج بينى وبين رجاله غير المنطقيين. كانت هناك همهمات وغمغمات حول أهدافى من ناحية، والدافع غير المحتمل الذى يمكن أن يوافق عليه هؤلاء البشر البسطاء الذين يسهل انخداعهم. كان لابد من كسب ثقة هؤلاء البشر، وتخليص أذهانهم من دوافعهم الخفية، التى من قَبيل التجسس على إعداد إبلهم لمصلحة ابن سعود أو السلطان تيمور، أو أى محصل من محصلى المستحقات، وعليه قررت، فى شىء من الحكمة، إبعاد نفسى عن أية سلطة من السلطات الخارجية، وألا أقول لهم سوى الحق، وأؤكد لهم أنى أقوم برحلاتى أولاً وقبل كل شىء من منطلق حبى للسفر

والتجوال، وثانيًا أنى أخدم قضية العلم، الأمر الذى يشكل أهمية كبيرة عند قبيلتى ويحظى بتشريفها وتكريمها.

"حسنٌ، يا شيخ حسن، ما موقفك الآن؟".

أنا مثلما قلت لك، أيها الصاحب، أود مساعدتك، لكنه لا يمكن أن أعدك بما تريد".

كنت أعى تمامًا صواب الحجج التى يسوقها صالح، لكنى لا يمكن أن أقبل أو أُسلم بالوضع الذى تنطوى عليه هذه الحجج. كان واضحًا أن صالح لم يكن فى وضع يجعله يضمن الحماية من قبيلة أخرى، لأجنبى غير مسلم ومعروف للجميع.

"لكنك تعرف جيدًا، يا شيخ صالح، أن المُرَّه أصدقاؤك؛ وأنا إذا ما أجزلت لهم العطاء، وإذا ما تحققوا أنى أعتمد على حسن طويتك فإنهم سيتركوننا نمُرّ".

"أنا أعرف وأعتقد أنهم سوف يسمحون لنا بالمرور، أيها الصاحب، لكن ذلك سيكون فقط فى حال وجود مرعى وماء، لكن هم وحدهم فقط الذين يعرفون أن الطريق يمر برمالهم".

كان ذلك هو هدفى الحقيقى؛ كنت أود الحصول على استحلاف الشيخ صالح أن يتعهد بمساعدتى، وأنه سيقطع معى الطريق بكامله، وأن يسعى جاهدًا إلى تأمين تعاون قبيلة المُرَّه معنا، وأن يضمن لى مسير الجماعة معى فى شهر رمضان. وإذا ما فعل صالح هذه الأشياء سوف أعطيه جملاً، بندقية، وثوبًا. وبينما كنا نتساوم، استطعت إقناع سيد سعود الوالى، الذى كان قد عاد لتوِّه، وطلبت منه أن يكون حَكَمًا بيننا؛ لأنه كان طيب المكانة، ويحظى باحترام كبير، ولذلك كنت ممنونًا لطيبته وحنانه. ولما كان سيد سعيد رجلاً مسلمًا متدينًا فقد شهد على اليمين الذى أقسمه صالح والذى يقضى بأن أكون فى حمايته، وألا يحدث لى أى شكل من أشكال الخيانة، طبقًا لنصوص العقد، مهما كانت هذه الأشكال خارجة عن إرادته أو سلطته، أو لا قِبل له بها - وكان المقصود بذلك هو القوم، أو الجماعة الغازية المعادية- وإرادة الله تعالى.

ولما كنت أعرف جيدًا معايير صالح القدرية، فقد أحسست أن الشرط الأخير يمكن أن يفرغ العقد من مضمونه، لكنى حرصت على ألا أُصر على تعريف

محدد، مخافة أن يؤدى ذلك إلى إثارة مشكلة دينية حساسة، ليس هذا أوانها أو محلها. كنت أركز على روح نص العقد وليس على كلام العقد.

من هنا، استحلفت الشيخ صالح أن يعدنى بأنه سوف يتعاون معى بنيَّة خالصة فى تحقيق ما أبتغيه: أضاف صالح: "لكن يجب ألا يعلم أحد من البدو المرافقين لى بأى شىء مما دار بينى وبينك. لقد جاءوا على أمل أنك ستقوم بزيارة دكاكا، مخيمنا الحالى، وذلك طبقًا لما رتبته أنت مع سهيل الرشيدى فى العام الماضى. لقد سمعوا عن سخائك معه، وهذا هو السبب الذى دفعهم إلى المجىء إليك- إنه الطمع- الجشع- الشُّح. هذه هى العاطفة المتقدة عندما نصل إلى مياه الضاحية، ستكون إبلهم مرهقة. وهنا يتعين عليك صرفهم، فى حين سوف أسبق أنا لعمل الترتيبات اللازمة لإحضار جمَّالة آخرين يحلون محلهم ويواصلون السير معنا".

"لكن ماذا عن الطريق، يا شيخ صالح؟".

"الحرب، أيها الصاحب، الحرب، الغفارية والمعراب[1] بينهما وبيننا ثأر، هاتان القبيلتان قويتان.. ونحن إن شاء الله، سوف لا نلتقى أحدًا منهم على الطريق. لكن المرَّه، لابد أن تلتقيهم وإلا لن يسمحوا لك بالمرور".

---

(١) هناك حزبان سياسيان متعارضان: الهناوى والغفارى، وكل قبائل الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية تنتمى إلى حزب أو آخر من هذين الحزبين. من الناحية الشكلية أو السطحية نجد أن مصطلح هناوى ومصطلح غفارى قد يبدوان على أنهما فى خلاف حول تولى الحكم فى عُمان فى مطلع القرن التاسع عشر، ولكن طبقًا لما لاحظته فى أماكن أخرى فإن هذين المصطلحين لهما مغزى أكثر عمقًا، وذلك لأن مصطلح الهناوى، يتصادف بشكل عام مع القبائل قطحانية الأصل، كما أن المصطلح غفارى يصادف أيضًا قبائل المعارك، أو الأصل النيزارى، أما بقية القبائل الأخرى فهى ليست من سلالة يمنية. وعليه فإن هذا التقسم، فى إطار حدود معينة، هو عرقى فى أساسه، هذه البطاقات أو المصطلحات تنطبق على قبيلة السعَّارين فى الغرب، حيث ينظر إلى هذه القبيلة على أنها غفارية، فى حين أن قبيلة الكثارين، التى تعد قبيلة الرشيد بطنًا من بطونها، هى هناوية. ومن هنا فإن كتلة الوسط التى تدعى بالغفارية، وذلك على الرغم من أن هذه القبيلة فى جنوب الجزيرة العربية تعد مميزة عن عمان، هذا يعنى أن التضامن الحزبى لا وجود له، وبالتالى فإن هذه المصطلحات أو البطاقات ليس لها مغزى سياسى.

المصطلحان: معراب ومشجاص لهما دلالة إقليمية فى جنوب الجزيرة العربية، إذ يشيران إلى: فى اتجاه الغرب واتجاه الشرق من ظفار كل على حدة، ومن هنا تصبح قبيلة السعارين هى والقبائل الأخرى هم أهل المعراب.

تحتَّم علينا حساب العدد الدقيق للأفراد اللازمين لهذه الرحلة من ناحية وحساب التعيينات اللازمة بدقة بالغة. كان واضحًا لنا أن مجموعة واحدة أو اثنتين على أكثر تقدير تكفيان للقيام بهذه الرحلة، إذ لم يكن بإمكانى نقل أحمال من المؤن عبر هذه الرمال الجائعة بالمسيرات السريعة التى أبتغى القيام بها؛ هذا يعنى أن الإبل لن تكون على حالها الذى كانت عليه عند بداية الرحلة. قال الشيخ صالح: "يلزمنا أربع فرق، لا تحسب حساباتك على ما هو أقل من هذه الفرق الأربعع". كان من رأى الشيخ صالح أن أعداد هذه الفرق يمكن تخفيضها شيئًا فشيئًا طوال الرحلة، وكان من رأيه أيضًا أن المسيرة الأولى عبر السُّهوب الواسعة، ستكون معرضه للسَّعارين، وحفاظًا على السلامة والأمن يجب ألا يقل عدد المشاركين فى هذه المسيرة، عن أربعين فردًا. كان من رأيى ولأسباب مالية أن يكون عدد الجماعة أقل من ذلك، لكن مستشارى كان على صواب فيما ذهب إليه. واقع الأمر، أن العدد أربعين قد لا يكون كافيًا، وبخاصة عندما خطر على بالى فكرة أن الجماعات الغازية المكونة من مائتى فرد وثلاثمائة فرد هى فكرة مطروحة ومعروفة فى أراضى الحدود الجنوبية، التى يُعد فيها سفك الدماء، وسرقة الإبل والبنادق نشاطًا عاديًا من أنشطة الحياة عند هؤلاء البشر.

"وماذا لو التقينا" يا شيخ صالح، جماعة أكثر من منا عددًا؟.

"ليست هناك قدرة أو قوة سوى قدرة وقوة الله تعالى".

تقرر أن تكون التعيينات (المؤن) مكونة من الزبد، الأرز، التمر، والدقيق. وإن الكميات التى سنحملها من هذه المؤن هى التى ستحدد عدد إبل الحمل، فى كل مرحلة من مراحل الرحلة. هذا يعنى أن الإكثار من الطعام يمكن أن يكون مصدرًا كبيرًا من مصادر الإنفاق، لا من حيث قيمة هذه المؤن، وإنما بسبب نفقات إيجار الإبل، نظرًا لأن إبل هذه الصحراء صغيرة الحجم وخفيفة، ولا تستطيع حمل أحمال كبيرة؛ يزاد على ذلك أن قلة المؤن (التعيينات) يمكن أن تؤثر بل وتدمر احتمالات تحقيق الأهداف التى أبتغيها. هذا يعنى أن أضع ميزانية لأربع فرق مستقلة: أربعون، ثلاثون، عشرون وأخيرًا خمسة عشر فردًا.

هذا يعنى أن الفرقة الأولى يجب أن يُصرف لها مؤنها قبل بداية الرحلة؛ هذا يعنى أيضًا أن الإبل سوف تحمل مؤن الفرق الثلاث الأخرى. وأن هذه العملية

سوف تتكرر فى كل مرحلة من المراحل المتبقية. وفى ظل هذا التخفيض المُطَّرد قدرت أن عدد دواب الحمل سيكون خمسة عشر جملاً منذ البداية.

كان التنظيم الدقيق والواعى مُستلزَمًا ضروريًا من مستلزمات النجاح، لكن التنظيم وحده ليس كافيًا لضمان النجاح. قد نصادف جماعة من السَّعارين أكبر منا عددًا على الطريق (ولابد أن خبر حملى لثلاثة آلاف دولار فضِّى، ستجر علىَّ قرابة ألف من الغزاة)، هذا فى الوقت الذى سوف يتعين علينا فيه عندما نصل الصحراء، مواجهة ثلاثة عوامل لم نحسب حسابها، أول هذه العوامل يتمثل فى موقف قبيلة المُرَّة من مسألة ما إذا كانت المراعى وثقوب المياه جيدة هذا العام، أما الثالث فقد تمثل فى مسألة العثور على عرب مستعدين للمخاطرة بإبلهم وبأنفسهم، وجاهزين للترحال خلال شهر رمضان، شهر الصوم. كان موقف قبيلة المرة غير محدد فى الوقت الحالى. لم يحدث أن دخل غريب إلى هذه الأراضى، وبخاصة رجل أبيض ومسيحى. تُرى، هل سيتعاونون معنا؟ كان من رأى الشيخ صالح أن الموقف بين بين. وفى ظل هذا الحال النفسى غير المؤكد، وبعد توقف دام شهرين، قررت الرحيل عن ظفار فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من العام ١٩٣٠ الميلادى.

الفصل العاشر

فوق التلال وعلى مَبْعَدَة!

خرجت مجموعة من الإبل من بوابة المدينة الخاصة بحى الحصن، والتى تجمع عندها من البشر الزنوج الشبيهون بالدُّمَى، كيما يشاهدوا رحيلنا ويقولون لنا: فى أمان الله.

يتسم رحيل البدو دومًا بالبطء والتراخى؛ كل أفكار البدو فى مثل هذا الحال تكون مركزة على جَمَلِه فى حمولته الثقيلة والغريبة؛ ثم يتذكر هذا البدوى نفسه بعد ذلك أنه نسى شيئًا كان يريده هو من السوق، والذى لا يراه سوى مرة واحدة كل عدة أشهر، وهنا يقوم بتسليم جمله لجاره ويرجع ليتسكع هناك لمدة ساعة أو أكثر من ساعة.

ويعود خويتيم راكبًا جمله ومعه ثلاثة مسامير حديدية عملاقة وقد أمسك بها فى يده. قال وهو يسلم هذه المسامير الثلاثة للخادم: "ألا تذكر هذه المسامير؟ سوف تحتاج هذه المسامير لعمل حامل بجوار المدفأة حتى يمكنك المحافظة على دفء القِدْر، فى الأماكن التى يتعذر عليك فيها العثور على الأحجار اللازمة لنارك التى ستَشُبُّها؛ وعليه توقفنا فى صلالة حيث طلب منا الحداد دولارًا، مقابل استكمال نواقص الجماعة".

قام بدويان بمناولتى كاسًا من الماء الذى جلبوه من بئر من المسجد وقالا: "اشرب، أيها الصاحب". وبعد أن أخذت بغيتى من الماء، قاما بالجلوس القرفصاء، إذ من العيب، عند ابن الصحراء أن يشرب وهو واقف، وشربا من بعدى- استعراضًا منهما للتسامح إرضاء لى بعد إقامتى فى العراق، حيث نجد العلاقة

الوثيقة التى بين البشر والأماكن المقدسة عند الشيعيين، وكيف أثرت هذه العلاقة على العادات والتقاليد القبلية فى الأمور التى من هذا القبيل.

وما إن قطعنا مسافة خمسة أميال، إذ كانت جماعتى متلكئة عبر السهل على شكل تشكيل يمشى بلا هدف، حتى اقتربنا من منطقة فيها نباتات شوكية تأكلها الإبل، وبعدها سمعنا صياحًا قادمًا من مؤخرة الركب "اتركوا الإبل ترعى، اتركوا الإبل ترعى" وما إن وصل القبليون إلينا راحوا يتشاورون حول مسألة التوقف والنزول عن ظهور الإبل، وكان عذرهم فى ذلك أن الشيخ صالح لايزال متأخرًا وموجودًا فى الخلف.

وما إن نزلت عن ظهر دابتى حتى نزلوا هم أيضًا عن ظهور دوابهم؛ وربطوا الإبل من أرجلها الأمامية، وأطلقوها تتغذى من الأحراش المجاورة. أمضينا الليل فى هذه المنطقة، وقمنا بتكويم المؤن والتعيينات على شكل كومة واحدة، وذلك تحسبًا للصوص المنطقة، الذين يمكن أن يطمعوا فى هذه الكمية الكبيرة، كان الشيخ صالح يعرف نوعية هؤلاء البشر أيضًا، لأنه قام بعد وصوله إلينا، بفترة قصيرة، بمناشدة جماعته وحضِّها:

"يا جماعة! يا قوم".

"زاد الوزير".

"فى أمان الله".

"وفى أمانكم".

"تام تام". جاءت تلك الموافقة من بَدْوِىًّ الذين كانوا موزعين ومشغولين بالعديد من الأنشطة. كان بعض هؤلاء البدو يقطعون المشاعيب(*) من الأدغال الكثيفة، وكان بعض آخر منهم يقومون بتزييت قراب الماء، كيما تكون مُحكمة ومانعة للتسرب فى المسيرات الطويلة التى تنتظرهم؛ كان أصحاب إبل الحمل جالسين يخيطون جوالات القش لتكون بمثابة سُرُج مرتجله لظهور الإبل، لأن السُّرُج

(*) واحده "مشعاب" وهو عبارة عن عصا تنتهى بطرفين أحدهما على شكل العدد ٧ ويستعمله البدوى فى قيادة دابته. (المترجم).

الجاهزة غير معروفة فى هذا الركن من الجزيرة العربية، أما أنا فقد كان علىَّ أن أقوم بشراء كمية من الجوالات من ظفار؛ بعض ثالث من هؤلاء البدو كانوا يراجعون مشترياتهم من السوق، التى من بينها غلاية كبيرة مصنوعة من الألومنيوم، فى حين راح شاب يافع يدلل بصورة رومانسية مرآة ذهبية اللون، والأرجح أنه كان يود إرسال شعاع إلى عيون كائن هش عزيز فى رمال الصحراء. صاح الشيخ صالح قائلاً: "تعالَ لترى أخفاف الناقة؛ كان الشيخ صالح جالسًا على الأرض وفى يده إبرة كبيرة، ومنحنيًا على ناقة كانت مطروحة أرضًا على جانبها بواسطة عدد قليل من العرب بالطريقة المعتادة؛ إذ كان واحد منهم ممسكًا برأس الناقة وقد لَفَّه إلى الوراء بحيث يكون موازيًا لجسم الناقة؛ وكان عربى آخر ممسكًا بشفة الناقة العليا فى شىء من الغلظة؛ أما العربى الثالث فكان يمسك بواحدة من رجيلها الخلفيتين. وكان الهدف من هذه العملية هو وضع أو تخييط رقعة صغيرة من الجلد على جانب قدم الناقة، فوق الخدش الناجم عن الممرات الحجرية غير المعتادة فى الجبال؛ وهذه الرقعة ستوفر الحماية لرجل الناقة فى رحلة الغد.

بعد أن أنهى البدو مباشرة المهام المطلوبة منهم، راحوا يتجادلون فيما بينهم، كما هى عادتهم، عن عدم المساواة فى حمولات الإبل، إذ كان كل واحد منهم يود مَهمَّة خفيفة لإبله؛ ونجم عن هذا الجدل أن قمت بإعادة توزيع الأحمال، الأمر الذى أضنانى، ذلك أن الراحلة أو الركوبة التى كنت أركبها أُخذت منِّى بذريعة أنها لم تكن على ما يُرام، وفى الصباح وجدتنى أركب حيوانًا لا يرضينى. لم يكن يمر يوم واحد بدون عراك أو جدل حول مسألة الأحمال هذه، ذلك أن الجمل أو الناقة هو أعز شىء إلى نفس هذا البدوى، الذى هو على استعداد لخوض المعارك من أجلها حتى آخر نفس فيه.

اصطفت جماعتان لأداء صلاة المغرب، كان الشيخ يؤمُّ إحداهما، فى حين كان مرافقى الكرابى يؤم الجماعة الثانية. ونقلاً عن خادمى، فإن أداء هاتين المجموعتين للصلاة كان على النقيض تمامًا من أداء جماعتى التى كانت من الكثارين فى العام السابق، من منطلق أن الكثارين كانوا يصلون على انفراد كلٌّ لوحده، وعلى الرغم من أنهم يجهرون بالصلاة فإنهم كانوا يجهلون تمامًا معنى الكلام الذى يجهرون به، الأمر الذى يبدو لخبطة مؤسفة عند الآذان المثقفة.

ركبنا دوابنا عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالى، وبعد ركوب دام ساعتين عبر السهل وفى اتجاه وادى نيهاز قصدنا غور فضل، الذى هو عبارة عن حفرة معشوشبة عند سفوح الجبال. ومن خلال التأكيدات على التحديات المحلية التى قمت بها، يمكن القول أن هذا المكان هو الذى ينطبق عليه ذلك الذى قال عنه بنت Bent، إنه ظاهرة طبيعية ينطبق عليها ذلك الذى أسماه بطليموس ديانا أوراكليوم Diana Qraculum . وأنا هنا أعترف بأنى أصابنى إحساس بالإحباط. كانت هذه الحفرة كبيرة على غير العادة، وكان عرضها أو اتساعها لا يقل عن عشرين قدمًا، ومن حول قمتها المستديرة يوجد أيضًا جبل صغير مستدير، يحتمل أنه كان يخفى أو يستر جدارًا كما هو وارد فى وصف بنت لهذا المكان، لكن هذه الحفرة تبدو وكأنها كانت تحتوى على مادة جرى استخراجها أيضًا. كانت أجناب هذه الحفرة المفتوحة من الصَّلْصال شديد الحمُرة، وفيها من الدلائل، ما يوضح أنها فى يوم من الأيام، كانت من الصخر أو مبطنة بالصخور. وعندما ألقيت بحصوة فيها استغرق وصول هذه الحصوة إلى القاع الجاف مدة ثانيتين تقريبًا. وهنا يمكن القول أن عمقها يُقدر بقرابة مائة قدم. وقد عزوا هذه الحفرة إلى منجوى Minguwi ، أشهر حكامهم فى العصور الوسيطة، وهذا هو حال القراوين مع كل تذكار من التذكارات القديمة؛ وأنا أيضًا أقول إن غور فضل هذا هو من صنع يدَى الإنسان. وكانت تنتشر من حول هذا الغور جبال صغيرة على شكل خلية النحل ويصل ارتفاع الواحد منها إلى قامة الجمل. هذه الجبال الصغيرة ليست بقايا أثرية، كما يقول بنت Bent وإنما هى أكوام النمل[1] - بلغة الجبال، إزدريت.

كان كهف ساحور الشهير، يقع على بُعد ميل بعد ذلك، وفى نطاق المدخل المؤدى إلى وادى نيهاز؛ كان ذلك الكهف عبارة عن حفرة واسعة سوداء اللون يصل اتساعها إلى قرابة مائتين وخمسين قدمًا، ويقع الكهف وسط غابة كثيفة من الأشجار. تسلقت إلى هذا المكان أنا وسهيل، وهو من بيت قطون، وأيضًا حفيد لذلك السهيل، الذى رافقه آل بنت Bents لرؤية ومشاهدة ذلك الكهف، على

(١) الشهارين يقولون لتلال النمل "سدر" Sidr ويقولون للنمل نفسه إزدريت izdirit .

الرغم من أنهم لم يدخلوا هذا الكهف. اتضح أن فتحة ذلك الكهف كانت عبارة عن فتحه فى جدار يصل اتساعها إلى قرابة مائة قدم، ويصل ارتفاع السقف إلى قرابة أربعين قدمًا ومكون من هوابط، وإن شئت فقل: من ترسبات كربونات الكالسيوم، طارت من فوقها حمائم الصخور عندما أحست باقترابنا. هناك أسطورة تقول: إن الجان يتقاسمون هنا وجودًا أسود مع الثعابين والعقارب، لكنى عندما أشرت إلى ثقب صغير منخفض على الجانب الأيسر من فتحة الكهف، والتى هى وحدها التى تؤدى إلى الدخول إلى هذا الكهف، وعندما سألت عن المتطوعين، رد علىَّ أفراد جماعتى المكونة من خمسة أفراد يؤمنون بمسألة الجن ويصدقونها، أعربوا كلهم على استعدادهم وعليه قلنا جميعًا: توكل على الله، ورحنا الواحد بعد الآخر نُدخل أرجلنا فى هذه الحفرة المظلمة المنحدرة. كانت تلك الفتحة ضيقة على نحو لم نتمكن معه من الدخول إلا ونحن فى وضع الانبساط، وبعد مسافة تقدر بقرابة عشر أقدام وصلنا إلى غرفة داخلية كبيرة، شكلها غير منتظم، فيها غرفة رئيسة مريحة شديدة الظُّلمة. كشف ضوء مصباحى الكهربى، أن هذه الغرفة مكونه من صخر بلَّورى أبيض اللون يخطف الأبصار. كان تقاطر مائى مستمر يأتى من الهوابط التى لا تحصى أو تعد المكونة من كربونات الكالسيوم، وذوات اللون الأدكن؛ وكانت تلك القطرات تأتى أيضًا من الصواعد التى هى أيضًا عبارة عن أعمدة من كربونات الكالسيوم؛ كانت تلك الصواعد عبارة عن عُمُد بارزة من بعض الأماكن فى أرضية ذلك الكهف. كان هناك عمود عملاق له ملحق شبيه بالحوض يصل قطره إلى قرابة ثلاث أقدام، من فوق تجويف كامل على شكل نصف كرة ومن التكوين نفسه. كانت تلك الغرفة موصِّلة إلى غرف أخرى، مداخلها شديدة الضيق فى أغلب الأحيان. يقول المواطنون (على الرغم من أن قلة قليلة، إن لم يكن أحد على الإطلاق، هى التى حاولت الإقدام على هذه المخاطرة) إن هذا الكهف يستمر على هذه الشاكلة، أى على شكل سلسلة متصلة من الغرف، إلى امتداد أميال عدة فى الجبال، وأن هذا الكهف يتسع فى نقطة من النقاط، على نحو يحول دون وصول أى حجر يقوم أى إنسان بإلقائه، إلى سقف هذا الكهف. كان الجو خانقًا وشديد الحرارة داخل هذا الكهف، الأمر الذى جعلنى لا أمضى أكثر من نصف ساعة فى جمع بعض العينات الجيولوجية، وخفاش من الخفافيش (فقد ثبت أن غرفة من غرف هذا الكهف

كانت عشًا حقيقيًا للخفافيش) قبل أن أقوم بإرشاد الآخرين، عن طريق مصباحى الكهربائى، إلى طرق الخروج من الكهف. وخرجنا الواحد بعد الآخر إلى حيث الهواء الطلق، وضوء النهار.

تسلقنا بعد ذلك عقبة الحمرة الموجودة على الجانب المقابل من الوادى، ومن خلال المنحدرات كثيفة الغابات وصلنا إلى قمة تلك العقبة بعد قرابة ساعة ونصف الساعة، وعلى بعد مسافة قصيرة من مخيمنا السابق فى فوزه وجدت جهاز قياس الارتفاع مسجلاً ١٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. ومن قمة عقبة الحمرة واصلنا مسيرنا خلال مرج متموج التربة، فى اتجاه الشمال لنتوقف عند الساعة الثانية والنصف فى لحيز (Lehez على ارتفاع ٢٣٧٠ قدمًا)، الموجودة تحت مستوى المنطقة التى يسكنها القطون.

جاءنى خويتيم، ليقول لى: "تقع مياه أرويز على بعد مسافة ميل فى اتجاه الغرب- هذه المياه (زى) العسل. وغدًا نحن البدو سنسقى منها إبلنا ونملأ منها قرابنا فى حانون، لكن مياه حانون ليست مثل مياه أرويز. ومن الأفضل لنا التوقف هنا حتى تملئوا قرابكم من هذا الماء العذب".

رحت أتفكر فى السبب الحقيقى "وراء التوقف الذى نادى به خويتيم"، واتضح إنه سبب وجيه جدًا أيضًا، لأن المكان هنا فيه بعض أشجار السنط، من النوع الذى يطلقون عليه اسم الغاف، وهذا النوع من الأشجار يندر وجوده على هذا الارتفاع، وهو غذاء أو علف لا مثيل له عند الإبل. وافقت، وعن طيب خاطر، على التوقف، لأن أفضل الطرق لكسب التقدير والتوفير لا تتمثل فى الاهتمام فقط بالإبل؛ وإنما أيضًا الإشفاق عليها والعمل على إسعادها.

تلكأت الجماعة أعلى الجبل على شكل مخيم وتحولت إلى أن تستبدل بالقش القديم المستعمل فى حشو السُّرُج التى يضعونها على ظهور الإبل، قشًا جديدًا وكان الشيخ صالح، شأنه شأن الشيخ حسن، الذى رافقنى فى رحلتى الجبلية، الأوفر حركة ونشاطًا بين رجال القبائل، فى مسألة جمع الحطب، والسبب فى ذلك أن شيوخ القبائل يقودون أتباعهم فى الحرب وفى العمل على حد سواء.

تجمع المواطنون الذين لا مهرب منهم، حول نيران المخيم، وهنا كشف البدو المرافقون لى عن قلقهم السابق على تعييناتنا ومؤننا، ولذلك قاموا بتجميع هذه

التعيينات والمؤن على شكل كومة واحدة على أمل أن ينام بعضهم فوقها، وينام الآخرون حولها، لأن هؤلاء البدو المرافقين لى يعزون لرجال هذه الجبال قوى وقدرات تكاد تكون غير طبيعية فى مسألة السرقة واللصوصية.

"هناك علاج واحد فقط. هل تود أيها الصاحب، رؤية هذا "العلاج"، هذا المخيم موجود فيه مريض قديم"، وهنا قاموا على الفور بإحضار رجل من القراوين، وبعد شىء من الإقتناع سمح الرجل بسحب عباءته[1] نيلية اللون، كاشفًا بذلك عن ذراع ذاوية، كانت اليد الآثمة قد قُطعت طبقًا " لقانون الله " - الشرع - وذلك بأمر من السلطان عند قيامه بزيارة ظفار لأول مرة. كان ذلك الآثم قد أُمسك به متلبسًا بالسرقة، وقد أبلى العبد المعين للقِصَاص فى القلعة بلاءً حسنًا عندما قطع اليد بضربة واحدة من بلطته، ينظر الأخيار إلى هذا العمل من المنظور الدينى لكن الأثر المترتب عليه فى مسألة الردع كان أثرًا محدودًا.

غيرت الرياح الجنوبية اتجاهها إلى الجنوب الغربى وهبت علينا باردة على هذا الارتفاع. كانت السحب المنخفضة الدكناء تحجب السماء، وهنا بدأتُ أحس بالقلق من الندى الكثيف، نظرًا لأنى لم تكن معى الخيمة المطلوبة لمثل هذا الظرف، فى هذه المنطقة الرملية كانت رحلاتى السابقة قد جعلتنى أخشى من أن المُرَّة أو البدو سوف يُبدون استياءَهم من جعل إبلهم تحمل خيمتى، وبالتالى يسيئون هم بدورهم إلى رحلتى. ولذلك آثرت ترك خيمتى ورائى، وندمت على عدم وجودها معى فى هاتين الليلتين من ليالى شهر ديسمبر فى هذه الجبال، سجَّلت الترمومترات الجافة والترمومترات ذات الانتفاخ درجة تكاد تكون واحدة، كانت بطانيتى مبتلة على نحو يمكن معه عصرها، وكانت المخدة رطبة على نحو جعلنى أقلبها على الوجه الآخر أثناء الليل. وضعت على رأسى غطاء الرأس العربى، وجعلت منه شالاً يساعدنى على النوم، لكنى صحوتُ من النوم وعيناى لزجتان بفعل الرطوبة الخارجية.

تجمعت الإبل حول نيران المخيم وأمضت الليل كله وهى راضية وتجتر غذاءها - بدأت هذه الإبل تتحرك عندما نهض أصحابها لصلاة الفجر، ونهضت كلها

(١) يقولون لهذه العباءة "سُبيغة" فى هذا المكان.

واقفة كما لو كانت حُرَّاسًا، وهى تنتظر المزيد من الضوء، والدفء الذى يفتح شهيتها. وهنا جاء أصحاب هذه الإبل ليطلقوها ترعى فى الأجمات القريبة إلى أن شرعنا فى بدء مسيرنا.

مسارنا الشمالى الغربى يُوَصِّل إلى منطقة القطون، التى تُعد سقفًا لجبال القراوين، واستدرت إلى الخلف من فوق سَرْج جملى لألقى نظرة أخيرة على المحيط الهندى الذى يبعد عنا ثلاثة آلاف قدم فى الأسفل. هنا فى المكان الذى نحن فيه الآن لا وجود للمروج التى بدأت تحل محلها رقع من الأرض المزروعة بعشب الجوديلات، ذلك العشب الذى يعطى كمية كبيرة من الصمغ. وهنا راح الأطفال يركضون بجوارى على أمل الحصول على بقشيش، وراحوا يرفعون لى نباتات تمنوا لو أنها استرعت انتباهى وحصلت على حظوتى، وهذا هو نبات الهالجوم، تلك الثمرة الشبيهة بالطماطم يستعملها أهل هذه المنطقة فى تنظيف الجلود، وهذا هو أيضًا نبات الصبور (الصبر)، وهو نوع من فصيل الصبَّاريات، ويستخدم الناس نَسْغَه مُرَّ الطعم دواءً للبطن، وعلاجًا أيضًا للعين، فى حين يعطى جلد هذا النبات صبغًا أصفر اللون مائلاً إلى الاخضرار، تفضله النساء. الجبال الجرداء تحيط بنا من كل جانب، هى ووعورة الطريق أجبرت أفراد جماعتنا على السير فى طابور فردى. وبعد أن تخطينا ذلك الانقسام الجبلى بدأنا النزول عند الجانب البعيد من جبال القراوين، وذلك عن طريق مجرى سيل القبلية (على ارتفاع قرابة ٢٥٠٠ قدم). كان طريقنا يمتد عبر قاع هذا الغور القاحل، الذى تحفُّه من الجانبين تجاويف عميقة- يستعمل تجويف من هذه التجاويف، والذى يطلقون عليه الاسم رديت، ملجأ للقطعان- فى حين كانت الجلاميد الصخرية المنتشرة فى الوادى، مشوبه بتفتتات منورة بيضاء اللون.

غمغم الشيخ صالح، وهو راكب دابته من خلفى مباشرة، أثناء مرورنا على بعض القبور: "الرحمن الرحيم".

قلت له: "نحن نكشف رءُوسنا عندما نواجه جثمانًا من الجثامين".

"كيف تدفنون موتاكم؟ هل صحيح أن الكفار يحرقون موتاهم؟".

حرق جثة مصيرها إلى البعث يعد فى واقع الأمر شكلاً من أشكال الكفر والتجديف، وهنا رأيت أن من الحكمة تمرير مسألة حرق الجثث وتجاوزها.

قلت له: "نحن نأخذ موتانا إلى المسجد، ونصلى عليها لله تعالى، ثم نقوم بعد ذلك بلَفِّ الموتى فى كفن أبيض (هذه مسألة مهمة جدًا!)، ثم نقوم بعد ذلك بدفن الموتى فى الأرض".

قال واحد من الرَّشايدة موافقًا على ما قلته، "والله مسلمين!".

لكن فى مرحلة لاحقة من اليوم اكتشفت أن وجهة نظرى فى الدين لم تكن منتشرة على نطاق واسع. قام شاب من شباب الكثارين بالجرى بجانب الجمل الذى كنت أركبه واتضح أنه كان وَدُودًا للغاية. وشيئًا فشيئًا راح يتخلف إلى الوراء وعلى أثر ذلك سمعتهم يتحدثون عنى.

قال الشيخ صالح: "هم أناس صادقون".

قال الشاب: "أنت لا تقول هذا الكلام".

"والنجاح حليفهم فى هذه الدنيا!".

رد عليه الشاب قائلاً: "ربى يحاسبهم"، بمعنى "الله سوف يعرضهم للحساب فى يوم الحساب (الآخرة)".

قال الشيخ، كما لو كان يعتذر عن قيامه بدور الحامى لى:

واستغفر الله، بمعنى "ربنا يسامحهم".

انخفض الآنرويد (جهاز قياس الارتفاعات) انخفاضًا مفاجئًا أثناء مرورنا فى الغور، وبعد أن قطعنا مسافة أربعة أميال، وصلنا إلى الرمل الناعم الموجود فى مجرى وادى الشيطان. كانت أمامنا بانوراما من جبال الحجر الرملى شاحب اللون، ومتميزة بأشكالها الهرمية والمخروطية. كان الجبل الذى يحمل اسم قرن فهد، من بين أشهر هذه الجبال وكان يقع فى اتجاه الغرب، وسرعان ما أصبح أمام أعيننا، وفى اتجاه الشمال الغربى كان هناك جبل آخر يسمونه قرن شيبه، والذى عقدنا العزم على التخييم أسفله لقضاء الليل. استطعنا أن نرى خلف هذه الجبال القريبة أرضًا جرداء شاسعة حمراء اللون؛ والأراضى الجرداء متوهجة الحمرة فى هذه المنطقة متناقضة تناقضًا صارخًا مع ألوان الجبال هى ومروجها من خلفنا.

تختبئ فى مجارى هذا الوادى القاحل، والذى يصرف ماءه فى الشمال فى منطقة السُّهُوب الواسعة، شجرة الموغور البرية، التى هى من أشجار البخور. تبدو هذه الشجرة فى مظهرها، كما لو كانت نبتة أو شتلة صغيرة، بلا ساق مركزية، لكن من يرى هذه الشجرة عن قرب، يجد أن هذه الشجرة تنبت منها أغصان كثيرة يطاول الواحد منها قامة الجمل وقد يزيد على ذلك، وعليه لحاء ترابى اللون وأوراق صغيرة ملتوية. قفز واحد من رجالى من فوق جمله ليحضر لى عينة فى شكلها الخام من نسغ هذه الشجرة، على حد خنجره؛ كانت تلك العينة شبيهة بالدهن الشفاف أخضر اللون وكانت ذكية الرائحة تمامًا، حُصَّاد هذا المحصول، رجالاً ونساء، يأتون إلى هنا لإحداث شروح صغيرة هنا وهناك فى الأفرع الخفيضة المتينة، مستعملين فى ذلك سكينًا خاصة - يخرج من هذه الشروخ مادة صمغية تتكثف متصلبة على شكل البستيلية راتنجية الطابَع تعرف باسم البخور (اللبان). وبعد عشرة أيام تكون هذه القطرات قد أصبحت جاهزة للحصاد، ويتواصل عطاء هذه الشجرة من خلال هذه الشروخ التى يجرى تعميقها كل عشرة أيام، لمدة خمسة أشهر. وبعد هذه المدة، تذوى هذه الشجرة وتذبل، وتتراوح فترة ترك هذه الشجرة كيما تستعيد عافيتها، بين ستة أشهر وعامين حسب ظروف كل شجرة، ويجرى تخزين ذلك اللبان، الذى يجرى حصاده فى أشهر الصيف، فى كهوف الجبال إلى أن يدخل فصل الشتاء، حيث يجرى إرسال هذا اللبان إلى الموانئ لتصديره إلى الخارج، والسبب فى ذلك أن القوارب لا تعمل خلال العواصف العاتية التى تنجم عن الرياح الموسمية الصيفية الجنوبية الغربية. هذا التأخير فى التصدير يعد ميزة لهذا المحصول، إذ يتيح هذا التأخير الفرصة لهذا المنتج كى يجف جيدًا، على الرغم من أنه يصبح جاهزًا للتصدير فى غضون عشرة إلى عشرين يومًا من حصاده.

ومن بومباى يشق ذلك اللبان، أو البخور طريقه إلى معابد الشرق، مع الاحتفاظ بشىء قليل منه فى ظفار حيث تقوم ربة البيت الجيدة بوضع المبخرة تحت السرير عند غروب الشمس لطرد عين الحسود. يعد البخور من قديم الأزل واحدًا من التوابل الثمينة فضلاً عن كونه أعظم القرابين قبولاً. وقد استعمله المصريون القدماء فى حفظ الجثامين التى كانت تحظى بالتقديس، كما استعملوه

أيضًا فى حفظ جثامين الفراعين وشخصيات أخرى يجرى فى عروقها الدم الملكى، واستعملوه أيضًا فى تحنيط التماسيح؛ كما كان يجرى حرق البخور أمام الخيمة التى كان يقيم فيها موسى (عليه السلام) يزاد على ذلك أن جبل البخور ورد ذكره فى زبور سليمان (عليه السلام) يضاف إلى ذلك أن البخور أُحضر على شكل هدية ومعه الذهب والمر للمسيح يوم أن كان طفلاً.

هذه الشجرة، يعثر الناس عليها، على شكل محصول تجارى، فى الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية، وعلى ارتفاع يتردد بين ألفين وخمسة آلاف قدم فى إقليم[١] يتماثل مصادفة مع حدود أراضى قبيلة القراوين من خط طول ٥٣° شرقًا، إلى خط ٢١َ، ٢٥° . يضاف إلى ذلك أن وجود هذه الشجرة على حافة حزام المطر الصيفى الفريد فى ظفار يوحى بأن الظروف المناخية الملائمة لهذه الشجرة لا توجد فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية، غير هذا المكان، إن صح ذلك، لا يستبعد أن يكون هذا المكان هو أشهر أماكن إنتاج البخور فى الجزيرة العربية التاريخية. هذا يعنى، فى أى حال من الأحوال، أن بيارات البخور الشهيرة، فى كل من اليمن وحضرموت أصبحت عديمة القيمة؛ هذا يعنى أيضًا أن قبائل ظفار لم تعد تأتى على ذكر هذه البيارات.

مررنا لمدة ساعة خلال بيارة من أشجار البخور الصغيرة التى تحمل علامات دالة على إنها جرى تشليخها مؤخرًا. أصحاب هذه البيارة هم من القراوين الرعاة وليسوا من اللصوص، وهم على استعداد لتأجير هذه البيارة لواحد من الكثارين والمشايخ نظير نصف المحصول. هذه النقطة لا تبعد أكثر من عشرين ميلاً عن

---

(١) بيارات هذه الأشجار يجرى تصنيفها من حيث الحجم إلى: (١) المانزيلا، وهى البيارة الواسعة، وأشهر هذا النوع من البيارات هو: الآفيور، الاستوج، الآفار، الجيزالوت، الزوا، الآتا، التشيت، الكيم والأميوت، (٢) الهاويل، ويكفى لحصاد هذه البيارة خسمة حُصّاد أو أقل من ذلك.

هناك ثلاثة أنواع من البخور: النجيدى (النجدى)، الشاذارى والشعابى، وتنخفض النوعية حسب الترتيب السابق- النجيدى، يمثل النوعية الفضية، وتنتجه الأراضى المرتفعة فى كل من سمحان وجبال القراوين: الشاذارى وتنتجه المناطق الجبلية التى تحمل هذا الاسم عند ملتقى السلاسل الجبلية فى كل من قامارا وقارا؛ والشعابى، وهو من نوعية متدنية وينتشر فى السهل المحيط برزيوت. وموانئ تصدير البخور من الغرب إلى الشرق هى: حضيب، ريخيوت، رزيوت، عقاد، صلالة، حافا، طاقة، مرباط ، سوضى وحاضرام.

البحر، وهى بمثابة الحد الشمالى للقبائل المستقرة. القراوين، الشهارين، والعناصر الجبلية من الشهارين والمهارين، يضاف إلى ذلك أن هذه النقطة يمكن، بشكل عام، تقسيمها جيولوجيًا، إلى الخلف منا، توجد جبال الحجر الجيرى، من العصر الطباشيرى الأعلى إلى العصر الحديث السابق؛ ومن أمامنا، توجد أرض قاحلة كبيرة عبارة عن سُهب من الحجر الرملى ينحدر نازلاً لمسير مدته ستة أيام، وصولاً إلى حافة الرمال، وهـذا مشهد من مشاهد الحياة البدوية المتنقلة لبيت الكثارين، بيت المهارين وبدو بيت الشيخ الذين ينتشرون هنا وهناك فى أماكن متفرقة.

فرحت لركوبنا دوابنا مرة أخرى من ناحية، وفرحت من الناحية الأخرى لأننا خلّفنا وراءنا عالم ظفار المبتذل الممل ودخلنا إلى هذه الفراغات النظيفة الوسيعة. كان رفاقى لا يزالون من دون عناء أثناء السير، وكان حالهم فى ذلك شبيهًا فى الواقع بحال بدو جنوب الجزيرة العربية الذين رافقونى فى رحلتى السابقة، وهنا وجدتنى أشتاق إلى أناشيد الإبل المثيرة التى يتغنى بها العمانيون أثناء مسيرهم فى الجبال؛ كان سهيل(١) هو الشخص الوحيد الذى كان ينطلق مغنيًا بين الحين والآخر، كان رفاقى لا يزالون متسامرين مرحين تمامًا، حتى وإن كانت مواضيع أحاديثهم مقصورة على الإبل، البنادق والنساء. كان صمت التآمر الذى تعرفه الأعراف الأوروبية غائبًا عن أحاديث وحوارات هؤلاء البشر، وكانت تلك الحوارات أيضًا خلوًا من عنصر البذاءة المقصودة. كان حالهم شبيهًا بحال تلاميذ المدارس عندما يروحون ينتقدون لاعبًا سيئًا من لاعبى كرة الكريكت، أو يستهزئون بواحد منهم فشل عن قصد، فى أمر ما، وذلك من منطلق أن هؤلاء البدو لا يجدون حرجًا فى التفكُّه بعجز بعضهم البعض الجنسى مع النساء، وهذا هو سهيل، أكثرهم إلحاحًا، كان يسألنى ما إذا كان صندوق أدويتى فيه شىء منشط للجنس. لكن كان هناك شىء واحد مهم، هو الأكثر أهمية عندهم "هو" هل بوسعى استكشاف مواقع المياه؟

---

(١) سهيل: معنى هذا الاسم "ظُلَّة" بضم الظاء وتشديد اللام وفتحها، وهواسم شهير بين البدو.



(شجرة البخور أو اللبان)

هذا هو قرن شيبه، الذى توقفنا تحته لقضاء فترة الليل، وهذا القرن عبارة عن جبل مخروطى الشكل يقع على الجانب الشمالى من مجرى وادى سعطان الضحل.

لما كنت أنا وصالح راكبين دابتينا وبصحبتنا بعض الأشخاص المحببين إلينا، فقد كنا أول من وصل إلى غابة أشجار السنط التى يطلقون عليها اسم سَمُر Samr والتى قررنا التخييم فيها، فى حين كان الجزء المتبقى من جماعتنا، الذين يمشون خلفنا سيرًا على الأقدام يقتادون إبلهم غير المستعملة أثناء النزول من سلسلة الجبال الوعرة، ثم بدءوا يتقاطرون الواحد بعد الآخر، وسرعان ما شبوا قرابة اثنتى عشرة نارًا راحت تتوهج فى الوادى. كان بيننا وبين سيسور مسير أربعة أيام، ولم يكن هناك ماء، غير ثقب الماء المجاور لنا فى حانون، الذى وصلنا إليه، حتى نسقى إبلنا منه فى صبيحة اليوم التالى ونغادره وقد ملأنا قرابنا من مائه.

وبعد الانتهاء من صلاة الفجر، انتشر البدو فى كل الاتجاهات لإحضار إبلهم، وعليه جاءوا راكبين إبلهم بلا سُرُج، ومضينا قاصدين ثقب الماء فى حانون. وبعد مسير دام ساعتين فى اتجاه الشرق، دخلنا وخرجنا خلالهما وسط جبال جرداء قاحلة يكسو سطحها حجر الصوَّان الأسود اللون، فى بعض الأماكن، وصلنا إلى قرن حانون ذلك الجبل مخروطى الشكل على جنب من الجانبين، ومنظومة ثلاثية على الجانب الآخر يسمونها الأرداف. وبعد هذه الأرض انفتح أمامنا فجأة شق أو صدع على شكل العدد ٧، وهذا الصدع من الصخر البِلَّورى، وكان يهبط نازلاً على شكل مصاطب براقة بيضاء اللون إلى مجرى وادٍ أخضر يقع على عمق يتردد بين ٥٠ ومائة قدم. كانت الطبقة العليا معلقة فى معظم الأحيان؛ وكانت الطبقة السفلى هنا تَعَرَّت هنا وهناك على شكل كهوف ضحلة طويلة. كانت تلك هى المنطقة التى يسمونها غابرتان، وهى عبارة عن وادٍ ملتو صغير يربط هذه المنطقة بمنطقة راكبيت التى على مرمى البصر، ولذلك يعد هذا الوادى مصدرًا من مصادر وادى الكتبيت Katibit، ذلك الوادى الرئيس الكبير الذى يمتد شمالاً إلى أن يصل إلى الرمال. هنا ومن فوق مصدره مستدق الطَّرف نظرنا من الأعلى على بحيرة حانون الخضراء الموجودة فى مجرى هذا الوادى. صادف ثقب الماء هذا

خيبة الأمل المعتادة، عندما تذكرت القصص التى رواها البدو عن هذا الوادى وهم يثنون عليه - وهذه القصص يسهل فهمها تماماً فى أرض تعانى العطش.

قال البدو عن ماء هذا الثقب إنه حُلو، لكنى وجدته مالغًا بشكل لا يطاق، وتساءلت فيما بينى وبين نفسى عن ذلك الماء الذى يمكن أن يسمونه هم مالغًا، وذلك من منطلق أنهم يعدون ماء حانون حلوًا على نحو لا يوجد فى أى مكان آخر. لكن كل هذه المسميات تعد أشياء وأمورًا نسبية، كما أن أصحاب العقول القنوعة يرون أن الماء المتيسر هو أحلى المياه. والذى لا شك فيه أن ماء حانون كان حلوًا عند العرب الذين يدعونه كذلك، هنا خطرت على بالى تلك البقعة شديدة الجفاف وبالغة الشحوب فى منطقة غودون والتى وُصِفَتْ لى بأنها جوهرة مناطق التخييم، وهذا أمر يُضحكنى لكنه يشكل رؤية ووجهة نظر أمينة عند الراوى الذى روى لى هذه القصة. وهنا خطر على بالى ذلك المثل العربى الذى يقول: "حمارك أفضل من حصان الغير"(*).

يطلق الناس على الوادى الصغير المؤدى إلى وادى غابرتان الموجود فى الأسفل، اسم بامسجيف، بمعنى "مكان شواهد القبور"، وأنا بدورى كنت شغوفًا على أمل استكشاف هذا المكان ذلك أن اسمه يعد بالمزيد من البقايا الأثرية، من النوع الذى سبق أن اكتشفته فى سائر أنحاء حزام البخور، وأيضًا فى بضعة أميال فى اتجاه الشرق من هذا المكان. كانت هذه البقايا عبارة عن آثار أرضية فجَّة تحمل فى بعض الأحيان نقوشًا تنتمى إلى ما قبل العرب، ويرجح أن تكون هذه النقوش نقوشًا إثيوبية قديمة، الأمر الذى يوحى بأن قبائل الجزء الأوسط من جنوب الجزيرة العربية والتى تتكلم لغات مختلفة فيها قرابات إثيوبية، ربما كانت موجودة فى هذا المكان منذ فترة طويلة من الزمن.

وقد خيَّبتْ بامسجيف، أو مكان شواهد القبور، آمالى نظرًا لعدم وجود نقوش بين هذه الآثار العديدة التى تأثرت كثيرًا بفعل العوامل الجوية.

كان النوع الأحسن صنعًا من شواهد القبور هذه، والذى سبق أن التقيته فى أماكن أخرى مكونًا من منظومة من الأحجار ثلاثية الأبعاد، أو ثلاث كتل طويلة

(*) هذا هو المثل المصرى العامى الذى يقول: "حمارتك العارجة (العرجاء) ولا سؤال اللئيم". (المترجم).

من الحجر الغشيم (أو الجلاميد الصخرية المستديرة فى بعض الأحيان لها سطح أملس بفعل الطبيعة)، ويصل ارتفاع الواحد منها إلى قرابة ثمانى عشرة بوصة، واقفًا على طرف من طرفيه، والأحجار الثلاثية تلامسة قممها المتجهة نحو الداخل، بعضها مع البعض كيما يتحقق ثباتها. وهذه المنظومات ثلاثية الأحجار مقامة على شكل سلسلة فى صف واحد، بحيث تبعد كل كومة منها مسافة خطوة ونصف الخطوة، عن الكومة التالية لها. كانت المنظومة فى بعض الأحيان، ذات غطاء عبارة عن جلمود صخرى صغير، وفى بعض الأحيان كانت كل سلسلة من هذه المنظومات الحجرية الثلاثية مسوَّرة بخط بيضوىّ الشكل من الفقاقيع الصغيرة. كانت تلك السلاسل متباينة من الناحية العددية. وجدت أن هذه الأعداد متباينة فهى أحيانًا خمس منظومات، سبعة، تسعة، أربعة عشر أو خمسة عشر. كانت هناك أيضًا سلسلة من القمم المخروطية المتهدمة موازية لكل سلسلة من هذه السلاسل وعلى بعد ثلاث خطوات من بعضها البعض، وهى من قَبيل ذلك النوع الذى شاهدته فى أماكن أخرى والذى كان يستعمل مشواة للطبخ؛ من الواقع الذى يدل عليه مظهر أو شكل كل منظومة من هذه المنظومات، وكذلك كثرة عدد هذه المنظومات فى وادى ضيكور، هو الذى يجعلنا نربط هذه المنظومات بموروث الدفن، لأنه يوجد بجوار هذه المنظومات جَبَّانة مسلمين حديثة العهد، فضلاً عن وجود جبانتين أخريين من عصر ما قبل الإسلام، أو نوعية من المقابر غير نوعية المقابر الشرقية، وهى بالتحديد مدافن صخرية، بالإضافة إلى وجود قبر ضخم أيضا فى هذه المنطقة؛ يزاد على ذلك أن اسم هذا المكان يمكن أن يكون "وادى التذكر".

زد على ذلك أن المواطنين كانوا يجهلون أن القطع الزخرفية هى نوع من "الكتابة"، فضلاً عن عدم معرفتهم على وجه الدقة، أصل هذا الأثر، وذلك على الرغم من أنهم يربطون هذا الأثر بصورة مبهمة بابنة النبى (صالح بن هود. ناقة هود؟).

وفى منطقة الكثارين، التى تقع غربى هذه المنطقة التى فيها الأثر، يطلق الناس على هذا الأثر اسم بيت أبا غسَّان Bait Aba Gassan ، وهذا الاسم يشير إلى الغساسنة الذين ورد ذكرهم عند بطليموس المؤرخ. كانت هناك، بطبيعة

الحال، فى فترة ما بعد الإسلام، أسرة ملكية غسانية فى ظفار، لكن توزع هذه المنظومات الحجرية الثلاثية ممتد أيضًا إلى ما بعد حدود ظفار، كما أن هذه الآثار بحد ذاتها، ومن واقع النقوش السابقة للفترة العربية، والموجودة على هذه الآثار، فضلاً عن التوجه غير الإسلامى لهذه النقوش، وفضلاً أيضًا عن الموروث المحلى، يجعلنا نقول إن هذه الآثار تنتمى إلى "العصر الجاهلى". كان الدين القديم فى الجنوب الغربى من الجزيرة يتمثل فى عبادة النجوم عند السبئيين، ويمكن القول أن هذه المنظومات الثلاثية الحجرية كانت ترمز، فى الأصل، إلى الثالوث القديم فى جنوب الجزيرة العربية: إله الشمس، إله القمر، والزُّهَرة عند العرب.

بدأت الشمس تفترش السماء، الأمر الذى جعلنى أشعر بالقلق إزاء عملية التحرك، وعليه وجدتنى أعود إلى ثقب الماء فى حانون حيث كان رجالى يتزودون بالمياه، ورحت أناديهم وأستحثهم الإسراع، ونادونى هم بدورهم قائلين: "نعم"، لكنى كنت أعلم جيدًا أن ندائى عليهم لن يفُتَّ فى عضدهم ويجعلهم يسرعون. كنت أعلم، من واقع خبرتى الطويلة، أن حبهم للتأخر والتوانى عند ثقب المياه، وبخاصة عندما يكون الثقب التالى بعيدًا، هى رغبة لا علاج لها وأنى ينبغى أن أرضخ لها. لم يكن الشيخ من بين من يتزودون بالماء من هذا الثقب، كان الشيخ صالح ومعه شخص آخر قد غادرانا فى صباح اليوم ليكونا فى مقدمة الركب؛ سعيًا إلى استئجار مجموعة جديدة من الإبل واستكشاف الأرض قبل وصولنا إليها. كان الرجلان، يطمعان فى أن يكون لنا مرشد من قبيلة المرَّة من داكاكا Dakaka؛ كيما يلتقينى يوم وصولى إلى ثقب المياه فى منطقة الضاحية التى كنت قد خططت لتمضية عيد رأس السنة فيها: كان اليوم مصادفًا لليوم الثالث عشر، لكن صالح لن يسير فى نفس الطريق الذى سنسلكه نحن إلى شيسور، وإنما سيسير فى اتجاه الشمال الغربى عبر السُّهب القاحل عن طريق مسار لا يصلح إلا للإبل السريعة التى لا تحمل أثقالاً أو أحمالاً. كان الشيخ صالح ورفيقه يتزودان بالماء من أم الشَّديد، نظرًا لأن ثقب الماء الذى فى منطقة جودون عميق على غير العادة. كان المَنْزَل على مراحل وبلغ طوله قرابة ستٍّ وثلاثين قامة. بارك الله، فيك، أم الشديد صنعها نجم هابط، وهى ليست من صنع أبناء آدم مطلقًا.

وسواء أكان أم لم يكن هذا الموروث تذكارًا من تذكارات عبادة النجوم، فأنا لا أستطيع القطع بذلك، لكنى التقيت هذه العبادة فى أماكن أخرى فى هذه الأراضى الحدودية الجنوبية. كما أننا نجد فى رمال غنيم وفى جدات هراسيس بعض ثقوب الماء التى يطلقون على كل ثقب منها اسم الخسقة[١]، يزاد على ذلك أن المنخفَض الذى على شكل حوض فى لاهيت فى بلاد البوتاهرا، يعزو الناس وجوده وربما بكثير من المنطق إلى سبب مماثل للسبب سالف الذكر.

وعليه تركنا الشيخ صالح وهو يحمل معه خزينًا من الدقيق، والتمر كيما يقتات بهما على الطريق، كما كان يحمل معه أيضًا ثوبًا على سبيل الهدية لشيخ قبيلة المُرَّة، الذى يبدو أنه كان شديد الأهمية. وعليه، وبعد الانتهاء من صلاة الظهر عادت إبلنا من المسقى، وعند الساعة الثانية بدأنا تحركنا. غادرنا سعطان على الفور وسرنا فى الاتجاه الشمالى الغربى خلال واديَىْ غورون ودوكا، فى البداية، سرنا، خلال بعض الجبال المنخفضة، التى كانت مثل المنظومات الأخرى الموجودة فى الشرق والغرب، عبارة عن سلسلة من الجبال ذوات القمم المسطحة أو أهرام من الحجر الرملى. كانت إستاه ضمن خط سيرنا، وإستاه هذه عبارة عن رافد من روافد وادى دوكا حيث أدت أشجار السمر السنطية هى ونباتات الآساف أو الغاف الشبيهة بالنخيل، إلى تأخير رجالى وتوانيهم. عبرنا بعد ذلك سلسلة جبال عرضية كانت تميز منطقة هوغوجيت، التى هى عبارة عن رافد توأم من الوادى، وهنا توقفنا لتمضية الليل. تبعتنا الإبل تمشى الهوينا وجريد النخيل يتدلى من سُرُجها. كان الرجال يحملون هذا السعف ليعطوه لنسائهم ينسجن منه أوعية الحليب؛ وسوف يستعمل الرجال بعضًا من هذا السعف فى صنع الحبال والأجولة - واقع الأمر أن واحدًا من حُرَّاس الليل كرس نفسه لعمل حبل لناقتى الأمر الذى أفضى إلى أن بدأت ناقتى مسيرها فى صبيحة اليوم التالى وحول رقبتها حبل أخضر اللون.

لم تكن الريح الجنوبية القوية التى هبت علينا فى تلك الليلة مناسبة على نحو يمكِّننى من القيام بملاحظة النجوم، لأن هذه العاصفة تسببت فى ارتفاع الموجات

---

(١) يشيع إطلاق هذا الاسم على ثقوب المياه التى يزعم الناس أنها تكونت بهذه الطريقة.

فى حمام الزئبق (الأفق الصناعى)، وحوَّلت طرف سن الدبوس المطلوبة والتى تنتج عن انعكاس النجم، إلى ومضة سديمية غير واضحة. يضاف إلى ذلك أن مسألة تحديد مكان المرء بواسطة جهاز قياس الارتفاعات Sextant ليست أمرًا سهلاً فى هذه المنطقة من مناطق خطوط العرض، وهى المنطقة التى يكون فيها نجم القطب Polaris قريبًا جدًا من خط الأفق الشمالى وعلى نحو يُلْزِم من يقوم بعملية الحصول على صورة منعكسة لهذا النجم، بالجلوس على بعد مسافة كبيرة جدًا من الأفق الصناعى. يضاف إلى ذلك أن الرمل كان يتسرب دومًا إلى أدواتى أثناء الظلام. وقد حتَّم ذلك علىَّ اصطحاب طاولة من طاولات المخيمات، كيما أضع عليها أدواتى أثناء الليل. لم يقتصر الأمر على جهاز قياس الارتفاع وتحديد خطوط العرض هى والأفق الصناعى، لأنى كان محتمًا علىَّ المحافظة على سرية عملى على النجم مخافة أن يتهمونى بالسحر أو بما هو أسوأ من ذلك، من هنا كنت أُبقى على هذه الأدوات فى الصندوق الخاص بها، ولم أكن أخرجها من صندوقها إلا لمدة ساعة واحدة كل ليلة. يزاد على ذلك، أن ملاحظاتى لنجم القطب، وارتفاعات خط السَّمْت لكل من آشرنر Acherner وكانوبس Canopus أعطتنى الارتفاع اللازم لتحديد مكانى من يوم لآخر.

وتحقيقًا لمطالب السرية حاولت منذ البداية، وذلك على العكس من رجالى الذين كانوا يثيرون المخاطر العادية التى يمكن أن تواجهنا، والأعداء الذين يمكن أن يتربصوا بنا، كنت دومًا أختار لنفسى مكانًا على حافة المخيم وعلى بعد منه بمسافة ثلاثين أو أربعين ياردة، ولم أكن أختار مثل هذا المكان وسط العرب. وعندما كنا نصل إلى مكان التخييم كان خادمى يقوم بترتيب فراش نومى وصناديقى، فى حين أكون أنا منضمًا مع رفاقى ومشاركًا لهم فى حواراتهم ومتجاذبًا معهم أطراف حديثهم، ومشاركًا معهم فى طعامهم إلى أن يرخى الليل سدوله علينا؛ وعندها كنت أنسحب عائدًا إلى فراشى استعدادًا للنوم وقضاء الليل، وهنا كان خادمى يقول للجميع إن كل من يود مقابلتى بعد هذا الوعد لن يُسمح له بذلك. كانت أجهزة القياس الثلاثة، التى هى عبارة عن جهازين لقياس الارتفاع aneroid بالإضافة إلى ترمومتر انتفاخى جاف يجرى كالعادة، وضعها على الطاولة فور وصولنا إلى المخيم، حيث يعاد حزمها مرة ثانية فى الصباح قبل

أن نغادر المكان، وذلك من باب التأكد بأنها تعمل على ما يرام من ناحية، وتسجيل المعدلات يوميًا وفقًا لتوقيت جرينتش.

يُزاد على ذلك، أنى كنت أسجل أيضًا ومن خلال الأجهزة الأخرى، فى فترات زمنية حسب مقتضيات الوقت، وكنت ألتزم دومًا بمسألة التسجيل هذه عند غروب الشمس وعند شروقها، وربما كان ذلك يحدث أيضًا بواقع مرتين أو ثلاث مرات أثناء الليل أيضًا. كان بعض من رفاقى لم يروا الساعة مطلقًا فى حيواتهم. كانوا جميعًا منفعلين انفعالاً كبيرًا عندما كنت أسمح لهم بوضع آذانهم على الوجه الكبير لجهاز القياس حتى يستمعوا إلى التكتكة. وعندما كانوا يستمعون إلى هذه الأعجوبة، كانت وجوههم تتهلل بِشْرًا وهم يبتسمون، ويروحون ينظرون إلى بعضهم البعض مندهشين قبل أن ينفجروا قائلين: "لا إله إلاالله".

من هنا أصبح الاسم "ساعة" اسم جنس لكل آلة وكل أداة ومعدة من المعدات. لقد أطلقوا هذا الاسم على البوصلة المنشورية التى كنت أضعها على عينى كل عشر دقائق من المسير حتى أتمكن من تسجيل اتجاهنا عكس الزمن (ساعة اليد)، وأسجل أيضًا الاتجاهات الزَّاوية المقابلة على النقاط الطبوغرافية - وهذه أمور ومعطيات جد مهمة فى مسار رحلتى. ومع ذلك، فإن "التكتكة" عند هؤلاء البشر كانت هى الساعة بلا أدنى شك. حدث ذات مرة عندما توقفنا بغية تغيير الإبل، أن وجدت واحدًا من العرب المترحلين معى، ممسكًا بالترمومتر (مقياس الحرارة) وواضعًا إياه على أذن صديق كان قد أحضره لينضم إلينا فى الرحلة. كان ذلك الرجل يستعرض ويتباهى، لكن الصديق لم يتأثر، وعليه قام بوضع جهاز قياس الارتفاع على أذنه ثم ظهر عليه الغم والكدر؛ أحس الرجل أن هناك نوعًا من الخداع.

لم يَدُم مسيرنا فى اليوم التالى سوى ثلاث ساعات فقط. وراح البدو يتلكئون منذ البداية ويتحدثون عن رفاقهم الذين فى المؤخرة ولم يلحقوا بنا منذ الأمس. كانت الأسباب واضحة. وبذلك نكون قد عدنا ثانية إلى منطقة إستاه Istah حيث يوجد المرعى الجيد، فى حين كان الطريق المؤدى إلى شيشور- وكذلك النخيل الجدب من أمامى يوحى أيضًا بقحولة الطريق- يوحى بالفقر والجوع. ونظرًا لأنى كنت أتعجل الوصول إلى الرمال، فقد كنت أتطلع إلى قطع مسافة طيبة،

لكن هذا المقترح لم يحظَ سوى بقليل من الاهتمام والرضا. والمترحل فى الصحارى الكبيرة سرعان ما يوقن أن رفاهية الإبل وإراحتها تحظى بأكبر قسط من الاهتمام. هذا يعنى أن البدايات وكذلك الوقفات، عادة ما تحددهما نوعية المرعى. هذا يعنى أيضًا أن علف الإبل أهم من الماء، ذلك أن الجمل بوسعه أن يحمل حملاً لمدة أسبوع دون أن يكون بحاجة إلى الماء، أما العلف فهو من احتياجات الإبل اليومية. والأوروبى الذى اعتاد على برنامج محدد، وقت للبداية، وموعد للتوقف، وموعد للطعام والأكل، وتوقع لمسير عدد محدد من الأميال كل يوم، يُصاب بصدمة كبيرة عندما يبدأ ترحاله فى الصحراء الكبيرة. هذا يعنى أن ابن هذه المسيرات القاحلة يضع كل شىء فى المرحلة الثانية بعد وسيلة انتقاله، هذا يعنى أن الجمل هو الأول وكل ما عداه يكون لاحقًا أو تابعًا له - هذا يعنى أيضًا أن صحة الجمل عند البدوى، هى التى تأتى فى المقام الأول. والبدوى عندما يخيم فى مكان جيد المرعى وفيه ماء، فإنه لا يترك هذا المكان؛ وهو أيضًا عندما يصادف بعض الشجيرات الخضراء حتى ولو كان ذلك فى وقت الظهيرة، وعلى الرغم من حرارة الشمس الشديدة، فإنه يتلكأ أيضًا لمدة ساعة؛ وإذا ما وصل هذا البدوى حتى ولو بعد غروب الشمس ولم يَرُق له المرعى، فإنه يصر على مواصلة السير، غير عابئ بالتعب.

وعليه، فأنا اليوم، وأنا أشعر بالحزن، أرانى أعتنى بناقتى، وأنا على بعد مسافة بسيطة تصل إلى قرابة سبعة أو ثمانية أميال من المكان الذى خيمنا فيه ليله أمس. وفى الحال، ذهبت ومعى بندقيتى إلى غابة الوادى. شاهدت آثار أقدام ذئب من الذئاب، كما شاهدت أيضًا آثار ثعلب من الثعالب، وأرنب برى وغزال من الغزلان، لكن ثبت أن فترة العصر كانت جدباء قاحلة.

عثرت فى وادى غدون، على بعد أميال قليلة فى اتجاه الغرب وعلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم، وحيث تحل أشجار الأثل صفصافية الأغصان، محل شجر السنط من نوع السمر، كما عثرت أيضًا على وَعْلى الأول، تلك البقرة الكاملة. أخذت احتياطاتى الكاملة كيما أحصل على جلده كاملاً حتى يمكن أن يكون عينه علمية سليمة، لأن العرب يُقَيِّمون جلد وجه هذا الوعل باعتباره جائزة من جوائز الانتصار، شأنه فى ذلك شأن ذنب الثعلب، ويصنعون من جلد هذا الوجه غطاء

لدباشك(*) بنادقهم. واقع الأمر أنه لم يكن من بين رجال جماعتى من لا يضع على دبشك بندقيته غطاء من جلد هذا الوعل، أو الغزال، ولم يقلّ اهتمام أفراد جماعتى بالكرش الكبير، وبالعصارات المعدية التى كانوا يصفّونها ويشربونها بشهية كبيرة قبل التعامل مع المحتويات الصلبة التى كانوا يأخذون منها حفنات ويقدمونها لإبلهم المتذمرة. وهم يقولون إن مزايا المعدة لكل من الإنسان والحيوان لا مثيل لها فى أى شىء من الأشياء الصحراوية الأخرى. وهاتان الفضيلتان اللتان أوردتهما هنا ليستا سوى اثنتين فقط من فضائل الوعل السبع(١).

والبدو يصنعون من قرن الوعل نايًا تعزف عليه بنات جنوب الجزيرة العربية. وطوال المسيرات التى قمنا بها لم نعثر على طبول أو آلات وترية، وإنما الذى عثرنا عليه هو فقط الناى المصنوع من قرن الوعل. والراعية إذا لم تكن تغنى لقطيعها، فهى تهدئ ذلك القطيع بالعزف على الناى كما تجد هى أيضًا عزاء لنفسها عندما تعزف على هذا الناى. ربما كانت هنا علاقة بعيدة بين هذا وبين أسطورة العصور الوسيطة التى تتحدث عن الفتاة ووحيد القرن، لأن الشائع هنا أن الوعل هو النمط الأعلى، ذلك الحيوان الخرافى. المؤكد أن الوعل يجرى ورأسه منخفض إلى الأسفل وذلك بغية أن يكون قرناه شبه عموديين، ويبدوان كما لو كانا قرنًا واحدًا، ومن هنا جاء الوعل وحيد القرن الذى ورد ذكره عند أرسطو، والذى ورد ذكره أيضًا فى النص العبرى من سفر التثنية فى الإصحاح الثالث والثلاثين، وعلى وجه التحديد فى الآية السابعة عشرة، "قرناه يشبهان قرون وحداء القرن"(٢)(**)، يقول موروث وحيد القرن إنه كان رمزًا للقوة وحارسًا

(*) الدِّبْشك: كلمة تركية بمعنى المؤخرة الخشبية للبندقية.(المترجم).

(١) فضائل الوعل الأخرى هى الجلد الذى يقومون بدبغه؛ وهم يستعملون دمه ترياقًا للدغ الثعابين؛ ويستعمل دمه فى طرد الأرواح الشريرة (ما يسمونه الحمرة، وهو ما سيأتى وصفه بعد)؛ ويستعمل حساؤه فى علاج آلام المفاصل، ويأكلون لحمه- والبدو هنا يعدون لحم الوعل أفضل أنواع اللحوم الوطنية الأخرى، وأنا لا أشارك فى وجهة النظر هذه، ربما يكون حكمهم مبنيًا على الآثار المترتبة على أكل لحم هذا الوعل على معدة خاوية، وعلى الرغم من أن طعام البدو عادة ما يكون قليلاً، فإن الاعتدال فى الظروف التى من هذا القبيل يعد فضيلة غير معروفة عند البدو، وعادة ما يكون صندوق أدويتى عليه طلب كبير عقب الكوارث التى تحدث بعد أكل الصيد.

(٢) الكلمة العبرية المستعملة للدلالة على وحيد القرن هى الكلمة rim .

(**) الآية السابعة عشرة من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية، .... أخذنا ترجمة هذه الآية من ترجمة الكتاب المقدس الصادرة عن دار الكتاب المقدس فى مصر، ص ٢٥٠. (المترجم) .

للطهارة، ورعبًا للرجال كان يلتهمهم عندما يراهم، لكن أسطورة العصور الوسيطة تقول: إن وحيد القرن كان فريسة ضحية للفتيات الشابات العذراوات. وتقول الأسطورة أيضًا إن وحيد القرن تنحسر وحشيته عندما يرى فتاة عذراء، وأنه يجيء متواضعًا ليضع رأسه فى حجْرها، ويستسلم للمداعبات التى تجعله أسيرًا لها عن طيب خاطر.

بدأنا فى ساعة مبكرة، وغادرنا مخلفين وراءنا آخر سلسلة خفيفة من سلاسل الجبال، وبدأنا تحركنا عبر أرض منبسطة تمامًا وسهل بلا ملامح أو سمات مميزة، والتربة هنا رملية صلبة، عثرنا فى بعض أجزائها على أعشاش من حفريات المحار، موجودة على السطح كما لو كانت فى حوض محيط تغطيه طبقة من الرمل الناعم، التى أصبحت الآن حقولا للصوَّان أو حجر الدبش، وعلى بعد مسافات طويلة توجد قمة صخرية بارزة على سطح الأرض، مكونه من رقائق من الحجر الرملى أحمر اللون. لم تكن فى هذه المنطقة حياة حيوانية، وتمثل كل ما حصلت عليه فى خنفساء، وثعبان Colubris وكذلك سحلية، يضاف إلى ذلك أن هذه السحلية كانت شديدة الأهمية فى متحف التاريخ الطبيعى، لأن هذه السحلية كانت جديدة على العلم- أبو قرش، على حد تسمية البدو لها، وذلك تأسيسًا على ذَنَبها المدوَّر. وبعد ركوب فى أرض قفر قاحلة دام سبع ساعات، أمكننى التيقن من أننا قطعنا واحدًا وعشرين ميلاً ونصف الميل. كان اليومان التاليان، اللذان أوصلانا إلى بلدة شيسور، متشابهين- إذ كنا نسير عبر أرض قفر مترامية الأطراف وخالية من الملامح والسمات المُميَّزة. كانت الحركة الوحيدة ناتجة عن شياطين الرمال، التى أثارت علينا عُمُدها المغزلية التى هبت علينا حاملة معها نفحة منعشة من الريح. لم يكن هناك أى أثر للحياة النباتية، ويبدو أن إبلنا كانت تعرف أنها يتعين عليها الخروج من هذا المكان. شحذنا هممنا وعقدنا عزمنا ويمَّمنا مسيرنا صوب مساحة شاسعة من السَّراب الوامض الذى كان يخفى عنا خط (الأفق)، وراح يمارس علينا خداعه المعتاد وهو يختفى شيئًا فشيئًا أمام طابورنا العطشان.

الفصل الحادى عشر

نَجْد - الحياة فى السُّهُوب الجنوبية

نصل غدًا إلى شيسور. لا عجب أن تبدو شيسور بهذا الكِبَر فى الذهن العربى، نظرًا لأنها أول ثقب من ثقوب المياه نصادفه بعد مسير دام خمسة أيام، وبعد مغادرتها لن نرى أو نصادف غيرها طوال مسير يدوم سبعة أيام أو ثمانية. ونحن اليوم نسير عبر سهل قاحل، بشمسه الحارقة، وسرابه الكثيف، لنصل قبيل دخول الليل إلى غابة صغيرة فى اتجاه الشرق. يستلزم الاقتراب من أى ثقب من ثقوب الماء قدرًا كبيرًا من الحرص، لأن مثل هذا الثقب، إذا ما كان ملكًا للعدو، يفرض على المقترب منه خيارين: أولهما التراجع السريع المفعم بالعطش والخوف من المطاردة والملاحقة، أو الحرب والاقتتال من أجل امتلاك هذا الثقب. وكما هى العادة فنحن نقترب من ذلك الثقب وقِرَاب مائنا خالية من الماء، وما إن ينزل البدو من فوق إبلهم، حتى يقوموا بتقييدها، وينطلقون بعد ذلك فى كل الاتجاهات وعيونهم مركزة على الأرض بحثًا عن العلامات الدالة على العدو، أو عن آثار جديدة لجماعة من جماعات الغزو، فى حين ينطلق ثلاثة من الرجال الذين يجرى انتقاؤهم من بين أفراد الجماعة، ويروحون يفتشون المنطقة المحيطة بالثقب للتأكد من أن الجو آمن وأن كل شىء على ما يُرام، وأنهم سيفتحون الثقب استعدادًا لسُقْيا الغد. ومعروف أن عزلة ثقب مياه سيشور هى التى تجعل منه مكانًا لا محيص عنه عند كل الغزاة، ولذلك جرت العادة على ردم ثقب الماء بعد التزود بالماء، وذلك من باب تعطيل الغزاة والمطاردين. وهنا نجد الطبيعة تعمل عملها، إذ يتسلل الرمل إلى الثقب ويملؤه بعد يوم أو يومين.

انطلقنا فى اليوم التالى على شكل مجموعات مكونة من ستة إلى ثمانية من الإبل، نظرًا لأن الإبل الثلاثين العطشى تستغرق وقتًا طويلاً فى الشرب من دلاء صغيرة مصنوعة من الجلد، فضلاً عن أن الثقب نفسه يكاد يكون عبارة عن قطرات من الماء. طريقنا يمر خلال سهل واسع خالٍ من الأحجار (أرض صالحة للسير) ليصل إلى مرتفَع صخرى من فوقه أنقاض واضحة لقلعة بدائية. ويقع تحت الربوة كهف يصل عمقه إلى قرابة خمسين قدمًا، وفى الأرضية المنحدرة لهذا الكهف توجد فتحة صغيرة لا تسمح سوى بمرور ذراع بشرية واحدة لتصل إلى الماء الموجود تحت هذه الأرضية. هناك أسطورة تقول إن شخصًا يدعى بوربن تويريج، هو الذى بنى أو شيد قلعة شيسور فى الماضى البعيد، وقد بلغنى أن السهل الصحراوى المحيط بهذه القلعة لا تزال فيه آثار أخاديد أو شقوق شبيهة بالحرث؛ مما يدل على أنه جرى حرث هذا السهل من قبل؛ وإذا ما صح ذلك، فسوف يكون ذلك اكتشافًا مدهشًا، والسبب فى ذلك أن ماء شيسور محدود جدًا، كما أن المكان قاحل على نحو يصعب معه على أية جماعة من جماعات الغزو متوسطة الحجم البقاء فيه مدة تزيد على أسبوع واحد. قال واحد من البدو: "لقد سلَّط الله سيفه على هذه الديرة"، قال لى البدوى هذه العبارة وهو يشير إلى الجفاف الذى ضرب هذا المكان مؤخرًا(١).

كانت هيلات الشيسور، تلك الغابة الصغيرة، تقع وراء شيسور وفى اتجاه الشرق، وفى سهل قاحل أيضًا؛ كانت هيلات هذه، قبل ثلاث سنوات فقط مسرحًا لقتال دموى لغزاة متناحرين من بينهم بعض من العرب المرافقين لى فى هذه الرحلة. كانت تلك القصة بالغة الأهمية فى تحاشى الصدام مع طرف من طرفَى هذا القتال، إذ كانوا يقيمون على بُعد قرابة مائة ميل فى اتجاه الشرق. كان ذلك الطرف مكونًا من قرابة خمسة وعشرين رجلاً من السّعارين والكَدَابين الذين سلكوا هذا الطريق بغية الهجوم على مخيم صغير من مخيمات المهارين

---

(١) كنت فى كل رحلة من الرحلات التى قمت بها إلى الجنوب الشرقى ووسط الجزيرة العربية أستمع إلى هذه القصة نفسها طوال السنوات الست التى أمضيتها فى عمان حيث يقسم المواطنون أن المطر لم يسقط، وكان نادرًا إبان حيواتهم، يزاد على ذلك أن محصول التمر داخل حدود عُمان، هو نصف ما كان عليه منذ جيل من الزمان، وإن مزارع كثيرة ماتت وانتهت بسبب الجفاف.

كان يقع عند ثقب مياه آنضور. وفى هذا الهجوم قتلوا سبعة من المهارين، مقابل مقتل رجل واحد منهم، لكن هذا القتيل كان شيخًا من شيوخهم، ورحلوا ومعهم غنيمة تُقدر بأربعين جملاً. وبعد ذلك بأربعة أيام أو خمسة كانت جماعتى الصغيرة المرهقة قد وصلت إلى آنضور من ناحية الشرق بعد مسير يقدر بقرابة ستمائة ميل؛ وهناك استمعت تلك الجماعة المرهقة إلى رواية تلك الكارثة والهزيمة المخيفة والفزع؛ أذكر جيدًا أنى شاركت فى ذلك الحوار والنقاش الذى دار حول عدم صِحِّية نيران المخيم التى تُشبُّ أثناء الليل؛ الأمر الذى حال بيننا وبين شب هذه النيران عقب ذلك الحوار والنقاش، على الرغم من شدة البرد القارس.

بلغنى بعد ذلك، أن هذه الجماعة الغازية بصفة خاصة، والتى شكلت لى كابوسًا فى شتاء العام ١٩٢٧ / ٢٨ الميلادى، اعترضتها مصادفة جماعة غازية أخرى مكونة من بعض المهارين وبعض الكثارين، الذين كان من بينهم اثنان من المرافقين لى فى هذه الرحلة. فقد أخذنى بُخيِّر إلى الأرض التى دار عليها القتال ومَثَّل لى الهجوم الذى حدث. "هذا هو المكان الذى اشتبكنا معهم فيه؛ وهذا هو المكان الذى كنت أقف فيه أنا شخصيًا لقد قصصنا أثرهم طوال النهار، وتوصلنا إلى أنهم غزو عائد، وأن هذا الغزو لابد أن يتوقف هنا فى شيسور، نظرًا لعدم وجود أى ثقب من ثقوب المياه فى اتجاه الغرب إلا فى ساناو. هناك، وعند خط الأفق هذا، توقفنا وانتظرنا إلى ما بعد صلاة المغرب، وتركنا إبلنا فى حماية بعض رجالنا، وزحفنا، تحت ستر الظلام، متجهين صوب نيران مخيمهم. كان الليل قد أوشك على انتصافه، وكان السواد الأعظم منهم غارقين فى النوم، لأننا كنا نرى أجسامهم المستلقية على الأرض وأذرعهم الممددة، فى ضوء النار المشبوبة - زحفنا إلى أن أصبحنا على بعد قرابة خمسين خطوة منهم وفتحنا عليهم النار فجأة. وقفزوا واقفين وهم يصيحون فى الظلام، لكنهم كانوا مرتبكين وفى فوضى عارمة، واستلَّ كل واحد منا خنجره وهجمنا عليهم ونصرنا الله عليهم. الشكر لله تعالى واهب كل النعم - قُتِل منهم أربعة وعادت الغنيمة التى فازوا بها فى آنضور، إلى أيدينا، وزدنا عليها خمسة من إبلهم، إلى حد أن الكثيرين من الذين هربوا فى جنح الليل لابد وأن يكونوا قد ركبوا بواقع اثنين على كل جمل من الجمال".



(مجموعة من رجال الجبال)

واصل واحد من البدو، كان واقفًا بجوار بُخيِّر، "كنت فى اليوم التالى أرعى إبلى فى وادى غودون، وظهر لى واحد من أولئك السَّعارين، كان مختبئًا طول الليل؛ جاء الرجل وتوسّل إلىَّ أن أحميه، واستشهدت الله أنه لم يكن مسلحًا بأى نوع من السلاح، وعليه أنقذت حياته".

سألته: "إذا افترضنا أنهم جميعًا لم يقاتلوا" وأنهم جميعًا ألقوا بنادقهم أرضًا، "هل كنت سترحمهم؟".

قال بُخيِّر: "لا" هذا يعد عملاً شائنًا عند العرب، فى زمن الحرب المعلنة".

تقع شيسور على بعد قرابة تسعين ميلاً من الساحل الجنوبى، وعلى ارتفاع ٩٣٥ قدمًا فوق مستوى سطح البحر، وعلى مقربة من سفح ذلك السهب الذى يتاخم الرمال- التى لا نبعد عنها حاليًا سوى مسير يوم واحد.

عبرنا النجد، تلك الأراضى الجنوبية الحدودية الواسعة من ذلك السهب الواقع بين جروف المحيط والرمال، ويمتد من ناحية الجنوب الغربى إلى أن يصل إلى حدود نجران، كما يمتد أيضًا فى اتجاه الشرق متصلاً بجدة هراسيس. كنت فى رحلة العام الماضى قد استكشفت الحدود الرملية فى اتجاه الشرق لمسافة تصل إلى قرابة مائة ميل، إلى أن وصلت إلى واحة موجشين الشهيرة(١). وأنا فى هذه الرحلة، فى هذا العام، أتجول متجهًا إلى ناحية الغرب على أمل استكشاف الحافة الجنوبية. لكن قبل أن أستأنف سرد تفاصيل رحلتى، قد يكون من المفيد، التوقف ولو قليلاً كيما أتدبر وأفكر مليًا فى جغرافية السهب الجنوبى الذى يقع إلى الخلف منى.

---

(١) وادى موجشين، أمير الوديان فى جنوب الجزيرة العربية الشرقى، ولم أصادف له مثيلاً فى أى مكان آخر، هذا الوادى مكون من حزام من أشجار السنط العملاقة (الغاف) التى تشكل غابة يصل طولها إلى قرابة ثلاثين ميلاً (محور شرقى غربى) على الحافة الجنوبية الشرقية للرمال. يظهر عند الطرف الشرقى لهذه الغابة (على ارتفاع قرابة ٤٠٠ قدم) ماء الشرب عند السطح على شكل عين أو عينين. يوجد فى هذا الوادى أيضًا بيارة تَمْر برية كبيرة لا يرعاها أحد من الناس، وتقع بيارة التمر هذه على ضفتَىْ مجرى مستنقع، وفى اتجاه الشرق توجد بحيرة شبيهة بالغدير ويصل طولها بضع مئات من الياردات ويقدر عرضها بقرابة خمس عشرة ياردة.



(واحد من أبناء السُّهوب : من بيت الإيمانى)

عندما رجعت إلى خريطتى وجدت أنها توضح فيما بين خط طول ٥١ درجة و١٢ دقيقة، وخط طول ٥٤ درجة و ٤٠ دقيقة، سلسلة جبلية ساحلية متصلة تُعرف فى بعض أجزائها من الغرب إلى الشرق بالأسماء التالية: فتق - شاغوات، جبال قمر، جبال قارة (القراوين) ثم جبل سمحان. وتهبط نازلة من داخل هذا الجانب من ذلك السهل، سلسلة من مجارى السيول الجافة القديمة التى تكون منظمة على شكل واد واحد، وإن هذا الوادى ربما كان موجودًا منذ أزمان بعيدة ويشكل مصرَفًا واحدًا لذلك السهب الكبير. هذه المنظومة تتكون من سبعة وديان فرعية تمتد على شكل مسارات شبه متوازية متجهة شمالاً من سلسلة الجبال الساحلية إلى حافة الرمال التى تنضم عندها إلى الوادى الرئيس، وينساب ذلك الوادى الرئيس من هنا مع الرمال فى اتجاه شمالى شرقى عام ليصل إلى نقطة ينحرف عندها هذا الوادى ليختفى، بل ويضيع عند خطَّىْ ١٩ درجة و٢٥ دقيقة، وخط طول ٥٤ درجة و٥٠ دقيقة وهذه النقطة مُعَلَّمة بواحة موجشين Mugshin الوارفة. والوديان السبعة كلها موجودة فى المنطقة المجاورة لهذا الانقسام، على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، وعلى بعد مسافة تُقدر بمسير يومين من الساحل، الأمر الذى يجعل من هذه الوديان السبعة مصادر لبيارات البخور. وهذه الوديان من الشرق إلى الغرب هى: كاتبيت، دوكا، غودون، إيدام، هوجولدن، شهين ثم وادى حات(١)، كما أن أطوال هذه الوديان السبعة تتناقض، بشكل عام، طبقًا للترتيب السابق، وتتباين مسافات هذه الوديان بين مسير ثمانية أيام فى وادى كاتبيت ومسير أربعة أيام فى وادى حات. والوادى الرئيس يطلق الناس عليه هنا ستة أسماء قطاعية: حات، شهين، آتينا، أم الحياة، العراض، وأخيرًا موجشين، على

---

(١) تشكل الوديان الفرعية منظومات مستقلة بحد ذاتها. ومن هنا نجد أن وادى كاتبيت له أفرع هى: آنضور، ضاحبون، إنجودان، الغزال ثم راكبيت الذى يصرف مياه الجزء الشرقى من جبال القراوين والجزء الغربى من سمحان. والحد الشرقى من منظومة الآنضور والذى يبدأ على وجه التقريب من شمال قمة مرباط (الذى اسمه مدون على الخريطة على أنه جبل دوعان، غير معروف للسكان، الذين يطلقون عليه اسم زايروتون). يبدأ وادى دوكا من خط طول صلالة ويصب فيه كل من الحوف، والحيلة، ضوهير، وحالوف على ضفته اليمنى وغارة على ضفته اليسرى. ويبدأ وادى عيدان من خط طول راخيوت، ويصرف ماءه هو وفرعاه الكبيران: دافين وهاربا روت اللذان يبدءان من شمال جاضيب ودامكوت، فى كل سلسلة جبال القمر. ووادى شهين هو ووادى حات منظومتان قصيرتان عن المنظومات السابقة ويبدءان من الحدود الشرقية والحدود الغربية لوادى فتق - شاغوات.

امتداد هذا الوادى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، لكن المنظومة كلها يمكن أن نطلق عليها اسمًا واحدًا هو أم الحياة Ummal Haito ؛ لأن هذا الاسم ينطوى أيضًا على الدلالة القطاعية المشار إليها.

فى الناحية الشمالية والناحية الغربية من الوادى الرئيس، نجد أن الرمال العظيمة تمتد بصورة متواصلة فى اتجاه الغرب إلى أن تصل إلى حدود كل من الدواسر ونجران. واقع الأمر، أن الحافة الجنوبية للرمال تتداخل مع الوادى الرئيس فى واحة موجشين وفى العراض، وتحتضن هذه الرمال ذلك الوادى الرئيس فى أم الحياة ثم تبتعد عنه مسيرة يوم واحد شمالى شيهين ومسير يومين فى شمالى حات. ثم يتجه الوادى الرئيس فى اتجاه الجنوب الغربى إلى حضرموت، لتصبح المسافة عبارة عن مسير يوم واحد، هو الذى يفصل الجبال عن الرمال. وهنا يصبح السهب الداخلى فى الحدود الجنوبية، وكأنه وتد يضيق فى الناحية الغربية، وينحدر انحدارًا هينًا ومتدرجًا إلى أن يصل إلى خط طول ٥١ درجة و٣٠ دقيقة، لكن الشائعات تقول إنه يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك.

نجد فى الناحية الغربية من منظومة أم الحياة أن السُّهُوب تتقاطع معه أو تعبره وديان موازية منشؤها فى جبال حضرموت، وتمتد شمالاً لتختفى عند حافة الرمال. وأسماء هذه الوديان، التى تمتد فى اتجاه الغرب بدءًا من حات؛ هى: ميتان، خوات، شُعيط، آرخوت يوربا، ثمورات، الضاحية، ثيوف، راما، إيوات المناهيل، جناب، خضره، حزار، إيوات السعار؛ ثم خوضى.

ثقوب المياه فى هذه المنطقة جد قليلة، وعلى وجه التحديد لا يوجد سوى ثقب مياه سناو فى وادى الضاحية، وثقب مياه ثاموت فى وادى راما، وثقب مياه شاغام فى وادى حزار، وثقب مياه منواخ فى وادى إيوان: السَّعار، وعليه يمكن القول أن طريق الغزاة فى شرقى وغربى منواخ مطوق تطويقًا غير مُحْكم. يوجد فى بعض أماكن المصادر الجبلية للوديان بعض من الماء الجارى، كما هو الحال فى آنضور وحباروت، لكن المسارات المنخفضة عن هذه المصادر كلها جافة جفافًا قاسيًا. هذه المجارى المنخفضة تشكيلها واحد. فهى عبارة عن مضايق أو وديان عميقة ومنحدرة بين جبلين، قيعانها من الحصى المجلوب من مساراتها أو مجاريها العليا؛ ومن هنا تبدأ هذه المضايق فى الاتساع، وتزداد ضحالتها، وتصطبغ بالصبغة

الرملية وهى تتجه شمالاً، إلى أن تفقد الطابع المميز لها فى السهل الذى يقترب من الرمال، ولا تظهر بعد ذلك إلا على شكل صف من الشجيرات القصيرة الكثيرة. وهنا يمكن القول: إن هذه الوديان هى بمثابة أوردة الحياة لذلك السهب، الذى هو مسار التحرك البدوى، موطن الحيوانات، بفعل وجود الحياة النباتية الطفيفة- والتى لا تزدهر إلا فى مجارى هذه الوديان (راجع الملحق رقم ٤). هذا السهب، فى بعض مناطقه الأخرى، عبارة عن أرض قفر قاحلة، ومن هنا فإن هذه الأراضى الحدودية لا يمكن أن تعول سوى البدو المترحلين. ولذلك نجد أن جفاف موسم الصيف هو الذى يدفع هؤلاء البدو إلى العودة ثانية إلى المسارات الجبلية الموجودة حول ثقوب المياه الدائمة - آنضور، حانون، شوبريما، عيون، وصاروت (وكل هذه الثقوب تقع علـى خط طول أم الحياة). لكن هذه القبائل أو البدو المترحلين سرعان ما يفكرون فى ترك هذا المكان مباشرة بعد أمطار الصيف؛ وهؤلاء البدو المترحلين قد يبقون شهرًا أو شهرين فى أماكن محببة إليهم، وتحركات هؤلاء البدو غالبًا ما تكون بتوجيه من بانى نارهم، وإن شئت فقل: إن حركتهم تكون فى اتجاه البرق الذى يرونه فى السماء. حياة هؤلاء البدو هى حياة جوع وعطش، أما هؤلاء البدو الذين يسكنون المناطق الداخلية فى ظفار فهم يعودون إلى راحتهم المعهودة المستقرة فى بستان البخور، وبخاصة فى فصل الصيف، الذى تعد عطاياه السخية الوسيلة المطلوبة للحصول على بندقية، ذخيرة، ثياب، بُنّ، وفى بعض الأحيان الأرز. لكن البدوى الحقيقى يحتقر كل شىء عدا وجوده المتقشف وحياته المتقشفة. هؤلاء البدو الحقيقيون يعيشون بصفة أساسية على حليب الإبل وينظرون إلى الحياة نظرة رخيصة، الغزو عند هؤلاء البدو المترحلين هو بمثابة توابل الحياة، ولم يحدث مطلقًا أن رجلاً واحدًا من أولئك الذين رافقونى فى ترحالى، لم يشارك فى غزو من الغزوات التى دارت فى حضرموت، ولم يحدث مطلقًا أن نجا أحد منهم من الغزو فى الأراضى التى يُرعى فيها ماشيته وإبله، كما أن البعض من هؤلاء المرافقين كانوا يحملون شامات الشرف الناجمة عن طلق نارى أو ضربة خنجر، من هنا يمكن القول: إن السلاح، والذخيرة وكذلك صحة الإبل تمثل ضرورات الحياة عند هؤلاء البدو؛ وفى الأماكن التى يُعد الثأر فيها ميراثًا أصيلاً يفصل القبائل بعضها عن البعض، نجد



(بيارة نخيل التمر البرى فى واحة موجشين)

أن القوة هى الحق، وأن الإنسان يمشى دومًا وهو خائف على حياته وعلى ممتلكاته.

القبائل المهمة التى تحتل هذه المنطقة الحدودية الجنوبية، هى على النحو التالى من الشرق إلى الغرب، بيت الكثارين، المهارين، المناهيل، العوامير السّعارين، النهارين وكذلك الكدابين(١).

والمهارين هم أكبر هذه القبائل، ويتخطى عدد هذه القبيلة آلافًا عديدة من البشر، وقبيلة النهارين هى وقبيلة الكدابين هما أصغر هذه القبائل، إذ يصل عدد كل منهما قرابة مائة أو مائتَىْ عضو.

(١) التوزع القبلى على النحو التالى: منظومة أم الحياة هى الموطن الرئيس لقبيلتَى المهارين وبيت الكثارين؛ تمتد هاتان القبيلتان أيضًا ناحية الغرب. ومن الناحية الإسمية نجد أن الامتدادات المنبسطة لكل من وادى دوكا، وغدون، إيدام وكذلك وادى حات كلها تنتمى إلى بيت الكثارين، وذلك على الرغم من حرية المهارين فى استعمال هذه الأماكن، ونجد أن المصادر العليا للوديان (ماعدا وادى غودون) تكاد تكون كلها فى أيدى المهارين، وبخاصة حباروت، الغزال، إنجدوان وضاهبيون، فضلاً عن الوديان المنفردة الواقعة إلى الغرب مباشرة. ويتبعثر فيما بين قبيلتى المهارين والكثارين مجموعة صغيرة من قبائل الحدارة، وهم بقايا أناس من غير العرب. وعليه وفى الناحية الغربية من وادى حات حيث المسارات السفلية توجد قبيلة البلاحيف، وهى من القبائل التى لا يمكن وصفها ولا تدين بالولاء لأى طرف من الأطراف، سوى قبيلة المهارين من حيث اللغة فقط. ومن السمات المميزة لهؤلاء البلاحيف إنهم يحملون سكينًا يعلقونها فى أحزمتهم بدلا من الخنجر، وهم لا يَغْزون ولا يُغْزَون، وهم مثل صلوب نجد يقبلهم الجميع على أنهم مرافقون. وهم خدم أيضًا بضريح الجوهارى (أم الطباخ) الذى نجح المهارين الذين يفدون إلى ضريحه ويقدمون له القرابين. وفى الطرف الشرقى لمنظومة أم الحياة يعد وادى الأنضور من الناحية الإسمية ملكًا للبوتاهارين (بيت بوهور)؛ وذلك على الرغم من وجود المهارين فى هذه المنطقة. عدد البوتاهارين، آخذ الآن فى التناقص، وهى قبيلة متدينة، والسواد الأعظم منهم من الصيادين، ولهم لغة خاصة بهم، ويقال أنهم كانوا يملكون السهب الشرقى بكامله من وادى غودون (المملوك للكثارين) إلى وادى قادون (؟) (المملوك للحراسيس)، فى حين يقال أن السهب الغربى مملوك لابن ضربوط الذى يعد خرافيًا الآن. هناك عناصر من قبيلة أخرى صغيرة هى قبيلة العفار، تعيش فى صاروت مع المهارين. ومع قبيلة صغيرة أيضًا هى قبيلة بيت الشيخ (بيت إستيت وأحيانًا إنساخت)، ويقال أن هذه القبيلة هى والشهارين يحتلون وادى إنجدوان على مقربة من ثقب الماء فى حانون. وفى الناحية الغربية من منظومة أم الحياة، تمتد قبيلة المهارين إلى وادى راما، ومن هنا تمتد قبيلة المناهيل إلى وادى الجوف: وتلى ذلك العوامير الذين يمتدون إلى وادى خضرة، ومن هذه المنطقة يبدأ موطن السعارين.

الحياة فى السّهب بدائية إلى أبعد الحدود؛ وأنا شخصيًا لاحظت بالفعل أن الجفاف والخوف من الغزو هما اللذان يعيدان هذه القبائل إلى مياهها فى الجبال. لكنهم فى حقيقة الأمر، عاشقون لحياتهم البدوية المترحلة، وهم عندما تسقط الأمطار يندفعون هائمين مع قطعانهم فى الصحراء، التى لهم معها ذكريات ويطلقون اسمًا على كل تجويف صخرى صغير قادر على الاحتفاظ بالماء. يقضى هؤلاء البدو الرُّحَّل فترة من الزمن فى الصحراء إلى أن يبدأ الجفاف تهديده لهم، ويحركهم الجوع. فى مثل هذه الظروف لا يكفى الماء لإعاشة حصان أو حتى كلب. هؤلاء البدو المترحلون لا يعرفون الخيام أو المنازل. وهم عندما يكونون فى السهوب يتخذون من ظلال أشجار السنط أماكن لهم، وعندما يكونون فى الجبال يتخذون من كهوفها بيوتًا لهم. هؤلاء البشر أميون تمامًا. قليل منهم هم الذين يعرفون شيئًا من القرآن، على الرغم من تحمسهم للصلاة. وهم يوقرون الأضرحة، ومذهبهم هو المذهب الشافعى. يزاد على ذلك أن هؤلاء الناس لا يعرفون الكحول، لكنهم يُعْلون من قيمة التبغ.

وتسود هنا الممارسات العربية الخاصة بالتعدد والطلاق المُيسَّر، ومع ذلك يندر على البدوى أن تكون له أكثر من زوجة، أو اثنتين فى أغلب الأحيان، ومع ذلك فإن البدوى يود أن تكون لديه جعبة مليئة بالأبناء، لأن ذلك يعد نعمة من نعم الله تعالى، والمرأة هنا هى التى ترعى القطعان[1]، التى يُسمح لها بحلبها.

يجرى، كما هو الحال فى سائر قبائل الجزيرة العربية، تسوية المنازعات داخل القبيلة، عن طريق حكم الحوز، الذى هو كود من العقوبات المحلية، التى لا علاقة

---

(١) تسود بين الحراسيس والمهارين عادة غريبة- إذ إنهم لا يحلبون أغنامهم مطلقًا فى وعاء بارد. ذلك أنه يتحتم فى البداية تقديم حجر ساخن. "وتفسير ذلك يقول إن تدفئة ضروع الأغنام يسهل عملية الحلب، وهذا التفسير ليس مُرْضيًا أو مقنعًا تمامًا، لأن هؤلاء البدو يقصرون هذه العملية على الأغنام فقط وليس على الإبل. وهذه هى راعية من بيت الشيخ، كنت قد اشتريت منها خروفًا فى وادى خنيكور، لم توافق على ذبح ذلك الخروف فى ضوء الشمس لأنها تخشى أن يجر ذلك عليها وعلى أسرتها سوء الحظ، وذلك أيضًا كان معتقدًا عامًا سائدًا بين هؤلاء البشر- حكى لى حارس من المرافقين أن الذبح والحلب يجب ألا يتما فى ضوء الشمس، وإلى يومنا هذا هناك سلالتان من الأغنام: بنات المورقال وبنات المقطوف، وإن البدو على اختلاف مشاربهم لا يمكن أن يذبحوا هاتين السلالتين إلا فى الظلام.

لها بالشرع. هؤلاء البدو يرون أن عمليات السرقة الطفيفة أو الضئيلة، مسائل غير أخلاقية: لكنهم ينظرون إلى عمليات السرقة باستعمال العنف باعتبارها من أعمال الرجولة، وينظرون أيضًا إلى الغزو، المصحوب بالقتل والسلب والنهب باعتباره عملاً مُشرِّفًا شأنه شأن الشجاعة العسكرية فى أوربا.

البدو هنا يعالجون الأمراض الجسمانية بأعشاب محددة (راجع الملحق رقم ٤) وبالكَىّ بالنار، ويتعاويذ طرد الأرواح، وبالعصارات المعوية للحيوانات التى يذبحونها فى عملية الصيد، وببول النياق الصغيرة. والكى بالنار يتصدر العلاجات جميعها، وقلة قليلة من هؤلاء الذين يسكنون هذه السهوب هم الذين لا يحملون شامة من نوع أو آخر من شامات الكى بالنار، وقد شاهدت بنفسى عملية من هذه العمليات بدت لى وكأنها تنطوى على مغزى سحرى. حدث أن تعطلت جماعتى نظرًا لمرض واحد من أعضائها؛ كان الرجل يعانى توقفَ الأمعاء أيامًا عدة، وإن هذا المرض لم يستجب لكل الأدوية الطاردة التى أعطيته إياها. وهنا لجأ رفاقه إلى ذلك الذى يطلقون عليه اسم الغيورة. قاموا بتسخين إبرة ضرب النار الموجودة فى ترباس البندقية، إلى درجة الاحمرار، ثم قاموا بعد ذلك بكى ذلك المريض فى سبعة أماكن محددة فى جسم الرجل: الكعب الأيسر، الكعب الأيمن، خلف الأذن اليمنى، خلف الأذن اليسرى، وفى وسط جبهته، فى منطقة اتصال الجبهة بالشعر، وأخيرًا فوق سُرَّة بطنه مباشرة. وتم الشفاء فى الحال، واستأنفنا مسيرتنا فى صبيحة اليوم التالى.

فيما يتعلق بعين الحسود، شاهدت عدة مرات طقسًا يطلقون عليه اسم حُمرة الرعابة[1]. ويعدونه علاجًا فاعلاً للحمى الرجعية التى يعانون منها، كما يستعملون هذا الطقس أيضًا فى علاج لدغ الثعابين. وفى هذا الطقس يوضع المريض وسط دائرة من أصدقائه الجالسين وهو كاشف عن العضو المصاب. ثم يقوم هؤلاء الأصدقاء فى البداية بالانحناء فوق هذا العضو المصاب وهم ينشدون صيغة من اثنتين؛ ويبدأ الإنشاد بطيئًا فى البداية، ثم يزداد حدة وحماسًا وسرعة

---

(١) أفراد قبيلة الكثارين يستعملون صيغة باللغة الشهرينية السائدة بين من يعيشون فى الجبال، لكننى لم أتمكن بعد من ترجمة هذه الصيغة.

وعلوًّا فى الصوت بصورة متدرجة. ويقوم رئيس الجلسة بإنشاد الأبيات بصوت عامر بالنشاط والحيوية وهنا يقوم باقى أفراد الجماعات بترديد القرار، وغالبًا ما يكون "حمرة الرعابة". ثم يقوم أحدهم بين الحين والآخر بالانحناء برأسه، واضعًا شفتيه على بطن المصاب وغالبًا ما يكون ذلك فوق مكان الكبد، كما لو كان يملأ فمه باللحم ثم يترك هذا اللحم ثانية وهو يرفع رأسه إلى الأعلى؛ ويقوم الآخرون بالنُّباح بين الحين والآخر، ثم يتفلون على جسم المصاب، إلى أن يبلغ الأمر ذروته. وهنا يجرى إطلاق طلقة من إحدى البنادق إيذانًا بانتهاء الطقس، لكن هذا الطقس لا يُستعمل إلا فى طرد "عين الحسود".

شاهدت ذات مرة طقسًا مختلفًا من طقوس "حمرة الرعابة"؛ لكن ذلك الطقس فشل فى تحقيق النتائج المبتغاة. وهذا الطقس نوع من التنجيم والاسترحام يطلقون عليه اسم حبيل habil ، أى الحبل، وربما كانت له علاقة بالإشارة القرآنية بالآية التى تتحدث عن "شر النفاثات فى العُقَد". يقف من يقوم بهذا الطقس، وفى يده حبل، على بعد قرابة ثلاث خطوات من المريض. ويجرى استدعاء طرف ثالث كيما يمسك بطرف الحبل- ويمسك جزءًا محددًا من هذا الحبل، بين إبهامه وسبابته، ويقوم ممارس الطقس بقياس الجزء الممدد من الحبل بواسطة ذراعه الخالية، مستخدمًا فى ذلك طول الساعد فى القياس، كما يستعمل أيضًا الشبر وعرض الإصبع فى هذا القياس. ويقوم الممارس بتكرار هذه العملية ثلاث مرات، وقبل كل مرة، كان يتوقف برهة ويحنى رأسه فوق الحبل، ثم يهز رأسه، مُحْدِثًا بشفتيه نوعًا من الغمغمة العجيبة، ويتناول حفنة من الرمل ويروح ينثرها فوق الحبل وتحت الحبل. وفى الختام ينظر ذلك الممارس إلى مريضة ويعطيه الوصفة التالية: "عند غروب الشمس خذ معك الكثير من التمر والكثير من الزبد ثم قم بإلقاء ذلك كله على الرمل".

إلى هنا نتوقف عن الكلام عن الإنسان وأحواله.

الحياة الحيوانية محدودة فى السهب الجنوبى. وهناك نقطة مهمة وهى أن البيئة بحكم إنها تكاد تكون خالية من الأمطار، تحتم أن تكون الحيوانات الموجودة هنا من النوع الذى يمكن أن يستغنى عن الماء ويكتفى بالرطوبة الموجودة فى العشب، أو تلك التى تتجمع أو يمكن الحصول عليها من الصخور بفعل النَّدى؛

ومن هنا يمكن القول أن هذه الحيوانات تنتمى إلى المجموعة القطبية الشمالية القديمة.

كان الوعل من بين الثدييات التى اصطدتها رميًا بالرصاص- وهو من الأنواع النادرة؛ وكان من بينها أيضًا الغزال والثعلب. رأيت آثار أقدام الذئب، والقط البرى، وكذلك الغُرَيَّر أو الزبزب، لكنى لم أحصل على الأنواع المختلفة لهذه الحيوانات من هذا السَّهب. والناس يقولون هنا إن الريم، أو الغزال شديد البياض انقرض من هذا المكان، على الرغم من حصولى على قرنين من قرون هذا النوع من الغزال؛ وقرن هذا الغزال شبيه بالقيثارة، وفيه خُصْلة مميزة من الشعر الأبيض لا تزال ملتصقة به؛ واقع الأمر أن هذا الحيوان، وعلى العكس من الغزال الأحمر، ينتمى إلى الرمال أكثر منها إلى السهوب. كان لون القنفدين اللذين أمسكت بهما مثل لون الرمل، وكانا صغيرى الحجم بالمقارنة مع النوع الأسود الأكبر الموجود فى عمان. الناس هنا يقولون إن هذا النوع من القنفد يهاجم الثعابين ويقتلها، لكنه يولِّى الأدبار خوفًا عندما يرى النسر، وإن هذا النوع من القنفد يطوى نفسه متكورًا عندما يرى النسر يقترب منه، متخليًا عن حمايته الطبيعية، تاركًا نفسه فريسة سائغة لذلك النسر.

وفيما يتعلق بالطير، فأنا لم أرَ النسر فى السهوب، وذلك على الرغم من أنى كنت أتوقع أن أراه فى هذه المناطق، لكنى صادفت جثة لنسر كبير أسود اللون. وجود النسر أو العُقاب فى السماء يعد إشارة إلى الاقتراب من مخيم من المخيمات. يشيع الغراب الأسود فى هذه المناطق، وقد اصطدت بنيران بندقيتى عينة مهمة من هذه الغربان إذ كان عنقه مطوقًا بريش أبيض اللون. طلب منى واحد من البدو قلب غراب أسود اللون، عقد العزم على أكل ذلك القلب نيئًا بسبب فضيلة ينطوى عليها قلب الغراب الأسود: منقار الغراب الأسود يستعمله هؤلاء البدو كُحلاً لعيونهم وبخاصة العرب المستقرون. هناك طائر لم أَرَه وإنما سمعته ليلة بعد أخرى وأنا فى موجشين، هو البومة. قام بعض المرافقين لى باصطياد النعام فى هذه السهوب فى السنوات الماضية، لكن النعام فى حكم المنقرض الآن فى هذه الأماكن (اللهم باستثناء قلة قليلة من هذا النعام فى موطن السعارين من الناحية الغربية)، هذا بالرغم من عثورى على بعض من قشور

بيض النعام. ويرجع انقراض النعام فى السهوب الجنوبية إلى مطاردة البدو المسلحين له بالبنادق فى هذه المناطق، وفيما يتعلق بالطيور صغيرة الحجم، فقد اصطدت عصفورًا دُوريًا، وهو نوع نادر تمامًا ويعد عينة بالغة الأهمية، واصطدت أيضًا بلبلاً، كما اصطدت قطًا سنغاليًا، وأيضًا طائر السُّمنة طويل الأرجل بُنى اللون، وكلها من المخلوقات التى توقعت العثور عليها"، واصطدت أيضًا طائر الحميراء الكشميرى، وطائر الذُّعرة طويل الذيل أبيض اللون، وطائر أبو بليق الصحراوى، وكل هذه الطيور هى من الطيور المهاجرة، إما لقضاء فصل الشتاء فى أفريقيا، أو تكون مجرد طيور زائرة للطقس البارد فى حضرموت. جمعت أيضًا فراشات، وزنابير، ونملاً، وعناكب، والملحق رقم ٢ عبارة عن قائمة بكل هذه المخلوقات.

جاء واحد من البدو ممسكًا فى يده عقربًا كبيرًا، ويرفعه إلى الأعلى، بلا ضرر، إذ كان يمسكه بالقرب من ذيله من تحت الجزء الذى يستعمله العقرب فى اللدغ. وفيما يتعلق بالزواحف كانت هناك ثلاثة أنواع من الثعابين- من بينها الحية المقرَّنة- وأعدادها جد قليلة إذا ما قارنَّاها بأعداد السحالى، التى شاهدت منها عشرة أنواع مختلفة. وقد اشتملت هذه الزواحف على ثلاثة أنواع جديدة، كما اشتملت أيضًا على ثلاثة أنواع كبيرة الحجم يأكل البدو هنا لحمها - بل إنهم يعدونها من أشهى الأطباق، وأنها من الناحية الغذائية أفيد بكثير من أكل لحوم الثدييات التى يصطادونها- وقد شكَّل اصطياد واحدة من هذه السحالى الكبيرة متعة وإثارة كبير لنا. فقد شاهدت تلك السحلية وهى تختفى فى جُحْرها، وفى الحال قام ثلاثة من البدو بمطاردة هذه السحلية بأن راحوا يهدمون سقف هذا الحجر باستعمال عصيهم، وفجأة بدأ طرف ذيل السحلية فى الظهور واستطاع واحد من الذين يحفرون الإمساك بذلك الذيل بين سبابته وإبهامه، وعلى الرغم من تحذير رفاقه له بالاحتياط مخافة أن يكون ثعبانًا، فقد استمر فى الإمساك بالذيل فى الوقت الذى واصل رفاقه عملية الحفر. وبعد أن تمكن البدوى من إحكام إمساكه بالذيل، راح يسحب السحلية وهو مُنحنٍ على الحجر، وشدها شدة عنيفة أخرجها على أثرها من الجحر، وأمسك بها فى الهواء ورأسها مُتدلٍّ إلى الأسفل، وكانت عيناها تتحركان حركة وحشية وفكَّاها مفتوحين من

باب التهديد والوعيد، راح البدوى يجعل يده الأخرى تتسلل إلى الأسفل فى اتجاه ظهر السحلية وأمسك بها من عنقها من الخلف ورفعها إلى الأعلى، لكن السحلية وجدت ذيلها حرًا، فراحت تضرب به وأصابت ضربتها واحدًا من البدو فى ركبتيه، وأسفرت تلك الضربة عن نزف فى ركبة البدوى. وجاءنى ذلك البدوى يطلب منى دواء لتلك الضربة، وشخَّصت أنا بنفسى شكواه تشخيصًا جيدًا، وأعطيته دولارًا ويذهب الرجل إلى حال سبيله بعد ذلك وقد شُفى تمامًا من تلك الضربة.

وهنا زاحفة أخرى من هذه الزواحف، لكنها لا تؤكل، والناس هنا يسمونها شويرة الشمس، لأنها تجد متعة كبيرة فى الجلوس على الارتفاعات الوامضة، مواجهة للشمس الاستوائية، رافعة رأسها فى مواجهتها- هذه الزاحفة مخلوق كبير الحجم له ذيل أحمر اللون وهى ناعمة الملمس وتشبه الفأر، ولها حوصلة زرقاء اللون تحت ذقنها، وهذا اللون يتحول إلى لون فضى عندما تموت هذه الزاحفة. هذا المخلوق، دونًا عن سائر مخلوقات الحياة فى السهوب، هو الذى يحتقر مسألة البحث عن ملجأ له من حرارة الشمس.

الفصل الثانى عشر

السير على امتداد الحافة الجنوبية للرمال

ودعنا غابة متوجتيج Mutugtaig الصغيرة الواقعة فى مجرى وادى غودون، والتى أمضينا فيها يومين فى نَيْل قسط من الراحة ورعى إبلنا، ثم سُقْياها من ثقب الماء فى شيسور المجاورة لنا. وتحت سماء شرقية ذات اللون القرمزى المشوب باللون الذهبى أعطينا ظهورنا لتلك الغابة الصغيرة، فى صبيحة يوم من أيام شهر ديسمبر البارد، وواصلنا مسيرنا فى السهل- تلك البرية التى أعادت إلى ذهنى ذكرى أرض النهرين. وبعد تحركنا بساعة واحدة ليس إلا، بدأ رفاقى يصيحون منفعلين وهم يقولون: "الرَّام! الرَّام!" وهم يلوحون بعكاكيزهم أثناء هذا الصياح، فى اتجاه مقدمتنا من الناحية اليمني، حيث ظهر عن بعد شريط أصفر من ضوء الشمس، على حدود خط الأفق؛ وهنا رحت أطيل النظر فى شغف، إلى ذلك المتراس الجنوبى من الرمال التى أبتغيها.

كان يمتد بيننا وبين الرمال سهل موحش ليس فيه من النُّتُوت شىء سوى طبقة من الصخور البارزة على سطح الأرض، التى كانت تشكل سلاسل صخرية منخفضة؛ هى: ضيم حِمْله Himal ، ثويريب، لَحَاجه Lahaga، كِلبة قارون، وهذه كلها أماكن يعرفها العرب حق المعرفة، ذلك أن الماء يتجمع فى هذه الأماكن بعد المطر.

كانت لا تزال أمامنا مسيرات تقدر بقرابة مائة ميل ومحفوفة بأخطار غير محسوبة. ذلك أن حالة الحرب القائمة بين القبيلة التى أترحل بصحبتها وجيرانهم الأقوياء، هى التى شددت جداً من هذه المرحلة من مرحلة الرحلة التى أقوم بها. لقد كثرت (وسوف تكثر) هذه الصراعات الدموية على هذا الطريق

الذى يمتد على طول أراضى الحدود الجنوبية، على الرغم من كونها أرضًا محايدة خالية من الماء، ومع ذلك فهى بمثابة الطريق الأمثل بين ثقوب المياه التى لا يستعملها وبحكم الضرورة أولئك الغزاة الذين جبلوا على القتل والسلب والنهب. هذا يعنى أن كل الجماعات الغازية التى التقيناها أو صادفناها كانت تشكل عدوًا محتملاً. وقد درجت الجماعات الأقوى أو الأكثر احترامًا على الإعلان عن نفسها بِدُفعةٍ من نيران البنادق، وذلك على سبيل مقدمة للحرب من ناحية، أو الهروب من الناحية الأخرى. كانت جماعتى التى خدعها الكلام، تبدو وتتصرف كما لو كانت على أحَرٍّ من الجمر، وعندما كانت ناقتى تحملنى إلى مسافة أبعد من مقدمة الجماعة، أو عندما كانت تتأخر عن الركب، كان أحدهم يُعَجل بالمجىء إلى جانبى ليذكِّرنى أننا فى منطقة خطرة؛ ومع ذلك، وعندما كنا نخيم لم تكن مواقع الجماعة بعيدة عنى، حتى يمكن لى تبيُّن الطريقة المطلوبة لمواجهة أى هجوم محتمل أو الهرب من هجوم محدق. الصحراء هنا تقوم على فلسفة حتمية وقوع الأحداث. "توكل على الله" ، "المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين"، "الحمد لله رب العالمين"- هذه العبارات والتعبيرات تتردد دومًا على شفاه البدو، وهى تعنى مواجهة الموت أو العدو أو توقعهما. الرضا عن المصير أمر مريح؛ والعرب يعدون مذهب حرية الإرادة نوعًا من الهرطقة. والإنسان إذا لم تسخر له دابته بمشيئة الله، لا يمكن أن يقتل سيده، ويفر هاربًا على ظهر دابته. والبدو يعدون الحرب شرًا،، ويقولون إن الثأر ليس من الدين، ويرون أن اتباع الدين أمر مستحيل.

نرى أمامنا ذلك الكثيب الرملى أبيض اللون كبير الحجم على نحو يسترعى الانتباه، والذى يطلقون عليه اسم بن جولى، ويوضح العلاقة التى يتغير عندها اسم منظومة أم الحياة، التى تشكل منظومة الصرف الرئيسة فى هذه السهوب، إلى آتينا Atina. وفى اتجاه الشمال بدأت تظهر لنا من جديد وعن بعد، الرمال العظيمة، على شكل جدار شاحب ومن خلفها سلاسل جبلية وردية اللون. ومن أمام هذه السلاسل، تمتد منظومة أم الحياة على شكل خط أخضر. وعندما اقتربنا أكثر من الرمال وجدناها رمال الوادى وقد تجمعت على شكل رُبى شبيهة بأسقف جمع هائل من المساجد بقبابها المؤلَّفة. يزاد على ذلك أن أشجار الأثل

الكثيفة بدت وكأنها تستثير شهية إبلنا الصائمة، هذه الحيوانات المسكينة التى كانت تمشى متثاقلة عبر السهل، بدأت تركض فرحًا وشوقًا إلى ذلك الغذاء البسيط الموجود أمامها.

أمُّ الحياة اسم ثمين عند ساكنى السهوب، وذلك على الرغم من أن عدم سقوط المطر لمدة عامين أو ثلاثة، وهذا هو ما يحدث فى بعض الأحيان، يصيب الوادى بالجوع، والجدب والتصحُّر. ومع ذلك، فإن أقل القليل من ماء المطر، يعجل بتحويل هذا الوادى إلى حياة وخصوبة- وذلك على الرغم من أن البِركة التى نراها الآن، ناتجة عن الأمطار الغزيرة المعتادة التى خبرتها ومررت بتجربتها فى مسيراتى الشرقية فى العام الماضى.

لازلت أذكر جيدًا كيف جاءنى أعضاء جماعتى وراحوا يسترعون انتباهى إلى العلاقات التى لم تَعْتَدْ عليها عيناى، وتدل على احتمال حدوث زخة من زخات المطر، هنا فى هذا المكان، يدل السطح الذى فيه حفر عميقة وجوانب عمودية شبيهة برؤوس الفيلة[1] بحكم وجود جذور بعض الأشجار، على مسار سيل قديم اجتاح هذه المنطقة وسار فى هذا المسار متجهًا إلى البحر! العجيب أن هؤلاء الأعضاء كانوا يتحدثون عن المطر حديثًا مفعمًا بالفرح والمرح!

فى تلك الليلة كانت السحب الثقيلة فى سباق بعضها مع البعض فى اتجاه الشمال، وكان البرق المتشعب يضىء السماوات المظلمة، فى الوقت الذى كنت أنا ورفاقى ومعنا إبلنا، نبحث عن ملجأ نأوى إليه اتقاء لشر العاصفة الرملية التى كانت تعوى من خلفنا، وبخاصة فيما وراء الرُّبى الصلبة التى نمت حول أدغال السليم Selem. كان كل أعضاء الجماعة سعداء، لأن المطر كان على وشك السقوط، وإن المطر عند البدوى هو بمثابة الذهب عند من ينقبون بحثًا عنه؛ ورحَّب أعضاء الجماعة باستقبال الصباح بالأناشيد التى كانوا ينشدونها أثناء المسير، يزاد على ذلك، أن جَمجَمَة الرعد منخفضة الصوت كانت شبيهة بالموسيقى فى آذان هولاء البدو، ذلك أن الابتلال بماء المطر يعد بركة من البركات. وبينما كنا نواصل المسير كانت السماء تزداد ظلمة على ظلمتها، وكان

(١) يشبه تشكيل هذه البروزات مقدمات رؤوس الفيلة.

البرق يقترب أكثر وأكثر، كما كان صوت الرعد يزداد عنفًا؛ كانت إبلنا تشاركنا هذه الإثارة وهذا الانفعال، إذ كانت ترفع أنوفها المملة إلى أعلى وترُوح تتشمم الهواء، الأمر الذى كان يسعد أصحاب هذه الإبل. قسّمنا أنفسنا إلى ثلاث جماعات وانتشرت هذه الجماعات الثلاث على شكل مروحة، ورحنا نستطلع السهل بحثًا عن برَك المطر، وجاء ذلك على العكس من تقديرى أنا، لأنى أحسَست أن هذه البرك لن تكون كافية، ولذلك كنت أفضل لو أننا واصلنا مسيرنا بغية الوصول إلى ثقب الماء التالى الذى نعرف مكانه بصورة مؤكدة. سمعنا بعد مضى قرابة عشرين دقيقة صوت طلقة من طلقات البنادق وهى تدوى من حولنا. جرت العادة أن يُفسَّر مثل هذا الوضع على أنه إشارة إلى وعد بالحصول على لحم الغزال فى وجبه العشاء. قال بُخيِّر متعجبًا: "إنه الماء! لقد عثر العرب (درج البدو عندما يتحدثون أن يشيروا إلى أنفسهم باستعمال المفرد الغائب فى صيغة الجمع) على الماء".

قال أحدهم فَرِحًا: "هذا صحيح، لقد دُرْنا حول أنفسنا ثم واصلنا مسيرنا فى ذلك الاتجاه، شعرت فى وقت من الأوقات أن الناقة التى كنت أركبها، كانت تقترب من حافة الطريق، ولم يخطر على بالى أنها كانت تشم رائحة الماء، لكنى كنت أفترض أن هذه الناقة ربما كانت تبحث عن أو قلقة على شخص من جماعة أخرى، وذلك من منطلق أن الإبل التى تُربى بعضها مع البعض، سواء أكانت من جنس واحد أم من أجناس مختلفة، تشعر بالقلق عندما تنفصل عن باقى المجموعة التى تربت معها".

سألته من باب الاختبار، لأننا كنا قد مضى علينا بالفعل ست سنوات ونحن راكبون دوابنا، ويقال إن المكان الذى سنتوقف فيه لا يبعد عنا سوى مسير ثلاث ساعات فقط: "هل أنت متأكد أن الماء هو السبب الرئيس؟".

أجابنى بُخيِّر قائلاً: "اسكت" هذه الكلمة فى أجزاء أخرى من الجزيرة العربية، تعنى فعل أمر يطلب ممن يصدر إليه "السكوت عن الكلام"؛ لكن هذه الكلمة هنا عبارة عن تعبير مسكوك بمعنى "بلا شك"، وفى الحال اعتلينا مكانًا مرتفعًا فى السهل لنرى جماعتنا فى الأسفل فوق أجزاء حجرية بارزة من الأرض ومعهم الإبل وقد مدت أعناقها الطويلة نحو الأسفل، فى حين راح أفراد الجماعة فى اهتياج

شديد، يجرفون حفنات من الماء ويضعونها فى قرابهم. وسرعان ما جعلنى عطشى أجثو على يدَىَّ وركبتَىَّ إلى جانبهم، وشفتاى العطشاوان تلامسان الأطباق الأرضية الصخرية؛ كان مذاق قطرات المطر المجمعة حلوًا، وبخاصة بعد ماء المسيرة، والذى تلوَّن بلون الرمل، وإن شئت فقل اللون الأخضر لوجود الطحالب فيه، وأصبح لها طعم اللحم المتعفن، بسبب تَخضخُضها يومًا بعد يوم داخل القراب المصنوعة من جلود الماعز التى جرى "دبغها" بطريقة بدوية فجَّة. فى كثير من المرّات كنت أفضل البقاء عطشان، على الرغم من أنى أعلم أن الماء صحى تمامًا، يُضاف إلى ذلك أنى لم أعانِ مطلقًا أى شكل من أشكال الآثار المرضية نتيجة الشرب من هذا الماء، وذلك على الرغم من أنى لم أحاول مطلقًا اللجوء إلى أى طريقة من الطرق الطبية لتطييب الماء فى أية رحلة من الرحلات الصحراوية التى قمت بها؛ والسبب فى ذلك أنه لا الزمان ولا المكان يسمحان بمثل هذه الأمور.

هنا راح ثُعيليب، وهو من بيت الكثارين، يصدح بصوت جهورى، بنفس الأغنية التى كان يرددها فى الصباح وانشرحت لها قلوب رفاقه، إلى حد أنهم راحوا الواحد بعد الآخر يشاركون فى الأغنية، عن طريق ترديد الكلمة التى ينتهى بها كل بيت من الأبيات الشعرية.

ترجمت هذه الأنشودة على النحو التالى:

"انظر إلى البرق البعيد".

لعل نغمته تصيب أم الحياة،

مطر مستمر ومنساب،

ينساب بين الرمال وفى مجرى الماء

إلى أن يمر من بو وريد إلى ما بعدها،

ومن هناك ستعيش وتتمتع امرأة جميلة،

هي، من تقف منتصبة القامة وتتمنع

وحبيبها يخر ساجدًا عند قدميها

وقد شُفى من الجراح التى أصابت شرايين قلبه".

اختصرنا مسير هذا اليوم بصورة مفاجئة بحاجتنا الماسَّة إلى البهجة والفرح. كانت تلك البقاع والأماكن القليلة التى تجمعت فيها مياه الأمطار، سببًا رئيسًا فى جعل مقدمة الموكب تتوقف وترعى الإبل.

أعلن سهيل، وهو من قبيلة الرشايدة، أنه سيدخن، وهنا سرعان ما تجمعت حوله دائرة من رفاقه جلسوا كلهم القرفصاء، ذلك أن تدخين الغليون فى الصحراء يدعو الجميع إلى المشاركة. اختفت يد سهيل فى الفتحة الموجودة فى طرف قميصه من الأمام (ملابس البدو ليس لها جيوب)، إلى ذلك الجزء من حزامه الذى يعلق فيه خنجره، وأخرج الرجل أدوات التدخين - كيس التبغ التقليدى المصنوع من جلد الأبقار، وله غطاء ومخاط بطريقة عشوائية، وله شريط من الجلد ومسمار من الخشب يستعمل فى قفل هذا الكيس. كان ذلك الكيس واحدًا من ممتلكات سهيل القليلة، لكن كان واضحًا أن هذا الكيس، بحد ذاته له قيمة عاطفية. وكما هى العادة، فإن هذا الكيس لابد أن يفتح بحب وكل الأعين مركَّزة عليه، هذا الكيس مقسم إلى قسمين، أحدهما للتبغ، والثانى للغليون، والزناد ويد الزناد المصنوعة من الصلب، ذلك أن الكبريت غير معروف تمامًا فى الصحراء، أو يعد نوعًا من الترف، كما أن النيران على اختلاف أنواعها يجرى شَبُّها بواسطة الزناد. أما الغليون فكان، عبارة عن خرطوشة فارغة من خرطوش البندقية ٣٠٣، وأما مبسم الغليون فكان هو الطرف المسطح بعد رفع الغطاء. وراح سهيل يملأ الغليون بالورق الأخضر المعروف فى كل من عمان وظفار، وكان سهيل يرفع الغليون إلى الأعلى حتى لا يهدر المادة الثمينة. ثم أمسك سهيل بقطعة مهلهلة من طرف قميصه وأشعل النار فيها عن طريق الزناد، ثم وضع هذه الخرقة المشتعلة على الأرض، وراح ينثر فوقها قِطَعًا صغيرة جافة من روث الإبل كيما تزيد اشتعال النار؛ ثم أضاف سهيل إلى هذه النار غصنًا صغيرًا، إلى أن احمرت تلك النار. وقام سهيل بعد ذلك بوضع جمر النار فوق فم غليونه، كما هو الحال فى النرجيلة، أو الشيشة. كانت مسألة تعمير الشيشة هذه تستغرق أكبر قدر من الوقت فى شىء من التلذذ؛ أما التدخين فى حد ذاته فكان لا يستغرق سوى ثوانٍ معدودات. كان سهيل قد أخذ ستة أو ثمانية أنفاس عميقة، وراح يتشبث بالنفس الأخير إلى أن جحظت عيناه وترنح جسده؛ وعندها يكون قد

نقل الغليون إلى الجالس بجواره، الذى يروح هو الآخر يثمل بالطريقة نفسها وبذلك يدور الغليون على كل المتحلقين حول سهيل، كانوا يدخنون الغليون كما لو كان كلارينت، تلك الآلة من آلات النفخ الموسيقية، وكان آخرون، حسبما رأيته أنا بعينى، يدخنون الغليون كما لو كان نايًا موسيقيًا. لم تُغْرِنى هذه الطريقة ولم تشدنى إليها، ولذلك امتنعت حتى عن سؤال رفاقى عن أى الطريقتين أفضل عندهم؛ ولم أجرؤ على الضحك على غليون سهيل، الذى يعد غليونه واحدًا من إشباعاته النادرة.

خيَّمنا فى أم الحياة، فى منطقة نخدة وريقة، التى هى تفرُّع من تفرعات الوادى فى اتجاه الشمال. وهناك أيضا تفرُّع آخر، هو تفرع نخدة هشمان يتجه نحو الشمال الغربى؛ وهذان التفرعان يخترقان هذه الرمال الجنوبية لمسافة مسير يوم واحد ونصف اليوم ليطوقا تلك المنطقة التى يطلق عليها الناس هنا، اسم أم ضرته.

انخفضت درجة الحرارة فى تلك الليلة إلى ٤٧ درجة فهرنهيتية، وشعرنا بالبرد القارس أثناء نومنا فى العراء بعد نهار ساخن أمضيناه ركوبًا على ظهور إبلنا، وعندما صحوت من النوم شعرت أن أصابعى فقدت إحساسها بسبب البرد؛ الأمر الذى حال بينى وبين تدوين بعض الملاحظات.. وطوال الليالى الست التى تلت ذلك انخفضت درجة الحرارة إلى مثل هذه الدرجة السابقة. وقد تمكنت بفضل البطانيتين من تحمل درجة البرود هذه، فضلاً عن أنى كنت أرتدى كل ملابسى، أما رفاقى فكانوا تعساء بحق. والبدو، كما هى عادتهم، ينامون على الرمل الذى يكون شديد السخونة أثناء النهار؛ وهم لا يعرفون شيئًا عن فراش النوم، لأنه يمكن أن يسبب لهم القلق، وربما كانوا يظنون أن ذلك من خصائص النساء وليس من الرجولة فى شىء. وهم يجمعون حطبًا يكفى لشب نار المخيم لمدة ليلة واحدة، ويُكَوِّمونه أمام هذه النار، وهم عراة اللهم باستثناء السروال، نظرًا لأنهم يتخذون ملاءات من ألبستهم الأخرى، التى لا تعدو أن تكون مجرد قميص واحد لكل منهم. والحال نفسه هو حال النساء، وعلى الرغم من أنهن لهن "خيام من الشَّعر" يأوين إليها فى الصحراء، ورغم أن لكل واحدة منهن سجادة

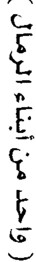
تنام عليها، فإنهن يخلعن ملابسهن أثناء الليل باستثناء سراويلهن، ويستعملن هذه الملابس الخارجية ملاءات أثناء الليل. الجميع يمشون حفاة أثناء النهار؛ لكن عندما تكون الرمال شديدة السخونة، فإن الرجال والنساء يلبسون جوربًا مَخيطًا بطريقة بدائية. والبدو يقللون من قيمة الإشباعات التى تزيد على هذا الحد.

كان طريقنا طوال الأيام الخمسة التى تلت ذلك يُطَوِّق هذه الحافة الجنوبية لهذا البحر العظيم من الرمال، فقد يمَّمنا مسيرنا فى البداية، فى اتجاه شمالى غربى- غربى، ثم بدأنا نتجه تدريجيًا صوب الغرب، وبقى ارتفاعنا ثابتًا عند ٩٥٠ قدمًا، وذلك على الرغم من أن انخفاضات الطرق الوديانية جعلتنى أحسب أن الأرض الأعلى من هذه الأرض التى نحن عليها، موجودة فى الناحية الغربية. لم تكن مسيرة فترة العصر شيئًا يسُرُّ الخاطر، لأننا كنا نسير فى عين الشمس، أقصد أن الشمس كانت فى أعيننا. وأنا قد مررت بهذه الخبرة فى رحلاتى السابقة، عندما حوَّل مسيرنا فى الشمس، وجهى إلى لون المحار فى بداية الأمر، ثم أخذ يتقشر ويلتهب بعد ذلك؛ لكنى تعلمت من ذلك، لف رأسى لفًا مُحكمًا بغطاء رأس عربى وبذلك أنقذ وجهى ورأسى بالكامل فيما عدا أنفى وشفتىَّ. ومن بين مصاعب السير فى اتجاه الغرب، أن عمل الخرائط أصبح مهمة صعبة، نظرًا لأنى لم يكن معى أدوات تمكِّننى من معرفة توقيت جرينتش، غير أجهزة قياس الارتفاع. استطعت أيضًا الحصول على الارتفاعات بدقة شديدة، الأمر الذى كان يجعلنى أراجع بصورة يومية، مسارنا مستخدمًا فى ذلك الساعة والبوصلة، عندما كنا نسير من الجنوب إلى الشمال (ومن يُمْن الطالع أن رحلتى بكاملها كانت فى هذا الاتجاه)؛ لكن يجب التنويه هنا إلى أن خطوط الطول التى تبين العبور من الشرق ومن الغرب لا يمكن الاعتماد عليها، وبخاصة عندما يجرى تحديدها عن طريق أجهزة القياس الموضوعة فوق الإبل، حتى وإن كان ذلك عن طريق ثلاثة أجهزة قياس يجرى مقارنتها بعضها ببعض، وتسجيل قراءاتها قبل وبعد كل مسيرة من المسيرات. لو كان لدينا جهاز لاسلكى لأعطانا دقة لا نظير لها، لكنى خشيت أن أثير شكوك المرافقين لى فى حال وجود جهاز معنا من هذا القَبيل، هذا فضلاً عن أن حجم ووزن مثل هذا الجهاز يمكن أن يشكل عبئًا كبيرًا على وسائط نقلى المحدودة.

وصلنا بعد أن غادرنا هشمان وبعد مسير دام ثلاث ساعات ونصف الساعة، خلال رمال روابية الشكل، إلى السهل الحدودى، الذى عبرناه بمعدل سير طيب، فى طريق مُعَلَّم بمجموعات من الانحرافات الرملية بيضاء اللون، تقع الواحدة منها على بعد مسافة ميل ونصف الميل تقريبًا من العلامة السابقة واللاحقة لها. وفى المنطقة الواقعة بعد أم الرؤوس، تحولت الروابى إلى سلسلة من الجبال المستعرضة الأمر الذى بطَّأ من خطونا، وبذلك ضيعنا نصف ساعة فى عبور المرتفع الأول، لندخل بعد ذلك فى ممر طويل تحفُّه من ناحية اليسار سلسلة رملية واحدة على بعد قرابة ميل، فى حين كانت تَحُفُّه من الناحية اليمنى منطقة بحر الرمال العظيمة. وهنا تصبح منطقة هذا الممر الحدودى الذى يطلق الناس عليه اسم حراييم، مَعْلمًا رئيسًا من معالم المسيرات خلال الأيام القلائل القادمة. اتسمت تلك المسيرات بالجوع، نظرًا لأن الُخضْرة الوحيدة التى لقيناها تمثلت فى أشجار العُباله أو المرخ، الشبيهة بأشجار الصفصاف، والتى كانت متناثرة هنا وهناك على أجناب الكثبان الرملية. كانت تلك الأشجار جزءًا من المنظومة التى كانت تعترض طريقنا، وتتجه جنوبًا إلى السهل الموجود على ضفة وادٍ من الوديان، ثم تأخذ فى الانكماش بصورة متدرجة لتختفى بعد ذلك، حسبما يقال، بعد مسافة قصيرة.

كانت تلك هى الأماكن التى توقفنا فيها. كان المخيم الذى أقمناه فى نخدة فساد- ذلك التفرُّع من وادى آتبنا والذى يطلق اسمه على الرمال المحلية- يقع أسفل ثلاثة كثبان رملية ضخمة؛ هى: أم الجوع، وأم الليصة، ثم أم الضلوع. كان الرعى سيئًا للغاية، الأمر الذى اضطرنا إلى تقسيم أنفسنا إلى ثلاث مجموعات، ونوزع إبلنا على مسافة ميل أو أكثر من الميل. كانت الجماعة المصاحبة لى مكونة من واحد من بدو الكَدَابين، وواحد من العوامير ومرافقين من بيت الكثارين، وسرعان ما راح كل هؤلاء يتسلقون أشجار المرخ الكثيفة، كيما يقطفوا ويجمعوا أعواد المرخ الطرية لركوباتهم الخاصة بهم، إلى حد أنهم وضعوا ناقتى هى وحيوانات النقل الأخرى فى المرتبة الثانية بعد إبلهم المملوكة لهم، وقد أثار جشعهم وطمعهم هذا فيما يتعلق بإبلهم، اهتمامى بسبب تعارض هذا الجشع مع كرم علاقاتهم الشخصية. وحيثما يقل الماء أو الطعام لا يفكر أحد منهم فى عدم اقتسام ذلك بالتساوى فيما بينهم، وفى حالة غياب أحدهم، حتى وإن كان يرعى





(واحد من أبناء الرمال)

الماشية، فإنهم جميعًا ينتظرون مجيئه كيما يأكلوا بعضهم مع البعض، أما فيما يتعلق بعلف الإبل أو أحمالها فإن كل واحد من البدو يريد أن يميز ناقته عن نياق الآخرين؛ هذا يعنى أن البدوى يُعْلِى مصلحة ناقته عن كل اعتبار آخر.

لم يصدر أثناء السير أى نداء بالتوقف لأداء صلاة الظهر؛ سبب ذلك أن الصلوات الخمس اليومية يمكن قصرها على ثلاث صلوات أثناء المسير، أى الجمع بين الظهر والعصر، والشىء نفسه يحدث بين المغرب والعشاء. هذه ذريعة أصولية، وليس لها انعكاس على التقوى فى الصحراء. يزاد على ذلك أن تأكيد المتحاملين فى بعض الأحيان، والذى مفاده أن البدو لا يصلُّون ولا يصومون، أمر لا تؤكده خبرتى فى هذا المجال. ذلك أن المرافقين لى كانوا يصلون دومًا وبهمة ونشاط؛ وأنهم كانوا دومًا واعين بكثير من الأخطار التى يتعين عليهم تخطِّيها، هؤلاء البدو يدعون الله صباحًا، وظهرًا وليلاً. يزاد على ذلك أن الجوع والعطش ليسا شبحين بعيدين؛ هذا يعنى أن ضيوف مدين يتجولون هنا وهناك؛ يزاد على ذلك أن معرفة البدو لهذه الأخطار ووعيهم بها، زرع فى هؤلاء البدو، كما هو الحال فى جنودنا وبحّارتنا من الجيل الماضى، خليطًا من الاستسلام لكل ما هو خارق للطبيعة والوثوق به، وهذا بحد ذاته يعد أمرًا طفوليًا فى بساطته وسذاجته. أضف إلى ذلك أن السذاجة والبساطة ليست هى الفضيلة الوحيدة لهذه المعرفة؛ لكن واقع الأمر، هو أن هذه البساطة تعد قاعدة من قواعد الحياة، وتبررها نفعيًا الحقيقة التى مفادها أن البساطة تشكل أساس العمل فى الحياة اليومية فى البيئة القاسية. هذا يعنى أيضًا أن البساطة هى موقف عقلانى يسير فى خَطٍّ موازٍ تمامًا للمفاهيم والأعراف السارية والمقبولة فى الغرب.

هؤلاء البدو كانوا يصيحون كل صباح بصوتٍ عالٍ قائلين: "بسم الله الرحمن الرحيم" عندما نبدأ تحركنا. وفجأة كنت أسمع بجانبى بدويًا بعد فترات طويلة من الصمت، شأنه فى ذلك شأن أسلافنا المتطهرين عندما يقولون: "نَجِّنى من أعدائى، يارب"، "يارب، نَجِّنى من الشر" يزاد على ذلك، أن انتهاء أذان الفجر يجعل هؤلاء البدو يتضرعون إلى الله تعالى وهم ينهضون واقفين على أقدامهم وهم يرتعدون وهم يعبدون الله، على اعتبار أن ذلك أول عمل من أعمال اليوم. أضف إلى ذلك أن المسيحى التقى الذى يسافر ويتجول أو يترحَّل مع هؤلاء البدو،

ويكون قلبه مهمومًا بهموم الدنيا، يمكن أن يتعلم شيئًا من تسليمهم الكامل بالله تعالى وثقتهم فى الله تعالى الموجود وغير المرئى. ونحن عندما نكون جالسين على شكل دائرة نسمع بدويًا يقطع الصمت عندما يتمتم قائلاً: "لا إله إلا الله"؛ فى حين ينفجر رجل من قبيلة المره قائلاً بطريقة هستيرية: "أيها المسلمون، لا تخفوا عقيدتكم!" ومع ذلك، فإن هذه التصرفات والأقوال المفاجئة، لم تؤثر، على حد علمى، على علاقاتهم معى على الإطلاق، يزاد على ذلك، أنى أحس وأنا بين هؤلاء البشر البريين نوعًا من التسامح غير موجود بين أهل الحَضَر، الذين تضفى عليهم معرفتهم السطحية للقرآن مظهرًا لا يطاق من الغرور الدينى، لأنهم يشعرون بينهم وبين أنفسهم أن الحقيقة المقدسة مقصورة عليهم وحدهم.

لكن اسمحوا لى أن أستعيد ذكرى أول لقاء لى بالشيخ صالح فى بداية هذه الرحلة.

كان واحد من رجال الشيخ صالح قد بدأ بدعوتى إلى ترديد عقيدة الإسلام، "أشهد!" تأكيدًا على إيمانى بالله، والصلاة، والصوم. وعليه أمسكت بلحيتى- التى كنت قد تركتها تنمو، شأنى شأن أى أوروبى يود أن يترحَّل فى هذه الأرض؛ نظرًا لأن الرجل لابد أن يقسم على ذقنه. ورددت بعده "الله أعظم".

قال: "لا إله إلا الله" وكررت هذه العبارة بعده.

جاء بعد ذلك مبدؤه الثالث "وأن محمدًا رسول الله".

قلت له: "اسمح لى بشىء من الشرح والتوضيح، "هو نبيكم، رجل عظيم وصالح من جنسكم أقصد جنس العرب؛ لكننا جنس آخر، ونحن أيضًا من مخلوقات، ونحن نقول ونعتقد أن يسوع (عيسى) هو نبينا".

سألونى، لأنهم جاهلون تمامًا "عيسى"! "ابن من؟ " وهم لا يعرفون القرآن الذى يسجل أن يسوع (عيسى) من روح الله.

تدخل الشيخ صالح لرأب الصدع الذى حدث "هذا صحيح، كل شعب له نبيه. لكن الحمد لله" هذا الرجل ليس كافرًا، لكنه يقر بوجود الله تعالى "الواحد الأحد".

كان رفاقى على أحَرِّ من الجمر، لأنهم كانوا يودون معرفة ما إذا كنا نحرق موتانا، وكانوا يريدون أيضًا معرفة ما إذا كان "الزواج" عندنا معقودًا أم لا (أى

خالٍ من الحب الحر)، وكانوا يودون أيضًا معرفة ما إذا كنا نصوم ونصلى أم لا. أكدت إجابتى لهم وصححت لهم أيضًا وهمًا آخر صادفنى فى رحلاتى السابقة، بل إنه فى واقع الأمر، واسع الانتشار فى سائر أنحاء الشرق المسلم؛ أشاروا إلى السماء، وهم يقولون: الكفار يخفون وجوهم من الله. وأنا أشك فى نشأة هذه المسألة من فكرة خوذة الشمس التى يجرى استعمالها حديثًا[1]، وبخاصة أن هذه الخوذة، ولأسباب واضحة يمكن إنزالها إلى ما تحت العينين. ومن الأهمية بمكان هنا أن نلاحظ أيضًا فى هذا الصدد أن الصلاة طبقًا للطقس الإسلامى تحتِّم أن تلامس الجبهة الأرض. وهنا يتضح أن القبعة ذات الحافة لا تسمح بملامسة الجبهة للأرض، ويترتب على ذلك، تلك الصيحة بين رجال الدين المحافظين فى كل من بلاد فارس، العراق، أفغانستان وبعض البلاد الإسلامية الأخرى، والتى تستنكر استعمال جيوشهم لأغطية رأس على الطراز الأوروبى.

وأنا فى ترحالى، أغطى رأسى بالكوفية العربية، ومن تحتها خوذة ضحلة بلا حافة، وهذه الخوذة تذكار قديم مكتوب عليه "سوذى" القوة الجوية؛ وهذا يحتم أن تكون لحيتى وطعامى بل ومشيتى أيضًا، شبيهة بما يفعله هؤلاء الرفاق المنعزلون فى هذه الأمور، وأنا أفعل ذلك بغية تخفيف الفروق التى بيننا. وللسبب نفسه لم ألبس نظارة شمس أو أستعين بأية وسائل أخرى من وسائل الحماية من الشمس، ومثلما كانت شكوك رفاقى فى مسألة خوذة الشمس وأنها يمكن أن تعيق تنفيذ خططى، فقد وجدت أن وسائل الحماية من الشمس هى الأخرى لا ضرورة لها.

وجدنا السهل الواقع على حدود بلدة فساد، والذى كان بالأمس خاليًا من الأحجار، أصبح اليوم متموجًا وعامرًا بالأحجار. وجدنا أيضًا بعض الأجزاء البارزة من الأرض (الحزم) والتى يبلغ ارتفاعها قرابة عشرين قدمًا، أجزاء أخرى لونها مثل لون المعجون المستخدم فى تثبيت زجاج النوافذ، وفيها عروق حمراء اللون، ومزجَّجة تزجيجًا عاليًا. ومن خلال نظارتى المكبِّرة وجدت قواعد الكثبان

---

(١) هذا يعنى أن هذه الفكرة لابد أن تكون حديثة، وذلك من منطلق أن خوذة الشمس لا يستعملها الأوربيون فى الشرق منذ أكثر من قرن من الزمان؛ هذه الخوذة غير معروفة فى الأمريكتين، كما أن الناس لا يلبسونها فى أستراليا أو جنوب أفريقيا.

الرملية البعيدة، تبدو من بعد، شبيهة بالحجر الصلد. وعلى سطح الرمال وجدت حفريات من حفريات المحار وأنواع أخرى من الحفريات، وبخاصة من نوع أوستريا Ostrea واللوكينا Lucina ومن الروستالاريا Rostallaria ، وجدنا كل هذه الحفريات ذاوية إلى حد بعيد، لكنها لا تزال إلى يومنا هذا تحمل بعض السمات التى يمكن استعمالها فى تحديد تاريخها الجيولوجى.

ميتان، مخيم آخر من مخيمات الجوع، وقفت فيه إبلنا المسكينة ساكنة بلا حراك، خالية، ومعقَّلة، وقد ازداد شوقها استعدادًا للمضى قدمًا فى الترحال ابتعادًا عن هذا المكان. قد تكون الناقة حيوانًا غير محبب إلى النفس، لكنها صبورة تمامًا على العكس من ذلك، يتركز كل هَمّ الناقة فى العلف، وهى عندما تعثر على هذا العلف، يصبح فى مقدور راكبها أن يضع عليها حملاً ثقيلاً كل يوم، على أن يسمح لها بالشرب مرة واحدة كل سبعة أيام، وتقييدها فى كل وقفة من الوقفات مخافة أن تضل وتتوه.

جاء شروعنا الصباحى فى التحرك من ميتان بطيئًا. تلكأنا بسبب البرد والجوع من ناحية، والسلاسل الرملية الكثيرة من الناحية الأخرى، وهذا يعنى أن الإبل عندما تتلكأ، فإن وقع مسير القافلة يكون بطيئًا. وبعد مسير دام ساعة من الزمن وصلنا إلى منخفض واسع، جاءت ضفته الغربية، التى يسمونها طوف ميتان، بمثابة النهاية البائسة للوادى الذى يحمل هذا الاسم، والذى كان قويًا ومثمرًا فى مبتداه فى شاغوات Shaghuwat على بعد مسير ستة أيام فى اتجاه الجنوب - بدأت فى الظهور من جديد بعد ميتان، السهوب الجامدة الأمر الذى أدى إلى تحسُّن ترحالنا ومسيرنا. وفجأة راح العرب الذين كانوا دومًا يحسون بقلق طفولى كيما يسترعوا انتباهى إلى شىء يظنون أنه يهمنى يشيرون إلى الأرض؛ ويصيحون قائلين: "انتبه أيها الصاحب، هذا هو الطريق المؤدى إلى يوبار".

تساءلت مندهشًا: "تقولون : يوبار؟".

"لقد قال لنا آباؤنا، إنها كانت مدينة كبيرة، فى ماضى الزمان؛ مدينة غنية بكنوزها، وكان فيها بساتين وحدائق للتمر، وكان لها قلعة من الفضة الحمراء (الذهب؟) وهى مدفونة حاليًا تحت الرمال فى رملة شعيط، التى تقع على بعد مسير أيام قلائل فى اتجاه الشمال".

كان عرب آخرون قد أخبروني في رحلاتي السابقة، عن يوبار[1]، وإن شئت فقل: منحوتات الرمال، لكن أحدًا لا يستطيع أن يحدد مكانها. انصرف كل تفكيري في هذه المدينة وتبدد، عندما. صاح رفاقي معلنين لي ما لديهم من أخبار، وهم يشيرون لي على المسارات البالية، الموجودة على شكل قطاع عرضه قرابة مائة ياردة ومحفور في السهل. كانت تلك المسارات تشكل ٣٢٥ درجة عند خط عرض ١٨ درجة و٤٥ دقيقة شماليات، وعند خط طول ٥٢ درجة و٣٠ دقيقة شرقيات عند حافة الرمال.

تطوع بعد ذلك بأيام قلائل، معيوف الذي يعد أذكى الرشيدين من بين أفراد جماعتي ليقول لي: إنه عندما كان صبيًا يرعى قطعان والده بعد العصر، في المنطقة ما بين ميتان وفساد (لقد نسي منذ زمن طويل الموقع بالضبط، لكنه يعتقد أنه على بعد مسافة مسير يومين من حدود الرمال) وأنه عثر على مجموعة فخّارية كاملة، فيها أوعية مكسرة حمراء اللون وصفراء اللون، كما شاهد أيضًا هاونين من هاونات البن؟ مصنوعين من الحجر الأسود المصقول، كما شاهد أيضًا كتلتين حجريتين مستديرتين وبيضويتين، وفي حافة كل منهما قطع، ومتشابهين، لكن كل واحدة منهما تبلغ من الثقل حدًا يتطلب رجلين كيما يمكن رفعها

---

(١) أنا مدين للسيد/ فيلبي لأنه هو الذي لفت انتباهي إلى تشابه يوبار مع وُبار. لم يأتِ أحد من الجغرافيين العرب الجادين على ذكر هذه المدينة، لكن ياقوت الحموي يقدم وصفًا إضافيًا لموروث محلي منتقى، وإن هذا الوصف يخدم الغرض نفسه. والمكان محدد بشكل عام على أنه يقع في الرمال "فيما بين شهير وصناع". كانت يوبار أو وُبار مدينة عظيمة في واحة خصبة من واحات قبيلة عاد: وإن أهلها أو القوم الذين كانوا يسكنونها، عوقبوا على خطاياهم بأن مُسِخُوا إلى قردة ونسانيس- نوع من القردة، له نصف الجسم، وعين واحدة، وذراع واحدة، ورجل واحدة.. إلخ. ومنذ ذلك الزمان والجن يسكن هذا المكان، ويحاول منع الاقتراب منها، ويدمر كل من يصل إليها. وإبل المهارين تنحدر عن إبل هذا الجن. وهناك بعض القصص التي تصور قوم الشهير على أنهم يصطادون هذا النوع من القردة والنسانيس، بل إنهم يأكلونها أيضًا. هذا هو الأثري نشوان بن سعيد، أثري جنوب الجزيرة العربية، والمتوفى في العام الهجري ٥٧٣ المصادف للعام ١١١٧ الميلادي يقول: "وُبار هو اسم الأرض التي كانت تنتمي إلى قوم عاد في الأجزاء الشرقية من اليمن؛ وهي في أيامنا صحراء غير مطروقة بسبب جفاف ونضوب مائها. ويمكن العثور فيها على نباتات كبيرة سوتها الريح بالرمال. ويقال أيضًا أنها كانت تنتمي إلى أهل "الرَّس" وربما يكون الأمر أكثر من مصادفة أن نجد أن أريشا (أرض الحاكم الزناتي للصحراء الفلكلورية) هي المساوي اللغوي الشهاريني لكلمة "راس العربية".

(أسطوانتى عمود؟): وقال إنه قلّب الرمل بحثًا عن المزيد، لكنه لم يعثر سوى على رماد أسود اللون. لكن معيوف لم يربط هذه الأشياء المتواضعة بمدينة قوية؛ وذلك على الرغم من اندهاشه لعثوره على أوانٍ فخارية فى الرمال، والسبب فى ذلك أن البدوى المترحل بحق، لا يحمل معه أوانى فخارية، فوق إبله، لكنه يحمل بدلاً من هذه الأوانى أوانى أخرى مصنوعة من البوص المجدول، وقد يحمل معه من حين لآخر وعاءً من الحديد.

(وحتى لو استطعت حمل رفاقى- على القيام بعمل هم لا يرغبون فيه أو يستلطفونه فى ظل حالهم النفسى الحالى)؛ فإن تحولى جانبًا إلى تلك الأرض الخراب الجافة الخالية من المرعى، كان يمكن أن يكون من قَبيل الأعمال الانتحارية: زد على ذلك أن الماء الذى معنا لم يكن يكفى إلا لوصولنا فقط إلى ثقب الماء. وعلى حد قول البدو، فإن المدقات والدروب المؤدية إلى الجنوب مطموسة بل مفقودة أيضًا فى السهل. وربما كان ذلك راجعًا من ناحية إلى التعرية الناجمة عن هبوب الريح، ومن ناحية أخرى إلى الحقيقة التى مفادها، أن الطريق القديم لابد أن يمر خلال طريق زلطى فى الوادى، الذى هو الطريق الطبيعى للوصول إلى الجبال، الخالية تمامًا من المدقّات. ومسألة تعدى الرمال على الحدود الجنوبية تتفق تمامًا مع الموروث العربى، ومدعومة أيضًا بواسطة الرياح الشمالية دائمة الهبوب على أراضى الحدود الجنوبية، وهذا بدوره يفسر لنا مسألة المنحدرات المتدرجة والحادة الناجمة عن هذه الانجرافات الرملية. وهذه المدقات العميقة الموجودة فى السهب يمكن تفسيرها فى إطار تغير الظروف المناخية خلال الحقب الزمنية التاريخية. وفى الجنوب مباشرة تقع بيارات البخور القديمة والشهيرة، والتى ربما كان يربطها بعضها بالبعض طريق برى واصل إلى جرها Gerrha ، ذلك الميناء القديم من موانئ الخليج الفارسى، أو واصل إلى بلدة البتراء Patra الخاصة بالأنباط، وكما أن يوبار يمكن أن تكون هى الأخرى واقعة على هذا الطريق. هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين الكلمتين أوفير Ophir ويوبار ubar عن طريق القاعدة الفقهية اللغوية الشائعة التى تفيد أن صوت الفاء F يمكن أن يصبح باء b، وبذلك تصبح الكلمة أوفير Ophir طبقًا لهذه القاعدة: Obir وبذلك تكون أوبير Oibr هى يوبار ubar .

هذا الموروث من موروثات الطرق التجارية القديمة الموجودة عبر أو خلال ذلك الذى يعد فى الوقت الحاضر حاجزًا شبه محرَّم من الرمال، ينبغى ألا نستخف به على أنه ضرب من ضروب المستحيل. والبشر يرون أن جنوب الجزيرة العربية لم يشهد مطلع عصر جليدى، حتى إن دوائر العرض العليا من نصف الكرة الشمالى يمكن أن تكون واقعة تحت غطاء ثلجى أو جليدى، لكن الجزيرة العربية شهدت فترة مطيرة، وأنه اعتبارًا من تلك الفترة يبدأ تاريخ الوديان العميقة التى بين الجبال حتى يمكن أن تصرف مياه الجبال الساحلية، هى وحفريات الحجر الجيرى التى جرفتها المياه إلى حافة الرمال. هذا المناخ المختلف ربما يكون قد استمر فترة طويلة لكن بشكل مُعَدَّل، حتى يمكن أن يساعد على قيام حضارة باكرة جدًا فى هذه المنطقة.

وهناك صلة أو علاقة مهمة أخرى تدخل ضمن هذه السلسلة من الدلائل، وعلماء الحيوان هم الذين أرسوا دعائم هذه الصلة أو العلاقة؛ وذلك من خلال تناولهم لتوزع الحياة الحيوانية فى جنوب الجزيرة العربية. وعلى سبيل المثال؛ فإن الحيوانات التى جمعتها من جبال القراوين أثبتت أنها تربطها صلة أو قرابة بالحيوانات الأفريقية أو الحبشية؛ كما أن هذه الحيوانات تشكل منطقة مستقلة فى هذا الجزء من الجزيرة العربية، والسبب فى ذلك أن الحيوانات التى جمعتها من الشمال ومن الشرق ومن الغرب ثَبُتَ أنها حيوانات قطبية شمالية قديمة. وعليه يمكن القول: إن هذه المنطقة المستقلة يمكن أن تكون تذكارًا من تذكارات الحيوانات السابقة التى كانت تسكن الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية بكامله، فى الوقت الذى كانت فيه الهند، وجنوب الجزيرة العربية ومعهما أفريقيا، يسود فيها مناخ مشترك وحياة حيوانية مشتركة أيضًا، يزاد على ذلك، أن الجفاف الذى ضرب جنوب الجزيرة العربية ربما يكون هو السبب فى قصر هذه الحيوانات البدائية على منطقة ظفار، لأن هذه المنطقة هى الوحيدة فى جنوب الجزيرة العربية التى استمرت تتمتع بمطر استوائى وحياة نباتية مدارية، والفضل فى ذلك راجع إلى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية المفيدة، فى حين نجد أن الفراغات المكشوفة المحيطة بهذه المنطقة بدأت تسكنها مجموعة أخرى من الحيوانات التى جاءت إليها من الشمال.

الفصل الثالث عشر

عبر الرمال الجبلية فى عروق الضاحية

انحرفت الرمال الحدودية فى شعيط ناحية الجنوب الغربى؛ وعليه أصبح مسارنا مواجهًا لهذه الرمال الحدودية. وبدا لنا هنا وهناك أننا قد ودعنا السهب، لكننا دخلنا إليه من جديد، لكن السهب كانت تحجبه هنا سلسلة جبلية مرتفعة، يقولون الآن إنها انحسرت إلى مسير مسافة نصف يوم فى اتجاه الجنوب. وهنا وجدنا أيضًا أن اللون الفاتح الذى كان يميز الواجهة الجنوبية لمنطقة الحدود بدأ يتحول إلى سلاسل جبلية داخلية حمراء اللون، تحولت بدورها أثناء مُضيِّنا قُدُمًا فى مسيرنا، إلى جبال صغيرة شاسعة ومنخفضة على شكل كتل متموجة. وتميز طريقنا هنا بوديان وسُرُج سهلة، عندما بدأنا نرى بعض النباتات المتناثرة على منحدر من المنحدرات، تسلقناه لنقف فيه ونرعى فيه إبلنا.

استرعت انتباهى ظاهرة البقع الفضية بصورة مفاجئة، فى الأحواض المنخفضة، التى بدت لى من بعد وكأنها ألواح من الثلج أو بقايا الملح الناجم عن البحيرات الجافة. كانت تلك الغدران- التى ثبت أنها عبارة عن جبس- تبدت لى بتردد متزايد فى سائر أنحاء هذه الكثبان الرملية فى يبّيله Yibaila وفى يديله[1] yadila، وظهرت لى أيضًا بعد ذلك بيومين فى جبال عروق الضاحية الرملية.

بدأت آثار مسيرات الجوع التى يتردد طول الواحدة منها بين تسع وعشر ساعات تبدو وبدرجات متفاوتة على إبلنا، إلى الحد الذى اضطررنا معه إلى

(١) فى اللهجة الرشيدية (نسبة إلى القبائل الرشيدية) فى الرمال الجنوبية، وبشكل مميز عن لهجة قبائل المرَّة فى الشمال نجد أن حرف الـ J ينطق y، وبذلك تصبح الكلمة Jaub = youb ، ومن هنا يصبح حرف y فى كل من yadila و Yabaila صوت حرف j.

إعادة توزيع أحمالنا. اضطرنا ذلك إلى القيام بتنصيف سَلَّتى التَّمْر التى تزن الواحدة منها ستين رطلاً، واللتين تُعدان حمولة جمل واحد، وتوزيع هذه الأنصاف على الإبل التى كانت أحسن حالاً. غمغم أصحاب هذه الإبل، الأمر الذى حتَّم علىَّ طلب حيوانات (إبل) من بدو لا تربطنى بهم أية صلة، متكبدًا بذلك نفقات إضافية. اتفقنا فى النهاية على أن تقوم إبل الركوب فى جماعتى، بحمل حِمْل صغير كل يومين أو ثلاثة أيام، على الرغم من أن ذلك كان ينطوى على كثير من الجدل ووعود بالمكافآت، وكانت هناك لحظات كنت أحس فيها إننا وصلنا إلى طريق مسدود، وبخاصة عندما كنت أستشعر غياب الشيخ صالح.

ازداد مسيرنا صعوبة على صعوبته، وازدادت إبلنا تعبًا على تعبها؛ الأمر الذى أدى إلى امتداد طابورنا إلى أبعد مما هو معتاد فى مثل هذه الظروف، ونجم عن ذلك أن أجزاء من هذا الطابور لم تعد فى مرمى البصر لوجودها بين ثنيات وانحناءات الرمال. كان ذلك، بكل المعايير، شيئًا مُرْضيًا وبخاصة فى مواجهة الكمائن المحتملة، والسبب فى ذلك أننا كنا نزداد إرهاقًا على إرهاقنا يومًا بعد يوم، وبالتالى كانت خفة حركتنا تقل عما كانت عليه من قبل، وهذا بحد ذاته يجعل منا صيدًا سهلاً بل وفريسة لجماعات الغزو الأكبر منا عددًا، وخفيفة الحركة بحكم انطلاقها انطلاقًا نشيطًا من عين أو ثقب من ثقوب الماء الثلاثة، التى تبعد عنا مسير يومين. كنا عندما نقترب من كل تل عالٍ، يقوم العربى الذى عليه الدور، بالانطلاق بجَمَله الذى لا يحمل شيئًا سواه هو، إلى الأمام ويتسلق قمة ذلك التل، لكى يستطلع الأرض التى تنتظرنا، بحثًا عن الغزاة أو أى أثر من آثارهم، وأن يجعل رأسه يتجه بناظريه إلى أسفل السلسلة الجبلية تحاشيًا للغدر والخديعة، حتى لا ينكشف أمره، ويكمن هذا الرجل فى مكانه بلا حراك لكنه يستمر فى يقظته وانتباهه فى الوقت الذى نروح نحن فيه، نمر أسفل هذه السلسلة الجبلية. وبعد ذلك بساعة يقوم عربى آخر بتكرار العمل نفسه، وبذلك كنا نحافظ على استمرار اليقظة والاستطلاع طول اليوم الطويل، فى حين كانت الجماعة تقوم فى الأسفل بمسح سلاسل التلال البعيدة بحثًا عن أى نشاط مماثل من جانب العدو.

كان التلكؤ فى المسير يعنى التأخر فى الوصول، وقد أدى ذلك إلى جعل اختيارنا لمكان التوقف اليومى أمرًا يزداد صعوبة على صعوبته. هذا يعنى أيضًا أن مكان التوقف يتحدد بناء على توافر المرعى فى هذه الأرض القاحلة من ناحية، وأخذ موعد وصول الإبل بعين الاعتبار وبحيث تصل هذه الحيوانات إلى مكان التخييم أثناء ضوء النهار. كانت المسألة تقتضى منا، قيام رجلين أو ثلاثة بعملية الاستطلاع للمكان قبل وصولنا إليه بساعتين قبل غروب الشمس، ونقوم نحن بالتوجه إلى أفضل المراعى التى يطلبون منا التوجه إليها. حدث على غير العادة، أن راح من يستطلع المكان، يلوّح بغطاء رأسه ويصيح مبتهجًا، من فوق أعلى نقطة فى السلسلة الجبلية، وهو نشوان بمنظر المرعى الجيد الذى جعله ينسى احتمال وجود بعض الأعداء.

بدأت الإبل تتقاطر متشوقة إلى الاهتمام بها، حيث جرى إنزال الأحمال عنها، وتقييدها من أرجلها الأمامية، وسياقتها إلى الرعى فى أقرب مرعى إلينا. وفى مخيمات الجوع ترى البدو وهم يفتشون الجبال المجاورة بحثًا عن قبضات من العلف حتى يستعملوها فى تغذية إبلهم من أيديهم، مثلما تطعم الأمم طفلها، وبعد أن اعتنت الجماعة بالإبل، اصطف أفراد الجماعة لأداء صلاة المغرب قبل أن يجرحوا صيامهم. كان أعضاء الجماعة قد قاموا بتشوين أكوام من الحطب على مقربة من النيران الأربع التى شبها المخيم، تحسبًا لبرودة الليل. كانت عادتى اليومية تجعلنى أجلس مع كل جماعة الواحدة بعد الأخرى من هذه الجماعات التى تختار نفسها بنفسها.

كنت فى هذه الليلة دونًا عن سائر الليالى الأخرى، مهتمًا بطريقة عمل الخبز غير المخمور. وهذا هو معيوف، طباخ جماعتنا بصفة خاصة، يجلس القرفصاء وسط جماعة أو دائرة من المراقبين الجوعانين والمتحفزين، وعجن ذلك الدقيق على شكل عجينة طرية للغاية. وقسَّم الرجل العجينة إلى أنصبة على شكل قبضات، بواقع قبضة واحدة لكل واحد من الحاضرين، وراح يدوِّر هذه القبضات على شكل كرات حتى يمكنه الوقوف على تساويها من حيث الحجم. وازن بين هذه الكرات بطريقة شبيهة للميزان، وكانت عيناه: عين على الكرة والعين الأخرى على المجاورين له. ثم قام بعد ذلك، بتناول الكرة الأولى، وصب عليها شيئًا من

الماء، وراح يفردها مستخدمًا فى ذلك راحة يده على شكل دائرة قطرها أربع بوصات وسُمكها بوصة واحدة، ثم وضع هذه الدائرة فوق الجمر الملتهب. كانت رائحة الاحتراق الصادرة عن هذه الكرات إشارة إلى أن هذه الدائرة أصبحت بحاجة إلى تقليبها وبذلك يتم خبز وجهَىْ هذه الخبزة، قام معيوف بعد ذلك بعمل حفرة فى الرمل الحار الموجود تحت النار، ويضع الخبزة فى هذه الحفرة ثم يغطيها مرة أخرى، وراح يفعل الشىء نفسه مع الخبزات الأخريات. وبعد فترة من هذا الدفن، قام معيوف بإخراج الأرغفة الواحد بعد الآخر، وراح يزيل الرمل عنها باستعمال يده، وأحيانًا عن طريق النفخ فى الأرغفة كيما يتطاير الرمل، لكن القدر الأكبر من ذلك يظل عالقًا بالرغيف حتى يعطيه المذاق المعتاد. كان رفاقى يحبذون أكل هذه الأرغفة وهى ساخنة؛ فى حين كان يكفينى القليل جدًا من هذا الخبز- كانت هذه النوعية من الخبز ثقيلة جدًا، أى كان وزنه ضعفَىْ أو ثلاثة أضعاف الخبز الإنجليزى، يزاد على ذلك أن هذا الخبز على الرغم من خبزه من الوجهين، يظل عجينًا من داخله. قد يكون ذلك ميزة من ميزات هذا الخبز، وربما كان هذا الخبز سببًا رئيسًا من أسباب التوعك المعوى الذى كان رفاقى يشكون منه. لم يكن رفاقى معتادين على الطعام الصلب، ونتج عن ذلك أن التعيينات التى قدمتها من البلح بصورة يومية ومعه الخبز والأرز يومًا بعد يوم، أصبحت نوعًا من الترف الذى يمكن أن يصادف أيًا منهم على امتداد العام، كما هو الحال فى صيام رمضان: يزاد على ذلك أن معيوف كان له طبق إضافى فى تلك الليلة: كان ذلك الطبق عبارة عن أرنب برى قمنا بإخراجه من جحره الذى يبلغ طوله قرابة قدمين، كان يُغلى فى الإناء. لكن الطباخ الهاوى، وإن شئت فقل طباخ الرمال، يعد غريبًا على استعمال الزبد فى عملية الطبخ، نظرًا لأن حليب الإبل فقير جدًا فى نسبة الدهون، إلى حد أنه لا يمكن أن يُصنع منه زبد أو جُبْن (على الرغم من أن سنام البعير الصغير فيه قدر لا بأس به من الدهون)، وترتب على ذلك أن وجدت طعم أو مذاق الأرنب المسلوق فى ماء مالغ، غير مستساغ منى، ولذلك كنت أعطى نصيبى لرفاقى.

تُرى، هل فضلت أنا لحم الغزال؟ شدنى هذا السؤال إلى حكاية الغزالة والأرنب - وهذه واحدة من تلك القصص الحيوانية، التى يحبها البدو، وتبدو

جذابة عندما يرويها البدوى بإيقاع بسيط فى لهجتهم العامرة بالحيوية، ذلك أن كلام البدو الروائى يغلب عليه أن يكون شعرًا منثورًا.

جاءت غزالة ترعى عشب التمامة البضّ، ولم تلاحظ أن أرنبًا بريًا كان نائمًا تحت ذلك العشب. بُوغت الأرنب البرى، وقفز إلى الأعلى ثم هرب، فقفزت الغزالة عائدة إلى الوراء فى الوقت ذاته، وكانت أكثر خوفًا من الأرنب البرى، الأمر الذى جعله ينسى نفسه. لكن الغزالة عاد إليها توازنها، وأحسَّت بالضيق، وصاحت متهكمةً من الأرنب البرى:

"هوبى! الذى للحمه وزن صغير،

والذى جلده لا يبعث على الفرح،

يا واهب الفرح للأطفال فقط،

"يا مضايق الجيران!

(معنى ذلك لحمك قليل جدًا لا يكفى ضيفًا).

استدار الأرنب للغزالة، ووقف على قدميه الخلفيتين وصاح فى الغزالة قائلاً:

هوبى ! يا أبا النسيان"

أيها المقرّن،

إذا رأيت الوادى الأخضر

فإنك تشارك فيه مع الجن!"

(معنى ذلك، أن منظر الراعى يصيبك بالجنون).

وتفترق الغزالة والأرنب البرى بعد ذلك.

لو توافر الحطب لنيران المخيم لظلت مشتعلة طوال الليل، لكن البدو المساكين كانوا قد عضهم البرد بنابه من ناحية وكان الليل قاسيًا من ناحية أخرى. وعندما بدأت النار تخبو عند أسفل المكان الذى كانوا كامنين فوقه، راحوا يجسلون الواحد بعد الآخر، وهم ممسكون ببنادقهم فى أيديهم، تحسبًا لليل، والمفاجأة التى يمكن أن تأتيهم من العدو، وفى تلك الأثناء ذهبت أنا للقيام بالعمل الخاص "بالفلك والنجوم".

كان اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر، يومًا طويلاً، خاليًا من الأحداث، أمضيناه فى المسير خلال رمال جليدة، وكلما كان يتعين علينا الانحراف جنوبًا تحاشيًا للعقبات، كان وهج الشمس يحرق وجهى.

كنا نغوص فى الرمال الكثيفة، وفجأة قطعت صمتَنا دندنةٌ عالية صادرة عن آلة موسيقية. أصابتنى الدهشة لحظة من الوقت، لأنى لم أكن أعرف سببًا لتلك الدَّندنة.

صاح رفاقى قائلين: "حنينه! حنينه!"(١) أشار الرجل الواقف على "القمة الرملية"، التى كان ارتفاعها يقارب المائة قدم، وكانت تبعد عنا قرابة مائة ياردة أو أكثر من ذلك، فى اتجاه اليمين. كنت مستغرقًا تمامًا فيما أسمع إلى الحد الذى جعلنى عاجزًا عن الرد على ما يقوله هذا الرجل. كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة وخمس عشرة دقيقة عصرًا؛ وكانت تهب علينا ريح شمالية خفيفة قادمة إلينا من مؤخرة تلك القمة أو الكثيب الرملى.

كنا قبل ذلك، وفى ظل هبوب ريح مثل هذه الريح، قد مررنا على قمم كثيرة، لكنها لم تكن تُصدر أصواتًا، سوى ذلك الحفيف الطفيف الناجم عن الرمل السطحى البسيط الذى تحمله الريح معها كما لو كان دخانًا لتلقى به فوق قمة المُنْحدر. كان الجانب المحمى من الريح فى هذه القمة، عبارة عن جدار شديد الانحدار، وحاولت بلا جدؤى، البحث عن المزيد من الرمال حميمية الشكل فى ذلك الممر الضيق، الذى يمكن أن يكون مسئولاً عن جزء كبير من الضوضاء التى نسمعها. وأنا أرى أن مصطلح "الرمال المُغنِّية"، غير مناسب لوصف صوت لا يمكن تمييزه عن الصوت الذى ينجم عن سارينه(*)(٢) سفينة بخارية متوسطة الحجم. استمرت تلك الضوضاء قرابة دقيقتين، وانتهت فجأة مثلما تنتهى إشارة الضباب التى تصدر عن السفينة.

---

(١) حنينة = جؤار. تستعمل قبيلتا الرمال مصطلحين مختلفين للرمال المغنية - قبيلة الرشيد تستعمل مصطلح الدمام، أما قبيلة المرة فتستعمل مصطلح الجِبَال.

(*) السارينة : آلة التنبيه فى السيارة أو غيرها. (المترجم).

(٢) استعمال هذه الكلمة الحديثة غير مناسب لوصف الأصوات الصادرة عن القيثارات Sirens الوارد ذكرها فى ملحمة الأويسا.

من قبيلتَى العوامير والكَدَابين وهم يصيحون قائلين: "جاهزون! جاهزون!" أنا أبو فلان(١) من القبيلة الفلانية. هذه جماعتى وهم فى حمايتى؛ كان الهدف من وراء هذا الكلام، هو إنقاذنا من الغزاة الذين ينتمون إلى طوائفهم، لو كان هؤلاء الغزاة كذلك، ويقال أن هذه الصيحة لا يساء استعمالها مطلقًا.

جرى بعض آخر من أفراد الجماعة فى كل الاتجاهات، على الرغم من أنهم فى الظلام لم يكونوا على اتصال بعضهم مع البعض، وبدا الأمر لى وكأن الصديق يمكن أن يكون عدوًا بمنتهى السهولة.

مرت ساعة، لم يجْرِ طوالها تكرار الصوت، بل لم يكن هناك أى صوت على الاطلاق، على الرغم من أن جماعتى كانت واثقة تمامًا مما يحدث، يضاف إلى ذلك أن الصناديد الموجودين فى الخارج بقوا ثابتين فى أماكنهم يواصلون حراستهم الليلية.

كنت متعبًا تمامًا، الأمر الذى جعلنى مستعدًا تمامًا لتصديق إن الإنذار الذى انطلق كان بسبب حيوان برى وليس بسبب عدو من الأعداء، ومن هنا اختلف تقديرى عن تقدير رفاقى. وثبت أن تقديرى هو الصحيح. وفى الصباح استطاع أفراد الجماعة قص أثر ذئب على مقربة منا؛ واتضح أن عواء ذلك الذئب كان شبيهًا إلى حد بعيد جدًا بالعَوَان، أى صيحة الحرب التى تصدر عن الغزاة القائمين بالهجوم.

ونحن ننوِّه هنا إلى أن الرحَّالة يتعين عليهم دراسة تقنية الغزو فى الصحراء. قد تكون الجماعة القادمة عليك جماعة صديقة، لكن يجب التسليم دومًا بأن مثل هذه الجماعة لابد أن تكون عدوًا. لو كان أفراد الجماعة قد تعرفوا عواء الذئب على أنه هو ما تخشاه لكانوا قد فتحوا نيران بنادقهم فى ذلك الاتجاه - وهذا

---

(١) أبو فلان : فى الجزيرة العربية يسمى الرجل نفسه بأنه "أب لابن من أبنائه" وهذا تعليق على التشريف والتبجيل اللذين تحظى بهما الأبوة. واقع الأمر أن سعيد تيمور بن فيصل، سلطان مسقط لم يُستثنَ من هذا التقليد فقد وقَّع إحدى المعاملات باسم "أبو سعيد" وأن ولده سيد سعيد، هو ولى العهد.

اجراء يهدف إلى كسر حماس القادمين بغَضِّ النظر عن توزُّعهم. لو حدث ذلك لكان كل المرافقين لنا قد تقدموا وراحوا يعلنون عن أسمائهم واسم قبيلتهم مثلما فعل المرافقون لنا من قبيلة الكرابين. لو حدث ذلك لتعرف القادمون هذه الصيحات، نظرًا لأن كل قبيلة من القبائل لها مميزات صوتية خاصة بها. هذا يعنى أن القادم الصديق يصيح هو الآخر معلنًا اسمه، وإذا ما جرى التحقق من ذلك، يتقدم كل من الصديق والمرافق من اتجاهين متقابلين، ويسمح للجماعة القادمة بالدخول والاقتراب.

وإذا ما التقت جماعتان أثناء النهار، فإن المرافقين يتقدمان من الجانبين وهما راكبان، إلى الأمام إلى مسافة تقل عن مائة ياردة لكى يتحقق كل منهما من الآخر، فى ظل أفراد كل جماعة من الجماعتين ينتظرون خائفين.

إذا ما اتضح أن القادم عدو، فإن ذلك يجعل المرافق ينطلق هاربًا عائدًا إلى رفاقه، الذين يقومون بفتح نيران بنادقهم من مدى بعيد: وفى حال الظهور المفاجئ لعدو مفترض، يبادر الرجال إلى جمع إبلهم ويسارعون إلى الوقوف أمام هذه الإبل على شكل صف ويروحون يفتحون النار على القادمين. والهدف فى الحالين من ذلك كله هو طرد ذلك الطرف الآخر ورده خائفًا.

يجب ألا يغيب عنا أن الجماعة الأكبر عددًا، والأحسن ركوبًا، والأفضل تسليحًا لابد أن تكون هى السائدة فى النهاية، يزاد على ذلك أن الضعيف يود أن يهرب أو يفر، وإذا ما كانت الجماعة الغازية تستشعر ولو ميزة طفيفة فإنها تشن حرب استئصال إلى أن يصبح طرف من الطرفين بلا ذخيرة، لأن أعراف الصحراء تقضى بألا يستسلم أى طرف من الطرفين حتى وإن لم تبقَ معه ولو طلقة واحدة، لكن إذا كانت الجماعة المهاجمة هى صاحبة الكفة الراجحة فهى لا تتوانى عن القيام بما هو مطلوب منها؛ هذا يعنى أن هذه الجماعة سوف تكتسح ضحاياها.

يُعد الاستسلام للقادم الأول الأمل الوحيد لأى فرد من الأفراد. هذا يعنى أن المصطلح الصحراوى "سلمنى!" Sellemni هو بمثابة صيحة "السلام" Pax التى يطلقها التلميذ طلبًا للعفو، والإشارة إلى الاستسلام تتمثل أيضًا فى رفع الفرد لبندقيته فوق رأسه، أو يلقى بها على أحد الجانبين. وهنا يرد المنتصر كاشفًا عن



(سلاسل الكثبان الرملية)

رحمته قائلاً: "فى وجهى" يتطلع إلى معاملة طيبة فإنه يحق له أن يقول "سلِّمنى"-ببندقيتى[١]، أو "خنجرى"، أو "جملى"، لكن هذه مخاطرة يندر أن يُقدم عليها أحد من هؤلاء البشر؛ الأرجح هو أن خصمه يغطيه ببندقيته، وإن أفضل ما يمكن أن ينتظره هذا الأسير هو إنقاذ حياته وتركه يعود خاوى الوفاض إلى أهله وذويه. لكن إذا ما قُتل أحد من المهاجمين، فإن قانون الثأر لابد من أعماله وبذلك يجرى إزهاق روح مثل هذا الأسير. وعليه إذا لم يرد المنتصر قائلاً: "فى وجهى"؛ فذلك يعنى أنه يجب ألا يتوقع الرحمة.

ومن هنا يمكن القول أن الجماعات الغازية صنفان: الصنف الأول هو القبيلة التى ليس بينها وبين قبيلتك صراع دامٍ، والصنف الثانى هو تلك القبائل التى بينها وبين قبيلتك صراع دم (ثأر). وهذا الصنف وذاك الصنف يريد إبلك وأسلحتك، والشىء الثانى بعد ذلك هو حياتك. كان خويتيم قد قال لى ذات مرة وهو يمشى بجوارى: "نحن نعطى وجهنا لقطاع واحد من السعارين ولا نعطيه لغير هذا القطاع - والله أعلم".

كان الوقت مصادفًا لصباح عيد الميلاد عندما خلَّفنا وراءنا مخيم "الذعر" (الذى يقال أنه يقع شمالى وادى يوربا)، وبدأنا المسير عبر ذلك الجزء الذى يعد أعلى وأوسع كل المناطق الرملية التى صادفتها فى رحلتى - ألا وهو ذلك الوادى الذى يطلقون عليه اسم وادى عروق الضاحية. صادفنا خلال الساعات الأربع الأولى سلسلة من الجبال، والقمم. كانت إبلنا، تلك الحيوانات التعيسة قد تسلقت بجهد جهيد تلك الأماكن إلى أن وصلت إلى قممها الشبيهة بحد السكين، وكانت أرجلها تغوص إلى رُكَبها فى رمال هذه الجبال المنحدرة. كنا نتلفت هنا وهناك تجنباً للمخاوف ومحاولة منا إلى البحث عن الطريق والمسار الأفضل، ونزلنا كلنا من فوق إبلنا ورحنا نزيل الرمل بأيدينا من المنحدر على أمل إيجاد مسار أفضل للإبل.

---

(١) اكتشفت أن كلمة "بندق" (جمعها بنادق) يشيع استعمالها فى منطقة الرمال بدلاً من الكلمة الإنجليزية rifle - وهذا يؤكد الملاحظة التى أبداها يول yule عن Hobson - Jobson عندما قال إن اللغة الهندوستانية تستقى مفرداتها عن طريق اللغة العربية.

كان الرمل الناعم يغطى سيقاننا مع كل خطوة نخطوها؛ وأصبحت أحذيتنا أمرًا غير ذى بال، كما أن الركوب لم يكن هو الآخر مريحًا نظرًا لأن نزول المنحدر يحتِّم أن يكون الظهر منحنيًا إلى الأمام وبزاوية حادة بحكم انحناء الظهر ليكَوِّن زاوية حادة مع عنق الجمل. يضاف إلى ذلك أن النظر بحد ذاته إلى الأسفل، عند نزول منحدر يقدر بقرابة مائة قدم أو أكثر يعد عملية مزعجة يتعين المرور بها، ومع ذلك فإن حيواناتنا غير الرشيقة، قاومت بعزم وإصرار خطًا أو مسارًا منحرفًا عــبر سطح هذا المنحدر، وكانت أقدامها تغوص فى الرمل مع كل خطوة تخطوها، وتنثر سحبًا من الرمل عندما تسحب أرجلها.

الخيل لا تستطيع المشى فى هذه الرمال الجنوبية، حتى وإن أتينا بها إلى هذه القفار الخالية من الماء والتى هى بمثابة أراضٍ حدودية، كما أن هذه القفار الحدودية يتعذر تمامًا السير فيها باستخدام السيارة.

عادت علينا هذه المشقة ببعض التعويضات - كنا نُفاجأ فى بعض اللحظات بصورة شديدة الروعة، عبارة عن رقعة هائلة منمقة، رائعة اللون، وبخاصة اللون الوردى القديم، ومن فوقها سماء صافية خالية من الغيوم وضوء ساطع لامع. وهذه الصورة نجد مثيلاً لها فى يوم من أيام الشتاء فى سويسرا - كنا نستشعر استسلام التربة من تحت أقدامنا ومتعة كبيرة فى الهواء الذى يحيط بنا ويداعبنا.

أخيرًا وبعد أن اجتزنا منظومة الكثبان الرملية التى يطلقون عليها اسم ثروب ابن أمانى، والتى يقولون عنها إنها النقطة التى تمثل منتصف الطريق بين الماء الحلو فى خور الضاحية وثقب الماء المالغ، الذى يسمونه ابن حمودة ويقع فى الشمال الشرقى، أصبح مسيرنا هينًا لينًا، لأننا غيرنا مسارنا واتجهنا شمالاً إلى رقع طويلة من الأرض على امتداد الوديان الرملية التى تتجه، فى هذه المنطقة، إلى ناحية الشرق، فيما بين الكثبان الرملية العتيدة.

وقُبيل غروب الشمس نودى بعمل وقفة.

صاحت جماعتى ونحن نقوم بتجميع الإبل "هذا هو خور الضاحية!" جريت إلى مقدمة التل الموجود أمامى، وخبَّأت نفسى، ونظرت إلى الوادى الرملى الكبير الذى يمتد فى الاتجاه الشمالى الشرقى والاتجاه الجنوبى الغربى، ويصل عرضه

فى هذه المنطقة إلى قرابة الميل. كانت فى مجرى هذا الوادى، الذى يقع على مسافة ثلاثمائة ميل فى الأسفل، رقعة خضراء من الأرض التى كنا نبتغى الوصول إليها، حيث يوجد ثقب الماء الشهير، الذى كان مفترضًا أن ألتقى عنده الشيخ صالح ومعه مجموعة جديدة من الإبل فى اليوم الرابع من الشهر القمرى. كان يومنا هذا مصادفًا لليوم الخامس من الشهر، وهذا يعنى أنى وصلت متأخرًا يومًا عن الموعد المحدد، لكنى لم أرَ أية دلائل على وجود صالح أو جماعته- لم أرَ سوى فراغات صامتة لا شىء فيها.

ومن باب الحرص توقفنا فترة قصيرة انتظارًا لدخول الماء، وكانت تلك الوقفة القصيرة فى مراعٍ مبعثرة، وفى هذه الأثناء أخذ اثنان من جماعتنا قريتيهما وراحا يعدوان فى الحال؛ سالكين تحويلة واسعة بغية الوصول إلى الوادى لاستطلاع الأرض.

راقبت من خلال نظارتى المُكبِّرة شكليهما الصغيرين وهما إلى جوار ثقب الماء، وكنت أتساءل فيما بينى وبين نفسى عن احتمال وجود عدو كامن فى ذلك المكان أو على مقربة منه. لكنهما بعد أن فتشا المنطقة واستطلعاها استطلاعًا جيدًا، عادا إلينا غير خائفين، فى الوقت الذى كنت أنتظر فيه أخبارهما على مضض، وكنت ألاحظ من خلال نظارتى المكبرة أن شكليهما يكبران وهما يتسلقان الرمال إلى أن غربت الشمس وأرخى الليل سدوله علينا. كانت الأخبار طيبة وسيئة فى آنٍ واحد. لم يرْتوِ مؤخرًا صديق أو عدو من هذا الثقب، وكانت آثار أقدامهما الموجودة منذ يومين لاتزال كما هى بلا تغيير؛ كان مبارك، مرافق الشيخ صالح لم يَزُر ثقب الماء هذا إلا بالأمس فقط، والله أعلم!، وإنهما سوف يُطْلعاننى على أثر أقدامه فى صباح الغد.

كان عشاء عيد الميلاد مكونًا من حساء مجفف، مطهى بماء الضاحية، الذى لا يحتاج إلى شىء من الملح أو الفلفل، بالإضافة إلى علبة من علب الفاصوليا المطبوخة التى كنت أحملها معى للمناسبات الخاصة- وهذا بحد ذاته طعام احتفائى بعد مسير دام تسع ساعات متعبة لم أتناول خلالها طعامًا صلبًا، جاءت وجبة الظهيرة بمثابة نوع من الترف الذى لم أعوِّد نفسى عليه مطلقًا. كانت مسألة الصياح وطلب وقفة طويلة عند الظهر أمرًا لابد منه - ذلك أن القاعدة

الحياتية فى قلب الصحراء القاحلة الجرداء تحتِّم الانتقال السريع من مرعى إلى مرعى آخر. وعوضًا عن ذلك كنت أحمل معى قارورة من حليب الإبل، بالإضافة إلى تعيين يومى من أقراص حليب الإبل المجفف، يضاف إلى ذلك أن الوقفات القصيرة التى كنا نقفها حتى تتمكن الإبل من الرعى لبعض الوقت، أو لإعطاء الفرصة للبدو لأداء الصلاة، كان ذلك كله يهيئ لى فرصة إطفاء ظمئى.

الوقفات فى الصحراء تكون وبحق فى صالح الإبل. هذه الحيوانات المسكينة التى يبدأ المترحل باحتقارها ثم يتعلم الإعجاب بها كثيرًا، هى الوسيلة التى يتحرك بواسطتها طلبًا للنجاح أو الفرار بها حفاظًا على حياته. وهنا يجب ألا يغيب عنا أن صاحب الجمل فى الأماكن القاحلة الجرداء البعيدة يموت إذا ماتت ناقته. من هنا فإن الاهتمام الذى كان يُولِيه رفاقى لإبلهم، كان أمرًا يسترعى الانتباه، وفى أغلب الأحيان كنت أجد نفسى الشخص الوحيد، من بين أفراد جماعتى، الذى يركب راحلته، فى حين كان باقى أفراد الجماعة يمشون ساعاتٍ طوالاً بغية تخفيف أحمال مطاياهم، كما كانوا يجرون هنا وهناك لجمع قبضات من العشب الغض الذى تحبه الإبل، كيما يطعموا بها إبلهم أثناء المسير.

كانت إبلنا متعبة. يكفى النظر إلى سنام جمل من الإبل، الذى يبدأ كبيرًا وممتلئًا حتى نقف على القصة كاملة. هذا من منطلق أن سنام الجمل هو بمثابة البارومتر الذى نقيس به الحال التى عليها الجمل؛ إبلنا بدأت بسنامات ممتلئة تدهورت بعد ذلك تدهورًا سريعًا وبائسًا، كنا نتوقع حدوث ذلك بعد رحلة مدتها ثمانية أيام وهى تنوء بأحمالها عبر هذه الصحراء الجرداء الخالية من الماء، فى منطقة الحدود الجنوبية.

استيقظنا فى ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالى. اقتاد البدو إبلهم نازلين بها على أفضل نحو ممكن، وكانوا يتغنون فرحًا بالماء المنتظر الذى تنتظره الإبل على أحَرِّ من الجمر، وبمقاييس لا تعيها سوى هذه الحيوانات. أما أنا فكنت أسير على قدمَىَّ، تحاشيًا للمسارات الوعرة فى المنحدرات الرملية الناعمة المنزلقة، ومتحاشيًا أيضًا منظر الإبل وحركاتها الأكروباتية، وهى تحمل على ظهورها أجهزة القياس الثمينة. وسط ضوضاء تنمُّ عن الفرح ولم يسبق أن سمعناها من

قبل فى أية مرة من المرات. هذا الثقب الذى لا يزيد قطره على ياردة واحدة، كانت توجد على حوافِّه كومة من الوحل الجديد أصفر اللون، الذى كان يمثل المخلفات التى رفعها، فى البداية، واحد من البدو، كان قد سبق الجماعة كيما يقوم بتنظيف الثقب. وعندما نظرت فى الثقب رأيت عربيًا واقفًا فى الثقب وفى الماء الذى يغطى ركبتيه، ويقوم بملء دلاء الجلد التى كان السُّقاة يناولونه إياها، وعلى مقربة من الثقب كان هناك رجل من الكدابين يتناول دلوًا بعد آخر ويرفعه إلى شفتَىْ حيوانه العطشان، وهو يتحدث معه طول الوقت، إلى أن رفعت الناقة رأسها وكشفت بطنها عن أنها أخذت بغيتها من الماء، وهنا يروح ذلك الرجل يدلل الناقة بسكب الماء المتبقى على عنقها، أو بقذف الدلو فى الهواء ليمسك به من جديد قبل سقوطه على الأرض(١).

تُرى، أين كان الشيخ صالح هو والإبل المنتظرة؟ أمضيت يومًا من القلق فى التساؤل، لكن كلثوت، ولد الشيخ صالح، كان لديه تفسير لما يحدث. قال كلثوت: إن خور الضاحية ليس مكانًا صحيحًا، لأن السعارين وبعض الغزاة من حضرموت يعرفون هذا الخور حق المعرفة، يضاف إلى ذلك، وعلى حد ما أراه أمامى، فإن الخور ليس به مرعى على الإطلاق.

كنا فى ساعة متأخرة من عصر اليوم الذى غادرنا فيه ثقب الماء. وغربت الشمس علينا ونحن فوق سطح رملى مرتفع، فيه مرعى كثيف من الزهار والعبالة، وبذلك يكون مرعى طيبًا فى واقع الأمر؛ وقالوا لى أيضًا إن هناك أيضًا مراعى أخرى أجود من هذا المرعى، تنتظرنا؛ وعليه لابد أن يكون الشيخ صالح فى واحدة من هذه المراعى. وعليه بكّرنا تحركنا فى صبيحة اليوم التالى. قامت الجماعة باستطلاع الرمال المجاورة لنا بحثًا عن أثر أقدام الشيخ صالح، وهنا انطلقت تعبيرات الشكر له. شاركتهم هذا المرح الصادر عن قلوبهم، نظرًا لأن أثر قدمَىْ حماد بن حادى كان من بين آثار الإقدام التى جرى العثور عليها؛ حماد بن حادى هذا واحد من أبناء قبيلة المرة الذى أتى الشيخ صالح على ذكره وزكّاه

---

(١) بلغنى أن الناس هنا يستعملون الجبس المحلى فى عمل غدران الماء فى فصل الصيف، حول ثقوب الماء.

للقيام بتحقيق ذلك الذى أريده أنا، وذلك إذا ما أفلحنا فى إقناعه بأن يكون مرشدًا ومرافقًا لنا. عثرنا على آثار لإبل كثيرة أخرى، قرابة عشرين من الإبل، وهذا بحد ذاته اكتشاف مشجع والسبب فى ذلك أن حيواناتنا المرهقة والمتعبة بعد مسيرها الاضطرارى إلى ظفار ثم العودة، كان لا يمكن لها أن تتحرك وهى تحمل أحمالاً ثقيلة مدة ثلاثة أيام أخرى، دون أن تنال قسطًا من الراحة.

قال رجالى: "اسمع، أيها الصاحب الأمر على النحو التالى" وراحوا يشيرون إلى أثر قدم بدا لى مثل آثار الأقدام الأخرى. "هذا هو أثر قدم ناقة الشيخ صالح" لقد كان يتولى القيادة فى هذه المنطقة. إن ناقته عُشار. انظر إلى مدى عمق الأثر الناجم عن الناقة؛ أدهشتنى دقة الوصف لأولئك الذين كانوا يسبقوننا، وأدهشتنى أيضًا تلك السهولة التى يقرأ بها هؤلاء البشر آثار الأقدام التى تابعناها. وأنا عندما أقارن ذلك بنظريات بصمات الأصابع السائدة فى الغرب، أرى أن هذه النظريات شديدة البطء ومجهدة من الناحية الفنية.

"الرمل عبارة عن مفكرة يومية عامة، إلى حد أن من يجرى فى هذه الرمال يستطيع أن يقص أثر كل المخلوقات التى تمشى فيها حافية الأقدام. لم يكن كل رفيق من رفاقى قادرًا، ومن أول وهلة، على قص أثر كل أقدام الإبل والبشر التابعين لقافلتى، وإنما هو قادر أيضًا على قص أثر إبل قبيلته، وقص أثر الكثير من إبل أعدائه. هذا يعنى أن كل طائر يطير، وكل حيوان، بل وكل حشرة من الحشرات تترك تاريخها على الرمال، ويبقى ذلك السجل إلى أن تهب ريح حاملة معها رمالاً ناعمة تُمحى بها هذه الآثار. والأفاعى هى والأرانب البرية، وكذلك ثعالب الصحراء، وكذلك العديد أيضًا من السحالى تقضى على نفسها عندما تخلف وراءها آثار أقدامها؛ هذا يعنى أن الجحور التى تختفى فيها هذه المخلوقات، لا طائل من ورائها".

هنا بدأت آثار الأقدام الصديقة تصبح مرشدًا لنا، واقتادتنا بزوايا قائمة إلى مسارنا القديم فى الاتجاه الشمالى الشرقى، عبر كثبان رملية وعرة، وهنا بدأت قراءات جهاز قياس الارتفاع (الآنرويد) فى الانخفاض بصورة متدرجة. وعندما صعدنا إلى قمم التلال الرملية رحت أستطلع بشوق كبير الأماكن المحيطة بنا

بحثًا عن مخيم الشيخ صالح. وحدث فجأة نوع من المرح والدغدغة المرحة عندما بدت لنا البقع السوداء، وحددت لى هدفنا المبتغى. ياله من مشهد مفعم بالترحاب! الذى أوحى لى بأن توحيد قوتنا سوف يقلل بل ويشفينا من التوتر الذى كابدناه فى مسيرات القلق التى قمنا بها مؤخرًا، يزاد على ذلك، وهذا هو ما تمنيت، أن مُضيًّنا قُدُمًا فى الرمال سوف يصبح أمرًا ممكنًا وهيّنًا.

الفصل الرابع عشر

نُبْذة جغرافية عن الرَّبْع الخالى

قد يكون من المناسب هنا، وعلى حساب قطع سياق الرواية على امتداد بضع صفحات قلائل، وبخاصة فى هذه المنطقة التى أُغادر عندها منطقة الرمال، أن ألفت انتباه القارئ إلى خريطتى، ولعله يتفكر بطريقة موجزة فى شكل هذه الرمال بصفة عامة وفى شكل الربع الخالى بصفة خاصة.

كل المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية، والتى يحدُّها خط طول ٤٦° درجة شمالى خط الطول العشرين الموازى له، ويحدها خط طول ٤٨° درجة من ناحية الجنوب، اللهم باستثناء شريط ساحلى ضيق، تحمل، على خرائطنا، اسم الربع الخالى، هذا الاسم العربى أحزننى إلى حد ما أنه لا ينطبق على هذه المنطقة؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم لا يعرفه فقط سوى العرب الذين يقرءُون ويكتبون، أى الذين تعلموا الجغرافيا من الكتب الدراسية، لكن القبائل التى تعيش فى الربع الخالى لا تستعمل هذا المصطلح ولا تفهمه بمدلوله الجغرافى.

يتكون الربع الخالى من صحراء، يشكل القسمان الشرقى والجنوبى منها ما يقرب من ثلث المساحة كلها، وهذان القسمان عبارة عن أراضٍ سهوبية، كما هو الحال فى سهوب السيح فى الشمال، وجدَّة حراسيس فى الجنوب؛ وسكان هذا الجزء يطلقون على منطقة الرمال اسم "الرمل" أو "الرمال" والقبائل تتمركز بشكل كبير داخل حدود واسعة، ولذلك فهم يطلقون أسماء محددة على أماكن معينة من الرمال. ولذلك نجد منطقة من مناطق السهوب تشتق اسمها من اسم

القبيلة التى تعيش فيها، لكن الأكثر شيوعًا هو أن تشتق مثل هذه المنطقة اسمها من اسم الوادى الموجود فيها(١).

لقد أُثبِتَ أن الحافة الجنوبية تقدر بقرابة مائتَىْ ميل، إنها تمتد موازية للساحل الجنوبى من الجزيرة العربية من موجشين إلى شمال حضرموت، وإنها تنحدر من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق.

الحافة الشرقية لهذه الرمال تمتد من الشمال إلى الشمال الشرقى من موجشين، لمسير أربعة أيام، إلى قرن السُّهامة؛ ومن قرن السهامة تتجه شمالاً وتسير، بصورة تقريبية، مع خط طول ٥٥° درجة و ٤٠° دقيقة، لمدة يوم تقريبًا لتصل إلى غربى إبرى، وتطوِّق الجانب الغربى من جبل حافت، وتمتد من هناك على شكل حافة بارزة تنصِّف شبه الجزيرة العُمانية.

يُقال أن منظومة جبال عروق الضاحية الجبسية، داخل حدول الرمال، تشكل حدوة فرس كبيرة، يرتكز الجزء الرئيس منها على الحدود الجنوبية الرئيسة فى أقاليم أم غريب، خرخير، عروق الضاحية، منيور ثم رجعات؛ يزاد على ذلك أن الذراع الغربى لهذه المنظومة الجبلية يسير مع خط طول ٤٩° درجة إلى أن يصل إلى دائرة العرض ٢٠ درجة شمالاً، وبذلك يطوق أو يحتضن مناطق جعاميات، الحوية وشويكيله:

ولكن الذراع الشرقى لهذه المنظومة يسير مع خط طول ٥٣° درجة شرقًا، ليصل على وجه التقريب إلى دائرة عرض ٢٢° درجة و ٣٠ دقيقة شمالاً، ضامًا بذلك عروق ميجورة، طاميشة، شيبة وماريخا.

ونحن نجد داخل حدوة الفرس هذه القبائل التى تسكن منطقة الرمال الكبيرة مثل: (١) قبيلة المُرَّة، (٢) ونرى أيضًا بطنًا من بطون قبيلة الرشيد، وبطنًا من قبيلة إيمانى اللتين تنتميان إلى الكثارين، وذلك إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من

(١) الكلمة العربية "وادى" يقول لها الإنجليز valley لكن أهل الربع الخالى يعنون بكلمة "الوادى" "المجرى المائى الجاف" والبدو يستعملون هذه الكلمة بدون مدلولها الطبوغرافى، وإنما هى عندهم مصطلح يدل على "المرعى". وعلى سبيل المثال، فإن مصطلح "الوادى الكبير" (هناك تذكار مغربى لذلك الوادى فى الموروث الإسبانى) يعنى بالإنجليزية the big valley، وهو يعنى عند العامة وأيضًا فى اللغة العامية "المراعى الجيدة" ولا يعنى بالضرورة: وادٍ ضخم أو مجرى مائى ضخم.

الجنوب الأوسط، (٣) ونرى أيضًا العوامير والمناصير (على نطاق محدود جدًا) إذا ما اقتربنا من هذه المنطقة من الشمال الشرقى.

وخارج حدوة الفرس هذه، وفيما بين حدوة الفرس والسهب، نجد الرمال الحدودية التى تستعملها بطون معينة من قبائل السهوب، فى مواسم محددة. وفى شمال هذه المنطقة نجد قبائل البو شميس، دروع، الحراسيس، الأفار: وفى الجنوب نجد بيت الكثارين، المناهيل، العوامير (العناصر الجنوبية من العوامير)، السعارين، والكرابين، لكنهم فى أغلب الأحيان يعيشون على بعد مسافة آمنة من ثقوب الماء (١).

تشكل قراءات الارتفاع، التى سجلتها أجهزة القياس التى كانت معى طوال مساراتى الأربعة، قرابة ألفَىْ ميل فى الشمال، الجنوب الشرقى، الوسط الجنوبى، ووسط الربيع الخالى، تشكل هذه القراءات هى والاتجاهات التى سجلتها لمجارى الوديان (سواء التى لاحظتها أم التى تأكدت منها من المعلومات العربية)، الوسائل التى تؤكد انحدار هذا الجزء من قارة الجزيرة العربية.

يجب أن ننوه هنا إلى أن المنظر العام للجزيرة العربية الذى يرتفع فجأة فى الجانب الغربى فى البحر الأحمر وفى جروف صدع البحر الميت لينحدر بصورة متدرجة فى اتجاه الشرق، وبخاصة فى سهول العراق ومياه الخليج الفارسى، لا يمتد إلى الربيع الخالى. هنا فى الربيع الخالى نجد أن الأرض ترتفع بصورة مفاجئة فى ثلاثة اتجاهات: الشمال الشرقى، سلسلة جبال حجار فى عُمان؛ فى الجنوب الأوسط، حيث توجد منظومة ظفار؛ وفى الجنوب الغربى، حيث توجد جبال حضرموت ونَجْران. وهذه المستويات المختلفة تشير إلى الخليج الفارسى وإلى سواحل البحر العربى فى الجانب الشرقى من الصحراء. من هنا نجد أن إنحدار الرمال إلى الخليج الفارسى يتضح من هذه المنطقة: وهذا يحتِّم وجود منخفَض فى وسط الجنوب الشرقى.

جاءت ارتفاعات الحافة الشرقية للرمال على النحو التالى بصورة تقريبية: قدرت أجهزة القياس ارتفاع الحافة البارزة الشمالية التى عبرتها فى العام ١٩٢٦

(١) هناك جزيرة رملية منعزلة فى شرقى مثلث جعلان التى هى موطن قبيلة جال وهيبة.

بقرابة ١٢٠٠ قدم. وفى اتجاه الغرب من جبل حافيت قدرت الأجهزة الارتفاع بقرابة ١٠٠٠ قدم. وهنا يجب الإشارة إلى أن السير بيرسى كوكس سجل ارتفاع إبرى Ibri على أنه ١٦٠٠ قدم، ويترتب على ذلك أن حافة الرمال عند دائرة العرض هذه، وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارنا الانحدار الجنوبى لوادى العين الموجود فى هذه المنطقة، لابد وأن تكون منخفضة انخفاضًا كبيرًا. كان ارتفاع الرمال فى موجشين يقدر بقرابة ٤٠٠ قدم. ومن ذلك كله يمكن أن نخلُص إلى أن الحافة الشرقية للرمال تنحدر من الشمال إلى الجنوب.

يوجد شرقى هذه الحافة الشرقية للرمال، سهب يرتفع ارتفاعًا متدرجًا فى اتجاه الشمال الشرقى إلى أن يصل إلى سلسلة جبال الحجار العظيمة التى هى بمثابة العمود الفقرى العُمانى؛ ومن هذا المكان نجد وديان الصرف مثل: وادى العين، الوادى الأسود، وادى العميرى، وكذلك وادى المُسَلَّم تشق لنفسها مسارات متوازية متجهة إلى الجنوب الغربى لتختفى فى نهاية المطاف فى الحدود الشرقية للرمال. ويوجد فى الجنوب الشرقى من موجشين سهب آخر لا يمكن تمييز انحداره لكن الناس هنا يقولون: إن هذا السَّهب تحدُّه من الناحية الشمالية الشرقية سلسلة جبل حُقف المعزولة. ويقولون أيضًا إن هذا السهب تحده من الناحية الجنوبية الشرقية وديان: قادان (غودون؟)، رونيب، جيتام (عبرت مصبات هذه الوديان عند مستوى سطح البحر فى العام ١٩٢٨ الميلادى) وتتجه هذه الوديان إلى الجنوب الشرقى إلى خليج سوكيرا.

ويجب الانتباه أيضًا إلى أن جَدَّة الحراسيس تستقبل عند جانبها الجنوبى الغربى منظومة وادى عاره، التى هى بمثابة منظومة الصرف الداخلية للامتداد الشمالى لجبل سمحان. ومن المكان الذى عبرت منه هذه المنظومة فى الرحلة السابقة التى قمت بها إلى هذا المكان، وجدت رءُوس هذا الوادى تمتد فى اتجاه الشمال الشرقى، وقد تراوحت قراءات جهاز قياس الارتفاع (الآنرويد) بين ١١٠٠ قدم شرقًا و١٤٠٠ قدم غربًا. وفى اتجاه الشرق من جبل حُقُف، نجد أن الواديين الكبيرين الوحيدين: جالفين وأندام، ينحرفان مبتعدين عن شرقى حجار العمانية، ويتجهان جنوبيًا، فى بعض أجزائهما ليصرفا مياههما فى خليج مسيره.

هذا يعنى أن هناك منطقة منخفضة عند الطرف الجنوبى الشرقى للرمال العظيمة، وإن هذا المنخفض يشكل ممرًا يمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى، كما يمتد أيضًا من ساحل خليج سوكيره Sauqira مخترقًا جَدَّة حراسيس ومنها إلى الرمال، ونحن نرجح أن يكون ذلك عند خط طول ٥٤° درجة شرقًا إلى خط طول ٥٥° درجة شرقًا، وعند دائرة عرض ٢٠° درجة شمالاً إلى دائرة عرض ٢٢° درجة شمالاً. وفى داخل هذا الممر نجد أن الماء يصل إلى السطح عند كل من موجشين وحميدان. وشمالى هذا الممر نجد أن الانحدار العام يتجه نحو الأعلى فى الناحيتين: الشمالية والشرقية، وفى الناحية الجنوبية من هذا الممر نجد أنه يرتفع متجهًا صوب الجنوب والغرب.

يزاد على ذلك، أن وجود الرمال الصحراوية المتحركة على الجانب الشمالى من هذا الممر، أى فى المنطقة التى يلتقى عندها هذا الممر منطقة الرمال الكبيرة، يعد مسألة ذات أهمية جغرافية كبيرة. والناس هنا يقولون إن المسافة إلى أم السميم، وهو الاسم الذى يطلقه الناس على هذه المنطقة، تقدر بمسير يومين فى كل الاتجاهات. ومن حيث الشكل نجد أن أم السميم هذه عبارة عن سهل ملحى، كما أنها لا تعطى المترحل الحَذِر أية إشارة إلى مستنقعاتها الخادعة. لقد لقى الكثيرون حتفهم فى هذه المستنقعات الخادعة؛ والناس هنا يقولون إن بعضًا فقط من بدو الدَّاروع Daru ، الذين يأتون إلى هنا لأخذ الملح، هم الوحيدون القادرون على مجابهة الممرات السرية فى هذه المستنقعات، ومجابهة الغزاة، على نحو يجعل الناس يتحاشون هذه المستنقعات ويبتعدون عنها.

وهذا هو فون ڤيريد، ذلك الجندى الباڤارى الحظيظ الذى اخترق حضرموت متنكرًا فى زى مسلم فى العام ١٨٢٤، قد سجل ظاهرة مماثلة، أطلق على مكانها اسم البحر الصافى. لقد قصد ذلك الرجل رقعة من تلك الرقع بيضاء اللون، وكان مسلحًا بشاغول وإن شئت فقل: فادون، طوله قرابة ست قامات أى قرابة ست وثلاثين قدمًا. "وبحرص بالغ اقتربت من الحدود لفحص الرمل، الذى وجدته عبارة عن مسحوق لا يُحَسُّ به عند اللمس، ثم قذفت الشاغول إلى أبعد مسافة ممكنة؛ وغاص الشاغول فى الحال، كانت الكثافة آخذة فى التناقص، وفى غضون

خمس دقائق كان طرف حبل الشاغول قد اختفى تمامًا فى جوف ذلك القبر الذى يبتلع كل شىء".

وأنا، إذا كنت لا أريد الطعن فى مصداقية ما ذكره فون فيريد، فإنى يتعين علىَّ أن أسجل هنا أن السواد الأعظم من الرفاق الذين صحبونى فى رحلاتى، سبق لهم القيام بعمليات غزو فى الرمال الواقعة شمالى حضرموت، والواقع يقول: إن المرافقين الكدابين الذين كانوا معى، هم أصلاً من هذه المنطقة، ولا أحد منهم سمع أو يعرف شيئًا عن ذلك البحر الصافى، وقد أكدوا جميعهم أن الرمال المتحركة سالفة الذكر موجودة، هذه الأيام، فى أم السميم فقط، وإنها تقع فى المسافة فيما بين الرمل والسَّهب الموجود فى شمال وشرق موجشين وجنوب وغرب عبرى. وقد حكى لى الكثيرون من البدو العمانيين هم وآخرون عن الرمال المتحركة فى أم السميم.

الفصل الخامس عشر

عبور رمال دكاكا: إبل المرحلة الثانية

"حيًّا بوصولكم، أيها الصاحب!

مرحبا وحيًّا بيكم".

هذه هى تحية الصحراء التى استقبلنى بها الشيخ صالح وأنا مُنتشٍ فرحًا فوق ناقتى وعلى بعد مسافة فى مقدمة جماعتى، وكلنا يستهدف الوصول إلى المخيم الجديد، وعليه قمت بتبريك ناقتى، التى يطلقون عليها الاسم قرينها، وقفزت نازلاً من فوق ظهرها للمرة الأخيرة، لكى أصافح يد الشيخ صالح الممدودة إلىَّ. كان بصحبة الشيخ صالح رجل أنا أعرفه - هو محمد العجوز المتين الذى رافقنى فى الرحلة التى قمت بها فى العامْ الماضى. هذان الاثنان وحدهما؛ أما باقى جماعة البدو الغرباء فكانوا ينظرون إلىَّ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة التقدم للقائى، وهنا أحسست شيئًا من البرود فى الجو المحيط بنا، الذى كان ينذر بالشر إلى ما كنت أخطط له، تُرى أهكذا ستكون نهاية رحلتى؟ هل لن يسمحوا لى بمواصلة تقدمى لاستكمال رحلتى؟

لكن عندما استقرأت جماعتى هذه الوجوه الباردة، بدت على وجوههم تعبيرات الشفقة والطيبة والحنان، وهنا هب الرجال واقفين للقاء أهليهم القادمين ويحيونهم بطريقة لقاء البدو للبدو. هذه القبلة التى تُطبع على الأنف(١).

---

(١) تحل قبلة الأنف بين رجال الصحراء، محل المصافحة وهذه المسألة متبعة عند بيت الكثارين الذين يعيشون عند سفوح الجبال، وهى لا تحدث إلا بعد انفصال يدوم خمسة أو ستة أيام، لكنها قد =

هى أيضًا قبلة العاشقين- وحسبما رأيته فهى مكونة من ثلاث حركات يتماس خلالها الاثنان، فى الوقت الذى يضع فيه كل من المتباوسين يده اليمنى على الكتف اليسرى.

وتشكلت على الفور دائرة من العرب الجالسين القرفصاء، وهنا طلبت وضع ثلاثة أطباق من التمر وسط هذه الدائرة كما أمرت أيضًا بتصليح القهوة وتوزيعها على الحاضرين، راح البدو الجدد ينظرون إلىَّ فى صمت، الأمر الذى ولَّد فى داخلى إحساسًا بأنى قد عُرف وزنى عندما بدأ البدو الجدد يتحدثون بأصوات خفيضة عن اليمين وعن الشمال، مع أعضاء جماعتى القديمة. احتسى أعضاء جماعتى القديمة القهوة والتمر واستخفوا بهما أثناء الدور الأول من احتساء القهوة - لأن هذا يعد شيئًا غير عادى عند أولئك الذين كانوا يصرون على الفوالة أثناء السير، وانشرح صدرى عندما وجدت فى الربع الخالى أن مبدأ "التمسك بالعائلة" يجرى تطبيقه فى هذا المكان. حظيت الأشياء التى قدمناها بالترحيب الذى يقال فى مثل هذه المناسبات الرسمية وكانت لا تزال هناك بقية كبيرة من هذا الترحيب عندما جاء دورى، ورحت أمد أصابعى فى طبق التمر، وعندها قلت:

"مرحبًا وأهلاً يا حيَّاكم".

وهنا قام سيف العجوز، الشيخ الشرعْى للقبيلة، لكنه من فرع خائر القوى(١) من أفرع القبيلة (الأمر الذى ترتب عليه أن يصبح بيت كيلوت، الذى ليس من سلالة الشيوخ من ناحية الذكور، لكنهم أصحاب عزيمة، وشجاعة، هو صاحب السيادة) بخلع جبخانته (حزام الذخيرة) وألقى بها وسط الدائرة. وكانت تلك

= تحدث فى كثير من الأحيان؛ وهنا بين بدو الرمال يحيون بعضهم بهذه التحية حتى ولو كان الانفصال ليوم واحد فقط. وعند المهارين، سكان السهوب، وعلى الرغم من أنهم قبيلة بدوية، نجد الناس يحيون بعضهم بتحية غريبة لا تستعمل إلا فيما بينهم، وهم لا يستعملون قبلة الأنف، وإنما يطبعون ثلاث قبلات على الخد، تبدأ بالخد الأيمن، ثم الخد الأيسر، ثم الأيمن من جديد.

(١) إذا ما استبعدنا بيت الإيمانى من قبيلة الرشيد (ويقال أن بيت الإيمانى استقلت حاليًا بنفسها)، فإن القبيلة ستصبح مكونة من قسمين؛ هما: المتعاربة والسعادنة، وإن الشيخ سيف كان رئيسًا لبيت الشياخة.

دعوة من سيف إلى أفراد جماعتى الذين أكسبتهم زيارتهم للساحل، وكذلك أعمال الصيد التى قاموا بها أثناء المسيرة، قاموا بوضع بضع طلقات قليلة من الذخيرة لكل واحد منهم، تعبيرًا عن كرمهم مع هذا الشيخ الفخرى. وهنا بدأ أفراد الجماعة الواحد بعد الآخر، يلقون طلقة على ذلك الحزام، وبعد أن انتهوا من ذلك كان سيف قد أصبح مالكًا لعشر طلقات من طلقات الذخيرة.

لم يخذلنى الشيخ صالح. فقد جاء الرجل وبصحبته رجل أراد أن يقدمه، وكان الرجل يمشى مشية البدو ممسكًا بيد الشيخ صالح.

"هذا شيخ حَمَد، أيها الصاحب! شيخ قبيلة المُرَّة (والأفضل لك أن يكون لك أصدقاء وتزيدهم فى الصحراء، وذلك على الرغم من أن هذا الوصف لم يحظ بانتباه كبير)(١). وليس فى الرمال كلها مرشد أفضل من حمد بن هادى، وليس هناك محارب أفضل منه، ولا صياد أمهر منه، ولا وفيًا أوفى منه، وأنا أُشهد الله على ما أقول، وقد تزوج ابنى من ابنته؛ وليس هناك من يعرف المراعى وثقوب الماء أفضل من حمد؛ وهو يعرف الطريق عبر الرمال وهو موافق على أن يكون هو المرافق لنا".

كان حمد رجلاً متوسط الحجم صاحب بشرة دَكْناء وعينين ماكرتين ووجه أرمنى شبيه بوجه الصقر، ولحية كثيفة، وصوت سريع ينمُّ عن أن الرجل أكثر حيوية من الشيخ صالح، ولكن هذا الوجه لا يوحى بالثقة منذ الوهلة الأولى. ساكن الصحراء، شأنه شأن الطفل والحيوان، يتحتم الاقتراب منه ببطء شديد جدًا وحرص بالغ، وعليه فإن حمد، الذى لم يسبق له رؤية رجل بلونى، أو سمع صوتًا مثل لكنتى، يمكن أن يصيبه الشك والارتياب؛ وعليه قررت فيما بينى وبين نفسى أن أفضل السياسات مع هذا الرجل هو التمهل فى تناول المسائل. وعليه كان لقائى الأول بهذا الرجل هو تناول القهوة والحديث الودى عن الصيد؛ وبالمثل جاء اللقاء الثانى قويًا عندما قدمت هدية، عبارة عن غطاء رأس لولده.

---

(١) كان حمد شيخًا للحثالين، الذين هم فرع غير رئيس ن الغفيران، الذين هم من قبيلة المرة.

سألنى صالح فى اليوم التالى، "ما رأيك فى حمد؟".

"تقصد الرجل نفسه"؟.

جشع البدو يُضرب به المثل، "ألم أقل ذلك لك؟ لكنه يود شيئًا كثيرًا، أيها الصاحب!" لكنى أنا والشيخ صالح كنا قطعنا على بعضنا البعض، وعدًا قبل أن نغادر الساحل، والرجل الآن، يراعى الشروط التى اتفقنا عليها وراح يقنع حمد بقبول الشروط التى اعتبرناها عادلة.

وهنا أصبحت الجماعة الجديدة، بحكم قلة عددها، أكثر ودًا معى. لم يكن العداء الذى استشعرته فى البداية سوى تجهم محلى من جانب هؤلاء البدو: واقع الأمر أن هؤلاء البدو جاءوا إلى هنا بصحبة الشيخ صالح لتنفيذ ما أبتغيه، كانت الخطة التى وضعتها تقضى أن يقوم هؤلاء البدو بنقلى غربًا عبر رمال دكاكا إلى ثقب الماء فى شنَّاه Shanna . وإنى عندما أصل إلى هذا المكان سوف أتخلى عنهم وأستأجر مجموعة أخرى، أو بالأحرى مجموعة ثالثة، وإن هذه المجموعة الثالثة ستكون أقل منهم عددًا من حيث الرجال والإبل، وأن الشيخ صالح سوف يسبقنا لانتقاء أفراد وحيوانات هذه الجماعة الثالثة، لمقابلتى بعد عشرة أيام بمشيئة الله، وعليه لم يصادف أحد منا عدوًا من الأعداء.

كانت الرمال الجنوبية المركزية فى دكاكا بمثابة المفتاح من مشكلة الرحلة التى أقوم بها، والسبب فى ذلك أن هذه الرمال حظيت فى العام الماضى باستقبال الأمطار ولذلك أنعم الله عليها بمراعٍ وفيرة وغزيرة، الأمر الذى أدى إلى تركز القطعان فى هذا المكان. وقد أدى ذلك إلى تسهيل أمر مجىء جماعة كبيرة محملة بقراب مليئة بالحليب، إلينا على الساحل؛ وهنا أكون قد أصبح لى رفيق يصحبنى فى ترحالى؛ وهنا أيضًا يكون قد توافرت لى جماعة ترافقنى إلى الدخول فى أعمال هذه الرمال، كيما نقوم بقفزة فى ذلك المجهول. لو كانت دكاكا بحد ذاتها جوعانة، ولو كانت أمطار العام الماضى لم تسقط هنا وسقطت بالتحديد فى الشمال الشرقى، لجاءت تجمعات الإبل فى أماكن أبعد من هذا المكان ولأثر ذلك على منظومة المجموعات التى كنت أتطلع من خلالها وحدها، إلى عبور الصحراء على شكل مراحل سريعة حاملاً معى أدواتى العلمية.

كان يوم دفع الأجور والأتعاب يومًا عامرًا بالإثارة والانفعال، والسبب فى ذلك أن البدوى الذى يُستأجر للقيام بعمل ما، يتحول إلى شخص بالغ الصعوبة، ويصعب إرضاؤه عندما نريد الاستغناء عنه. كان الأجر الذى اتفقنا عليه هو خمسين دولارًا للرجل هو وجمله، وأربعين دولارًا لحيوان الحمل أو النقل؛ وإن هذا البدوى حصل على نصف هذا المبلغ فى ظفار، مقدمًا، وهو الآن يتلقى أو يتسلم القسم الثانى، الأمر الذى ترتب عليه أن أصبحت طاولة المخيم. تتلألأ بدولارات ماريا تريزا (كان كل دولار من هذه الدولارات يساوى شلنًا واحدًا وأربعة بنسات)، وهذه هى العملة الوحيدة التى يعرفها أهل هذه الرمال، وأن هذه المسألة لم تكن دائمة الحدوث. كان رنين الفضة، ذلك الصوت نادر الحدوث فى دكاكا، مرافقًا حتميًا لوضع كومات من الدولارات عدد البعض منها عشرون دولارًا، والبعض الآخر خمسة وعشرون دولارًا، وذلك بغية أن يَسهِّل ذلك علىَّ مسألة دفع أجور هؤلاء البدو، وعليه تعين علىَّ وضع كومات عديدة فى يد كل واحد من هؤلاء البدو عندما يصل إلىَّ. كنت أنا بنفسى أقوم بعَدٍّ هذه الكومات دون مساعدة من مضيِّفى. راح كل واحد من هؤلاء البدو يعد، ثم يعد نصيبه من جديد، وراح كل واحد منهم يرفع رأسه مناديًا أن كومته تنقص دولارًا أو دولارين. وهذا واحد من رفاقى يأخذ المبلغ من يده ويروح يعده ثم يعيد عَدَّه المرة بعد الأخرى على شكل خمسات، لأن هذه العملية ترضيه فى نهاية المطاف. كانت طريقتى فى العد ٦، ٧، ٨، إلخ ، أى عدًا متسلسلاً، بل إنى كنت لا أهتم بمسألة العد هذه مطلقًا، ولذلك كانت تبدو مُحَيِّرة لهم. كانوا يعدون نقودهم ١، ٢، ٣، ٤، ٥ ثم يبدءون من جديد من الرقم ١- وهذا درس يوضح اهتمام البشر بالمنظومة العشرية، وبعد ساعة من الزمان أصبحت طاولتى خالية تمامًا؛ هذا يعنى أن كل اسم من الأسماء التى كانت على قائمة مستحقات المرافقين لى، قد وضعت أمامه علامة تفيد حصول صاحب ذلك الاسم على مستحقاته؛ وبعد ذلك بساعتين كنت أهنئ نفسى بمرور يوم تقاضى المستحقات بسلام دون تعكير للصفو، وفجأة حدث صياح عالٍ؛ لقد حدثت غوغاء كبيرة وجلبة كثيرة، وبدا لى الأمر كما لو أن جماعتى القديمة، الذين كانت تربطنى بهم علاقة شديدة الود والحميمية، كانوا يودون تعكير صفو ذلك الصفاء بمشاجرة فى يوم الافتراق، بدا لى وكأنهم كانوا قد فرضوا دينًا

متبادلاً عندما كنا فى ظفار، يزاد على ذلك أن الصبر على هذه العقليات من الناحية الحسابية وفى الحوار أيضًا، لم يكن يرضيهم؛ ومن هنا جاء كلامهم الساخن وتهديدهم بجعل الخنجر هو الحَكَم النهائى والشريف. وعاد السلام مرة ثانية عندما قام الشيخ صالح بجمع كل هذه المدفوعات مرة ثانية ووضعها فوق غُطْرته التى وضعها فوق الرمل، ليقوم هو بنفسه بإعادة التوزيع مرة ثانية. وبذلك بدأت أرى أن الجهد الذى بذلته أنا منذ الصباح، صار هباءً.

ساد السلام والهدوء فى نهاية المطاف - لكنهم لم يكونوا راضين، لأنهم قالوا، إنهم يودون تعيينات، فكيف لهم بالعودة إلى مَوَاطنهم بحيواناتهم التى أوشك حليبها على النضوب بسبب الإجهاد الذى أصابها؟ هذا يعنى أن هذه الحيوانات يمكن أن تنفُق فى الطريق. وهنا بدت لى مطالب هؤلاء البدو على إنها ثلاثة أضعاف احتياجاتهم الحقيقية، وأنهم كانوا يستشعرون أن رمضان أصبح قاب قوسين أو أدنى وإن الصيام أثناء النهار يحتم السفر أثناء الليل. كان هناك بدو آخرون، لا ينتمون إلى جماعتى، تجمعوا أيضًا من حولى وكانوا يتخيلون فى دواخلهم أمرًا غير قابل للتحقيق. وسبب ذلك، أنى لم يعد أمامى سوى ستة أسابيع وأن ما معى من تعيينات لابد وأن يكون كافيًا لتغطية هذه المدة الزمنية. وهذا يعنى أيضًا أن التصرف فى هذه التعيينات يمكن أن يصيبنى بالفشل. لقد تحسَّبت طوال المسيرة لهذه المسألة تحسبًا شديدًا؛ وكانت تلك هى المسألة التى تثير غضبى عندما كنت أرى أو أستشعر أن هناك من يريد الخروج عليها، لأنى كنت أعلم علم اليقين أن انتهاء التعيينات يعنى انتهاء الترحال. وقد جرت العادة أن تساق نياق الحليب إلى المراعى بأقصى سرعة ممكنة؛ علمًا بأن هذا لا يحدث عند القيام بالغزو أو فى المسيرات الاضطرارية، التى تحتم الجرى بهذه النياق أو إجهادها. وعليه فإن الصحراء الشاسعة التى أمامى، هى والإبل التى لا تعطى حليبًا، يمكن أن يجعل من هذه الحيوانات لحمًا لراكبى الإبل الأخرى؛ وأن ذلك يمكن أن يكون سببًا من أسباب إزهاق الحياة.

هذا يعنى أن المخيم يتحتم تقويضه فى أسرع وقت؛ نظرًا لأن طول بقائى فى هذا المكان سوف يجعل جماعتى القديمة هى وجياع الرمال الجائلين يحاولون

العيش على حسابى؛ وعليه وبدلاً من الطعام أمكن صرف أفراد الجماعة وجعلهم يروحون لحال سبيلهم، عن طريق إعطاء كل واحد منهم ثلاثة دولارات. هذه المعاملة نفسها اتبعتها مع صاحب الناقة جرينها Gerainha ؛ لما كانت هذه الناقة حيوانًا صَبُورًا، فقد حملتنى من جبال القراوين، فإنها ستعود مرة ثانية إلى موطنها فى سهوب الجنوب. وقيل إن صاحبة هذه الناقة هى أجمل جميلات تلك المنطقة، أى أنها واحدة من البنات اللاتى أتعبن قلوب الكثيرين من المرافقين لى؛ واقع الأمر، أن هذه الناقة كانت هى موضوع الحدوتة التى سوف تسمع عنها صاحبتها فى الوقت المناسب بعد أن تحدد مصيرها. كانت صاحبة هذه الناقة فى التاسعة عشرة من عمرها، وكانت عزباء، وهذه حالة لا يمكن أن تحدث فى الجزيرة العربية التى تبيح التعدد، يضاف إلى ذلك، أن والدها ابن أكسيت، كان كل أصدقائه يلومونه على حماقته.

كان هؤلاء الأصدقاء يقولون على سبيل السخرية: "لماذا لم يوافق والدها على زواجها من صاحب؟ فهو شاب وقوى، ولعله ينظر إلى دولاراته، ولِمَ لا، سيصبح بوسعك شراء كل إبل الربّع الخالى"(١). ومن وراء ظهر الرجل، كان هؤلاء الأصدقاء يتهمونه بالبخل، لأنه كان ثريًا ويملك خمسة عشر جملاً، ولما لم يكن له أقارب من الذكور، فإن ابنته سترث كل ما عنده، وهذا بحد ذاته جعلها أكثر جاذبية فى عينَىّ كل من يراها.

---

(١) مسألة مهر العروس هذه هى شأن خاص بوالدها. مهر العروس هذا عند بيت الكثارين الذين يسكنون الجبال، يتراوح بين عشرين دولارًا وثلاثمائة دولار، وهذا يرجع إلى أسرتها، وجمالها وثروتها، لكن نصف هذا المهر يذهب لوالد العروس، ويجرى توزيع النصف الآخر على أقارب العروس. ولقد صادفت أنا مهرًا مقداره مائتا دولار (وهذا يُعلى من قدر العروس على السلم الاجتماعى) وجاء تقسيم المهر على النحو التالى: النصف (للوالد)، أى مائة دولار، ثلاثون دولارًا للأخ؛ الأم عشرون دولارًا؛ الأخت لا شىء؛ العم عشرون دولارًا؛ الخال عشرة دولارات؛ العمة خمسة دولارات؛ الخالة أربعة دولارات؛ الجدة من ناحية الأم ثلاثة دولارات، الغير، أربعة دولارات.

تحصل الأرملة أو المطلقة على مهرها كاملاً.

فى عمان يدفع العريس نصف المهر مقدمًا لوالد العروس، وباقى المهر يجرى دفعه على أقساط بعد الزواج، فهذا هو حق العروس نظير مصاغها، والفراش.

سألته ذات يوم، وأنا متعصب، وهو ما يجب أن يتحمله البدوى من رجل ليس بدويًا، "كم تريد مهرًا لها؟".

أجابنى "ثلاثة جمال. لماذا، لقد عادت ابنة علىّ على والدها بثلاثة من الإبل، وما وجه المقارنة بين ابنة على وابنتى؟ الكل يعرفون إنها تساوى هذا المهر، لكن لم يتقدم أحد لى بأكثر من جملين، وعليه لن أوافق وهى راضية عن البقاء معى".

حدث ذلك قبل أسبوعين. رأيت بعد ذلك ابن أسكيت هو ومعيوف وهما يجلسان حول نار المخيم بطريقة مبالغ فيها، وكانا ينسحبان بين الحين والآخر عن حلقة الجالسين ليدخلا فى حديث سرى وودى، وكان القيل والقال بعد رحيل الناقة جرينها Gerainha ؛ يدور حول أن معيوف كان هو الرجل الحظيظ الذى فاز بتلك الفتاة.

يتحقق هذا الحديث الخاص عن طريق قيام شخصين بالابتعاد عن الحلقة التى يجلس فيها الرفاق، ويبتعدان مسافة قرابة خمسين خطوة تقريبًا عن بقية رفاقهم، ولكن هذه المسافة لا تكفى لجعلهما فى مأمن من تعدى رفاقهما على خصوصيتهما. ومن المهم هنا أن نلاحظ أن شخصًا ثالثًا ينهض واقفًا وبدلاً من الجلوس ضمن حلقة الرفاق يتجه إلى الرفيقين ويُقْرِئهما السلام ويجلس معهما- فى شىء من التملُّق يوحى بأنه مهتم بحديثهما؛ ومن ثَمَّ يقوم بالجلوس معهما. هناك تواصل اجتماعى كبير بين هولاء البدو، فهم يعيشون فى ترحالهم مثلما يعيشون فى العراء، هؤلاء البدو دائمًا متلاصقون طلبًا للحماية المتبادلة من العدو المشترك، هذا يعنى أن هذه الأُلفة، وهذه القوة الدافعة التى تحثهم على التصرف بدون حساسية مفرطة تجاه الآخرين، أمران متأصلان فى هؤلاء البدو، والأوروبى الذى يود الترحال سعيدًا مع هؤلاء البدو لابد أن يكون لديه الاستعداد للتكيف مع معايير هؤلاء البدو. فى واحدة من المرات، على سبيل المثال، نظر واحد من الكثارين إلى طبق الحليب الموضوع بجانبى، وتناوله وأتى على كل ما فيه من حليب؛ صحيح أن ذلك الذى شربه هذا الكثيرى، كان عبارة عن حثالة ورواسب الحليب، لكن الأوروبى يتحتم عليه فى مثل هذا الموقف التعبير عن استيائه. يزاد

على ذلك أن أحاديثى الحميمة مع الشيخ صالح كانت دوماً عرضة للمقاطعة، ذلك أن واحدًا من أفراد الجماعة عندما كان يرانا من بعد، وبحكم فضوله الشديد الذى لا يستطيع مقاومته، كان يبادر بتحيتنا تحية قلبية ودية، ويجلس "بلا استئذان"؛ ليسمع كل ما نتحدث عنه.

وبعد أن خفضت عدد جماعتى إلى عشرين رجلاً فقط، كانوا كلهم غرباء علىّ، استأنفنا مسيرنا فى اتجاه الغرب، ولم نصادف أى نوع من المخيمات فى طريقنا. ظننت أن القسم الأكبر من قبيلة الرشيد كانوا يرعون ماشيتهم وإبلهم فى الشمال، وحتَّم ذلك علىَّ الهروب من إصرارهم وإلحاحهم على تناول الطعام، وحتَّم ذلك علىَّ أيضًا تحاشى النتائج المترتبة على المعارضة الدينية من قِبل بعض المتطرفين منهم؛ بسبب وجودى فى الأرض المقدسة التى يعيش عليها المؤمنون.

تمثل اليوم الأول فى مسيرة قصيرة- وكانت الإبل الجديدة، غير المدربة، تُعْرب عن استيائها من الأحمال الثقيلة غير المعتادة، وكان أصحاب هذه الإبل يتشاجرون فيما بينهم عن مسألة عدم المساواة فى الأحمال. كان سَرْج الجمل (عدة) وهو من النوع البيكانى، محط استياء وعدم موافقة الجميع بسبب حجمه. من ناحية ووزنه من ناحية أخرى، الأمر الذى أدى إلى إعطائى جملاً جديدًا أركبه كل يوم.

كانت الرمال فى هذا الجزء من دكاكا أكثر اعتدالاً إلى حد ما وأقل تنفيرًا من جبال ووديان عروق الضاحية، التى تشكل عقبة مبالغًا فيها فى مسألة العبور لهذه الجبال والوديان التى على شكل حرف T فى اللغة الإنجليزية. كان التكوين الرئيس عبارة عن رمل صلب أحمر اللون، وسط تموجات رملية هائلة، مثل بحر هائج ومضطرب فى كثير من الأحيان. كانت تصادفنا بين الحين والآخر تلال رملية لونها أكثر شحوبًا من التلال المحيطة بها (لكن ارتفاعات هذه التلال أو الجبال الصغيرة كانت تقل على امتداد مسيرنا)، وكانت تلك التلال صلبة فى بعض الأحيان، وفى أحيان أخرى على شكل حدوة الفرس- والناس هنا يطلقون عليها اسم الهجنة، وهى تلال عجيبة الشكل بحق، ويبدو أن هذه التلال أو الجبال الصغيرة تنتج عن الحركة المنعكسة للريح، والمنخفضات التى بين هذه التلال أو الجبال الصغيرة تكون فى معظم الأحيان عبارة عن بقعة من الجبس، وغالبًا ما تكون هذه البقعة مكانًا لثقب من ثقوب الماء.



(السير في داكا)

لم تكن هذه التلال مفتقرة إلى الماء العذب، وهذا قياسًا على مياه الرمال الأخرى، ورحنا نتجول الهوينا وسط هذه المراعى الجيدة، الأمر الذى مكَّننى بل هيأ لى فرصة جمع العينات والأنواع الحيوانية والتقاط الصور على نحو أفضل من المسيرات الطويلة التى قمنا بها مؤخرًا، وكانت مصطبغة بالعصبية عندما كان يتعين علىَّ إهمال هذه الأمور. واقع الأمر أننا رحنا نتسكع فى الوقت الذى ذهب فيه ابن كايلوت وبن حام يستطلعان المنطقة المحيطة بنا.

كان العضو المهم فى جماعتى الجديدة هو حمد بن هادى، الذى زاد احترامى له على مر الأيام. كان رفاقه يولونه احترامًا كبيرًا، لأنه أثبت أنه ولد أبيه، ذلك الرجل المِرِّى المعروف فى سائر أنحاء الرمال، والذى قتل ثمانية رجال من المنافسين له فى قبيلة المناصير، على امتداد حياته، ووافته المنيَّة وهو فى سن وقورة، هذا بالإضافة إلى بئر الهادى غزيرة الماء، التى تعد واحدة من ثقوب المياه الكثيرة التى حفرها هذا الرجل الوقور. كان برفقة حمد ابن أخيه مرزوق، الذى كان يقوم بدور المؤذن طوال المسيرة، وكان بصحبته أيضًا واحد من أبناء عمه يدعى حمد أيضًا، لكنه كان صاحب مزاج غير مستقر، وقد رأيته أول مرة، وهو يتدلى من أنفه خيطان (مما يوحى بسماعة طبيب فيها منخران لفتحتَى الأذن) ومسألة سد فتحتى الأنف، أو المنخرين، بالقطن أمر شائع فى سائر أنحاء الجزيرة العربية وبلاد فارس، وذلك من باب التحوط للروائح الشريرة التى يقال أنها تساعد على تفاقم الأمراض. كان واضحًا أن حمد يعانى التهابَ العين، الذى عزاه هذا الرجل إلى الروح الشريرة، التى يطلق الناس عليها هنا اسم الزار. حضرت جلسة من جلسات طرد هذه الروح الشريرة ذات مساء، فهذا طقس بسيط إذا ما قارنَّاه بالطقوس الدقيقة التى تجرى ممارَستها فى القرى الساحلية العمانية[١]، لكنها لها نفس الطابع ولا ينقصها شىء من العروض المسعورة التى يقوم بها من تتملكه هذه الروح. لكن الفروق الرئيسة التى بين هذا وذاك تتمثل فى أن سكان الصحراء لم يكونوا من النساء، وإنما هم من الرجال الذين لا يلعبون دورًا هستيريًا فى هذه العمليات:

---

(١) راجع الملحق رقم ٦ حيث توجد هذه الأغنية.

يضاف إلى ذلك أن رئيس الاحتفالات رجل وليس امرأة؛ كما أن النار تستعمل بدلاً من الدم.

سجد حمد المريض أمام النار وسط حلقة من الرفاق الجالسين القرفصاء، فى حين أجْلس محمد بن شغيله، رئيس الطقوس، الاحتفالات، نفسه بجوار حمد، وقد وُضِعَتْ فيما بينهما كأس أو كوب ملىء بالنار. وهنا قام واحد أو اثنان من الجماعة بإحضار أوعية الطبخ، وبذلك يكون المسرح قد اكتمل.

خلع حمد غطاء رأسه، وطواه مرة واحدة بطريقة موروبة، وراح ليستعمله استعمال الشال والقناع، وهو ممسك بطرفَى غطاء الرأس بذراعيه المفرودتين.

راح حمد يتنطط ويلوى جسمه شمالاً ويمينًا، بينما كان رفاقه يغنون من حوله، ويصفقون بأيديهم، ويطبلون بأصابعهم على أوانى الطبخ المقلوبة. وهنا راح ذلك الذى تملَّكه الزار ببذل المزيد من الحركات العصبية فى تحركاته مع مرور الدقائق، وهو ينحنى على النار بطريقة عشوائية، إلى حد أنه كاد أن يسقط على النار مرات كثيرة لولا تنبه ذلك الشخص الذى كان يجلس إلى جواره، وكان يمسك بعكازه الموضوع أمامه؛ وكان ذلك الجالس يمسك بالكوب الملىء بالنار ويضعه تحت قناعه ويروح يتشمم الكوب الذى بداخله النار كما لو كان مبخرة، وكان ذلك العمل يدفعه إلى المزيد من النشاط المحموم، سار الحال على هذا المنوال إلى أن أصبح متهدجًا ومرتعشًا، وتلبَّسته حالة هستيرية. انقضت ساعة ونحن فى هذا المشهد؛ وهنا بدأ دور رئيس الطقوس (الاحتفالات). كانت لدى هذا الرئيس أسئلة كثيرة راح يطرحها على الزار (الذى كان يتكلم من خلال فم المريض)، لكن الزار كان يشاركنى الرأى أن مسألة طرد الأرواح عملية قصيرة جدًا، أو هكذا بدت بسبب التوانى أو التأخر فى الإجابة عن الأسئلة فى بداية الأمر.

رئيس الطقوس: "هل أنت آفيره؟".

الزار: (لا إجابة).

رئيس الطقوس: "هل أنت جن؟".

الزار: (لا إجابة).



(صورة طبق الأصل لرمال دكاكا)

جوقة من البدو: "هو زار بطبيعة الحال. ألم يُقل حمد إن ذلك هو سيف "شبخور؟"(١).

ظل محمد يتمايل يمينًا ويسارًا، ويهذى بكلام غير مفهوم. وهنا يسكت رئيس الطقوس لفترة قصيرة.

البدو: "واصل، يا محمد!".

رئيس الطقوس: "هل تريد منى نقودًا؟".

الزار: (أخيرًا على استحياء): "حلق".

رئيس الطقوس: "هل لابد من وجود حجر فى هذا الحلق؟".

الزار: "حلق".

جوقة من البدو إلى رئيس الطقوس: "لا تسأل أسئلة لا داعى لها".

رئيس الطقوس للبدو: "من الذى معه حلق؟".

رحل معيوف بممتلكه البسيط، الذى قام رئيس الطقوس بوضعه فى كوب النار ثم وضعه بعد ذلك فى إصبع من أصابع حمد، وظل رئيس الطقوس ممسكًا بيد حمد وهو يطرح عليه سؤاله الأخير.

رئيس الطقوس: "هل ستزيل الشر عن العين؟".

الزار: "نعم".

رئيس الطقوس: "ليس هنا شر غير ذلك الشر الموجود فى عينك؟".

الزار: "لا".

رئيس الطقوس: "أقسم إنك ستزيل هذا الشر".

الزار: "إيه، إيه".

رئيس الطقوس: "أقسم بيمين القبيلى".

الزار: "فى وجهك".

---

(١) هناك زارات كثيرة. وهذا واحد من الزارات شديدة الشهرة.

رئيس الطقوس: "شريد" لقد هرب.

وبذلك تكون الطقوس قد انتهت، ونهض المصاب وذهب مترنحًا منصرفًا إلى أريكته الرملية لقضاء الليل.

غادرنا مخيمنا الذى كان يقع شمالى ثقب الماء الموجود فى بل آشوس وتحركنا غربًا إلى أن وصلنا متأخرين ساعتين إلى تل، جبل صغير يشبه حدوة الفرس يطلقون عليه اسم حُلَيِّل، وهنا وجدنا الرمال الحمراء وقد اكتست بصورة غير متوقعة بشجيرات الأبالا ذات اللون الأخضر الأدكن. كان اليوم مصادفًا لعيد رأس السنة- ذلك العيد الذى لا يقره البدو ولا يعترفون به (واقع الأمر، إنه لم يكن من بين أفراد الجماعة سوى اثنين فقط من الرَّشادين هما اللذان يعرفان أيام الأسبوع)- ومع ذلك، شرح المكان صدورنا جميعًا بسبب مراعيه الكَثَّة، إلى حد أنى قررت التوقف لتمضية النهار فى الصيد. لحق بى حمد، الذى خضع فى الليلة السابقة لعملية طرد الأرواح عن طريق الزار، وأنا أنزل من فوق دابتى. لم تكن عينا حامد أحسن حالاً عما كانتا عليه بالأمس، وذلك على الرغم من أنه حاول إقناعى وهو يشير إلى الخيطين النازلين من فتحتَى الأنف، ويقول إنه رفعهما وأصبح يعلقهما حول عنقه، لكنه كان يحتفظ بهما، على حد ملاحظتى تحوطًا لما يمكن أن يحدث، ربما يكون حمد من جيل حديث يؤمن بمسألة الشفاء العقدى، ذلك أن الناس يقولون إن قبيلة المُرَّة لا تمارس السحر اللهم باستثناء الجماعات الجنوبية المعزولة من هذه القبيلة، والتى تعلمت السحر من الرَّشادين، الذين يعم بينهم استعمال السحر مع كل قبيلة من قبائل السهوب الجنوبية.

أنهيت الجزء المتبقى من النهار وبندقيتى تحت إبطى، وكنت أدور حول المخيم مسافة تتردد بين ميلين وثلاثة أميال، لكن الذى أدهشنى هو عدم عثورى على آثار أقدام حيوان أكبر من الأرنب البرى، وسبب ذلك، أنه على الرغم من مسيرات الجوع فى أراضى الحدود الجنوبية، فقد مررنا وعثرنا على آثار أقدام الوعول

والثعالب وكان ذلك يحدث بصفة يومية. يزاد على ذلك أن مسألة التعرف على آثار أقدام الحيوانات أصبحت مسألة سهلة، وسرعان ما تعرفت بدون جهد كبير على آثار أقدام الحيوانات البرية التى تعيش فى هذه الرمال كما تعرفت أيضًا على وجه التقريب الوقت الذى حدثت فيه آثار الأقدام هذه، كانت دكاكا قد اجتاحها الأرنب البرى الذهبى، إلى حد أن كل شجيرة كانت فيها إشارات تدل على جُحْر جرى حفره مؤخرًا أسفل هذه الشجيرة. وجرت العادة أن يقوم البدو الذين يمرون على هذه الجحور، بإدخال أذرعهم داخلها ليخرجوها وقد أمسكت بذلك المخلوق الضعيف، فى حين كنا نحن فى معظم الأحيان نتجسس على أرنب نائم فى ظل وارف ونقترب منه تمامًا فوق الرمال الناعمة التى لا يصدر عنها أى نوع من الضوضاء.

بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، وسرعان ما تجاوزنا تلَّين كبيرين على شكل حدوة الفرس وكانا بمثابة علامة على ثقبتى الماء فى كل من مشرومة وضُرِيِّبَة، كنت أنا وحمد المرافق نسبق باقى أفراد الجَماعة، ولكن حمد توقف فجأة، وثبَّت ناظريه على شىء بعيد؛ ومد يده ناحيتى طالبًا نظَّارتى المكبرة. نزلنا من فوق دابتينا فى الوقت الذى كان حمد يشير إلى التل الذى أثار مخاوفه، وأشَّر لى يطلب منى أن أثبت فى مكانى، وراح يقترب من ذلك الشىء الغريب، ساترًا نفسه بانثناءات الرمال. ثم عاد إلىَّ بعد أن تأكد أن ذلك الشىء الذى كان يخشاه كان عبارة عن رابية ولم يكن عدوًا.

يبدو أن حمد كان رجلاً مشهورًا. كان حمد شهيرًا بالغزو الذى يقوم به على انفراد فى بعض الأحيان، على بلاد السَّعارين؛ واقع الأمر أن حمد أهدر دمًا سعارينيًا، ولذلك لم يكن ذلك الرجل يتوقع لنفسه البقاء فى اللقاء الذى تلى ذلك مع جماعة من السَّعارين الأكبر من جماعته عددًا؛ جاء هذا اللقاء هو والثأر الذى بينه وبين المناصير سببًا من أسباب توليد الكثير من المخاوف الشيطانية فى

داخل هذا الرجل. كان حمد يتوقف مرات ومرات عندما يقوم باستطلاع الآفاق مستخدمًا فى ذلك نظارتى المكبرة؛ يضاف إلى ذلك أننا عندما كنا نتوقف لقضاء الليل، كان حمد يرجع إلى الوراء مرة ثانية ليتتبع أثرنا لبضعة أميال مخافة أن يكون أحد الأعداء يلاحقنا، وكان يعود من هذه العملية بعد دخول الليل مباشرة، وهو الوقت الذى يصعب فيه اقتفاء الأثر، ليقول لنا إن نيران المخيم يمكن لنا أن نشبَّها الآن.

قيل لنا أن ثقب مياه وريقة موجود إلى جوارنا مباشرة فى اتجاه الشمال، وعرفنا أيضًا أن المبعوثَيْن الأصليين اللذيْن أوفدناهما من ظفار للتشاور مع قبيلتهما قد عثرا على القبيلة[1]. وفى وريقة وجد المبعوثان قطعان القبيلة ترعى فى هذا المكان.

تربية الإبل فى هذه البيئة هى بمثابة الحياة المحتومة التى يتعين على كل طفل ذَكَر أن يولد من أجلها. هذا الطفل هو طفيل هذه البيئة: حليب الإبل يكاد يكون طعام هذا الطفل وشرابه، ووبر هذه الإبل هو ملبسه وملجؤه. الحياة فى هذه البيئة هى الطلب على المراعى الخضراء، والمطر هبة من عند الله تعالى، وأن التنوير هو ركيزة ذلك الإنسان إلى النار. الإنسان فى هذه البيئة لا يعرف شيئًا عن العالم الخارجى المتغير؛ ولا يعرف شيئًا عن قيام الممالك وسقوطها؛ ولا يدرك شيئًا عن القوى الروحية التى تعمل لصالح الإنسان- "الاعتراضات على العلم المزعوم" ولا يعرف شيئًا عن المنظومات البذيئة التى تعمل على الحط من شأن

(١) الطريق الذى سلكه هذان المبعوثان مهم لأنه يوضح الخط المحتمل الذى سار عليه الرشايدة أثناء انسحابهم أمام السعارين، هذا يعنى أن مبعوثَىَّ تحركا فى اتجاه الشمال الشرقى على امتداد أم الحياة، وأنهما عبرا رمال أم ضرته إلى رمال أم غانم، حيث تزودا بالماء فى كل من خسفة وأبلوتان، وانطلقا من هذا المكان فى اتجاه الشمال الغربى عبر التجاويف الرملية وجبال ميموره الرملية ليصلا إلى رمال حباك، وتزودا بالماء من زوغين، التى انطلقا منها فى اتجاه الجنوب الغربى ليصلا إلى ثقب الماء فى فيضه، وواصلا السير عبر رمال دكاكا إلى مسقى وريقة.

الإنسان؛ لا يدرك أيضًا اختلاف واختلاط الأعراق، أو الألسنة والطبقات. كل هذه الأمور لا معنى لها عند ساكن هذه البيئة، وعليه فهى لا وجود لها عنده. هذا يعنى أن ساكن هذه البيئة يعيش الحياة البدائية التى عاشها آباؤه على امتداد عشرة آلاف عام، وأبناء هذا الإنسان الذى يعيش فى هذه البيئة سوف يعيشون فترة مماثلة. ساكن هذه البيئة يُنكر أسلوب حياة الاستقرار الناعمة؛ دستور ساكن هذه البيئة لا يعرف سوى الوحشية القاسية مع أعدائه، وحياة هذا الساكن مع أصدقائه لا تعرف سوى الشجاعة البشرية بقممها وأعماقها والمعجونة بحليب الحنان البشرى.

المراعى[1] والماء: هما الاحتياجان الأساسيان اللازمان لحياة البدوى المترحل. تحتل المراعى فى فصل الشتاء المقام الأول؛ نظرًا لأن القطعان لا تحتاج الماء فى كثير من الأحيان- هذا يعنى أن القطعان لا تحتاج الماء إلا مرة واحدة كل عشرين يومًا؛ وفى الأماكن التى يسفر فيها سقوط المطر عن مراعٍ كثيفة، قد لا تحتاج القطعان إلى الماء على امتداد شهرين لا يذوق البدوى الماء خلالهما مطلقًا، ويعيش معتمدًا اعتمادًا كليًا على حليب هذه النياق.

على الجانب الآخر، وفى فصل الصيف(*) وعندما تجعل الحرارة الشديدة الرمال شيئًا لا يطاق، نجد أن قطعان الإبل يقتصر وجودها على دائرة لا يزيد

(١) الكلمة الإنجليزية Pastures يقولون لها بالعربية "مرعى" و "أكل"، لكن قبيلة الرشيد تقول "للمرعى" "معاش" (بلغتهم). البدو يعدون أغصان وأوراق شجر السنط سمر، أفضل علف للإبل، وهذا العلف موجود فى السهوب الجبلية على ارتفاع يزيد على ١٢٠٠ قدم. يجىء علف الأبالة فى المرتبة الثانية بعد العلف السابق، وبعد الأبالة يجىء علف الجيس الذى يظهر بعد سقوط المطر أو الندى. هناك أيضا علف الضوعية وعلف الضاعوت، وهما من نباتات السهوب، ويأتى علف المرخ، الذى يوجد فيما بين السهب والرمل، ويأتى بعد ذلك علف النياق الذى هو نوع من أشجار السنط، وأخيرًا علف السليم (الذى يعرف محليًا باسم "الحرضاى")، هناك أعلاف أخرى غير هذه الأعلاف لكن هذه هى الأعلاف المهمة فى الصحراء الجنوبية.

(*) يقال أن بعضًا من جماعات قبيلة المُرَّة، يأتون بين الحين والآخر لقضاء فصل الصيف فى دكاكا بسبب مائها الحلو.

قطرها على مسير يومين عن ثقب الماء؛ نظرًا لأن هذه الإبل تكون بحاجة إلى السقيا يوميًا(*) وفى الأماكن الموجودة على ارتفاعات أكبر من هذا الارتفاع، ووسط المراعى الدائمة فى السهوب الجنوبية المواجهة للجبال، نجد أصحاب الإبل يُدخلونها فى الكهوف أثناء النهار هربًا من حرارة الشمس، ويخرجونها للرعى أثناء الليل فى الجو البرَاد. وفى مثل هذه الظروف نجد أن سقيا الإبل تحدث كل أربعة أيام أو ستة.

يتحتم على الإنسان ساكن الرمال أن يكون دائم التنقل. هذا الإنسان يتنقل فى الليل فى فصل الصيف، ويكون مثل هذا التنقل مباشرًا، وعلى شكل مسيرة مباشرة من ثقب ماء إلى ثقب آخر يكون مجاورًا للمراعى، وفى فصل الشتاء، عندما يصبح الماء مسألة غير مُلحَّة، وحيث يقوم البدو بالرعى فى المراعى حيثما وُجدت، يكون التنقل أثناء النهار، ويبقى البدو فى كل مرعى من تلك المراعى مدة يومين أو ثلاثة؛ هذا يعنى أن القطعان تتحرك ببطء عبر الفراغات الكبيرة على شكل دورة لا تنتهى. وجماعات الاستطلاع هى التى تحدد اتجاه المسيرة؛ وتتكون جماعات الاستطلاع من رجلين (ويسمونها "طوف")، راكبين ويتميزان بالسرعة، وأن يكونا على مسافة بعيدة من المسيرة. وفى فصل الشتاء نجد أن مهمة الاستطلاع هذه قد تستمر أسابيع عدة، ويعيش هذان الرجلان على الحليب الذى سبق أن جهَّزاه فى قربتيهما قبل بداية رحلتهما الاستطلاعية(١).

تشكل حرارة الصيف الشديدة عذابًا وألمًا شديدًا لهؤلاء البدو، نظرًا لأن هذه الحرارة الشديدة تجعل من النوم شيئًا مستحيلاً عند هؤلاء البشر عندما

(*) يطلق البدو، فى معظم الأحيان، اسم الشواريب على الإبل التى يسقونها بين الحين والآخر. الإبل التى تبعد عن الماء لفترات طويلة يسمونها: الجوازى (واحده "جازى"، عند المره، وتسمى "النواش" (واحده "وناش") عند قبيلة الرشيد.

(١) بعد الأيام القلائل الأولى، يجرى بطبيعة الحال استعمال كتل اللبن المجفف، عندما تكون المسيرات طويلة، حيث يجرى إذابة كتل اللبن المجفف فى الماء المالح.

تشرق الشمس، يضاف إلى ذلك أن الليل لا يتيح لهم سوى القليل من النوم، نظرًا لأنهم يتحتم عليهم حماية إبلهم عن طريق حراستها وهم ركوب أثناء الليل. هذا يعنى أن مهمة هؤلاء البدو هى مهمة شرف وكرامة، وإنهم يوكلون هذه المهمة إلى مرشدين أجواد ولا يعولون كثيرًا على المدة التى يستهلكون خلالها قراب الحليب التى يحملونها معهم، إلى حد أنهم قد يعودون متأخرين يومًا أو يومين وهم صائمون. وهذا هو الشيخ صالح ومعه مرافقون كثيرون من البدو المرافقين لى فى رحلتى، مروا جميعًا بتجارب كثيرة من هذا القبيل. وهنا أجدنى مندهشًا بعض الشىء من أذهان هؤلاء البشر التى تصور لهم أن الحليب (وحده هو الذى يجعل حياتهم ممكنة)، ولذلك فهم يفضلون الحليب على اللحوم بمختلف أنواعها. وهم يقولون: إن النبى أكد على ذلك ولعلنا نتنبه إلى الحوار التالى الذى دار بين النبى (ﷺ)، وواحد من رفاقه عائد من عزيمة:

النبى: "ما الذى قُدِّم لك؟".

الرفيق: "قدموا لنا لحم الإبل".

النبى: "هل ذبح مُضيفك لك".

الرفيق: "قُدِّم لنا الأرز أيضًا".

النبى: "أكرمك مُضيفك".

الرفيق: "قدم لى تمرًا".

النبى: "لقد أرضاك".

الرفيق: "قدم لنا أيضًا حليب الإبل".

النبى: "آه ! كفى، لقد أولمك!".

واصلنا فى اليوم الرابع مسيرنا فى اتجاه الغرب فى اتجاه حجنة الخضافيَّة، ذلك الجبل الكبير الذى كنا نراه من مخيمنا أثناء الليل، وتجاوزنا هذا الجبل خلال نصف ساعة، رأينا فى التجويف الذى يطوقه خَطًا من الجبس، ويواجه الجنوب الغربى - كما هو الحال فى الجبال التى على شكل حدوة الفرس- مجموعة من الملاذات الشمسية المُشيَّدة من القش والمجاورة لثقب الماء، وهذه أشياء غير عادية، وجرت العادة ألا نعثر على مثل هذه الإنشاءات فى الرمال.

يبدو أن هذه الملاذات الشمسية، ربما كانت تذكارات لسقيا الصيف. قفز حمد نازلاً من فوق ناقته، كما هى عادة البدو، دون أن يقوم بتبريكها، وأسْلم حَكمتها إلى ابن أخيه، أثناء مرورنا على ثقب الماء هذا، وبادر حمد إلى النزول إلى التجويف بحثًا عن آثار فى السقيا لغزاة محتملين. لحق بنا حمد بعد ذلك ومعه خبر مفاده أن كل شىء على ما يرام، اللهم باستثناء أثر ناقة بِنْ حام (وهو واحد من الجماعة التى استغنيت عنها مؤخرًا، وهو الآن فى طريقه إلى الحوية فى مهمة لتجنيد بعض الأفراد) التى توضح أنه مر بثقب الماء هذا قبل ثلاثة أيام. واصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا متأخرين ثلاث ساعات إلى ثقب ماء شنَّه Shanna، الذى كان هدفنا المباشر. فر حرس مقدمتنا المكون من رجلين، من ثقب الماء وهما يصيحان بصوت عال "قوم! قوم! محمد بن مبارك الكرابى! محمد بن قويد السَّعارى!" (هذان الاسمان لاثنين من الغزاة الحضارمة شديدى البأس بينهما ثأر وبين المرافقين لى) - قام حمد، الذى رافقته إلى ثقب الماء، بفحص الرمال المحيطة بالثقب وكذلك المجرى الجبسى المحيط بهذا الثقب، ثم نظر إلى الأعلى مبتسمًا وواثقًا بنفسه. ربما كانت محاولة الاستغفال هذه تهدف إلى مداعبة الرجل أو لتشجيعى على التفريط، على غير رغبة منى، فى القليل من حصيلتى من الذخيرة، أو ربما جاءت هذه المحاولة على سبيل الفكاهة والاستظراف. لقد نجحت، فى نهاية المطاف،

محاولة الاستغفال هذه، على الرغم من أنها ذكَّرتنى بأننا لا نزال مكشوفين ومعرضين للغزو؛ واقع الأمر، أن حمد من ذلك الوقت فصاعدًا راح يقترض نظارتى المكبِّرة ويتجه إلى أطول الجبال، وكان ذلك آخر ما رأيته من ذلك الرجل إلى أن عاد إلينا عند صلاة العشاء.

الفصل السادس عشر

فى منطقة ثقب ماء شنَّة:
وقفة ما قبل الاندفاع فى اتجاه الشمال

كان القمر بدرًا قبل شهر رمضان، والقمر عندما يكون بدرًا فى هذه البلاد يصبح نعمة ونقمة، والقمر عندما يكون بدرًا يجعل مراقبة النجوم ومن خلفها أفق اصطناعى أمرًا متعبًا، والقمر عندما يكون بدرًا يصبح حليفًا ومُعينًا للغزاة، والسبب فى ذلك أن السماوات المدارية تصبح صافية على نحو يمكِّن من اقتفاء أو قَصٍّ الأثر أثناء الليل.

كان غداؤنا أو وجبتنا الرئيسة فى تلك الليلة مكونة من لحم الإبل. فقد اكتشف المرافقون لى أن واحدًا من الإبل قد أصابه المرض، وقال البعض منهم إن هذا المرض أمر طبيعى، وقال البعض الآخر إن هذا المرض فتَّاك وقاتل، وأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الجمل المريض فى الصحراء، هى ذبح هذا الجمل وأكل لحمه.

كشف الوشم المميز لقبيلة الفطيرة[1] أن الناقة المريضة هى من أصل جنابى، وأنها كانت فى واقع الأمَر جزءًا من غنيمة الغزو، كانت الناقة من فصيل الذلول، وأن الحال وصل بها إلى هذه النهاية المحتومة.

---

(١) كل قبيلة بدوية أصيلة لها وشم مميز لها وخاص بها، وقد جرت العادة أن يكون ذلك الوشم شديد البساطة، لكن له دلالة لها مغزاها: وهذا الوشم يوسم به كل جمل من الجمال على الوجه، العنق أو فى أى مكان آخر تتفق عليه القبيلة. بعض بطون القبائل فى بعض القبائل قد يكون لها وشم خاص. والملحق رقم ٤ يوضح تلك الوشوم التى رأيناها فى الربع الخالى.

سألت خويتيم، وهو رشيدى يسكن ظفار فى الوقت الحالى، وهو مبعوثى الخاص، فى واقع الأمر: "ما رأيك فى لحم الإبل مُقارنًا بلحم البقر؟".

قال: "لحم الإبل أفضل من لحم البقر ولا يمكن مقارنة هذا بذلك".

"ما رأيك فى لحم الإبل مقارنًا بلحم الضأن؟".

"لحم الضأن يفتقر إلى طعم ومذاق لحم الإبل أيضًا".

"وما الأجزاء المفضلة؟".

"فى الجمل الصغير الجزء الموجود أسفل الضلوع؛ واليوم تعد أرجل الجمل هى من الأجزاء المهمة".

"وماذا عن النخاع الموجود فى عظام الفخذ؟".

"هو أطيب الأطايب! انتظر حتى ترى بنفسك".

"كيف ستطهون لحم الجمال- هل ستسلقونه أم ستحمرونه؟" (فى السهوب حيث توجد كومة من الأحجار يجرى شوى اللحم على الطريقة التى كانت متبعة فى العصر الحجرى).

"سنسلق هذا اللحم. لكن يالأسف! نحن ليس لدينا ملح - والله".

"لو كان لدينا ملح، لحكمت أنت بنفسك على حساء لحم الإبل".

قلت فيما بينى وبين نفسى، يالك من عاشق أعمى! وأنا أيضًا أسجل هنا وجهة نظرى التى مفادها أن لحم الإبل ليس لحمًا طريًا وهو لحم ليفى، وبخاصة عندما يجرى سلقه فى ماء مالغ وبلا أى نوع من أنواع الدسم، وهذا النوع من اللحم له مذاق غير مستساغ عند البعض كما يشكل عقبة بسبب صعوبة هضمه.

جرى إحضار بنت شانتوف المسكينة وجرى تبريكها أيضًا. وجرى عمل حفرتين أو ثقبين على وجه السرعة فى الرمل تحت رجليها الأماميتين، اللتين كانتا مقيدتين، وقام واحد من البدو بالإمساك بذيل الناقة، وقام بدوى آخر بلوى شفتها العليا مبتغيًا بذلك دفع رأس الناقة إلى الخلف على جسم الناقة، الأمر الذى أفقدها القدرة على الحركة. ولما كان محمد قصَّابًا أفضل منه طاردًا

للأرواح، فقد سَنَّ خنجره سَنًا جيدًا وانحنى على الأرض على الجانب الذى لا تراه الناقة منه، وقام بطعن الناقة طعنة حادة فى وريد عنقها. ويندفع من العُنُق سيل من الدم، وراح يُعمل خنجره بسرعة فى عنق الناقة مُحْدثًا قطعًا عرضيًا كبيرًا فى زورها، وهو يقول: "بسم الله، الرحمن الرحيم"، وواصل الرجل قطع الزور مستخدمًا فى ذلك حد خنجره فى قطع الشرايين والقصبة الهوائية إلى أن وصل إلى العظم، وكانت يداه وذراعاه يتقاطر الدم منها. وبعد الترنح الأوَّلى الذى أصاب الناقة وبعد شىء قليل من الحشرجة بقيت بلا حراك، وعنقها الكبير مستلقٍ على الأرض كما لو كان شجرة سقطت وتهاوت على الأرض، وكانت عيناها براقتين. لم أرَ فى حياتى بدويًا أكثر نشوة من هذا البدوى؛ كانت مسألة انتظار الوجبة الشهية تسرهم جميعًا، وراحوا جميعًا بفئوسهم الصغيرة وسكاكينهم يشاركون فى سلخ الناقة المذبوحة. وفى الحال أصبح هناك خمسة أكوام من اللحم موضوعة على الرمل، وكل كومة منها تخص واحدة من الجماعات الخمس التى تشكل قافلتى، وهنا انطلقت صيحة فرح تعلن عن توزيع الأنصبة- وهذه هى الطريقة التى درج على استعمالها سكان الصحراء. وهنا وقف خمسة مندوبين، مندوب عن كل جماعة. جرى إحضار غطاء وقام كل مندوب بوضع طلقة ذخيرة فى غطاء الرأس هذه. وجرى الإمساك بأطراف أغطية الرأس الأربعة وجر هذه المحتويات إلى الأعلى. وجرى استدعاء أحد الواقفين ليمسك بطلقة من الطلقات، ثم جرى بعد ذلك فتح الغُطْرة (غطاء الرأس) وترتب على ذلك أن يكون صاحب الطلقة هو صاحب الخيار الأول من بين أكوام اللحوم. وتكررت هذه العملية وكان يجرى سحب طلقة من الطلقات المُعلَّمة، وبانتهاء المندوب الرابع من الاختيار يكون لحم الناقة بنت شانتوف قد جرى توزيعه. وهنا اندفع البدو فرحين بحثًا عن الحطب، نظرًا لأنه جرت العادة عند البدو، على وضع لحم الذبيحة فى القدر بعد الذبح مباشرة، والسبب فى ذلك أن المناخ العربى والطابع العربى لا يحتملان الانتظار؛ وفى غضون ساعة واحدة من اقتياد الناقة إلى مكان ذبحها أصبحت تسر خاطر وقلوب وأنوف البدو الجالسين حول نيران المخيَّم. هذا لا يعنى طهى كل لحم الناقة وأكله فى يوم واحد، ذلك أن جزءًا كبيرًا من لحم الناقة جرى الاحتفاظ لاستعماله فى حال ندرة الطعام. قام رفاقى

بتقطيع الفائض من اللحم إلى شرائح جرى تجفيفها بعد ذلك، عن طريق حمل شرائح اللحم هذه على سُرُج الإبل ونشرها لتجف فى الشمس، وكانوا أثناء السير يقومون بتخريم ذلك اللحم وقضم أجزاء منه ويقولون إنه جيد جداً.

عقب انتهاء صلاة العصر انكبَّ أعضاء الجماعة على معدة الناقة. كانت تلك المعدة مفرودة على مجموعة من شجيرات الإبالة ومن تحتها ثقب مستدير يقدر قطره بقرابة ياردة، فى تجويف رملى مبطن بجلد عنق الناقة ليكون مانعًا لتسرب الماء. كانت المثانة مثقوبة وكانت المحتويات تتقاطر منها لتشكل بِركة صغيرة من السائل أصفر اللون.

قالوا، وهم يتناوبون الجلوس على اليدين والركبتين، وكل منهم فاتح شفتيه ليأخذ بغيته من هذا السائل: "إنه لذيذ الطعم؛ إنه أفضل بكثير من ماء الرمال المالغ".

لم يوقظونى عند صلاة الفجر، لكنى عرفت من خادمى محمد بعد ذلك أن صوت المؤذن بعد أن أيقظ الجميع، اندفع الرشايدة فرحين بغية الشرب من البركة[١] قبل الاصطفاف لأداء الصلاة.

أحضر لى، عندما كنا عند ثقب مياه شَنَّة، واحد من أفراد الجماعة رأس سهم زناد كاملاً؛ ويقول لى إنه عثر على هذا الرأس عند ثقب الماء، لكن كلامه لم يكن صحيحًا. رأس السهم، شبيه برأس رمح كبيرة مصنوع من الصوَّان والذى بحوزة عربى آخر، وقد جاء هذا الرأس من رمال سنام. لم يكن أولئك الذين حصلت منهم على هذه الرءُوس، لكنى توصلت إلى أن الرءُوس الصوَّانية هذه يجرى العثور عليها فى الرمال وتستعمل ولاعات. كان حمدين هادى، الذى أطلعته على هذه الرءُوس، عَلَّه يبحث عن رءُوس أخرى بغية أن يعود نفعها علينا جميعًا، لا يُولِى هذه الرءُوس اهتمامًا وأنها غير ذات بال عند هذا الرجل، الذى كانت عيناه

(١) الفاض: يقول حمدان: المره، وعلى العكس من مذاق ساكنى جنوب الجزيرة العربية، لا يستيغون طعم سائل المعدة، وأنهم لا يشربون هذا السائل إلا عندما يكونون عطشانين ولا يستطيعون إطفاء ظمئهم بأى شكل من الأشكال الأخرى. الرشايدة يطلقون الاسم الفوض على سائل المعدة هذا، ويبدو أنهم استبدلوا بصوت (الفاء F) صوتَ (الثَّاء th).

تتركزان على الآثار أكثر منها أى شىء آخر، إلى حد أن حمد صرح قائلاً: إنه على بعد مسير يوم واحد فى غربى شنة، كانت توجد "أحجار" كثيرة ووفيرة أهم من هذه الرؤوس بكثير، وإن هذه الأحجار عبارة عن رسوم محفورة - "والله أعلم" - وأن هذا من أعمال أبناء آدم فى العصر الجاهلى. كان حمد يطلق على البقعة الموجودة وسط كثبان جعاميات الرملية، اسم الشق المصور، وهذا الاسم فى حد ذاته يعنى الكثير. ولم يكن من الحكمة أن أترك الجماعة الرئيسة لوحدها، وعليه أرسلت حمد ليحضر لى عينة من هذه الأحجار نظير مكافأة سوف أعطيه إياها. وبعد ذلك بست وثلاثين ساعة عاد الرجل إلىَّ ومعه حجر شبيه بالضلع البشرى طوله قرابة قدمين، وكانت مع ضلع آخر دائرى الشكل، قطره قرابة قدم ونصف القدم، وشبيه بحوض بعض الزواحف القديمة بالإضافة إلى عينات وأنواع صغيرة متباينة وغريبة الأشكال؛ وهذه الأحجار شبيهة بأحجار الحيتان التى يطلقون عليها اسم Lösspuppen . هذه الأحجار من صنع الطبيعة، الحجران الكبيران شبيهان بعظام الحفريات، لكن ثبت أن هذه الأحجار مجرد تكوينات من الحجر الرملى(١).

"هذا هو ما طلبته أنت، أيها الصاحب"، قالها حمد وهو يضع الأحجار أمامى، فى حين راح إخوانه من البدو ينظرون إليه وهم غير موافقين على ما يفعل؛ لأنه جاء بما يمكن أن يكون حملاً إضافيًا على الإبل".

"يا حمد، أنا لا أعرف ماذا تكون هذه الأحجار، ما هذه الأحجار فى رأيك أنت"؟.

قال "حمد" وهز الواقفون رؤوسهم فى إشارة منهم إلى الموافقة على ما يقول، "من أعمال بنى هلال، الله أعلم".

بنو هلال، اسم أشهر من نار على عَلَم، فى سائر أنحاء الجزيرة العربية بطولها وعرضها وفى شمال أفريقيا أيضًا، هذا الاسم يمثل قبيلة قديمة ولكنها انقرضت ولكن يُعزى إليها كل ما هو حسن وطيب كما يعزى إليها أيضًا تذكارات الماضى التليد؛ واسم هذه القبيلة يتردد على كل الشفاه وبخاصة الرجال. بنو هلال كقبيلة هى منبع الفلكلور (الأدب الشعبى) فى الصحراء الجنوبية. هذا يعنى

(١) راجع الملحق رقم ٢.

أن كل بدوى لديه شىء يقوله عن أبطال القبيلة الأسطورية، وبقوافيه البسيطة من لغته الحبيبة، وأنا نفسى عندما استمعت إلى واحدة من القصص بروايات لاحظت أن الروايات المختلفة لا تختلف عن بعضها حتى ولو فى كلمة واحدة.

البطل التراثى العظيم لبنى هلال هو شخص يُدعى أبا زيد، وقد سُمِّى الرجل بهذا الاسم لا لأنه كان أبًا لابن يدعى زيدًا، وإنما لأنه كان "مالك الامتياز"- أى صاحب سمات فائقة . أما الاسم عنتر فكان غريبًا على هؤلاء السكان البعيدين الذين يسكنون الربع الخالى، لكن الأساطير التى تُروى عن أبى زيد وعن قريبة دياب بن غانم، الذى هو بطل آخر من أبطال بنى هلال كثيرة ويتداولها بدو كُثُر.

هذه الأساطير تحدد وادى مرخة، على أنه كان موطنًا لقبيلة بنى هلال؛ وهذا الموطن موجود حاليًا فى الأرض التى تحتلها فى الوقت الحالى قبيلة الدهام؛ ولاتزال البئر التى يطلقون عليها اسم بير الجوقة، هى وتنداتها الثلاثون باقية إلى يومنا هذا، تخلِّد هذه الذكرى العظيمة. كان كل عضو من أعضاء جماعتى يحفظ بعضًا من أشعار هذه القبيلة- أما الشيخ صالح فيحفظ كل هذه الأشعار- التى هى عبارة عن ملحمة يطلقون عليها اسم ملحمة بنى هلال (السيرة الهلالية)، وهى تتناول صعود واندحار هذه القبيلة.. تقول سيرة بنى هلال إن عدد خيولهم كان يقدر بقرابة ألف جواد، بل ألفى جواد؛ تروى السيرة أن أبا زيد تحمل قرابة ألف جفاف من الجفافات الكبيرة التى أصابت الأرض التى يعيشون عليها، إلى حد أن المطر لم يسقط طوال ثلاثين عامًا، وأن الإبل كانت تأكل شعر بعضها البعض وهلكت تلك الإبل فى الوقت الذى كان أصحابها يحفرون الأرض بحثًا عن الجذور التى يمكن أن يستعملوها فى تغذية هذه الحيوانات؛ ولم تكن هناك أيضًا أية حبة من الريح إلى حد أن مسحوق الوارس[1] الناعم الذى جرى وضعه على

---

(١) مسحوق الوارس هو منتج من منتجات الخضراوات فى الجنوب الغربى من الجزيرة العربية، وهو يستعمل صبغة للبشرة فى عُمان؛ يجرى استعمال ذلك المسحوق وتحضيره على شكل مسحوق أصفر اللون.

قمة وادى المرخة بقى على ما هو عليه مدة عام بعد ذلك؛ وهنا اقترب أبناء شيخ بنى هلال من والدهم وقالوا له:

"الناس يموتون جوعًا ونحن يجب علينا أن نأخذ من التجار لنطعم هؤلاء الناس". لكن الرجل لن يفعل ذلك، على الرغم من أنه هو نفسه كان جوعان، وكانت جدران القلعة تتأوه حزنًا.

السواد الأعظم من قصص هذه السيرة يجب أن تخاطب الأجيال القادمة، وبخاصة بعد أن تحولت قبيلة بنى هلال إلى قبيلة فقيرة مترحلة، راحت تشن الحرب على شِعْب الريشى المستقر، الذى كان الزناتى ملكًا عليه.

كان أبو زيد، بطل بنى هلال فى تلك الفترة، صاحب حياة مسحورة من منطلق أن أمه كانت منحدرة عن جنيَّة من الجنيَّات، وأن هذه السمة هى التى جعلت أبا زيد مقاومًا للحديد بكل أنواعه، سواء أكان هذا الحديد سهمًا؛ سيفًا، أم رمحًا، وأن ذلك يستمر إلى اليوم الذى ينطق فيه بالشهادة "لا إله إلا الله"، وعندها يقوم الجن الذى كان يحميه من الأمام ومن الخلف، بسحب حمايته له من الأمام، وبذلك يصبح مثل سائر البشر الآخرين، معرضًا للقتل؛ من هذه القصص التى رأيت إنها جديرة بالتسجيل، والتى كانت تُروى لى بين الحين والآخر أثناء المسير أو عندما نكون جالسين حول نار المخيم.

كان موقعى هنا فى شنّه من الناحية الحسابية، فى اتجاه الشرق من حضرموت عند خط طول ١٩° درجة شمالاً و ٥٠° درجة و ٤٥ دقيقة شرقًا، على ارتفاع ٩٩٠ قدمًا. كان هدفنا متمثلاً فى الوصول إلى الدوحة فى شبه الجزيرة القطرية على الخليج الفارسى، على بعد قرابة ٣٣٠ ميلاً فى اتجاه طيران الغراب عبر هذا المحيط القاحل من الرمال الداخلية. زعم حمد أنه سافر ذات مرة إلى الدوحة، وهو يشير بعكازه فى اتجاه يميل إلى الشمال الشرقى، ومتفقًا تمامًا مع تحركى الأفقى عبر الجبال، ومتفقًا تمامًا من الناحية الفلكية مع مواقعنا. لكنى حاولت ألا أبدو حريصًا وعارفًا بكل ما نقوم به.

تبلورت لدىَّ، بفضل المرافقين لى من قبيلة المُرَّة، خطة عمل. تقضى هذه الخطة بتخفيض عدد أفراد الجماعات إلى اثنى عشر عضوًا يجرى انتقاؤهم،

وجرى أيضًا انتقاء الركائب وخمس من دواب الحمل وكانت كلها بحال جيدة. وسوف يؤدى هذا إلى جعل تعييناتى كافية لمدة ثلاثين يومًا، مخصومًا منها خمسة أيام يتعين أن تمر علينا قبل وصول المجموعة الجديدة؛ لكن مسألة رغبتى فى تخفيف الأعباء والارتياح بعض الشىء عن طريق تقليل عدد المرافقين لى كانت أمرًا مستحيلاً وذلك من باب التحسب للغزاة. هذا يعنى أن مواردى لم تعد تسمح لى بهامش كبير، وإن السير على غير هدى فى هذه الرمال يعنى الوفاة. هذا يعنى أن الإبل الصحيحة هى والرجال الأصحاء كانت أمرًا ضروريًا ومُلحًا؛ هذا يعنى أيضًا أن المسيرات لابد أن تكون طويلة وجادة، هذا يعنى أيضًا أن فقدان الإبل، والمرض، والحياة، وكذلك المعارضة القبلية التى تنطوى على تعطيل قد يصل إلى عشرة أيام، أو حتى الإبطاء فى المسير، كل ذلك يمكن أن يكون كارثة غير متوقعة. وهنا كان لابد من إعمال العقل واعتبار الخروج من هذه الأرض اليباب التى ضربها الجوع، وبأقصى سرعة ممكنة أصبح أمرًا مُلحًا . تلك كانت هى أوهام حمد اليومية.

لقد تبين لى أن عبور هذه الرمال عبورًا ناجحًا أصبح أمرًا مؤكدًا؛ وإذا ما خانتنا المراعى على امتداد طريقنا، فقد يحتم ذلك علينا مواجهة المسألة، إما عن طريق مواجهة الأجَل المحتوم وذلك بالمضى قُدُمًا، أو التراجع إلى الخلف شدًا للأزر، لكن إذا ما كان الرجال لائقين بدنيًا وإذا ما كانت الإبل الجديدة بحالة صحية جيدة، وإذا ما أفلحنا فى تخطى نقطة البداية، فذلك يعنى أن المسألة أصبحت فى الطريق إلى الحل. وهذا هو ما هدانى إليه تفكيرى. لقد كانت شنه تعد نقطة البداية فى المرحلة الأخيرة، من ناحية ثانية.

انعكس التحسن الذى طرأ على موقف التعيينات التى بحوزتنا، نتيجة لذبح الناقة التى أصابها المرض، نظرًا للوصول المفاجئ لبعض الضيوف- الذين كانوا عبارة عن خمسة من الكرابين والمناهيل عبروا الرمال عبورًا سهلاً قادمين من أبى ظبى. هؤلاء الضيوف شأنهم شأنه أبناء جلدتهم ومن أول وهلة، بدا عليهم

التحفظ، وعندما سألتهم عن وجهتهم، ردوا علىَّ ردًا عامًا، وهنا أحسست أن ذلك نوع من السياسة، وأن الأفضل ألا أواصل الضغط فى هذا الاتجاه.

تمنيت لو أنهم عجلوا رحيلهم، لكن التمر والقهوة اللذين يتعين علينا تقديمهما لهم، شجعاهم على البقاء لفترة أطول. وسرعان ما اتضح لنا أنهم لا ينوون التحرك طالما أن كرمى الرشيدى مستمر. كان حمد المرافق الوحيد الذى أدرك ضرورة الاقتصاد فى التعيينات التى معنا، وبخاصة أن رمضان كان على وشك الدخول علينا، لكن مسألة حجب الطعام عن الغرباء عابرى السبيل طالما آثروا البقاء معنا فى مخيمنا تعد خرقًا لقواعد الكرم الصحراوى، هذا إن لم يُجُرَّ علينا غضب رفاقى وازدراءَهم . لو سألت رجالى لتمنوا انعكاس هذا الموقف الخطر إلى قصة أخرى من القصص التى تُحسب لأبى زيد.

كان أبو زيد أشهر بنى عصره من ناحية الكرم. كان الرجل يذبح إبله الواحد بعد الآخر حتى يطعم الغريب والفقير. وقد أدى ذلك إلى أن تعقد البطون الأربعون التى تشكل قبيلة بنى هلال، اجتماعًا للتشاور فيما بينهم وقالوا: "سوف يعطى كل واحد منا أبا زيد جملاً حتى يمكن أن يتكون لديه من جديد قطيع جديد". ونفذت البطون ذلك. لكن أعداد ضيوف الرجل وقلبه الكبير أديا من جديد إلى أن أصبح أبو زيد فى يوم من الأيام بلا إبل- وهنا أدرك بنو هلال أنه لا طائل من وراء امتلاك أبى زيد لقطيع جديد، وهنا قالوا: "سوف نعطية هدية واحدة عبارة عن ناقة واحدة يحمل عليها زوجته عند ترحال أو تنقل القبيلة، وأننا سوف نفعل ذلك شريطة أن يقسم أبو زيد ألا يذبح الناقة من أجل ضيفه، وهذا أمر مؤكد أنه سيقوم بذبح الناقة".

وافق أبو زيد على الشرط الذى اشترطه بنو هلال.

انقضت وجاءت أقمار عديدة، وبنو هلال مخيمون مع قطعانهم الكبيرة وخيامهم العديدة، إلى أن تصادف مجىء جماعة من العرب من المنطقة المجاورة لمنطقته، وسألت هذه الجماعة، "أين خيمة أبو زيد؟ ".

لم يجب أحد عن سؤالهم.

"قولوا لنا، أين خيمة أبو زيد؟".

"الخيمة أمامكم" وواصلت الجماعة المسير.

سمعهم أبو زيد ينادون زوجته وقال:

"اعصبى عينىَّ حتى لا أرى وجوه الضيوف الذين لا أستطيع أن أقيم لهم وليمة". وعليه قامت زوجته بإحضار شريحة من شرائح سلال التمر وعصبت بها عينَىْ أبى زيد.

وبعد برهة من الوقت قال لها أبو زيد: "انظرى هل أخذ الجماعة أحد غيرنا".

نظرت زوجته. ثم قالت: "لا، إنهم أمام خيمة فلان الفلانى".

سألها أبو زيد بعد ذلك بفترة قصيرة: "انتبهى! من الذى أدخلهم خيمته؟".

ردت عليه: "لم يأخذهم أحد، لقد تحولوا الآن إلى الخيمة التالية".

"وراح أبو زيد يسأل زوجته المرة بعد الأخرى، ويحصل منها على الإجابة نفسها، إلى حد أن قلبه ازدادت ضرباته فى داخله، وفى نهاية المطاف استطاع الرجل تمالك نفسه، وهبَّ واقفًا ومزق العصابة الموجودة على عينيه، واستلَّ سكينًا وذبح ناقته الوحيدة وهى فى مكانها عند مدخل خيمته، وأرسل فى طلب الغرباء وأقام لهم العزيمة".

أنا لم أستشعر أية مشاعر من هذا القبيل تجاه ضيوفى غير المرغوب فيهم والذين جاءوا من أبى ظبى، الذين أثبتوا أنهم يصعب التخلص منهم بحكم وجودهم وإحساسهم الطفيلى. كان هؤلاء الضيوف فى طريق عودتهم فى السهوب الشمالية الشرقية من حضرموت، الأمر الذى جعلنى أسألهم استجلاء للغموض الذى يكتنف بئر بيرهوت الشهيرة، والتى يقال أنها كانت المكان الذى شهد ثورة أو نشاطًا بركانيًا، وإن هذا هو المكان الوحيد فى الجزيرة العربية الذى شهد هذا النشاط، وإن الدكتور هوجارث يورد الاقتباس "تلك كانت البئر العظيمة التى لعنها على، وذلك نقلاً عن جيهان نوما". هؤلاء الضيوف أكدوا مثل من سبقوهم الذين رافقونى فى ترحالى فى هذا الجزء من البلاد، عدم وجود أية براكين فى هذه المنطقة. لكن هناك خرافات متباينة تُعزى إلى الوادى الذى توجد فيه هذه البئر،

وجود أرواح الموتى الشريرين، وإن البشر إلى يومنا هذا، لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب من ذلك المكان وبخاصة أثناء الليل.

أبرم أحد الحضارمة صفقة مع أحد أعضاء جماعتى - استبدال الجمل الصغير ببندقية، ذخيرة، ودولارات- لكن الجدل الغوغائى الذى صاحب هذه الصفقة، كان يفتقر إلى الأسلوب الجزل الفخم الذى اتسمت به جولات أبى زيد فى طفولته، فى ضوء ما قيل عن هذا الموضوع فى عصر هذا اليوم:

"كان أبو زيد يتيمًا كفله عمه الشيخ حسين بن سرحان. حدث ذات يوم عندما كان أبو زيد طفلاً صغيرًا، وهو يرعى قطيعًا صغيرًا مكونًا من جملين ذكرين وسبعة من النِّياق" ومرت عليه جماعة من العرب، وكان بصحبتهم جمل، وكان يوجد سيف ضخم على ظهر جمل من الجمال، وكان اسم ذلك السيف شاهمان.

"نظر أبو زيد إلى السيف، وسأل العرب ما إذا كانوا يودون بيع ذلك السيف".

"نعم، هذا إن أردت أن تشتريه" قالوا لأبى زيد هذا الكلام وهم يسخرون منه، نظرًا لأن السيف كان كبيرًا على نحو يصعب معه على الرجل العادى حمله أو حتى استعماله. وعليه قاموا بتبريك الجمل.

"وتناول أبو زيد السيف وهو يتنهد"، "ليته كان أثقل قليلاً من هذا السيف، لكن هذا السيف يمكن أن يوفى بالغرض".

"قام أبو زيد بوضع السيف جانبًا، وذهب إلى قطيعه، وقام باحضار ناقة، قام بتبريكها وأحضر جملاً ذكرًا لتخصيب الناقة[1] كان ذلك من قَبيل الهدف المحدد للرجل، ومن قبيل اختبار السيف الجديد، من منطلق أن السيف إذا ما أفلح فى شطر الجمل الذَّكَر إلى نصفين فإنه سوف يشترى ذلك السيف".

---

(١) الإبل شأنها شأن كل من اللاما والأسُود، يندر أن تقوم بعملية التلقيح على الملأ. وهنا يصبح صاحب القطيع طرفًا فى هذه العملية، إذ يقوم الرجل باخلاء الرمال من حول أرجل الناقة حتى تحس بالارتياح، وهو الذى يقوم بإدخال عضو الذكر فى عضو تأنيث الناقة، نظرًا لأن الذكر والأنثى يكونان فى وضعين معكوسين، وهذا وضع استثنائى عن كل الثدييات، ويتدخل صاحب القطيع بعد دقائق معدودات لإبعاد الذكر عن الأنثى. وبعد عشرة أيام إذا لم يَرَ صاحب القطيع نتيجة لما قام به، فإنه يقوم بتكرار التلقيح. وعلامة الحمل هى أن تهز الناقة ذيلها كلما ركبها أحد.

"تناول أبو زيد السيف، وتراجع قليلاً إلى الوراء، ورفع السيف إلى ما فوق رأسه وهوى به على سنامَي الجملين الذكرين بقوة، أسفرت الضربة عن شطر الجملين الذكرين إلى أربعة أجزاء، واستدار أبو زيد إلى العرب وأعطاهم جمله الذكر وستة نياق ثمنًا لذلك السيف، ووضع أبو زيد السيف على كتفه وعاد فرحًا إلى محل إقامة عمه".

كنت فى عصر اليوم الثامن من شهر يناير، وأنا فى شنَّه، جالسًا مع رفاقى نتجاذب أطراف الحديث، عندما ظهرت أمامنا فجأة جماعة من الرجال والإبل، خلف كتف التل، فى المنطقة الوسطى من التل. قفز العرب المرافقون لى واقفين على أقدامهم، وقاموا بتعمير بنادقهم، على الرغم من أن ذلك كان فقط من باب التحوط والاحتراز، لأننا كنا فى واقع الأمر ننتظر وصول شيخ بيت إيمان. أدت نظارتى المكبِّرة، هى واقتراب الجماعة الصغيرة، إلى استعادة رفاقى لثقتهم بأنفسهم، وسرعان ما يتمكن رفاقى من تعرف الشيخ محمد بن حام، وهو ورفاقه الخمسة.

نزل الشيخ محمد وجماعته عن مطاياهم، على بعد مسافة قصيرة منا، واقتادوا معهم إبلهم ومروا الواحد بعد الآخر على صف المستقبلين والمرحبين، وهم يمارسون التحية والسلام عن طريق قبلة الأنف؛ ثم جلس الجميع أرضًا على شكل دائرة مشتركة وراحوا يتبادلون أخبار الصحراء- الإبل، المراعى، الغزو وما إلى ذلك- وهم يحتسون القهوة والتمر اللذين قدمناهما لهم. وكان مُسَلَّم من بين أفراد هذه الجماعة، ومُسلم هذا كان واحدًا ممن رافقونى فى رحلة العام الماضى. جاء ظهور مسلم فى هذه الآونة مفاجأة تسر الخاطر، لكن يا أسفاه! لم يكن مُسَلّم من المسجلين ضمن جماعة الشيخ، ولكن الرجل جاء لمجرد أن يحتشى على أمل أن أدرجه على انفراد أو بدلاً من شخص آخر. قام مُسَلّم فى الصباح بتقديم حُججه وأسبابه ، كان الرجل بدويًا شابًا أصيلاً، أسنانه كبيرة وغير منتظمة، مُشلخ الصدغين[1]؛ وكانت تتدلى من تحت غطاء رأسه ضفائر طويلة

---

(١) هذه الشلوخ عبارة عن خطوط وشمية قصيرة فوق الفكين العلوى والسفلى، فيما بين الأسنان. هذه المسألة عامة بين الرجال والنساء فى جنوب الجزيرة العربية، ويجرى تنفيذها أثناء الطفولة، ويقال إنها تمنع نمو الأسنان الطويلة وتمنع عدم ثبوتها.

الإخوان، وبخاصة السواد الأعظم منهم، من الداخلين فى هذه العقيدة مؤخرًا بعد حياتهم البدوية، فهم يكشفون بل ويستعرضون كل تطرف وتشدد الداخلين الجدد فى هذه العقيدة.

وهذا هو محمد، خادمى الحضرى، وهو من أهل مسقط ولم يكن مثلاً يُحتذى، لخص لى مسألة الإخوان هذه تلخيصًا واضحًا، فى يوم من الأيام على أنها الفكرة التى تثير لديه الكثير من الشك والارتياب فى مسألة التسليم أو القبول بدين البدو.

قال محمد عن المرافقين لى: "هؤلاء البدو لا يتبعون الأسلوب الذى تتبعه كل مخلوقات الله".

إنهم يعيشون شهورًا بلا ماء. وبنو آدم لا يطيقون هذه المسألة، كما أن نساءَهم، وهذا أمر عجيب! يعاشرنهن جنسيًا ولا يغتسلن، أى الاستحمام. وأنا أتساءل كيف تُقبل صلاتهم؟

الفصل السابع عشر

الاندفاع فى اتجاه الشمال

حانت ساعة الصفر التى تحتِّم اندفاعنا شمالاً، وعليه بدأت جماعتى الصغيرة فى التوجه إلى شنّه وذلك عند الساعة الرابعة من عصر اليوم العاشر من شهر يناير من العام ١٩٣١ الميلادى، كان ينبغى علىَّ أن أبدأ الترحال فى ساعة مبكرة، نظرًا لأنى كنت متعبًا بعد يوم شاق من العمل أمضيته فى تسوية الحسابات ودفع أجور المرافقين السابقين ودفع مقدمات أجور المرافقين الجدد. لكن كان هناك سببان قهريان لذلك التأخر: أولهما، حتمية تحرك المخيم قبل تقسيم التعيينات على المرافقين؛ وعلى زوارنا الحضارمة هم وأقاربهم من الحرس البدوى المرافق لنا، الذين جاءوا ظاهريًا لوداعنا، وآثروا البقاء إلى آخر لحظة على أمل الانتفاع؛ ذلك أن مسألة توزيع التعيينات فى وجودهم دون أن يكون لهم نصيب من هذه التعيينات أو حتى السماح للبدو المرافقين لى بذلك، هو من قَبيل المسائل المستحيلة. السبب الثانى، أن مرافقى كان قد قرر أن يوم السبت هو اليوم الأفضل لبداية الرحلة، يضاف إلى ذلك أن يوم الأحد غير مقبول تمامًا فى مسألة السفر والترحال[1].

---

(١) صادفت بصورة مستمرة فى جنوب الجزيرة العربية، مسألة الأيام المواتية وغير المواتية للرحلات والترحال. أهل هذه المنطقة يرون أن اليومين الثانى والخامس من الأسبوع هما يومان مواتيان: يعد يوم الجمعة مواتيًا إلى حد ما. بعض بطون قبيلة المهارين لا يقومون مطلقًا بالغزو أو الترحال فى يوم الأحد، أو فى يوم الجمعة إلا بعد صلاة الجمعة (الظهر) - الناس يرون أيضًا أن اليوم الأول من ظهور القمر هو يوم مُوات تمامًا أيضًا بغض النظر عن مصادفته لأى يوم من أيام الأسبوع. =

يكفى القول أن اجتيازنا لأول سلسلة من الرمال المرتفعة كان كافيًا للوفاء بمطلبين: الحفاظ على النفس من ناحية والمعتقد الخرافى من ناحية ثانية، وهنا توقفنا لقضاء الليل. جرى إنزال السُّرج (العدد) من فوق الجمال، ثم جرى بعد ذلك تقييدها وإطلاقها فى أقرب منطقة من مناطق الأشواك التى تعشق الإبل أكلها؛ فى حين راح أصحاب هذه الإبل يتحلقون كيما يمتعوا أنظارهم بالمنظر النادر للطعام الوفير، وإنهم سوف يتملَّكونه بعد قليل، أخذ كل واحد منهم نصيبه من الزيد فى كيس مصنوع من جلد إحدى السحالى- وهذا واحد من الأوعية التى توجد دومًا داخل كيس سرج (عدة) جمل البدوى؛ أما بقية التعيينات فقد جرى تقسيمها إلى ثلاثة أقسام بواقع قسم لكل جماعة من الجماعات الثلاث التى جرى تشكيلها. كان لمنظر الدقيق هو والتمر ومعهما الأرز تأثير كبير ومثير على هؤلاء الرجال الجوعانين، مما أدى إلى جعلهم يروحون يروون القصص لأنهم كانوا أصحاب روح معنوية مرتفعة؛ وشجعنى على ذلك أن الشيخ صالح، راح وهو يترأَّس مسألة توزيع التمر، يروى لنا قصة أخرى من قصص أبى زيد.

"كانت لأبى زيد زوجة، لكن هذه الزوجة لم تكن تسمح له باستكمال مضاجعته لها، وعليه خطر ببال أبى زيد أن الولدين اللذين أنجبتهما هذه الزوجة لم يكونا ولديه، وإنما هما من رجل آخر، لاحظت القبيلة أن الولدين لم يكونا شبيهين لأبى زيد، وراودتهم أيضًا الشكوك، إلى حد أنهم ذهبوا إلى أخت أبى زيد وقالوا لها إن بنى هلال لابد أن يكون لهم ولد من صُلب أبى زيد. وقد أدى ذلك إلى الذهاب سرًا فى إحدى الليالى، إلى غرفة نوم أخيها، ولما لم يكن أبو زيد يميز بينها وبين

= حكى لى بعض البدو الكرابين والبدو الحضارمة الخرافات التالية التى ربما تكون أو لا تكون لها علاقة بعبادة النجوم فى جنوب الجزيرة العربية.

(أ) البدو لا يقومون بالغزو أو الترحال أو ما شابه ذلك، خلال فترة الأيام الخمسة، عندما يكون القمر فى مجرة العقرب، لأنهم يرون أن العمل غير مُواتٍ فى مثل هذه الظروف.

(ب) البدو يجعلون عمر القمر دليلاً لهم أثناء الترحالٍ- وهم يطلقون الاسم دوَّار على اليوم الأول، والثانى عشر واليوم العشرين، لأنها مواتية للتحرك فى جميع الاتجاهات.

(البدو يقسمون شبه الدائرة شرق - جنوب - غرب، إلى عشرة أقسام (اتجاهات) تصادف الأيام العشرة التى يتكون منها الدوار، وهذه الأيام هى: اليوم الثالث، اليوم الثالث عشر، وكذلك اليوم الثانى والعشرون من الشهر القمرى).

زوجته فى الظلام، فقد قام بمضاجعتها. وعندما أوشك على الانسحاب قبل اكتمال المضاجعة، مثلما كان يفعل مع زوجته، وخزته بالمخيط الذى كانت تحتفظ به استعدادًا لهذه اللحظة. حققت الوخزة الغرض المتبقى منها، وفى هذه اللحظة حملت منه ولدًا، أصبح يعرف باسم عزيز من خاله، وكبر عزيز وأصبح شابًا يافعًا قويًا، موهوبًا بالشجاعة والفضائل الأخرى".

"انقضت سنوات كثيرة، كان أبو زيد طوالها، يود أن يكتشف مَنْ هؤلاء الأولاد الثلاثة هو ولده، وهنا قال أبو زيد لكبيرهم "تعالَ، سنقوم برحلة" وهنا جهَّز أبو زيد جوالاً من الدقيق، ووضع فى فتحته تمرة واحدة. وبعد ذلك قام صاحب اللحية التى علاها الشيب، هو والشاب بتجهيز جمليهما وسارا فى رحلتهما، إلى أن وصلا إلى سهل قاحل وخالٍ من المراعى بكافة أنواعها، وكان السهل شبيهًا بكف يد الرجل، اللهم باستثناء شجرة واحدة من أشجار السدر. وهنا قال أبو زيد: "سوف نتوقف هنا، وسوف أنام تحت شجرة السدر على أن تقوم أنت بتجهيز وجبة لى".

"وبينما كان أبو زيد نائمًا نظر الشاب حوله، لكنه لم يعثر على أى شىء من الحطب، نظرًا لأن شجرة السدر كانت خضراء، وعليه قام الشاب بفتح الجوال، وعندما رأى تمرة واحدة داخل فتحة الجوال، أخذها وأكلها، لأنه كان جوعان.

"وعندما استيقظ أبو زيد قال: "أين الوجبة؟" رد عليه الشاب: "لا توجد وجبة. لأنى لم أعثر هنا على أى شىء من الحطب، وفتحت جوال الدقيق ووجدت فيه تمرة واحدة، وأكلت أنا هذه التمرة".

قال أبو زيد: "لابد من عودتنا، إذن".

"وبعد أن أقاما فى خيامهما بضعة أيام، تحدث أبو زيد إلى شقيق الشاب، قائلاً: "تعالَ، هيا بنا إلى رحلة نقوم بها "معًا". وقام أبو زيد مرة أخرى بتجهيز جوال من الدقيق ووضع فى فتحته تمرة واحدة، مثلما فعل من قبل، إلى أن وصلا إلى السهل السابق نفسه الذى ليس فيه سوى شجرة سدر واحدة.

"قال أبو زيد": "لابد أن أنام هنا فى حين تقوم أنت بإعداد وجبة لى".

"وراح الشاب يبحث حوله عن الحطب لكنه لم يجد أى شىء منه، وقام بفتح جوال الدقيق، ورأى فيه تمرة واحدة فأخذها وأكلها".

"وعليه عندما استيقظ أبو زيد، سأل عن الوجبة، لكن لم تكن هناك وجبة، وأجاب الشاب الإجابة نفسها التى قالها أخوه".

"وعليه عادا معًا إلى البيت".

"وتنقضى بضعة أيام، تحول بعدها أبو زيد إلى عزيز وقال له: "تعالَ، هيا بنا سنقوم برحلة معًا ".

"وقام أبو زيد مرة أخرى بتجهيز جوال من الدقيق ووضع فى فتحته تمرة واحدة، وشرع الرجل والشاب فى القيام برحلتهما إلى السهل القاحل نفسه الذى ليست فيه سوى شجرة سدر واحدة.

"قال أبو زيد: لابد أن أنام – عليك أن تجهز لى وجبة".

وراح عزيز يبحث عن الحطب فى السهل، لكنه لم يجد أى شىء من الحطب، وجلس يتفكر فى الأمر، واهتدى إلى أن خشب السَّرْجين (العُدَّتين) هما والمشعابين يشكلان الشىء الوحيد الذى يمكن استعماله فى عمل الوجبة. وعليه شب الصبى نارًا مستعملاً خشب هذين السرجين هما والمشعابين وقودًا لتلك النار. ثم استعمل خنجره وراح يقطع أغصانًا من شجرة السدر وراح يشكل هذه الأغصان لاستعمالها فى سرجين جديدين ومشعابين. وبذلك يتمكن الشاب من عمل رغيفين من الخبز واحتفظ بواحد منهما لأبى زيد، وأخذ الرغيف الثانى لنفسه، وعندما اكتشف التمرة قطعها نصفين ووضع نصفًا منهما على رغيف أبيه ووضع النصف الآخر على رغيفه. ثم أيقظ أبا زيد بعد ذلك وهو يقول: "استيقظ وكُلْ وجبتك يا أبتاه".

"أيقظ والده نفسه ورأى ما فعله عزيز، وهنا تسلل الحقد إلى قلب أبى زيد[١]، وقال فيما بينه وبين نفسه، "لابد أن أقتل عزيز، لأنه أفضل منى".

---

(١) لم يكن أبو زيد يطيق وجود منافس له؛ وقام فى أواخر أيامه بقتل ذياب بن غانم، ذلك الصياد والمحارب، وذلك على الرغم من أن ذياب كان زوجًا لواحدة من شقيقات أبى زيد. وقام ولد ذياب بعد أن كبر واشتد عوده بقتل أبى زيد، ليثأر لمقتل والده، وذلك طبقًا للعرف العربى السائد.

"وهنا جرى التخطيط الذى يلزمهما بالتحرك فى صبيحة اليوم التالى إلى ثقب الماء الذى يقع على بعد مسافة طويلة - لكن أبا زيد استيقظ عند منتصف الليل وتسلل خلسة إلى ناقة عزيز وغرس إبرة فى قدمها، الأمر الذى أدى إلى إصابتها بالعَرَج، ثم جهز فى هدوء راحلته، وغادر المكان فى جوف الليل، مخلفًا وراءه عزيز ليموت عطشًا.

"واستيقظ عزيز ليرى ما صنعه والده فى الصباح، فقد كانت الناقة لا تستطيع وضع قدمها على الأرض، وهنا فهم عزيز تلك الخطة السوداء النابعة من قلب والده. وهنا تناول عزيز المِخْيَط وشك بها الأرجل الثلاث الأخرى، إلى حد أن الناقة كانت كلما وضعت رِجْلاً من أرجلها على الأرض كانت ترفع رجلها مرة ثانية، وتتبادل أرجلها الثلاث بهذه الطريقة. وبهذه الطريقة كانت الناقة ترفع رِجْلاً من أرجلها بعد الرجل الأخرى وراحت تمضى قُدُمًا مسرعة. وبذلك سلك عزيز طريقًا أقصر من الطريق المعتاد، وبذلك كان أول من وصل إلى ثقب الماء؛ وجلس عزيز طلبًا للراحة، لكنه من باب التخوف من أبى زيد، خبَّأ تُرْسه تحت عباءته، واضعًا إياه على جسمه.

"وجد أبو زيد، عندما وصل إلى ثقب الماء، الشاب نائمًا، وتناول أبو زيد حربته، ووجه طعنة شديدة إلى قلب عزيز. انزلق سن الحربة بعيدًا عن الترس الذى كان عزيز يلبسه على جسمه، الأمر الذى أيقظ عزيز، الذى هب واقفًا، انتزع الحربة من يد أبى زيد، وهو يقول: "أنا أقوى منك، وأنت الآن تحت رحمتى، لكنك أبى وخالى فى آنٍ واحد، وعليه فأنا أنقذ حياتك" وراحا يبكيان كُلٌّ على عنق الآخر، وعادا إلى موطنهما معًا وهما راضيان بعضهما عن البعض تمامًا.

* * *

شهدت نهاية هذه القصة انفضاض الجماعة، فقد حان موعد الصلاة قبل تناول وجبة العشاء.

جاء اليوم التالى بمثابة المسيرة الأولى المناسبة، كان اليوم مثل سائر الأيام الأُول الأخرى، فيه رجال جدد وإبل جديدة، وكان أيضًا يومًا قصيرًا وعامرًا

بالضوضاء. كان ذلك اليوم عامرًا أيضًا بالوقفات فى كثير من الأحيان، بغية تعديل أحمال الإبل، وفض شجار البدو، وتعديل أزمة سرُج الإبل، الأمر الذى أدى إلى تعطيلنا، إلى حد أننا عندما توقفنا لقضاء الليل لم نكن قد قطعنا سوى ما لا يزيد على اثنى عشر ميلاً. ودارت حول نار المخيم حوارات استمرت إلى أن توصلنا إلى نظام يقضى بتغيير الأحمال من يوم إلى آخر وبطريقة دورية؛ وذلك من باب ضمان المساواة فى المعاملة. وقد أدى هذا النظام إلى استعادة الهدوء.

قام واحد من البدو، أكثر وداعة من الآخرين، وهو يجمع لناقته نتفًا من شجرة الأبالة التى كنت أجلس تحتها، بتناول غصن نضير من أغصان هذه الشجرة، وأمسك الرجل بذلك الغصن النضير وقد قلبه رأسًا على عقب ثم قال: "أيها الصاحب، والماء يتقاطر من ساق ذلك الغصن"، وأردف قائلاً: "هذا هو السبب فى أن أفراد قبيلة الإجابة يستطيعون البقاء أيامًا دونما يكونون بحاجة إلى شرب الماء".

بكَّرنا فى صبيحة اليوم التالى، وكان مسيرنا فى اتجاه الشمالى الشرقى، وبعد أن تجاوزنا أبو أخشابة الأبيض الكبير، وصلنا عند الظهر إلى كثبان رملية منعزلة يُطلق اسمها "القصمان" على هذه المنطقة؛ كما تمثل هذه الكثبان الرملية الحد الشمالى الغربى لمنطقة دكاكا.

تتكون دكاكا، الواقعة داخل هذا المتراس الرملى الكبير الموجود على الحدود الغربية، من رمال كاسحة حمراء اللون تميل إلى الصلابة، بها كثبان منخفضة تمتد فى جميع الاتجاهات. ينخفض ارتفاع هذه الكثبان اليرملية من ١١٠٠ قدم فى الجنوب إلى ٧٨٥ قدمًا فى المناطق المحيطة بنا، يُزاد على ذلك أن "المحور الطويل لهذه الكثبان فى اتجاه الشرق - الشمال - ثم الشرق يمتد مرة ثانية، لمسافة تقدر بمسير سبعة أيام - وعندما بدأنا نسير فى اتجاه الغرب ازدادت هذ الكثبان وعورة على وعورتها؛ وازداد عمق ثقوب المياه، من ثلاث قامات فى الشرق إلى ثلاث عشرة قامة فى شنَّه. وهناك ثقب ماء توأم، يسمونه زويره و"طُريوه" وهو أكثر عمقًا من ثقب شنَّه (والذى يقع على بعد مسير يوم فى اتجاه الغرب)؛ يُقال أن هذا الثقب التوأم يقع فى اتجاه الجنوب الغربى. وخلف هذه الكثبان

الرملية من ناحية الغرب، يقول الناس إن رمال جعاميات[١]، هى والحوية، والشويكيله التى تمتد فى اتجاه نجران، كلها خالية من الماء".

جاء مسيرنا فى ذلك اليوم خلال مدقات قطيع صغير من الإبل، وتعرَّف المرافقون لى أثر هذا القطيع على أنه من قطعان أهله وذويه، وخلصوا إلى أن اتجاه القطيع يشير إلى أنهم كانوا فى سقيا حديثة. وسرعان ما عثرنا على المخيم. ووُجِّهت إلىَّ الدعوة بالنزول أمام خيمتين صغيرتين للكشف على مريض، وجدته كبير السن وشديد الضعف؛ كان ذلك المريض يشكو من نوع من المرض يكاد يكون عامًا هنا، الاضطراب المعوى- الرشايدة يعزون هذا الاضطراب المعوى إلى ما يسمونه الأفيرة، التى هى أشد أنواع الأرواح الشريرة، لكن المريض نفسه قال إن هذا المرض: "من عند الله". تمثل أفضل ما يمكن أن أفعله لهذا المريض، فى التسرية عنه وإدخال السرور إلى قلبه بأن أعطيته حفنة من التمر، وهو آخر ما ظننت أن هذا المسكين بحاجة إليه. والبدو هنا يشربون بول النياق صغيرة السن، بكميات صغيرة بوصفه علاجًا للاضطرابات والأوجاع التى من هذا القبيل، والأفضل من هذا البول هو الطعام الذى تجتره الإبل (ظنًا منهم أن هذا الطعام المجتر يمنع العطش)؛ والبدو يحصلون على هذا الطعام المجتر عن طريق دس عصا فى حلق الجمل. والبدو يستعملون بول النياق الصغيرة غسولاً للشعر، من منطلق أن ذلك البول يقتل الهوام والحشرات. يزاد على ذلك أن أشياء التجميل الصحراوية تفيد من هذا البول.

لم يكن فى الخيمتين سوى امرأتين وولد صغير- كانت المرأتان محجبتين، شأنهما فى ذلك شأن كل نساء الرمال، وذلك على الرغم من أنهما لم تكونا كارهتين للتحدث مع الغرباء. كانت المرأتان زوجتين للرجل العجوز ومعهما ولده. هذا الولد، هو ولد المرأة الأصغر سنًا، وكان عمره أربع سنوات، وكان يجرى عاريًا

---

(١) يقتصر طريق الغزاة القادمين من الرمال إلى حضرموت، على الاتجاه ناحية الغرب، ثم إلى مسار شمالى جنوبى عبر الجزء الغربى من دكاكا وخراخير. ثم يتحول الطريق إلى ناحية الغرب محاذيًا للحدود الجنوبية للرمال، عن طريق ممر شهير يطلقون عليه اسم شق المعاطيف.



(فى شمال غربى داكا)

فى الخيمتين وغير مُختَّن(١). بعد ذلك، جاء الرجل الأصغر سنًا وهو يحمل أرنبًا بريًا مصابًا إصابة سيئة، وكان يرافقه صائد ذلك الأرنب وهو يجرى بجواره، ومعه كلب طويل ضخم الحجم ولونه بنى غامق.

المُرَّه كلهم لديهم هذه النوعية من الكلاب، التى يستعملونها فى صيد الأرانب البرية، وصيد غزال الريم بين الحين والآخر (هذا فى الوقت الذى لا يملك فيه الرشايدة هم وقبائل جنوب الجزيرة العربية أى نوع من هذه الكلاب). وأثناء مسيرنا فى اتجاه الشمال كنا نمر بين الحين والآخر بآثار أقدام كلب من الكلاب، وعلى مقربة من هذه الآثار كنا نشاهد آثار أقدام البدوى صاحب هذا الكلب. كنا فى بعض الأحيان نشاهد ونرى هذه الآثار ثنائية (أى للكلب وصاحبه) وتمتد إلى مسافة غير عادية، وهذا دليل على أن الحيوان كان يستعمل فى هذه المنطقة.

كان ارتفاع الخيمة البائسة التى جلست فيها لا يسمح إلا بجلوس شخص كبير جالسًا القرفصاء. كانت تلك الخيمة مكونة من اثنتين وعشرين شريحة من وبر الإبل البُنى الغامق المنسوج بطريقة شديدة البدائية؛ وبعض شرائح من الصوف أبيض اللون، الذى يُرجَّح له أن يكون من صوف الغنم الحساوية. هاتان المرأتان اللتان فى داخل الخيمة هما اللتان غزلنا ونسجتا كل خيط من خيوط هذه الخيمة البائسة- كانت على مقربة منا تلك الإبرة أو المسلَّة التى استخدمتها هاتان المرأتان فى صناعة الخيمة، وكأن هناك أيضًا عدد من أوتاد المخيم المصنوعة من الحديد، بالإضافة إلى بعض أوتاد الخيمة التى كانت فى يوم من الأيام قرونًا لبعض الوعول، أما هذه السيقان الحديدية الطويلة فهى التى يستعملها البدو فى حفر ثقوب المياه، وكان هناك أيضًا حجر مدوَّر من أحجار السهوب الشمالية كانوا يستعملونه استعمال المطرقة (الشاكوش)؛ كان هناك أيضًا سَرْجان (عُدَّتين) من سُرُج الإبل، بالإضافة إلى تشكيلة من الدِّلاء المصنوعة من

---

(١) يقوم المُرّة بختان الصبية وهم فى سن الخامسة أو السادسة. قام الرشايدة وإلى حد ما بيت إيمان بإجراء الختان مثلما يفعله المرَّه، وتوقفوا عن ختان البلوغ الذى لا يزال جيرانهم المهرة يتبعونه فى الجنوب، ومع ذلك لايزال الرشايدة وبيت إيمان يحتفظون ببعض طقوس ختان البلوغ، والتى منها أن يرفع الشخص الذى يجرى ختانه، رأسه إلى أعلى فى شجاعة، والنظارة يُرددون "كريم! كريم!".



(مُخيم صغير من مخيمات المرة)

الجلد المشدود على أُطُر من الخشب، وكان واحد منها مستعملاً فى حفظ الماء، وكان الدلو الآخر مستعملاً فى حفظ الجلود. تمثلت ممتلكات ذلك البدوى المترحل فى الأشياء البسيطة التى من هذا القبيل، أما الممتلكات الأقيم من ذلك فتتمثل فى الإبل والأسلحة النارية.

تجاوزنا دكاكا (التى تقع عند خط طول ١٩° درجة و٣٢ دقيقة) ودخلنا منطقة صواحيب التى تعد واحدة من الأقاليم الرملية مترامية الأطراف. صواحيب هذه، اسمها مشتق من طبيعتها، والسبب فى ذلك أن الكلمة "صحابة"، تعنى فى النطاق المحلى سلسلة من القمم المرتفعة المتوازية؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الصواحيب كانت مكونة من سلسلة من التلال الرملية المدرَّجة، التى يصل الواحد منها إلى قرابة نصف ميل تقريبًا، وهذه الصواحيب لها محور شمالى شرقى عام، والمسافات التى بين هذه الصواحيب تغطيها الرمال حمراء اللون. يبلغ ارتفاع هذه السلسلة خمسين وثمانين قدمًا، وذلك على الرغم من أن منحدرات هذه الصواحيب الخالية من التضاريس هى التى تضفى شيئًا من المبالغة على حجم هذه الصواحيب. قيل أن هذه الصواحيب تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى إلى ما بعد القصمان لتطوف غربى دكاكا، لتصل بعد ذلك إلى كثبان جعاميات الرملية العالية.

ازدادت المراعى ونحن نتقدم فى اتجاه شمالى شرقى، ندرة على ندرتها، وعبرنا منطقة الصواحيب على شكل خط مائل على مسافات طويلة. كان التل التوأم العملاق، الذى يطلقون عليه اسم الخليلين، المعْلَم الوحيد الجدير بالملاحظ أثناء سيرنا فى اليوم الثالث عشر، إلى أن وصلنا فى عصر ذلك اليوم إلى ثقب الماء الذى يطلقون عليه الاسم بينها(١)، وهنا سجل جهاز قياس الارتفاعات إنخفاضًا، لا تلاحظه الحواس، ويقدر بقرابة مائتى قدم فى المسيرة التى بلغ طولها قرابة تسعة عشر ميلاً.

كان الماء فى ذلك الثقب، على عمق قامتين. كانت الملوغة الشديدة لذلك الماء، هى ولونه الشبيه بلون البيرة، خاصتين، حزنت كثيرًا، عندما اكتشفتهما، ولم

(١) "بينها"، سُميت بهذا الاسم لأنها تقع فى منتصف المسافة بين ثقب الماء الذى يسمونه بير هارى والبواح.

يمكن إخفاؤهما عن طريق الحساء المجفَّف. واقع الأمر، أن الماء اعتبارًا من هذه المرحلة فصاعدًا، أصبح على هذه الوتيرة، الأمر الذى منعنى من شربه اللهم إلا إذا اشتدت حاجتى إليه وأنا راكب دابتى، أو عندما كنت أتناوله بين الحين والآخر، كما لو كان شرابًا من الكاكاو، عندما كنا نتوقف طلبًا لقسط من الراحة أو تمضية الليل، يزاد على ذلك أن هذا الماء كان له تأثير المطهر العنيف إذا ما شربه أحد من البشر. وأثناء المسيرات التى امتدت بنا إلى اتجاه الشرق- وهذا موطن من المواطن التى يحتلها بين الحين والآخر الرشايدة المرافقون لى- قيل أن الماء بلغ من الملوغة حدًا، يحول دون شرب البشر له، بل إن إبل هؤلاء البشر كانت تعزف عن شرب ذلك الماء فى بعض الأماكن.

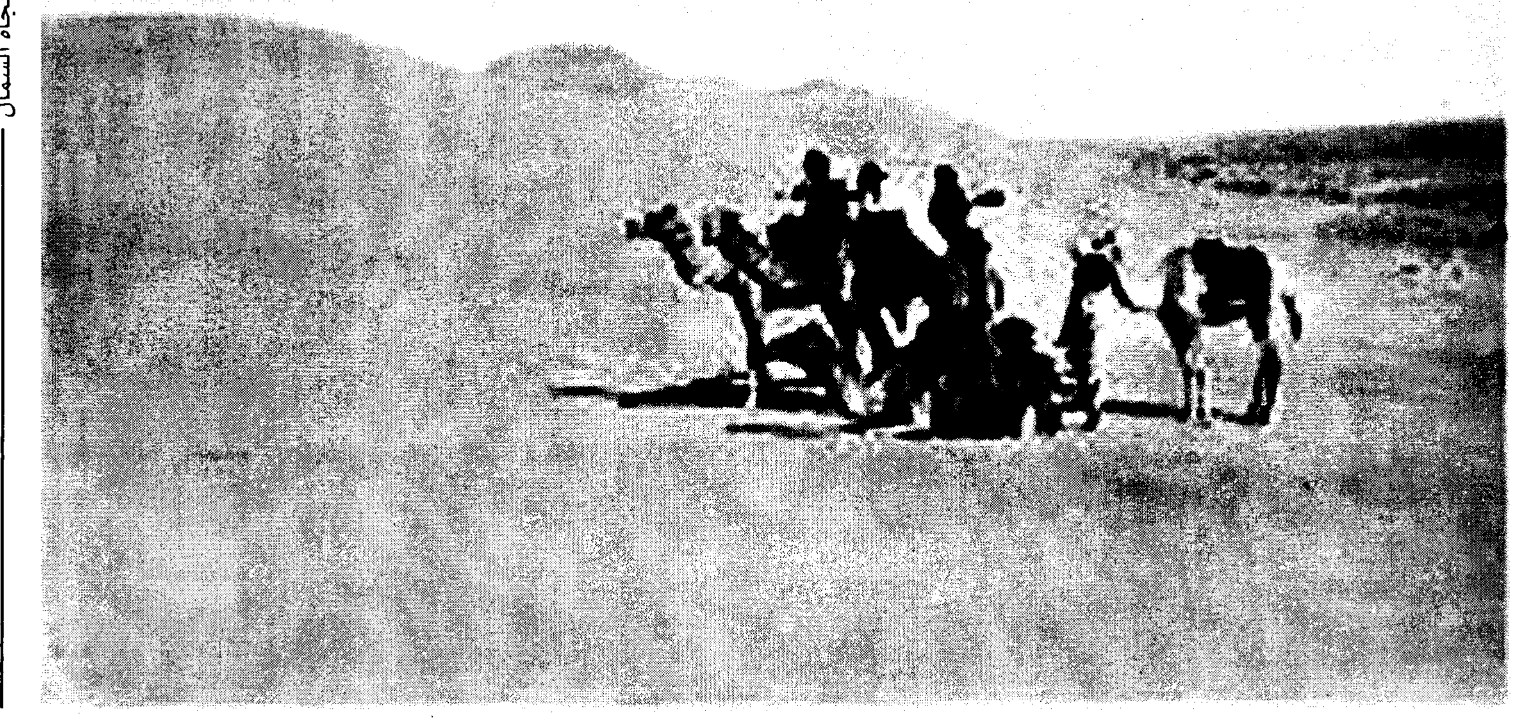
كان حليب الإبل غذائى الرئيس، لكن الكمية المتيسرة منه لم تكن تكفينى، والسبب فى ذلك أن الناقتين الحلوبتين اللتين حصلت عليهما بصعوبة بالغة كانتا توشكان على جفاف حليبهما، مما اضطرنا فى بعض الأحيان إلى خلط حليبهما بالماء كيما يكفى. يضاف إلى ذلك، أن اللياقة التى تمتعت بها طوال الرحلة يرجع الفضل فيها إلى هاتين الناقتين، وذلك على الرغم من الحمية الغذائية التى أفقدتنى الكثير من وزنى.

ثقب ماء "بينها"، الذى ارتوينا منه، هو من اكتشاف مرافقى؛ حمد بن هادى، وهو أيضًا الذى حفر هذا الثقب.

كنت قد بدأت بالفعل أُقَيِّم عاليًا قيمة حمد بن هادى بوصفه مرشدًا لى، والسبب فى ذلك أن مسألة الإرشاد فى الصحراء لا تتطلب فقط ذاكرة الاتجاه؛ وإنما تحتاج أيضًا إلى غريزة فطرية للتعرف على الماء والمراعى، فضلاً عن القدرة على قراءة الرمال وتحاشى الشر الذى يحيق بثقوب المياه من ناحية والمراعى من ناحية أخرى. ليس كل من وُلدوا فى هذه الرمال قادرين على عملية الإرشاد، واقع الأمر أن الكثيرين منهم يضلون طريقهم ويموتون عطشًا فى هذه الرمال، وبخاصة عندما تضل الإبل فى فصل الصيف، ويضطر أصحابها إلى جعل هذه الإبل مرشدًا وهاديًا لهم. والمرء عندما يعود مقتفيًا أثره هو نفسه أو متَّبِعًا أثر الآخرين يكون مثل ذلك الإنسان الذى يضل أقرب الطرق المؤدية إلى الماء، لكن الريح عندما تهب تمحو الآثار كلها، والريح تشكل دومًا خطرًا داهمًا ومستمرًا

فى هذه الأماكن. منذ قرابة سبع سنوات جرى غزو جماعة من جماعات قبيلة المهرة كانت تقيم فى السهوب الصحراوية، على يد عضوين من قبيلة المناهيل، فرًّا هاربين فى الوقت الذى كانت فيه آثار الغازيين المنسحبين باقية على الرمال، قام سبعة من فتوات قبيلة المهارين بملاحقة الغازيين ومطاردتهما، واستطاعوا عن طريق قص الأثر الوصول إلى رمال الضاحية التى لم تكن معروفة لهم من قبل. وأطبق المطاردون الشجعان، على المُطَارِدَين اللذين اضطرا إلى التوقف عند ثقب الماء، لأنهما كانا بحاجة إلى السُّقيا. لكن المناهيليين، ومن باب تحاشى المطاردة كانا قد تحاشيًا ثقب الماء الموجود فى خور الضاحية، وشردا فى اتجاه الشمال خلال الرمال القاتلة، وقام واحد منهما فقط بالانفصال عن الآخر وذهب إلى ثقب الماء كيما يملأ قربته ثم يعود من الطريق نفسه إلى الانضمام إلى رفيقه. وواصل الجميع من هذا المكان- وسار المهارين على هَدْى من قص أثر أقدام الإبل المناهيلية، وهم على يقين من أنهم سيروون ظمأهم خلال فترة وجيزة، لكن المهارين قبل أن يلحقوا بالغازيين هبت عليهم عاصفة رملية محت من أمامهم ومن خلفهم كل آثار الإبل. وتاه المهارين فى الرمال. وبعد ذلك بسبعة أشهر عثر واحد من جماعة الرشايدة المرافقة لى، على الهياكل العظمية السبع هى وعظام الإبل.

كنت شديد الإعجاب بدقة توجيه حمد وإرشاده لنا - كنت أقوم مرة أو مرتين على مدار الساعة بمقارنة قراءة بوصلتى المنشورية بما يفعله الرجل، وأجد أن الفارق لا يتجاوز خمس درجات بأى حال من الأحوال. كان ظل الشمس الموجودة وراء ظهورنا لا يعطينا سوى اتجاه عام، وسرعان ما عرفت أن حمد بن هادى كان يهتدى بممرات الرمال، التى كانت تُقدر هنا بخمس وأربعين درجة وخمسين دقيقة. ومع ذلك، وفى الرمال التى مشينا خلالها بعد ذلك والتى لم تكن لها ملامح أو خصائص واضحة، لم يكن مساره دقيقًا تمامًا، وقد اضطرنى ذلك إلى البحث عن تفسير آخر. وربما تكون التموجات الخفيفة فى سطح الرمال، والتى من المفترض أن تكون ثابتة إلى حد ما بفضل الرياح السائدة هنا، قد حلت جزءًا من هذا الغموض، لكن السواد الأعظم مما أُحِسُّه وأستشعره يرجع إلى أن حمد بنَ هادى لديه إحساس فطرى بالاتجاه، وإن هذا الإحساس يظهر بشكل واضح



(صورة طبق الأصل لرمال صواحيب)

فى أشخاص محددين، وإن حمد بن هادى واحد من هؤلاء الأشخاص. حمد لم تطرق قدماه هذا الجزء من البلاد منذ سنوات كثيرة، وإنه بحكم طبيعة حياة الترحال البدوى نفسها، يمكن ألا يكون قد مر على كثير من الأماكن منذ زمن طويل، وحمد بن هادى، على العكس من رفاقه كلهم، كانت لديه أسماء[1] الأبراج السماوية والنجوم الأكبر من هذه الأبراج؛ يضاف إلى ذلك أن متاهة الرمال تصبح فى الليل بلا أسرار غامضة عند هذا الشسيوس Theseus.

(١) جاءت مقارنة الأسماء التى يطلقها حمد بن هادى على النجوم بالأسماء التى نطلقها نحن عليها على النحو التالى:

الطير = نصير الطير؛ الرجل Rigel = الرِّجل Rijl (الجيم السورية)؛ Scorpion = العقرب؛ وهذا دليل على أن كثيرًا من الأسماء التى نطلقها نحن على النجوم استقيناها من البابليين الذين أخذوها عن العرب.

وأنا أسجل هنا فى هذا الهامش أسماء النجوم التى أعطانى إياها أحد سكان الربع الخالى والذى لم يخرج مطلقًا من هذه الرمال أو يغادرها:

الاسم الإنجليزى	الاسم بعربية الربع الخالى
Altair	نصير الطير
Vega	نصير أم وُجا
polaris	الجدى
Great Bear	السبَّع
onestar called	بنات ناش
Capella	الإمبارى
Regal	رجل (بالجيم السورية)
Betelgeuse	يد سعد
Bellatrix	يد الكيشه (بلغة الرشايدة)
	يد التيب (بلغة قبيلة المرة)
sirius	مرزام
canopus	سهايل الصدوق =
pleiades	الثريا
Aldeb aran	كلب الغنيم
Orion	سعد
Orion's Belt	جنبيه
Three Small stars	أوسا
Achermar	سهايل الكاذب
Scorpio	الجراب
ذيله	شولا
Venus	الزهرة

كانت Venus هى الكوكب الوحيد المُسَمَّى. لم يكن لديهم اسم لـ Jupiter أو Mars.

وعندما وصلنا إلى خط عرض ٢٠° درجة، لاحظ رفاقى باهتمام بالغ دخولنا إلى منطقة الحض، تلك الشجيرة الصغيرة؛ لها لون بنات القويسة، الذى يقال له المريمية فى بعض الأحيان؛ وشجرة الحض مالحة المذاق، وعمرها يطول فى ظل عدم سقوط المطر، أو حتى الندى، عن عمر أى شجيرة من الشجيرات الصحراوية الأخرى- ومن هنا تعد شجيرات الحض، فى أزمان الجفاف والقحط الشديد العائل الوحيد الداعم للحياة فى المناطق التى يوجد فيها هذا النبات، اللهم باستثناء اضطرار هذه القبائل إلى الدخول إلى مناطق السهوب الحدودية؛ وفى مثل هذه الظروف تجد الرشايدة يتجهون إلى أم الحياة فى اتجاه الجنوب الشرقى، كما يتراجعون أيضًا إلى واحة موجشين، ونجد قبائل المرة تعود هى الأخرى إلى منطقة ثقوب المياه الشمالية فى جابرين وخط الحدود الذى يمتد من الجافورة إلى جيبان.

دخلنا إلى بُوَاح Buwah ، أول منطقة من مناطق الحض، وكانت عامرة بهذا العشب، وهنا صدرت إشارة بالتوقف طلبًا لرعى الإبل. وعندما ملأت الإبل بطونها، أدى ذلك إلى التبكير فى استئناف مسيرنا، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال ثم الانحراف شرقًا بهمة ونشاط دَبا فينا بفضل تلك النسمة العليلة التى كانت تداعب وجوهنا. كانت الأغوار التى بين كثبان صواحيب الرملية قد اكتست اللون الأحمر، فى حين كانت الموجات الرملية متدحرجة تدحرجًا هينًا، وكانت رمالها ناعمة على نحو كانت تشكل معه عقبة أمام تسلقها أو السير عليها، الأمر الذى اضطر أفراد الجماعة، بين الحين والآخر، إلى استعمال أيديهم فى إخلاء الطريق من الرمل حتى تتمكن الإبل من السير. سرنا بعد ذلك خلال أرض جرداء جوعانة، ليس فيها سوى أغصان صغيرة من عشب الجاسس gasis ، الذى ينمو منحنيًا شأنه فى ذلك شأن الأشجار الموازية للمحور الحدودى، وهذا شاهد على أن الرياح الشمالية الشرقية هى السائدة فى هذا المكان. وتجاوزنا فى فترة العصر ثلاثة من ثقوب الماء؛ هى: باحة سلامة، باحة حجران، ثم باحة جمال. كان الماء موجودًا فى كل مكان على الجانب الأيمن، وعلى بعد مسافة ذراع واحدة، لكنه كان يبلغ من الملوغة حدًا يجعله غير صالح لشرب الإنسان أو الحيوان،

ولذلك كانوا يطلقون على هذه المنطقة الاسم خيران، طبقًا لما هو شائع بين أهل هذه الرمال.

وفى باحة جمال، قام هؤلاء البدو، الذين لم يكلفوا أنفسهم مشقة إعادة ملء قِرابهم بالماء فى دكاكا، بإعادة ملء هذه القراب بالماء مرة ثانية من الباحة سالفة الذكر. وفى باحة جمال أيضًا قمنا بسُقْيا الإبل، نظرًا لأن ماء هذا الثقب يعد ماءً حلوًا، فى الوقت الذى كان الماء موجودًا أمامنا مالح المذاق، الأمر الذى يزيد من حدة العطش ويتسبب فى اضطراب الصحة. يضاف إلى ذلك أن المراعى المالحة فى هذه الرمال كانت هى الأخرى غير جاذبة للإبل.

انتقلنا فى اليوم التالى من منطقة بواح إلى منطقة أم ماليسه. وهنا بدأنا نتحقق من أن الرمال الوسيطة ازدادت وعورة على وعورتها، وهنا أيضًا وجدنا أن السلاسل الجبلية الرملية الجميلة الطويلة أصبحت غير واضحة المعالم، بل إنها انقسمت إلى سلاسل صغيرة منفصلة، يقال أنها تواصل امتدادها فى اتجاه الشمال لمدة مسير يوم واحد، فى الجانب الأيمن، على شكل حرف S مقلوب، خلال مناطق الحض فى كل من كرسوع ووساع إلى أن تصل إلى الكثبان الرملية فى سعافوك شمالى الخط الموازى الحادى والعشرين.

كانت الحرارة على أشدها حتى ونحن فى هذا الشهر، يناير، وهو شهر من شهور الشتاء، وهنا أحسست ولأول مرة، بالإرهاق الشديد خلال هذه الرحلة، وربما كان ذلك الإرهاق ناجمًا من ناحية عن تأثير الشمس التى ألهبت حرارتها ظهرى على امتداد تسع ساعات طوال أمضيتها كلها وأنا راكبٌ دابتى (ناقتى)، وناجمًا أيضًا من ناحية ثانية عن العطش الشديد الذى اعترانى بعد أن شربت ماء بواح الذى له لون البيرة.

يزاد على ذلك، أن مسألة تدوينى للملاحظات تأخرت لمدة أسبوع- وسبب ذلك، إنى لم يكن لدىَّ الوقت أو الفرصة التى يمكن أن أستغلها فى ذلك، وإذا كان ما تبقى معنا من تعيينات ينذر بالنفاد، فإن ذلك بدوره حتَّم علىَّ التوقف أثناء النهار، لكن الظروف المحيطة بنا حتمت علينا المضى قُدُمًا فى ترحالنا، وفوق كل ذلك، فإن مسألة حرص البدو على إبلهم، هو الذى جعلهم يحسون بعدم الارتياح

أو الرضا فى هذه المناطق الجرداء التى ضربها الجفاف، الأمر الذى جعلهم متشوقين إلى مواصلة السير بأقصى سرعة ممكنة فى اتجاه بعض المراعى التى كانوا يتوقعون الوصول إليها فى جنوبى منطقة المرازيق.

كان اتجاهنا صوب الشمال سببًا من أسباب تناقص تهديد الغزاة لنا إلى أن خلَّفناه وراءنا فى نهاية المطاف. صحيح أن السَّعارين فى الأزمان الماضية كانوا يقومون بالغزو فى هذا الجزء من الجانب الشمالى، ولكن فى أيامنا هذه، نجد أن القسم الرئيس من قبيلة الرشايدة يقع إلى الخلف منا فى اتجاه الجنوب، وهذا يعنى أن الجماعة القائمة بالغزو لابد وأن تصطدم بهؤلاء الرشايدة، أو أنهم، تحت أى ظرف من الظروف لن يبلغوا من الحماقة حدًا يجعلهم يندفعون إلى هذا الحد ويعرِّضُون أنفسهم لخطر عزلهم ومحاصرتهم.

السَّعار اسم يُدْخل الرعب فى نفوس الرشايدة هم والقسم الجنوبى من قبيلة المُرَّه، الذين يدربون أبناءهم على الانتقام أو الثأر للأبناء والآباء من ناحية، واستعادة الثروات الضائعة من ناحية أخرى. ويتمثل السبب الرئيس الذى يقف وراء الصراعات القَبَليَّة فى المسألة الاقتصادية. الرجال يقْتُلُون ويُقتَلُون من أجل الإبل. والسلام، أو الهدنة، أمر متناوب مع فترات الحرب التى قد تستمر عامًا أو عامين. وفى زمن الحرب، من العار على الشاب أن يُبدى رغبته فى عدم حب الحرب أو المشاركة فيها. "شرب الخمر"، هو مرادف للشجاعة التى تعترى الشاب الذى ينبرى للقتل أو أن يُقْتَل وهو سعيد بما يفعل، لكن مسألة البقاء فى المنزل الذى يحمى حياته أو يجعله ينتحل الأعذار عندما يتعلق الأمر بالمصالح العامة للجماعة، يعد أمرًا مقيتًا ومكروهًا ولا يحظى بالاحترام أو التقدير من جانب أى فرد من أفراد القبيلة: والأمر لا يقف عند هذا الحد، إذ يصل إلى أن أفراد القبيلة يرفضون تزويج بناتهم لكل من يقع فى هذا المأزق، أو يتسم بهذا الوصف.

روى لى الشاب كلثوت، ولد الشيخ صالح، قصته "الدامية" مع السَّعارين، والتى أوردها هنا لا لأنها صورة حقيقية لما يجرى بين الأعداء عندما يلتقون وجهًا لوجه فى الربع الخالى، وإنما أُوردها هنا لإلقاء الضوء على النفساوية الصحراوية.

دارت حرب لمدة عام أو أكثر بين الرشايدة والسَّعارين، وقرر الرشايدة الدخول فى محادثات تمهيدية بغية استعادة الأمن والسلام. كان كلثوت، ولد الشيخ صالح، واحدًا من الأشخاص الأربعة الذين أُرسلوا على شكل مبعوثين لمحاولة عقد هدنة لمدة عام. بدأ الأشخاص الأربعة رحلتهم ثم وصلوا إلى منطقة السُّهوب، وكانوا يتطلعون إلى وصول مرافق لهم من السَّعارين، حتى يؤمِّن لهم مرورهم خلال أراضى السعارين.

تتواصل الحكاية على لسان كلثوت نفسه، لأن وجهه كان يتهلل فرحًا، وهو جالس أمام نيران المخيم، وكله نشاط وحيوية، ذلك أن البدوى عندما يتكلم يستعمل عينيه ويديه.

"كان الوقت بعد قرابة ساعة من صلاة العصر ونزلنا عن دوابنا عند حافة الوادى وزحفنا وصولاً إلى حافة الوادى، ورحنا نطيل النظر إلى الوادى فى الأسفل، ورأينا خمسة من البدو جالسين حول نار المخيم، وكانت إبلهم ترعى على مقربة منهم، وتعرفناهم من سُرُج إبلهم ثنائية القضبان، وهى السُّرج التى يستعملها السَّعارين. وهنا تملَّك الجشع قلوبنا، وعلى الرغم من مجيئنا طلبًا للسلام، فإننا لم نفعل ذلك، ولا نزال فى حالة حرب مع السَّعارين، يضاف إلى ذلك إن الله أوقع هؤلاء السعارين فى أيدينا، وكان الليل قد أوشك على الدخول علينا، وسوف يحتم ذلك عليهم ترك إبلهم ترعى وأنهم سيخلدون إلى النوم بعد ذلك. وعندها نستطيع التسلل ونقوم بقتل هؤلاء الخمسة، والفرار بعد ذلك ومعنا غنيمة الإبل. لكن فى هذه اللحظة انقسم مستشارونا فى آرائهم. كان من رأيى أننا لدينا ميزة كبيرة، وهى أننا رأيناهم فى البداية دون أن يعرفوا هم شيئًا عن وجودنا. يضاف إلى ذلك، أن العضوين الكبيرين بيننا، وهما عمى سيف، شيخ السعادنة، ورفيقه، لم يوافقا على مسألة القتل والغزو، وقالا لنا إن هؤلاء الخمسة ربما يكونون من ضمن جماعة أكبر تتمركز على مقربة منهم، وأن وجود هؤلاء الخمسة فى هذا الموقع المتقدم يدل على أنهم على وشك الدخول فى الحرب، وأن الهدف من ذلك هو تغيير حالتهم النفسية؛ حتى لا يدخلوا فى مفاوضات تمهيدية طلبًا للسلام؛ وقالا إن مَهمَّتنا يجب أن تنتهى عند هذا الحد، وأننا يجب أن نفر

عائدين. وفى موجة من الفخر والتباهى قال كل من مُسَلم، وهو من بيت إيمانى، وأنا، إننا لن نعود إلا ومعنا إبل أعدائنا. وهنا حاول كبارنا، عن طريق الكلام الحكيم إقناعنا بالعودة معهم، ولكننا لم نُلقِ بالاً لكلامهم وعليه خلَّفونا وراءهم.

وقمت أنا ومُسَلم بتقييد جملينا على بعد مسافة آمنة وتسللنا إلى بداية المضيق كيما نقوم بمراقبة تحركات العدو. وعلى الفور قام واحد منهم باقتياد الإبل بعد ذلك إلى رفاقه. شاهدناهم وهم يجهزون نارهم استعدادًا لقضاء الليل. لكن مع تناقص عددنا فقد أصبحنا اثنين فقط، فى مواجهة خمسة قررنا أننا لن نستطيع التغلب عليهم؛ وعوضًا عن ذلك، فضلنا التسلل خلسة فى جوف الليل، ونقوم بسرقة الإبل، ثم نرحل مستغلين فى ذلك ميزة إنهم عندما يستيقظون فى الصباح لن يستطيعوا اللحاق بنا، سيرًا على الأقدام. وعليه أدينا صلاة العشاء، وعدنا إلى الأماكن التى نراقب منها عَدوَّنا ورحنا ننتظر فى هذه الأماكن؛ وعليه وعند منتصف الليل وبعد أن خبا ضوء نارهم، تحركنا خلسة- كان بوسعنا قتل الخمسة وهم نيام لو كان عددنا أكثر من عددهم - ثم قمنا بفك قيود الإبل وسلكنا بعد ذلك منحدرًا هينًا وصولاً إلى إبلنا، وبدأنا رحلة عودتنا.

"استيقظ قبل الفجر واحد من السَّعارين واكتشف عدم وجود الإبل- أيقظ الرجل رفاقه الآخرين واقتفوا أثرنا فى ضوء القمر. وأسرعنا نحن بدورنا الخطى إلى عصر اليوم التالى، لكن لما كنا تعبانين، ولما كنا قد بدأنا قبل استيقاظ السَّعارين بوقت طويل، فقد كنت أنا ورفيقى بحاجة ماسة إلى الوقوف لنيل قسط من الراحة، وغلبنا النوم خلال هذه الراحة- واستيقظت فجأة. ووجدت أمامى، وعلى بعد قرابة مائة خطوة، عربيًا أنا أصبحت فى مرمى طلقات بندقيته. نظرت حولى على وجه السرعة، ولما لم أرَ أحدًا آخر، ظننت أنه وحيد؛ وعليه قفزت خلف صخرة صغيرة كيما أُخرج بندقيتى من جرابها[1]؛ لكنى قبل

(١) يحمل كل بدوى من بدو الربع الخالى، بندقيته فى جراب مصنوع من الجلد وذلك من باب منع الرمل من الدخول إلى أجزاء البندقية. والعربى يصنع هذا الجراب بنفسه، وغالبًا ما يكون مصنوعًا من جلد وعل من الوعول أو جلد حيوان آخر من الحيوانات التى يصطادها العرب. ويزيّن العربى طرف هذا الجراب بباقة من خيوط الجلد. لكن العربى العمانى الثرى يزين جراب بندقيته بأحزمة من الفضة والذهب، وذلك من باب حبه الشديد لتلك البندقية.

أن أتمكن من ذلك فتح العربى علىَّ نار بندقيته. ولم تُصِبْنى الطلقة. وهنا تمكنت من إدخال طلقة فى بندقيتى، لكنى خطر على بالى أنه ربما يكون قد أطلق هذه الطلقة كإجراء دفاعى، وربما كان صديقًا، قد يكون من المهارين وحسبنى واحدًا من السعارين، وهنا صحت قائلاً: "نحن من الرشايدة" "لا تخف، نحن من الرشايدة".

وردَّ علىَّ قائلاً: "فى وجهى. أنا فلان الفلانى من السَّعارين، ونحن (ذكر البطن الذى ينتمى إليها) فى سلام مع الرشايدة. أنت أخذت إبلى، ونحن أقوى منك؛ يقف خلفى ثلاثون رجلاً".

"صحت قائلاً: "اضمن لى حياتى، وجملى، وبندقيتى".

رد علىَّ قائلاً: "فى وجهى".

"وعليه نهضت واقفًا. لكن بعد ذلك كله، اندفعت جماعته وراحت تهاجمنى، غير عارفة أو مُقرَّة بما جرى بينى وبين هذا الرجل. واستلَّ واحد منهم خنجره وراح يهددنى به"، (وهنا وضع كلثوت إصبعه فى فمه وراح يحك الشامة الموجودة فى ساعده بحثًا عن أثر الجرح القديم)، وقام شخص آخر بطعن رفيقى، الذى تراجع إلى الخلف، ولم يُصَب سوى بإصابة طفيفة فى جبهته بين عينيه؛ على الرغم من أنه نزف دمًا كثيرًا. لكن الآن، وبفضل الله، جاء الرجل الأول الذى سبق أن أعطانا الحماية والملاذ وتدخل فى الأمر، وبذلك أنقذ حياتنا".

"إذن، فقد تغلب عليك خَصْمك؟".

"نعم! أخذوا منا جملينا أيضًا على إبلهم، وأخذوا منا أيضًا بندقيتينا وخنجرينا، على الرغم من الوعد بأنهم سيعطوننى خنجرى، ومع ذلك فقد بَرُّوا بوعدهم، لأننا عندما أبرمنا معهم سلمًا بعد ذلك، استعدت بندقيتى، كما حصلت أيضًا على جمل بدلاً من الجمل الذى أخذوه منى- لكنى لم أحصل على الخنجر؛ (وهنا مسار غير عادى تمامًا، نظرًا لأن القبائل التى بينها عداء تقليدى لا تسمح باستعادة ما أُخذ، وذلك تنفيذًا للقاعدة التى يتبعونها "الماضى فات وانتهى").

يواصل كلثوث كلامه، "لكن هذه الجماعة من السَّعارين أنفسهم أطاح بها سوء الحظ. فقد واصلت هذه الجماعة سيرها فى اتجاه الشرق وصادفت واحدًا من المهارين هو وزوجته وجملاً واحدًا، وقتلوا الرجل وأخذوا الجمل، لكن هذه الجماعة عندما وصلت إلى بلاد المناهيل أطبقت عليها جماعة غازية من بيت كثير ومن المهارين؛ وكانت هذه الجماعة أكبر عددًا من جماعة السعارين، وقتل شيخ السعارين وفرت الجماعة هاربة، ووقعت غنيمتهم فى يدَىْ ابن تنَّاف[1].

---

(١) ابن تنَّاف هو اللقب الوراثى لشيخ قبيلة المناهيل. وحامل هذا اللقب حاليًا واحد من أشهر قادة الغزو. جرى العرف أن يحصل قائد الغزو على جملين أو ثلاثة من أفضل الإبل التى يجرى الاستيلاء عليها، وبعد ذلك يجرى تقسيم الغنيمة بالتساوى كما هو وارد فى صمويل الأول، الإصحاح ٣٠، الآية: ٢٥.

الفصل الثامن عشر

عبور الرمال الوسطى

كانت صواحيب من خَلْفِنَا. اختفت عن أعيننا موجات الرمال حمراء اللون الشبيهة بالبطون المنتفخة، والتى لها سلسلة من القمم البيضاء التى تتلألأ فى ضوء الشمس، غابت عن أعيننا المراعى الخضراء التى رأيناها فى مسيراتنا الباكرة. وعند خط عرض ٢٠° درجة و٤٤ دقيقة، أعقب الحزام الوعر الضيق مساحة شاسعة من الرمال شاحبة اللون التى كانت تعطى إحساسًا بمحيط هادئ عديم الحركة. تمثل غوثنا هنا وهناك فى تلك البقع من الأرض التى تغطيها أعشاب الحض الذَّاوية الذابلة، التى غطتها مؤخرًا الرياح الجنوبية القوية بغشاء من الرمل الأبيض الناعم. وفيما عدا ذلك كان المشهد واحدًا من مشاهد الجدب الكامل، الذى يغطى جزءًا كبيرًا من الرمال الوسطى فى منطقة المزاريق، والمنجَّر، وتجعل منها مكانًا للجوع والخواء، وتجعل منها أيضًا مثوى يموت فيه كل من يتعين عليه السير على غير هدى فى هذه المنطقة، ومع ذلك، وقبل أربع سنوات قام واحد من أفراد قبيلة المرة المرافقين لى برعى الإبل فى هذه المنطقة. ولما كان الإفراط فى الكلام سمة أصيلة من سمات البدو، فقد أخبرنى أحدهم أن هذه الرمال كانت فى يوم من الأيام رمالاً مباركة، لكن الظروف كانت هى الأكثر توضيحًا وإضاءة لهذه المسألة؛ فقد أوضحت لى هذه الظروف الأسباب التى أدت إلى وجود هذه المراعى الفقيرة غير الثابتة، كما أوضحت لى أيضًا الأسباب التى حتمت الحرص على الماء بهذا الشكل، الأمر الذى جعلنى أقف على حقيقة مسألة الشك باعتبارها سمة أصيلة وأساسية فى الصحراء. من هنا يمكن لنا وبحق عزو

تلك التحركات والتنقلات العربية الباكرة الناجمة عن جوع البشر، إلى التقلبات المناخية، الغزو السامى البابلى، الغزو الكنعانى لسوريا وأيضًا غزو الهكسوس لمصر، إضافة إلى غزو العبرانيين لفلسطين.

لا تزال الحياة الحيوانية موجودة فى تلك البقاع الجرداء، وبالمصادفة البحتة عثرت فى هذه المناطق على عينتين شديدتَى الغرابة ومهمتين إلى أبعد الحدود؛ كانت العينة الأولى عبارة عن ثعلب(١) له لون الرمل، وحجمه أكبر قليلاً من حجم القط، لكنه كان كامل النمو، على حد قول العرب المرافقين لى، وأن الشاهد على ذلك النمو هو اكتمال أسنان هذا الثعلب؛ ثبت أن هذا الثعلب نوع جديد. وربما كان هذا النوع من الثعالب نوعًا من أنواع الفنك(*) المصرى.

تمثلت العينة الثانية فى بيض النسر الذى اكتشفناه فى عش هائل الحجم، شبيه بعش الروك(**) الإنجليزى، لكن هذا العش أكبر بكثير من عش طائر الروك الإنجليزى، ويبنى هذا الطائر عشه فوق جزء منعزل من أعشاب الأبالة - وأنا لم أرَ هذا الطائر، لكن بيضه شبيه جدًا ببيض النسر الحبشى. رفاقى ينظرون إلى هذا البيض على أنه لا يؤكل من الناحية الشرعية، فى حين أنهم يعدون بيض الحُبارى نوعًا من الترف. صادفنا الكثير من طيور الحبارى التى لا يزيد حجم الواحد منها على حجم الفرخ الرومى الصغير؛ وهذا الطائر شائع فى سائر أنحاء الجنوب وبخاصة فى الرمال الوسطى، وكانت تلك الطيور مسالمة وبريئة إذا ما اقترب منها جمل بلا راكب فوقه، ويصل الأمر بهذه الطيور إلى حد أنها تهوِّم فى الهواء من حول مثل هذا الجمل، لكن هذه الطيور لا تثق بالإنسان الذى يعد عندها أمرًا غير مألوف، ومن هنا فإن وقفاتنا طلبًا لتناول وجبة من الوجبات، لم نكن نرى فيها سوى هذه الطيور وهى إلى الخلف منا، ولذلك خاب أملنا فى مسألة اكتشاف حقيقة مسألة آثار المخالب التى رأيناها على الرمال-

---

(١) الناس هنا يطلقون على الثعلب اسم "الهرّ" الذى هو اسم عربى قديم يطلقه العرب على "القط".

(*) ثعلب عربى شمال أفريقى صغير الحجم، وهذا النوع من الثعالب شهير بأذنين كبيرتين وشديدتى التدبب. (المترجم).

(**) طائر من فصيلة الغراب صوته شبيه بصوت الحصان، يبنى عشه على شكل مستعمرات. (المترجم).



ثعلب جديد (؟)



(من نوع الفنك)

الشبيهة بنمط الريش الأنيق الذى يميز أمير ويلز. كانت حياة الطير نادرة فى هذه الرمال، كان الغراب له ذيل شبيه بالمروحة، الأكثر شيوعًا فى هذه الرمال، ويجىء فى المرحلة الثانية ذلك الطائر الذى ذيله هزَّاز . كان السواد الأعظم من الطيور التى التقيناها فرادى أو ثنائيات فى أفضل الأحوال. رأيت ذات مرة أربعة من طيور الحُبارى وهى تطير على شكل جماعة، لكن هذا كان أمرًا غير عادى.

كان القسم الأكبر من مجموعة[1] التاريخ الطبيعى مكونًا من حشرات صغيرة، خنافس، عناكب، عدد قليل من الحشرات المجنَّحة، الفراشات، والذباب كبير الحجم؛ ضمت هذه المجموعة أيضًا نوعًا جديدًا من السُّرعوفة (فَرَس النبى) فضلاً عن نوع جديد من الجراد.

كان الثعلب والأرنب البرى الملونين بلون الرمال، أكثر الفقاريات شيوعًا، وبخاصة فى الرمال الجنوبية، وكان ضمن المجموعة أيضًا فأر من فئران الرمال، وقط برى، وأيضًا ذئب، وذلك على الرغم من أن الاثنين الأخيرين خدعانى وضللانى. ويقال أن الذئب يجب أن يكون صغيرًا وملونًا بلون الرمال، وأنه يعيش بصفة أساسية فى الصواحيب، التى يمكن له أن يحفر فيها ثقبًا مؤديًا إلى المياه الضحلة.

كان من بين الزواحف اثنا عشر نوعًا من السحالى، كلها شبيهة ببعضها البعض، ولكل منها خرطوم تستعمله فى الغوص فى الرمال. وكان الأشهر بين هذه السحالى، ذلك النوع قصير الأطراف، وله أيضًا جسم مربع لونه شبيه بلون الرمال، وهناك علامات سوداء على جانبَىْ هذا النوع من السحالى. وجسم هذا النوع من السحالى ناعم وبراق مثل جسم الثعبان، ولكن هذا لم يمنع أحد الأعراب المرافقين لى من القيام بعمل طفولى، انطوى على وضع ذيل السحلية وجزء من جسمها فى فمه. كانت كبرى تلك السحالى قوية ورذيلة إلى الحد الذى يحتم التعامل معها كما لو كانت ثعبانًا، أى بالإمساك بها من أسفل رأسها. هذا

---

(١) وصل عدد العينات التى جرى جمعها من الرمال إلى قرابة مائة وخمسة وعشرين نوعًا. وقد أوردت الملاحظات التى أبداها أعضاء المتحف البريطانى (للتاريخ الطبيعى) فى الملحق المرقوم ٢.

النوع الكبير من السحالى، وعلى العكس من كل سحالى السهوب، لا يأكله البدو. وعندما فتحنا بطن واحدة من هذه السحالى، وجدنا داخلها سحلية كاملة من السحالى صغيرة الحجم. عقارب الرمال صغيرة الحجم لونها أخضر شاحب، وذلك على العكس من الأنواع الكبيرة التى تجمع بين اللونين الأسود والأبيض والتى تعيش فى كل الجبال والسهوب. لم نعثر سوى على ثلاثة أنواع مختلفة من الثعابين، وكلها ملونة بلون الرمال، وهى الثعبان الذى يسمونه boa ، والثعبان المقرَّن، بالإضافة إلى ثعبان آخر يدعى Colubrid.

أدى حافز الوعد بالمكافآت إلى جعل العرب المرافقين لى يعملون بحماسة لمصلحة المتحف الطبيعى البريطانى. يزاد على ذلك أن تخفيض عدد هؤلاء المرافقين فى الرحلة التى قمنا بها فى اتجاه الشمال، أدى إلى تمكينى من تعرف هؤلاء المرافقين فى الرحلة التى قمنا بها الواحد بعد الآخر، على نحو كان يستحيل الوصول إليه مع الجماعات التى سبق أن رافقتنى فى هذا الترحال، والسبب فى ذلك هو كبر أعداد هذه الجماعات. والبدوى- إذا لم يكن متعصباً دينياً، وهو فى مثل هذا الحال يكون كتوماً ومتجهماً- يمكن أن يكون رفيقاً مبهجاً إلى أبعد الحدود، وذلك إذا حفَّزنا فيه عاطفة الركوب وعاطفة البندقية، وامتدحنا له فضائل الإبل، وكنا بشوشين معه. والبدوى عندما يغترب ويبتعد عن موطنه، يتحول خلال أسبوع أو نحو ذلك، إلى أخ بشوش، وعندما يصبح بحاجة إلى شىء بعينه، تراه يصبح متزلفاً ومتودداً. يزاد على ذلك، أن حوارات هذا البدوى، تزخر بكثير من الأوجاع التى أنزلها الله تعالى به - ومن هذه الأوجاع ألم المعدة على وجه التحديد. "ياللعجب"!.

"الحمَّى! لا وجود لها فى الرمال، وهذا من فضل الله"، يضاف إلى ذلك أن مرافقىَّ كانوا متشككين فى مسألة العدوى عن طريق وَخْز البعوض الذى كان يتسبب فى حالات قليلة من الحمى، وهنا خطر على بالى التعبيرات غير الصادقة التى من قبيل "لا إله إلا الله"، ذلك التعبير التعجبى المعتاد الذى ينطلق من فم البدوى عندما يواجه أو يصادف موقفاً من المواقف التى تدعو إلى الدهشة. ووافقنى الشيخ صالح على أن البعوض مؤرِّق كبير فى ظفار، إلى حد أن زيارة

هذا الرجل لظفار كانت نعمة ونقمة فى آنٍ واحد، وفى الوقت الذى كان الشيخ صالح معتادًا فيه على تلك الأعداد التى لا تحصى ولا تعد وتحيط ببعض ثقوب المياه فى الرمال، فقد أمضى الرجل هو وجمله فى ظفار ليالى مؤرِّقة جعلته يفرح عندما أوشك على الرحيل عن ظفار. زد على ذلك، أن البراغيث والقمل يوجد بأعداد كبيرة فى منطقة الرمال، وكان كل اثنين من البدو المرافقين له، عندما يجدان نفسيهما غير مشغولين خلال وقفة من الوقفات، فإنهما كانا يتبادلان مطاردة البراغيث، بأن يستلقى أحدهما على وجهه على الرمل، فى حين يجلس رفيقه منحنى الرأس ويروح يكشط البراغيث من طيات ملابس وخصلات شعر رفيقه مستعملاً فى ذلك حد خنجره.

"كان أحدهم يقول لى وهو ينظر إلى وجهى: "عجيب ألا ترى برغوثًا أو قملة فى متاعك!"، ثم يقول بعد ذلك فى شىء من التباهى والتفاخر: "هذه الحقائب أو الجوالات المصنوعة من القش والتى نصنع منها سُرُجًا لظهور الإبل لا تجذب هذه الحشرات، فى حين نجد أن السُّرُج مزدوجة العمودين التى تستعملها قبائل المُرَّه، تعد ملاذًا مفضلاً لهذه الحشرات".

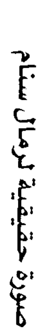
كنت جاهزًا ومستعدًا لتحويل الحديث إلى موضوع آخر، ووجدت نفسى جاهزًا ومستعدًا لتغيير موضوع الحديث إلى ما هو أفضل من هذا الموضوع، واكتشفت أنه على استعداد للتحدث والإصغاء إلى سيرة بنى هلال.

"هل تود أن تسمع ذلك الذى آل إليه مصير الشاب عزيز، ولد خاله"؟.

"نعم، أود الاستماع إلى ذلك".

وعندها قال إنه سيحكى لى قصة التضحية التى فرضها عزيز بن خاله بغية تحقيق ما يوده والده.

"كان أبو زيد يحب فتاة تدعى عاليه، وهى من قبيلة مجاورة لقبيلة بنى هلال. وذات يوم قام أبو زيد بزيارة لهذه الفتاة، واصطحب معه عزيز، الذى لم يكن قد رأى هذه الفتاة. وراح أبو زيد يصف مظاهر جمال هذه الصبية وهما سائران فى طريقهما إليها. قال أبو زيد: "لكنك يجب أن تعرفها يا عزيز من خلال كلامى



صورة حقيقية لرمال سنام

عنها. وهى عندما تجلس مع نساء أخريات تكون هى الأطول من بينهن؛ لكنها عندما تقف تكون أقصر منهن. ويصل الأب والابن إلى بئر كانت النساء يجلبن منها الماء، وكانت عاليه وسط أو من بين هذه النساء؛ ورآهن عزيز أول مرة، وهن جالسات على بئر الماء ثم وقفن بعد ذلك وانصرفن لحال سبيلهن، الأمر الذى مكَّنه من معرفة عاليه. لكن المؤسف، أن عاليه كانت لشخص آخر من أقارب أمها، وأن تلك الليلة كانت هى ليلة الدُّخلة، أى الليلة التى سينضم إليها فيها زوجها الجديد. لكن عاليه كانت تشعر بالتعاسة لأنها كانت تحب أبا زيد.

"وهنا قام عزيز نفسه بارتداء ثوب زفاف عاليه، ولبس مجوهراتها فى عنقه وعلى ذراعيه، ثم دخل إلى فراش العرس، فى حين ذهبت عاليه إلى البرية إلى المكان الذى يوجد فيه أبوزيد، وأمضت الليلة فى حضن حبيبها".

"جاء الزوج الجديد أثناء الليل إلى مخدع عاليه، لكنه كان كلما اقترب من عروسه المُتخيَّلة، كان عزيز لا يوليه أى قدر من الاهتمام، ولم يرد ولو بكلمة واحدة على توسُّلاته وتودداته، بل إنه كان يصده للابتعاد عنه. وفى صبيحة اليوم التالى أخذ العريس عزيز إلى العالم وشرح له ما دار أثناء الليل، وأردف قائلاً: "أنا لم أتأكد فى الليل إنها هى عاليه، لأنى رجل قوى ولم يسبق مطلقًا أن واجهت أحدًا يستطيع مقاومتى سوى عزيز بن خاله".

"رد عليه العالم قائلاً: "اذهب إليها هذه الليلة وخذ معك إبرة. وإذا لم تستقبلك استقبالاً حسنًا، انزع شعرة من رأسها، ثم اغرس الإبرة فى عرق كاحل فخذها اليسرى. فإن كانت هى عاليه أو امرأة فإنها سوف تعيش، لكنها إن كانت رجلاً فسوف تموت وأنت سوف تعرفها من تلك الشعرة".

"وعليه، عاد العريس إلى عاليه فى تلك الليلة فى مخدعها، لكنه لقى المعاملة نفسها التى لقيها فى الليلة السابقة، وأثناء مصارعته لها استطاع انتزاع شعرة من شعر رأس عزيز بن خاله، وهنا قام بغرس الإبرة فى وريد خصره، وابتعد عنه".

"استيقظ عزيز بن خاله قبل طلوع الفجر، وهو الموعد الذى حدده لنفسه، ثم ذهب إلى المكان الذى فيه والده فى البرية، وحكى لوالده ذلك الذى حدث بينه وبين العريس. وتملَّك الخوف عاليه، لكن أبا زيد انتزع شعرة من شعر رأسها

وغرس إبرة فى وريد خصرها حتى يمكن لزوجها أن يرى العلامات نفسها، وبالتالى ينتفى شَكُّه فيها.

"وركب أبو زيد هو وعزيز جمليهما ورحلا، والإبرة لا تزال فى خصره، لأنه إذا أخرجها، فسوف ينزف حتى الموت".

يصل أبو زيد هو وعزيز ولد خاله إلى سهل من السهول، وهنا قال عزيز لوالده: "يا أبتاه، ما المكان الذى يصلح لك؟".

قال أبو زيد: "هو المكان الذى يناسب ويصلح لرعى الإبل".

"ويواصل الاثنان سيرهما إلى أن وصلا إلى مرعى آخر"، وهنا سأل عزيز والده، "لأى شىء يصلح هذا المكان؟" ويجيب عليه أبو زيد قائلاً: "هذا المكان يصلح يا ولدى لتربية الخيول".

"ويواصلان مسيرهما إلى أن وصلا إلى مكان قفر قاحل"، وهنا سأل عزيز والده، "ما الذى يصلح له هذا المكان، يا والدى؟".

ويجيبه أبو زيد "هذا المكان لا يصلح إلا للقبور".

"قال عزيز" : "هيا بنا ننزل عن مطيتينا هنا، وساعدنى على حفر قبر".

"وعليه قام كل من أبو زيد هو وعزيز بحفر القبر المطلوب، وهنا قام عزيز بنزع الإبرة من خصره ووافته المنية، ودفنه والده فى القبر".

واصل أبو زيد سيره إلى أن عاد إلى موطنه وخيامه، والتقى أخته، أم عزيز فى مكان بعيد وعلى انفراد؛ وهنا هرولت أخته وهى تتساءل، "أين عزيز؟ أين عزيز؟".

"أجابها أبو زيد: "كنا نغزو ووقع فى أيدينا عدد كبير من الإبل، وأنا استبقته لأجىء إليكم بهذا الخبز الطيب، وسيأتى عزيز ومعه الغنيمة".

"انقضت بضعة أيام، وازدادت الأم قلقًا على قلقها؛ ومع مضى المزيد من الأيام ولَمَّا لم يأت عزيز، راحت الأم تجوب الخيام وهى تبكى حزنًا على مصير ولدها، ولم تشعر مطلقًا بالارتياح.

"كان أبو زيد حزينًا فى داخله، وراح يغمغم ويتمتم فيما بينه وبين نفسه":

"هل وصلتك أيتها السيدة العجوز، الأخبار السيئة؟

أنت تعرفين بيتنا

والذئب يعرف مكان تجمع القطعان

أثناء الليل".

"ثم يقول بعد ذلك بصوتٍ عالٍ:

"يا حزنى، لو قلت إنه مات، سوف تموت،

لو قلت إنه حى، فأنا كاذب".

"وهنا عرفت أم عزيز أن ولدها قد مات".

وما إن انتهت القصة، حتى جعل صوت المؤذن المستمعين يقفون على أقدامهم، وينصرفون للانضمام إلى صف المتعبدين الطويل من خلف حمد بن هادى الذى كان يؤمُّهم فى الصلاة.

بدأنا بداية مبكرة فى اليوم التاسع عشر من شهر يناير، ويمَّمنا مسيرنا فى اتجاه الشمال الغربى. وأدى عدم وجود مناطق لرعى الإبل فى طريقنا، وعطش الإبل بسبب المرعى المالح إلى تسريع مسيرنا. وبعد أن غادرنا أم قرينين عن يميننا- وهى عبارة عن ثقب ماء هو بمثابة الحد الشمالى لمنطقة المنجَّر- وصلنا إلى منطقة الرمال فى سنام، التى هى على شكل تورُّم متدحرج لطيف أبيض اللون. هذا الإقليم - لأن الكلمة نفسها تعنى سنام الجمل- شهير بحلاوة ثقوب مياهه عن الثقوب الأخرى من ناحية وعمق هذه الثقوب غير العادى[1] من ناحية أخرى، إذ يصل متوسط هذا العمق إلى إحدى عشرة قامة، وهناك بعض الثقوب فى الغرب، يصل متوسط عمقها إلى ما يتردد بين خمس عشرة وسبع عشرة قامة.

---

(١) تشكل البكَّارة البدائية جزءًا من عُدَّة جلب الماء التى تستعملها قبائل المره: استعمال هذه البكَّارة ليس أمرًا ضروريًا فى أى مكان فى الجنوب.

جرى العرف أن الثقوب ذات الأعماق الأقل من ذلك، وبخاصة فى الرمال الجنوبية، كان يجرى ردمها فى بعض الأحيان، بعد السقيا وذلك لعرقلة المطاردين المحتملين وتعطيلهم. لكن ثقوب المياه هنا، يجرى سقفها لحمايتها، والسبب فى ذلك أن عملاً شاقًا، ومهارة كبيرة، وشجاعة كبيرة أيضًا بُذلت فى حفر هذه الأبيار. واقع الأمر أن ثقوب المياه العميقة فى منطقة الطوال، قد تكلف الإنسان حياته والسبب فى ذلك أن الأجناب الطَّريَّة للثقب معرضة للانهيار وبالتالى تدفن القائمين بالحفر، وهنا تصبح الدعامة الوحيدة متمثلة فى تلك الأغصان المأخوذة من بعض شجيرات الرمال، والموضوعة على شكل ملفات على جوانب الحفرة. وعندما تجاوزنا صفيف، استدار إلىَّ واحد من قبيلة المره: "أربعة من إخوانى (أى من قبيلة المرة) يرقدون فى هذه الحفرة" أو بالأحرى فى هذا القاع. نزل اثنان منهم لتنظيف الثقب وانهار عليهما الرمل، وحاول رفاقهما إنقاذهما، لكن الرمال جرفتهما أيضًا. صفيف قبر من القبور؛ وعليه تحاشيناها وهجرناها".

دخل علينا رمضان شهر الصوم. لم نَرَ هلال القمر فى صبيحة اليوم العشرين من شهر يناير، وعليه أصبحت الآمال معلقة على فترة المساء. توقفنا فى الوقت المناسب، وراحت الأعين كلها تتطلع إلى الأفق الغربى عند غروب الشمس. يثير ظهور هلال رمضان شغفًا كبيرًا وشديدًا عند المؤمنين، وفى عُمان يكون دخول شهر رمضان وانتهاؤه مصحوبًا بكثير مما هو أكبر من التحية الملكية. كانت خيبة الأمل فى ذلك المساء أمرًا مقدورًا علينا. تحول لون السماء الزعفرانى إلى اللون الارتوازى الرمادى، ثم دخل علينا الظلام بعد ذلك، ومع ذلك لم يظهر هلال رمضان؛ هذا يعنى أن رفاقى لن يكبروا فى الصباح حمدًا له على شهر الصوم.

يقع ثقب الماء التالى، والذى يسمونه ثقب ماء فراجه، على بعد مسير قرابة تسع ساعات ونصف الساعة، واضطررنا إلى قطع هذه المسافة نظرًا لأن قراب الماء كانت فارغة. كنا لا نزال راكبين مطايانا عندما بدأنا نرى من أمامنا أصوات طلقات البنادق عقب غروب الشمس مباشرة، وهنا ظهر جزء شاحب من هلال القمر فى السماء الشاحبة. وهنا راح رفاقى يُبرِّكون إبلهم وهم يصيحون مكبرين "الله أكبر"، وسجدوا جميعهم شكرًا لله تعالى، وقام واحد أو اثنان منهم بتوجيه مواسير بنادقهم إلى الأسفل فى اتجاه الرمال. كان مسارنا قد اتجه غربًا اتباعًا

لمسار جماعة المقدمة التابعة لنا، وتواصل سيرنا إلى ما بعد دخول الظلام، إلى أن ظهر وميض نار مخيم بعيد، الذى اعتبرناه إشارة إلى المكان الذى سنقضى فيه الليل. كان رفاقى على سفر وبالتالى كان الشرع يبيح لهم عدم الصوم وتأجيله إلى أن يعودوا إلى ديارهم، لكنهم جميعًا لم يعملوا بأىٍّ من هاتين القاعدتين- صاموا(١) كلهم وهم سائرون ومترحلون، وهذا هو ما فعله أفراد بيت الكثيرى عندما كانوا مرافقين لى فى موجشين فى رحلة العام الماضى. وهنا راح رفاقى يُعملون المبدأ الشرعى لقصر الصلاة وجمعها بحكم أنهم كانوا سائرين، هذا يعنى أنهم قصروا الصلوات الخمس إلى ثلاث فقط، لكنهم عى الرغم من دخول رمضان كانوا يؤدون الصلوات الخمس كاملة. لم يتغير النظام الغذائى لهؤلاء البشر بفعل ذلك الحماس الدينى الزائد على الحد. كانت وجبة العشاء تعقب صلاة العشاء، أما الآن فإن هذه الوجبة تعقب أذان المغرب، وغالبًا ما تكون هذه الوجبة محشورة بين صلاة المغرب والصلاة التى تليها.

يجوز لمن يستطلعون المراعى تأجيل صوم رمضان، لكن القاعدة الخاصة بمن يقوم بالغزو تختلف عن باقى القواعد. يجوز له تأجيل الصوم إلى ما بعد القيام بالغزو؛ ويتعين على الغازى عند الاقتراب وأثناء الهجوم أن يكون صائمًا.

قبائل الرمال لديها أيضًا قاعدة عجيبة خاصة بالزواج. الاتصال الجنسى فى رمضان مباح فقط إذا كان سيعقبه الاغتسال الكامل، هذا يعنى أن يكون المرء قريبًا من الماء أو حاملاً له.

يتغاضى الناس، فى أوقات أخرى من العام، عن ذلك الشرط الدينى الخاص بالاغتسال. والناس عندما يكونون بعيدين عن الماء، يستعملون الرمل (فى التيمم) قبل الصلاة، لكنهم لا يفعلون شيئًا بعد الاتصال الجنسى. وعليه؛ إذا لم تكن

---

(١) يقول الرشايدة إن السعارين لا يصلون ولا يصومون، وهذه سُبَّة فى حقهم. يضاف إلى ذلك أن السعارين يسخرون من الزائر الرشيدى الذى يصلى ويصوم (فى وقت السلم) وذلك على الرغم من أن هؤلاء السعارين يحلفون بالله ويؤمنون به - "هم يقولون، الله أعلم!! إن أسلافهم هم الذين أنقذوا النبى (ﷺ) من أيدى الكفار الذين كانوا مصرين على اغتياله، وأن النبى (ﷺ) هو الذى أعفى هذا السلف هو ومن ورثوه من الصلاة. هم يقولون ذلك! سامحهم الله!".

هناك قاعدة تحول دون الزواج فى رمضان، فإن الزواج الذى من هذا القبيل يكون جد نادر فى الرمال، إن لم يسمع الناس عنه مطلقًا.

أشهُر الصحراء شهور قمرية، لكنها يطلق عليها أسماء لا تكون عادة متفقة مع التقويم الإسلامى[1]. وعلى سبيل المثال، فإن كلمة المحُرَّم، لا يستعملها بدو الرمال مطلقًا، وهم يعرفون العام (السنة)، إن كان لهم أن يؤرخوا له، بأنه يبدأ بشهر الصوم أو شهر الحج.

هنا عند خط عرض ٢١ درجة وثلاثين دقيقة يتحتم أن تكون رمال السنام قد بدأت فى التضاؤل لأول مرة، إذ بدأت الأرض الصلبة فى الظهور على شكل بقع دائرية الشكل من بين الرمال.

عثر واحد من البدو المرافقين لى على بعض قطع من الزجاج المكسَّر كئيب الشكل، على سطح واحدة من هذه البقع الدائرية، وقام بإحضار هذه القطع إلىَّ. نظرت إلى هذه القطع ولم أتبين عليها أى أثر من آثار التصنيع، ولكنى تبينت فى هذه القطع بعض التموجات الطبيعية الواضحة تمامًا، وهنا بدأت أتشكك فى مسألة ما إذا كانت هذه المنطقة كانت مأهولة من قبل بالبشر[2]، وفضلت على ذلك النظرية التى تقول إن الدبس- عصير التمر- جرى إحضاره إلى هنا فى أوانٍ من الأحساء، فى شهور رمضان السابقة، وربما كان ذلك قبل أن تصبح صفيحة الكيروسين الوعاء الشائع استعماله فى الجزيرة العربية. ومن هنا كان لابد من استبعاد احتمال العثور على بقايا أثرية فى سنام، [توجد صفحات ساقطة: (الصفحتان الساقطتان هما ٢٤٦ و ٢٤٧ من النص الإنجليزى)]. تطرق الحديث بعد ذلك، إلى قبيلة المُرَّه، وذلك الوحش الذى قيل أن الناس كانوا

---

(١) شهور عرب الرمال هى: رمضان؛ عيد الفطر الأول، عيد الفطر الثانى؛ عرفة (شهر الحج)؛ عشور (أو شهر الزكاة)؛ صفر: طوم الأول؛ طوم الثانى؛ طوم الثالث؛ ميثال ليل (أحيانًا يسمونه طوم العُربة)، يسمونه طوام؛ رجب، قصير. يعد شهر القصير وميثال ليل من الشهور غير المواتية للغزو أو الترحال، وينطبق هذا الكلام أيضًا على شهر رمضان اللهم إلا إن كان التحرك قد بدأ بالفعل.

(٢) سلوه، إسكال، وكذلك ما باك، عبارة عن مواقع قديمة فى شبه الجزيرة القطرية، والناس يعزون وجود هذه المواقع إلى الفوارس، أو الفرس. هذه المواقع موجودة فى أيدى الإخوان، وهذا هو السبب الذى منعنى من استكشاف هذه المواقع.

يقدمون له كل عام كبشًا وواحدًا من البشر، يقوم بالتهامهما، وأن الناس عندما كانوا يفعلون ذلك، كانوا يتقون شر ذلك الوحش، الذى جاءت روايته على النحو التالى إلى أن أفلح أبو زيد فى القضاء عليه بعد الإخوان الثلاثة الذين سبقوه إلى هذه المهمة ولم يفلحوا فيها:

"أسندت مراقبة ذلك الوحش، أول مرة، إلى رجل قوى سبق أن قام باقتلاع كل أشجار الغاف الموجودة على جانبَى الطريق ويذهب الرجل لأداء المهمة، وعندما اقترب من الجن، الذى كان على شكل أفعى ضخمة، صاح ذلك الجن قائلاً: "آهاها! أنت يا من تحضر إلى عشائى - أعطنى الكبش أولاً!" ويهرب الرجل، بعد أن امتلأ خوفًا، وعاد إلى الإخوان الثلاثة، أبى زيد، يوسف، وبريقه، وهو يقول "من المؤكد أن الجن سوف يلتهمكم"، وراح الرجل يجرى هربًا ولم يَرَهُ أحد بعد ذلك.

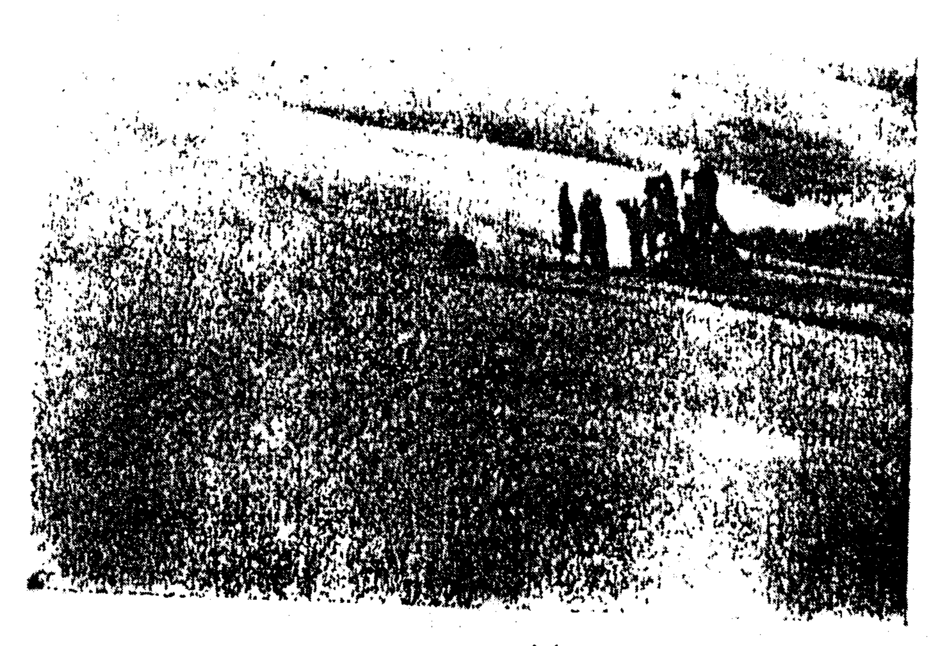
اقترب يوسف، المراقب الثانى، من الجن وهو يحمل سيفه، ولابسًا ترسه ومعه عصاه. وعندما سمع الجن، شخصًا يقترب منه، فتح فمه الضخم، وهنا أحدث يوسف شكلاً من أشكال الصُّلبان مستخدمًا فى ذلك سيفه وعصاه، ومرر ذلك الصليب من خلال مقبض الترس، أو الدرع إن شئت، ورشق ذلك الصليب فى فم الجن على نحو أدى إلى جعل السيف يقف على حده ويصل إلى سقف حنك الجن، وهنا استقرت العصا بين فَكَّى الجن الأمر الذى أعجز الجن عن قفل فمه، أو فعل أى شىء. وبذلك يكون يوسف قد أنهى فترة مراقبته للجن على هذا النحو، إلى أن حان موعد المراقب التالى، وعندها سحب يوسف أسلحته ورحل إلى الجانب الذى فيه إخوانه.

"تقدم بريقه بعد يوسف، وكانت بشرة بريقه بيضاء تمامًا على نحو حتَّم خلع ملابسه كلها حتى يصبح شفافًا. وبذلك عجز الجن عن رؤية بريقه، وأمضى وقته عبثًا فى البحث عن فريسته، وبينما كان الجن يفعل ذلك اصطدم رأسه بحجر من الأحجار، الأمر الذى أسفر عن فَقْء عين من عينَى ذلك الجن، وبذلك تنتهى فترة المراقبة الثالثة.

"أخيرًا، جاء أبو زيد، وتقدَّم تقدُّم الشجعان، نحو الجن وقال: "أغمض عينك الأخرى، وافرد عنقك، وافتح فمك حتى أستطيع الدخول فيه، لأكون أنا وجبة



وقفة لأداء الصلاة



فى يُبيلْة الباردة الجائعة

عشاءك"، وفعل الجن ذلك الذى طلبه منه أبو زيد، وهنا استلَّ أبو زيد سيفه وضرب عنق الجن ضربه أدت إلى قتله. وينحنى أبو زيد بعد ذلك ويلل راحة يده من دم الجن ثم جرى بسرعة كبيرة إلى قلعة حاكم البلدة، ثم قفز أبو زيد من فوق الأرض إلى أن كاد يصل إلى السقف، وضرب الجدار بيده المبللة بالدم فى المنطقة الواقعة فوق مدخل القلعة تاركًا بذلك أثر دم الجن على الجدار. ثم عاد أبو زيد بعد ذلك إلى أخويه وإلى ابنه الحاكم فى البريَّة.

"وعندما أصبح الصباح جاء أهل البلدة ورأوا أثر دم الجن الأحمر، كما رأوا أيضًا آثار يد بشرية على جدران القلعة، فى المنطقة الواقعة فوق المدخل. وهنا قام الحاكم بدعوة الناس كلهم بغية أن يكتشف مَنْ هو ذلك الشخص الذى أفلح فى قتل الجن. وقال الحاكم للناس: "أقسم بالله! أن من قتل الجن سيكون هو حاكم هذا البلد، وسوف أُسلِّمه القلعة".

"كان الحاضرون نفرًا كثيرًا من البشر، ردوا جميعًا على الحاكم قائلين: "أنا الذى قتلت الجن، أنا الذى قتلت الجن".

رد عليهم الحاكم قائلاً: "تعالوا إذًا، وليقفز كل واحد منكم ويلمس المكان الذى فيه الدم فوق بوابة القلعة".

"لكن أحدًا منهم لم يستطع فعل ذلك".

"وهنا جاء كل من بريقه ويوسف إلى المدينة ليريا نوعية ذلك المكان، نظرًا لأنهما تركا أبا زيد مع الفتاة ومع الإبل فى البرية".

"وعندما سمع الحاكم، عن وصول هذين الغريبين، أمر الرجال بإحضار كل من بريقه ويوسف ليَمثُلا أمامه. وقال لهما: "لقد كانت المدينة رهينة عند ذلك الجن، وهى الآن تخلصت من ذلك الجن، ولم يصبح هناك داعٍ للتضحية بفتاة وكبش وطبق من الأرز. من منكما الذى أحدث هذا الخلاص؟ خبِّرانى، لأن هذا الشخص سيكون هو الحاكم الذى سيحل محلى".

ردًّا عليه، "نحن لا نعرف من الذى فعل ذلك".

"لكن الحاكم لم يصدقهما، وقال لهما: "يتعين على كل منكما أن يقفز إلى الأعلى إلى أبعد مكان ممكن لكى أتبين من منكما الذى فعل ذلك".

"وقفز كل من يوسف وبريقه مثلما طلب منهما الحاكم، لكن أيديهما وصلت إلى مسافة قريبة من الدم الموجود على جدار القلعة، وهنا عرف الحاكم أن أيا منهما لم يفعل ذلك". وتحول الحاكم إليهما وقال: "وأين باقى جماعتكم؟".

"وقالا له وهما خائفان من تداعى الأحداث والنتائج السيئة: "لدينا عبد فقط"، (التصقت هذه السمة بأبى زيد لأنه كان أسود البشرة)- "وهو موجود خارج البلدة مع إبلنا".

رد عليهما الحاكم، "سوف أحتجزكما إلى أن أرى هذا العبد". وأمر الحاكم بإحضار جمل وعبدة وأرسل فى طلب إحضار أبى زيد. وقال الحاكم للعبدة : "عندما تصلين إلى المكان الذى فيه أبو زيد، اطلبى منه أن يركب خلفك، فإن كان عبدًا فسوف يفعل ذلك، أما إن كان حرًا، فسوف يرغب بشدة فى المجىء إلى هذا المكان وهو راكب أمامك، هذا يعنى أنه سوف يجعلك تركبين خلفه على الجمل".

وهنا ركبت العبدة الجمل وذهبت إلى البريَّة التى فيها أبو زيد وقالت: "أنا رسول من عند الحاكم، وهو يطلب مثولك أمامه على الفور، ومطلوب منك أن تركب خلفى على هذا الجمل"، وأشارت إليه كيما يركب خلفها.. لكن أبا زيد نحَّاها جانبًا وجعلها تركب خلفه، وعادا هما الاثنان إلى قلعة الحاكم وهما على هذا النحو، ونزلا من فوق الجمل.

"وهنا قال الحاكم لأبى زيد: "اقفز، أيها العبد، واجعل يدك تلامس اليد الدموية التى فوق مدخل القلعة. رد عليه أبو زيد: "أنا، كيف لى بذلك؟ أنا لا أستطيع عمل أى شىء".

قال الحاكم : "اقفز، لابد أن تقفز". وهنا قفز أبو زيد فى الهواء ووصلت يده إلى مكان أعلى من اليد الدموية التى كان قد أحدثها فى الليلة السابقة. وهنا عرف الناس كلهم أن الذى قتل الجن هو أبو زيد.

تحول الحاكم هنا ناحية الناس وقال: "لقد آن آوان أن يكون الرجل الذى خلصكم من الجن هو الحاكم عليكم"، ثم قال لأبى زيد: "هذه القلعة لك!".

"لكن أبا زيد رد عليه قائلاً: "أنا لا أريد مالاً ولا سلطة، وأنا أستأذنك فى الذهاب إلى متعتى".

"وأعطوا أبا زيد كنزًا وخيلاً ورزق الله - ورحل الرجل مع أخويه وهم جميعًا فى منتهى السعادة".

قبل انتهاء القصة، ظهرت إبلنا عبر الرمال، عائدة من المسقى. خرجتُ مع حمد للقاء هذه الإبل. وبينما كنا سائرين صادفنا الكثير من آثار الإبل؛ الأمر الذى يدل على أن فراجه واحد من ثقوب المياه المعروفة للجميع. وهنا وجدت أن الآثار المجمَّعة لأقدام أربعة من الإبل التى كانت تسير فى صف واحد، قد استرعت انتباه رفيقى، وهنا استدار رفيقى إلىَّ وسألنى من باب المناغشة، عن أفضل الإبل بين هذه الإبل الأربعة. وهنا أشرت - من باب اقتناعى الشخصى- إلى الأثر الخطأ غير الصحيح. قال رفيقى: "انظر هناك، هل ترى ذلك الطمس الذى فوق أصابع القدم الكبيرة؟ هذه إشارة جيدة: وليس هذا الانزلاق الذى أشرت إليه أنت"، قال هذا الكلام وهو يشير إلى ما ذكرته أنا "بين آثار الأقدام". ثم قال رفيقى عن الجمل الثالث: "هذا حيوان دخل مؤخرًا إلى منطقة السهوب. هل ترى الآثار غير المنظمة لأقدام هذه الناقة؟ الإبل الموجودة فى الرمال منذ زمن بعيد تترك آثارًا ناعمة، أما ذلك الأثر، (وهنا أشار إلى أثر أقدام الجمل الرابع) فهو أثر طفلها أو وليدها. ناقتك كبيرة وهى عُشار- ناظر الآثار العميقة لرجليها الخلفيتين الصغيرتين". هذا بالإضافة إلى هذا وذاك. كان ذلك أهم جزء فى موروث حمد الثقافى- هذا الموروث يعرفه كل ساكن من سكان الرمال لكن بدرجات متفاوتة- قراءة حال الإبل الغريبة، التى لم يَرَها البشر، وذلك عن طريق دراسة آثار هذه الإبل، وبالتالى يستطيع من يجيد قراءة هذه الآثار أن يقرِّر متى يهرب ومتى يواصل المسير.

قَصُّ الأثر فى الجزيرة العربية علم دقيق، وهو يتفوق على بصمة الإصبع التى يتميز بها العرب، وذلك من منطلق أن الرمال تعد وسيطًا كاملاً فى هذا الصدد.

يوجد، فى بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية المتقدمة - كما هو الحال فى عُمان، على سبيل المثال، بعض المحاكم التى تأخذ بشهادات قصاصى الأثر، وذلك على الرغم من أن القفَّار (قصاص الأثر كما يسمونه)، عنده بعض المواهب فى مسألة قص الأثر فى الرمال، ليست لدى عدد كبير من البشر على مستوى العالم. وقع حادث من هذا القبيل أثناء خدمتى فى عُمان، أى فى مسقط على

وجه التحديد. حدث أن جاء أحد الصينيين لشراء اللؤلؤ والأحجار البحرية الثمينة الأخرى، لكن هذا الصينى قُتل ذات ليلة وهو نائم على سطح منزله فى سوق مدينة مسقط. ويبدو أن القاتل بُوغت أثناء ارتكاب هذه الجريمة، لأنه قفز من سطح المنزل (كان المنزل مكونًا من طابق واحد) أثناء هروبه. وبقى الأثر الناجم عن قدمه فى الحارة التى كان يجرى خلالها. وعندما جرى اكتشاف هذه الجريمة فى صبيحة اليوم التالى جرى وضع إناء فوق الأثر الناجم عن قدم ذلك القاتل، وجرى أيضًا وضع حراس عند بداية الحارة وعند نهايتها، وذلك منعًا للناس من المرور خلال هذه الحارة، وأُرسل فى طلب قصاص شهير للأثر، جاء من أعالى البلاد. وتنقضى الأيام وتمر فى الوقت ذاته والمدينة تزداد عصبية على عصبيتها، نظرًا لأن عملية الاغتيال وحشية تمامًا- فقد جرى قطع العنق بخنجر حاد من الأذن إلى الأذن- وكان القاتل لا يزال فى قيد الحياة.

وصل قصاص الأثر وزار أثر القدم مرتين أو ثلاثة، وكان فى كل مرة يمضى بضع دقائق وهو جالس على يديه وركبتيه فوق أثر القدم هذا، وذلك كما لو كان يحاول تذكر صاحب ذلك الأثر.

وفى اليوم التالى، أمر المجلس القضائى (المحكمة) بأن يقوم الذكور كلهم بالمرور على قصاص الأثر حتى يتفحصهم جميعًا؛ وهنا قامت أحياء المدينة، الواحد بعد الآخر، بإرسال ذكورها.. وتنقضى بضعة أيام، وعندها قدم قصاص الأثر دليله أو إشارته.

كان القاتل شابًا فى العشرينيات من عمره عبدًا أفريقيًا، بل من عبيد البلاط فى واقع الأمر، ومن ثَمَّ لم يكن فى مأمن من توجيه هذا الاتهام إليه. وعلى الفور أُلقى القبض عليه وأُرسل إلى قلعة السجن، حيث نُسبت إليه الجريمة، وأنكر هذا المتهم معرفته بهذه الواقعة، واستطاع تأكيد براءته.

وجرى إرسال الملابس التى زُعم أنه كان يلبسها، إلى المحلل العام فى مدينة بومباى فى الهند، ولم يُعثر فيها على أية بقعة من بقع الدم، لكن كانت هناك بعض الدلائل الأخرى المتعلقة بهذه الجريمة، تؤكد ذلك الذى ذهب إليه قصاص الأثر. كان العبد شخصًا سيئ السمعة، يضاف إلى ذلك أنه كان الساكن الوحيد

الذى كان يسكن المنزل الملاصق لمنزل القتيل، الأمر الذى مكَّنه من مراقبة ضحيته مراقبة لصيقة؛ يضاف إلى ذلك أنه كان من السهل على ذلك العبد أن يقفز من شرفته العالية لينزل على سطح المنزل الذى وقعت فيه جريمة القتل، لكنه لم يكن بوسعه القفز ثانية عائدًا إلى منزله.

أبدت الصيدلة الهندية رأيها أيضًا فى أثر القدم. كان فى وسط أثر القدم حافة حجرية مفتتة، وكان من رأى هذه الصيدلة الهندية أن الرجل الذى هبط من السقف فوق هذا الحجر، لابد وأن تكون قدمه قد أُصيبت بقطع بسيط فى كعب قدمه اليمنى.

جرى إحضار المسجون أمامى وطلبت منه أن يرينى قاع قدمه. وسارع المسجون برفع قدمه اليسرى. أسفر فحص القدم اليمنى عن قطع فى القدم، وأكدت مقاسات الرأس أن مكان هذا القطع متفق تمامًا مع مكان الحجر المفتت الموجود فى أثر القدم. ولقى العبد العقاب الذى حُكم به عليه، بأيدى فصيلة الإعدام رميًا بالرصاص. هذا يعنى أن قصَّاص الأثر لم يقص الأثر عبثًا أو هباءً.

وهنا، وبعد مرور ستة أشهر، وفى وسط الربع الخالى، كنت أتمتع بلحظات دقيقة فى مسألة دراسة وقص أثر الحيوانات الصغيرة. قصة مسألة قص أثر أقدام الحيوانات الصغيرة، قصة بسيطة ومفهومه تلقائيًا من البدوى، لكن هذه المسألة تشكل جاذبية خاصة عند الرجل الأوروبى، وهى تشكل عند الأوروبى خطًا رشيقًا ساحرًا أو اختراعًا مدهشًا؛ زد على ذلك، أن الأجسام العالقة بالريح الواهنة التى تكتسح الرمال تصنع صورة دقيقة لحلقة الصلاة التى يقصُّ البدوى أثرها وصولاً إلى اتجاه الشمس الغاربة؛ أضف إلى ذلك أن العدو المباشر لمخالب الطيور، والذى يكون الواحد بعد الآخر، يكون على النقيض تمامًا من الآثار الناجمة عن بعض الحيوانات الأرضية الصغيرة رباعية الأطراف، أو إن شئت فقل: من ذوات الأربع: اعلم أيضًا أن الحِلْية التى تكون على شكل وردة أنيقة وتنجم عن حركة الفأر، يمكن أن تُفضِى إلى حرش، يمكن العثور فيه على جحر صغير يعيش فيه هذا الفأر، وتوجد عند مدخل هذا الجحر كومة من الرمل الأحمر حيث الحفر؛ واعلم أيضًا أن التراكيب الجميلة المعقدة والمعقوفة التى

تنجم عن السحالى، والتى تكون شبيهة بالسحلية الشبيهة بأوراق الشجر المتشابكة، يمكن أن تقود من يتبعها إلى منطقة عشبية تلعب فيها السحلية دور السارية التى يرقص الجميع من حولها فرحًا ومرحًا؛ واعلم أيضًا أن الأغصان المتساقطة والمتخفية هنا وهناك تعد دلائل على نوبات الرياح التى تهب على هذه المنطقة.

كان صباح اليوم التالى شديد البرودة. كان مسارنا فى اتجاه الشرق فى بداية الأمر أثناء ريح شمالية شديدة، ثم تحول مسارنا لنكون فى مواجهة الريح، ولذلك كنت سعيدًا بمعطفى الكبير. كان هناك صقر كبير، وهذه هى المرة الأولى التى أرى فيها صقرًا من هذا القبيل فى منطقة الرمال، وراح ذلك الصقر يُحوِّم حول رءُوسنا لينزلق بسرعة بعد ذلك فى اتجاه الريح، أثناء تجاوزنا لواحد من مخيمات المُرَّه يضم قرابة خمسين جملاً من الجمال سوداء اللون. والناس هنا يقولون إن القطعان الكبيرة من إبل قبيلة المُرَّه ، تكون سوداء اللون[١] فى أغلب الأحيان، ومن ثم فإن خيام منطقة الرمال تكون سوداء اللون فى أغلب الأحيان، وهذا على النقيض تمامًا من لون الحيوانات البرية التى تسكن هذه المناطق.

حوَّلنا مسارنا تحولاً كبيرًا تحاشيًا لهؤلاء البشر الذين من قبيلة المُرَّه. كان هؤلاء البشر ودودين بشكل واضح، لكن قيل أنه ليس من الحكمة أن يرانى أو يسمع عنى هؤلاء البشر، وذلك تحاشيًا للنتائج السيئة التى يمكن أن تترتب على خبر وجودى فى هذه المنطقة .

كان الشيخ صالح الذى يركب دابته ويسير بجانبى يرتعد من البرد، لكنه لم يكن يجأر بالشكوى من البرد، مخافة الاعتراض على قدرة الله تعالى الذى أرسل هذا البرد. وهنا رحت أحكى للشيخ صالح عن برودة الشتاء فى إنجلترا.

---

(١) يطلق أفراد قبيلة المرة على قطيع الإبل اسم "جيش"، ولكن الرشايدة يقولون لهذا القطيع "نشيره"، أما القبائل العمانية فتطلق اسم "البوش" على مثل هذا القطيع، بدو الرمال لديهم خمسة ألوان من الإبل: الأبيض، الأحمر، الأسود، الأصفر، الأخضر، هذه هى المساويات المعجمية. واقع الأمر أن اللون الأبيض يقصد به: اللون البيج الضارب إلى البنى الفاتح؛ أما اللون الأحمر فيقصد به: لون الغزال؛ أما اللون الأسود فيقصد به اللون الأسود المائل إلى اللون البنى؛ واللون الأخضر يقصد به لون دخان الخشب الأدْكَن .

استدار الشيخ صالح إلى مبارك وقال: "أتسمع هذا الذى يقوله هذا الصاحب؟"، "فى بلاد الوزير، يصبح الماء المقتطع من البحر" (المقصود هنا البركة المائية أو البحيرة) "كتلة صلبة بسبب البرودة الشديدة إلى حد أن العرب والخيول والحمير تستطيع السير على هذا الماء المتجمد".

رد عليه مبارك، "لا إله إلا الله، وتلمست فى تعبير مبارك خوف الرجل من أن أكون واحدًا من حرس المقدمة الذى يسبق القيام بالغزو، وبدا على الرجل أنه كان قلقًا يود التنازل عن هذا البؤس بغية المحافظة على الرمال الحبيبة إلى قلبه".

أدت الساعات الطوال التى أمضيناها على ظهور مطايانا ونحن جياع، وكذلك ريح الشمال الباردة إلى جعل حياتنا لا تطاق فى هذه المرحلة من الرحلة، فقد هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠ درجة فهرنهيتية، ولما لم يكن معى خيمة أو أية ملابس أخرى يمكن أغطى بها رأسى، فقد وجدت أن من الضرورى أن أنام فى كل ملابسى بالإضافة إلى ثلاث بطانيات.

فى اليوم الثانى والعشرين من يناير، ونحن فى كثبان وتلال عبيله المتدحرجة حمراء اللون، وجدنا أنفسنا نواجه ولأول مرة سلسلة من العواصف الرملية. كنا جالسين حول نار المخيم بعد أن تناولنا وجبة العشاء قبل ذلك بليلتين كان هناك ندًى كثيف، وكانت تلك أول موجة ندى كثيفة نواجهها منذ غادرنا جبال قارة، نحن فى هذه الليلة تهب علينا ريح باردة قادمة من الشمال، لم يكن لدينا أى شىء يمكن أن ينذر بمجىء العاصفة، وسرعان ما اجتاحت ألسنة اللهب هذا الطريق وذاك الطريق كما لو كانت الريح تهب علينا من جميع الاتجاهات. ورحنا جميعنا نغطى وجوهنا بأيدينا، وذلك من باب إنقاذ أعيننا من الدخان. وهنا انتفض رفاقى واقفين وراحوا يجرون فى الظلام بغية إحضار إبلهم التى كانت ترعى على مقربة منا، نظرًا لأن العواصف الرملية تعد عدوًا لدودًا للإبل. وازدادت العاصفة عنفًا على عنفها؛ وهنا لف البدو أنفسهم فى عباءاتهم الضعيفة، وتجمعوا حول الإبل وهم يحتمون ببعضهم البعض طلبًا للدفء.

كان نومى متقطعًا. أدى حفيف الريح المحملة بالرمال، هو والصوت الناجم عن حبال المخيم ومعهما قدماى الباردتان، إلى جعل نومى أمرًا مستحيلاً. عندما كان

وجهى يتعرض أو ينكشف كانت تلفحه الريح الحادة مثل السكين. انخفضت درجة الحرارة إلى أن وصلت إلى ٣٧ درجة فهرنهيتية فى الجفاف، ٣٥ درجة فهرنهيتية فى الرطوبة. غافلنى النوم قبل طلوع الفجر واستيقظت بعد طلوع الفجر لأجد سَرْج (عدة) جملى ومعه أمتعتى، مدفونة فى الرمل. كانت الريح قد توقفت، وكان البدو قد تجمعوا وهم يتداخلون مع بعضهم البعض، حول نار المخيم وهم يرتعدون. وسرعان ما قام البدو باستنهاض إبلهم التى كانوا قاموا بتجميعها أثناء الليل بُغية حمايتها، وكانت هذه الإبل المسكينة قد شردت وهى ترتعد من البرد وراحت ترعى طلبًا للغذاء من ناحية واستشعارًا لدفء الشمس أثناء شروقها.

تسبب الليل فى نتائج كارثية. كان الرمل قد تسرب إلى بعض معداتى وأدواتى. فقد تعطلت آلة تصويرى السينمائية عن العمل، وتعطل أيضًا جهازا قياس الارتفاع، الأمر الذى اضطرنى إلى تدوين قراءتين مختلفتين، دون أن أعرف أيهما هو الصحيح إلى ما بعد نهاية الرحلة.

صاح بدوى صغير السن فى صبيحة اليوم التالى، متهكمًا من ريح الشمال القارسة: "أنا آتيك بخبر طيب عن (ريح) الشمال! أنا آتيك بخبر طيب عن (ريح) الشمال!" إذ كانت درجة الحرارة فى حدود ٥ درجات فهرنهيتية من درجة حرارة التجمد. علق الشيخ صالح على هذا الكلام، مرددًا قافية من القوافى الصحراوية المحفِّزة للإبل الذكور:

"لولا ريح الشمال

لما حدثت الزيادة".

أسلمتنا كثبان عبيلة الرملية حمراء اللون إلى فراغات بيضاء واسعة هى فراغات سنام، وذلك عندما كنا نقترب من ثقب الماء الذى يسمونه ثقب مياه الجهيشى. أدى النهار خانق البرودة؛ الذى اكتنفته سحابة من الدخان أبيض اللون، اجتاحتنا وتركت غشاءً على أقدام إبلنا، إلى جعل رفاقى المساكين، وهم يتدثرون بملابسهم الخفيفة، يرتعدون من البرد، ونحن نمضى قُدُمًا فى مسيرتنا.

صاح الرجال قائلين: "اعقلها أيها الصاحب! اعقل عجبة (*)، فقد دخل موعد صلاة الظهر". هنا وعلى مقربة من ثقب ماء ديوريس المهجور، كان يوجد شيء من الحطب ومرعى صغير، وهنا فهمت أننا نتوقف وقفة منتصف النهار. ملأت الرمال عينيَّ، وغطت الدفاتر التى أدون فيها مذكراتى؛ كان الرمل فى كل مكان؛ يزاد على ذلك أن تدوين الملاحظات وأصابعى مصابة بالخدر، يعد عملية مستحيلة، ولم يكن لدىَّ ما أفعله سوى الجلوس بلا أى عمل فى موجة الرمل والبرد، وأنا قلق بسبب البرد، وكنت أتمنى لو أنه كان هناك من يهدهدنى كيما أروح فى سُبَات عميق.

جمع البدو الحطب من الأحراش، وكوَّموا ذلك الحطب على نحو يجعل منه ساترًا قويًا طوله قرابة عشرين ياردة. كان ذلك الحطب عبارة عن أغصان من نبات الغاضة، ذلك النبات المهم الذى التقيناه هنا لأول مرة. قام البدو بعد ذلك بوضع الإبل خلف ذلك الساتر بعد أن قيدوها وذلك عن طريق ربطها بعضها بالبعض، ولم يتبقَّ سوى الجمال العفيَّة التى آثرت الوقوف وراحت ترعى. وفى فترة لاحقة من النهار، وعندما بدأت الشمس تُشعر البشر بوجودها، وعندما هدأت الريح بعض الشىء، تحركت الإبل حركة بطيئة بسبب قيودها وذهبت إلى مرعى فى مكان قريب، لكن عندما بدأت الريح تعاود هبوبها من جديد سارع الجمَّالة إلى إعادة الإبل إلى (الملجأ) وذلك تخوفًا من ضياعها أثناء هبوب العاصفة، إذا ما تركت لوحدها، نظرًا لأن الريح سرعان ما تمحو الآثار كلها وبذلك يتعذر العثور على هذه الإبل.

إحساس الجمل بمراحه وموطنه - وبخاصة إذا ما كان غياب الموطن الثابت مصطلحًا ينطوى على شىء من التناقض - هو إحساس مثير ومدهش. والفكرة الراسخة عند الناقة (أنثى الجمل) مبنية على استرجاع ذكرى المراعى الوفيرة والغزيرة هى والقطعان التى كانت ترتع معها. قد تنسى الناقة استعدادات ما قبل المسير، لكن عندما تتوقف القافلة، وبعد أن تطلق غير مقيدة كى ترعى، فإنها

(*) اسم الناقة التى يركبها برترام توماس. (المترجم).

سوف تعود لوحدها من الطريق الذى جاءت منه. مالك هذه الناقة لا يعنى لها شيئًا. وهى لا تكنٌّ له أى نوع من الود، ولا تعرف عنه أى شىء سوى صوته فقط. ومع ذلك، فإن الناقة تعتمد على صاحبها بدرجة كبيرة فى مسألة السقاية، لأنها تعجز عن سقاية نفسها حتى وإن كان ثقب الماء ضحلاً إلى أبعد الحدود. والناقة شديدة الغباء اللهم باستثناء إحساسها بالاتجاه، ومع ذلك، فإن الله تعالى أعطاها موهبة البصر والعينين.

قال الشيخ صالح. "إذا ما تركت عجبة (١) لحال سبيلها فإنها سوف تسير عبر الرمال، على هدى من هذا النجم لتعود إلى دكاكا حيث يوجد رفاقها؛ وذلك على الرغم من عدم مجيئها إلى هذا المكان من قبل".

"لكن كيف تستطيع الناقة الحصول على الماء؟".

"سوف تمشى عائدة بلا ماء ولكنها تصل بسلام فى فصل الشتاء، لكنها يمكن أن تنفُق بسبب العطش فى فصل الصيف وقبل أن تقطع مسافة تقدر بربع الطريق تقريبًا".

وقد أعطانا مسيرنا خلال اليومين الماضيين مثالاً على هذا الكلام، فقد انضمت إلينا ناقة ضالة عشار(٢)، أو بالأحرى كانت تتقدم قافلتنا، لأنها كانت

---

(١) كل جمل من الإبل له اسم خاص يطلقه عليه صاحبه، لكن الطَّرف الذى لا يهتم بالإبل قد يطلق على الجمل واحدًا من تسعة أسماء، طبقًا لسن الجمل: والجمل الذى عمره شهر واحد إلى سبعة أشهر يسمونه حوار Howar (بمعنى الرضيع)، والجمل الذى يتراوح عمره بين سبعة أشهر وعامين يسمونه انفريد (بمعنى عائل نفسه)؛ والجمل الذى يكون فى عامه الثانى يسمونه: بنت البون أو ولد البون إن كان ذكرًا، والجمل الذى فى عامه الثالث يسمونه مَضّربة (يمكن أن يغشاها الذكر)؛ والجمل الذى فى عامه الرابع يسمونه ياضة (قابل للعشار)، والجمل فى عامه الخامس يسمونه ثنية؛ وفى عامه السادس يسمونه رابة؛ وفى العام السابع يسمونه: السويس؛ وفى عامه الثامن يسمونه شق الناقة أو النوفى.

(٢) يقول الرشايدة: للناقة العُشار (مدينى) ويقول لها المرِّه (الجابه). وتستمر مدة الحمل اثنى عشر شهرًا. قد تمتد هذه الفترة إلى ثلاثة عشر شهرًا، أو قد تكون أحد عشر شهرًا، لكن الوليد نادرًا ما يعيش فى مثل هذه الظروف، ويسمى الوليد فى هذا الحال سهام وتسمى الأم جارت. والناقة التى لا يغشاها حمل ذكرى تسمى "بكره" وقبيلة المره تقول للجمل الذكر(قعود) ويقولون للأنثى (حاشى).

تسبقنا، قاصدة قطر حيث كانت العلامة المميزة لها تدل على ذلك. كانت تلك الناقة مشتاقة للتمر أو السردين، تلك الأشياء الممتعة التى افتقدتها هذه الناقة فى منطقة الرمال؛ ومن يُمّن طالع هذه الناقة أن الوقت كان مصادفًا لفصل الشتاء!

صاح واحد من قبيلة المُرَّه، فى صبيحة اليوم التالى عندما كنا نمر على سهل من عشب الغاضة: "لا تجعل ناقتك تأكل من هذه الغاضة لأنها يسكنها الجن".

أوضح حمد لى هذا الكلام قائلاً: "إن هذا الكلام لا ينطبق إلا على مراعى الغاضة الموجودة فى كل من المُرَّه وبانيان، لكن الغاضة التى فى الأماكن الأخرى من الأعلاف الجيدة تمامًا. نفقت خمسة إبل فى ليلة واحدة، وفى مرة أخرى أُصيب اثنان من النياق بالمرض وجف حليبهما".

توصلت أيضًا إلى الفكرة التى مفادها أن الجان يمكن أن يؤثر فى صحية الحيأة النباتية، فى منطقة موجشين، وقد أدى ذلك إلى إهمال بيارة كبيرة من بيارات أشجار السنط بدرجة كبيرة. وقد جرت العادة أن يقوم البدو باستعمال عصارة هذا العشب فى عملية التغذية اليدوية للإبل، لكن البدو هنا لا يحذون هذا الحذو فى مسألة العصارة هذه؛ يضاف إلى ذلك، أن هؤلاء البدو لا يصطادون الأرانب البرية التى فى هذه البيارة رميًا بالرصاص بغية أكلها(١). يزاد على ذلك، أن الكثارين لديهم اعتقاد غريب مفاده أن الجمل الذى يُغذَّى تغذية يدوية فى موجشين بدلاً من تغذيته على الرعى، يعانى كثيرًا من المصاعب والمتاعب.

كان ثقب مياه بانيان الشهير على بعد مسير يوم واحد بعد ساعة ونصف الساعة من مغادرتنا لمراعى الحض، صعدنا تلال خيوط البريدان الرملية حمراء اللون التى تمثل الحد الشمالى لمنطقة سنام، هدأت الريح وبدا السطح الوردى للتلال الرملية- التى يطلقون عليها هنا اسم الحمارور- على النقيض تمامًا من

---

(١) هناك تحريم عجيب عند قبيلة المناصير مفاده أن هؤلاء المناصير لا يأكلون لحم الأرانب البرية أو أى حيوان آخر جرى قتله رميًا بالرصاص فى رأسه، هذا يعنى أنهم لا يأكلون الأرانب البرية التى أصيبت أمخاخها بأضرار.

السهول الدُّخَانية البيضاء التى مررنا بها فى المسيرات التى قمنا بها مؤخرًا. كانت بقع من عشب الحرام شديد الخضرة تحدُّ الأماكن المنخفضة (الغدران) فى التلال الرملية وكانت أبلنا تقضم بين الحين والآخر، قضمة من ذلك العشب أثناء مرورنا عليه، ولكن على مضض، نظرًا لأن عشب الحرام هو نوع من العلف المالح الذى يسبب بعض المتاعب للحيوانات التى ليست معتادة عليه، قال واحد من البدو وهو يشير بذراعه إلى ناحية الشرق: "نحن الآن فى منطقة المناصير، التى لا يوجد فيها أى عشب آخر غير عشب الحرام، وهم يربون إبلهم على هذا العشب، وسُنُم هذه الإبل على النحو الذى تراه أنت حاليًا" - وهنا أمسك هذا البدوى بكوع ذراع من ذراعيه، ليبرز ذلك الكوع أمامه، وكان ساعده محنيًا ناحية الأعلى على راحة اليد الأخرى - وهذه هى الإشارة المفضلة التى يعبر البدو بها عن السنام الكبير، ومن ثَمَّ يكون الحيوان بحالة صحية جيدة.

شكلت السلاسل الرملية النادرة حمراء اللون، الطويل منها والمنخفض والموجود فى السهل، هى وبقع أشجار الغاضة التى تنمو خارجةً من تراكمات الرمل المحيطة بجذورها والتى يطلقون عليها اسم غاضة زعازة، وأوصلتنا إلى المزيد من التلال الرملية المتحدِّرة حمراء اللون. توقفنا وسط هذه التلال الرملية الحمراء عند ثقب ماء بانيان. كانت القافلة قد بدأت تجرجر خطاها كما هو الحال فى سائر القوافل. كان تأثير رمضان واضحًا على الرجال، وكان تأثير المراعى المالحة واضحًا أيضًا على الإبل؛ يضاف إلى ذلك أن تأثير المسيرات الطويلة هى والريح الشمالية الباردة كان واضحًا على كل من الإنسان والحيوان. كان حمد وأنا أول من وصل إلى هذا المكان.

قال حمد: "اشرب أيها الصاحب لأن ماء بانيان ماء طيب".

لولا شهر رمضان لما امتنع حمد عن الشرب من ماء بانيان. كان دستور هؤلاء البدو والمرافقين لى يقضى أنه بعد مسير يوم من العطش، وعندما نصل إلى ثقب من ثقوب الماء، لا يسمح لجماعة المقدمة بأن يلمس الماء شفتَىْ أى واحد من أفرادها، أو حتى يأكل ولو كسرة واحدة من الخبز معى أثناء السير إلا عندما يكون رفاقه موجودين لاقتسام تلك الكسرة معه. وإذا كان هذا الشرط المتأرجح

من شروط الحياة يفضى إلى نوع من الوحشية بين الأعداء، فإنه يفضى أيضًا إلى نوع من الإنسانية الراقية بين الأصدقاء.

كان ثقب ماء بانيان بئرًا حقيقية، مبطنة بالحجارة ولذلك كانت تلك البئر مختلفة عن حفر أو ثقوب المياه فى جنوب الجزيرة العربية. وعندما بدأت جماعتى فى الوصول تباعًا لمست شيئًا من التغير الواضح على حالهم النفسى. كانت صيحات الفرح مصحوبة بالبِشْر وانشراح الصدر ومختلطة بصوت صب الماء الذى يفرحون بإحداثه، فى الوقت الذى كانت فيه إبلهم تمد أعناقها الطويلة فى الغدير الذى جرى ملؤه بالماء المجلوب من البئر لتروى ظمأها منه.

حال عدم وجود مَرَاعٍ فى هذه المنطقة دون التوقف فى هذه التلال الرملية الجرداء المتحدرة، وكانت الحيوانات التى سُقيت فى البداية قد استأنفت سيرها بالفعل قبل أن تلتحق بها الإبل التى تأخرت سقايتها. تأخرت مبتغيًا بذلك مرافقة جماعة المؤخرة. وسرعان ما توقفنا لأداء صلاة المغرب؛ وبعد أداء صلاة المغرب واجهنا صعوبات متزايدة فى اقتفاء أثر حارس المقدمة؛ وأدى تناقص الضوء إلى جعل عملية اقتفاء الأثر هذه أمرًا مستحيلاً. وعليه، جعلنا نجم الدب القطبى على كتفنا اليسرى - والبدوى يعبر عن ذلك بوضع يده على عظمة الترقوة حتى لا يُخْطئه من يستمع إليه أو ينظر إليه - ورحنا نستأنف مسيرنا أثناء الليل وانقضت ساعة قبل أن يصيح أحد الرجال من خلفى. وعندما استدرت لأقف على ما يحدث، رأيت وميض نار مخيم بعيد فى اتجاه الشرق. وعليه؛ تحولنا وبدأنا نخيم عند الساعة السابعة. كنت متعبًا تمامًا بعد عشر ساعات ونصف الساعة أمضيتها وأنا راكب ناقتى، لكنى اعترانى إحساس بالارتياح عندما تحققت من أن المنطقة الوسطى الكبيرة من أرض الربع الخالى الجرداء أصبحت ورائى، ولم نكن نبعد عن البحر سوى ثمانين ميلاً فى اتجاه الشمال، هذا يعنى أن النجاح بات حليفًا لنا.

الفصل التاسع عشر

بانيان: تأمُّل ما مضى

وصولى إلى بانيان يعنى أنى وصلت إلى الحد الشمالى لما يُسمَّى الرِّمال(1). وعليه، فهذه هى النقطة المناسبة، التى يمكننا عندها تعليق الحدوتة، حتى نتفرغ لكتابة فصل مختصر نتفكر ونتأمل فيه شكل وتركيب هذه الأرض؛ هى وسكانها، من خلال ترحالنا وتجوالنا خلالها.

من المُسلَّم به أن الربع الخالى يُقَسِّم الجزيرة العربية من الناحية الجيولوجية. فى الناحية الغربية نجد أن الكتلة الممتدة من شبه الجزيرة العربية، تشكل من الناحية الجيولوجية جزءًا من القارة الإفريقية، التى لا يفصلها عنها سوى المنطقة المنخفضة، وإن شئت فقل: وادى الصدع المتمثل فى البحر الأحمر. ويصل ارتفاع هذه الكتلة إلى آلاف متعددة من الأقدام، وتصل فيها الصخور البحرية إلى أعلى ارتفاعاتها، لكن هذه الكتلة بحد ذاتها لم يتغير مكانها كثيرًا؛ يضاف إلى ذلك أن أعلى الصخور البركانية الموجودة فى الشمال، لم تنبثق بقوة كبيرة، الأمر الذى لم يؤدى إلى تشكل قمم بركانية. هذا يعنى بشكل عام أن هذه المنطقة لم تُعانِ إلى حد ما الاضطرابات طوال الزمن الجيولوجى السحيق.

---

(1) يُعد وصولى إلى بانيان، التى تقع على خط الطول 51° شرقًا، بمثابة الوصول إلى الحد الشمالى لمنطقة الرمال. وفى اتجاه الشرق تواصل الرمال امتدادها صوب الشمال خلال مناطق الباطن، ليوه، قوفه وبينونة إلى أن تصل إلى شواطئ الخليج الفارسى: كما تواصل الرمال امتدادها فى اتجاه الغرب خلال كل من جوب، الجافورة إلى أن تصل إلى الأحساء (راجع الخريطة). لكن الأبناء الحقيقيين لهذه الرمال، يقولون إن هذه ليست هى ما يطلق عليه اسم الرمال.

أما المنطقة الشرقية، وإن شئت فقل الكتلة العُمانية، فهى تعد جزءًا من المنظومة الفارسية، التى هى عبارة عن جبال بالغة الطىِّ، وناتجة عن الضغط القادم من ناحية الشمال، على كتلة الجزيرة العربية الأصلية الأكثر ثباتًا واستقرارًا، فى زمان تشكلت المجالات الكبيرة فى جنوبى بلاد فارس وشمالى الهند(١).

تخضع ظفار، النقطة التى بدأت منها رحلتى لدراسة البنية أو التكوين الجيولوجى لجزء كبير من هضبة الجزيرة العربية. ونحن نجد على امتداد شاطئ البحر صخورًا جرانيتية وصخورًا بِلَّورية أخرى، وإن هذين النوعين من الصخور يشكلان كتلة الأساس المصمت لشبه الجزيرة. هذه الصخور محمله أيضًا بالأحجار الرملية حمراء اللون التى تشكل المنحدرات السفلى لجبل قارة، ونحن نرجح أن يكون هذا الحجر الرملى أحمر اللون شبيهًا بالحجر الرملى الموجود فى مصر، وفى سيناء، وفى شرق الأردن، ومن فوق هذا الحجر الرملى أحمر اللون، الذى تمثله قمم جبل قارة العالية، توجد طبقات من الحجر الجيرى من العصرين: الطباشيرى العلوى والعصر الحديث السابق، لكن الوجه الجنوبى هو فى واقع الأمر، عبارة عن جرف يمثل حافة هضبة الحجر الرملى العالية، التى تنحدر انحدارًا متدرجًا لتصل إلى حافة الرمال التى عثرت فيها على حفريات العصر الحديث السابق.

يزاد على ذلك، أن حزام الرمال العظيم الذى يمتد ناحية الشمال إلى مسافة ثلاثمائة ميل أو أكثر لم يُعْطِنا أى إشارة أو دليل على الزمن أو العصر، وذلك على الرغم من احتواء عينات(٢) الرمل التى أحضرتها معى من الوسط، على حبيبات من الحجر الجيرى وردى اللون وأبيض اللون، وهذا مؤشر على احتمال عدم انتقال الرمل من مسافة كبيرة؛ ولو كان الأمر غير ذلك لاختفت هذه الحبيبات بسبب الاحتكاك بالكوارتز الأصلب منها.

---

(١) بوسع القارئ الذى يود المزيد عن هذا الموضوع الرجوع إلى المقال المعنون "جيولوجيا وتكتونيات عمان وأجزاء جنوب شرق الجزيرة العربية، (مجلة الجمعية الجيولوجية الفصلية فى العام ١٩٢٨). بقلم الدكتور ج. م. ليس Lees الذى أشكر له فضله.

(٢) يحتوى الملحق رقم ٢ على قائمة بالعينات الرملية مع تحليل لهذه العينات.

عثرت مرة أخرى، على امتداد حافة الرمال الشمالية، فى الجزء الشمالى من بانيان Banaiyan على حفريات بحرية تنتمى إلى العصر نفسه الذى تنتمى إليه الحفريات التى جرى العثور عليها فى الجنوب، لكنى أجد من المستحيل علىَّ القطع من واقع العبور الواحد الذى قمت به، بما إذا كان البحر الآيوسينى قد امتد، فى يوم من الأيام، على طول المسافة من قطر إلى ظفار، مما أدى فيما بعد إلى تغطيته بالرمال المنقولة بواسطة الريح، من الشمال الشرقى، أو القطع بما إذا كانت النقاط التى تبعد قرابة مائة ميل نحو الداخل على جانبى الربع الخالى، وهى المنطقة التى أخذت منها حفريات تمثل حدود الغزو الشمالى وحدود الغزو الجنوبى للبحر الآيوسينى.

من المحتمل أن تكون الأرضية الأساسية لمنطقة الرمال، مكونة من تشكيل من تشكيلات الحجر الجيرى، ويحتمل أيضًا أن يكون هذا التكوين من العصر الآيوسينى أو العصر الطباشيرى، الذى تعرض خلاله للضوء الحجرُ الرملى النوبى الذى تشكَّلت منه الرمال المنقولة بواسطة الريح.

أثبتت الأبحاث أن الربع الخالى عبارة عن منخفض بين جبال نجد العالية من ناحية الغرب والجبال العُمانية من ناحية الشرق، وأن المنخفض يحتمل أن يكون قد حدث فى زمن الارتفاع العُمَانى- أى أثناء العصر الطباشيرى العلوى أو الحُقُب الثالث.

يزاد على ذلك - حتى وإن كان ذلك على العكس مما هو مطلوب - أن الطابع الطبوغرافى السلس على امتداد خط سيرى- كان خاليًا تمامًا من أية ثنية من الثنيات المهمة التى تساعد على إبراز الخصائص والسمات المهمة، وفوق جبال قارة مباشرة نجد أن سهوب الإستبس(*) تبدأ بصورة تقريبية عند ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، وتأخذ فى الانحدار تدريجيًا مسافة ١١٠٠ قدم عند حافة الرمال، مشكِّله بذلك منحدرًا مقداره ٩٠٠ قدم فقط فى قرابة ١٠٠ ميل، ومن هذه الحافة

(*) سهوب الإستبس: سهول مترامية الأطراف صحراوية النبوت. (المترجم).

الجنوبية أيضًا للرمال وعند ارتفاع ١١٠٠ قدم من الحد الشمالى عند بانيان، أى على مسافة ٢٠٠ قدم - نجد أيضًا أن المنحدر لا يزيد على ٩٠٠ قدم فى مسافة تقدر بقرابة ٣٠٠ ميل. وفى الاتجاه الشمالى من بانيان نجد هذا الانحدار نفسه فى اتجاه البحر.

وقد لاحظت فى وصفى للرمال الأصلية(١)، لاحظت بالفعل أن أعظم مناطق هذه الرمال ارتفاعًا، أعنى منطقة الكثبان الرملية، تقع على امتداد الحافة

---

(١) أورد فيما يلى ملخصا للأحزمة الرملية الرئيسة التى قابلتنى من الجنوب إلى الشمال:

	أميال
١ - منطقة كثبان رملية عالية حمراء	٢٠
٢ - تلال رملية على شكل حدوة الفرس، مرتفعة، أقل وعورة وحمراء اللون	٤٠
٣ - سلاسل رملية بيضاء متوازية تتوسطها وديان حمراء	١٠٠
٤ - رمال بيضاء منبسطة ومتموجة تموجًا خفيفًا	٧٠
٥ - رمال بيضاء أو متموجة تموجًا لطيفًا، فيها تلال حمراء منقولة	٥٠
٦ - سهب إستبسى، سهل ملحى، وتلال حمراء مُتَبادلة	١٠٠

قسمت أيضًا الحياة النباتية إلى مناطق من الجنوب إلى الشمال على النحو التالى:

الحزام	الحياة النباتية(*)	خط الأرض				الارتفاع بالقدم	
		من		إلى		من	إلى
١، ٢	زهار بركان أبالة**	٣٠َ	١٨ْ	٣٠َ	٢٠ْ	١١٠٠	٥٥٠
٢، ٤، ٥	الحض	٠٠	٢٠ْ	٠٠	٢٣ْ	٦٠٠	٢٥٠
٥، ٦	الغاضة	٤٠َ	٢٢ْ	٠٠	٢٤ْ	٢٧٥	١٢٥
٦	الشينان	١٢َ	٢٣ْ	٣٠َ	٢٤ْ	٢٠٠	

(*) زهار اسمه العلمى Tribulus alatris

الحض اسمه العلمى Salsola Sp.

الشينان اسمه العلمى Arthrocnemum glaucum

(**) أبالة: هذا النبات هو الأكثر نموًا فى الرمال وهو أكثر النباتات نفعًا. هذا النوع من الخشب يستعمل فى عمل هياكل سُرُج الإبل، وأوعية الخيام؛ هذا النوع من الخشب يعد وقودًا ممتازًا وذلك على العكس من كل من الحض والشينان.

الجنوبية ثم تتجه شمالا، على حد ما هو وارد فى التقرير العربى، لتصل إلى خط طول ٤٩° ثم تظهر من جديد عند خط طول ٥٣° .

هذان الجناحان أو الامتدادان يُثلِّثان، يقسمان إلى ثلاثة أقسام، منطقة الرمال، وهنا يمكن القول أن الرجوع إلى الخريطة يوضح أن خط سيرى أثناء رحلتى، كان خلال القسم الأوسط.

ثبت أن الاعتقاد فى أن الرمال ستكون خالية من الماء، لا أساس له من الصحة. وثبت أيضًا وجود الماء، تحت أى ظرف من الظروف، ورغم ملوغته، فى اتجاه الشرق وبالتحديد عند ٥١° شرقًا (*). يبدو أن هناك ماءً وفيرًا فى التربة التحتية، فى سائر أنحاء المناطق الوسطى، لكن هذا الماء يبلغ من الملوحة حدًا يصعب معه أن يستعمله الإنسان فى الشرب. حُفَر المياه التى من هذا القبيل لا تتمتع بأسماء مميزة، وجرت العادة أن يطلق الناس عليها الاسم خيران. وفى الأماكن الأخرى، فإن حفر الماء التى يمكن أن تشرب منها الإبل والبشر تطلق عليها أسماء مميزة وغالبًا ما تكون هذه الأسماء هى أسماء البشر الذين قاموا بحفر هذه الحفر، وفى حال الضرورة تلعب الإبل دور جهاز التقطير. هذا يعنى أن الإبل تشرب هذا الماء والإنسان يشرب ألبان هذه الإبل.

أعذب الماء موجود فى أقصى النقاط الغربية فى الطريق الذى سلكته وأنا متجه إلى غربى كل من دكاكا وسنام، حيث يصل عمق حفر الماء إلى قرابة ثلاث عشرة قامة(**) بل وأكثر من ذلك، لكن الماء الذى يستخرج من هذه الحفر غير مؤكد. واقع الأمر، أن هذه الحفر، كما هو الحال فى طريقه، تكون جافة. أكثر المياه ملوغة موجود فى الأجزاء القَصيَّة من خط سيرى، وهى حفر ضحلة، كما هو الحال فى بواه، كما أن الماء فى هذه الحفر لا ينضب؛ ويبدو أن هذا الدليل يؤيد المعلومات العربية التى تقول: إن الرمال الكبيرة التى ترتفع فى الاتجاه الغربى وأيضًا فى اتجاه الجنوب الغربى خالية تمامًا من الماء.

(*) يحتوى الملحق رقم ٢ على تحليل كيميائى لمحتويات كل حفرة من حفر الماء التى استعملت ماءها.

(**) مقياس أعماق، والقامة الواحدة تعادل ست أقدام. (المترجم).

يضاف إلى ذلك أن الأسماء الإقليمية للرمال مستقاة فى معظم الأحيان من بعض الخصائص والسمات الطبوغرافية[١]، أو من بعض غرائب الماء أو الحياة النباتية، أو من الارتباط، بين الحين والآخر، بالإبل.

أسلوب حياة البشر فى الربع الخالى- هى تلك الحياة القصيرة التى تسمح بها المراعى قصيرة الأجَل والمراعى غير الكافية أو الماء المالغ - وهذا النوع من الحياة قبلى وترحالى، أى هى حياة متأرجحة اقتصاديًا، وغير مستقرة سياسيًا، لكنها راسخة فى جانبها الاجتماعى وثابتة وغير قابلة للتغيير.

البشر هنا يقيسون رفاه أية قبيلة من القبائل بعدد إبلها والحال التى عليها هذه الإبل. وتتمثل مصادر الثروة هنا فى المراعى الجيدة، وفى البراعة الفائقة لأعضاء القبيلة الذين يحصلون عن طريق العدوان، على المزيد من الإبل على حساب أعدائهم.

وعليه؛ يمكن تقسيم الإبل إلى فئتين: قطعان إبل الحليب (الأصول والاحتياطى)، ثم إبل الركوب قليلة العدد (رأس المال العامل). والناقة من الفئة الأولى يصل ثمنها إلى مائة دولار، أما إبل الركوب فيصل ثمن الواحد منها ما يتردد بين مائتين وأربعمائة دولار للحيوان الاستثنائى. إبل الحليب لا تعرف السُّرُج أو العُدَّة مطلقًا، ويربيها الناس للتكاثر وإنتاج الحليب والوبر. هذا يعنى أن

(١) سبق أن تطرقنا إلى هذه المسألة الخاصة بهذه المسميات فى كل من دكاكا، صواحيب، وسنام. وهنا نورد أيضًا:

- بواه، واحده "باه"، وهى "الحفرة الضحلة الغائرة".
- مُنجار، مأخوذه من "منجور"، وهو المكان الذى يتعين فيه حفر "ثقب مياه" خلال الصخر.
- الحض (الجعادة): المكان الذى يكون نبات الحض هو العنصر السائد فيه.
- خلَّة (عجمان): المكان أو الإقليم الذى لا يوجد فيه نبات الحض.
- أم ماتليسه- (أم النعومة): المكان الذى لا ينمو فيه نبات الحض ولا نبات الزهار.
- الجوب: وادٍ شبيه بالمنخفض فى الرمال- منطقة بانيان- جبرين.
- الجُبان: جمعه "جوب".
- جافيوره مأخوذة من "حفِر"- حفرة عميقة.
- شويكيله - "خيوط كيس ضرع البقرة أو الشاة" - من جانب جاءت منطقتا الالتفاف فى الحوية.
- طوال - "طول" : حفر الماء العميقة على نحو غير عادى فى غربى سنام.
- عُقال - "عقال الجمل" - الحفر الذى يصل عمق الواحدة منها نصف قامة فى شرقى الجبان.

الناقة هى الجنس صاحب القيمة، ووليدة الناقة الأنثى تُربى بصفة دائمة فى حين يعد الوليد الذكر نوعًا من الترف لا يستحق الإبقاء عليه. وتأسيسًا على ذلك؛ يندر أن يبقى الوليد الذكر إلى ما بعد العام الأول من حياته، بل يجرى فى معظم الأحيان ذبحه فى يوم مولده للغذاء، لكن بشرط ألا تراه الأم وهو يذبح حتى لا تروح الأم تبحث عنه. وقد جرت العادة على الاحتفاظ بذكرين أو ثلاثة لخدمة قطيع مكون من خمسين ناقة؛ يضاف إلى ذلك أن هذه الذكور تحمل أيضًا الخيام والأحمال الثقيلة عند التحرك من مكان إلى مكان آخر. وقطعان الحليب عندما تتجول فى أماكن بعيدة وعبر مساحات واسعة يصعب الوصول إليها، يجرى تقسيمها فى المناطق الواسعة إلى مجموعات، تقوم كل أسرة من الأسر البدوية برعاية المجموعة الخاصة بها؛ لكن القبيلة تجتمع مرة ثانية طلبًا للحماية من الغزاة الذين يقومون بغزو السُّهُوب، وذلك عندما تضطرهم الحاجة إلى الرعى فى اتجاه الجنوب، الأمر الذى يعرضهم للخطر، مثلما حدث فى العام الماضى.

تتمثل أقوى القبائل من حيث مسألة الإبل، فى كل من قبيلة المُرَّه، المناصير، والمناهيل وأيضًا السَّعارين إلى حد ما. وقد تحللت قبيلة الرشيد فى السنوات الأخيرة من السلب والنهب الذى تقوم به قبيلة السَّعارين، إلى حد أن الرشيدى الذى يمتلك فى الوقت الحالى خمسة من الإبل يعد من الميسورين إلى حد ما، ومن يمتلك عشرين من الإبل يعد من الأثرياء، أما الرقم مائة فهو حد الرفاه من الغنى والثراء؛ هذه المتوسطات أعلى بكثير عنها عند المُره. من هنا، فإن الراوى الرشيدى الحسود الذى يرافقنى، عندما هَمَّ بالتأكيد على ثروة قبيلة الرشيدى، تناول، وهو يبتسم ابتسامة معروفة لنا نحن الغربيين من خلال العهد القديم، حفنة من الرمل، وجعلها تتسرب من خلال أصابعه، وراح يقول : "والله! فلان الفلانى، يمتلك أربعمائة من الإبل، وهو ليس شيخًا، وليس لديه نقود، أفضل من ملابسى".

سألته: "ما الذى حدث للحليب؟".

ورد علىَّ قائلاً: "أعط الرجل المزيد من الحليب، وسوف ترى أن لديه ضيوفًا كُثُرًا؛ يضاف إلى ذلك أن جيرانه ينتظرون منه هذا الحليب، هم وعابرى السبيل. وما يزيد على ذلك يجرى إعطاؤه للإبل الصغيرة".

يفى وبر الإبل على وجه التقريب بكل الاحتياجات المنزلية القليلة اللازمة لحياة الرُّحَّل- قماش الخيام، الحبال، أحزمة السُّرُج، ومختلف الزركشات. وهنا أيضًا نجد أن الناقة، وإن شئت فقل أنثى الجمل، هى الجنس الأكثر نفعًا. كتفا الناقة هما وظهرها تعطى صاحبها كل عام هو وخنجره، المادة الخام التى تقوم النساء بنسجها وتصنيعها، من منطلق أن النسج مهنة نسائية؛ ومع ذلك، فإن المرأة ليست ممنوعة من حلب الإبل، كما هو الحال عند الرشيد والعوامير، الذين يشاركون أهل الجبل فى منع النساء من حلب النياق؛ وعلى الجانب الآخر، نجد أن المُرَّه والمناصير، والسَّعارين وكذلك قبائل السهوب فى حضرموت ليس لديهم حظر من هذا القبيل.

بدو الرمال يستعملون نوعين من سُرُج الجمال (عُدَد الجمال). أولهما، السرج ذو العمودين- ويطلقون عليه اسم الشدَّاد- وهو يوضع فوق سنام الجمل. هذا النوع من السُّرُج هو المعتاد فى بقية الجزيرة العربية، ولا يستعمله سوى قبائل المُرَّة، السَّعارين، والكرابين فى الربع الخالى. أما باقى القبائل الأخرى كلها، كما هو الحال فى عُمَان، وفى سائر أنحاء الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية بكامله، فتستعمل السرج الذى يطلقون عليه اسم الزَّانة، وهو عبارة عن إطار خفيف صغير (بلا أعمدة)، ومغطى بجلد ماعز ويجرى وضعه خلف سنام الجمل. هذا يعنى أن توزع سُرُج الإبل هو توزع جغرافى؛ هذا يعنى أيضًا أن القبائل الموجودة على الجانب الغربى من خط سيرى تستعمل الشداد، فى حين تستعمل القبائل الموجودة على الجانب الشرقى السرج الذى يطلقون عليه اسم الزانة.

ومن هنا يمكن القول أيضًا أن الرمال تعرف لهجتين عربيتين، لكننا هنا نجد أن الانقسام أرضى. هناك اللهجة الشمالية أو اللهجة المِرِّية إن شئت، واللهجة الجنوبية، أو اللهجة الرشيدية، إن شئت. وهذه اللهجة الرشيدية ينطق بها أيضًا العوامير[1] الموجودون فى الشمال الشرقى. وتتمثل الفروق الرئيسة بين اللهجتين

(١) كثير وعامر هما سلفا كل من الرشيد والعوامير، وإنهما كانا.. على حد ما ورد فى الموروث - أخين من أبناء حمدان Hamdan . وهناك تعبير شائع على لسان الشيخ صالح: "أقسم بسنن (قواعد) كل من عامر وكثير"؛ يضاف إلى ذلك أن حضرموت لها أيضًا لهجاتها الخاصة بها.

الشمالية والجنوبية فى المفردات(١)، وهناك فرق كبير آخر يتمثل فى تغيير نبرة الصوت. كان حمد بن هادى قد تطوع بمعلومة مفادها أن أهله وناسه يتكلمون لهجة غريبة، نظرًا لأن المُرَّه، على حد قوله، منحدرة عن كافر؛ لكن الرجل فى وجود الأعضاء الآخرين من قبيلته كان يصحح كلامه، ويتفق الجميع على أصل مشترك مع العجمان، أى أن هذه القبيلة- من نسل يام yam. لكن الحد الأصلى لهذه القبيلة من ناحية الأم، هو من الجن، يرحمك الله.

وإذا كان تعدد الزوجات أمرًا مسموحًا به، فإن البدوى يندر أن يجمع بين أكثر من زوجة فى آنٍ واحد، وذلك على الرغم من أن البدوى عندما يكون ميسور الحال قد تكون له زوجتان أو قد يُطَلِّق ثم يتزوج مرة ثانية. والبدو لا يعرفون مطلقًا مسألة أن يعيش رجل وامرأة معًا دون أن يكونا مرتبطين بالزواج، وهذا الأمر يعد مستحيلاً فى المجتمع القبلى الذى تعد حرية الفرد فيه أمرًا ثانويًا أمام مصالح العشيرة وأمام ذرية هذه القبيلة، هذا بالإضافة إلى أن الدستور الأخلاقى لهذا البدوى متأصل من خلال خبرته الطويلة، فضلاً عن أن ذلك البدوى مؤمَّن أيضًا ضد التأملات والتكهنات الفلسفية الصادرة عن كبار الأساتذة العُزَّاب. يزاد على ذلك أن أى شكل من أشكال الزواج لا يُعتدُّ به إلا إذا كان "بعقد" صادر عن

---

(١) من ذلك على سبيل المثال:

	الرشيد	المُرَّى
الخبز غير المخمور	قيروس	قداما
القط البرى	خاونجا	إدفا
إستبس/ سهب	جادًّا	حادييا
آلة الحفر	عتيله	إلهيم

سبق أن أشرنا إلى أن الحرف y يحل محل الحرف j فى اللهجة الرشيدية. لم نصادف فى أى مكان تحول الجيم chim إلى كاف kaf، وذلك على الرغم من شيوع ذلك بين قبائل المطير، وعتيبه، وعجمان، والدواسر.. إلخ وكلها قبائل إخوانية(*): حيث نجد الحرف G يحل محل الحرف q حيث ينطقون القاف (جاف)، وهذا ليس موجودًا بين البدو؛ كما أن صيغة الفاعل والمفعول قاد qad، الموجودة فى اللهجة العراقية شائعة فى جنوب الجزيرة العربية. (وفى اللهجة المهرية واللهجات غير العربية نجد أن bir هى المساوى لهذه الصيغة).

(*) المقصود بالإخوان هم إخوان المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود. (المترجم).

قاضٍ(١) من القضاة الرسميين، أو عقد زواج بتفويض، واحتفال كبير؛ وهذا كله يرمى إلى منع أطراف الزواج من تكسير هذه القيود أو الخروج عليها.

يقوم العريس المنتظر هو وممثل العروس، وغالبًا ما يكون والدها، بالذهاب معًا إلى أقرب بلدة أو مدينة(٢) حيث يوجد القاضى، لأن البشر هنا لا يعرفون مسألة خروج القاضى وذهابه إلى الصحراء. أصبحت هذه المنظومة تتيح لبعض رجال القبائل، الذين سبق لهم الحصول على امتياز الذهاب إلى البلدة أو المدينة للوقوف على مسألة الزواج بالتفويض، أمرًا مألوفًا لدى السكان فى المناطق الرملية النائية، مما أدى إلى أن تصبح أمرًا وراثيًا فى القبائل. جرت العادة أن يقوم العريس بعد تحرير العقد بدفع المهر لوالد العروس ثم يقوم بعد ذلك بتقديم بعض المجوهرات الفضية للعروس بالإضافة إلى سجادة بمثابة مُتَّكأ للزواج (وعند الرشيد يتحتم على العريس إقامة وليمة) قبل إتمام الزواج ويعد تقبيل الأنف بمثابة قبلة سرير الزوجية.

يعامل الرجل المرأة على إنها أقل منه، أو قطعة من الأثاث. وربما يصدُق هذا على البيئة الصحراوية، حيث تعد اللياقة البدنية المستمرة، هى والقوة الوحشية، وكذلك الطابع العدوانى تعد أمورًا تتطلبها الطبيعة وتكافئ عليها. وبدو قبيلة المُرَّة يقرون مسألة ضرب المرأة على الأخطاء التى تقع فيها كل يوم، لكن الرشيد لا يقرون هذه المسألة.

تقوم سياسة الربع الخالى على العلاقات التى تربط القبائل بعضها مع البعض الآخر. وهنا نجد أن الاعتبارات الجغرافية تسمح بوجود ثلاثة تجمعات قبلية

---

(١) القاضى: هو واحد من مفسرى الشرع، وقد يكون واعظًا عند السنيين فى بعض الأحيان، لكن هذا المفسر قد يكون، واحدًا من رجال الدين، عند الشيعة فى بلاد فارس وعند العراقيين أيضًا. مسألة إنشاء هرمية دينية أمر غريب على الإسلام، ويُعد سُبَّة فى جبين الأصولية، وبخاصة عند الوهابيين.

(٢) تذهب قبيلة المناصير إلى القاضى الموجود، فى أبو ظبى.

تذهب قبيلة العوامير إلى إبرى، ضنك، وإلى البوريمى.

تذهب قبيلة الرشيد إلى ظفار أو ريضه.

تذهب قبيلة المرَّة إلى الهفوف أو جابرين.

مستقلة: قبائل الرمال، الجيران الذين يسكنون السهوب الشرقية، ثم الجيران الذين يسكنون السهوب الجنوبية.

ثبت أن السكان الحقيقيين للرمال هى قبائل: المُرَّة فى كل من الشمال والشمال الغربى، والمناصير والعوامير فى الشمال الشرقى، ثم الرشيد وبيت الإيمانى فى الجنوب.

قبل عشرين عامًا لم تكن هذه القبائل على وفاق فيما بينها. كان المُرّة والمناصير عدوَّين لدودين من قديم الأزل؛ وكان العداء بين العوامير والمناصير أشد وأقوى من ذلك بكثير. وقبيلة العوامير، التى كانت فى يوم من الأيام قبيلة كبيرة جدًا فى جنوب الجزيرة العربية فى الأماكن التى تسكنها فى الوقت الحالى قبيلة الرشيد فى رمال كل من دكاكا، صواحيب، حباك، وغانيم، أضعفتها الصراعات غير المتكافئة مع المناصير؛ هذا فى الوقت الذى حققت فيه قبيلتا المُرَّة والرشيد انتصارات كبيرة فى الماضى. لكن السلام، سلام بن سعود، يسود الآن فى سائر أنحاء الرمال. نفوذ الحاكم المركزى للجزيرة العربية، الذى فوَّض سلطته لابن جلوى، حاكمه المَنُوب فى الهفوف، هو الذى يفرض السلم بين كل هؤلاء الأعداء القدماء، وهذا لا يتم من خلال السيطرة المباشرة، لأنه لا توجد ولا يمكن أن تكون هناك سيطرة مباشرة، وإنما من خلال النفوذ الشخصى الهائل لعبد العزيز بن سعود نفسه. معروف أن الإيمان بالقوة الهائلة لهذا الرجل ونجمه الساطع قد اكتسحا مناطق الرمال فى الصحراء. وهذا ليس من قَبيل الحب، وإنما هو الخوف والفزع، اللذان يخدمان هذا التدبر العاقل والحكيم للأمور. وهذا هو رفيقى حمد بن هادى، لم يخضع بعد لابن سعود، لكنه يحترم الرجل خوفًا من الاعتقاد، الذى مفاده أن حاكم الرياض لديه من القوة ما يجعله يجرد حمد بن هادى من كل ما سلبه ونهبه عن طريق الغزو، أو يجعله فريسة لعدو من الأعداء. السلام القائم حاليًا فى منطقة الرمال مبنى على هذه القناعة. من هنا نجد أن قبائل الرمال متعاهدة إلى حد ما مع ابن سعود. وهذه القبائل تدفع سنويًا لابن سعود جزية إسمية، وهذه الجزية تضمن الحماية المتبادلة لكل منهما. هذه الجزية تُدفع كل عام من الناحية النظرية، وبواقع دولار واحد عن كل رأس

من رءُوس الإبل. والرشيد من الناحية العملية ليست لديهم نقود، وفى كل الأحوال يتهربون من دفع هذه الفدية أو الجزية، معتمدين فى ذلك على وجودهم فى أماكن نائية. ومع ذلك، يقوم الرشيد من عام إلى آخر، وحسب الظروف، بإرسال جمل إلى ابن سعود على اعتبار أن ذلك إشارة إلى خضوع الرشيد لابن سعود. ومع ذلك، وعندما تسقط الأمطار على الرمال الشمالية، ينتقل الرشيد إلى الشمال، وهذا يحتِّم عليهم الوفاء بمتطلبات جُمَّاع الضرائب، وهنا يقوم الرشيد ببيع بعض الإبل حتى يمكنهم الوفاء بهذه الطلبات.

وعلى الرغم من خفة هذا التعاهد أو الارتباط، فإن القبائل تتذمر منه. هذه القبائل لا تتعاطف مع المثل العربى، الذى ظهر، ونحن على يقين من ذلك، فى المدينة، ويقول: "السلطان الحائر أفضل من الشجار الدائم"، هذا يعنى أن هذه القبائل تؤثر الحرية غير المقيدة على السِّلْم مدفوع الأجر؛ وهذا أمر يجرى فى دماء هذه القبائل. كل هذه القبائل تقسم أن السلام القائم سيظل قائمًا طالما بقى النظام القائم حاليًا فى الرياض. لكن إذا ما فقدت الرياض أو الهفوف سلطتها فإن ذلك سيؤدى إلى عودة الغزو على الفور، وانسياب وإهدار الدماء من جديد. هذه الصورة الذهنية ليست غريبة على الربع الخالى. وهنا نجد أن طالب العلوم السياسية سوف يعيد إلى الأذهان أمثلة كثيرة من التاريخ الحديث للجمهورية البريطانية.

وقوف البشر على هذا التعليق غير المسبوق للصراعات الدموية، وبخاصة أن هذا التعليق ناجم عن حكم.مطلق لكنه يمتاز بالعطف والرحمة، هو الذى شجعنى على القيام برحلتى عبر ميادين القتال القديمة (والمستقبلية) فى هذه الرمال.

تأثرت سياسة السهوب الشرقية هى الأخرى، بنفوذ ابن سعود، على الرغم من تباين هذا التأثر من عام لآخر. ونحن نجد فى هذه السهوب الشرقية، أن التجمعات تلتف حول تَحزُّبات وراثية قديمة، وإن هذه التحزبات هى تحزبات هناوية Hinawi وتحزبات غفارية Ghafari سبق الإشارة إليها - العوامير، والهراسيس Harasis، ومعروف أن الأفاريين ينتمون إلى العوامير، كما ينتمى

الدروع (١) والبو شميس إلى الحزب الغفارى، لكن صراع كل هؤلاء ونضالهم ليس لهما صدى فى منطقة الرمال.

تُعد سياسة السهوب الجنوبية متحررة تمامًا من نفوذ ابن سعود؛ يضاف إلى ذلك أن القبائل الكبيرة مثل قبيلة السَّعارين، والمناهيل، والكثيريين، والمهرة، ومعها أيضًا القبائل الأقل منها؛ مثل: الكرابين، اليام، النهارين، والنبسيين تشكل كل منها قانونًا خاصًا بها. وتعد قبيلة السَّعارين أقوى عنصر فى هذه القبائل. يزاد على ذلك أن قبيلتَى النهادين والكرابين تعملان فى وئام مع قبيلة السَّعارين، فى الوقت الذى تستطيع فيه بعض عناصر القبائل الأخرى، التوحد بعضها مع البعض بغية القيام بغزو محدد؛ ومع ذلك فإن سكان هذه الرمال لا يعرفون العمليات الحربية المنظمة أو طويلة الأجل. وهذان الأمران لا يمكن أن يحدثا نظرًا لأن كل رجل من الرجال لا يكون معه سوى عشرين طلقة على وجه التقريب، كما أنه هو الذى يقوم على حراسة ماشيته اللهم إلا عندما يضطر إلى القيام برحلة إلى الساحل كيما يبيع جملاً أو جملين. وتأسيسًا على ذلك؛ فإن حروب هذه القبائل تكون متقطعة وإن الهدف منها أولاً وآخرًا هو السلب والنهب.

وهنا يمكن القول: إن قبيلة السَّعارين هى وحلفاءَها يشكلون اليوم أخطر تهديد للسلام فى الرمال الجنوبية. ولما كانت هذه القبيلة قوية من الناحية العددية- قرابة ألفى بندقية - فهى تستمد قوتها من بعدها، ولذلك رفضت قبيلة السَّعارين استقبال وفد مُرْسل من قِبل ابن سعود.

---

(١) هناك مقولة تفيد أن الدَّراعين والمناهيل من أصل مشترك، ولكن المصادفة العجيبة جعلتهما تنتميان إلى حزبين متعارضين.

الفصل العشرون

من بانيان إلى البحر: المرحلة الأخيرة

أمضينا اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير فى نيل قسط من الراحة فى بانيان بعد مسير دام ثمانية أيام عبر منطقة الرمال الوسطى- وكان لابد من عمل هذه الوقفة لإنعاش كل من الجمال والرجال. تجمعنا حول نار المخيم أثناء الليل- وثبت أن تلك الوقفة كانت بمثابة الجلسة الأخيرة فى هذا المسير الطويل- وبعد أن أشرفت الرحلة على نهايتها رحت أتخلى عن تحفظى المعتاد.

كانت بطاريتى (شعلتى) الكهربائية مثارًا للدهشة والتعجب من جانب رفاقى، وطرحوا علىَّ هذا السؤال المهم، "هل يمكن بواسطة هذه الشعلة (البطارية) الكهربائية اقتفاء أثر جمل مسروق فى ليلة ظلماء؟" كان أول بدوى يضع يده على الطرف المضاد من الشعلة قد اكتشف أنه لم تكن فيه حرارة. وحذا الآخرون حذوه، بعد أن لفت انتباههم إلى هذه المعجزة. حذوا حذوه، وبدلاً من الإحساس بالحرارة رأوا الظل أو الطيف الأحمر للدم، كما شاهدوا أيضًا ظل عظام الأصابع، وهنا انفجر هؤلاء الرفاق معبرين عن دهشتهم- "لا إله إلا الله". المؤكد أن قبيلة هذا الصاحب لابد وأن يكونوا رجالاً "أقوياء"، كان من نافلة القول أن أقول لهم إنى لم أصنع هذه الشعلة، وذلك من منطلق، أننا لازلنا نصنع المزيد من الأعمال المعجزة والعجيبة - البنادق والذخيرة!

سألنى واحد من البدو وهو يداعب بندقيته، "من الذى يصنع البنادق؟".

قال بدوى آخر دون أن يرفع رأسه إلى الأعلى:

"الكفار هم الذين يصنعون هذه البنادق".

صححت له كلامه وقلت: "نحن مؤمنون".

"وإن قُدِّر لنا أن نأتى إلى بلدكم فهل ستكون مرافقًا لنا، أيها الصاحب، حتى لا يصيبنا أحد بأى ضرر من الأضرار؟".

"المرافق لا لزوم له فى بلدى".

تساءل حمد، "لكن، إذا ما قتلنى أحد وكنت أنت مرافقًا لى فما الذى يمكن أن تفعله؟".

لكنى أقول: لن يقتلك أحد. غير مسموح فى بلدى لأى أحد، بحمل السلاح.

أحسست وكأنهم يقولون فيما بينهم وبين أنفسهم: "يا له من مكان! لا يصلح إلا للنساء والعبيد!".

"هل سيكون من حقنا الحصول على حليب الإبل كيما نشربه؟".

استدرت إليه معتذرًا وقلت: "ليس لدينا إبل"، لأنى كنت أعلم أنه سيكون هناك بعض الملاحظات.

"إذن، ما الذى لديكم؟ أغنام؟ أبقار؟".

قلت: "نعم، لدينا أغنام وأبقار، لكننا نصنع السفن والبنادق وكل الأشياء التى تصنع من الحديد الذى يأتى من الأرض".

أردف الشيخ صالح فى شىء من المباهاة: "هذا صحيح، لقد سمعت أن منصوريًا من أبى ظبى يقول إن نصرانيًا جاء إلى الشيخ وأبلغه أن بلاده فيها ساق من الحديد على هذه الشاكلة" وهنا قدَّم مشعابه، "وأن هذا القضيب الحديدى يمكن أن يصنع خمس بنادق".

قالت جوقة من البدو: "لا إله إلا الله".

تناول أحدهم الشعلة (البطارية) مرة ثانية وقال: "إنها ثقيلة"، قال آخر: "يا الله! إنها ثقيلة". قال هذا الكلام وهو يأخذ الشعلة من يد رفيقه.

صالح: "إنهم بشر غير سهلين" (يقصد: أنهم ليسوا قبيلة ضعيفة، حتى يعامل أهلها معاملة الاحتقار والازدراء).

قلت: "بداخل الشعلة (البطارية) جُوَّه (يقصد قوة) (وهذه كلمة يوقرها البدو) "أكثر قوة من الطلقات، وقادرة على قتل البشر".

"لكن لماذا نقتل البشر؟".

رددت عليه قائلاً: "السيئين من البشر، القتلة من البشر".

"حقًا، وهذا عين الصواب أيضًا- "العين بالعين والسن بالسن"- هذا هو شرع الله".

"لكن هل لديكم دِيَة؟".

"إذًا، فإن شقيق القتيل أو ابن عمه لا يحصلان على دولار واحد".

كررت الكلام قائلاً: "حتى ولو دولار واحد" قلت ذلك من أنه سيكون هناك ملاحظات جد قليلة بعد ذلك.

"لكن هل تعرفون مفهوم الدَّخيل؟".

"لا، شيخنا قوى، ولن يجرؤ أحد أن يكون دخيلاً لقاتل من القتلة".

قال الشيخ صالح: "لكن الدَّخيل عندنا مكرم، اللهم إلا إذا كانت عملية القتل تنطوى على شىء من العار أو الخزى، والتى منها، على سبيل المثال، المرافق الذى يخون رفيقه ويبيعه". ويواصل الشيخ صالح كلامه، وهو ينتقل بناظريه بين مرافقيه وإخوانه، "يا لهذا الإنسان الطيب الذى يعيش فى هذه البلاد، من ذا الذى يمكن أن يُعَنِّف دخيلاً من إنسان قام بقتل عدوه؟".

قالت جوقة من البدو: "إى، والله!".

قال واحد منهم بعد فترة صمت قصيرة. "أين اتجاه بلدك، أيها الصاحب؟".

أشرت بمشعابى فى اتجاه الشمال الغربى.

"كم يبعد عنا هذا البلد؟".

أجبته قائلاً: "حَوْلٌ، مسير عام كامل، من رمضان إلى رمضان، بنفس المُعدَّل الذى نسير به الآن".

قالت جوقة من البدو: "لا إله إلا الله".

تدخل صالح مقاطعًا الحديث: "وأين يكون اتجاه بلدك، من الواقف فى مكة (المكرمة)؟ صالح هذا بدوى من جنوب الجزيرة العربية قام بأداء فريضة الحج".

أشرت مثلما فعلت من قبل وانحرفت أكثر إلى اتجاه الشمال.

"كم يبعد بلدك عن مكة؟".

"المسافة نفسها التى يبعدها من هنا".

"إذن، فبلدك يقع وراء البحر، أيها الصاحب؟".

قلت: "هذا صحيح، إنه يقع فعلاً وراء البحر".

"وما هو ذلك الذى يقع بعد بلدك؟".

قلت: البحر أيضًا".

سألنى طالب، "أين يوجد بحر بارطول، تحول الرجل ناحية رفاقه ليقول لهم إن تلك هى نهاية العالم. لا يوجد شىء بعد بلدى. كان ذلك هو البحر السابع والأخير- والله أعلم!".

شعرت بأنى قد قمت بدورى فى رواية هذه القصة، وأنى كنت مستمعًا جيدًا وشغوفًا، عندما انبرى واحد من البدو يروى لنا قصة عن ذياب بن غانم. كان ذياب واحدًا من نبلاء بنى هلال، لكن مظهره كان يوحى بأنه عبد من العبيد. وأن ذياب بن غانم، فى ذلك اليوم الأسود الذى قُتل فيه يوسف وأُسِر فيه كل من ذياب وأبى زيد ومعهما بريقه، كان مظهر ذياب بن غانم هو الذى أنقذهم من السِّجْن المشدد، لأن الخصوم كانوا يظنون أن ذياب بن غانم لا وزن ولا قيمة له.

كان ذياب بن غانم أول من جرى ضمه إلى البنَّائين فى عملية ترميم قلعة الزناتى. لكن افتقار ذياب إلى المهارة، هى التى جعلت الأحجار التى كان يرفعها الرجال فوق القلعة، تهوى نظيفة لتسقط على الجانب البعيد من الصحراء، ومن

هنا قال أولئك الذين أسروا ذياب: "هذا العبد لا يصلح لهذا العمل، سوف نجعله يرعى القطعان". وعليه أعطوا ذيابًا قطيعًا من البقر، لكن ذياب أهمل فى إيراد ذلك القطيع من الأبقار على الماء، الأمر الذى جعل ذلك القطيع يوشك على النفوق. وعندما وجد سادته، أنه لا يصلح لأن يكون راعيًا للأبقار، أوفدوه مع قطيع من الحمير إلى الحرش لإحضار شىء من الحطب. وفى منطقة الحطب قام ذياب بن غانم بقطع عصاتين طويلتين وجعل لهما طرفين مدببين، وغرس العصاتين المدببتين فى ظهرَىْ حمارين لكى يصنع منهما حاملاً يضع عليه الحطب الذى جمعه. وبذلك تمكن زياد بن غانم من إحضار حمل كبير من الحطب لسادته. كان أول انطباع لسادته يوحى بالفخر والثناء، لأنهم لم يعرفوا أو يقفوا على الحيلة التى لجأ إليها لإحضار هذا الحمل الكبير من الحطب؛ لكن هؤلاء السادة، بعد إنزال حمل الحطب، وجدوا أن الحمارين قد نفقا. وهنا هز أهل عريشه رءُوسهم وقالوا: "إن ذكاء ذياب من النوع الضعيف" إنه لا يصلح لأى شىء سوى أن يكون راعيًا للإبل؛ سوف نخصصه لرعى إبل بنى هلال، أقصد الإبل التى قمنا بالاستيلاء عليها؛ وبذلك يكون ذياب قد حقق الهدف الذى كان يبتغيه. ومع مرور الأيام تحسَّن حال الإبل، وهنا بدأ ذياب يحظى برضى سادته عنه. وفى كل مرة كان يسقى فيها الإبل، كان يختار ثقبًا أبعد من حيث المسافة عن الثقب الذى سقى منه الإبل فى المرة السابقة، الأمر الذى أسفر عن غياب ذياب ساعات طوالاً عن سادته، دون أن يثير شكوكهم، إلى أن جاء اليوم والنقطة التى يمكنه عندهما الهرب والعودة إلى بلاد بنى هلال ومعه الإبل. ومن باب التَّحوُّط للمُرَّة مخافة أن ينقلوا أخباره إلى الزناتى، ركب جمله ووجهه إلى الخلف فى اتجاه عريشه، وغطى رأسه بالطين، كما وضع الطين أيضًا تحت فخذيه(١). وبذلك تمكن ذياب من العودة إلى بنى هلال. وبعد أن استمع الشيخ حسين بن سرحان، إلى قصة ذياب بن غانم قرر وخطط لإنقاذ كل من أبى زيد وبريقه، وفى الوقت المناسب بدأت القبيلة عملية الإنقاذ، ووصلت إلى بركه معطرة ينتهى إليها ثلاثة من

---

(١) أنا هنا أروى القصة كما رويت لى، لكنى لا أعرف ذلك المقصود به هذا الطين، ولو كنت سألت عن المقصود بذلك الطين، لكان الراوى قد قطع خيط قصته.

الوديان. وراح بنو هلال يتشاورون بعضهم مع البعض وقرروا أن يتركوا نساءهم وحيواناتهم مع ستين خيالاً يقومون على حماية هؤلاء النساء وتلك الحيوانات، فى حين قام القوم (باقى أفراد القبيلة) بالذهاب إلى بلاد (ديرة) الزناتى، لكنهم غيَّروا خطتهم فى الصباح، وقالوا إنهم سيجعلون ذياب يقوم بهذه الحماية بدلاً من الخيالة الستين.

قال الشيخ لذياب وهو يودعه: "الإبل والنساء فى حمايتك، احرسهم بروحك".

ويرد عليه ذياب: "إذا ما فقدنا أحدًا منهن أو حيوانًا من الحيوانات، فسوف أضحى بحياتى من أجله".

جاء تلك الليلة جِنٌّ كان يتجول فى الوادى ليعرف أولئك المخيمين فى الوادى. كان الجن يحمل فى يده رمحًا ضخمًا، وراح يدخل ويخرج بين الإبل، وهو يبحث عن أفضلها وأسمنها، وبعد أن عثر على ضالته ضربها برمحه، وحمل الجمل المصاب على كتفه وراح يتجه إلى أعالى الوادى. ويجىء الجن فى الليلة التالية مرة ثانية إلى حد أنه عندما طلع النهار اكتشف ذياب غياب جمل آخر.. وعندما حدثت زيارة أخرى فى الليلة الثالثة، تملَّك الرعب المخيم بكامله، لأن أحدًا لم يَرَ الجن سوى امرأة ذياب بن غانم، وخافت المرأة من الحديث عن هذا الأمر تخوُّفًا من انتقام الجن منها، وعندما تمعن ذياب فى صمت زوجته العجيب، سألها، لكنها لم تُجِبْ عن سؤاله. وهنا استل ذياب سيفه وطعنها وهو يقول: "يا امرأة! خبرينى بذلك الذى تعرفينه وإلا قتلتك"، وهنا حكت له زوجته حكاية الجن الذى جاء إلى الوادى، وكيف قام ذلك الجن بطعن الجمال بالرمح وحملها وهرب بها.

أوفد ذياب عبده، فى صبيحة اليوم التالى، لاقتفاء أثر الجن، ويأتيه بأخبار عن المكان الذى يسكنه الجن ويصل العبد إلى بئر ناجمة عن سقوط نجم من النجوم، ورأى العبد الجن داخل هذه البئر، وكانت بقايا عظام الإبل مبعثرة حول فوهة تلك البئر، وبذلك يتمكن العبد من جلب أخبار لذياب عن الجن. وهنا امتطى ذياب صهوة فرسه وذهب إلى البئر. وعندما وصل إلى البئر هب الجن واقفًا ليكشف عن أبعاده الضخمة، ذلك أن جسم الجن وهو داخل البئر مثلما هو عليه خارجه.

صاح الجن قائلا: "آهَا ! يا ذياب بن غانم! هل جئت لتأكل أم لِتقْتُلْ؟".

أجابه ذياب: "جئت للأكل وللقتل"، ثم استَّل سيفه وضرب الجن ضربة شديدة قسمته إلى نصفين، كان نصف منهما داخل البئر أما النصف الآخر فكان خارج البئر.

قال النصف العلوى من الجن: "هِين" - بمعنى اضرب مرة ثانية. لكن ذياب رد عليه قائلاً:

"ما أُثنى	"بمعنى أنا لا أضرب مرتين"
ولا زنّى	"لا أزنى"
ولا أكْل الجن أكون؛	"ولست طعامًا لأمثالك".

ذلك لأن ذياب بن غانم كان يعرف ذلك الذى يعرفه الناس جميعًا، وهو إذا كان يسقط، فإن الضربة تقتل جنًا، وإن الضربتين تعيدان جنِّيين إلى الحياة.

وعاد ذياب إلى المخيم ليجد أن القوم (أفراد القبيلة المحاربين) عادوا لتَوِّهم من مَهمَّتهم، لكن يا أسفاه! لم يعرف أن ثلاثة من أبنائه قد سقطوا فى القتال ومعهم عمر بن خفيات، ذلك المحارب المحبوب الذى كانت أمه من بنى هلال. يضاف إلى ذلك أن القوم كانوا مرتبكين فيما بينهم عمَّن يقوم بتوصيل هذا الخبر إلى ذياب، الذى سوف يدق بسيفه عنق ذلك الذى سينقل إليه هذا الخبر المؤلم. ونظرًا لأن الناس كانوا يعرفون أن رمح ذياب لا يضل أو يخطئ هدفه مطلقًا، وأنه إذا ما جرى رميه فلابد أن ينغرس فى لحم البشر، وأن ذلك كان "مكتوبًا"، وأن هذا الرمح إذا ما ضل طريقه أو أخطأ هدفه فإن ذياب سيموت فى اليوم نفسه.

ولم يكن أحد من أفراد القبيلة على استعداد لإبلاغه ذلك الخبر، وعليه تقرر إرسال داليان، العبد، لأن أفراد القبيلة قالوا فيما بينهم: "لو مات داليان فليَمُتْ؛ ولو قُدِّر له العيش فإنه سيعيش ليكون عبدًا ليس إلا".

طلب داليان أن يأتوه بأسرع فرس بين الخيول، وأعطوه تلك الفرس، وركب داليان الفرس قاصدًا المكان الذى فيه ذياب وأوقف الفرس على بعد مسافة كبيرة.

صاح ذياب مناديًا داليان: "خبِّرنى، يا داليان، وأنت تعرف بأنى واحد من أبناء الظلام، كيف دارت المعركة، وخبرنى أيضًا عن شجاعة أبنائى وكيف حالهم".

ويرد عليه العبد قائلاً:

فيما يتعلق بإبلك وأبنائك، فقد ضاع الأفضل منها. أبناؤك الثلاثة ومعهم ابن خفيات. أشجع شجعان القبيلة وزمانها.

وعندما أدار العبد ركوبته وراح يعدو بها، أمسك ذياب رمحه وأرسله فى أعقاب العبد داليان؛ لكن داليان كان منحنيًا فوق فرسه، ويمر الرمح من فوقه ليسقط على الأرض على بُعد بضع خطوات وينغرس فى رأس ثعبان.

صاح ذياب: "يا الله ! لقد أخطأ رمحى هدفه. وأنا هنا يتعين علىَّ الذهاب إلى المكان الذى ذهب إليه المقتول".

صاح العبد متجهًا إلى الخلف: "سلِّمنى" بمعنى أَمِّنِّى من الأذى، "وسوف أعطيك خبرًا طيبًا".

ذياب: "فى وجهى".

العبد: "الحمد لله! أدعو لك بطول العمر!".

واصلنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد، فى المنطقة الوهابية[1]- موطن الإخوان المذهبيين أو الطائفيين. أسرعنا خطانا فى هذه المنطقة. وكنا فى كل ساعة تمر علينا نقوم باستكشاف ومسح الآفاق بحثًا عن متطهرى الإسلام الذين كنا نخافهم ونخشاهم، وبخاصة أنهم بشر متزمتون يرون أن من الفضيلة ليس فقط قتال الكفار وحسب، وإنما أيضًا قتال المهرطقين الإسلاميين، الذين يحددونهم بأنهم هم أولئك المسلمون الذين لا يعتنقون آراءَهم الضيقة. كان رفاقى واثقين ومتأكدين من أن التسكع لا مجال له فيما نحن قائمون به، بما فى ذلك أن المجال لم يكن يسمح لى بتدوين ملاحظاتى، فى هذه المنطقة الواقعة بين هذه

---

(١) أطلقنا هذا الاسم تأسيًا باتباع القواعد الدينية التى أرساها محمد بن عبدالوهاب النجدى، ذلك المصلح الدينى الذى عاش فى القرن الثامن عشر. حل إخوان القرن العشرين محل هؤلاء الإخوان وأحيوا تعاليمهم.

المنطقة والساحل، وكانوا جميعا متأكدين من أننا إذا ما صادفنا آثار تدور من حولها الشكوك، فإننا يجب علينا عدم الإقدام على المخاطر، وأننا يجب علينا التوقف فى البرية أثناء النهار، على أن نواصل المسير أثناء الليل. ومن يُمن الطالع أن مسألة قيامى بعمل الخرائط لم يُفْرض عليها القيد الثانى لأننا كنا فى شهر رمضان، يضاف إلى ذلك، أن قبائل الإخوان كانت قد انسحبت إلى منطقتَىْ جوب والجافورة بسبب شهر الصوم.

قال حمد مرافقى متعجبًا: "ربنا يكفينا شرهم"(١).

كان مسارنا فى بداية الأمر عبر سهب حصوى ساطع اللون وفيه حصوات لها لون الكافور أو الحنطة أو اللون الأخضر المائل إلى الزرقة؛ ودخلنا بعد هذا المسار إلى حقول ملحية كبيرة بيضاء اللون، فيها هنا وهناك قطع رطبة كبيرة الحجم.

ومن يمن الطالع أن المطر الذى سقط مؤخرًا لم يحول القشرة السطحية فى هذه الحقول الملحية، إلى وحل شحمى القوام يعرقل مسير الإبل. دخلنا بعد ذلك إلى منطقة من الرمال فاتحة اللون، ووجدنا داخل هذه الرمال منخفضًا شبيهًا بالوادى وعامرًا بالحياة النباتية(٢)، يطلق الناس عليه هنا اسم جوب ضيبى، الذى اتخذنا منه مكانًا نصبنا فيه خيامنا، فضلاً عن كون هذا المكان ملاذًا للضباع، والقطاط البرية، والسحالى فضلاً عن حيوانات السهوب الأخرى، وقد تعرَّفنا هذه الحيوانات من آثار أقدامها المنتشرة فى هذا المكان.

كانت طبيعة منطقة جيبان التى كانت تنتظرنا طوال الأيام القليلة القادمة، مماثلة لطبيعة المنطقة السابقة لها؛ كانت طبيعة منطقة جيبان عبارة عن شرائط متبادلة من السهوب، السهوب الملحية، والتلال الرملية المنحدرة مع وجود منخفض رملى أخضر اللون شبيه بذلك السهل الموجود فى ضيبى على بعد مسافة تقدر بمسير نصف يوم من كل من خاريت ثُوريَّه، صوفيَّة ولِزْبه. كانت السهوب مغطاة بطبقة من الحصى والجبس، فضلاً عن فقاعات سوداء اللون وبيضاء اللون، وكذلك فقاعات حمراء وخضراء اللون، كانت تسطع فى ضوء الشمس؛ كانت

---

(١) الكلمة الإنجليزية evil مستعملة هنا لتعنى المساوئ على اختلاف أنواعها، أى الغزو والمرض.

(٢) الحياة النباتية فى هذا المكان مكونة من الشنان، ونبات الغاضة، وحيوان ذكر الطرثوث والسعدان.

سهول الشمال الملحية عامرة بأصداف صغيرة لا تُحصى أو تُعد(١) فى مرحلة باكرة من التحجر؛ كانت الوديان الموجودة فى التلال الرملية تنتشر هنا وهناك بلونها الأخضر الفاقع الناجم عن نباتات الحرام التى تحيط بها، وكانت ألوان البعض منها أرجوانى أو أبيض وتحيط بها طبقة من الجبس؛ وهنا فى هذه الوديان قمنا نحن أيضًا بحفر ثقوب ضحلة كيما نحصل منها على الماء لنا ولماشيتنا.

زد على ذلك أنه قبل منطقة لزَبَه، كانت هناك سلسلة من الجبال والمرتفعات فريدة من نوعها. كانت تلك السلسلة تمتد شرقًا وغربًا على مدد الشوف، وترتفع فى جانبها الجنوبى إلى قرابة مائتَىْ قدم، وتنحدر فى اتجاه الشمال على شكل رمال متدحرجة ضمن مَحْجَر منعزل. كانت هناك خنافس كثيرة سوداء الضلوع تسعى بين غصينات الحشائش حديثة النمو، التى تعد بمثابة الثمار الأولى لهذه الكمية الصغيرة من ماء المطر. الناس هنا يقولون: إن هذه الحشائش حديثة النمو، التى يطلقون عليها اسم العُشُوب، تنتج ألذَّ ألبان الإبل؛ ومن هنا كان لابد لنا من التوقف بين الحين والآخر بغية ترك إبلنا ترعى بعض الوقت فى هذه العشوب.

كان طالب، ذلك الرجل من قبائل المُرَّة الشمالية، قد أيد مسألة جعل حمد مرشدًا لنا فى مستنقعات هلاوين الشمالية، وجاء ذلك التغيير إلى الأسوأ، على الرغم من حتميته، نظرًا لأن حمد هو الرجل الوحيد من بين أفراد الجماعة الذى كات لديه معرفة بالطبيعة المحلية فى هذه المنطقة. ثبت لى خطأ المعلومات التى أعطانى حمد إياها عن ثقوب الماء، وبخاصة عندما رحت أسأله عن حقيقة هذه المعلومات، التى أقسم أنه لم يقل سوى الحق عندما قال: "بحق من خلقنى وخلق الشمس". وهنا راودنى إحساس يقينى أن الرجل لم يكن ينوى خداعى، ومع ذلك فإن المرعى والحطب الذى وعدنا به لم يظهرا عندما توقفنا لقضاء فترة الليل. كانت تلك هى الاعتبارات المهمة عندنا كل مساء ونحن نتوقع الوصول إلى مكان التخييم، وهنا بدأت الجماعة تشعر بالقلق والحرج. قال واحد من الجماعة: "يا عرب، ليس أمامكم سوى البرد والجوع".

(١) راجع الملحق رقم ٢.

غيَّرنا اتجاهنا ليكون صوب الشرق، الأمر الذى نجم عنه أن أصبح الكثيب الرملى الذى يُسمُّونه علامات النخلة، والذى كان من قبل عن يميننا، أصبح الآن على يسارنا؛ وعندما غربت علينا الشمس كنا قد أدرنا ظهورنا إلى ذلك الكثيب الرملى، علامات النخلة، وبذلك كنا نبتعد فعلاً عن هدفنا، أملاً فى العثور على الطعام والدفء أثناء الليل. لو قُدِّر لتلك الليلة أن تكون واحدة من ليالى الصيف الجافة لكلفنا هذا الخطأ التضحية بحيواتنا. هذا يعنى أن بدويًا واحدًا من بين كل عشرة من البدو هو الذى يصلح لأن يكون مرشدًا جيدًا، يزاد على ذلك أن بدويًا واحدًا من بين كل خمسين هو الذى يصلح أن يكون راويًا عليمًا. يزاد على ذلك أن الشك المتبادل بين الأعضاء الرشايدة من ناحية وبين الأعضاء من قبيلة المُرَّة، كان له وزنه أيضًا؛ لقد أوضح ذلك الشك، أن هذين الطرفين لم يكونا واثقين من دوام العلاقات الطيبة بينهما- وكان ذلك هو الدافع وراء عدم كشف هؤلاء الأعضاء أسرار مناطقهم. وعليه كان واحد من المُرة، يتسلل لدراسة بئر من الأبيار أو مرعى من المراعى، لكن هذا الأمر لم يكن يعنى أو يشغل أى فرد من الأعضاء الرشايدة المنضمين إلى الجماعة. وهنا يجب التنويه إلى أن كل من يود القيام برحلة من هذا القبيل، يتعين عليه منذ البداية، جمع المعلومات اللازمة لمثل هذه المهمة، وبذلك يصبح فى المتناول التأكد، على وجه السرعة، من صحة أية معلومة من المعلومات.

كانت المسيرات اليومية شبيهة ببعضها البعض إلى حد كبير. جرت العادة أن أستيقظ قبل طلوع الشمس بساعة، على صوت مرزوق وهو يؤذن لصلاة الفجر قائلاً:

"الله أكبر.

لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله.

الصلاة خير من النوم.

الصلاة خير من النوم.

الله أكبر.

لا إله إلا الله".

وتنطلق جوقة من التأوهات والمراءاة من البدو وهم يشرعون فى الاستيقاظ ويؤمِّنون على الأذان قائلين: آمين!

وفى أغلب الأحيان يكون ذلك مصحوبًا بصياح الشيخ صالح الأبوى على ولده كلثوت، المتمارض، وبالتالى يتوانى فى مسألة الاستيقاظ.

وبعد أداء صلاة الفجر، ينفَضُّ البدو، ويروحون يقودون إبلهم إلى المرعى الغريب، ثم يعودون لتناول الإفطار المكون من حفنة من التمر وشربة من الماء المالح. ولم يكن يدخل بطونهم أى صنف من صنوف الطعام طوال الساعات الإحدى عشرة التى تلى ذلك، يضاف إلى ذلك أن الماء لا يعرف طريقه إلى بطونهم طوال نهار الصوم؛ ومع ذلك كانوا جميعًا موافقين ومتفقين على ذلك. كان فطورى، أو بالأحرى تصبيرتى، أتناوله أنا مع الساعة الأولى لشروق الشمس، وكانت تلك التصبيرة أو الفطور مكونًا من طبق من حليب الإبل وطبق من الشوفان- تلك الحمية الغذائية التى استمرت معى على مدى ثمانية وخمسين يومًا.

هذا يعنى أنه كلما كانت المراعى طيبة فإن ذلك كان يهيئ لى فرصة إنهاء وجبتى بطريقة مريحة، وكان يمكِّننى أيضًا من الكتابة عن التاريخ الطبيعى للعينات التى كنت أجمعها وكذلك تدوين الملاحظات الأخرى قبل أن نستأنف مسيرنا من جديد، لكن المخيم عندما يكون بائسًا وموحيًا بالجوع، فإن ذلك كان يجعلنا نستأنف المسير وركوب مطايانا فور الانتهاء من تناول الوجبة، ونحن على يقين من أننا سوف نتسكع أثناء المسير بحثًا عن المرعى. كانوا يحضرون ناقة حملى فى بداية الأمر.

"يا الله، لا إله إلا أنت.

يا الله، يا من نركع ونسجد له".

كان البدوى ينطق بهذا الدعاء وهو يتناول مشعابه الملقى على الأرض على الرمل بين إصبعى قدميه الكبيرتين، ويروح يقتاد ناقة حملى ويجعلها تبرُك قائلاً: "إخ، إخ" ويروح يربِّت برفق بعصاه على الجزء الخلفى من ركبتَى الناقة وفوق عنقها. ويجىء بدوى آخر ليساعده فى عملية تحميل الأمتعة، وبينما كانت الناقة تبرطم احتجاجًا، كان الرجلان ينشدان أنشودة مناسبة لعملية تبريك الناقة هذه وتحميلها.

كان كل البدو، جميعهم يقومون بعملية تحميل نياقهم وشرعوا يتحركون ماشين خلف هذه النياق، ومع أول خطوة كان الجميع يتمتمون بدعوات دينية موجهة لغير المرئى (الله). كان الرشايدة(١) يدعون الله على النحو التالى:

"بسم الله الرحمن الرحيم"

توكلنا على الله.

السلام على الرفيق.

يا الله!

لا إله غيرك، ولا مثيل لك.

لا مهرب من مشيئتك.

يا الله، عفوك

سهِّل علينا طريقنا، وأرشد رفيقنا".

وهنا يرد كل عضو من أعضاء الجماعة على هذا الدعاء قائلاً:

"لا إله إلا الله".

كان روتيننا الصباحى يتمثل فى سير مقداره ثلاثة أميال أو أربعة فى البداية، كنا نقتاد خلالها إبلنا؛ لكن جرت العادة أن أكون أنا أول من يركب ناقته، اللهم باستثناء ابن حام، ذلك الشيخ من شيوخ بيت الإيمانى، والذى لا يزال محاربًا

---

(١) عندما يشرع الرشايدة فى الغزو يكون دعاؤهم على النحو التالى: "أعادها الله علينا" (المقصود هنا الناقة أو الجمل) و "ربنا يسعدنا، ويرشدنا حتى نتمكن من العودة".

صنديدًا بين أفراد بيت الإيمانى، وذلك على الرغم من العاهة التى أصابت إحدى رجليه، بفعل جرح نجم عن طلقة قديمة أصابته أثناء قيام بيت الإيمانى بالإغارة على بعض خصومهم.

كان حجم الناقة الكبير هو وتحركاتها المحمومة يجعلان خطرها جنائزى الطابع، ومع ذلك فإن تحركات الرجل صغير الحجم الذى كان يسير أمامها، كانت تثبت أن معدل سير هذه الناقة فى الأرض السهلة، يصل إلى قرابة ثلاثة أميال فى الساعة. كان رأس الناقة وهى باركة يتحرك مستخفًا بما حوله من جانب إلى آخر، يضاف إلى ذلك أن فم الناقة الملىء بالعلف المُجترِّ كان ينفتح كما لو كانت تنتظر شيئًا، كلما اقترب منها راكبوها، وسبب ذلك أن هذه الناقة دُرِّبت على الوقوف على الفور، مع أية لمسة، أيًا كانت، تلامس ظهرها. هذا يعنى أن ركوب الناقة لابد وأن يتسم بالسرعة وأن يكون على شكل قفزة سريعة، تتوقعها الناقة فى أقل من الثانية. وهنا يتعين تبريكها مرة ثانية بمزيد من الربت على ركبتيها. لكن الناقة، طالما ترى مشعاب راكبها مغروسًا فى الرمل بالقرب من رأسها، وطالما كانت ترى بندقيته ملقاة عى الأرض على مقربة منها؛ فإنها تظل راضية وقانعة بما هى عليه، والناقة لا تبدأ فى الكشف عن تحركاتها العصبية إلا عندما ترى راكبها يبدأ فى تناول هذه الأشياء بيده.

هذه الناقة، عندما يركبها صاحبها، يجعل رأسها حر الحركة، الأمر الذى يؤدى إلى عدم استعمال الحَكَمة فى كثير من الأحيان، ويكتفى راكب هذه الناقة بمجرد الربّت بصورة خفيفة على عنقها مستعملاً فى ذلك مشعابه، بالإضافة إلى بعض الأصوات اللازمة لتعليم هذه الناقة طاعة إرادة راكبها، وهذه الناقة يغريها دومًا قضمات الطعام التى تمر بها على طول الطريق؛ ويصل الأمر بهذه الناقة فى بعض الأحيان، إلى حد تناول قطعة من العظم أبيض اللون وتروح تمضغها بواسطة فكها العلوى الخالى من الأسنان، اللهم إذا ما قام راكبها يحثها على المضى قُدُمًا وتجاوز هذه العظمة بيضاء اللون، مثلما يحدث فى معظم الأحيان.

ويبقى البدوى على هذا الحال، وهو يهتز إلى الأمام وإلى الخلف على امتداد ساعات، ويتخلل ذلك قيام ذلك الراكب بتغيير وضعه بين الحين والآخر. والراكب

عندما يستعمل سَرْجًا عُمَانيًا فى ركوب الناقة، فإنه لا يقوى على تحمل هذا الوضع فترات طويلة، ولذلك فهو يضع قدميه تحت فخذيه كما لو كان فى وضع السجود أو قد يركب الناقة ورجليه على جانبَى السَّرج. والسُّرُج التى تستعملها قبيلة المرة لا تسمح بهذا التنوع نظرًا لأن السَّرْج مكون من عمودين، ومع ذلك فإن السرج الذى تستعمله قبيله المُرة يريح الرجل الأوروبى؛ نظرًا لأن رِجْلَى الراكب يمكن وضعهما فى وضع مريح على كتفى الناقة.

يسير السواد الأعظم من البدو وهم حاسرو الرءُوس، التى لا يحميها فى مثل هذه الظروف سوى خصل الشعر بنى اللون الذى يكفى لحماية هذه الرءوس من الشمس. والبدو يستلُّون خناجرهم وهم راكبون نياقهم لكى يحكوا بها ضفائر شعرهم دونما خجل أو كسوف.

يحمل راكب الناقة بندقيته فى يد من يديه بحيث تكون فى وضع متقاطع مع عنق الناقة؛ السُّرُج التى يستعملها الرشايدة، فى ركوب الإبل، تسمح لهم بمكان يضعون فيه بنادقهم؛ وفى السُّرُج التى تستعملها قبيلة المرة نجد بندقية الراكب تبرز من مكان يشبه الدَّلو فى السَّرج، ونجد هذه البنادق وهى تلامس شراشيب السرج أثناء تحرك الناقة، والبدوي، رفيق متهلل الأسارير، وهو غالبًا ما يتمتم فيما بينه وبين نفسه بلحن من الألحان. والبدوى، يندفع بين الحين والآخر، مرددًا هذا اللحن دون سابق إنذار لرفاقه، الذين يبدو عليهم دومًا الترحيب بمثل هذا التصرف. وفى بعض الأحيان، قد يقوم بدويان بترديد اللحن نفسه، على شكل ثنائى، وفى شىء كثير من التوافق. هذه الألحان والأغانى تختلف من قبيلة إلى أخرى؛ ولقد شدنى الفضول إلى تسجيل كل لحن من هذه الألحان التى استمعت إليها، واستعملت فى عملية التسجيل هذه التدوين الأوروبى[١]، وفى أحيان أخرى كان البدو يختبرون قوة رفاقهم ويستعرضون قواهم عندما يحاولون الإطاحة ببعضهم البعض أثناء المسير، ومن يخسر هذا الرهان يُعاقب بالسير مسافة عشر أقدام على الرمل.

---

(١) راجع الملحق رقم ٦.

كان حمد، مرافقى، بمثابة الرجل القوى بين هؤلاء البدو، وكان لدىَّ أيضًا معركة أو معركتان لم تحسما بعد؛ وقمنا بعد ذلك بعمل مباراة فى المصارعة لم تسفر عن نتائج أفضل مما وصلت إليه المعركتان أو المشاجرتان السابقتان، على الرغم من أننى كنت أنا الأطول قياسًا على جميع المعايير.

والبدوى عندما يود النزول من فوق ناقته لا يكون بحاجة إلى تبريكها وإنما ينزلق نازلاً من فوقها، والحال نفسه ينطبق على ركوب الناقة، لأن البدوى يتسلق الناقة واضعًا رجله على قدمها الأمامية عندما تهم تلك الناقة بالتحرك؛ ويُحكم البدوى وضع رجله، وبخاصة الإصبع الكبيرة من قدمه هى والإصبع التى تلى هذه الإصبع الكبيرة، اللتان يضعهما على ركبة الناقة، قاذفا بنفسه إلى عنق الناقة، ويقفز من فوق عنق الناقة ويمسك بسنامها ليتخذ منه مكانًا لجلوسه.

كانت تلك الأعمال الأكروباتية محطًا لاهتمامى، وكانت مصحوبة فى معظم الأحيان بعبارات من قَبيل "نميونا، صاحب، نميونا!"(١). كان من عادة البدو أن يندفع أحدهم نحوى ومعه مخلوق صغير لأقوم بوضعه فى قارورة القتل، وغالبًا ما يكون مثل هذا المخلوق مصحوبًا بقصة خرافية تتعلق به.

حدث ذات يوم أن قام واحد من البدو بإحضار بزاقة بيضاء اللون- ذلك المخلوق المتمرد الذى لا يعيش سوى فى فتحتَىّ أنف الناقة، ولا يُنْطرد من هاتين الفتحتين إلا عندما تعطس الناقة- ليُبدى لى الملاحظة التالية، "هذا المخلوق الصغير هو السبب وراء تسخير الإبل لخدمة الإنسان. ولولا هذا المخلوق لكان الجمل حيوانًا بريًا شأنه شأن الثعلب والغزال، لا يصلح لشىء سوى صيده وأكل لحمه".

---

(١) "نميونا" تعنى حجة تبدو صحيحة ظاهريًا ولكنها غير صحيحة فى الحقيقة، والبدو يقلبون حرف "ن" إلى حرف اللام فيقولون لميونا بدلاً من نميونا، وقد يكتفى البدوى فى بعض الأحيان بكلمة "ميوخا"، وهذا يوضح مدى مرونة لغة البدو الذين يعيشون فى الصحراء.

وفى يوم آخر جاءنى بدوى بعنكبوت من عناكب الرمال؛ وبخاصة ذلك النوع الذى نسج خيوط بيته على آثار قدم النبى ﷺ عندما هرب من الكفار، الأمر الذى خدع مطارديه وأنقذ حياته ﷺ .

كان رفاقى مداومين على الصلاة، وبخاصة صالح، الذى درج عند منتصف النهار على النظر إلى أعلى ويقول:

"أيها الصاحب، حان موعد الصلاة".

كنت أقول له "بعد ربع ساعة"(١)، وأنا أنظر إلى ساعتى مشيرًا إلى بعض المراعى التى فى طريقنا. كان التوقف لأداء الصلاة يتحدد كلما تهيأت لنا مراعٍ للإبل. وفى أواخر النهار درجت الجماعة على الانتشار على مساحة ميل أو أكثر من ميل، أثناء المسير، حتى يتمكن أفراد الجماعة من أداء الصلاة على شكل ثنائيات أو ثلاثيات، فى الأماكن التى يكونون فيها،

ولم يكونوا يصلون فى صف واحد مثلما يحدث عندما نكون فى المخيم.

ذهبت الناقة لترعى فى حين راح صاحبها يؤدى صلاته، وبعد عشر دقائق كانت تنطلق صيحة "هِرّ" (مع تكرار حرف الراء)، ثم ينطق صاحب الناقة الكلمة "شوم" shom ويُتبع هذه الكلمة باسم الناقة، وهنا كانت الناقة تنظر إلى الأعلى وتروح تنتظر، متأهبة، لمجىء صاحبها ليقتادها؛ وهو يقول: "موه موه" أو : رارار" (مع تكرار حرف الراء، وهذا كله من قبيل المناداة على الناقة الشاردة التى تخرج عن الصف أثناء المسير.

كان الضجر والقلق الناجم عن الصمت الطويل ينكسر فى بعض الأحيان عندما يندفع واحد من البدو قائلاً: "الله أكبر، لا إله إلا هو". ويجىء الرد الدينى على الفور.

كنت أقول فى بعض الأحيان "بالبرودة النهار!".

---

(١) كل "ساعة" هنا لا معنى لها عند البدو. والسبب فى ذلك إن وحدة القياس الأصغر من اليوم هى الفترة فيما بين الصلوات. وبشكل عام فإن البدو يتحدثون عن الزمن منسوبًا إلى المسافة.

ويجيئنى الرد "هذا من الله". قول أى كلام مخالف لذلك يمكن أن يدخل فى إطار الهرقطة والتلاعب بالدين، هذا دومًا من الله تعالى وكل شىء من الله. لم أصادف مطلقًا إيمانًا أعمق من ذلك بحتمية الأحداث التى من قبيل: القتل، الغزو، المرض، كل هذه الأمور تعد جزءًا من التخطيط السماوى أو الإلهى. والناس هنا يؤمنون بأن كل أمر من هذه الأمور له ساعته المحددة من قِبل الله تعالى.

الحال ليس دومًا عى هذه الشاكلة، هناك حالة نفسيه مبهجة، على العكس من الحالة النفسية السابقة. والبدوى قد يتذكر بين الحين والآخر شعرًا أو قافية محببة إليه، وربما يكون ذلك الشعر أو هذه القافية عن أبى زيد أو عن ذياب بن غانم، أو عن مارد آخر من المرَدَة القدماء.

جاءنى صالح ذات يوم وهو راكب ناقته ويردد ذكريات بنى هلال التى تسرّ خاطره وترضيه، وبخاصة ذكريات بنى هلال مع أعدائهم.

"هؤلاء عصافير، وأبو زيد شجرة سدر.

طاردناهم وهم يهربون، وعدنا إلى ظل الشجرة.

جرح الذئب له علاج،

لكن طعنة رمح أبى زيد لا دواء لها،

الدم يندفع بعد الطعنة كما لو كان ينساب من دلو،

وإذا ما جفت تطفع دمًا، وينساب الدم من جديد".

وهنا جاءت العبارة "ينساب الدم من جديد" وكان صاحبها يكرر العبارة الأخيرة التى وردت على لسان صالح. ويتحول صالح إلىَّ ليقول لى: "سيدنا محمد يقول: "سَيُعثَرُ على أبى زيد فى الجنة".

لم أُبْدِ أية علامة من علامات الدهشة. وهنا سمعت معجبًا آخر يقول:

" يا أبا زيد! يا أبا زيد أبا مخيمر!

سيفك مسلول، والمطعون لا يحيا.

ما عدد ثقوب المياه التى مررت بها. ولم تُحْصها؟[١]

فى حراسات الليل، بعد غروب الشمس.

رأيت سُقّيات كثيرة وبطون خالية[٢] .

أثناء النهار عندما تكون الأعين مغلقة بسبب النوم[٣] .

أعربت عن تفضيلى للنثر العربى على الشعر العربى، وهنا انبرى أحد البدو ليحكى لى قصة المعركة التى دارت بين ذياب بن غانم وآلان عبد الريشة.

"كان آلان واحدًا من عبيد الزناتى، بل إنه كان عدوًا يخشاه بنو هلال، ويخافون منه، نظرًا لأن كل من كان يبارزه بالسيف كان محكومًا عليه بالقتل. من هنا جاءوا إلى أبى زيد وطلبوا منه قتل فرس آلان. لكن أبا زيد كان قد قطع على نفسه وعدًا بألا يفعل ذلك، والسبب فى هذا هو أن أبا زيد عندما كان أسيرًا عند الزناتى، جاءه آلان وقال له: "هيا بنا نقسم بأننا إذا التقينا وجهًا لوجه فى أية معركة فلن يقتل أحدنا الآخر". وأقسم أبو زيد هذا القَسَم. وعليه؛ عندما هرب أبو زيد وجهز "قومًا" (جيشًا) لإنقاذ شقيقه بريقه، فإنه لم يشارك فى القتال، واكتفى بالوقوف على الحياد. وكان من عادة كل جماعة إرسال بطل للقتال أمام جدران قلعة الزناتى. وكان آلان هو البطل الذى أرسله الزناتى، وكان الموت مصير كل من أدرج ضمن قائمة المقاتلين الذين سيتصدون له- وعليه لقى أولاد الزناتى ابن غانم حتفهم ومعهم عمر بن خافيات ذلك الشخص المحبوب من الجميع. كان آلان راكبًا جوادًا لم يكن له مثيل من قبل أو بعد ذلك، وكان ذلك الجواد عندما يصهل يجعل خيول بنى هلال تقشعرُّ خوفًا، الأمر الذى يُعْجزُ راكبى هذه الخيول عن التصرف معها. كانت خطة آلان مبنية على الإطاحة بخصمه عن طريق سلسلة طويلة تنتهى بخطّاف مثبت فى طرفها، كان آلان يلقى بهذه السلسلة بمهارة فائقة لتمسك بسلسلة درع الخصم، وبذلك يتمكن آلان من جر خصمه من فوق سرج الحصان وقتله بعد ذلك.

---

(١) هذا يعنى سرعة الغزو.

(٢) بمعنى الإبل الجوعى وبالتالى لا تقوى على السير.

(٣) بمعنى الأعداء.

تشاور بنو هلال فيما بينهم وقالوا: "طالما أن أبا زيد لن يحارب هذا الخَصْم، فليس هناك أحد غير ذياب بن غانم يستطيع القيام بهذه المهمة". وعليه أُرْسل فى طلب ذياب، وجاء الرجل. وهنا أخذ ذياب ثلاثة ثياب وقام بغليها إلى أن أصبحت عجينة وصنع من هذه العجينة سلسلة بدلاً من سلسلة الدرع، وقام بعد ذلك بملء أُذنَى فرسه بالطين كيما يمنعه من سماع صهيل حصان آلان. وهنا أصبحت حلبة القتال جاهزة؛ كانت حلبة القتال أمام قلعة الزناتى وكان أمامها حفرة شبيهة بالخندق، كان يتحتم على آلان عبورها قفزًا بحصانه ليدخل القلعة بعد أن قتل خصمه.

"جاء المتحاربان من اتجاهين متضادين، وعندما اقتربا من وسط حلبة القتال صهل حصان آلان بصورة مفاجئة، وهنا حول ذياب بطريقة ماكرة، وجه فرسه إلى ناحية بنى هلال وتراجع مبتغيًا بذلك سحب خصمه من القلعة وبعيدًا عنها، طارده آلان مطاردة ساخنة، وعندما أصبح فى نقطة الضرب أرسل خُطَّافه. وأمسك الخطاف إمساكًا خفيفًا فى عباءة ذياب الخارجية، ولكن بدلاً من إيقاعه من فوق فرسه، مزق الخطاف جزءًا صغيرًا من ثوبه الخارجى؛ وألقى آلان خطَّافه مرة ثانية، لكنه أمسك فى هذه المرة بالثوب الثانى لذياب، وحاول آلان مرة ثالثة ولم تكن نتيجتها أفضل من سابقتيها. وهنا أحس آلان بعدم الارتياح وحاول التراجع ومن خلفه ذياب يطارده. وعندما وصل حصان آلان إلى حافة الخندق صهل كما لو كان العمل لا يرضيه، لكن فرس ذياب لم تسمع ذلك الصهيل، وقفزت عابرة الخندق فى أثر حصان آلان، وبذلك أدرك الزناتى أمام باب مدخل قلعة الزناتى. وهنا استدار آلان الذى كان يرتدى درعًا لا تظهر منه سوى عينيه، ليتبين مكان خصمه، وبينما كان آلان يفعل ذلك، أطلق ذياب رمحه الذى اخترق عين آلان واخترق رأسه أيضًا، وانغرس إلى منتصفه فى جدار القلعة.

"وهنا قال آلان متسائلاً: "وهو فى سكرات الموت" فى المكان الذى سقط فيه:

"ذيب أو ذياب؟" لأن واحدًا من العلماء قال له من قبل أن اسمًا من هذا القبيل سوف ينتصر عليه.

"قال ذياب: "ذياب".

"قال آلان (وهو يلفظ نفسه الأخير): "أوفى الحساب" - أى يوم الحساب".

كانت ليلة اليوم الأول وصبيحة اليوم الثانى من شهر فبراير ليلة ليلاء وشديدة البرودة، الأمر الذى أدى إلى استيقاظى قبل أذان الفجر. كان القمر بدرًا فى السماء الغربية الأمر الذى أدى إلى تصغير المريخ، الذى كانت عظمته بلا منازع قبل أسبوعين عندما كان القمر صغيرًا. كنت قد تعلمت الوقوف على الوقت من تحرك المجرَّات عبر السماء الصافية المدارية. فى هذه الليلة كان نجما رجيولس والمنجل (يعانيان أيضًا مثل كوكب المريخ من القمر بعد أن أصبح بدرًا)، ومن بعد هذه المجرّة كانت هناك مجرة سبيكا ونجمها سبانكر، ومن بعدها مجرة العقرب، تلك المجرة الرائعة فى الشرق، وكان كوكب الزهرة يصاحب نجم سبانكر. راقبت كوكب الزهرة وهى تنزلق نازلة على جسم النجم سبانكر فى تلك الليلة القليلة الأخيرة استيقظت عند منتصف الليل لتسجيل موقع النجم بولاريس، لكنى اكتشفت أن جهاز قياس الارتفاعات تعذر إصلاحه وإعادته إلى وضعه الطبيعى بعد الاهتزازات الكثيرة التى أصابته جراء عملية السير. كان يمكن لملاحظتى أن تتوقف تلك الليلة، تحت أى ظرف من الظروف، بسبب وجود واحد من البدو، الذى كان خياله على خلفية السماء التى يضيئُها القمر، يبدو منتقبًا حينًا، وراكعًا حينًا آخر، الأمر الذى ينبئ بأنه كان يؤدى الصلاة- وهذا بحد ذاته عمل فريد فى مثل هذه الساعة.

بدت السماء الشرقية عند طلوع الفجر كما لو كانت مغسولة بالدم، وتغطيها سحب أرجوانية طويلة شبيهة بالشِّعاب الصخرية، التى راحت النجوم تشحب وتختفى خلالها.

بدأنا فى ساعة مبكرة، وعدنا فى بداية الأمر إلى مسارات الليلة السابقة قاصدين تل نخالة الشامخ، من خلال الرمال المتدحرجة التى كانت تخفى عنا هذه المسارات بين الحين والآخر. قمت مع اثنين من مرشدينا من قبيلة المرة، وهما حمد وطالب، بتسلق ذلك التل من جوانبه المتحدِّرة الناعمة إلى أن وصلنا إلى قمته، وحظينا بإلقاء نظرة خاطفة من بعد على مياه الخليج الفارسى. كان اليوم صحوًا ومشمسًا، ولذلك شاهدنا بانوراما رائعة حول نخالة؛ كانت تلك البانوراما عبارة عن رمال منخفضة جرداء تمتد ناحية الغرب إلى مضارب

(مساكن) الجافورة، وتمتد شرقًا عبر سلاسل من التلال الرملية إلى أن تصل إلى البحر. كانت أراضى الربع الخالى الجرداء الشاسعة تمتد من خلفنا على امتداد أسابيع طويلة، وهى خالية من السكان، ومن أمامنا كانت تنتظرنا مسيرة تقدر بمسير أربعة أيام نصل بعدها إلى مساكن الرجال.

نزلنا من فوق التل، وكان جهاز قياس الارتفاعات (آنرويد) قد سجل قراءات منخفضة عن مستوى سطح البحر مثلما حدث فى اليوم السابق، وأيضًا فى اليوم الذى تلا ذلك. وخلف بعض التلال الرملية وصلنا إلى سنجة المناصير، التى هى عبارة عن حقل ملحى يمتد إلى أميال عدة، وزاخر بالأهداف البحرية التى كانت فى حالة باكرة من حالات التَّحفُّر(١).

تركنا البحر على بعد مسير يوم واحد فى ناحية اليمين، وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الشمال عبر منطقة شبيهة بمناطق المحاجر شديدة القحولة. سمعنا صوت ذئب على مقربة من جرف فارهود، الذى جمعت منه أصدافًا أخرى فى حالة من التَّحفُّر أبكر من الأهداف سالفة الذكر.

أدى ثقب ماء خافوس إلى نقاش ساخن بين المرافقين لى حول مسألة سُقْيا الإبل أو عدم سقياها من هذا الثقب. وفاز الأياسة فى هذا النقاش، وعليه أعطتنى الوقفة التى دامت خمسين دقيقة، فرصة سنحت لى بتسلق قمة بارزة كيما أقوم بقياس نقاط الارتفاع التى يقولون إنها على شاطئ البحر- وهذا المسار وبخاصة أن يوم الحصول على الأجر والأتعاب، أصبح وشيكًا، بدا لى وكأنى أستطيع تحمله؛ يزاد على ذلك، أنى اكتسبت شيئًا من الثقة بين المرافقين لى، وربما كان ذلك راجعًا إلى تلك الأسابيع الطويلة التى أمضيتها معهم.

أوصلنا مسار اليوم التالى، الذى كان منحرفًا قليلاً ناحية الشمال الشرقى، إلى المزيد من تلك الأرض الجرداء الشبيهة بالمحجر، وبعد مسير ستة أميال، رأيت أمامى بحيرة كبيرة فضية اللون. كنت قد عرفت من قبل من البدو المرافقين لى أننا سوف يتحتم علينا المرور وعن يميننا سبخة يطلق عليها الناس اسم سبخة

---

(١) راجع الملحق رقم ٢.

عَمْرة، ومن الطبيعى هنا أن نسلم بأن هذه السبخة يمكن أن تكون سهلاً ملحيًا جافًا، شأنها شأن السبخات الأخرى التى مررنا عليها أثناء مسيرنا مؤخرًا: كان طول هذه السبخة يبلغ قرابة سبعة أميال، وربما كان عرضها يصل إلى قرابة ميل ونصف الميل تقريبًا، وجاءت بمثابة مفاجأة سارة لنا. وعندما اقترينا من الطرف الجنوبى لهذه السبخة عثرت على حفريتين صدفيتين كبيرتين. وبدءًا من هذه المنطقة أصبح مسارنا يمر خلال سهل صوَّانى منخفض كان يحدُّ الجانب الشمالى من السبخة، وبدا لى الشاطئ الجنوبى لهذه السبخة، وإن شئت فقل هذه البحيرة الفضية، كما لو كانت تلالاً رملية منخفضة.

بينما كنت مشغولاً بتصوير هذه السبخة، وكان ذلك أمرًا لابد منه، وبخاصة عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم، قام البدو المرافقون لى بجمع كتل كبيرة من الملح الصخرى كيما يستعملوه فى طهى الأرز(١).

هذا الحد الذى يصل عرضه إلى قرابة عشرين قدمًا، كان مظهره شبيهًا بمظهر الثلج، وعلى بعد مسافة كبيرة كان من المستحيل تحديد النقطة التى ينتهى عندها هذا الملح، ويبدأ عندها الماء. كان على بعد قرابة ست أقدام من حافة مياه البحر، خط من الجراد أحمر اللون كبير الحجم الذى يعد من الأكلات الشهية عند العرب. هذه المخلوقات التعيسة تندفع على شكل جحافل قادمة من الصحراء فى فصل الربيع وتقدُم على الأنهار عند أول سطح مائى يلقاها أو يقابلها- وقد أوحى لنا هذا أن هذا الموضع من البحيرة قد انحسر على امتداد العام، لكن المرافقين اللذين كانا يرافقاننى من قبيلة المرة لم يقدما تفسيرًا لهذه المسألة، علمًا بأن هذين المرافقين هما وحدهما اللذان كانا فى هذه المنطقة من قبل. كان المنحدر هينًا إلى حد أن شيئًا قليلاً من المطر، أو بخر فصل الصيف، يمكن أن يكونا من أسباب تغيير مستوى هذا المنحدر.

بعد أن تجاوزنا هذه البحيرة، أوصلنا مسارنا الذى انحرف بدرجة أكبر ناحية الشمال الشرقى، إلى جبلٍ شديد الشبه بظهر القنفذ، من خلال سهل تنتشر فيه

---

(١) راجع التحليل الكيماوى لهذا الملح فى الملحق رقم ٢.

الأحجار المهشَّمة، لنصل بعد ذلك إلى سهل ملحى آخر وسيع يطلقون عليه اسم سهل العمرة. يُقال أن هذا السهل يمتد غربيًا إلى ما بعد المواقع القديمة فى إسكاك، سلوه، وماباك إلى أن يصل شواطئ الخليج القطرى. وهنا يجب القول: إن ملح البحيرة هو والدلائل الصدفية التى جرى العثور عليها مؤخرًا، ومعهما قراءات جهاز تحديد الارتفاعات توحى كلها بأن أساس شبه الجزيرة القطرية كان، منذ وقت غير بعيد، مغمورًا تحت ماء البحر(١)، وقطر تشكل جزيرة شأنها فى ذلك شأن البحرين المجاورة لها(٢)، لكنها أكبر كثيرًا عن البحرين.

كان المرافقون لى قد توقفوا فى السهل لأداء صلاة العصر. وعندما وصلت إليهم، كانت ناقتى، عُقابة، قد قررت أن المكان يناسبها. ولذلك رفضت الناقة المضى قُدُمًا لوحدها، وراحت تُبقلل، من باب المناداة على رفقيتها المعتادة فى السير- وجاءت تلك البقللة مصاحبة لطقوس أداء الصلاة بواسطة المؤمنين، وبعد ذلك بدأت عملى بعد أن ارتكبت خطأً جوهريًا، عندما أعطيت الناقة إشارة خاطئة. درجت هذه الناقة على النهوض واقفة عندما يربت راكبها على جسمها من الخلف، لكن ربتى على عنقها أبقى عليها فى وضع التَّبريك. وهنا يجب ألا يغيب عنا أن الناقةِ الحَرُون تسبب الكثير من المشكلات، لكن أحدًا من البدو لا يجرؤ على وضع العصا حول الناقة مخافة أن يفسد كل ما تعلمته من خصال طيبة. والبدوى عندما يغضب من ناقته، يصيح قائلاً:

"وبعدين! (ناسال) لعلك تصابين بالخراش المرض المهلك".

"وبعدين! لعلك تموتين، موتًا شرعيًا أو غير شرعى".

"وبعدين! لعلك تبتلين بالحمل الثقيل".

البدوى عندما يدعو على ناقته بهذه الطريقة لا يضمر لها عداء ولا غلاً من هذا القبيل. والبدوى يرتبط بناقته ارتباطًا وثيقًا وحقيقيًا، وهو يعرف تمامًا أن

---

(١) ربما يكون من المنطقى القول بأن جرّها، الميناء القديم الذى ورد ذكره عند بطليموس، إذا لم يكن هو البحرين نفسها، فقد يمكن البحث عنه، ليس تحت سطح البحر، كما هو شائع وإنما على بعد مسافة فى الداخل.

(٢) الاسم "بحرين" كان يطلق فى الأصل على المساحة كلها من الدوحة إلى القطيف. والجزر التى يطلق عليها حاليًا اسم البحرين كان الناس من قبل يعرفونها باسم آوال.

هذا الارتباط غير متبادل. وعليه فإن الناقة إذا ما تعثرت، يغلب على راكبها القول:

"وبعدين! سلامتك".

"وبعدين! حماك الله من كل شر".

يضاف إلى ذلك أن صاحب الناقة الضالة التى يعثر عليها بعد مسير قد يدوم أميالاً، وهو يبحث عنها، يقول لها عندما يقترب منها:

"وبعدين! بارك الله فيك" أو:

"مرحبًا بك يا فُلانة" - وذلك من باب تحيته لها بالاسم(١).

أدت أثار أقدام الإبل التى تعرفناها بأنها من إبل قبيلة المناصير، إلى حثنا على المضى قُدُمًا ومواصلة السير، والسبب فى ذلك أن حمد، الذى ينتمى إلى قبيلة المرة، لم يكن حاله النفسى يسمح بلقاء هؤلاء المناصير.

تسبب منظر الإبل قليلة العدد التى كانت ترعى عند خط الأفق إلى تبادل أفراد جماعتى الإنذارات فيما بينهم. وهنا بادر طالب الذى كان معروفًا من المناصير فى هذه المنطقة، إلى التحرك إلى مقدمة الجماعة بغية استطلاع الأرض من ناحية وتمويه التشكيل المكونة منه جماعتنا إذا ما تطلب الأمر ذلك، فى حين قامت الجماعة بتغيير اتجاهها تحاشيًا لهؤلاء المناصير.

قال سهيل: "أنا أريد منك شيئًا واحدًا بعد الوصول".

"ما هذا الشىء؟".

"أريد منك دخانًا (تبغًا)".

"أيها الصاحب، التبغ هو الشىء الوحيد الذى لا يمكن أن أستغنى عنه، أنا أصوم عن كل شىء إلا التبغ (الدخان)".

"أليس هذا شكلاً من أشكال الخطيئة؟".

---

(١) ترحب قبيلة المرة بالغريب قائلة: "مرحبًا وسهلاً" والمناصير يقولون: "مرحبًا بكم".

"أقسم بالله إنها خطيئة، لكن ما باليد حيلة؟- هذا هو رمضان الوحيد، إذ لم يسبق لى مطلقًا شرب الدخان فى شهر رمضان".

الأصوليون يرون أن سُهيل قد خرج على أصول الصوم عندما أقبل على التدخين، وبالتالى لن يبارك الله فى معيشته. زد على ذلك، أن سهيل كان هو المدخّن الوحيد من بين المرافقين لى فى الجماعة كلها - يضاف إلى ذلك أن الرجل لم يعمل برخصة الإفطار فى السفر، فى شهر الصوم كان الرجل صائمًا بروحه، وذلك على الرغم من أن أحدًا من المتشددين لن يُعنِّفه إذا ما عمل برخصة الإفطار بسبب السفر.

سمعت الرجل وأنا أمضى قُدُمًا، يتمتم: "رحمتك يا الله".

كان طالب مرافقنا الذى كان قد سارع براحلته بغية التعرف على الإبل المجهولة، يهل علينا راجعًا من مهمته، وراح طالب يصيح وهو يبعد عنا قرابة مائة ياردة، قائلاً:

"هل صليتم؟ هل صليتم؟".

"نعم، صلينا، الحمد لله!".

يقترب الرجل أكثر منا ليقول لنا:

"حياكم الله، حياكم الله، عندى خبر طيب! إن شاء الله"، وهنا تجمعت الجماعة من حول الرجل كيما يستمعوا إلى آخر قصة من قصص الصحراء.

وبعد ذلك بدقائق معدودات تأخر الشيخ صالح لتصبح راحلته بجوار راحلتى.

قال الشيخ صالح: "يا له من خبر طيب!".

"الحمد لله".

"عبد العزيز بن سعود موجود فى الرياض. الحكّام- فى إشارة منه إلى ابن جلوى حاكم الأحساء- موجودون فى بلدانهم؛ إنهم لايزالون باقين فى الحكم!"(١).

---

(١) مغزى هذا الكلام هو أن البشر المرافقين لى من الرشايدة (الرشيد) ومن المُرة، أحسوا أنهم فى مأمن من بعضهم البعض، وبالتالى كانوا جميعًا فى مأمن من المناصير.

قال ثالث: "الحمد لله".

"لقد عادت الحياة إلى الجافورة" (الإشارة هنا إلى المراعى الوفيرة التى نتجت عن الأمطار التى سقطت مؤخرًا).

جاء رد جماعى "الحمد لله" من البدو، لأن هذه المراعى الجديدة تسمح لهؤلاء البدو بالتعريج عليها عند العودة؛ لكى ينالوا قسطًا من الراحة ويرعوا إبلهم بضعة أسابيع استعدادًا لرحلة العودة الطويلة إلى رمالهم الجنوبية.

كان المطر يهطل علينا فى المكان الذى توقفنا فيه لأداء الصلاة. كانت تقف فوق حجر على مقربة منا بومة راحت تطيل النظر إلينا، الأمر الذى مكَّن واحدًا من البدو من التسلل خلفها لمسافة ثلاثين ياردة، لأنه كان يعلم أن البوم يعد هدفًا من الأهداف الصعبة، لأن الطلقة عندما أخطأتها جعلتها تدخل مرمى بندقية أخرى، ثم طارت البومة بعد ذلك بعد أن أخطأتها الطلقة الثانية.

لاحظ رفاقى بعد قرابة ساعة آثار أقدام الحمير عندما كنا نعبر أو نتجاوز ثقب ماء الزرقة الذى يصل عمقه إلى قرابة ست قامات، هذا الثقب أو البئر هو المكان الذى تحصل الدوحة منه على الماء. وبينما كنا نسير فى الطريق المعروف لكل المجاورين لهذه المنطقة. وهنا قمنا بإرسال طالب مرة أخرى لاستطلاع المكان، فى حين راح رفاقى يتحدثون بشغف عن وجبة غذاء من الحليب. هذا أمل لم يتحقق- على الرغم من عودة طالب إلينا وهو يحمل معه زنبيلاً من التمر، حصل عليه من الراعى الوحيد الذى عثر عليه وهو يرعى الإبل القطرية. هُيِّئَ لى أن طالب حرم ذلك الراعى البائس من القسم الأكبر من طعامه- علما بأن هذا التمر كان كافيًا لإطعام الجماعة كلها فى تلك الليلة- لكن هذا هو تفاخر الصحراء وهذا هو قانون الصحراء الذى يقضى بالسخاء فى إكرام عابر الطريق اليوم، ومعاناة الفقر فى الغد وعدم القدرة على التغلب عليها.

كان المساء شديد البرودة؛ ولم نتمكن من الحصول على أى شىء من الحطب لعدم وجوده فى أى مكان من الأماكن المحيطة بنا، واكتفى أفراد الجماعة بنيران صغيرة شَبُّوها فى روث الإبل الجاف. نزلت علينا زخات المطر أثناء الليل، وصحوت من نومى لأجد بطاطينى مبتلة تمامًا؛ وعليه، وحتى أتمكن من تناول

إفطارى فى مكان جاف آثرت الجلوس تحت مائدة المخيم. لكن ذلك الإفطار كان بمثابة إفطارى الأخير فى الصحراء، وعليه فلابد من تحمل ما أنا فيه عن طيب خاطر.

أوشكنا على الوصول. وهنا أسرع البدو الخُطَى، وهم يتغنون بأغانى الماء. وهنا راحت الإبل العطشى تصيخ السمع إلى ذلك الغناء. خلَّفنا وراءنا آخر الكثبان الرملية. وبعد أن تجاوزنا الكثبان الرملية التالية المتموجة، لاح لنا السهل الحجرى الذى يسمونه تُعيجه، الذى سبق أن خططنا ليكون هو مسقانا الأخير، ومن خلف هذا المسقى بدأت تلوح لنا أبراج الدوحة وقد انعكست صورتها على مياه الخليج الفارسى. وبعد نصف ساعة كنا داخل أسوار القلعة. وهنا نكون قد عبرنا الربع الخالى.



مُضيفى ، الشيخ محمد بن عبداللطيف المناع
(على اليمين) ومعهما صالح



- الجماعة القطرية : الشيخ (فى الوسط)

الملحق رقم (١)

الخصائص العِرْقية لعرب الجنوب

بقلم: السير آرثر كيث هو والدكتور وليتون ماريون كروجمان[1]

يقول النقيب برترام توماس فى الرسالة التى كتبها من مسقط فى مطلع العام ١٩٣٠، وعنوانها إلى رئيس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا: "يتضح لنا من خلال دراسة اللغة، الموروث والثقافة أن البنود من ١ - ٨ من القائمة التى أعددتها أنا تنتمى إلى بقايا من غير العرب فى الجزيرة العربية؛ وفى ضوء ما نشرته أنا فى المجلة (المجلة التى تصدر عن معهد الأنثروبولوجيا، فى العدد المنشور فى شهر يونيه من العام ١٩٣٠ الميلادى) يبدو أن هذه البقايا تنتمى أكثر إلى الجنس الحامى الموجود على الجانب الآخر من البحر الأحمر أكثر من انتمائها إلى عرب وسط وشمال الجزيرة العربية".

وبعد ذلك بعام، أكد ذلك النقيب برترام توماس من جديد، فى بحثه المقدم إلى المعهد الأنثروبولوجى (فى شهر يوليو من العام ١٩٣١)، عن السمات والخصائص الحامية لعرب جنوب الجزيرة العربية. قال برترام توماس: "بعد الخبرة التى اكتسبتها من خمس عشرة سنة من الخدمة فى الجيش، عشت طوالها على مقربة وأُلفه مع شعوب جنوب الجزيرة العربية فى بلاد الرافدين، شرق الأردن، وفى

---

(١) كان الدكتور كروجمان يقوم فى ذلك الوقت ببعض التحريات الأنثروبولوجية فى معامل كلية الجراحين الملكية، والذى كان فى ذلك الوقت (١٩٣٠ - ٣١) زميلاً فى معهد أبحاث الولايات المتحدة الوطنى.

الخليج الفارسى، أجدنى مندهشًا من خصائص سكان جنوب الوسط؛ وأورد برترام، على سبيل الاستشهاد الآراء التى أبداها كل من النقيب رتشارد بيرتون، والميجور جنرال ميتلند عن الطابع العرقى لعرب جنوب الجزيرة العربية. كان من رأى بيرتون أن عرب الأحراج الشرقية وكذلك عرب الأحراج الجنوبية الشرقية هم الذين يمثلون السكان الأصليين لشبه الجزيرة الكبيرة، وكان للميجور جنرال ميتلند رأىٌ مماثلٌ أيضًا. يقول الرجل: "عرب جنوب الجزيرة العربية، أصغر حجمًا، وأدكن لونًا، وملامحهم فجة، ولا يربون لحاهم. وتتفق كل المصادر على أن عرب الجنوب يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالأحباش، والغريب، بحق القول بأن العرق المصرى الأفريقى هو الذى يشكل العرب الأصليين، فى حين يعد عرب الشمال الساميون أعرابًا بالتبنى من ناحية وبالإقامة من ناحية أخرى، أكثر منهم عربًا بالمولد".

وبذلك يكون النقيب توماس قد تمكن بفضل خبرته من تشكيل رأى عن القرابات العرقية فى جنوب الجزيرة العربية، وأن ذلك الرأى كان شبيهًا تمامًا بذلك الرأى الذى توصل إليه كل من بيرتون وميتلند، والذى مفاده إن أقرب أقارب عرب جنوب الجزيرة العربية يمكن البحث عنهم بين شعوب الجانب الأفريقى من البحر الأحمر وليس بين الأجزاء السامية من شبه الجزيرة العربية. جدير بالذكر هنا أن الرجل طرح على رفاق المعهد الأنثروبولوجى الملكى أسئلة عدة؛ عندما كان يحاول اختتام بحثه الثانى؛ وأن هذه الأسئلة توضح أن الرجل كان ينتظر رأى الخبراء ونُصحهم له قبل أن يصل إلى قراره النهائى حول الطبيعة العرقية للقبائل المجهولة التى زارها وأجرى عليها قياساته. تساءل الرجل: "من تكون ومن أين جاءت هذه القبائل؟" وهل هذه القبائل متجانسة؟ وهل هى من أصل أفريقى، أم أن لها أصلاً مشتركًا مع القبائل الأفريقية، أم أن كل هذه الفرضيات والمعطيات ليست محتملة" سنحاول فى هذا الملحق الإجابة عن تساؤلات النقيب توماس- وذلك فى حدود ما تسمح به الدلائل المحدودة المتيسرة لنا فى الوقت الحالى، وفى ضوء التعبيرات المحددة التى تسمح لنا بها الظروف الحالية- والسبب فى ذلك، وبلا أدنى شك أنه لا تزال هناك مواد مدفونة فى رمال بلاد العرب، وإن

هذه المواد يمكن أن تُعين علماء الأنثروبولوجيا وتساعدهم على إعطاء النقيب توماس إجابات محددة عن أسئلته، وتلقى أيضًا ضوءًا جديدًا على تاريخ الإنسان الأول فى الشرق.

قبل أن نبدأ فى مناقشة أنثروبولوجيا عرب الجنوب فى ضوء الملاحظات والتسجيلات التى أبداها النقيب توماس، هيا بنا نقف على رأى الخبير الأنثروبولوجى فى الوقت الحالى. وهنا نجد أن أعمال الأستاذ الدكتور س. ج. سلجمان[١] تسهل علينا القيام بهذا الدور. كان سلجمان قد جمع فى العام ١٩١٧ الميلادى المقاييس القليلة التى كانت قد أُجريت على مواطنى جنوب الجزيرة العربية، كما قام بفحص الجماجم القليلة لعرب جنوب الجزيرة العربية التى شقت طريقها إلى مكانها بين مجموعات المتحف البريطانى. وهنا يجب التنويه إلى أن الملاحظات التى أبداها سلجمان على الطبيعة العرقية لعرب جنوب الجزيرة العربية كانت ذات أهمية خاصة، ذلك أن سلجمان هو مصدرنا الرئيس عن الشعوب التى تعيش فى ذلك الجزء من أفريقيا المواجه لبلاد العرب[٢]، وأن البحر الأحمر وقناة السويس هما اللذان يفصلان الموطن الأفريقى عن الموطن العربى. وأثناء قيام سلجمان بجمع مرئياته الخاصة بعرب الجنوب أحدث اكتشافًا أدهش السواد الأعظم من علماء الأنثروبولوجيا إلى حد بعيد. كان سلجمان قد توصل إلى أن استدارة الرأس brachycephal'y، أمر شائع وأساسى بين هؤلاء العرب. تُرى ما السبب الذى جعل هذا الاكتشاف يفاجئنا؟ ولهذا السبب: نجد أن شعوب أفريقيا بدءًا من المصريين فى الشمال إلى البوشمن فى الجنوب، هم أصحاب رءُوس طويلة بصفة مؤكدة.. يزاد على ذلك أن عرب الشمال هم أيضًا أصحاب رءُوس طويلة، يضاف إلى ذلك أن السكان الأوَّلين فى أور ur كانوا أيضًا أصحاب رءوس طويلة، من هنا، توقعنا أن طول الرأس dolichocephaly يمكن أن يكون هو السائد فى هذا الجزء من الأرض الواقعة بين

---

(١) دورية، المعهد الأنثروبولوجى الملكى، العام ١٩١٧، المجلد ٤٧، ٢١٤.

(٢) أوجز الدكتور سلجمان مختلف مقالاته وأبحاثه عن الأنثروبولوجيا الأفريقية فى كتيب صغير، عنوانه الأعراق الأفريقية، ونشره فى العام ١٩٣٠.

بلاد الرافدين فى الشمال ومستعمرة الكاب فى الجنوب. وبذلك يكون اكتشاف الدكتور سلجمان قد أحدث هزة عنيفة فى الفكر الأنثروبولوجى. من هنا توقعنا أن يكون سكان جنوب الجزيرة العربية طويلى الرءوس. وقد أوضحت معطيات الدكتور سلجمان أن العكس هو الصحيح، وقد أثبتت مقاييس النقيب توماس أن عرب الجنوب يدخلون ضمن السواد الأعظم من الشعوب مستديرة الرأس.

هنا نجد أن شعوب الشمال الشرقى من أفريقيا لهم رءوس طويلة وأكثر اصطباغًا، وبشرة بُنية اللون كما هو الحال فى المصريين، أو شعوب سوداء أو شبه سوداء. وهنا نجد العديد من أوجه الشبه بين مواطنى أو سكان شمال شرق أفريقيا والقسم الأكبر من الهند، الأمر الذى يجعلنا نظن أن البلاد الواقعة بين مصر والهند كانت مأهولة فى وقت من الأوقاف بعرق أفراده طويلى الرءوس وأصحاب بشرة أكثر عتامة. وهنا كنا على استعداد، وبخاصة أولئك الذين يؤمنون بهذه النظرية، لتأكيد أن العربى الجنوبى لابد وأن يكون صاحب بشرة دكناء وله شعر شبيه بصوف الأغنام، لكن إذا كان هذا العربى الجنوبى يمثل المواطن الأصلى الذى نبحث عنه، فإنه قد لا يكون مستدير الرأس. وهنا يتعين علينا مواجهة الحقيقة التى مفادها أن عرب الجنوب مستديرو الرءوس بشكل ملحوظ.

هذا لا يعنى إلغاءَنا لمسألة استدارة الرأس من منطلق أن هذه السمة مقصورة على شعوب منعزلة انعزالاً كبيرًا. ونحن، إذا ما تعين علينا النظر إلى عرب الجنوب على اعتبار أنهم منتج متطور من موطنهم، نجد أن ذلك يحتِّم علينا التسليم بأن الشعب، مستدير الرءوس بصفة أساسية، قد أصبح مستدير الرءوس بفعل عملية التطور نفسها. يضاف إلى ذلك، أننا عندما نتدبر التوزع الحالى لسمة الرأس المستدير، وعندما نلاحظ أن استدارة الرأس هذه هى خاصية السواد الأعظم للشعوب التى تعيش فى تلك المنطقة من آسيا، والتى تمتد من أفغانستان وبامير فى الشرق، إلى آسيا الصغرى وسوريا فى الناحية الغربية؛ فإن ذلك يحتم علينا أن نأخذ فى حسباننا احتمالية انتشار الرأس المستدير من الحزام الشمالى إلى أقصى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية. ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نسلم بأن الجزيرة العربية كلها، وعلى العكس من الأرض الجرداء والرمال القاحلة التى هى عليها الآن، كانت طوال العصر الحديث الأقرب

وربما أيضًا حتى أواخر العصر الحجرى الحديث، جزءًا يسر الخاطر من الأجزاء شديدة الخصوبة على هذه البسيطة. وهذا يجعلنا نجزم بأنه خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة، لابد أن تكون هناك فرصٌ كثيرة مكّنت أصحاب الرؤوس المستديرة من المجىء من المناطق العالية فى غربى آسيا إلى الجنوب طوال الأزمان التاريخية السحيقة.. والحيسيون، شديدو الشبه بالأرمن الحاليين، هم أصلاً من حزام الرأس المستدير، وهناك احتمال أن يكون هؤلاء الحيسيون قد مدوا مستعمراتهم فى اتجاه الجنوب. وهذا هو التفسير الذى ساقه الدكتور سلجمان لتوضيح مسألة استدارة الرأس عند عرب جنوب الجزيرة العربية. وقد سلم سلجمان بفرضية الاختلاط الأرمنى فى الجنوب، الأمر الذى جلب معه مسألة استدارة الرأس. هناك أيضًا مجموعة أخرى من الملامح، من بينها سمة أو خاصية الأنف المعقوف الشبيه بأنف الببغاء. وعليه؛ كان الدكتور سلجمان ينظر إلى العربى الجنوبى على أنه مجرد خاصية أو أصل حامى لا يزيد بأى حال من الأحوال عن خاصية أو أصل العربى الشمالى. هذا يعنى أن العربى الجنوبى والعربى الشمالى كانا ساميين، وعربيًا خُلَّصًا. وهنا نجد أن الدكتور سلجمان كان يركز على سمات الجمجمة، فى حين نجد أن النقيب توماس هو والنقيب بيرتون ومعهما الميجور جنرال ميتلند كانوا مهمومين، وهم يعزون سمات أصلية وحامية للعربى الجنوبى، بالبشرة، الشعر، اللغة ومئات السمات الأخرى الخاصة بالقيمة العرقية، التى سنتناولها، فيما بعد، بالمزيد من الشرح والتوضيح.

بغَضِّ النظر عن رأينا فى الطبيعة العرقية لهذه القبائل الجنوبية، يتعين علينا النظر إلى هذه القبائل، والحديث عنها من منطلق إنها من عرب الجنوب. يتفق المراقبون جميعًا على وجود فارق كبير بين العربى الشمالى والعربى الجنوبى. ومن المصادفات أن النقيب توماس عندما كان يأخذ مقاييس رؤوس أفراد القبائل الجنوبية، كان السيد هنرى فيلد، أمين مكتبة الأنثروبولوجى، فى متحف فيلد، فى شيكاغو، يطبق هذه المعايير القياسية على قبيلة من العرب البدو الخُلَّص فى المنطقة المجاورة لمنطقة كيش، فى بلاد الرافدين. وعليه؛ فإن مدى اختلاف العربى الشمالى عن العربى الجنوبى، من حيث الشكل وحجم الرأس، سوف نوضحه فى الخريطة المرفقة التى تحمل الرقم ١. هذه الخريطة توضح أن البدو

الكيشيين (عددهم ٣٨) ممثلون بحرف الـ O، فى حين نجد عرب النقيب توماس (عددهم ٤٠) ممثلين بحرف O المطموس. وهذا يسهل على القارئ الوقوف على مضمون هذه الخريطة واستيعاب هذا المضمون. والخطوط الرأسية فى هذه الخريطة تشير إلى طول الرأس، والذى يبدأ بقرابة ١٦٠ ملم. وهذا رأس شديد القصر، وينتهى عند ٢١٠ ملم- وذاك رأس شديد الطول.

على الجانب الآخر، نرى أن الخطوط الأفقية تشير إلى عرض الرأس، الذى يبدأ من ١٦٠ ملم، وهذا رأس عريض جدًا. والرجل الذى يصل طول رأسه إلى ١٩٠ ملم، وعرضه إلى ١٣٠ ملم، يجرى توضيحه على الخريطة فى النقطة التى تتقاطع عندها الخطوط الرأسية مع الخطوط الأفقية. والخريطة تحتوى على أربعة خطوط قطرية هى ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ و٨٥، وتمثل الحدود التى بين المجموعات الخمس التى تختلف أشكال رءوسها. وفى الرؤوس التى من هذا القبيل والتى تقع فوق الخط "٧٠" يكون عرض الرأس فيها قرابة ٧ فى المائة. أو أقل من ذلك من حيث الطول؛ هذا يعنى أن الرؤوس التى تكون من هذا القبيل تكون شديدة الضيق ultro - dolichocephalic ، أما الرءوس التى تقع بين الخط ٨٥ فيكون عرضها قرابة ٨٥ فى المائة، أو أكثر من الطول؛ والرؤوس التى من هذا القبيل تكون شديدة الاستدارة ultra-brachycephalic. وسوف نلاحظ فى هذه الخريطة أن العرب الجنوبيين وحدهم يقعون ضمن المجموعة ذات الرؤوس شديدة الاستدارة. وسوف نلاحظ أيضًا فى هذه الخريطة أن العرب الكيشيين وحدهم يقعون ضمن المجموعة ذات الرؤوس شديدة الضيق. أما الرؤوس التى تقع بين الخطوط من "٧٠" إلى "٨٠" - والتى يتردد عرضها بين ٧٥ إلى ٨٠ فى المائة من الطول- تشكل مجموعة وسطية mesocephalic. والعرب الشماليون هم والعرب الجنوبيون يقعون ضمن هذه المجموعة، لكن كان من ضمن العرب الجنوبيين الستة اثنان من الصوماليين. ونجد أيضًا الخطوط من "٧٠" إلى "٧٥"، تشكل المجموعة ذات الرؤوس شديدة الضيق- أو بالأحرى الرجال الذين يزيد عرض رؤوسهم على ٧٠ فى المائة؛ وتحت ٧٥ فى المائة من الطول. هذه المجموعة لا يوجد فيها عربى جنوبى واحد- أى أنها مقصورة على العرب الشماليين أو إن شئت فقل العرب الخُلَّص. وهناك أيضًا مجموعة مستديرة الرأس brachycphalice

تزيد نسبها المئوية- وإن شئت فقل مقاييس الرأس، على ٨٠ فى المائة - ولا يوجد فى هذه المجموعة سوى اثنين فقط من العرب الشماليين؛ أما باقى أفراد المجموعة فهم من العرب الجنوبيين. وبذلك يمكننا إيجاز النتائج الموضحة على الخريطة، ونقول إن الأعداد فى كل مجموعة من مجموعات الرءُوس على النحو التالى:

	شديدة الضيق	ضيقة	متوسط الضيق	مستديرة	شديدة الاستدارة
عرب الشمال	٨	٢٢	٦	٢	صفر
عرب الجنوب	صفر	صفر	٦	١٣	٢١

فيما يتعلق بشكل الرأس نجد أن العربى الشمالى والعربى الجنوبى يشكلان نقيضين - العربى الشمالى ضيق الرأس، والعربى الجنوبى مستدير الرأس. واقع الأمر أن النسبة الخاصة بعرض الرأس منسوبًا إلى طوله، توضح أن العربى الشمالى يتأصل فيه العرق الحامى أكثر من العربى الجنوبى. وسوف نعود من جديد إلى قيمة مؤشرات الرأس بغية التوصل إلى شكل من أشكال التمييز العرقى. يزاد على ذلك أن الخريطة كشفت عن خاصية أخرى يجدر بنا هنا أخذها بعين اعتبارنا. ونحن نرى، أن الحجم الحقيقى للرأس، له الأهمية نفسها التى تشكل الرأس، ونحن نبحث عن القرابات العرقية؛ وتتجلى هذه الأهمية أيضًا عندما نحاول تقييم موهبة المخ فى شعب من الشعوب. وهنا يجب أن نكون على بينة من أن طول الرأس وعرضه هما مجرد إشارة ضعيفة على حجم المخ. ومع ذلك، وفى الأبحاث المبدئية، التى من قبيل البحث الذى بين أيدينا، نجد أن بُعدَى طول الرأس، وعرضه يعدان خاصيـــة بارزة وملحوظة فـــى العرب - سواء أكانوا من عرب الشمال أم عرب الجنوب - وبالتحديد صغر رءُوسهم وصغر أمخاخهم. قام واحد منا (هو السيد و. م. ك)، بإدخال خطين منحنيين فى الخريطة المعنونة الشكل رقم ١. هذا يعنى أن أبعاد الرأس تزداد بصورة مُطَّردة من أعلى الركن الشمالى إلى أسفل الركن فى الجانب الأيمن. هذان الخطان المنحنيان جرى رسمهما على نحو يقسم الرءُوس التى تقع فوق وإلى اليسار من الخط أ (A)، المجموعة أ(A)، صغيرة، أى أنها تصل إلى قرابة ١٣٢٥ سنتيمترًا مكعبًا أو أقل من ذلك، أصحاب الرءُوس التى تقع أسفل وإلى اليمين من الخط ب (B)، وتصل

المجموعة ب (B) إلى قرابة ١٤٧٥ سنتيمترًا مكعبًا أو أكثر رءُوس كبيرة، فى حين نجد أن الرءُوس التى تقع بين الخطين هى مجموعة وسيطة أو متوسطة من حيث الحجم. وفيما يتعلق بحجم الرأس عند بدو الشمال، نجد أن حجم رأس البدوى الشمالى يمثل القبلى الجنوبى على النحو التالى:

	صغر الرأس	وسطية الرأس	كبر الرأس
عرب الشمال	١٠	٢٥	٣
عرب الجنوب	٣٣	٧	صفر

يتبين لنا هنا أن النقيب توماس تعامل مع قبليين ليسوا فحسب أصحاب رءُوس شديدة الاستدارة؛ وإنما كانوا أيضًا صغار الرءُوس بشكل ملحوظ- وذلك عندما نقارنهم بالبدو الحقيقيين- لكن فيما يتعلق بحجم الرأس نجد البدو يحتلون مكانة متدنية نسبيًا؛ إذ لا يدخل من بين أعضاء الجماعة البالغ عددهم ثمانية وثلاثين عضوًا، سوى ثلاثة أعضاء فقط يدخلون ضمن المجموعة الأعلى - يقعون فوق متوسط جمجمة الرجل الإنجليزى العادى- التى نقدرها بقرابة ١٤٧٥ سنتيمترًا مكعبًا. هذا يعنى أن التعرض للظروف الصحراوية يمكن أن يساعد فى المحافظة على أو تحفيز خصائص جسمانية وعقلية معينة، لكن من الواضح أن هذه الظروف لم تشجع على نمو المخ. يزاد على ذلك أن البشر الذين عثر السيد/ ليونارد وُولى، على رفاتهم فى مقابر مدينة أور القديمة، والذين عزا الرجل وجودهم إلى الألف الرابعة قبل الميلاد كانوا طوال الرءُوس وكبار الرءُوس أيضًا.

أبرزت خريطتنا أيضًا فروقًا حاسمة تمامًا بين أشكال وأحجام الرأس عند عرب الجنوب الذين قام النقيب توماس بإجراء القياسات عليهم، وعند البدو الكيشيين الذين أجرى هنرى فيلد قياساته عليهم، ومع ذلك فإن تحليلنا لم يقترب بنا إلى القرار الذى يمكن لنا اتخاذه بشأن القرابات العرقية للعربى الجنوبى تُرى، إلى أى فرع كبير من السلالة البشرية، يمكن أن نعزو إليه هؤلاء البشر الذين قام النقيب توماس بقياس رءُوسهم وتصويرهم فى جنوب الجزيرة العربية؟ ولعلنا نبدأ بمواطنى الركن الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة العرب- وبخاصة العمانيون. الشكل رقم ٢ يوضح بروفيلاً لرجل عُمانى؛ ويبدو الرأس مرتفعًا من فوق الأذنين؛

طول الرأس



O= بدو كيش (٣٨) (هنرى فيلد)

•= العرب الجنوبيون (٤٠) (برترام توماس)

الشكل ١- خريطة تبين حجم وشكل الرأس

(١) عرب الشمال الخُلَّص؛ (٢) عرب الجنوب

ويرتفع مؤخر الجمجمة منحدرًا من عند العنق؛ يزاد على ذلك أن الأذنين شديدتا القرب من مؤخرة الرأس- كما هو الحال فى الشعوب قصيرة الرأس والشعوب مستديرة الرأس. أبعاد رأس هذا الرجل هى ٨٢,٧- والعرض ٨٢,٧ فى المائة، من طول الرأس. والأنف طويل، وبارز، ومعقوف إذا ما نظرنا إليه مباشرة، كما هو مبين فى الشكل رقم ٣. ونحن نلاحظ من الخريطة أيضا الشفتين الممتلئتين والكبيرتين والتوزع غير الكثيف للحية من أسفل الشفة السفلى وفوق الخدين العلويين- وشعر الرأس أسود وغير قابل للتجعد. والوجه طويل، واللون بنى فاتح، والقامة يبلغ طولها قرابة خمس أقدام وست بوصات ونصف البوصة. والشكل رقم ٤ عبارة عن بروفيل أرمينى أصيل من آسيا الصغرى، وقد اختار الأنثروبولوجيون النمساويون هذا البروفيل ليكون ممثلاً للنوع الأرمنى. والرأس أكثر ارتفاعًا، والجزء الخلفى من الجمجمة أكثر تسطحًا، والأنف أكثر بروزًا ويتسم بالكثير من سمات العرق السامى، عنه بالسمات العمانية. هناك قدر كبير من الفروق الصغيرة بين هذا الأرمينى وذلك العمانى، ومع ذلك هناك أوجه شبه فى النقاط التى سبق الإشارة إليها، الأمر الذى يجعلنا ننظر إلى هذين العضوين من السلالة نفسها- بغَضِّ النظر عن الاسم الذى قد نطلقه على شعب آسيا الصغرى الذى له مؤخرة جمجمة مسطحة. والشكل رقم ٥ عبارة عن بروفيل لقبيلة عجيبة من قبائل مدراس، ويدرجه ثرستون ضمن القبائل التى تستوطن تلك المنطقة. وهنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه مع السمات الأرمينية البارزة- لكن أوجه الشبه التى ترتبط العضو العمانى بهذا العضو المدراسى العجيب، أكثر قربًا وأكثر عددًا من أوجه الشبه التى تربط هذا العضو العمانى بالعضو الأرمينى الأصيل فى آسيا الصغرى.

وهنا نقول: إن الأرمنى من مواطنى آسيا الصغرى، التى هى موطن السلالة الأرمنية- وأعضاء هذه السلالة مؤخرات رءُوسهم مسطحة، رءوسهم مرتفعة، وأنوفهم معقوفة بشكل واضح، ووجوههم طويلة- وهذا الموطن عبارة عن رقعة واسعة بين آسيا وتمتد من بامير إلى الليفانت. وهنا، نتساءل عن الطريقة التى تمكِّننا من تفسير تسوُّد الملامح الأرمينية لكل من عُمَان وبعض مناطق الهند، والسبب فى ذلك أننا لا يمكن أن نسلم بأن السلالة الأرمنية نشأت فى الهند

اللهم باستثناء مسألة الانتقال. وهنا نجد أن التفسير الوحيد الذى يروق لنا يتمثل فى الهجرة التجارية الباكرة من بلاد فارس أو من البلاد المجاورة الموجودة على امتداد الخليج الفارسى وتصل إلى الهند. وهنا نجد أن الاكتشافات التى توصل إليها السير جون مارشال فى وادى نهر الأندوس تثبت أن بلاد الرافدين والشمال الغربى من الهند كانا مرتبطين بالتجارة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وهنا نجد أنفسنا نقترض أن البشر أصحاب الرؤوس المستديرة الذين يعيشون فى رقعة بامسر- الليفانت، استطاعوا بصورة أو أخرى الانتشار جنوبًا وزرعوا سماتهم الرئيسة فى أماكن محددة على الخليج الفارسى بل وفى أماكن أبعد من ذلك، وهنا نجد أنفسنا نتفق مع الدكتور سلجمان فيما قاله عن العمانيين؛ هذه السلالة توضح أو تُظهر ملامح أرمنية محددة. ومع ذلك، نجد أن هذه السلالة، تمتلك إلى جانب هذه الملامح والسمات، سمات كثيرة وملامح كثيرة أخرى تربطها بالقبائل التى تحدث عنها النقيب توماس، والتى ذكر أنها تعيش على امتداد السواحل الجنوبية للجزيرة العربية.

قد يكون من المفيد هنا أن نقطع خيوط جدلنا الرامى إلى توضيح السمات والقسمات الحامية فى عرب جنوب الجزيرة العربية- بغية تقديم دليل آخر جرى استقاؤه من دراسة الجماجم، يوجد فى متحف كلية الجراحين جمجمتان يتعين علينا وصفهما مبتغين بذلك إبراز الحقيقة التى مفادها أن استدارة الرأس عند العمانيين وعند الأرمن الحقيقيين. هاتان الجمجمتان واحدة منهما من عمان وتكشف عن قسمات وسمات أرمنية بحق وحقيقة. والجمجمة الثانية حصل عليها النقيب توماس من قبر من أيام الجاهلية- فى وسط الجنوب- وتكشف هى الأخرى عن شكل من أشكال استدارة الرأس مختلف عن الشكل الذى جرى العثور عليه من الجماجم الأرمنية (راجع الشكل رقم ٨ ، ٩)، والتعليق التالى أعده واحد منا هو (و. م. ك):

"استطاع النقيب توماس أن يحضر معه جمجمة واحدة فقط، ينقصها أحد الفكين، وهذه الجمجمة تمثل قبائل جنوب الجزيرة العربية- هذه الجمجمة "جرى استخلاصها من قبر صخرى فى جنوب الجزيرة العربية - واقع الأمر أن هذه الجمجمة لم يتبقَّ منها سوى التراب. وهذا الشكل من أشكال الدفن فى تجاويف صخرية كان شائعًا فى أيام الجاهلية، وهذا الشكل من أشكال الدفن

لا يجرى اللجوء إليه حاليًا إلا عندما يتوفى أحد المسافرين ولم تكن لدى رفيقه وسيلة تمكِّنه من حفر قبر شرعى". ونحن نرجح أن تكون هذه الجمجمة لشاب بالغ يتردد عمره بين ٢٥- ٣٠ عامًا. خصائص وسمات الجنس ضعيفة التطور فى هذه الجمجمة، وجبهة الجمجمة ملساء، وفى منطقة ما بين الحاجبين، بروز طفيف جدًا؛ هذا البروز يظهر بشكل يكاد يكون غير ملحوظ؛ والخشآن(*) صغيران، والحنك صغير جدًا وضحل؛ كل الجزء الأسفل من الوجه صغيرًا، على الرغم من أن الانطباع يعززه تجويف بين فقدان القاطعين الأول والثانى من الناحية اليمنى.

غرز خياطة قبو الجمجمة واضحة تمامًا، وتوحى ببداية الغلق فى الجزء الخلفى الشبيه برأس السهم. وكل هذه الأجزاء بسيطة، فيما عدا اللمبادويد، ذلك الجزء الذى على شكل حرف الـ A الإنجليزى ويربط بين هذه الأجزاء. وجدير بالذكر هنا أن هناك مِفْصَلاً متحركًا أماميًا فى الجانب الأيمن من الجمجمة.

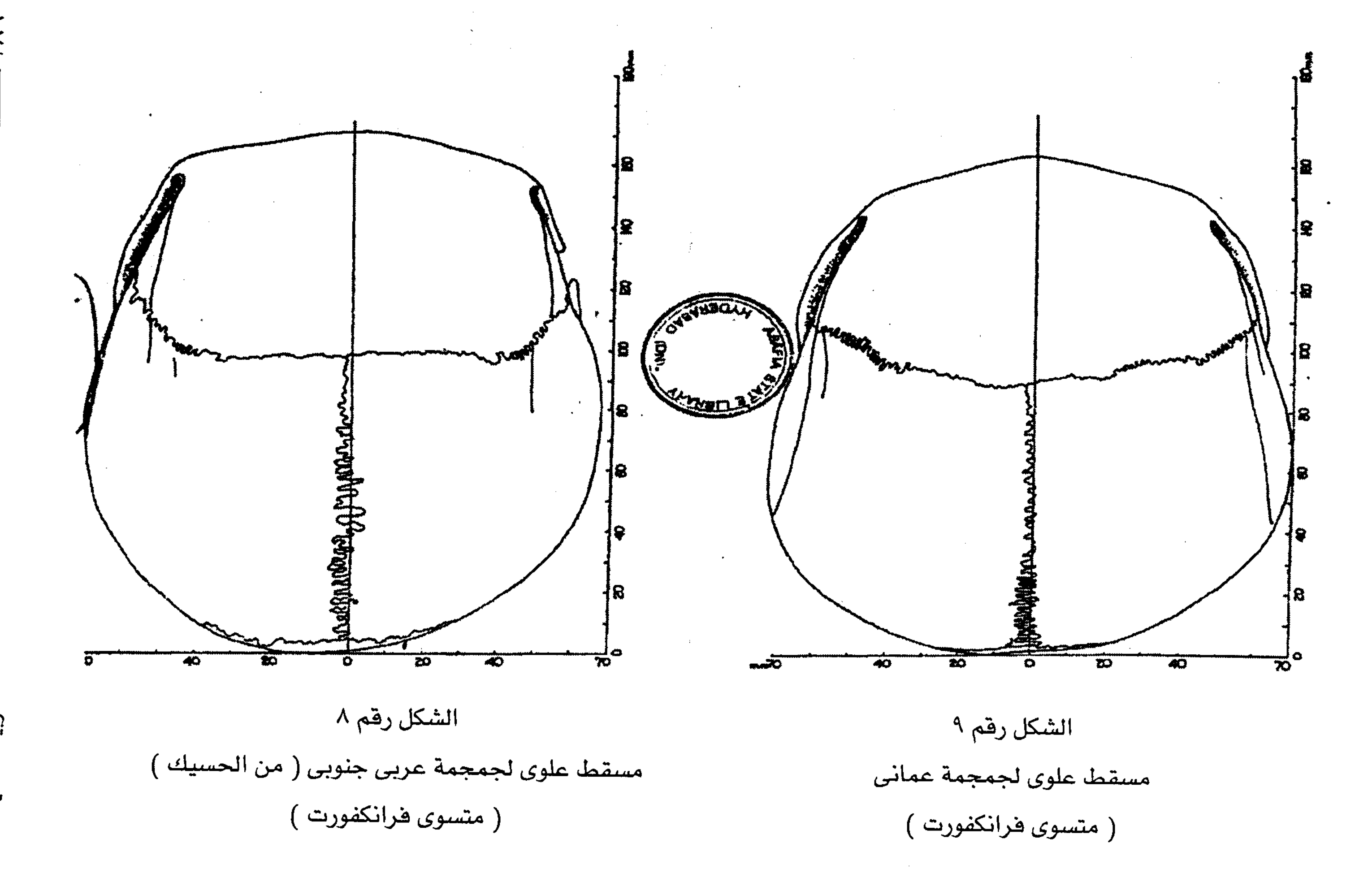
الجمجمة مستديرة (استدارة الرأس ١٢, ٨٠ والمقياس المثالى ٨٢,١، وإذا ما أردنا شكل الجمجمة الحية فنحن نضيف ٨ ملم للطول و١٠ ملم للعرض)، استدارة العظم ٧٦,٨؛ وإذا ما صححناها للجمجمة الحية تصبح ٧٤,١٦. والقوس الخلفى كامل تمامًا، والطول من خلف الأذن يقدر بقرابة ٥٣ فى المائة من إجمالى طول الجمجمة. والجمجمة من جانب الرأس بيضوية الشكل تقريبًا، والقوس الخلفى كامل النمو تمامًا.

الوجه منخفض (مقياس الوجه العلوى ٤٩,٥). تقوُّس الخدين عبارة عن تقوس طفيف ويرتفع هذان التقوسان من عظمة الخد العلوى ارتفاعًا متدرجًا نحو الأعلى وينحدران ناحية الجنب، ويستمر ذلك الانحدار إلى أن يتصلا بالعظام الحاوية للمخ، والجزء من عظام الخدين الداخل فى الوجه قصير جدًا. وفتحة الأنف متوسطة العرض، والجزء الأوسط من الأنف (٤٨,٥) غير بارز وبيضوى الشكل. الحافة السفلى من الأنف شديدة الوضوح، والعمود الأنفى بارز. قنطرة الأنف مرتفعة وعظام الأنف تلتقى بزاوية حادة. يضاف إلى ذلك، أن المنظر الجانبى يُظهر الأنف وكأنه غير بارز تمامًا. تجويفا العينين متوسطا الارتفاع (٨١,٥).

(*) واحده خشاء، وهو العظم الناتئ خلف الأذن. (المترجم).

ونحن نرجح هنا مسألة أن شعبًا له السمات والخصائص الأرمنية اختلط دمه فى وقت من الأوقات بدم أسلاف القبائل الجنوبية؛ ولكن هذا الاعتراف لا يعنى بحال من الأحوال أننا نقطع بانتماء عرب جنوب الجزيرة العربية إلى السلالة الأرمنية القوقازية.

قد يكون من المفيد هنا، قبل الشروع فى مناقشة السمات التى كشفت عنها الصور التى التقطها النقيب توماس لعرب الجنوب، التطرق إلى ذلك الدليل الذى يمكن بل وينبغى أن يكون دليلاً ومرشدًا لنا فى تحديد مكانة ذلك الشعب الذى اكْتُشِف حديثًا، داخل أى إطار من أُطُر التصنيف العرقى. نحن نعرف أن علماء الأنثروبولوجيا المحترفين ولَّدوا لدينا انطباعًا مفاده أن أى عرق من الأعراق الإنسانية يكن التعرف عليه عن طريق مقياس الرأس وحده، والجسم، ولون البشرة، ونوعية الشعر، مستخدمين فى ذلك مؤشرات المقاييس المستعملة فى مثل هذه الأمور.. إلخ. ونحن إن قدَّر لنا بناء منظومة علمية معرفية خاصة بالأعراق- منظومة يستطيع كل العاملين فى هذا المجال، الإسهام فيها، فذلك يحتم أن تكون هناك مقاييس فعلية دقيقة ومضبوطة. وهنا يتعين ألا يغيب عنا أن كل رجل وكل امرأة ولدت فى هذا العالم، يُعَدّ أو تُعد بطبيعته أو طبيعتها- طالبًا أو طالبة فى مجال وميدان السلالات البشرية. من هنا نقول: إننا لسنا بحاجة إلى عون فنى يساعدنا على تعرف الزنجى، الصينى، الأوروبى، البوشمن، إلخ، والسبب فى ذلك أن هذه الأعراق تتوارد علينا ونراها فى الشارع، ويكفى أن نلقى على هؤلاء نظرة عابرة نحصل بعدها على مئات السمات والخصائص التى تميز هذه الأعراق. هذا يعنى أن المستكشفين هم والرحَّالة يصبحون خبراء مدهشين فى مسألة تعرف - من الوهلة الأولى- أعضاء القبائل والشعوب، فى أى مكان يلتقون أو يصادفون فيه هذه الأعراق؛ هؤلاء المستكشفون والرحالة يستطيعون عن طريق النظر فقط إلى هذه الأعراق، يستطيعون تحديد هوية هذه الأعراق ومَوَاطنها. ونحن لا يمكن أن نتطلع مطلقًا إلى جعل مناهجنا الفنية تستسلم فى سهولة ويسر للنتائج التى توصل إليها هؤلاء الرحالة والمستكشفون؛ معتمدين على حواسهم وتقديراتهم الشخصية فى تعرف هذه الأعراق. وعلى سبيل المثال، لا الحصر، فإن النقيب توماس يورد رأى سلطان مسقط ليكون داعمًا له فى مسألة



الشكل رقم ٨

مسقط علوى لجمجمة عربى جنوبى (من الحسيك)

(متسوى فرانكفورت)

الشكل رقم ٩

مسقط علوى لجمجمة عمانى

(متسوى فرانكفورت)

القرابة التى بين عرب جنوب الجزيرة وشمال شرق أفريقيا وليس مع عرب الشمال، يقصد شمال الجزيرة العربية. هذا الرأى، أى رأى سلطان مسقط، يستحق الاعتداد والتقدير؛ وذلك من منطلق أن السلطان يتعين عليه من يوم إلى آخر القيام بالتعريفات العرقية، كما أن هذا السلطان لديه أيضًا خبرة كبيرة بالشعوب التى تعيش على المناطق الساحلية بدءًا من زنزيار إلى بومباى، وقد استطاع النقيب توماس، بفضل استعماله هذه العطايا والهبات الطبيعية، التوصل إلى النتيجة التى مفادها أن العربى الجنوبى ينبغى إدراجه ضمن الأعراق الحامية بدلاً من وضعه أو إدراجه ضمن العرق السامى من الجنس البشرى. ونحن عندما نستعرض وندرس الصور التى جاء بها إلينا النقيب توماس، نجد أن هذه الصورة تؤيد النتيجة التى توصل إليها هذا الرجل. هذه الصور توضح لنا أن هذا العربى الجنوبى يطالعنا بخليط غريب من السمات والقسمات. هذا العربى الجنوبى مجعَّد الشعر، يكاد يكون بلا لحية، وله بشرة قاتمة- تكاد تكون سوداء، له أيضًا جسم صغير، فضلاً عن أن قسمات وجهه تحمل شبهًا من الأعراق التى تعيش فى تلك الأجزاء من أفريقيا القريبة من جنوب الجزيرة العربية- الصوماليون، الدناكيل، الهدندوا، المصريون- وذلك طوال فترة ما قبل الأسر الملكية، وفترة الأسر الملكية، والأزمان الحديثة- لكن هناك سمات وملامح أخرى كثيرة هى من سمات وقسمات العرق القوقازى- وللمزيد من الدقة نقول: العرق السامى القوقازى، ونحن نصادف فى الشمال العيون السوداء الشبقية الكبيرة، فى شمال الجزيرة العربية وفى الجنوب أيضًا. قسمات الوجه وتعبيراته، الأنف والشفتان- اللتان غالبًا ما تكونا ممتلئتين- كل ذلك عبارة عن سمات وقسمات قوقازية. ومع ذلك، نجد أنفسنا نصادف بين هؤلاء البشر، وبخاصة فى مرحلة الطفولة، ملامح وقَسَمات تذكِّرنا بقسمات وسمات مواطن جنوبى الهند، بعض النسوة قسمات وسمات وجوههن تنتمى إلى العرق الحامى؛ ومع ذلك، وهذا هو ما سنأتى على ذكره بعد قليل، فإن هناك بعض الأفراد فى الجنوب لهم وجوه شبيهة بوجوه الكباش، وهذه السلالة تصادفنا بصورة متكررة فى كل من بلاد فارس، وفى أفغانستان، وفى البامير، وفى وديان الضفاف الغربية لجبال الهمالايا- وعرب الشمال (البدو بصفة خاصة) يبدون للعين الخبيرة الدارسة قوقازيِّين أو ساميِّين

قوقازيين. والعربى الجنوبى عندما نقارنه بالعربى الشمالى نجد أنه نصف قوقازى؛ أما بَقية عرب الجنوب فهم من العرق الحامى- أو العرق الدرافيدى.

وهنا نقول: إن الأنثروبولوجيين عندما يصادفون شيئًا له سمات وقسمات مختلطة، فإنهم غالبًا ما يسارعون إلى التسليم بأن هذا الشعب من أصل خلاسى، ومسألة وجود السمات والقسمات الأرمنية فى عرب جنوب الجزيرة العربية تدعم هذا التفسير. ومع ذلك، لا يزال يتعين علينا، حتى مع اعترافنا بهذا الخلط العرقى، تفسير السمات والقسمات الحامية الموجودة فى الجنوب.

وهنا نجدنا نمضى فى طريقنا إلى اكتشاف نظرية جديدة تُعيننا على تفهُّم الأسباب التى تحتم على شعب جنوب الجزيرة العربية أن يكون شبيهًا بالمواطنين المجاورين له فى أفريقيا من ناحية، ومواطنى الهند من الناحية الأخرى. هذا يحتم علينا أيضًا تفسير السمات والقسمات الأرمنية والمعطيات الجديدة التى أمامنا والتى جاءتنا بفضل المهام الجَسُورة التى قام بها النقيب توماس فى تلك الأرض المجهولة، على أنها هى خير عون للنظرية التى سنقوم بتقديمها.

معروف أن الحزام الأسود من الجنس البشرى، هو بمثابة لغز الأنثروبولوجيا الحديثة. هذا الحزام الأسود يبدأ من أفريقيا ويمتد إلى مواطنى الجزر الميلانية فى المحيط الهادئ عند كل طرف من طرفَىْ هذا الحزام الأسود، أى فى كل من أفريقيا وميلانيزيا، نجد شعوبًا سوداء البشرة؛ مجعدة الشعر، تكاد تكون بلا لِحًى، فضلاً عن طول الرأس ونتوء الفكين، ونحن لا يمكن أن نسلم أن هذه الشعوب الزنجية- على الرغم من عزلتها الكبيرة فى الوقت الحالى- انفصلت بعضها عن البعض. وهذا يجعلنا نفترض أن هذا الحزام زنجى الأصل، قام فى يوم من الأيام بعبور العالم القديم، وقام باحتلال أراضٍ وسيطة، فى الجزيرة العربية، بلوخستان، الهند، وفى مناطق أبعد من الهند، فى الفلبين وأرخبيل الملايو. ونحن نسلم أكثر من ذلك، أن الأجزاء الوسيطة من ذلك الحزام زنجى الأصل، اعتورها شىء من التحور، الأمر الذى أدى إلى قيام الشعوب الحامية فى أفريقيا، وأبناء عمومتهم الدرافيديين هم والشعوب نقية البشرة فى الهند. وطبقًا لنظريتنا، فإن شبه جزيرة العرب كانت مأهولة، فى وقت من الأوقات، بشعب

وسيط بين الصوماليين من ناحية والشعوب الدرافيدية فى الهند من ناحية أخرى، بعد ذلك، وفى تاريخ غير معروف، فوجئ ذلك الحزام الأسود بفورتين جاءتا إليه من الشمال. تختلف الفورة الأولى فى السلالة المغولية، التى ظهرت فى الجزء الشمالى من جبال الهملايا، وتقدمت هذه السلالة فى اتجاه الجنوب إلى أقاصى الهند، وأرخبيل الملايو، إلى أن وصلت إلى جزر المحيط الهادئ، متجاهلة، اللهم باستثناء المناطق المنعزلة- الحزام زنجى الأصل، وبذلك تكون هذه السلالة قد فصلت شعب الهند عن البشر فى ميلانيزيا. حدث أيضًا اختراق عرقى آخر أدى- بالمعنى العرقى إلى فصل الهند عن أفريقيا. والدليل الواهن الذى لدينا يجعلنا نصدق أن السلالة القوقازية ظهرت فى غرب آسيا، وإلى الشمال من الأراضى المرتفعة التى ظهرت فى غرب آسيا، وإلى الشمال من الأراضى التى تربط بين جبال الهمالايا بسلسلة جبال آسيا الصغرى. وهنا نجد أن هذه السلالة القوقازية انتشرت جنوبًا إلى شبه جزيرة العرب وإلى الأراضى التى تربط بلاد الرافدين بالبنجاب، وبلاد فارس، وبلوخستان وأفغانستان. وفى زمن هذا الانتشار القوقازى- الذى ربما يكون قد حدث فى أواخر عصر البلستوسينىpleistocene كانت الجزيرة العربية أرضًا خصبة جيدة الرى- وإن شئت فقل أرضًا تجذب إليها الصيادين المغامرين. وإذا كانت نظريتنا رصينة، فذلك يعنى أننا يحق لنا أن نعثر فى أقصى جنوب الجزيرة العربية، على آثار للشعب الحامى الأصلى. وقد يكون من الحكمة والمنطق هنا أن نسلم بأن الغزاة القوقازيين، قبل وقت طويل، من احتراقهم فى أقصى الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية، قد اكتسبوا شيئًا من الدم الحامى، أو إن شئت فقل إن الشعوب التى استوطنت الجنوب قد تشربت الكثير من دم الغزاة، وهذه النظرية تساعدنا، فى أضعف الأحوال؛ على تفسير السمات والخصائص العرقية التى لاحظها النقيب توماس فى عرب الجنوب. ويجب التنويه هنا إلى أن هذه النظرية تبلورت لدينا قبل أن يضع النقيب توماس ملاحظاته بين أيدينا.

كيف لنا بتفسير استدارة رأس العربى الجنوبى؟ على الرغم من أن العربى الجنوبى ليس له قفا مسطحة عالية، وهى القفا نفسها التى يشتهر بها الأرمن، فإنه مستدير الرأس تمامًا. ونحن ننظر إلى جنوب الجزيرة العربية باعتباره

واحدة من واحات الرأس المستدير وسط صحراء عريضة من الرؤوس الضيقة. ونحن لا نرجح حدوث استدارة الرأس فى جنوب الجزيرة العربية، نتيجة عملية تطوير مستقلة؛ والأكثر ترجيحًا هو أن هذه السمة جاءت إلى عرب الجنوب من عرب الشمال. وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال التالى: هل كان الغزاة القوقازيون، الذين غزوا شبه جزيرة العرب، مستديرى الرؤوس ؟ وهنا نجد أن الدليل الذى استقيناه من مقابر بلاد ما بين الرافدين، وفى ضوء فهمنا لهذا الدليل، يقول: إن هؤلاء الغزاة كانت لهم رؤوس طويلة وكبيرة. وهنا نجدنا نرجح أن جنوب الجزيرة العربية لم يجر غزوه من القاعدة الشمالية فى شبه جزيرة العرب، وإنما جرى غزوه من أراضٍ على الجانب الشرقى من الخليج الفارسى وخليج عُمان. يقع إلى الشمال من هذه الأراضى المركز الرئيس للرؤوس القوقازية المستديرة. وهنا يتعين علينا ألا نبحث عن استدارة الرأس فى أرمينيا وإنما فى بلوخستان وبلاد فارس. والجندى اليافعى جالس القرفصاء فى الصف الأمامى، والجندى الثانى الموجود على يسار الناظر (فى الصورة المقابلة لصفحة ٢٤ و ٢٥)، تبرز الملامح التى نصادفها فى أغلب الأحيان فى البلدان الواقعة إلى الشرق وإلى الشمال من الخليج الفارسى.

إلى هنا نكون قد أنهينا حديثنا عن النظرية المذكورة، ويتعين علينا تناول المسائل الأنثروبولوجية ذات الأهمية الأكبر- أقصد التسجيلات التى قام بها النقيب توماس عن مسألة عرب جنوب الجزيرة العربية- وبخاصة مسألة القياسات التى قام بها الرجل والصور التى التقطها. والجزء التالى عبارة عن جزء من التقرير الذى أعده واحد منا (هو و. م.ك)، لكن فيما يتعلق بالتصريحات فإن المؤلفين مسئولان عنها.

"لقد أثبتت المعطيات التى وضعها برترام توماس تحت تصرفنا أنها معطيات عظيمة القيمة، ليس فقط فى تفسير موقف عرقى محير، وإنما فى اقتراح خطوط اتصال عرقية والتلميح إلى الطريقة التى جرى بها تنفيذ التطور البشرى. واقع الأمر، أننا يمكن أن نزيد على ذلك أن القيمة الأعظم لهذه المعطيات تكمن فى الحقيقة التى مفادها، أن هذه المعطيات تقدم لنا مشكلات مهمة يتعين حلها فقط عن طريق المزيد من الأبحاث".

القياسان اللذان قام بها النقيب توماس هما قياسان فقط، وقد تمثل ذلك فى قياس طول الرأس، من المواجهة، وطول المسافة بين الحاجبين، والعرض، وأقصى اتساع إن وجد. والمؤشر الناجم عن ذلك، مؤشر طول الرأس، يشكل نسبة عددية بين الطول والعرض، وهذا المقياس أو المؤشر يعد منذ زمن طويل مؤشرًا مفضلاً فى عمل المقارنات العرقية. تناول هذا القياس اثنين وأربعين عضوًا فقط منهم سبعة وثلاثون عضوًا من الكبار وخمسة أطفال، يزاد على ذلك أن الأعضاء الاثنين والأربعين مقسمون على عشر قبائل: (ستة) من الصوماليين، (خمسة) من اليافعيين، (واحد) من المسائيين، (خمسة) من المهره، (سبعة) من القراوين، (تسعة) من الشهارين، (أربعة) من الكثيريين، (واحد) من الشهارين، (واحد) من الحراسيس، (ثلاثة) من العمانيين. والنتائج التى يمكن التوصل إليها، هى مجرد احتمالات. يضاف إلى ذلك، الحقيقة المهمة التى مفادها، أن المادة التى تحت تصرفنا تُعد مادة قيِّمة من منطلق أنها بحد ذاتها تعطينا مفاتيح عديدة لأصول العرقية فى جنوب الجزيرة العربية.

ونحن عندما نأخذ مؤشر طول الرأس بعين اعتبارنا، نجد أنه يهيئ لنا تصنيفًا عشوائيًا لرءُوس طويلة، ورءُوس مستديرة، وتدرجات وسطية بين هذا وذاك. ونحن عندما نسير فى هذا الاتجاه نجد أنفسنا نتجاهل النسب العددية المتعلقة بهذه المسألة والداخلة فى هذا التصنيف. وهنا يتعين أن يكون واضحًا لنا تمامًا أن طول الرأس فى شعب من الشعوب قد لا يكون مثيلاً لطول الرأس. فى الشعوب الأخرى؛ وقد يكون الشعب الأول قد حصل على استدارة الرأس عن طريق قصر الجمجمة أكثر من اللازم؛ وقد يكون الشعب الآخر قد حصل على استدارة الرأس عن طريق جمجمه أعرض من اللازم؛ وهنا تتجلى أهمية الأبعاد المطلقة فى التحليل المفصل بشكل الجمجمة.

وإذا ما استثنينا الصوماليين، نجد أن كل قبائل جنوب الجزيرة العربية التى قام بقياسها النقيب برترام توماس هى قبائل طويلة الرأس، وهذا يؤكد ما قاله من قبل الأستاذ الدكتور سى. جى. سلجمان[1].

ونحن نورد فيما يلى مؤشرات ومتوسطات قياس الرءُوس، وقد جمعنا القبائل على أساس من الموقع الجغرافى، من الغرب إلى الشرق، لأسباب سوف نوضحها فيما بعد.

---

(١) سلجمان، س. جى- فى مقاله المعنون: "الخصائص الطبيعية للعرب"، المنشور فى مجلة المعهد الملكى للأنثروبولوجيا، العدد ٤٧، فى العام ١٩١٧، من ص ٢١٤ - ٣٧.

قائمة قياسات عرب جنوب الجزيرة العربية
كما أوردها النقيب برترام توماس

المجموعة	العمر	القائمة	الطول	العرض	المؤشر
الصومالية:					
١	٢٠	٥´ ٤¾″	١٦٣	١٣٠	٧٩,٥٧
٢	٢٠	٥´ ٤½″	١٧٥	١٣٧	٧٨,٢٨
٣	٢٠	٥´ ٤½″	١٦٩	١٣٨	٨١,٦٥
٤	٣٠	٥´ ٨½″	١٧٤	١٤٢	٨١,٦١
٥	٣٢	٥´ ٨½″	١٨٨	١٤٧	٧٨,٩١
٦	٣٦	٥´ ١٠″	١٨٠	١٤٤	٨٠,٠٠
متوسطات		٥´ ٦ ¾″	١٧٤,٨٣	١٣٩,٦٦	٧٩,٩١
المجموعة اليافعي:	العمر	القامة	الطول	العرض	المؤشر
١	٢٠	٥´ ٢¼″	١٨٤	١٥١	٨٢,٠٩
٢	٢٢	٥´ ٢½	١٦٥	١٤٢	٨٦,٠٦
٣	٢٣	٥´ ٤″	١٧٤	١٣٧	٧٨,٧٣
٤	٢٥	٥´ ٢½″	١٨٠	١٤١	٧٨,٧٣
٥	٢٨	٥´ ٥½	١٧٣	١٤٤	٢٣,٢٣
متوسطات		٥´ ٣¼	١٧٥,٢٠	١٤٣	٨١,٦٨
المشائى					
١	٤٠	٥´ ٤¾″	١٧٤	١٥	٨٦,٢٠
المهره					
١	٢٠	٥´ ٣″	١٦٧	١٤٨	٨٨,٦٢
٢	٢٣	٥´ ٥″	١٦٣	١٤٨	٩٠,٧٩
٣	٢٧	٥´ ¾	١٧٥	١٤٣	٨١,٧١
٤	٢٧	٥´ ٥″	١٦٧	١٤٤	٨٦,٢٢
٥	٣٤	٥´ ٨″	١٧٢	١٤٨	٨٦,٠٤
متوسطات		٥´ ٥″	١٦٨,٨٠	١٤٦,٢٠	٨٦,٦٧

القراوين

١	٩ [١]	١١½"	٣'	١٥٨	١٤٨	٩٣,٦٧
٢	١ [٢]	١١½"	٤'	١٦٣	١٤١	٨٦,٥٠
٣	١٢	٨ ¾"	٤'	١٦٨	١٤٠	٨٣,٣٣
٤	١٥	٧"	٥'	١٦٢	١٥٤	٩٥,٠٦
٥	٣٣	٩"	٥'	١٦٨	١٤٦	٨٦,٩٠
٦	٣٥	٤"	٥'	١٦٥	١٥٠	٩٠,٩٠
٧	٤٠	٥"	٥'	١٦٨	١٤٧	٨٧,٥٠
متوسطات		¼	٥' [٣]	١٤٦,٥٧	١٤٦,٥٧	٨٩,١٢

الشهارين

١	١٨*	٣¾ "	٥'	١٦٤	١٥٠	٩١,٤٦
٢	٢٠	٢'	٥'	١٦٤	١٥٠	٩١,٤٦
٣	٢٤	٣½ "	٥'	١٦٨	١٤٨	٨٨,٠٩
٤	٣٠	١"	٥'	١٨٣	١٤٦	٨٤,٣٩
٥	٣٣	٤"	٥' *	١٧٠	١٤٦	٨٥,٨٨
٦	٤٠	٨"	٥'	١٨١	١٥١	٨٣,٤٣
٧	٤٠	٤"	٥'	١٧٥	١٥١	٨٦,٢٨
٨	٤٧	٥"	٥'	١٦٢	١٥٨	٩٧,٥٣
٩	٦٠			١٧١	١٤٣	٨٣,٥٩
متوسطات		٣½ "	٥'	١٦٩,٧٧	١٤٩,٢٢	٨٨,١٢

الكثارين

١	١١	٦"	٤' أو ٥	١٥٣	١٣٨	٩٠,١٩
٢	٣٥	٦"	٥'	١٧٠	١٤٨	٨٧,٠٦
٣	٣٥	٥"	٥'	١٦٣	١٥٠	٩٢,٠٢
٤	٣٥	٥"	٥'	١٦٣	١٥٠	٩٢,٠٩
متوسطات		٥½"	٥'	١٦٢,٢٥	١٤٦,٥٠	٩٠,٣٢

(١) أم مهرية.

(٢) ابن عمره سبع سنوات.

(٣) من ١ إلى ٣ مستبعدون.

(*) مستبعد.

(١) واحد مستبعد .

البنهارى						
١	٤٠	٧"	٥'	١٨٢	١٤٤	٧٩,١٢
الحراسيس						
١	٢٢	١½"	٥'	١٧٤	١٤٥	٨٣,٣٣
العمانيون						
١	٢١	٤¾"	٥'	١٦٧	١٤٤	٨٦,٢٣
٢	٤٦	١٠"	٥'	١٧١	١٤٨	٨٦,٥٥
٣	٤٧	٦½"	٥'	١٧٤	١٤٤	٨٢,٧٦
متوسطات		٧"	٥'	١٧٠,٦٦	١٤٥,٣٣	٨٥,١٨

الجدول رقم (١)

القبيلة	الطول	العرض	المؤشر
الصومالى	١٧٤,٨٣	١٣٩,٦٦	٧٩,٩١
اليافعى	١٧٥,١٠	١٤٣	٨١,٦٨
المشائى	١٧٤	١٥٠	٨٦,٢٠
المهره	١٦٨,٨٠	١٤٦,٢٠	٨٦,٦٧
القراوين	١٦٤,٥٧	١٤٦,٥٧	٨٩,١٢
الشهارين	١٦٩,٧٧	١٤٩,٢٢	٨٨,٠٢
الكثارين	١٦٢,٢٥	١٤٦,٥٠	٩٠,٣٢
البنهاريين	١٨٢	١٤٤	٧٩,١٢
الحراسيس	١٧٤	١٤٥	٨٣,٣٣
العمانيون	١٧٠,٦٦	١٤٥,٣٣	٨٥,١٨

يسمح لنا هذا الجدول بالمزيد من التحليل الدقيق لأشكال الجمجمة فى جنوب الجزيرة العربية، تلك الأشكال الواردة تحت عنوان استدارة الرأس. ومسألة الانتقال من وسطية استدارة الرأس فى الناحية الغربية إلى استدارة الرأس بشكل ملحوظ كلما اتجهنا شرقًا، أمر بالغ الوضوح، وذلك على الرغم من تناقص هذه المسألة تناقصًا طفيفًا فى أقصى الشرق. الأهم من ذلك هو تقلب طول الرأس. وهنا يمكن القول: إن هناك ثلاثة تجمعات واضحة: تجمع غربى، تجمع الوسط، ثم التجمع الشرقى، والتجمع الأول والثالث يتسمان بطول رأس متساوٍ، أما المجموعة الثانية فهى أقل من هذين التجمعين فى مسألة طول الرأس. وهنا يبدو الأمر لنا وكأن تأثيرات جعل الرأس كبيرًا كانت تطبق من ناحيتين على شعب ربما كان غير متجانس أو شعب قديم ذى رءُوس قصيرة. ويبدو أن العرض لم يتغير كثيرًا فى هذه التجمعات الثلاثة، إذا ما نحينا جانبًا الصوماليين الذين ينتمون إلى سلالة مختلفة تمامًا.

وهنا نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام لب المشكلة: التى تتمثل فى فض الاشتباك بين العديد من السلالات التى ربما تكون أثرت على ذلك التنوع الواضح لشكل الجمجمة.

الثابت هو أن العربى الشمالى مستطيل الرأس، وإن شئت فقل صاحب رأس طويل، وذلك اتساقًا مع شكل الرأس السامى العام. وهنا قد يكون من المفيد، أن نضع فى اعتبارنا احتمال أن يكون العربى الجنوبى ممثلاً لكل شمالى سبق أن تأثر بغاز مستدير الرأس.

ومن خلال أدب وكياسة السيد/ هنرى فيلد حصلنا منه على امتياز دراسة مجموعة الصور الفوتوغرافية الفريدة، التى التقطها لشكل من الرءُوس فى بلاد الرافدين، والعرب الذين يعيشون حول كيش، وأيضًا تلك الجماعة من بدو البيجو. وإذا ما نحينا جانبًا مسألة ظهور "أنف سامٍ" بين الحين والآخر نجد أن لا أحد من العرب الجنوبيين يشبه الأشكال الشمالية فى أقل تفاصيل وقسمات الوجه. يضاف إلى ذلك، أن الأهم من ذلك كله هو مقارنة مقاييس الجمجمة الحقيقية، التى قمنا بتوضيحها فى الخريطة (الشكل١، ص ٢٨٧).

زد على ذلك أن الفارق الواضح فى مسألة تجميع الأشكال الشمالية والجنوبية، أوضحناه بالفعل (فى الشكل رقم١). ونحن نجد الأشكال الأخيرة، مع بعض الاستثناءات القليلة، فى ذلك الجزء من الخريطة التى تستبعد الرءُوس الصغيرة. والفارق

الرئيس يتمثل فى مسألة الحجم المطلق: هذا يعنى أن العربى الشمالى صاحب رأس كبير نسبيًا؛ والعربى الجنوبى صغير الرأس.

وهنا تبدو مسألة وجود أصل مشترك أمرًا بعيد المنال، اللهم إلا إذا افترضنا أن هناك نزوعًا إلى استدارة الرأس- وإن هذا النزوع تحقق من خلال الاختلاط مع النوع مستدير الرأس- وإن هذه الاستدارة مصحوبة بتناقص الطول. وكما سنلاحظ فيما بعد، فإن هذا ليس هو الحال القائمة، نظرًا لأن الجمجمة الأرمنية، مستديرة بشكل لا يقبل الشك، وهى أيضًا أطول بكثير من جمجمة العربى الشمالى.

الجدول (رقم ١) يدل على أن القبائل التى تتسم أكثر بالطابع الغربى كانت أقل استدارة وأن طول الرأس كان أكبر. وقد ألمحنا أن ذلك ربما يكون راجعًا إلى تأثير شعب طويل الرأس من الغرب، أى من الشمال الشرقى الأفريقى، وربما يكون ذلك راجعًا إلى أصل العربى الجنوبى نفسه أو الصومالى من المناطق المجاورة للحزام الأسود الأصلى أو الأساسى. وهنا يمكن أن نخلُص إلى أنه كانت هناك قرابة بين عرب الجنوب والصوماليين، والسبب فى ذلك، ليس فقط لأننا نؤمن بهذا الاستنتاج عن شكل الرأس، ولكن هذا الاستنتاج موجود بشدة فى قسمات وجوه القبائل الموجودة فى أقصى الشرق مثل قبيلة المهره وقبيلة الشهارين؛ وتوجد فى هذه المنطقة، وبلا أدنى شك، رابطة حامية واضحة.

تكشف الصور الفوتوغرافية التى التقطها برترام توماس لليافعيين (فى الشكلين- ١٠ و ١١)، والقراوين (الشكل ١٢)، والمهارين (الشكل ١٣) والشهارين (الشكل ١٤)، أن هؤلاء البدو لهم سمات وقسمات حامية أصيلة؛ مثل "الشعر الأشعث"، الأسود- أو البنى اللون أو البنى الغامق- يزاد على ذلك أن صبغة الشعر وصبغة البشرة فضلا عن تشابهات الوجه العامة كلها أمور يصعب وصفها وصفًا دقيقًا، يزاد على ذلك أن مقارنة هذه الصور بالصور التى التقطها سلجمان[١] للهداندوا وبنى عامر تثبت لدينا مفهوم القرابة الحامية. ويجب ألا يغيب عنا فى الوقت ذاته، أن العرب الجنوبيين لهم لحى أكبر من لحى الحاميين، على الرغم من أن عرب الجنوب ليست لحاهم كثة مثل العرب الشماليين.

---

(١) سلجمان، س. جى.، مرجع سابق.

إلى هنا نكون قد حددنا وتعرفنا واحدة من السلالات العرقية الواضحة تماماً بين القبائل قيد البحث، أقصد القبائل الحامية. وعلى الرغم من أننا لاحظنا حتى فى حال توافر هذه السمات والقسمات فى هذه السلالة، فإن شكل المخ لا يدخل ضمن هذه السمات الحامية، وإنما الذى يدخل فى ذلك هو ضيق الرأس. وهنا نجد أيضًا أن استدارة الرأس الزائدة عن الحد عند العربى الجنوبى تقودنا على الفور- والتجاور الجغرافى يؤيدنا أيضًا فى ذلك- إلى التشكك فى التأثير الأرمينى، لأن هذا الشعب الأرمنى له مؤشر معدل استدارة رأس يُقدر بقرابة ٨٥.

لكن يتعين علينا هنا من جديد التساؤل عن مكونات هذا المؤشر: والطريقة التى أمكن بها الحصول على هذا المؤشر؟ وهذا هو كابرس[١] Kappers يعطينا متوسط طول ١٨٢، ومتوسط عرض مقداره ١٥٥,٤ لقرابة ٩٧ من الأرمن، وهذا القياس أكبر كثيرًا من أية متوسطات لقبائل جنوب الجزيرة العربية.

ويحق لنا هنا إلقاء نظرة أخيرة على احتمال تسلل شكل أرمنى- شكل له هذه الجمجمة نفسها، معروف أن الجمجمة الأرمنية تتميز بقفا مسطح بدرجة كبيرة، الأمر الذى يؤدى إلى بُعْد ما وراء الأذن، وإلى قبو شديد الارتفاع. الأحياء مميزون علاوة على ذلك، بأنف "أرمنى" (سامى")، يمكن تمييزه إلى حد على الجمجمة على شكل قنطرة أنفية بارزة إلى حد ما (راجع الشكل رقم ١٩).

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا هنا، هل نجد هذه السمات والقسمات الأرمنية بين القبائل العربية الجنوبية؟ الإجابة نعم، وذلك على الرغم من اقتصار وجود هذه السمات والقسمات على أقصى الشرق وربما أيضًا الجنوب الشرقى، بين العمانيين والحراسيس، علمًا بأن الشكوك تدور من حول الحراسيس فى هذه المسألة. وأنا أشير هنا فقط إلى الشكل الجمجمى الفعلى- يزاد على ذلك، أن الأنف "الأرمينى" البارز يمكن تمييزه على أنه واسع الانتشار إلى حد ما، ويمتد إلى المجموعة التى تضم كلا من المهارين، الشهارين، والقراوين، لكن حتى مع ذلك كله نجد هذه السمة الأنفية مبعثرة فى أكثر من مكان، وأنها ليست متكررة، ويغلب عليها الميل بصورة أكبر، إلى الانعقاف أكثر منها أنفًا عريضًا منحنيًا أصيلاً نراه عند الأرمن.

---

(١) كابرس، سى - يو - إيه، فى مجلة مساهمات فى أنثروبولوجيا الشرق الأدنى، العدد رقم ١ ، ومقال بعنوان "الأرمن" المجلد ٣٢، أعمال أمستردام، ١٩٣٠ من صفحة ٧٩٢ إلى صفحة ٨٠١.

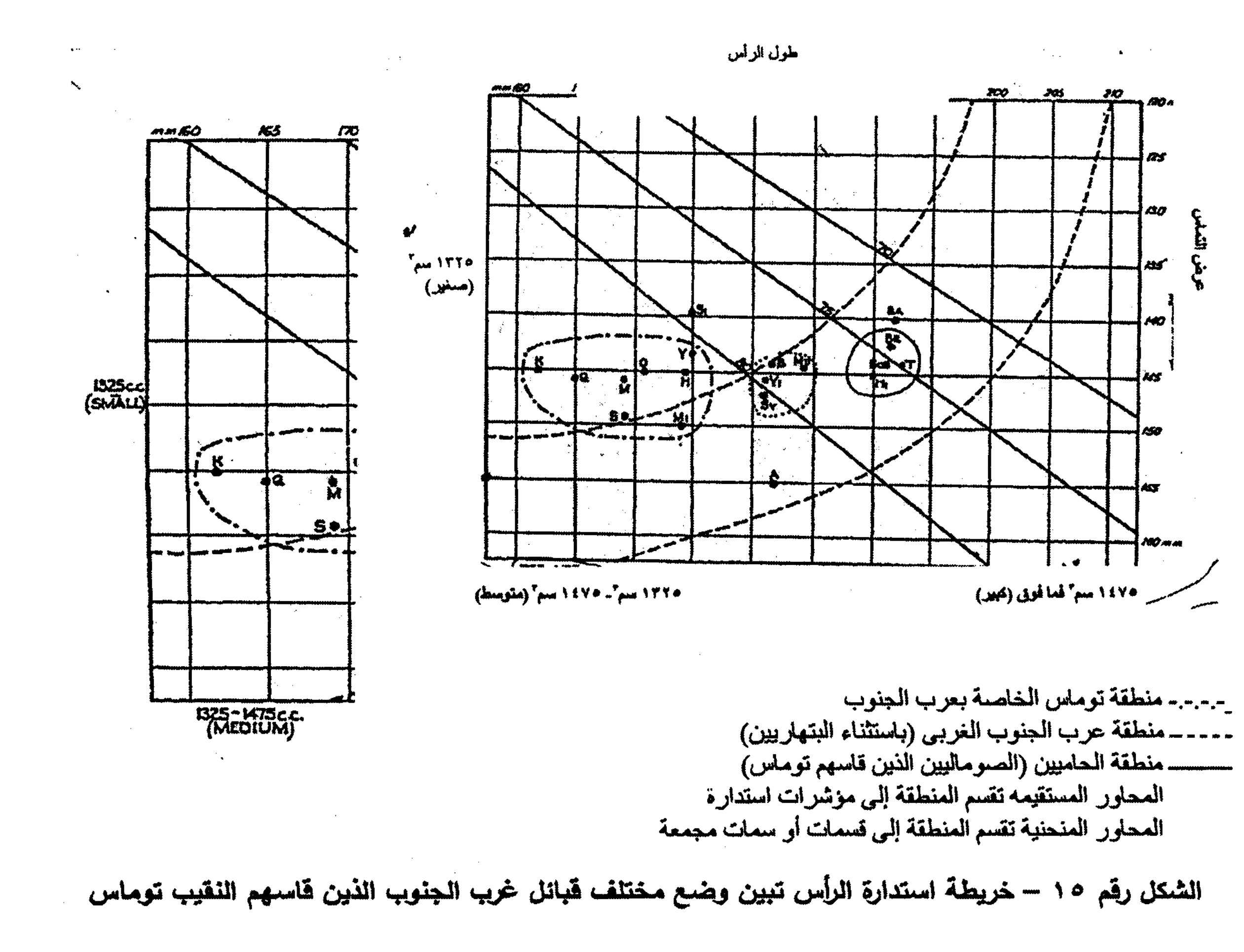
قد يكون من المناسب، عند هذه المرحلة إعداد جدول يبين هذه العلاقات التى تربط القبائل بعضها بالبعض. وقد قمت فى الشكل ١٥ بتبيان متوسط أطوال الرءوس ومتوسط عروض الرءُوس فى العديد من القبائل، ومعطيات هذه المتوسطات مبينه فى الجدول رقم ١. وأنا أزيد ما يلى على تلك المعطيات.

الجدول رقم (٢)

القبيلة	الطول	العرض	المؤشر
مسقط	١٨٤,٥٥	١٤٤,٥٨	٧٨,٢٨
اليمن	١٨٠,٩٥	١٤٥,٥٠	٨١,٠٧
شيهر	١٨٠,٢١	١٤٥,٦٧	٨٠,٩٢
صومالى	١٩١,٨١	١٤٣,١٩	٧٦,٧٩
بنو عامر	١٩٠,٤٩	١٤٢,٢٥	٧٤,٧٠
التجرى	١٩٢,١٠	١٤٣,٢٠	٧٣,٠٠
بيدو البيجو	١٩,٣٧	١٤٠,٢٦	٧٣,٠٠
أرمن	١٨٢,٠٠	١٥٥,٤٠	٨٥,٣٨

مقارنة هذا الجدول رقم ٢ بالجدول رقم ١ تضع أيدينا على الفور على ملمح مهم، مفاده أن طول الرأس فى كل هذه المجموعات يفوق بكثير طول الرأس عند عرب جنوب الجزيرة العربية، فى حين نجد أن عرض الرأس، إذا ما استثنينا الشخص الأرمنى، يكاد يكون واحدًا. هذا يعنى أن استدارة الرأس عند القبائل قيد الدراسة ترجع فى الأصل إلى تناقص طول الرأس، ولا يرجع إلى تغيير عرض الرأس، الذى يمكن توقعه من الاختلاط الصريح مع سكان مستديرى الرءُوس. هذا يعنى أيضًا أن استدارة رأس العربى الجنوبى لا يمكن أن يكون مثيلاً لاستدارة الرأس عند العضو الأرمنى.

ونحن نتساءل عند هذا الحد، ما الذى يقوله لنا الشكل رقم ١٥؟ أولاً وقبل كل شىء، الشكل يؤكد على صغر رأس المجموعات قيد المناقشة، كما يشكل هذا الشكل أيضًا وفى الوقت ذاته، وبطريقة خطية انعزال هذه المجموعات النسبى عن المجموعات الأخرى. ثانيًا: قد نلاحظ كيف أن قبائل الجنوب العربى العربية- وبخاصة الشّيهر، اليمن ومسقط- تشكل روابط وصل بين الحاميين أصحاب



الشكل رقم ١٥ – خريطة استدارة الرأس تبين وضع مختلف قبائل غرب الجنوب الذين قاسهم النقيب توماس

الرؤس الضيقة من ناحية، وبين عرب الجنوب ذوى الرؤوس شديدة الاستدارة من ناحية أخرى. ويقول لنا الشكل رقم ١٥ فى نهاية المطاف، أن هذه القبائل متميزة عن القبائل العربية الشمالية، ومتميزة أيضًا عن الشكل الأرمنى، وأن ذلك كله جرى تبيانه بصورة واضحة.

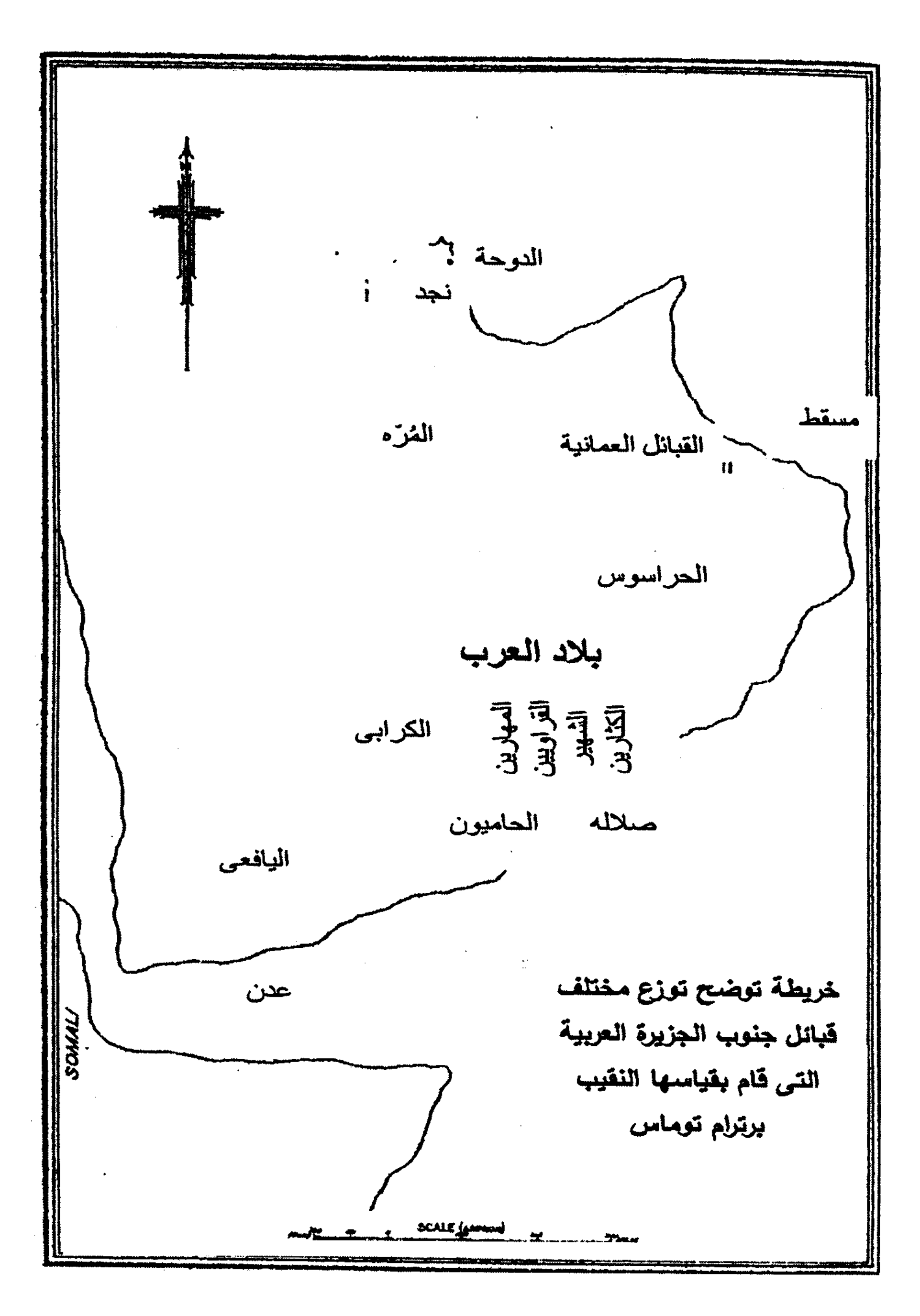
بذلك نكون قد أوضحنا أن عرب جنوب الجزيرة العربية أناس أصحاب أمخاخ صغيرة. يزاد على ذلك أن الخطوط المنحنية المنحدرة نحو الأعلى قادمة من يسار الخريطة إلى يمينها (الشكل رقم ١)، تحدد بصورة تقريبية ثلاثة مستويات من القدرة الجمجمية: المستوى الأول تحت ١٣٢٥ سم٣، والمستوى من ١٣٢٥سم٣ إلى ١٤٧٥سم٣، ثم المستوى فوق ١٤٧٥سم٣. وهذا التقسيم ليس مطلقًا أو نهائيًا، نظرًا لأن صغر أبعاد الطول والعرض يمكن التعويض عنه بزيادة الارتفاع، بطريقتين اثنتين. وهنا نقول من جديد، إن الطول كان يمكن تحقيقه عن طريق منحنيات جنبية أمامية، وأن العرض فى بعض أجزائه قد يكون راجعًا إلى جدران سميكة، إلخ؛ لدرجة أن القدرة الجمجمية الفعلية أصبح بالإمكان تقليلها. يضاف إلى ذلك أن التجمعات أثبتت جدواها بشكل عام.

وهنا، وعلى الفور، نجد أنفسنا نقر ونعترف بالتأثير الأرمنى على القبائل العمانية، لكن يتعين علينا هنا التأكيد على أن هذه المجموعة وحدها هى التى يتوافر فيها استدارة الرأس الأرمنية.

يزاد على ذلك أن التجمعات الأخرى، ومن باب التأكيد على المسألة، مستديرة الرأس لكن شكل الرأس ينجم عن تناقص طول الرأس وليس ناجمًا عن زيادة عرض الرأس. زد على ذلك، وهذا أهم من كل ما سبق، أن مسألة تناقص طول مسألة الرأس لا يرجع إلى ما بعد الأذن، وهى سمة أرمنية أصيلة.

وهنا، قد يكون من المنطق الوصول إلى النتيجة التى مفادها أن هناك فى جنوب الجزيرة العربية استدارة فريدة للرأس؛ أى أن هذه الاستدارة عبارة عن جمجمة عريضة قصيرة متوسطة الارتفاع، لكن هذه الجمجمة ليس فيها أى بعد من الأبعاد الأرمنية (أقصد طول ما بعد الأذن).

وفيما يتصل بموضوع العنصر الحامى، نجد أن أثره موجود فى الجماعات التى من قَبيل تجمعات الشّهارين- القراوين - المهارين- الشعر المجعد، سكسوكات الذقون، لون الشعر ولون البشرة، الصورة العامة للوجه؛ وهذه كلها



خريطة توضح توزع مختلف قبائل جنوب الجزيرة العربية
التى قام بقياسها النقيب برترام توماس

سمات وقسمات حامية. وقد يكون من المفيد فى هذا الصدد أن يلاحظ النقيب برترام توماس[١] بنفسه، وجود عضو من القراوين شبيه بالبشارين، ووجود عضو من المهارين له ذقن (سكسوكة) مصرية تمامًا.

ربما يكون من الخطر، وتأسيسًا على قوة بعض الصور القليلة، الحديث عن أوجه الشبه العرقية، ومع ذلك لابد من الانتباه إلى المشائين (الشكلين ١٧ و ١٨)، اللذين يُلَمِّحان إلى التأثير الدرافيدى، أقصد التأثير التاميلى أو السنغالى، ولابد من الانتباه أيضًا إلى صور أطفال الشهارين وأطفال الكثارين الذين يبدون شبيهين "بالهنود" إلى حد بعيد (الشكلين ٢١، ٢٢). وهنا نجد أن وجود مثل هذه الأشكال (أصول) هندية شرقية، أو هل جاء الدرافيديون من الغرب؛ أم أن هذا وذاك جاءا من مركز (وسيط) مشترك، أم أن هذا وذاك يمثلان فى نهاية المطاف بقايا لسكان أصليين مشتركين كانوا فى هذا المكان فى وقت من الأوقات، وأن آثار هؤلاء السكان الأصليين أصبحت الآن، وإلى حد بعيد، فى طى النسيان بفعل تأثير موجات الهجرة التى حدثت بعد ذلك؟

ولا يسعنا فى نهاية المطاف سوى التقدم بآيات الشكر للنقيب توماس على ذلك الامتياز الذى خَصَّنا به، عندما سمح لنا بمساعدته فى مسألة ملاحظاته الأنثروبولوجية.

ويتضح لنا، من واقع ما كتبناه، أن المعرفة الكاملة بشعوب جنوب الجزيرة العربية تعد أمرًا ضروريًا لأولئك الذين ينشدون، من بيننا، تفسير أصل وتوزع أعراق العالم القديم- وبخاصة الأعراق التى تشغل وتحتل البلدان الواقعة على حدود المحيط الهندى. وما الطريقة التى تمكِّننا من تعليل أوجه الشبه الحامية فى أفريقيا من الدرافيديين فى الهند؟ والذى يعوقنا حتى الآن هو افتقارنا إلى المعطيات. والواضح أن الدكتور سلجمان أسدى إلى الأنثروبولوجين خدمة كبيرة، عندما تمكن من تنظيم الحالة المعرفية الخاصة بالشعوب التى تتخذ من جنوب الجزيرة العربية موطنًا لها، قبل مجىء برترام توماس إلى هذا المكان، فقد حمل

(١) برترام توماس، "بين بعض القبائل غير المعروفة فى جنوب الجزيرة العربية"، مجلة المعهد الأنثروبولوجى الملكى، ١٩٢٩، المجلد رقم ٥٩، ص ٩٧ - ١١٢.

الدكتور سلجمان روحه على يديه، ونجح الرجل فى إعطائنا حصاداً من الحقائق الخاصة بالقبائل الممثلة لذلك الجزء "الأشد إظلامًا" من آسيا. إلى هنا نكون قد تناولنا المشكلات الخاصة بالطبيعة العرقية للعربى الجنوبى، من منطلق الاقتناع بأن السلالات المختلفة أو بالأحرى الأعراق البشرية نشأت بطريقة منظمة، ومن هنا فنحن نسلم، إلى أن يثبت العكس، أن أى عرق من الأعراق جاء إلى الوجود فى ظل عمليات التطوير التى دارت فى أو بالقرب، من البلد الذى نجد فيه هذا العرق فى الوقت الحالى. معروف أن الأعراق تمتد إلى خارج المناطق التى تعيش فيها؛ هذا يعنى أن الأعراق تهاجر وتستعمر؛ كما أن أعراقًا جديدة يمكن أن تأتى عن طريق التلاقح. ونحن إذا ما استطعنا دعم كُلٍّ من الهجرة والتلاقح بالأدلة- مهما كانت غير كاملة- نجد أنفسنا نقبل هذه العوامل على أنها تكون مفسِّرة لسمات وقسمات الأعراق. لكننا نرى أن الأعراق "الوسيطة" نادراً ما تنشأ عن اختلاط عرقين متباعدين، لكن الأعراق تمثل مرحلة فى عملية التطور التى تكون وسيطة عند هذين العرقين المتباعدين. وبذلك نكون قد حاولنا من وجهة نظر عالم العصور، تفسير أصل القبائل التى عاش النقيب توماس بينها فى جنوب الجزيرة العربية - ومن هنا، فإن الخاتمة النهائية الخاصة بالطبيعة العرقية لعرب الجنوب تتمثل فى أن هؤلاء العرب يمثلون بقية باقية من السكان الحاميين والتى شغلت أو احتلت كل جنوب الجزيرة العربية فى وقت من الأوقات. وعندما حاولنا تفسير أو تعليل استدارة الرأس هى والسمات والملامح القوقازية عند هؤلاء العرب، حتَّم ذلك علينا استعمال فرضية الهجرة واختلاط الأعراق. يضاف إلى ذلك، أننا نعلم، حق العلم، أن الحقائق الأنثروبولوجية يمكن تفسيرها بطرق مختلفة اختلافًا جذريًا عن الحل الذى قدمناه، وهنا نقول إن أصحاب البشرة الدكناء فى جنوب الجزيرة العربية ربما كانوا أصحاب رءُوس مستديرة فى فترة لاحقة، هذا يعنى أن الحاميين الأفارقة هم والقوقازيون أصحاب الرءُوس المستديرة ربما يكونون غزوا أراضى هؤلاء العرب وغزوا أيضًا أسرَّة زواج هؤلاء الأعراب. ومن نافلة القول أن موجات عرقية كثيرة ربما تكون انتشرت فى اتجاه الجنوب أو الشمال فى الجزيرة العربية فى أزمان سحيقة. وكما سبق أن قلنا، فإن المفاتيح إلى مثل هذه المشكلات لا تزال مدفونة فى رمال الجزيرة العربية.

الملحق رقم (٢)

الملحق الحيوانى

بقلم: وليام توماس كالمان

(أمين قسم الحيوان بالمتحف البريطانى)

الجزيرة العربية بوضعها الحالى تقع على حدود الأقاليم الحيوانية الثلاثة الرئيسة التى ينقسم إليها العالم، ومن هنا تشكل الجزيرة العربية أمام الجغرافى الحيوانى، مشكلات ذات أهمية خاصة. ومن هنا نقول أيضًا إن المجموعات الحيوانية التى تأتى من هذا الإقليم (الجزيرة العربية) لها قيمتها بفعل الضوء الذى تلقيه هذه المجموعة على هذه المشكلات. ولهذا السبب وحده، وليس بسبب احتمال اكتشاف أنواع جديدة، فإن وصول مجموعات النقيب برترام، التى كنا ننتظرها بشوق كبير فى المتحف، عَدَّها الجميع حدثًا طيبًا.

يزاد على ذلك، أن الرحلتين اللتين قام بهما السيد/توماس لهما أهمية إضافية، نظرًا لأن الرجل عَبَر الربع الخالى، وجبال القراوين، وبخاصة أنه لم يأتِ، على حد علمى، من جبال القراوين سوى مجموعة واحدة فقط من موضوعات التاريخ الطبيعى. وفى العام ١٨٩٠ الميلادى، قامت السيدة تيودور بست هى وزوجها برحلة إلى جبال القراوين وأحضرا معهما مجموعة من النباتات والسحالى. وقد تكفل الدكتور جون آندرسون بوصف مجموعة السحالى فى كتابه المعنون: "زواحف الجزيرة العربية" المنشور فى العام ١٨٩٦.

تلقى المتحف البريطانى من أجزاء أخرى من جنوب الجزيرة العربية بعض المجموعات من المقيمين ومن الرحالة. ومن منطقة عدن على سبيل المثال، وصلتنا

مجموعات من العقيد ج. و . يدبرى ومن السادة أ.د. برسيفال والسيد/ و. دودسون. وفى اليمن توافر للرحالة ذائع الصيت ويمان بيرى، الوقت اللازم للقيام بجمع مجموعات كبيرة على امتداد الرحلات العديدة التى قام بها فى اليمن، ومن أقصى شمال جنوب الجزيرة العربية أرسل لنا السيد/ فيلبى كثيرًا من العينات المهمة. وتلقى المتحف من مسقط مجموعات بالغة الأهمية من السير بيرسى كوكس، ومن الجراح العام أ.س جياكار، ومن العقيد س. ب. مايلز وأيضًا من الدكتور جى . م. ليز Lees ، ومؤخرًا عاد الرائد ر. إى. شيزمان ومعه مجموعة فريدة الأهمية، من الهفوف ومن واحة جبرين.

يتضح لنا من هذا السرد أن المجموعات التى جاءتنا من السيد/ توماس، تسد ذلك الفراغ الكبير فى خريطة الجغرافيا الحيوانية لجزيرة العرب.

وها هم رفاقى فى قسمَىْ دراسة الحيوان والحشرات فى المتحف، يقدمون فى القوائم التالية تفاصيل مختلف المجموعات الحيوانية، على أفضل نحو أمكنهم الوصول إليه. وهنا يتعين علينا أن نبرز أن هذه العملية لا تقلل بأى حال من الأحوال من قيمة أو أهمية أية عينة من العينات، وبخاصة إذا ما كنا فى وضع لا يسمح لنا بإصدار قرار نهائى بشأن الاسم المحدد أو شبه المحدد لأية عينة من هذه العينات. وعلى سبيل المثال، فإن الثعلب الفنك، ذلك الثعلب الأفريقى الصغير، الذى أحضره إلينا السيد/ برترام توماس، ربما يكون بحاجة إلى إطلاق اسم جديد عليه، ومع ذلك فإن النقيب دولمان آثر الحكمة وامتنع عن نعته بأنه نوع جديد أو حتى شبه جديد، إلا بعد تجميع المعلومات المتيسرة عن هذه الحيوانات الأفريقية من شمال الجزيرة العربية وإخضاع هذه المعلومات للدرس والتدقيق.

وربما تمثلت أهم نتيجة لهذه البعثة أو المهمة، وبخاصة فيما يتعلق بالحيوان، فى إقامة الدليل على عدم وجود أية عناصر شرقية (هندية) فى الحياة الحيوانية لهذه المنطقة، وبخاصة فى جنوب إقليم الوسط من الجزيرة العربية، الذى كنا ننتظر وجود هذه العناصر فى أى جزء من أجزائه. زد على ذلك، أن الذئب الهندى الذى تعرفناه بالفعل فى كل من مسقط وعدن لا يمثل أى عنصر من هذه العناصر الشرقية، والسبب فى ذلك أن هذا الذئب هو نوع يرتبط ارتباطًا واضحًا بعلاقات وقرابات قديمة مع القطب الشمالى، وإن هذه العلاقات والقرابات تمتد إلى الهند من ناحية الشمال.

تعليقات على مجموعات التاريخ الطبيعى بأقلام أعضاء من هيئة العاملين فى المتحف البريطانى (التاريخ الطبيعى)

قُدِّمت هذه التعليقات بعد الدراسة المبدئية للعينات. وسوف يحتاج الأمر إلى المزيد من البحث والدرس قبل أن نتمكن بصورة نهائية من تحديد عدد الأنواع الجديدة فى المجموعة المقدمة لنا، والمرجح هو أن قرابة عشرين عينة أو أكثر من ذلك، بما فيها ثعلب، وثعبان، وحشرات متباينة، سوف يتعين علينا وصفها.

(أ) الطيور. بقلم: ن. ب. كنئير (مع الاعتراف بفضل أبى قردان)

قام السيد/ برتردام توماس فى مطلع العام ١٩٣٠ برحلة مبدئية إلى الربع الخالى، وصل خلالها إلى حافة الرمال فى منطقة العين. كان بصحبة الرجل فى هذ الرحلة سكرتيره المدعو على محمد، الذى علَّمه برترام توماس سلخ الحيوانات، الثدييات وبعض العينات التى تنتمى إلى ضروب أخرى.

الموسف، أن برترام توماس، لم يكن معه فى رحلته الأخيرة أحد يستطيع سلخ الطيور؛ وعلى الرغم من عودة الرجل. بمجموعات مهمة من ضروب أخرى، فإن الطيور لم تكن ممثلة سوى ببيضتين من بيض النسر؛ وقد أخذ برترام توماس هاتين البيضتين من عش فى بلدة الحض، فى المزاريق (فى الرمال الوسيطة). وقد اعتنيت أنا شخصيًا، بمقارنة هاتين البيضتين ببيض كل الطيور المفترسة المحتملة فى المجموعة كلها، وعلى الرغم من أن تعرُّف الطيور وتحديدها عن طريق بيضها يُعد أمرًا قائمًا على قدر كبير من المخاطرة، فأنا أرى أن هاتين البيضتين ربما تكونان من بيض النسر التوانى الحبشى، الذى يقولون له باللغة اللاتينية Aquila rapax raptor .

الغراب بُنى العنق

من الواضح أن هذا الصنف من الغربان لم يكن شائعًا فى جنوب الجزيرة العربية، وأن العينة الوحيدة التى جرى إحضارها كانت عبارة عن غراب لونه غير عادى أو مألوف، وقد جرى إحضار هذا الغراب فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير من رملة موجشين الواقعة عند حافة الرمال.

الغراب مِروْحى الذيل Rhino corax rhipidurus

اصطاد السيد/ برترام توماس أنثى هذا الغراب بطلق نارى، فى منطقة حيلة الشيسور (على ارتفاع ١٠٨٠ قدمًا). وجرى على عجل سلخ الجلد، والعثور على بيضة كاملة داخل قناة البيض، ونظرًا لضيق الوقت، الذى أدى إلى عدم سلخ الرأس والجناحين، إلا بعد الوصول إلى المخيم التالى، ونظرًا لعدم وجود مصباح للعمليات الليلية، ونظرًا أيضًا للبدء فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، فقد بدأ ريش الطائر فى التساقط قبل العناية به، وحتَّم ذلك التخلص من الجلد. ومع ذلك، جرى الاحتفاظ بالبيضة، وقد قمت بمقارنة هذه البيضة بالبيض الآخر الموجود فى مجموعة المتحف، ورحت أتدبر مسألة احتمال انتماء هذه البيضة إلى النوع سالف الذكر. الأهم من ذلك، أننى عندما أريت السيد/ برترام توماس جلدَى الغراب مروحى الذيل والغراب بنى العنق، أكد الرجل لى أن الغراب مروحى الذيل هو الذى صادفه أكثر من الغراب الآخر.

الطائر الثّرْثار بنى اللون

جاءت الطيور الحقيقية التى تنتمى إلى هذا النوع، من العقبة فى شمال الجزيرة العربية، وهذا الطائر موجود أيضا فى فلسطين، مسقط (على حد قول كل من ميلز، جياكار، وكوكس)، ومن شبه الجزيرة العمانية (على حد قول ليز Lees). وقد حصل السيد/ توماس على الأنثى الوحيدة ضمن هذه المجموعة من منطقة شيبه التى تقع على الجانب الشمالى من جبال القراوين، إذ كانت هذه الأنثى بين أشجار البخور المبعثرة هنا وهناك على ارتفاع يُقدر بقرابة ٢٠٠٠ قدم.

بلبل الجزيرة العربية

جرى الحصول على أنثى هذا الطائر بين بعض أشجار السنط والنخيل على مقربة من بن جواعى (على ارتفاع ١٥٠٠ قدم)، على الجانب الشمالى من الجبال.

بعد أن قمنا بدراسة السلسلة الموجودة فى المتحف البريطانى والتى جاءت من تحديد أجزاء مختلفة من جزيرة العرب، لم أتمكن من تحديد الصِّنف reichenowi الذى جاء به كل من نلورنز وهلماير من جنوب غرب الجزيرة العربية.

قُبَّرة الرمل العربية سوداء الذيل

جرى وصف هذه القُبَّرة اعتمادًا على القُبرة التى جاءت من القنفذه على البحر الأحمر فى العام ١٨٥٠، وبعد ذلك بتسع وسبعين سنة عاد من البعثة أو المهمة التى قام بها إلى واحة جبرين بأربع من هذه الطيور. وأحضر السيد/ برترام توماس أنثى من هذا الطير من منطقة حيلة بل رزاز (على ارتفاع ١٠٦٠ قدمًا)؛ وقد عثر شيزمان على هذه الأنثى فى أرض منخفضة الأشجار فى أرض مفتوحة عند ٢َ ١٨° شمالاً.

الذّعرة البيضاء(*)

جرى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير، وعلى مقربة من ثقب المياه فى العين، اصطياد هذا الطائر الذى يعتمد على الهجرة بحالة جيدة تمكِّننى من تمييز هذا العرق عن الأعراق الأخرى.

الحُميْراء الكشميرى(**)

جرى فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير، وعلى مقربة من ثقب الماء فى العين، فى منطقة موجشين، اصطياد هذا الطائر الذَّكر من فَصيل الحميراء الكشميرى، معروف أن هذا الطائر مثل الذُّعرة البيضاء يعتمد على الهجرة. وقد صادف شيزمان هذا الطائر فى الهفوف أيضًا فى شهر يناير، ورأى الكثير منه فى جنوب الأحساء فى شهر مارس.

أبو بليق الصحراوى الهندى

تعرفت هذا النوع من الطيور أول مرة على أنه طائر Oreophila ، ومن هنا سجلت أفراد هذا النوع فى الدورية الجغرافية. لكن، إجراء المزيد من البحث والتقصى عن هذا الطائر، جعلنى أقطع وبلا شك أنه من فصيل أبى بليق الصحراوى الهندى.

(*) الغالب أن هذا ربما يكون طائر أبى فصادة الذى يُرى بكثرة فى فصل الشتاء. (المترجم).

(**) طائر أوروبى مغرد. (المترجم).

اشتملت المجموعة على اثنين من هذه الطيور، جرى اصطياد أحدهما فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير عند ثقب المياه فى منطقة العين، عند حافة الرمال، وجرى اصطياد الثانى فى سعطان (على ارتفاع ٢٠٦٥ قدمًا)، على الجانب الأيسر من جبل القراوين فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير.

صادف شيزمان هذين العرقين الشرقيين من هذا الطائر المهاجر فى كل من صحــراء الأحساء وصحراء جابرين.

العَوْسق(*)

جرى فى اليوم الثانى من شهر يناير اصطياد أنثى هذا الطائر بطلق نارى على مقربة من أبى متاهين، على ارتفاع ٣٠٧٠ قدمًا، فى جبال القراوين.

الهار الشاًحب(**)

جرى فى اليوم الخامس عشر من شهر فبراير اصطياد ذكر من هذا النوع من الطيور، من منطقة مستان فى جبال القراوين (الجانب الأيسر)، على ارتفاع ١٦٥٠ قدمًا.

وقد جرى تسجيل هذا النوع من الطيور المهاجرة مرارًا فى الجزيرة العربية؛ صادفه شيزمان فى الهفوف فى شهر نوفمبر وفى شهر ديسمبر، وصادفه أيضًا فى واحة جابرين فى شهر فبراير، وصادفه أيضًا على ساحل حضرموت فى اليوم الحادى عشر من شهر أبريل.

كروان الجزيرة العربية

تشتمل المجموعة على أنثى من هذا النوع من الطيور، وقد جرى اصطياد هذه الأنثى فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير من بين بعض أشجار "التشيجوت" (التى هى من أشجار البخور) فى منطقة القطان (على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم)، إلى الشمال مباشرة من انقسام جبال القراوين.

(*) يصح فيه أيضًا "العاسوق" وهو ضرب من الصقور. (المترجم).

(**) ضرب من الصقور. (المترجم).

ومنذ ذلك الحين، أصبحت معرفة هذا الكروان مقصورة فقط على الأراضى الداخلية فى عدن (وذلك على حد قول كل من دورسون ومواينزرت هاجن)، وعلى منطقة العبدلى فى اليمن (على حد قول بيرى)، وعلى الساحل الصومالى الشمالى (على حد قولى زولتز)، وبذلك يصبح هذا التسجيل الجديد امتدادًا كبيرًا لمألف هذا الطائر.

· **القط السنغالى**

يوجد ثقب ماء فى الجزء المُسمَّى العين من منطقة موجشين، عند حافة الرمال. والسيد/ برترام توماس يصف ذلك الثقب بأنه "ضحل وأخضر اللون ويقدر قطر هذا الثقب بقرابة ياردة أو ما يقرب من ذلك". ويقول أيضًا: إنه "على بعد ياردات قليلة وإلى الوراء من بعض الشجيرات يوجد ثقب ماء آخر تحول إلى بركة ضحلة". ومن الواضح أن هذا المكان صار جاذبًا كبيرًا للطيور المهاجرة، نظرًا لأن برترام توماس رأى الكثير من هذه الطيور فى هذه المنطقة- وذكر الرجل أيضًا أنه عندما كان يقضى بعض الوقت فى هذا المكان فى الصباح الباكر، جاء قطيع من قرابة ١٥٠ من القطاه (القطط) للشرب من ذلك المكان، وأنه أمكنه الإمساك بذكر وأنثى من هذه القطاه (القطط) فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير.

جرى فى اليوم الحادى عشر من شهر فبراير اصطياد زوج من طيور سيسى الجزيرة العربية، بطلق فى منطقة سيج حوار، على ارتفاع قرابة ٢٠٠٠ قدم، على الجانب الشمالى من جبال القراوين. وبذلك يصبح طائر السيسى العربى معروفًا فى المنطقة الممتدة من عدن إلى مسقط.

(ب) الثدييات. بقلم النقيب جى. جى دولمان

الخفاش ورقاتى الأنف

أُحضِر هذا الخفاش من كهف من كهوف ساحور (فى جبال القراوين) أثناء رحلة سابقة.

خفاش القبور عارى البطن

جرى فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ إحضار هذا الخفاش من العين، من ارتفاع يقدر بقرابة ١٥٠٠ قدم.

يوجد هذا النوع من الخفافيش الذى يطلق عليه اسم Tophozous فى مساحة كبيرة من أفريقيا (فيما عدا الجزء الشمالى الغربى)، وفى جنوبى آسيا وفى جزر الهند الشرقية، فى اتجاه الشرق إلى أستراليا، ويوجد أيضًا فى غينيا الجديدة، وفى جزر الفلبين. هذا النوع من الخفافيش هو والنوع البابلى الذى يُطلق عليه اسم T.babylonicus والذى اسمه العلمى .Liponycteries . يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من الخفافيش الذى يُطلق عليه اسم Taphozous nudiventries تمتد منطقة وجوده عبر المنطقة الأفريقية الاستوائية من نيجيريا إلى السودان والأراضى التانزانية، وينتشر وجوده شرقًا فى الجزيرة العربية.

جرى إحضار قنفذتين من النوع الذى يطلق عليه الاسم Paraechinus dorsalis، من الرمال المتاخمة لأم الحيط.

الضَّبع المُرقَّط

جرى فى شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ إحضار هذا الضبع من ميربورن على ارتفاع ٢٨٠٠ قدم، فى منطقة العين من جبال القراوين.

كان عضوان من هذه العينات ذكرين وكان العضو الثالث أنثى. وعُثر فى الأنثى على جنينين يؤيدان مسألة الغطاء (الجلد) فى هذا النوع من الثدييات. وقد يثبت فى نهاية المطاف، أن هذه الضباع مختلفة عن الضباع المرقطة الآسيوية والأفريقية. هذا النوع من الضباع يُعد واحدًا من الأنواع العديدة الجارحة التى يشيع وجودها فى كل من أفريقيا وآسيا: ومألف هذا الدب المرقط يمتد عبر شمال أفريقيا وشرقها، وفى سوريا والجزيرة العربية إلى أن يصل إلى آسيا الصغرى والهند. ويوجد فى أفريقيا بعض الأنواع المختلفة المتميزة، لكنها كلها شديدة الشبه بعضها ببعض ومميزة بلا أدنى شك.

الذئب الهندى

جرى فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ احضار هذا الذئب، من منطقة العين فى جبال القراوين.

ثعلب الجزيرة العربية

أُحضر هذا الثعلب من منطقة العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى جبال القراوين، وكان ذلك فى اليوم السابع من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠. وجرى إحضاره أيضًا فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من منطقة خيوت على

ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا. وعُثر عليه أيضًا فى جوربيب، على ارتفاع ٣٠ قدمًا، فى اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠، كما عُثر عليه أيضًا فى خور صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الرابع والعشرين من العام ١٩٣٠.

تبدو هذه الأنواع كلها أدكن فى منطقة البطن عن ثعلب الجزيرة العربية الأصيل. هذا النوع من الثعالب موجود فى مسقط، والمجموعة الموجودة فى المتحف تشمل سلسلة من العينات التى جاءت من مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، كما جاءت عينات أخرى من بلاد فارس ومن مصر والتى يرجح أنها تنتمى إلى سلالة الجزيرة العربية.

ثعلب الجزيرة العربية (الفنك الصغير)

يبدو أن هذا الثعلب الصغير يمثل العرق (السلالة) العربية من ثعلب الفنك المصرى، الذى يوجد فى شمال أفريقيا وفى شمالها الشرقى. ويوجد فى المتحف عينة واحدة من هذا النوع من الثعالب، وقد جرى إحضار هذه العينة من صحراء الكويت فى الجزيرة العربية، وقد يكون من المفيد مقارنة هذه العينة بالعينة الحالية عندما يئون أوان تناول موضوع هذه الثعالب المهمة.

الراَّتل(*)

أحضر (سبارم) هذا الحيوان من شِعب الفضول، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى اليوم الثامن عشر، من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

يوجد حيوان الراتل فى رقعة كبيرة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وتمتد شرقًا إلى الهند. ونحن نلاحظ تباينًا طفيفًا جدًا فى اللون أو الحجم بين العينة الإفريقية والعينة الهندية، من هذا النوع من ثعالب الفنك، وفى الأغلب الأعم تبدو هذه العينات وكأنها مجرد أجناس جغرافية ليس إلا.

عضل الجزيرة العربية(**)

يوجد فى المتحف ثلاث عينات (أحضرها كل من شيزمان وهنت).

(*) يقولون له أيضا "آكل العسل" . (المترجم).

(**) يصح فيه أيضا gerbille، وهو حيوان من فصيلة الفأر. (المترجم).

تشمل عائلة العضل الفرعية على كل من العضل الأفريقى والعضل الآسيوى، اللذين فيهما القواطع على شكل أخدود، والقدمان الخلفيتان مستطيلتان. وفئران العضل الشائعة فى أفريقيا مصنَّفة إلى جيلين: التاتيرونا Taterona والجربليوس Gerbillus ، وأنواع هذين لها جلود برَّاقة أو رملية اللون من أعلى وبيضاء اللون من أسفل.

فأر الحقل (الغيط) العربى

عينة واحدة. فأر الغيط الأفريقى الشائع، مقسم إلى عدد كبير من الفصائل المحلية، والأرجح أنه بعد أن يتوافر المزيد من المعلومات للبحث والدراسة، قد نكتشف أن فأر الحقل (الغيط) العربى هو عبارة عن فصيل شاحب من نوع فأر الحقل الأفريقى.

أرنب شيزمان البرى العربى

جرى إحضار عينة من هذا الأرنب من يادل، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من العام ١٩٣٠. وجرى أيضًا فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر من العام ١٩٣٠ إحضار عينة أخرى من رملة أوروبا، على ارتفاع ٩٠٠ قدم. وأُحضرت عينة أخرى من شنَّاء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى اليوم الخامس من شهر يناير من العام ١٩٣٠.

ويبدو أن هذه العينات الأربع تمثل الأرنب الذى جرت تسميته مؤخرًا باسم د. آى. شيزمان، وعل الجزيرة العربية وعل نادر وتوزعه غير معروف تمامًا.

غزال مسقط

قام بروك بإحضار العينة من عين الرَّزات، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، وذلك فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر من العام ١٩٣٠. وأُحضرت عينة أخرى من جورييب، على ارتفاع ٥٠ قدمًا، وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

هذا النوع من الغزال مرتبط تمامًا بالغزال العربى، الذى يمتاز عنه بأبعاده الأصغر؛ طرفا قرنَىْ هذا الوعل متجهان إلى الداخل بشكل حاد بدلاً من اتجاههما إلى الأمام.

كونى(*) الجزيرة العربية

أُحضرت العينة الأولى من الحاز، على ارتفاع ١٨٠٠ قدم، وذلك فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠. وجرى إحضار عينة أخرى من دريوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، فى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠.

كان المرحوم أولدفيلد توماس قام بوصف هذا الفصيل (النوع) الذى جاء به من ظفار فى جنوب الجزيرة العربية. وهناك قرابة وثيقة بين هذا الفصيل والكونى المُرَقَّط، الذى وصفه شريبر فى العام ١٧٨٤ بأنه "Hyrax Syriaca".

(جـ) الزواحف والبرمائيات بقلم: هـ . و. باركر

تنقسم الزواحف والبرمائيات التى جمعها برترام توماس بشكل عام إلى مجموعتين متفقتين مع المنطقتين النباتيتين المتناقضتين مناخيًا واللتين قام الرجل بزيارتهما. لا يشيع بين هذين الإقليمين سوى نوع واحد، وأن هذا النوع تنضوى تحته أنواع فرعية متميزة. هذا يعنى أن ظروف الحياة فى الربع الخالى، تلك الأرض الجدباء الجرداء، تحتاج إلى درجة من التخصص لا تتطلبها الحياة فى جبال القراوين الغابية وفى المنطقة الساحلية من ظفار، لكن الواضح أن هذا لم يكن بمثابة العامل الوحيد فى مسألة إنتاج مثل هذا التباين الملحوظ. وهنا نجد أن ندرة الثعابين فى الصحراء (لم يجرِ العثور سوى على ثلاثة أنواع بالمقارنة مع ثمانية أنواع فى ظفار)، وكذلك الوفرة النسبية للسحالى (١٤ نوعًا فى الصحراء مقابل خمسة أنواع فقط فى ظفار) يعكسان مدى التكيف فى المجموعتين، لكن ظروف الأرصاد الجوية لا يمكن جعلها سببًا فى عدم وجود عائلة من العائلات الطبيعية التى من قَبيل عائلة السحليات أو أشباه السحليات. وتؤكد الدراسة الدقيقة للقوائم التى سنوردها فيما بعد، أن الحياة الحيوانية فى ظفار فيها عنصر إثيوبى قوى، فى حين نجد أن الحياة الحيوانية فى الصحراء منها سحنات قطبية قديمة؛ الأجناس التى من قبيل Atractaspsis , Psammophis

(*) أرنب أوروبى. (المترجم).

وكذلك الجنس Bitis كلها إصول إثيوبية، لكن الأجناس التى من قبيل Alsophylax phrynocphalus و Acanthodactylus ومعها أيضًا الجنس Malpolon يندر أن تكون معروفة خارج المنطقة القطبية القديمة. وهنا عز علينا عدم الإشارة إلى أن ظفار فيها تذكار من السكان السابقين للجزيرة العربية، وأن هذا التذكار يعود إلى الحقبة التى كانت فيها المنطقتان الهندية والإثيوبية متوحدتين فى مسألة الحياة الحيوانية؛ وقد أدى الجفاف إلى إتلاف وتدمير هذه الحياة الحيوانية البدائية فى مساحة كبيرة، ومن هنا فإن الإقليم الجاف أُعيد تسكينه فيما بعد من الشمال.

يبدو أن الأنواع التى جرى جمعها، وكذلك المآلف الجغرافية التقريبية كانت على النحو التالى:

جبال القراوين والمنطقة الساحلية من ظفار

السحالى: أبو بريص. (١) النوع Pristurus الذى اكتشفه (بلانف) الفصيلان: إشيرا Ichera وإجوره Igeroh ، وهما موجودان فى منطقة الشهارين. هذان الفصيلان موجودان فى الجزيرة العربية. وفى المنطقة من سوقطرة إلى بلاد السِّند. (٢) النوع Pristurus Carteri tuberculatus (الذى اكتشفه باركر). فصيل البض Budh الموجود فى منطقة الشهارين. تتدرج مآلف هذه الأنواع من عدن إلى مسقط، لكن هناك ثلاث فصائل جغرافية يمكن التعرف عليها، فصيل منها فى الشمال الشرقى، والفصيل الثانى فى الجنوب الغربى، أما الفصيل الثالث فقد اكتشفه النقيب برترام توماس فى المنحدرات الجنوبية من جبال القراوين.

الحُبينات(*). (٣) الفصيل الذى يُقال له Agama Sinaita (اكتشفه هايدن). وهو موجود عند الشهارين فى منطقتى زيداخيت وسيداحيت. ومألفه يمتد من ليبيا والسودان إلى سوريا ومسقط.

السفنفورات. (٤) الفصيل الذى يُطلق عليه الاسم Chalcides ocellatus Ocellatus (الذى اكتشفه فورسك). هذا الفصيل موجود فى جمش عند الشهارين؛ ويمتد مألفه من الجزائر إلى مصر، سوريا، قبرص، جزيرة كريت، اليونان، الجزيرة العربية، بلاد فارس وأيضًا فى بلوخستان.

(*) يقال له أيضًا العضرفُوت وهو شبيه بالحرباء المصرية. (المترجم).

الحرباء. (٥) الفصيل الذى اكتشفه (بطرس) والذى يطلق عليه الاسم Cha-maeleon، ويوجد فى منطقة شهايل التى يسكنها الشهارين. يمتد مألف الحرباء أيضًا من عدن إلى مسقط.

الثعابين: فصيل الثعابين الذى اكتشفه (هارملس). (٦) الفصيل الذى اكتشفه (جان) ويطلقون عليه Couber rhodorhachis ، هذا الفصيل موجود فى دايفن عند الشهارين وموجود أيضًا فى أوجيم أو شالثوم. ويمتد مألفه من مصر إلى الصومال، الجزيرة العربية، سوريا، بلاد فارس، بلوخستان، منطقة بحر قزوين، وشمال غرب الهند. (٧) الفصيل الذى يطلقون عليه الاسم Coluber thomasi (والذى اكتشفه باركر). وهذا الفصيل يوجد فى شالثوم عند الشهارين، وهذا اكتشاف آخر من اكتشافات برترام توماس؛ وهذا الفصيل مرتبط بالفصيل C.Variabilis الموجود فى المناطق الداخلية من عدن، ومرتبط أيضًا بالفصيل Co-luber الصومالى (٨) المسمّى Spalerosophis diadema (الذى اكتشفه شليجل)؛ وهو موجود عند الشهارين فى فيعى ديعى. ويمتد مألفه من أفريقيا شمال الصحراء الكبرى إلى تركستان، وشمال غربى الهند.

أفاعٍ (قليلة السمية). (٩) الفصيل المدعو Schokari الذى اكتشفه (فروسك)؛ وهذا الفصيل موجود عند الشهارين فى إيشور وإتشور. ويمتد مألفه من شمال الصحراء الكبرى فى أفريقيا إلى بلاد فارس، أفغانستان، وشمال غربى الهند.

الكوبرا (ثعبان سام). (١٠) الفصيل المدعو Naja hoje (الذى اكتشفه لن Linn).

الكوبرا المصرية. وهذا الفصيل موجود عند الشهارين فى حوط، فى دايفن أو أوجيم. ومألفه ممتد من جنوب شرقى الجزيرة العربية إلى الترنسفال وزولولاند؛ ويمتد غربًا إلى شمال الصحراء الكبرى، وإلى مرّاكش؛ والموجود حاليًا من هذا الفصيل مألفه مسجل فى أقصى الشمال. (١١) الفصيل المسمّى Alroctaspis andersoni ، وهذا الفصيل موجود عند الشهارين فى ديسوس. وهو معروف منذ ذلك الحين فى أقصى جنوب الجزيرة العربية.

الأفاعى الخبيثة. (سامة). (١٢) الفصيل المدعو Echis Carinatus (الذى اكتشفه شنيد)؛ هذا الفصيل موجود فى أوجيم عند الشهارين. ومألفه

فى أفريقيا فى شمال خط الاستواء ويمتد إلى جنوب بحر قزوين والهند. (١٣) الفصيل الذى يحمل الاسم Bitis arietans (الذى اكتشفه مرِّم)، ويطلقون عليه "الأفعى النافخة" ويقال له أيضًا "الأربد". وهذه الأفعى موجودة عند الشهارين فى دولولات. ومألف هذه الأفعى موجود فى أفريقيا، باستثناء الأقاليم الغابية المطيرة، وموجود أيضًا فى جنوب الجزيرة العربية؛ والفصيل الموجود حاليًا مسجل فى أقصى الشمال.

البرمائيات: الضفادع وضفادع الطين. (١٤) الفصيل الذى يطلق عليه اسم dhufarensis (الذى اكتشفه باركر). وهو موجود عند الشهارين فى عقاكيت. وقد اكتشفه النقيب برترام توماس؛ والواضح أن هذا الفصيل مرتبط ارتباطًا وثيقًا بضفدع الطين الموجود فى شمال غرب أفريقيا، ويطلق عليه الاسم Bufo dodsoni (وقد اكتشفه بولنجر).

الرَّبع الخالى

السحالى: أبو بريص

(١) الفصيل المدعو Alsophylax blanfordii (الذى اكتشفه ستراوش). يقال له بالعربية: نجالس ملح، الأغيبيس أو الضاتور. هذا الفصيل موجود فى كل من مصر والجزيرة العربية. (٢) الفصيل الذى يطلقون عليه اسم Ceramodactylus major (الذى اكتشفه باركر). يقولون له بالعربية: ضاتور. لا يعرف منذ ذلك الحين إلا فى عينتين فقط، وأن هاتين العينتين جاء بهما النقيب برترام توماس فى رحلته الأولى التى قام بها إلى الربع الخالى. (٣) الفصيل الذى (اكتشفه جراى) والذى يطلق عليه الاسم Prislurus Carleri Carleri ، ومألف هذا الفصيل يمتد إلى المناطق الداخلية من مسقط إلى ظفار..

الطيور الأفريقية الاستوائية. (٤) الفصيل الذى اكتشفه (أندرسون) والذى يطلق عليه اسم Phrynoce Phlus arabicus يطلقون عليه بالعربية: التهاى أو التهيهى، ومألفه يمتد من حضرموت إلى الخليج الفارسى. (٥) الفصيل الذى اكتشفه (أندرسون) ويطلقون عليه الاسم Phynocepha lus maculatus ويقولون له بالعربية الفخاخ، أو رُضيمة أو الشريهى. مألفه فى بلاد فارس، بلوخستان، وشرق

الجزيرة العربية، ويمتد هذا المألف جنوبًا إلى ظفار. (٦) (الفصيل الذى اكتشفه أندرسون) ويُطلق عليه اسم Agama Jagakari والعرب يطلقون على هذا الفصيل اسم الفخَّاخ. ومألف هذا الفصيل يمتد من مسقط إلى المناطق الداخلية فى ظفار، ويمتد شمالاً إلى قطر. (٧) الفصيل الذى اكتشفه (باركر) ويطلق عليه الاسم Uromastix lhomasi. يقولون لهذا الفصيل بالعربية: أبو كردفات أو أبو كرش. وهذا الفصيل معروف فى عينتين، أحضرهما النقيب برترام توماس. (٨) الفصيل المسمى Uromastix microolepis والذى اكتشفه (بلانف). ويمتد مألف هذا الفصيل من بلاد فارس إلى العراق ثم إلى المناطق الداخلية من ظفار.

الوَرل. (٩) الفصيل الذى اكتشفه (داند) ويطلقون عليه الاسم Varanus griseus. الورل رمادى اللون. يقولون لهذا الحيوان بالعربية: وُرال أو رُوال. ويمتد مألفه إلى السودان، ويمتد شمالاً إلى بحر قزوين كما يمتد أيضًا إلى شمال غربى الهند.

العظائيات(*). (١٠) الفصيل الذى اكتشفه (جونثر) ويقولون له: Acantho dactylus، Cantorsi يقولون له بالعربية: الأسودة أو السويدة. يعد توزع هذا النوع، على حد ما هو معروف حتى الآن، توزعًا غير مستمر ولم تُسجل عينات لهذا الفصيل فيما بين بلاد فارس ومنطقة وادى عدن- حضرموت فى جنوب الجزيرة العربية. هذه العينات الموجودة فى العينة الحالية التى أمامنا الآن، تسد الفجوة المشار إليها فى توزع هذا النوع، لكن هذه العينات لا تربط الرتب الشمالية بالرتب الجنوبية فيما يتعلق بالخصائص، والسمات المورفولوجية. (١١) الفصيل الذى اكتشفه (أودوين) ويطلق عليه الاسم Acantho dactlus scutellatus . يقولون لهذا الفصيل بالعربية: الضّبيبة. مألف هذا الفصيل هو أفريقيا، شمال الصحراء الكبرى، ويمتد من الرأس الأخضر إلى السودان، وإلى فلسطين والعراق. (١٢) الفصيل الذى اكتشفه (بلانف) ويسمونه Eremias breviro stris. . يقولون له بالعربية: نجاس ملح. ومألفه موجود فى البنجاب، بلوخستان، بلاد فارس، العراق، سوريا؛ وهذا المألف لم يكن معروفًا من قبل فى اتجاه الجنوب.

(*) رتبة من الزواحف. (المترجم).

(١٣) الفصيل الذى اكتشفه (بويلنجر). وهذا الفصيل يقولون له بالعربية: السويدة. ومألف هذا الفصيل موجود فقط فى حضرموت. الصفنقورات.
(١٤) الفصيل المسمى Scincus mitranus الذى اكتشفه (أندرسون). يسمونه باللغة العربية: الداموسة أو اليهلاكلاك. يمتد مألف هذا الفصيل من السند إلى جنوب شرق الجزيرة العربية.

الثعابين. الأصَلات. (١٥) الفصيل المسمى Fryx Jauakari الذى اكتشفه (بولينجر). يسمونه بالعربية: الدَّايفن. يمتد مألفه من مسقط إلى اليمن.

فصائل الثعابين. (١٦) الفصيل المسمى Molpolon moilensis الذى اكتشفه (ديوس)، يسمونه بالعربية: الزرق. يمتد مألفه من الجزائر إلى السودان، ويمتد فى اتجاه الشمال إلى العراق وجنوب بلاد فارس.

الأفاعى الخبيئة. (١٧) الفصيل الذى اكتشفه (لِن). هى الأفعى المصرية المقرَّنة. ويقولون لها بالعربية كبش (ذكر)، يمتد مألف هذه الأفعى من الجزائر إلى السودان، الجزيرة العربية، ثم العراق.

• **(د) الجراد ، الجنادب، والسراعيف(*) بقلم: ب. أوفاروف**

تمثل المجموعة التى تحمل الاسم Orthoptera والتى قام النقيب برترام توماس بجمعها، إسهامًا ثمينًا فى معرفتنا للحياة الحيوانية فى الجزيرة العربية، التى لاتزال بلا دراسة كاملة.

وقائمة الأنواع التى نسوقها هنا هى بمثابة قائمة مبدئية وملاحظات كاملة على المجموعة، فضلاً عن أوصاف لأنواع جديدة سننشرها فى موضع آخر.

الصراصير(**):

١- الفصيل الذى يحمل الاسم Blatella mellea ، لم يكن هذا الفصيل معروفًا من قبل إلا فى عدن وحدها، لكن النقيب برترام توماس عثر على هذا الفصيل فى أماكن عديدة من جبال القراوين.

(*) واحده "سُرْعوفة؛"، وهى ما يقال له "فرس النبى" عند الفلاحين المصريين. (المترجم).
(**) واحده صرصار والعرب يقولون له ابن وردان . (المترجم).

٢- الفصيل الذى يحمل الاسم Pycnoscelus.

٣- الفصيل الذى يحمل اسم Dorylaea rbombiflia. هذان الفصيلان ٢، ٣ مرتبطان بالبشر وهما عالميان وليسا محليين.

٤- الفصيل الذى يحمل الاسم Hololampra ، ربما يكون هذا الفصيل جديدًا.

السرعوفة (فرس النبى):

٥- الفصيل الذى يحمل الاسم Eremiaphila . عبارة عن عينات غير مكتملة يصعب تمييزها.

٦- الفصيل الذى يحمل الاسم Tarachoode Obtusiceps والموجود فى جبال القراوين، وهو معروف من قبل فى السودان، الصومال، وإرتريا، وهذا الفصيل ينتمى إلى فصيل أفريقى خالص.

٧- الفصيل الذى يحمل الاسم dmitrievi الذى اكتشفه (قبرنر). وهو موجود فى جبال القراوين، وهذا الفصيل معروف فى الساحل الصومالى، وموجود أيضًا فى جنوب بلاد فارس وفى فلسطين.

٨- النوع الذى يحمل الاسم .Sphodromaitis . وهو موجود فى جبال القراوين. وهو أيضًا عبارة عن نوع جديد من أصل أو جنس أفريقى خالص.

٩- النوع الذى يحمل الاسم Empusa . وهو عبارة عن يرقانة صغيرة.

الحشرات العَصَوِيّة:

١٠- النوع الذى يحمل الاسم Leptynis . وهو موجود فى عين الرّزات فى جبل القراوين. وهذا النوع جديد ومهم تمامًا ويرتبط بالنوع الذى يحمل الاسم altenuato، بالفصيل أو النوع الذى يحمل pantel ولا يوجد إلا فى البرتغال فقط.

الجُداجُد(*):

١١- الفصيل الذى يحمل الاسم Liogryllys bimaculatus ، وهو موجود فى جبال القراوين. يشيع هذا النوع فى المناطق الاستوائية من العالم القديم وفى بلاد البحر المتوسط.

(*) يصح فيه أيضًا "صرار الليل". (المترجم).

١٢- النوع الذى يحمل الاسم Gryllodes ، وهو موجود فى الربع الخالى. يرجح أن يكون هذا النوع جديدًا، لكن البت النهائى فى هذه المسألة يعد أمرًا مستحيلاً، وبخاصة إذا ما تم الاعتماد على عينة واحدة أنثى.

الجُنْدب(*) طويل القرنين

١٣- الفصيل الذى يحمل الاسم Conocephalus iris؛ وهو موجود فى جبال القراوين. وهذا الفصيل معروف فقط فى أفريقيا وفى جزرها (مدغشقر، موريشيوس، روديجوز، وجزر سيشل).

١٤- النوع الذى يحمل الاسم Conocerphalus؛ وهو الجُندب والجراد قصير القرنين:

١٥- الفصيل الذى يحمل الاسم Aeridella grandis والذى اكتشفه (كلوج). وهو موجود فى جبال القراوين.

١٦- النوع الذى يحمل الاسم Acridella ، وهو موجود فى جبال القراوين.

١٧- الفصيل الذى يحمل الاسم Aiolopus lhalassinus؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

١٨- الفصيل الذى يحمل الاسم Stenohippus mundus ؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

١٩- الفصيل الذى يحمل الاسم Morphocris Fasciata sulcata الذى اكتشفه (تونب). وهو موجود فى جبال القراوين وصحراء جنوب الجزيرة العربية. وتوزُّعه كبير فى أفريقيا وجنوب آسيا.

٢٠- الفصيل الذى يحمل pucnodictya dentata ؛ موجود فى جبال القراوين وصحراء جنوب الجزيرة العربية. هذا الفصيل غير مُمثَّل من قبل فى المتحف البريطانى.

٢١- النوع .n موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية، جرى العثور على عينة واحدة من جندب بلا أجنحة ينتمى إلى عائلة فرعية تحمل الاسم Oedipod .inae

(*) يصح فيه أيضًا "القَبُّوط". (المترجم).

٢٢- الفصيل الفرعى الذى يحمل الاسم Sphingonotus balteat ، وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٣- النوع الذى يحمل الاسم Sphingonotus ، موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٤- الفصيل الفرعى الذى يحمل الاسم Acrotulus insubricus ؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٥- الفصيل الفرعى الذى يحمل الاسم Trilophidia؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٦- الفصيل الذى يحمل الاسم Tenuitarsus ؛ موجود فى الربع الخالى (هذا الفصيل مسجل فى القائمة الأوَّلية تحت الاسم Leptoscirlus).

٢٧- الفصيل الذى يحمل الاسم Chroto gonus؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٨- الفصيل الذى يحمل الاسم Cyrtacanthacris tatarica؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية.

٢٩- الفصيل الذى يحمل الاسم Anacridium arabicum؛ موجود فى جبال القراوين.

٣٠- الفصيل الذى يحمل الاسم Schistocerca gregaria الذى اكتشفه (فورسك)؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العبرية. وهذا هو ما يسمى جرادة الصحراء، أو جرادة الإنجيل.

٣١- الفصيل الذى يحمل الاسم Patanga Succincta؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية. وهو نوع شائع فى الهند، لم يجْرِ قط العثور عليه فى الغرب.

٣٢- النوع الذى يحمل الاسم Catantops؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية. وهو نوع أفريقى.

٣٣- النوع الذى يحمل الاسم Catalopus؛ موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية، وينتمى إلى رتبة أفريقية.

٣٤- الفصيل الذى يحمل الاسم Thisioncetr us Continuus، الذى اكتشفه (وُلْك)؛ وهو موجود فى صحراء جنوب الجزيرة العربية، ولم يسجل من قبل إلا فى شبه جزيرة سيناء وفلسطين.

٣٥- النوع الذى يحمل Euprepocnemis ؛ وهو موجود فى جنوب الجزيرة العربية، وهو نوع هندى، ولم يجرِ تسجيله من قبل فى غرب البنجاب.

٣٦- الفصيل الذى اكتشفه (ولك) ويحمل الاسم Acorypha glaucopsis؛ وهو موجود فى صحراء فى جنوب الجزيرة العربية؛ وهو نوع هندى أيضًا.

من هنا يتضح لنا أنه من بين إجمالى سبعة وثلاثين نوعًا، هناك ما لا يقل عن سبعة أنواع جديدة على العلم، وهناك احتمال أيضًا بإضافة نوعين أو ثلاثة، لم يتم تحديد مصيرها بعد. يزاد على ذلك أن اكتشاف جيل جديد من الجنادب يجعل النتائج العلمية للبعثة جديرة بالاهتمام، وبخاصة ما يتعلق بهذه المجموعة من الحشرات بصفة خاصة.

(هـ) اليعاسيب (*) بقلم: الآنسة: سى. لونجفيلد.

جرى من بين العينات الاثنتين والستين، تسجيل وتحديد تسعة أنواع؛ هى: النوع رقم ٦ الذى يحمل الاسم Libellulinae ، والنوع الذى يحمل الرقم ١ ويطلق عليه الاسم Coenagrionine ؛ وكذلك النوع الذى يحمل الاسم Aeschnnine ورقمه أيضًا، وهذه الأنواع كلها أنواع أفريقية شائعة، يضاف إلى ذلك نوع جديد يحمل الاسم Urothemis.

١- الفصيل الذى اكتشفه (كيربى) ويحمل الاسم Pseudo macromia torrida ؛ وهو مكون من ٣ ذكور وأنثى واحدة. وهو موجود فى ملوة العود. وجرى الحصول على هذه العينة فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. ومن عين الرزَّات فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أكتوبر. وهو موجود فى الجنوب، وفى غرب وشرق

(*) يصح فيه أيضًا "الرُّمانات". (المترجم).

أفريقيا. وأبعاد هذه العينات الأربع الصغيرة، وأجنحة هذه العينة فى الجنسين شديدة الاصفرار بشكل ملحوظ.

٢- النوع الذى يحمل الاسم Pantala Flavescens الذى اكتشفه (فابر). والعينة عبارة عن ذكر واحد وأنثى واحدة؛ وقد عُثر على هذه العينة فى سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر. وهو يكاد يكون شائعًا فى العالم كله.

٣- النوع الذى يحمل الاسم Trithemis annulata والذى اكتشفه (بوف). والعينة مكونة من ١٢ ذكرًا، وأنثى واحدة. وجىء بهذه العينة من ملوة العود، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر؛ ومن عين الرزَّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر، ومن سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن خيوت فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. ويشيع هذا النوع فى شمال وشرق أفريقيا وفى الجزيرة العربية.

٤- النوع الذى يحمل الاسم Croco themis eryth raea الذى اكتشفه (بدوله). العينة مكونة من ١٠ ذكور، ٥ إناث. وجرى الحصول على العينة من ربالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر؛ ومن عين (فى جبال القراوين) فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر، ومن خيونت، فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. هذا النوع له مألف كبير فى جنوب أوروبا، وكل أفريقيا، وأجزاء من آسيا.

٥- النوع الذى يحمل الاسم Orthetrumc hrysodotigma الذى اكتشفه (بروم). (العينة مكونة من ١٣ ذكرًا، ٨ إناث. جرى الحصول على العينة من عين الرزَّات فى اليوم الأول من شهر نوفمبر، ومن سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن عين فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر. ومن خيوت، فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر واليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر أيضًا، وفى اليوم الثالث عشر من نوفمبر أيضًا، ومن ملوة العود، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. ومن عين فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. وهذا النوع له مألف واسع فى جنوب أوروبا وأفريقيا.

٦- النوع الذى يحمل الاسم Diplaco des lefebvrei والذى اكتشفه (رامب). العينة مكونة من ٢ ذَكَرَيْن جرى الحصول عليهما من سهالنوت فى اليوم الرابع من نوفمبر. وله مألف كبير فى أفريقيا والجزيرة العربية.

٧- النوع الذى يحمل الاسم Hemianax elhippiger الذى اكتشفه (بورم). العينة مكونة من ذَكَرين جرى الحصول عليها من سهالنوت فى اليوم الرابع من شهر نوفمبر، ومن فراجه (سنام) فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يناير. وجرى العثور أيضًا على هذا النوع فى شمال وشرق أفريقيا، وفى الجزيرة العربية، وفى بلاد فارس، وفى شمال الهند.

٨- النوع الذى يحمل الاسم Ceriagrion glabrum الذى اكتشفه (بورم) - العينة مكونة من ٣ ذكور، أُنثيين. جرى الحصول على العينة من خيوت فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر، وفى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر، وفى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر. ومألف هذا النوع واسع فى شمال، وشرق، وغرب أفريقيا. أجنحة هذه العينات العربية الخمس شديدة الاصفرار أكثر من اللازم.

٩- النوع الذى يحمل الاسم Urothemis. العينة مكونة من ذَكَر واحد وجرى الحصول عليها من عين الرزَّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر.

(و) البَقُّ. بقلم: و. إى.شينا.

تحتوى المجموعة على إحدى عشرة بَقَّة تمثل عشرة أنواع وأجيال. ومن بين هذه الأنواع أنواع جديدة تمامًا، وثلاثة منها واسعة التوزع فى إقليم إرميان الفرعى، وواحد من هذه الأنواع الثلاثة واسع التوزع مسجل فقط من تركومانيا، والنوعان الآخران من أصل هندى، وهناك نوع واسعة التوزع فى المناطق والأقاليم الإثيوبية والشرقية وواسع التوزع أيضًا فى الإقليم الفرعى من البحر الأبيض المتوسط. وجرى من قبل أيضًا تسجيل نوعين إرميين من الجزيرة العربية، ومنهما نوع واحد يمتد توزعه إلى الإقليم الشبيه بإقليم البحر المتوسط.

وبشكل عام، تنطوى المجموعة على اعتقاد مفاده أن الجزيرة العربية تشكل من الناحية الحيوانية جزءًا من الإقليم الشبيه بالإقليم الإرميانى الذى يمتد من السنغال وشمال نيجيريا فى الغرب، عبر الصحراء الكبرى ليصل إلى السودان، ويمتد عبر الجزيرة العربية ليصل إلى بلاد فارس وإلى البنجاب وتركستان. وهذه المجموعة ليس فيها دليل على وجود عنصر إثيوبى حقيقى فى الحياة الحيوانية فى الجزيرة العربية.

١- النوع الذى يحمل الاسم Macroscgtus brunneus ، وجرى تسجيله فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. الاسم المحلى لهذا النوع من البق هوAdhayrite . وهذا النوع له توزع كبير فى إقليم البحر المتوسط، وفى إثيوبيا والأقاليم الشرقية أيضًا.

٢- النوع الذى يحمل الاسم Cydnus ؛ وهو موجود فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، وقد عُثر عليه فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر، واسمه المحلى Adhayrite.

٣- النوع الذى يطلق عليه الاسم Amauro Coris Orbicularis واكتشفه (جاك). عثر عليه فى حض المرازيق، على ارتفاع ٥٧٠ قدمًا، فى اليوم السابع عشر من شهر يناير. لم يُسجل إلا من تركمانيا فقط.

٤- النوع الذى يحمل الاسم Chroantha Ornatula عثر عليه فى باحة الجمل على ارتفاع ٥٥٠ قدمًا، فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير. وعثر عليه فى حض المرازيق، على ارتفاع ٥٧٠ قدمًا فى اليوم السابع عشر من شهر يناير. وهو مسجل من إسبانيا، ومن دلماتيا، ومن جزيرة صقلية، واليونان، الجزائر، تونس، مصر، سوريا، بلاد فارس، تركمانيا ومن الجزيرة العربية.

٥- النوع الذى يحمل الاسم Adria Parvula ، والذى اكتشفه (دال) فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. والاسم المحلى لهذه الحشرة هو Adhayrite. وهو مسجل من شمال الهند وجنوب بلاد فارس.

٦- النوع الذى يحمل الاسم Carbula insocia ، والذى اكتشفه (وُلْك) Walk فى فوزه على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. والاسم المحلى لهذه الحشرة هو Adhay rite. وهو مسجل من الهند أى من شمال الهند وجنوب الهند.

٧- النوع الذى يحمل الاسم Centrocoris ، والذى اكتشفه (بوت) Put فى صواحيب على ارتفاع ٦٠٠ قدم، فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير؛ واسمه المحلى Tassaigh.

٨- النوع الذى يحمل الاسم Cosmopleurus Fulvipes، ، والذى اكتشفه (دال) Dall فى حمر العين ابن جنين، فى اليوم الحادى والعشرين من شهر ديسمبر؛ كما

اكتُشف أيضًا فى سدَّة الهرشة، على ارتفاع ٩٠٠ قدم؛ وهو مسجل من كل من الصحراء الجزائرية، مصر، السودان، النوبة، وبلاد فارس.

٩- النوع الذى يحمل الاسم Dieuches وجرى اكتشافه فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدم، فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر. اسمه المحلى Diga-dig. وتوجد منه مجموعة فى المتحف البريطانى وهى عبارة عن عينات من بلاد الرافدين.

١٠- النوع الذى يحمل الاسم Laccotrephes Fabricii ، والذى اكتشفه (ستال) فى عين الرزَّات فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر. اسمه المحلى Sinor-tami قط الماء). وهو مسجل من الجزيرة العربية، السويس، السودان، الحبشة، والسنغال. ويرجح أن يكون مسجلاً أيضًا من شرق أفريقيا، جنوب أفريقيا ومن الهند أيضًا.

(ز) الفراشات بقلم: النقيب ن.د. رايلى.

جرى إحضار خمسة عشر نوعًا من الفراش، اثنان منها جديدان على العلم، وينتميان إلى الجيل الذى يحمل الاسم Charaxes وهذه الأنواع أفريقية تمامًا من حيث القرابات، وذلك فى ضوء التحليل التالى:

(أ) أنواع موجودة فى سائر أنحاء أفريقيا:

١- أنواع فى أستراليا:

Danais Chrysippus

Prcis Orithya

٢- أنواع فى الهند:

Teracolus Calais (هندى فقط)

Teracolusdanae (الهند وسيلان)

Aznusjesous (الهند، سيلان، بورما)

٣- أنواع غير موجودة فى شرق أفريقيا:

Charaxes Varanes betrami

Leuceronia buquetti

Herpaenia eriphia
Sarangesa eliminata
Myrina Silenus

ب) أنواع موجودة فقط فى إقليم السفانا الإفريقى (من غرب إفريقيا إلى السودان، الصومال، إلخ):

Chaxaxes hamsali arabice
Teracolus evarne

جـ) أنواع البحر الأبيض المتوسط)

Tarucus theophrasus (يصل إلى الهند أيضًا)
Aphritis myrmecophila (معروف فقط فى تونس وشرق الأردن)

(د) نوع عالمى تقريبًا

Pyrameis Cardui

تعد مسألة غياب الأنواع المحددة التى جاء بها شيزمان من الهفوف بالإضافة إلى عينات أخرى موجودة فى منطقة عدن مَعْلمًا بارزًا، لكن جمع المزيد من العينات ربما يلقى الضوء على هذه الأنواع. تمثل أبرز ما توصل إليه الرائد شيزمان فى الهفوف، فى الحصول على نوعين من الأنواع القطبية القديمة التى تحمل الاسم Papilio machaon (ذيل الخُطَّاف)، والاسم Colias Croceus (الأصفر السنجابى)، ولكن النقيب برترام توماس لم يحضر أيًا من هذين النوعين. وهناك أنواع أخرى عديدة، وبخاصة النوع الذى يحمل الاسم Cilrus– وكذلك النوع الذى يحمل الاسم Papilio demoleus، هذان النوعان شائعان فى مسقط، وربما كان ذلك أمرًا متوقعًا.

على الجانب الآخر، فإن وجود بعض الأعداد من هذين النوعين: النوع الذى يحمل الاسم Charaxes والنوع الذى يحمل الاسم Myrina Silenus ، يُعد أمرًا غير متوقع أو منتظر. هذه الأنواع الثلاثة هى حشرات أفريقية بحق، اللهم باستثناء النوع Myrina الذى جرى تسجيله فى أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية منذ ذلك الحين.

هذه المجموعة هى والمجموعة الأصغر منها التى أحضرها السيد/ برترام توماس من الرحلة التى قام بها إلى الصحراء الموجودة فى الشمال الشرقى من

صلالة، والتى نورد هنا تفاصيلها، توضح أن الإقليم الساحلى، فى أضعف الأحوال، من جنوب الجزيرة العربية، وبخاصة فيما يتعلق بالفراشات، هما جزءان أصيلان من إقليم الحياة الحيوانية الإثيوبية.

يضاف إلى ذلك أن الفراشة الوحيدة التى جرى إحضارها من الصحراء الجنوبية هى بحد ذاتها تلك الفراشة صغيرة الحجم التى يطلق عليها اسم Ly-canid والتى تحمل الاسم العلمى Apharitis myrmecophila والتى اكتشفها (دومونت)، وهذا النوع ينتمى إلى الإقليم الفرعى من البحر المتوسط، وهذا الإقليم الفرعى يعد أهم عنصر بعد العنصر الأول فى الحياة الحيوانية. لا يوجد فى الوقت الحالى أية اشتقاقات شرقية. هناك العديد من الروايات الخاصة بفراشات عدن (التى اكتشفها بتلر، أ.ج. فى العام ١٨٨٤ والعام ١٨٨٦ ، إلخ). لكن المعالجة الشاملة لفراشات جنوب الجزيرة العربية، التى تحمل العنوان lepdoptera والتى نشرتها ربل Rebel فى العدد رقم ٧١- صدرت فى العام ١٩٠٧ على شكل مطبوعة مستقلة.

العائلة التى تحمل الاسم Danaidae

النوع الذى يحمل الاسم Danaida Chrysippus

١- هذا النوع ذكر موجود فى عين الرزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، وقد اكتُشف فى ١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٠٤).

٢- أنثى موجودة فى متسيب، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتُشفت فى ٥- ١١- ١٩٣٠ (الأعداد ١٦٨ و ١٦٩).

٣- أنثى موجودة فى خيونت، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتشفت فى ١١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٣٢).

٤- هذا النوع ذكر و٣ إناث موجودة فى طريق حميرار، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتشف بتاريخ ١٤- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٩١ - ٢٣٢).

٥- هذا النوع ذكر موجود فى عين، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، وقد اكتشف فى ١٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٣٦).

١- هذا النوع الذكر موجود فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، وقد اكتشف فى ١٧-١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٥٤).

هذه السلسلة مكونة من ٧ ذكور و٥ إناث وكلها تندرج تحت الاسم F. chrysip-pus ومنها أيضًا ٣ ذكور وأنثى واحدة وجميعها تندرج تحت النوع الذى يحمل الاسم F.dorippus. هذا النوع الأخير هو النوع السائد فى الأقاليم الجرداء. هذا النوع موجود فى سائر أنحاء أفريقيا وجنوب آسيا ويصل مألفه إلى الشرق الأقصى وأستراليا، وهو شائع فى كل مكان.

العائلة التى تحمل الاسم Nympbalidae

النوع الذى يحمل الاسم Pyrameis Cardui

هذا الفصيل عبارة عن أنثى جرى العثور عليها فى عين، فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، وقد اكتشفت فى ٩- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢١٢). وهذا الفصيل يكاد يكون عالميًا. والعينة الوحيدة التى جرى الحصول عليها صغيرة بشكل غير عادى.

النوع الذى يحمل الاسم Precis

* عينة أنثى جرى العثور عليها فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، وقد اكتشفت هذه العينة فى ٣٠- ١٠- ١٩٣٠ (الرقم ٣٥).

* عينة ذكر عثر عليها فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥ قدمًا، بتاريخ ١- ١١- ١٩٣٠ (الرقم ١٠٦).

* عينة أنثى، عثر عليها فى سهالنوت، على ارتفاع ٣٥٠ قدمًا، بتاريخ ٤- ١١- ١٩٣٠ (الرقم ١٤١).

* عينة أنثى، عثر عليها فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ٨- ١١- ١٩٣٠ (الرقم ١٩٨).

من سوء الطالع أن هذه العينات الأربع كانت بحالة سيئة يصعب معها تحديد الفصائل التى تنتمى إليها. يضاف إلى ذلك، أن هذه العينات الأربع مميزة بشكل واضح عن الفصائل الأفريقية التى تحمل الاسم boopis ، وقد اكتشفها (ترايمن)،

ونحن نستدل عليها من الفصائل المنعزلة الشيزمانية التى اكتشفها (رايلى) ولا نصادفها إلى يومنا هذا، إلا فى واحة الهفوف. ويبدو أن هذه العينات تتفق إلى أبعد حد ممكن مع الفصائل المذكورة هنا والتى اكتشفها (لانج)، والتى تنتشر فى سائر أنحاء بلاد الرافدين؛ والذى لا شك فيه أن هناك بعض العينات الواردة من عدن، ويمكن عزوها إلى هذه العينات.

* النوع الذى يحمل الاسم P.Orithya له مألف يمتد من غرب أفريقيا إلى أستراليا؛ ويبدو أيضًا أن القرابات التى تربط عينات جنوب الجزيرة العربية تتجه نحو الفصيل الموجود فى إقليم البحر المتوسط الفرعى، أكثر منها نحو الفصيل الأفريقى أو الفصيل الشرقى.

* النوع الذى يحمل الاسم Charaxes Varaned betrami والذى اكتشفه (رايلى)، (وانتوم فى العام ١٩٣١، ٦٤ ، ٢٧٩).

* كانت العينة التى جرى اكتشافها فى (عين) فى وادى آربوت، على ارتفاع ٥٠٠ قدم، بتاريخ ١٤- ١١- ١٩٣٠مكونة من ٣ ذكور (الأعداد ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣١٢)، وجرى اكتشاف عينة أخرى مكونة من ذكر واحد، بتاريخ ١٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٣٧).

* العينة التى جرى اكتشافها فى جرجاز، شمال شرق صلالة، على ارتفاع ٤٠٠ قدم، بتاريخ ١١ - ١ - ١٩٣٠ وكانت مكونة من ذكر واحد.

هذه الفصائل التى تندرج تحت النوع الذى يحمل الاسم Ch.varanes يمكن، وعلى وجه السرعة، تمييزها عن كل الفصائل الأخرى من منطلق أن الجناح الأمامى لونه أصفر مُسْمِرّ تمامًا؛ ليست فيه البقعة؛ هذا يعنى أن هذا الجناح الأمامى ليست فيه البقعةِ البيضاء الشائعة فى هذه الفصائل. وفى الجناح الخلفى أيضًا نجد أن البقعة البيضاء الأساسية صغيرة جدًا من حيث الحجم ولا تمتد إلى خارج وحدة الجسم، وذلك باستثناء الهامش الداخلى، ويقل وضوح هذه البقعة عند الضلع. وفى الجناح الأمامى نجد أن البقع الصفراء المُسمِرّة الشاحبة التى تشكل الصفوف الهامشية وشبه الهامشية (بصفة خاصة) على الجناح الأمامى، ويزداد شُحوب هذه البقع وبذلك تصبح أكثر وضوحًا عنها فى الفصائل الأخرى، يضاف إلى ذلك أن هوامش الأجنحة مسنَّنة تسنُّنًا شديدًا.

ونلاحظ أيضًا أن الجانب العلوى فى هذا الفصيل الجديد المهم، اللهم باستثناء بقعة الجناح الخلفى، شديد الشبه ببقعة السوقطران الذى يندرج تحت النوع الذى يحمل الاسم Ch.balfouri الذى اكتشفه (بتلر)؛ ونلاحظ هنا أيضًا أن الأسطح التحتية مختلفة تمامًا، بطبيعة الحال.

وهذا يدل على أن هذين النوعين مرتبطان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا.

النوع الذى يحمل الاسم Ch. Varanes موجود فى سائر أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، لكنه لم يسجل إلى الآن من أى جزء من أجزاء الجزيرة العربية.

لم يعد يتبقى لدينا سوى القليل عن الأنثى الوحيدة التى جاء بها السيد/ برترام توماس (فى رحلته السابقة)، الأمر الذى يجعلنى أتردد فى وصف هذه الأنثى؛ ويبدو أن هذه الأنثى تختلف فى سماتها وخصائها مطلقًا، عن الذكر.

النوع الذى اكتشفه (رايلى) ويحمل الاسم Charaxes hanali arabica.

* العينة مكونة من ستة ذكور وثلاثة إناث. عُثر على هذه العينة فى طريق الحميرار، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ١٢- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤)؛ واكتشفت أيضًا فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، بتاريخ ١٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٤٠)؛ واكتشف أيضًا فى سهالنوت، على ارتفاع ٣٥٠ قدمًا، بتاريخ ٤- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٤١)، واكتشفت أيضًا فى سعارين، على ارتفاع ١٤٠٠ قدم، بتاريخ ٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٧٠)، وجرى اكتشافها أيضًا فى العين، فى جبال القراوين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، بتاريخ ٩- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢١١)؛ واكتشفت أيضًا فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، بتاريخ ١١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٣١)؛ واكتشف أيضًا فى جوثرينوت، على ارتفاع ٢٩٥٠ قدمًا، بتاريخ ١١- ٢- ١٩٣٠.

العينة ذكر وأنثى. أصغر من النوع الذى يحمل الاسم hansali ، وهى أدكن من هذا النوع، ولها شرايط ضيقة شاحبة. وفى الجانب العلوى نجد أن الإثلاث الأساسية فى كل من الجناحين الأمامى والخلفى ليست خليطًا من البنى- الرمادى، لكنها سوداء مثل اللون الأرضى المتبقى، ولا توجد بقعة سوداء شاحبة

عند طرف الجناح الأمامى. وعلى الجناحين نجد أن الشريط الأصفر يزيد على النصف من حيث العرض كما هو الحال فى النوع الذى يحمل الاسم hansali، ونجد الجناح الأمامى يغلب عليه بشكل ملحوظ أن يكون على شكل بقع- وفى الجانب التحتى، نجد أن العلامات الدكناء التى هى على شكل دوائر بيضاء فى المناطق القريبة من محور الجسد تعد أصغر، وبدلاً من لونها الزيتونى الغامق أو الرمادى الغامق، نجد أن هذه العلامات سوداء تمامًا؛ ونجد أيضًا أن الحد الواسع الهامشى الموجود فى الجناح الخلفى يصبح لونه زيتونيًا غامقًا (اللهم باستثناء العلامات والسمات المعتادة) وله انعكاسات أرجوانية قوية، وخالٍ من الحد الداخلى بنى اللون القريب من لون الكاكاو، الموجود فى النوع الذى يحمل الاسم hansali ، وأيضًا فى الفصائل الفرعية التى تندرج تحت الاسم baringana، ذلك النوع الذى اكتشفه (روث).

ونحن نجد أن هذه العينات، باستثناء هذه الأنماط، كلها بحالة يُرثى لها.

النوع الذى يحمل الاسم Ch.hamsali الذى اكتشفه (فيلدر) مألفه محدود جدًا، وهو لا يُعْرَفُ إلا فى الحبشة، الصومال، جنوب السودان، والأجزاء الشمالية من كينيا. هذا النوع هو والنوع السابق، يشكلان أول نوعين من العائلة التى تحمل الاسم Charaxes ومسجلان من الجزيرة العربية.

العائلة التى تحمل الاسم Pieridae

النوع الذى اكتشفه (كرَّام) ويحمل الاسم Teracolus Calais Calais

العينة مكونة من أنثى واحدة (العدد ٥٨)، جرى اكتشافها فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، بتاريخ ٣١- ١٠- ١٩٣٠.

هذه الأنثى الوحيدة تالفة بدرجة كبيرة، ومع ذلك فهى تنتمى بصورة قاطعة إلى الفصائل الأفريقية ولا تنتمى إلى الفصيل الذى يحمل الاسم T.Calais Carni-fer الذى اكتشفه (بتلر)، والذى يسكن المناطق الساحلية حول الخليج الفارسى وتمتد شرقًا إلى بلاد السند، والفصيل الأصيل الذى يحمل الاسم Calais يشيع وجوده فى عدن، على طول الشواطئ الجنوبية للبحر الأحمر وفى أجزاء كثيرة من أفريقيا.

عينة الفصيل الذى يحمل الاسم Teracolus danae eupompe والذى اكتشفه (كلوج). العينة مكونة من:

* ثلاثة ذكور، عُثِر عليها فى فضول، على ارتفاع ١٢٠ قدمًا، فى يوم ١٨- ١١- ١٩٣٠ (٣٨٠، ٣٨٦)، وفى يوم ١٩- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٤٠٢).

* ذكران، جرى العثور عليهما فى وادى نهاز، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى يوم ١٨- ١١- ١٩٣٠ (العددان ٣٦٤ و ٣٦٥).

* ذكر واحد، أُحضر من صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى يوم ٢٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٤١٦).

* أنثى واحدة، عثر عليها فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى يوم ١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٠٩).

ورد فى الرواية الأوَّلية عن هذه العينات (والتى نشرت فى الدورية الجغرافية، ١٩٣١، ص ٧٨ و ٢٣٢)، ومعروف أن هذه الرواية كُتِبت قبل تحديد ماهية هذه العينات، أن هذه العينات كَشَفَتْ عن قرابة وثيقة بالفصيل الهندى الذى يحمل الاسم danae ، لكن الفحص الدقيق لهذه العينات لم يؤكد ذلك- ذلك أن شكل وحجم البقعة الفوقية الحمراء، الموجودة على الجناح الأمامى، تبدو وكأنها أفضل مرشد إلى القرابة العرقية، التى تتمثل فى هذه العينات التالفة إلى حد ما، وتربط هذه العينات بالفصيل الذى يحمل الاسم eupompe فى غرب الجزيرة العربية وإقليم البحر الأحمر.

هذا النوع موجود فى سائر أنحاء أفريقيا (جنوب الصحراء الكبرى) ويمتد شرقًا خلال غربى الهند إلى جزيرة سيلان.

الفصيل الذى اكتشفه (كلوج) ويحمل الاسم Teracolus evarne، كانت العينة مكونة من:

* ذكر واحد، جرى إحضاره من ملوة العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، فى يوم ٣٠- ١٠- ١٩٣٠ (٣٤).

* ذكر واحد وأُنثَيان ، جرى الحصول عليهما من عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا فى يوم ٣١- ١٠- ١٩٣٠، وفى يوم ١- ١١- ١٩٣٠ (جرى الحصول على أنثى واحدة). (٤٨، ٤٩، ١٠٨).

* ١٦ ذكرًا و٦ إناث: جرى الحصول عليها من فضول ووادى نهاز، على ارتفاع ١٥٠- ٢٥٠ قدمًا، فى يوم ١٨- ١٩ من شهر ١١ من العام ١٩٣٠).

(٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٦، ٣٧١- ٧٩، ٣٨١-٥ ، ٣٨٧، ٤٠٠-١، ٤٠٣-٤).

كل هذه العينات صغيرة وشاحبة بشكل مميز وواضح. وإذا ما نَحَّينا مسألة الحجم جانبًا نجد أن هذه العينات تتفق إلى أبعد حد ممكن مع ذلك الشكل الذى وصفه بتلر بأنه ينتمى إلى الاسم phillipsi ، من منطلق أن هذا الفصيل أقل بروزًا عن الفصيل الذى يحمل الاسم evarne، لكن هذا الفصيل يكاد يكون غير مُرَقَّط مثل الفصيل أو الشكل الذى اكتشفه (بتلر) ويندرج تحت الاسم Citreus.

هذا النوع لا يوجد سوى فى شمال شرق أفريقيا، فهو شائع فى مستعمرة كينيا، وفى الحبشة، السودان، وفى الصومال أيضًا، لكنه حتى الآن لم يسجل سوى مرة واحدة، فى الجزيرة العربية، وبالتحديد بواسطة ربل Rebel الذى حصل على عيناته من رأس مرتك فى شهر مارس. ويغيب هذا النوع بشكل واضح عن منطقة عدن، لكن الرائد فيلبى حصل على بعض أفراد هذا النوع من جدة فى شهر ديسمبر.

النوع الذى يحمل الاسم Herpaenia eriphia الذى اكتشفه (جودت)، الفصيل أو الشكل الذى يحمل الاسم tritogenia والذى اكتشفه (كلوج).

* العينة عبارة عن أنثى واحدة، جرى الحصول عليها من وادى نهاز، فى جبال القراوين، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا؛ وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من شهر نوفمبر من العام ١٩٣٠ (العدد ٣٦٠).

جاء كلوج بعيناته التى تندرج تحت الفصيل الذى يحمل الاسم tritogenia من منطقة آمبكهول على النيل. لم يكن هذا النوع حتى ذلك الوقت قد سُجل من الجزيرة العربية، ومع ذلك فنحن منذ فترة قصيرة جدًا رأينا أن قائد السرب أى. ب. سى. بتس Betts عثر على هذا الفصيل فى ضالة وفى السودان الواقعتين إلى الشمال من عدن، وأن هذا الفصيل كان من الشكل الذى عثر عليه السيد/ برترام توماس فى جبال القراوين- ويشيع وجود هذا الفصيل فى سائر أنحاء أفريقيا اللهم باستثناء مناطق الغابات المطيرة الاستوائية.

النوع الذى يحمل الاسم Leuceronia buqueti arabica، الذى اكتشفه (هوبف).

جاءت العينة على النحو التالى:

* ذكر واحد، جرى اكتشافه فى وادى آربوت، على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم، فى يوم ١٤- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٢٢).

* ذكر واحد، جرى العثور عليه فى فضول، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، فى يوم ١٥- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٣٥).

* أنثى واحدة، جرى العثور عليها فى وادى نهاز، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، فى يوم ١٨- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٦٣).

النوع الذى يحمل الاسم Leuceron ia buqueti موجود فى سائر أنحاء أفريقيا فى المنطقة جنوب الصحراء الكبرى، باستثناء مناطق الغابات المطيرة، وقد سُجل هذا النوع فى الجزيرة العربية من منطقة عدن، ومن جدل الشيش على الطريق المؤدية من با الحوف إلى عزَّان فى حضرموت.

النوع الذى يحمل الاسم Lycaenidae

النوع الذى يحمل الاسم Tarucus theophrastus

جاءت العينة على النحو التالى:

* ٣ ذكور وأُنثَيان: عثر عليها فى ملوة العود على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، فى يوم ٣٠- ١٠- ١٩٣٠ (العدد ٣٢)، وعثر عليها أيضًا فى عين الرزَّات على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، فى يوم ٣١- ١٠- ٣٠ (العددان٥٣، ٥٤)، وعثر عليها أيضًا فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، فى يوم ١١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٥٨)؛ ومن فضول، على ارتفاع ١٢٠ قدمًا، يوم ١٨- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٣٧٠).

هذا بكل تأكيد نوع من أنواع البحر الأبيض المتوسط، ويمتد مألف هذا النوع إلى الحبشة، الصومال، عدن، ويمتد أيضًا إلى الهند. ويقوم تعرف هذا النوع وتحديده على دراسة وفحص الأعضاء التناسلية للذكور الثلاثة.

الفصيل الذى يحمل الاسم Azanus Jesous ، الذى اكتشفه (جوير).

جاءت العينة على النحو التالى:

* ٣ ذكور وأُنثَيان، جرى العثور عليها فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى يوم ٣١- ١٠- ١٩٣٠/ ١- ١١- ١٩٣٠ (الأعداد ١٥، ٥٦، ٦٠، ٦١، ١٠٧).

هذ النوع أصيل، ويمتد مألفه فى كل أنحاء أفريقيا وجزء كبير من جنوب آسيا؛ وهذا النوع موجود أيضًا فى أجزاء من إقليم البحر الأبيض المتوسط، أى فى سوريا على وجه التحديد، ويشيع وجوده أيضًا فى عدن.

الفصيل الذى يحمل الاسم Apharitis myrmecophila ، الذى اكتشفه (دومونت).

جاءت العينة على النحو التالى:

* أنثى واحدة، جرى العثور عليها فى شنَّاء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى يوم ٨- ١- ١٩٣١ (العدد ٤٥٨).

هذه هى الفراشة الوحيدة التى جرى الحصول عليها من الربع الخالى. وهذه الفراشة تنتمى بكل تأكيد إلى النوع الذى يعيش فى الصحراء، والنوع الذى تمثله هذه الفراشة لم يجْرِ تسجيله إلى يومنا هذا إلا من المناطق الرملية الجرداء فى كل من تونس وشرق الأردن. وقد صادف دومونت هذه الفراشة أول مرة من العام ١٩١٩ فى المنطقة سالفة الذكر، فقد عثر دومونت على يرقة هذه الفراشة وهى تتغذى أثناء الليل على النوع الذى يحمل الاسم Caligonum Como-sum الذى اكتشفه لوهريت (L'herit) فى حين ترتاح هذه اليرقة أثناء النهار فى الممرات الموجودة حول الجذور، والتى يشكلها النمل الذى يطلق عليه اسم Catogly-phia bicolor الذى اكتشفه (لوهريت)، وكذلك النمل الذى يحمل الاسم auberti Cremastogaster والذى يبدو أنه يعتنى بهذه اليرقات عناية فائقة وحريصة. وقد تمكن النقيب برترام توماس من الحصول على فصيل من النوع الذى يحمل الاسم Cremastogaster من باحة الجمل، فى الربع الخالى، فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير.

النوع الذى يحمل الاسم Myrina silenus

جاءت العينة على النحو التالى:

* سبعة ذكور وأُنثَيان، جرى العثور عليها فى ملوة العود على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، فى يوم ٣٠- ١٠- ١٩٣٠ (العدد ٣٢)، وعثر عليها أيضًا فى عين الرزَّات على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، يوم ٣١- ١٠- ١٩٣٠ (الأعداد ٥٠، ٥٢، ٥٥، ٥٩)؛ فى ١- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٠٥)، وعثر عليها أيضًا فى عين (جبال القراوين)، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى يوم ٨- ١١- ١٩٣٠ (العدد ١٩٩)، وعثر عليها أيضًا فى العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، يوم ١٠- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٢٥)، كما عثر عليها أيضًا فى خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا؛ يوم ١٣- ١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٥٦).

هذا النوع موزع فى سائر أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فى كل من المناطق الجافة والمناطق الرطبة (المبتلة). وهذا النوع ليس معروفًا فى عدن، لكن الشكوك ضئيلة جدًا فى مسألة إبلاغ (ربل) عن وجود النوع الذى يحمل الاسم Myrina Ficedula (الذى اكتشفه ترايمن)، هو نوع وثيق الصلة بهذا النوع، الموجود فى رأس فرتك على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، وإن هذا النوع مؤسس أصلاً على النوع الذى يحمل الاسم Myrina Ficedula – وهذا هو ربل Rebel يلفت الانتباه إلى الشكل المحصور فى المنطقة من الجانب العلوى من الجناح الخلفى فى الذكر، يعد مَعْلمًا، هو فى واقع الأمر أسهل وسيلة يمكن بها تمييز النوع M.silenus عن النوع M.ficedula فى هذا الجنس. ومن سوء الطالع أن أجنحة الإناث الوحيدة التى جاء بها السيد برترام توماس، كلها مجرَّدة من الحراشف.

النوع الذى يحمل الاسم : Hesperiidae

الفصيل الذى يحمل الاسم Sarangesa eliminata، الذى اكتشفه (هُول).

جاءت العينة على النحو التالى:

* أنثى واحدة، جرى الحصول عليها من خيونت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، فى يوم ١٣-١١- ١٩٣٠ (العدد ٢٧١).

هذا النوع موجود فى سائر أنحاء المناطق الأكثر جفافًا فى أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. وهذا النوع معروف فى عدن من الجزيرة العربية، ومعروف أيضًا فى رأس فرتك وبعض الأجزاء القليلة الأخرى من الإقليم الساحلى الجنوبى. العينات العربية (المغاير الذى يحمل الاسم) deserticola (الذى اكتشفه (ربل)) لا يمكن تمييزها عن النوع الذى يحمل الاسم eliminata (الذى اكتشفه هول Holl).

(ح) صنوف العُثَّة بقلم: و. هـ . ث . تامز

تشمل صنوف العُثَّة العديدة مثل الفراشات على ما يلى:

* النوع الذى يحمل الاسم Euproctis.
* النوع الذى يحمل الاسم Bryophilopsis tarachoides ، الذى اكتشفه (ماب).
* النوع الذى يحمل الاسم Arcyophara lomgivalvis ،الذى اكتشفه (جوين).
* النوع الذى يحمل الاسم Achaea Catella ،الذى اكتشفه (جوين).
* النوع الذى يحمل الاسم Pandesma anysa ،الذى اكتشفه (جوين).
* النوع الذى يحمل الاسم Anumeta Sestis ،الذى اكتشفه (منيت).
* النوع الذى يحمل الاسم Anumeta hilgerti ،الذى اكتشفه (روتش).
* النوع الذى يحمل الاسم Somatina Virginalis ،الذى اكتشفه (بروت).
* النوع الذى يحمل الاسم Cossus Cheesmani ،الذى اكتشفه (تامز).
* النوع الذى يحمل الاسم Zygaena Simonyi ،الذى اكتشفه (ربل).
* النوع الذى يحمل الاسم Ommatopteryx ocellea ،الذى اكتشفه (هاو).
* النوع الذى يحمل الاسم Bradina admixtalis ،الذى اكتشفه (ووكر).

ترتبط صنوف العُثَّة مثل الفراشات، ارتباطًا وثيقًا بالحياة الحيوانية الأفريقية أكثر من الحياة الحيوانية الشرقية.

(ط) الخنافس بقلم: ك. ج. بلير

وصل عدد الخنافس التى جمعها السيد/ برترام توماس إلى قرابة ثلاث وخمسين عينة موزعة على خمسة وعشرين نوعًا، كما سيتضح فيما بعد. ينتمى أكثر من نصف هذا العدد إلى العائلة الأساسية فى الحياة الحيوانية الصحراوية والتى يطلق عليها الاسم Tenebrionidae. هذه العينات، فى معظمها، عبارة عن حشرات كبيرة الحجم سوداء اللون كلها، وعلى الرغم من أن بعض هذه الحشرات تدفن نفسها فى الرمل أثناء النهار أو تختفى تحت الأحجار والكتل الأرضية، فإن

الكثير من هذه الحشرات تجرى بسرعة كبيرة فى ضوء الشمس شديد الحرارة[١]. وهنا نقول إن لون الجسم يختفى فى عدد قليل جدًا من هذه الحشرات، وقد يتحول ذلك اللون الأسود بفعل الأكسدة إلى اللون الأبيض الذى يغطى سطح جسم الحشرة كله، كما هو الحال فى الحشرات التى يطلق عليها الاسم Leucolaephus ، من هذه المجموعة، ويكون ذلك الغطاء على شكل شعيرات كثيفة بيضاء اللون. وفى بعض الحالات القليلة جدًا نجد إن لون هذه الخنافس التى تسكن الصحراء يكون أصفر مائلاً إلى الاحمرار الذى يقارب لون الرمال التى تسكنها هذه الحشرات، ومع ذلك فإن هذه الحشرات ليلية ويصعب اكتشافها، لأنها تشبه الظلال وهى تتحرك على الرمال.

المجموعة بكاملها، تمثل بصورة واضحة الصحراوات القديمة، بعض هذه العينات أو الأنواع يمتد مألفها من شمال أفريقيا إلى شمالى الهند وآسيا الوسطى، لكن قرابات هذه الأنواع هى مع العنصر الأفريقى عنها مع العنصر الآسيوى. وجزء كبير من هذه الأنواع مقصورة على الإقليم الذى يضم كلا من مصر، الجزيرة العربية، جنوب بلاد فارس، بلوخستان؛ ويشكل بعض آخر من هذه الأنواع الحافة الشرقية من سكان يمتد مألفهم إلى شمال أفريقيا. ومن بين هذه العينة نوع جديد يحمل الاسم Pterolasia multicostata ، ويبدو أنه ينتمى إلى نوع من أنواع غرب أفريقيا دون أن تكون له روابط وسيطة. ويبدو أن القرنبى(*)، ذلك النوع الذى يحمل الاسم Batoccra rubus ، هو الآخر، وكأنه يشكل مستعمرًا غريبًا من أصل هندى.

ونحن نورد فى القائمة التالية الاسم المحلى بعد الاسم العلمى مباشرة. وقد حذفنا مرجعيات أدبيات هذه الخنافس، لأنه بالإمكان الرجوع إلى هذه الأدبيات فى الكتالوج الذى ألَّفه جنكس عن الخنافس؛ يزاد على ذلك أن الأنواع الجديدة جرى وصفها فى مجلة الحشرات التى تصدر كل شهر، وبخاصة العدد الصادر فى شهر ديسمبر من العام ١٩٣١.

---

(١) بكستون ، ب . إيه .، الحياة الحيوانية فى الصحراء ، ١٩٢٩.

(*) الخنافس طويلة القرن . (المترجم).

العائلة التى تحمل الاسم Tenebrionidae الذى معناه "الخنافس الصحراوية":

١- النوع الذى يحمل الاسم Erodius octocostatus ، والذى يطلق العرب عليه اسم (قعايد البنات)، وقد عثر على هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٤٦١، وعثر عليه أيضًا فى القصمان، على ارتفاع ٩٠٠ قدم، يوم ١٢- ١- ١٩٣١. كما وصف هذا النوع من شبه جزيرة سيناء، وهذا النوع ليس مُمَثَّلاً فى المتحف البريطانى.

٢- النوع الذى يحمل الاسم Erodius Reichei ، والذى يطلق العرب عليه اسم (قعايد البنات) فى الربع الخالى؛ العددان (٤٥٧ و ٤٦٤). وهو موجود أيضًا فى شينه، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، وقد عثر عليه فى يوم ٥- ١- ١٩٣١؛ وهو غير مُمَثَّل فى المتحف البريطانى.

٣- النوع الذى يحمل الاسم: Tenlyria thomasi ، وهو نوع جديد وقد عثر عليه فى الربع الخالى؛ العددان ٤٣٨ و ٤٣٩ ؛ وعثر عليه أيضًا فى رملة شعيت، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، يوم ٢٣- ١٢- ١٩٣٠ ، ويطلق العرب عليه الاسم "رقيبة" Ragaiba وهو موجود أيضًا فى شينه على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى يوم ٥- ٦- ١٩٣٠والعرب يسمونه " أم الغريبة" ؛ العدد ٤٨٧ ؛ وعثر عليه أيضًا فى سنام المنفَّر، على ارتفاع ٦٥٠ قدمًا، يوم ١٨- ١- ١٩٣١والعرب يسمونه هنا "أم رغيبه" ؛ العدد ٤٩٩؛ وعثر عليه أيضًا فى عوده، على ارتفاع ٤٠٠ قدم، فى يوم ٢٤- ١- ١٩٣١. والعرب يسمونه "رغيبه" Raghaiba (وهو غير مُمَثَّل فى المتحف البريطانى).

٤- النوع الذى يحمل الاسم Oxycara Subcostata والذى اكتشفه (جوير) والعرب يسمونه (حنضوت، ضيار).

٥- النوع الذى يحمل الاسم Adesmia Cancellata ، الذى اكتشفه (كلوج)، والعرب يطلقون عليه الاسم (حنضوت). وعثر عليه فى جبال القراوين؛ العدد ٦٩؛ وعثر عليه أيضًا فى عين الرَّزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، يوم ٣١- ١٠- ١٩٣٠ العدد ١٢٠، وعُثر عليه فى ٢- ١١- ١٩٣٠ فى تنجفير Tingifer.

٦- النوع الذى يحمل الاسم Adesmia (oteroscelis) Khaliensis ، وهو نوع جديد تمامًا، (والعرب يسمونه "اليهمه") اكتُشف فى الربع الخالى؛ الأعداد من ٤٣٤ - ٤٣٧ وعثر عليه أيضًا فى رملة شعيت، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى يوم ٢٣- ١٢- ١٩٣٠.

٧- النوع الذى يحمل الاسم Leucolaephus arabicus ، وهو نوع جديد تماماً، (والعرب يسمونه "قعايد البنات"). وقد اكتشف فى الربع الخالى؛ العددان ٥٢٠ و٥٢١، وفى جوب صافية، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، يوم ٣١- ١- ١٩٣١.

هذا يعنى أن النوع الذى يطلق عليه الاسم Leucolaephus لم يُعْرف منذ ذلك الحين وإلى الآن إلا فى شمال أفريقيا، إذ يوجد منه فصيل فى الجزائر، وفصيلان فى طرابلس وفصيل واحد فى الحبشة. ويعد امتداد مألف هذا النوع إلى جنوب الجزيرة العربية أمرًا بالغ الأهمية، وبخاصة أن الأنواع المتبقية منه هى من العائلة الفرعية التى ينتمى إليها هذا الفصيل أو النوع، والذى يطلق عليه الاسم Platyopinae ، هى كلها آسيوية التوزع، إذ يبدأ المألف من آسيا الصغرى، مرورًا بتركستان ووصولاً إلى سيبيريا، أو قد يصبح فرعًا مصطبغًا أكثر بالصبغة الجنوبية، مرورًا ببلاد الرافدين إلى أن يصل إلى بلاد فارس.

٨- النوع الذى يحمل الاسم: Prionotheca Coronata ، والذى اكتشفه (أوليف) ويطلق العرب عليه الاسم (ياهمه، فسَّايه).

٩- النوع الذى يحمل الاسم: Ocnera philistina ، والذى اكتشفه (ريش) ويسميه العرب (حتاته).

جرى اكتشاف هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٥٣٤، وفى منحدر قطر، على ارتفاع ١٣٠ قدمًا، يوم ٤- ٢- ١٩٣١- وهذا النوع معروف فى مصر وسوريا، الجزيرة العربية (اليمن وحضرموت) وفى بلاد فارس، ويصل مألفه أيضًا إلى كراتشى.

١٠- النوع الذى يحمل الاسم Pimelia arabica ، والذى اكتشفه (كلوج)، وله أيضًا اسم مغاير هو thomasi ، ويعد نوعا جديدًا ويسميه العرب (فسَّايه).

جرى اكتشاف هذا النوع فى الربع الخالى؛ العدد ٤٦١، وفى شينه على ارتفاع ١٠٠ قدم، فى يوم ٥- ١- ١٩٣١.

يختلف هذا الفصيل عن الشكل (النوع) الأصيل الذى جرى اكتشافه فى اليمن وفى حضرموت؛ من حيث أن عجيزات الأضلاع تكون طويلة وحادة، كما أن المسافة بين العجيزات التى جاء بها النقيب برترام توماس من رحلته السابقة إلى

مجوج تايج فى يوم ١٨- ١- ١٩٣٠، تعد حلقة أو مرحلة وسيطة بين هذا الفصيل والنوع نفسه.

١١- النوع الذى يحمل الاسم: Pimelia hirtella، والذى اكتشفه (سناك)، ويسميه العرب (الحتاته). العدد ٥٣٥، واكتشف أيضًا فى المناطق الداخلية من قطر، على ارتفاع ١٣٠ قدمًا، يوم ٤- ٢- ١٩٣١. وهو مسجل من مصر، سوريا، والجزيرة العربية.

١٢- النوع الذى يحمل الاسم Pterolasia muticostata ، وهو نوع جديد؛ ويسميه العرب (حنضوت). العدد ٨٧، واكتشف أيضًا فى ملوة العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، يوم ١- ١١- ١٩٣٠. العدد ١١٩، يَمْلك الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، يوم ٢- ١١- ١٩٣٠.

١٣- النوع الذى يحمل الاسم Blaps wiedemanni، والذى اكتشفه (سول)، ويطلق العرب عليه الاسم (فسَّاية). العدد ٥١١، واكتشف أيضًا فى جوب خاريت، على ارتفاع ٣٥٠ قدمًا، يوم ٢٩- ١- ١٩٣١.

وهو موجود فى مصر، جنوب الجزيرة العربية، وفى سيناء، وفى جنوب فلسطين.

العائلة التى تحمل الاسم Buprestidae الذى يعنى "الخنافس المعدنية"

١٤- النوع الذى يحمل الاسم Steraspis arabice الذى اكتشفه واتره، والذى يطلق عليه العرب الاسم (الكدامير). العدد ٤٢٠، واكتشف أيضًا فى جبال القراوين، فى وادى حوف على ارتفاع ١١٥٠قدمًا، يوم ١٥- ١٢- ١٩٣٠. جاءت العينة أو هذا النوع من مسقط، وسبق العثور على هذا النوع على يد السيد/ توماس فى بارزاز، يوم ٤- ٢- ١٩٣٠ ؛ واكتُشف أيضًا فى جيلات الشيسور، يوم ١٩- ١- ١٩٣٠. وهذا النوع يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنوع الأفريقى الذى يحمل الاسم S.speciosa الذى اكتشفه (كلوج).

١٥- النوع الذى يحمل الاسم: Capondis excisa ، الذى اكتشفه (منيت)، وله اسم مغاير aericolor ، وهو نوع جديد تمامًا؛ والعرب يطلقون عليه الاسم (شعار).

١٦- النوع الذى يحمل الاسم: Lampetis mimosae ، والذى اكتشفه (كلوج) ويطلق العرب عليه الاسم (شعار).

١٧- النوع الذى يحمل الاسم Lampetis Catenulata ، والذى اكتشفه (كلوج) ويطلق العرب عليه اسم (التنكيفه)، (الفيوزوزه).

العائلة التى تحمل الاسم Ceramby cidae والذى يعنى الخنافس طويلة القرون:

١٨- النوع الذى يحمل الاسم Batocera rubus، والذى يطلق عليه العرب الاسم (زيرور). العدد ١٩٣جبال القراوين، العين، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، يوم ٨- ١١- ١٩٣٠؛ العددان ٣١٢ و ٣١٤. فضول على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، يوم ١٤- ١١- ١٩٣٠.

العائلة التى تحمل الاسم Chrysomelidae الذى معناه "خنافس البنات":

١٩- النوع الذى يحمل الاسم: Aulacophora (Rhophidopalpa) foveicollis، الذى اكتشفه (لوك)، والذى يسميه العرب (الصّبير).

العائلة التى تحمل الاسم: Curculionidae الذى معناه "السُّوس":

٢٠- النوع الذى يطلق عليه اسم Ammocleonus hieroglyphicus والذى اكتشفه (أول) ويسميه العرب (طويشه).

العائلة التى تحمل الاسم Scarabaridae التى حددها (ج. ج. آرو). النوع الذى يحمل الاسم Coprinae الذى معناه "خنافس الروث".

٢١- النوع الذى يحمل الاسم Scarabaeus Sacer ، والذى يطلق العرب عليه اسم (البهابان).

٢٢- النوع الذى يحمل الاسم Heliocopris gigas ، والذى يسميه العرب (جعايله، سعال).

٢٣- النوع الذى يحمل الاسم: Onitis alexis ، الذى اكتشفه (كلوج).

العائلة التى تحمل الاسم Melolonthinae الذى معناه "الدودة البيضاء".

٢٤- النوع الذى يحمل الاسم Phalangonyx arabicus الذى اكتشفه (آرو) وهو نوع جديد. جرى اكتشافه فى الربع الخالى، جوب سوفيه، على ارتفاع ٢٠٠ قدم، فى يوم ٣١- ١- ١٩٣١.

هذا النوع غير معروف فى أى مكان آخر غير الجزيرة العربية؛ جرى العثور فى بغداد على نوع مثيل لهذا النوع.

العائلة التى تحمل الاسم Cetoniinae الذى معناه "خنافس الورد":

٢٥- النوع الذى يحمل الاسم Pachnoda.

جرى العثور على هذا النوع فى جبال القراوين، عين الرزّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا؛ فى يوم ٢- ١١- ١٩٣٠. وهذا النوع موجود فقط فى الجزيرة العربية. لم يكن هذا النوع مُمثلاً من قبل فى مجموعة المتحف البريطانى.

ى - **النحل والزنابير**، إلخ. قام بتعرُّف النحل ر. ب. بنسون، وقام ر. إى تيرنر بتعرف الزنابير، فى حين قام بتعرف النمل هـ . دونيس ثورب Donisthorpe. وعليه قام هوغ سكوت بإعداد التقرير طبقًا لهذا الترتيب.

جرى جمع أربعة عشر نوعًا من النوع الذى يحمل الاسم Hymenoptera ، وأمكن تسمية عشرة من هذه الأنواع (أما الأربعة الباقية فيمكن فى الوقت الحالى ربط هذه الأنواع بأجناسها). وتتمثل أبرز حقائق هذا الأمر فى أن قرابات هذه الأنواع بالجنس الأفريقى أكثر منها بالجنس الشرقى، وربما كان الأمر أكثر من ذلك. أربع من هذه الأنواع تشيع فى الجزء الشمالى من أفريقيا وفى الجزء الجنوبى الغربى من آسيا؛ هناك نوع من هذه الأنواع، وهو ذلك الزنبور الشائع الذى يحمل الاسم (polistes hebeaeus) ، وهو عبارة عن فصيل شرقى واسع الانتشار ولا يوجد فى أفريقيا؛ وهناك نوع واحد جرى من قبل الحصول عليه فقط من جنوب الجزيرة العربية. وإذا ما نحينا هذه الأنواع الأربعة جانبًا، لا نجد أى عنصر من العناصر الآسيوية. تشتمل الأنواع الأربعة المتبقية على نوع واحد موجود فى إقليم البحر المتوسط وفى سائر أنحاء أفريقيا؛ وهناك نوع آخر واسع الانتشار فى الأجزاء الشمالية والأجزاء الوسطى من القارة؛ وهناك نوعان موزعان على نطاق واسع فى أفريقيا الاستوائية. وواحد من هذه الأنواع الأخيرة، بارز وواضح تمامًا، وهو بالتحديد النملة التى تحمل الاسم Mossor barbarus والتى تنتمى إلى الفصيل الذى يحمل الاسم galla. هذا النوع واسع الانتشار فى جنوب أوروبا، أفريقيا، وفى أجزاء من آسيا أيضًا، لكن الفصيل الذى يحمل

الاسم galla أصبح معروفًا حتى الآن فى أفريقيا (حيث يوجد فى الحبشة، شرق أفريقيا، الصومال، السودان، وفى سنجامبيا)، وهنا نجد أن إضافة جبال القراوين إلى مألف هذا الفصيل يعد أمرًا بالغ الأهمية.

النحل: النوع الذى يحمل الاسم: Xylocopa aestuans ، وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٢٠ قدمًا، وجرى العثور عليه فى اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر؛ وهذا النوع موجود أيضًا فى جنوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، وقد عثر عليه فى يومَىْ ١٢- ١٣ نوفمبر؛ وموجود أيضًا فى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، وقد عثر عليه فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر أكتوبر؛ وعثر عليه أيضًا فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. وعثر عليه أيضًا فى ظفار: صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر، وهو موجود أيضًا فى شمال أفريقيا، السودان.. إلخ، وموجود أيضًا فى غرب وجنوب آسيا.

النوع الذى يحمل الاسم Xylocopa fenestrata . موجود فى جبال القراوين: فى خيوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، وقد عثر عليه فى ١٣ نوفمبر؛ وفى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، يوم ١٥ نوفمبر، وفى عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى اليوم الأول من شهر نوفمبر. وموجود أيضًا فى شمال أفريقيا، جنوب الجزيرة العربية، وفى الهند، إلخ.

النوع الذى يحمل الاسم: Anthophora . غير موجود فى مجموعة المتحف البريطانى. وهو موجود فى الربع الخالى: فى شنَّاء، على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، فى اليوم الخامس من شهر يناير.

الزنابير: التى تحمل الاسم Polistes herbaeus . وهو موجود فى ظفار: فى صلالة، عند مستوى سطح البحر، فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر. وهو موزع على نطاق واسع فى الإقليم الشرقى والمحيط الهادئ.

النوع الذى يحمل الاسم: Hemipepsis heros ، والذى اكتشفه (جوير). وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، وجرى اكتشافه فى اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. وهو موجود أيضًا فى أفريقيا الاستوائية.

النوع الذى يحمل الاسم: Trogaspidea وليس موجودًا أو مُدرجًا فى المتحف البريطانى، ويرجح له أن يكون نوعًا جديدًا. وهو موجود أيضًا فى جبال القراوين: عين الرزَّات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر وفى اليوم الثانى من شهر نوفمبر.

الزنابير الأحفورية المعتزلة التى تحمل الاسم Sceliphron Spirifx. وهو موجود فى جبال القراوين: فى فوزه، على ارتفاع ١٣٥٠ قدمًا، فى اليومين ١٤-١٥ نوفمبر؛ وموجود أيضًا فى عين قارة، على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، فى اليوم التاسع واليوم السادس عشر من شهر نوفمبر. وموجود أيضًا فى إقليمَى البحر المتوسط والحبشى.

النوع الذى يحمل الاسم: Tachysphex aemulus ، والذى اكتشف (كوهل) مغايرًا له. وهو موجود فى جبال القراوين: فى عين الرزات، على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا، يوم ٢ نوفمبر. وموجود أيضًا فى جنوب الجزيرة العربية (عبدالكورى وراس فرتك، فى العام ١٨٩٩، بواسطة بعثة أكاديمية فينًا للعلوم).

النوع الذى يحمل الاسم: Sphexeydenii ، الذى اكتشفه (دهلب). يوجد فى جبال القراوين: فى ملواح العود، على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، وقد اكتشف فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. وهو موجود أيضًا فى البحر المتوسط وغرب آسيا.

النوع الذى يحمل الاسم: Bem bex dahlbomi ،الذى اكتشفه (هاندل)، وفاير- وهو موجود فى الربع الخالى: فى بانيان، على ارتفاع ٣٠٠ قدم، وقد اكتشف فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير. وهو موجود أيضًا فى شمال أفريقيا وجنوب- غرب آسيا.

النَّمل: النوع الذى يحمل الاسم: Messor barbarus، وهو فصيل يحمل الاسم: gall وهو موجود فى جبال القراوين: فى خيوت، على ارتفاع ١٧٥٠ قدمًا، وجرى اكتشافه فى اليوم الحادى عشر من شهر نوفمبر. ثلاثة جنود. وموجود أيضًا فى الحبشة، الصومال، السودان، شرق أفريقيا وفى سينجامبيا.

النوع الذى يحمل الاسم: Componotus (Tanaemyrmex) Compressus ، وهو فصيل يحمل الاسم: thoracixus . وهو موجود فى جبال القراوين: فى ملواح العود،

على ارتفاع ٢٢٠ قدمًا، وقد اكتُشف فى اليوم الثلاثين من شهر أكتوبر. العينة مكونة من جندى واحد. وهو موجود فى صحارى وواحات الجزائر وتونس.

النوع الذى يحمل اسم: Crematogaster (Sohaerocrema) (هذا النوع لا يمكن تحديده من الانثى وحدها). وهو موجود فى الربع الخالى: فى باحة الجمل، على ارتفاع ٥٠٠ قدم، وجرى اكتشافه فى اليوم الخامس عشر من شهر يناير. العينة عبارة عن ملكتين، واحدة منهما مُجنَّحة، وتعرُّق الأجنحة الأمامية غير عادى، والملكة الأخرى غير ذلك.

الذباب ذو الجناح والرخويَّات

(ك) الذباب ذو الجناحين. بقلم: ف. و. إدواردز هو والآنسة دى أوبرتين

تشتمل الحشرات مزدوجة الأجنحة على عدد قليل جدًا من الأنواع، لكن البعوضة التى تحمل الاسم: Anopheles mauritianus تدخل ضمن هذه الأنواع، وقد جرى الحصول على هذه البعوضة من جربيب على ساحل القراوين، وهذه البعوضة لم يسبق تسجيلها من الجزيرة العربية، وذلك على الرغم من وجود هذا النوع فى مصر وفى جنوب فلسطين وأيضًا فى سائر أنحاء أفريقيا الاستوائية. وذباب النحل (الذى يحمل الاسم Bombliidae) يشمل النوع الذى يحمل الاسم Bombylius analis هو نوع أفريقى شائع، وهو موجود أيضًا فى فلسطين، كما أن النوع الذى يحمل الاسم Exoprosopa يعد نوعًا جديدًا على المتحف البريطانى. هناك ذباب آخر تربطه قرابات إثيوبية مثل النوع الذى يحمل الاسم Promachus (ذبابة لِصَّة)، والنوع الذى يحمل الاسم: Eristalis taeniops (الذبابة الحوَّامة)، وثلاثة أنواع من الذباب - القاذف، بالاضافة إلى النوع الذى يحمل الاسم Hippo-bosca maculata الذى هو من طفيليات الإبل.

(ل) الدرقيات. بقلم: جى. سى. روبسون.

اشتملت الحيوانات الرخوية التى جاء بها السيد/ برترام توماس فى فرهود على خمس وثلاثين عينة، وثلاثة عشر نوعًا جديدًا، وكلها بَحْرية. والفصائل التى من قَبيل النوع الذى يحمل الاسم: Potamides وكذلك النوع الذى يحمل الاسم: Cardium ربما كانا منسجمين مع بعضهما البعض؛ معروف أن أفراد النوع الذى

يحمل الاسم Potamides توجد فى المياه المالغة، وإن شئت فقل جنس نَهِم أو جائعً.

النوع الذى الذى يحمل الاسم: Retusa turrigera ، الذى اكتشفه (ملفل).

النوع الذى يحمل الاسم: Murex (chicoreus) anguliferus ، الذى اكتشفه (مارك).

النوع الذى يحمل الاسم: Drupa margariticola، الذى اكتشفه (بردوريب).

النوع الذى يحمل الاسم: Potamides Cingulatus، الذى اكتشفه (جميلين).

النوع الذى يحمل الاسم: Pirenella Conica ، الذى اكتشفه (بلينقبل) .

النوع الذى يحمل الاسم : Cerithium noniliferum ، الذى اكتشفه (كابنر).

النوع الذى يحمل الاسم: Cerithium Scabridum ، الذى اكتشفه (فيليبِّى).

النوع الذى يحمل الاسم: Glycimeris Pectunculus ، مغاير.

النوع الذى يحمل الاسم: Cardium (Trachycardium) rubicundum ، الذى اكتشفه (ريف).

النوع الذى يحمل الاسم: Asaphis deforata.

النوع الذى يحمل الاسم: Psammotaea elongata، الذى اكتشفه (لامارك).

هناك فرعان أو فصيلان من النوع الذى يحمل الاسم Lamellis ، ربما يُكَوِّنان ذلك الفصيل الذى يحمل الاسم: Paphia , والفصيل الذى يحمل الاسم: Chama لم يجْرِ بعد البت فيه.

لا تزال كل الأنواع سالفة الذكر، التى تعرَّفها السيد/ ج ى. ر. ل. ب. توملين تعيش فى المحيط الهندى إلى يومنا هنا؛ يضاف إلى ذلك أن النوعين المنجميين يمتد مألفهما إلى البحر المتوسط أيضًا. يزاد على ذلك، أن النوع الذى يحمل الاسم: G.Pectunculus يختلف من حيث الشكل عن كل الأنواع التى حصلنا عليها مؤخرًا، ومع ذلك فهو يعد نوعًا مغايرًا.

(م) الحفريات. بقلم: ل. ر. كوكس

جاءت كل الحفريات التى جمعها السيد / برترام توماس أثناء رحلة عبوره الربع الخالى، مثل الحفريات التى جاء إلينا بها من رحلته الأولى (راجع دورية الجيولوجيا، ١٩٣١، العدد ٧٧ ، ص ٣) من الحجر الجيرى أبيض اللون الذى ينتمى إلى العصر الحديث الوسيط. هذه الحفريات جاءت بعض أجزائها من الجزء الجنوبى من الربع الخالى الداخلى، وجاء جزء منها من السهل المنخفض الواقع خلف مسيمير، فى الأراضى الداخلية من الدوحة، على الخليج الفارسى. يبدو أن الحجر الجيرى الذى ينتمى إلى العصر الحديث السابق هو التكوين الرسوبى الأكثر انتشارًا فى هذا الجزء من الجزيرة العربية. ونحن نقدم هذه الأنواع فيما يلى؛ ويجب التنويه هنا إلى أن كل الأنواع التى جرى تعرُّفها هنا بشكل محدد، كلها من الأشكال أو الأنواع التى جرت مناقشتها مؤخرًا فى الورقة التى قدمتها مؤخرًا عن الرخويات من حفريات العصر الحديث السابق فى الهند. (راجع دورية جمعية دبلن الملكية فى إدنبرة، المجلد ٥٧، الجزء الأول، العدد الثانى، الصادر فى العام ١٩٣١).

جاءتنا من داخل الربع الخالى: الحفرية التى تحمل الاسم : Ostres brongniarti والتى اكتشفها (برون)، وهى عبارة عن صمام سميك مضغوط (عثر عليه على مقربة من رملة عُبيّله)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: Lucina pharaonis (التى جاء بها بلأَّردى)، وهى عبارة عن سبيكتين داخليتين (عثر عليهما فى خريمات فساد)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: Hippochrenes أو amplus التى اكتشفها (سيلاندر) وهى أيضًا سبيكة داخلية (عثر عليها فى خريمات فساد).

جاءنا من السهل الواقع خلف مسيمير، فى أراضى الدوحة الداخلية: الحفرية التى تحمل الاسم: Ampullospira أو Oweni (التى جاء بها كل من داركيك وهيم)، والنوع الذى يحمل الاسم: Gisortia والنوع الذى يحمل الاسم: Campanile ؛ وكل هذه الأنواع عبارة عن سبائك داخلية.

تؤكد التحديات السابقة ذلك التقرير المبدئى الذى أعده الدكتور جى. إيه. دوجلاس، عن عصر الحفريات، معروف أن الدكتور دوجلاس يشغل منصب مستشار الحفريات القديمة لدى شركة الزيت الإنجليزية - الفارسية، المحدودة.

تدخل العناصر التالية أيضًا ضمن المجموعة سالفة الذكر:

بطنيات الأقدام(*): النوع الذى يحمل الاسم Campanile (اكْتُشِفَت هذه الحفرية فى وادى ضهير)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: "Natica أو longa التى اكتشفها بلأَّردى فى كل من (وادى ضهير، بن جوعاى وفى سعاتين)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: Gisortia murchisoni والتى اكتشفها (داركياك وهيم)، فى (وادى ضهير).

الرقائقيات: الحفرية التى تحمل الاسم Lucina pharaonis التى اكتشفها (بلأَّردى) فى (حنقيت)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: Lucina nokbaensis التى اكتشفها (أوبنهايم) فى (أضابوغ)؛ والحفرية التى تحمل الاسم Lucina أو quad-rata التى اكتشفها (البميرى) فى (وادى فيوروم)؛ الحفرية التى تحمل الاسم: Cardium التى اكتشفت فى (بن جوعاى).

الأحجار النيزكية، الصخور والمعادن

(ن) الأحجار النيزكية، الصخور، والمعادن. بقلم: و. كامبل سميث

يعد إلى حد بعيد، الحجر الذى وجده السيد/ برترام توماس على الرمل فى منطقة بواح، فى صواحيب، فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير من العام ١٩٣١- أهم مكونات المجموعة الجيولوجية، فقد ثبت أن هذا الحجر هو حجر نيزكى. والحجر غير منتظم الشكل وله زوايا حادة وأبعاده هى ٩× ٤,٥ × ٤ سم، وكان وزنه قبل الفحص ٢٤١ جرامًا. والحجر مغطى بطبقة من الليمونيت، وإن شئت فقل أكسيد الحيد المائى، المصقول بفعل الريح، وحبيبات الكوارتز ملتصقة التصاقًا جيدًا تمامًا على شكل بقع صغيرة فى التجاويف التى على سطح هذا الحجر. وقد أدى هذا الصقل الليمونيتى إلى ستر بل وإخفاء طبيعة هذا الحجر، وفى بداية الأمر جرى تمرير هذا الحجر على أنه كِسْرة من "وعاء من الحديد" وعندما أُعيد فحص الحجر بعد ذلك، كشف ذلك الفحص عن وجود نسبة كبيرة من الحديد المغناطيسى النيكلى، وعندما أخذنا قطاعًا رقيقًا من الحجر لفحصه

(*) طائفة من الحيوانات الرخوية. (المترجم).

تحت الميكروسكوب، أوضح ذلك الفحص أن الغضاريف مثبتة بواسطة مادة ترابط معدنية، هى صورة طبق الأصل من المواد الكثيرة الموجودة فى الأحجار النيزكية.

لم يتبقَّ من هذه المادة شىء فى القشرة الأصلية، ويرجح أن يكون هذا الحجر جزءًا داخليًا من انفجار نيزكى أكبر بكثير على شكل قطع متناثرة أثناء مروره خلال الغلاف الجوى. ويتحتم فحص هذا الحجر فحصًا كاملاً قبل أن نتمكن من وصفه وصفًا دقيقًا، لكن يبدو من واقع تصنيف بريزناس، أنه عبارة عن غضروف كُروىّ أسود اللون. وكثافة الحجر هى ٢٣,٥ . ويتمثل الحجر النيزكى الآخر الوحيد فى الجزيرة العربية فى ذلك الحجر الشهير المحفوظ بوصفه تذكارًا مقدسًا فى الكعبة فى مدينة مكة، والذى يرجع تاريخه إلى ما وراء القرن السابع، الحجر عبارة عن غضروف برونزى رمادى الشكل، سقط فى التلاهى Et Tlahi فى الحجاز فى العام ١٩١٠، والحجر الحديدى النيزكى الذى عُثر عليه فى نَجْد فى العام ١٨٦٣، والذى منه كتلتان تزن إحداهما ١٣١ رطلاً والثانية ١٣٧ رطلاً، وقد عثر عليهما فى وادى بنى خالد. وقال من باع هذين الحجرين إنهما سقطا أثناء عاصفة من العواصف الرعدية، لكن المرجح أن أحدًا لم يَرَهُما عند سقوطهما.

وقد وصف جى. كويات حجر الحجاز النيزكى (فى حولية الأكاديمية العلمية فى باريس فى العام ١٩١٢، فى العددين ١٥٥ و ٩١٦). قال العرب الذين أحضروا الحجر للسيد / جى كويات، إن الحجر سقط فى إحدى الليالى من ربيع العام، وأن أربع قطع عُثر عليها فى منطقة عرضها قرابة ١٥ كيلومترًا. وجاء أحدهم (على جمل) من التلاهى، التى تبعد مسافة رحلة تقدر بمسير ستة أيام، جاء الرجل من المنطقة الساحلية فى ضبًا (Dhaba Doba) فى منطقة مدين (Midian) Macian . القطعتان الحجريتان النيزكيتان الموجودتان فى المتحف البريطانى لونهما أفتح من لون الحجر النيزكى الذى عُثر عليه فى صواحيب، يضاف إلى ذلك أن الغضاريف التى وصفها كويات فى حجر الحجاز أكثر بكثير عن غضاريف هذين الحجرين.

عُثر على الجبس فى هضبة ضبا على ارتفاع ٢٥٠ قدمًا (العدد ٤٥ بتاريخ الثلاثين من شهر يناير من العام ١٩٣١) على شكل ألواح واضحة التشقق (على

شكل سلنيت، وإن شئت فقل الجبس الشفاف البلّوْرى)، كما يوجد الجبس فى الشمال أيضًا، على بعد مسافة أبعد من هذا المكان، على شكل قطع مستديرة من المرمر وردى اللون فى منطقة لزيه، عند مستوى سطح البحر (العدد ٤٨ أول فبراير من العام ١٩٣١). فى هذا المكان نجد الجبس مختلطًا بالحجر الوردى الشاحب، ومختلطًا أيضًا برمل صفائحى، من الواضح أنه جرى التصاقه مؤخرًا بعضه بالبعض. كما عثر أيضًا على الجبس فى شكل مختلف تمامًا متحدًا مع رمل على درجة عالية من الملوحة ومختلطًا أيضًا بالأصداف البحرية الحديثة فى منطقة فرهود (راجع الحاشية التى أوردها السيد/ جى . سى. روبسون عن الصدف). يوجد الجبس فى فرهود على شكل بلّورات صغيرة شكلها الخارجى سداسى الأبعاد وقسم عدسى الشكل أو محدَّب، وهذا أمر غير عادى، لكن يوجد ذلك الجبس المترسب فى بعض أحواض الملح فى جنوب أفريقيا، فى يؤتنهاج فى منطقة الكاب (الرأس)، كما يوجد أيضًا فى ريفرتون بالقرب من كمبرلى. وهذا الشكل العجيب ناتج عن تطور مستدير للأوجه هرمية الشكل (١١١)؛ الأمر الذى يجعل البلّورات تتسطح على نحوٍ موازٍ لبلّورات وجه القبة على شكل حويصلات فى بعض الحمم البركانية فى عدن.

جرى الحصول على الملح (ملح الطعام الصخرى) من سنجة العمره. جرى تحليل العينة فى معمل شركة الزيت الفارسية- الإنجليزية، وأسفر هذا التحليل عن ٨٦,٧ فى المائة كلوريد صوديوم (ملح طعام)، ٩,٢٥ فى المائة من سُلْفات الصوديوم. وسلفات الصوديوم موجودة بكمية لا بأس بها فى عينتين من الرمال جاءتا من بواح وسنام (العددان ٣٢ و٤٠)، وهو موجود بكثرة مختلطًا مع الجبس مع قشرة الرمل الموجودة فى فرهود سالفة الذكر.

هناك معدن آخر مهم هو الألومينات، وقد عُثر عليه فى سنام (العدد ٣٩، العشرون من يناير من العام ١٩٣١)، على شكل رقائق غير منتظمة الشكل شبيهة بقطع العظم بيضاء اللون.

وعثر السيد/ ل. ز. كوكس مع الحفريات التى تعرَّفها فى خريمات فساد، على أنها من العصر الحديث السابق، على صَوَّان أحمر اللون، وتحجُّرات عقيقية مجوفة مبطنة ببلورات عندما يجرى هز الحجر المحتوى عليها. والمؤكد أن هذه

البلورات هى من نفس نوع فجوات الكوارتز التى وصفها جى. إى. بلجرام فى (حولية الجيولوجيا، فى بحث بعنوان مسح الهند، فى العام ١٩٠٨، المجلد ٣٤ ، الجزء الرابع ، ص ١١٦) على أنها موجودة بكثرة فى المزل الطرى أبيض اللون، وموجودة بكثرة أيضًا فى الحجر الجيرى الذى ينتمى إلى العصر الحديث السابق الموجود فى جزر البحرين. الناس يعرفون هذه الأحجار، على المستوى المحلى، باسم الجلجل، ولم يُعْزِ العرب أية قوى إلى هذه الأحجار، اللهم باستثناء أنها تتشرب الحليب الدافئ إذا ما غمرت فيه[١] يزاد على ذلك، وهذا أمر محتمل، أن الأحجار التى من هذا القبيل هى واحد من التباينات الكثيرة لما يسمى Aetites وإن شئت فقل حجر النسر، الذى أتى بلنى Pliny على ذكره. ويبدو أن الاسم Aetites كان يطلق على مختلف التحجرات المجوَّفة التى يوجد بداخلها حجر سائب يحدث نوعًا من الصلصلة عند هز هذا الحجر. يزاد على ذلك أن المعرفة التقليدية عن أحجار النسر، معرفة عجيبة بحق. ومن المسلَّم به أن أفضل هذه الأنواع عُثر عليها فى أعشاش بعض أنواع النسور، وكان الناس يعتقدون بصورة أو أخرى أن هذه الأحجار تساعد فى عملية الوضع. بعض البشر ينظرون إلى هذه الأحجار على إنها تعويذة أو رُقية قوية تعين فى ميلاد الأطفال، أى المحافظة على الأطفال من الضرر، الاعتدال فى تناول الطعام، زيادة الثروات، وتحقيق النصر والشعبية.

التحجُّرات الأخرى التى عثر عليها السيد/ برترام توماس على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، على بعد عشرة أميال جنوب غرب شنَّاء (الأعداد من ١٣ - ١٧، بتاريخ اليوم الرابع من شهر يناير من العام ١٩٣١)، عبارة عن تحجرات من الحجر الرملى الكلسى الشبيه بحفريات العظام. وهناك تحجر آخر، مشابه للتحجر سالف الذكر، وعرضه قرابة ١,٥ قدم، وفيه شىء من الشبه الخارجى مع حزام الحوض فى بعض الزواحف. هذه التحجرات مكونة من حبيبات رملية كوارتية ملتصقة ببعضها بمادة كلسيَّة. كانت هناك تحجرات أخرى من التحجرات الكبيرة الشبيهة

---

(١) لم تتشرب واحدة من هذه التحجرات قطرها ٧ سم، الماء البارد، لكنها تشربت قرابة ٣٠سم٣ عندما جرى تدفئة الماء إلى درجة ٩٠ مئوية..

بالعظام، كانت تلك التحجرات الأخرى صغيرة وكروية الشكل، أو ذوات أشكال غريبة مثل النوع الذى يحمل الاسم Losspuppen ، أو إن شئت فقل أحجار- الحوريات.

المدهش بحق أن، الرمل الذى جاءت منه حفريات العصر الحديث الأسبق غنى بحبيبات الحجر الجيرى. يضاف إلى ذلك، أن حصاء الكثيب الرملى فى عروق متيان، مكونة من حبيبات بُنية اللون أو بيضاء اللون ويصل قطر الواحدة منها إلى ملليمتر واحد، وكلها مكونة من فقاقيع الحجر الجيرى. لُوحظ وجود رمل يميل لونه إلى الاخضرار تحت سطح الرمل أحمر اللون المنتشر فى ضاحية العروق، وهذا الرمل الأحمر يتكون بدرجة كبيرة من حبيبات صغيرة من الحجر الجيرى، بالإضافة إلى معادن أخرى كثيرة يشيع بينها جلوكونيت، وإن شئت فقل سيلكات البوتاسيوم الحديدية. وعثر أيضا فى شنَّاء على فقاعتين من الكوارتز الأبيض، يصل قطر احداهما إلى ٣ سم. وهناك نوع آخر من الرمل جاء من شناء من على ارتفاع يقدر بقرابة ١٠٠٠ قدم، وهناك عينة أخرى من الرمل جاءت من القصمان على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم، وهذه العينة شبيهة بعينة ذلك الجزء من الرمال الناعمة فى منطقة العروق. لكن عينات الرمال التى جاءت من حدود سنام الجنوبية، ومن الجديدة، ومن طريقة، هذه العينات أخف لونًا لكنها مع ذلك، تحتوى على حبيبات وفيرة من الحجر الجيرى الذى يجمع بين اللونين الوردى والأبيض. يصل قطر الحبيبات الأكبر إلى قرابة ملليمتر واحد، وهى كاملة الاستدارة، والقسم الأكبر منها من الكوارتز ويصل قطر الحبيبات الأصغر إلى قرابة ١,٠، وهذه الحبيبات شبه زاويَّة. ولم يجْر حتى الآن تحليل المعادن الثقيلة فى هذه الرمال، تحليلاً دقيقًا.

يتبدى لنا التركيب نفسه على مسافة أبعد فى اتجاه الشمال، وبخاصة فى سنام وجوب، مضافًا إليه حبيبات، ذلك الصخر البركانى صغير الحبيبات وبعض الصخور الأخرى الشبيهة بتلك الصخور الموجودة فى سهل الحصى الموجود فى منطقة جوب، فى شمال بانيان.

تتكون الفقاعات التى جرى إحضارها من شمال سنام، من الحجر الجيرى أديمى اللون، وإن شئت فقل اللون الشبيه بلون الجلد، الذى يحتوى على علامات شجرية، ولامع ومنمَّش بفعل الرياح؛ وتحتوى هذه الفقاعات أيضًا على الكوارتز

الأصفر الشاحب الذى يتدرج إلى لون العقيق الأحمر؛ واللون الأخضر الزيتونى، والريوليت الأسود والأحمر الغامق، والإسفنجى إلى حد ما؛ والفرفير الكوارتى الذى له حُمرة طوب البناء؛ وعقده مسطحة من العقيق أبيض اللون.

هذه الفقاقيع شبيهة بالفقاقيع التى جاء بها الرائد ر. أى. شيزمان من سهل الحصى، الذى عثر الرجل عليه فيما بين مناطق الحجر الجيرى فى كل من الهفوف وجابرين. يضاف إلى ذلك أن تجمع الفقاقيع متشابه بل إن بعض الأنواع قد تكون متماثلة تمامًا، ومنها على سبيل المثال، الحجر الجيرى أديمى اللون، والريوليت أسود اللون، وكذلك الكوارتز أصفر اللون. وقد ظهر فى هذه المنطقة أن المصدر المباشر للفقاقيع يتمثل فى مُخلَّط يقع أسفل سهل الحصى فى صحراء الجافورة وفى البارزات المنحدرة فى الرمل، التى لاحظها السيد/ برترام توماس فى بانيان قد تكون من تركيب مماثل.

(س) تحاليل الماء، الرمل والملح. بقلم: السيد/ ب.ك.ن. ويلى، من شركة الزيت الإنجليزية- الفارسية المحدودة

تفوق ملوحة العينات مرارًا (من ٥٠ إلى ١٠٠ مرة) الملوحة المعتادة لمياه الأنهار والبحيرات. وفى كل حالة نجد أن الشق الحمضى يفوق القاعديات؛ ويوجد فى كل لتر من الصوديوم ما يتردد بين ٢- ٤ جرامات- وهذا يعنى أن المياه تحتوى على نسب كبيرة نسبيًا من السلفات والكلوريد القلوى، مع مقادير صغيرة من التراب القلوى (الكالسيوم والمغنيسيوم). وهنا يمكن القول: إن الجبس أو الطبقات الجبسية موجودة أسفل قسم كبير من الطريق الذى سلكه السيد/ توماس.

ومسألة التحليل الكامل لأية عينة من عينات الماء، لابد أن تكون أمرًا مستحيلاً فى مثل هذه الرحلة، وذلك فى ضوء الصِّغَر الشديد للكميات المتاحة من هذه المياه. وعلى سبيل المثال؛ فإن العينة الكبرى، التى تحمل الرقم ٢٢ كانت تحتوى على ٢٥٠ سم٣، وهذا يدل على أن هذه الكمية تبلغ من الصغر حدًا يصعب معه تحليلها.

كانت هناك من بين عينات الرمال، عينتان تحتويان على كمية لا بأس بها من كلوريد الصوديوم، وعينتان أخريان تحتويان على أثر ثقيل من كلوريد الصوديوم، أى قرابة ٨٦,٧ فى المائة، وسلفات الصوديوم بنسبة ٢٥,٩ فى المائة؛ والماء بنسبة ٤,٢ فى المائة. ونحن نورد هنا هذه القيم مفصَّلة على النحو التالى أول يناير:

	خور الضاحية	شناء	باحة الجمل	بانيان	صوفية	خلاوين	خافوس	العين مُجشين	جانون
إجمالى الجوامد التى جرى تجفيفها عند ١٠٠م	٦	٦,٧	١٠,٨	٧,٩	٨,٢	٥	١٠	--	--
الكالسيوم	٠,٤٨	٠,٧	٠,٧٢	٠,٣٦	٠,٥٦	٠,٢٥	٠,٦١	٣,٥	١,٩
المغنسيوم	٠,٣٦	٠,٠٨	٠,٢٤	أقل من ٠,٠١	٠,١٣	٠,١٩	٠,٣٢	٢,٩	١,٠٥
السلفات	٢,٨٤	١,٠٦	٣,٢	١,٦	٢,٢	١,٦	٢,٢٤	٤,٢	١,٦٢
الكلوريد	٢,٢٤	٢,٦	٢,٨	١,٩	٢,٤	لم يُقدر	لم يُقدر	٤	٢,٥

كل الكميات جرى التعبير عنها بالجرام/ لتر. لم يكن الماء فى أية حالة من الحالات قلويًا مع الفنيولياريزين أو بالأحرى الدليل الكيمياوى.

الملحق رقم (٣)
الرمال الإقليمية وثقوب المياه فى الربع الخالى

الأقليم الرملى وثقوب الماء	متوسط العمق بالقامة	الموقع	الطول والعرض مقدران بالمسير اليومى	الاتجاه العام
١ – الأقاليم الرملية الشرقية				
الحمرة زريقان، زهرانى، أبو غار، حاليب غسبوره	٤.٥	منتصف الحافة الشرقية للرمال. خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٣°	٣ × ٣	—
ماء حلو: مسقط وادى أسود	½	جنوب الحمرة؛ خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٢°	٢ × ٣	شمال – جنوب
غافة ثقب ماء مالح واحد، خور الناقة	—	جنوب غسبوره خط طول ٥٥°: خط عرض ٢٠°	٢ × ٤	شمال – شرق جنوب غرب
غانيم ماء كثير غربى خفسه، أبلوتان، بوغاره، لاحوس منسة، أبو ضيور، ضيريب، تويفل	يتردد بين ½ – ٣، لكن المتوسط ١	الركن الجنوبى الشرقى من الرمال؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣°	٢ × ٤	شمال شرق – جنوب غرب
الباطن	١ –٢		١ × ٤	
ثقوب مياه خيرانيه كثيرة	—	جنوب ليوه وغرب الحمرة؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣°		شرق – غرب
عروق المراكيهه		جنوب الباطن، منطقة ثقيلة		شمال – جنوب

عروق الشعيبه عروق بن تميشه عروق الميجورة لا يوجد		الكثبان تمتد شمالاً وجنوباً على نحو يفصل الرمال المأهولة عن رمال الحدود الشرقية؛ خط خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٣°و ٢٠´		
سبخة ميجورة أم ساهود	٥	غرب غانيم؛ خط طول ٥٤°: خط عرض ٢٠°	٢ × ١	شرق - غرب
٢ - الأقاليم الرملية المركزية				
قيدان أبو قطوب، الخُبّه (حلوة) القرينى، خورطوبريش، خورين حام، قارة؛ بالجنّه، أم العماد، أبو رواويل	٤ - ٥ - ٦	جنوب غرب قيدان، خط طول ٥٣°:خط عرض ٢٢°	٥ × ٣	شمال شرق- جنوب غرب
الحمرة ماء غير عذب (حلو)		جنوب قيدان، خط طول ٥٣°:خط عرض ٣٠´ ٢١°	٤ × ٢	أقصى الشمال الشرقى- أقصى الجنوب الغربى
حباك ماء وفير لكن مالغ - حرايم، زاغين، قرضوم، خورجاروب، خورسيف، هنثور، خور شيبان، خور سباعين، بواستام، خور ترعوزه، خور ابن تميشه	٢ - ٣	جنوب الحمرة، خط طول ٥٣°: خط عرض ٢١°و ٢٠´	٥ × ٢	
صواحيب ماء وفير لكنه شديد الملوغة (موجود فى بعض الأجزاء فى خيران، ولا يصلح لشرب الإنسان أو الإبل)	بشكل عام ½ - ١	غرب حباك؛ خط طول ٥١° و ٥٢´: خط عرض ٣٠´- ١٩°- ٢١°	١٠ × ٦	شمال شرق - جنوب غرب
(١) حض بواح باحة فارس، باحة سلامة، باحة جمال، باحة نجران.	١	خط طول ٥١°: خط عرض ٢٠°	٣ × ١	من الشرق إلى الغرب

(٢) حض لبده حض عجمان خيران	٢	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٠°	٢ × ٢	---
(٣) أم ماليسة (الغربية)	---			
سبخة على مُحْسن أم ماليسة (الشرقية) –		خط طول ٥١°: خط عرض ٣٠´ ٢٠°	٢ × ١	شرق – غرب
فيده، سبخة نجراح		خط طول ٥٢°: خط عرض ٢١´ ٢٠°	٣ × ١	شمال – جنوب
(٤) كرسوعة خيران	٢ –٣	خط طول ٥٢°: خط عرض ٣٠´ ٢٠°	١½ × ١	شرق – غرب
(٥) وساع خيران حض مزاريق حض نواسيف حض منْجار	٢ –٣	خط طول ٥٢°: خط عرض ٢١°	١½ × ١½	---
منجورة مهيوب	٥	غرب كرسوع ووساع، خط طول ٥١°: خط عرض ٢١°	٣ × ٢	شمال – جنوب
حض أبو صريفة خيران (أبو صريفة)	½ – ٢	غربى الحمرة؛ خط طول ٥٢° خط عرض ٢٢°	٤–٥× ٢	شمال – جنوب
المحراض	--	غرب قيدان؛ خط طول ٥٢°: خط عرض ٢٢°	٥ × ١	شمال – جنوب
حض محاقيق مجهوت ، حبران، بنى قاضاى، بومحاقيق، أبو فارس	٢ – ٣	غرب المحراض؛ خط طول ٣٠´ ٥١°: خط عرض ٢٢°	٤ × ١	شمال – جنوب
سنام العبيلة، أم الحديد، أم قريَّان، سفيف، طريقة ، فراجه، إبراهيمه، فيجافيل، أم العماد، أصيلة، عوده، دويريس، أم راقة، خلاك، الحرَّة، ويًا، بانيان. (ثقوب مياه غريبة بأعماق استثنائية، ويطلق عليها اسم الطوال)، بير فضيل يقال إنه فى مرباخ الفارس فى الناحية الغربية	١٠ – ١٢	خط طول ٥١°: خط عرض ٢١° – ٢٣°	٣٦ × ٤	شمال – جنوب

٣ – أقاليم الرمال الجنوبية

رملة موجشين رملة العراض أم ضرته ميتان شُعيت كثبان رملية بدون أبيار	---	تشتق رمال الأطراف الجنوبية أسماءها من أسماء وديان تحمل الاسم نفسه (فيما عدا أم ضرته، التى تصدر الرمال فيها أزيزاً أثناء السير فوقها)؛ وتقع بين خط طول ٥٢°- ٥٥°: خط عرض ٣٠´ ١٨°- ٣٠´ ١٩°	عمق يقدر بمسير يوم إلى يومين	شرق – غرب
عروق الرقعات رقعة الشمايليه، رقعه الجنوبية	٢- ٣	جنوب حباك، شمال فساد؛ خط طول ٥٣°: خط عرض ١٩°	٤ × ٤	
عروق المنيور	---	غربى الرقعات، شمال غرب ميتان؛ خط طول ٥٢°: خط عرض ١٩°	٢ × ٢	
عروق الضاحية خور الضاحية، بضياب، بن حمودة	---	شمال غرب شعيت؛ خط طول ٣٠´ ٥١°: خط عرض ١٩°	٢ × ٢	
خراخير خراخير	٢	الرمال الطرفية فى جنوب غرب عروق الضاحية؛ خط طول ٥١° خط عرض ٣٠´ ١٨°	٣ × ٣	
أم غريب		الرمال الطرفية غربى خراخير ؛ خط طول ٥٠°: خط عرض ١٨°	٢ × ٢	
جعاميات يقال إنها بدون ماء		غرب أم غريب؛ خط طول ٤٩° – ٥٠ °: خط عرض ١٨°- ١٩°	٨ × ٥	شمال شرق – جنوب غرب
دكاكا بلعشوش، سابله، مشرومة، بيلافين، طريوه (١٥) ، زيوره،	أبيار شرقية، ٣؛ أبيار غربية، ١٥	الرمال الجنوبية المركزية داخل منطقة الكثبان الرملية؛ خط طول ٣٠´ ٥٠°- ٣٠´ ٥٢°: خط	٧ × ٣	غرب جنوب غرب شرق شمال شرق

شناء (١١)، خضيفية (٦)، بير حادى، الهرشة، وغواك، بن وريقة، أم داسيس، طويال، البهايسين، قعادة مفاتيح، خور شيبان، أبو مداين، جعيمى سيجانى، غام غيم		عرض ٣٠´ ١٨°– ٢٠°		
٤ – أقاليم الرمال الشمالية				
ميجان، سبخة متّى ظافره، ليوه، كوفه، طافى، بينونة، ختام، جافورة		كما هى مدونة بالفعل فى خريطة هنتر	٢ × ٦	
زيدة وشغله	١٥			
ميجان	٢			
بينونة	٦ – ٤			
جبيان				
بير أزيلة ماباك، خور العوامير، خور العبد بلكريش، بجران، قاداح، وطيط وُسيّه، خواتيمة، أم الجيرة، ضبيى، خاريت منايف، عقدة، سُريّه، اللزبة، حلاوين (يطلق على ثقوب المياه الضحلة فى شرقى جبيان، الاسم أقال)	٢ ½ – ٢	بين الجافورة وميجان، جنوب قطر؛ خط طول ٥١° شرقا: خط عرض ٢٣´ ٢٥°	٢ × ٦	شمال – جنوب
جوب				
بير عزيز، حُقشة، العطسة، ندجان، أم ضريب، البحاث، لتيت، أم متهاله	١٧ –١١ –٥	جنوب غرب جافورة، شمال وغرب سنام من جابرين إلى بانيان؛ خط طول ٣٠´ ٤٨°– ٥١°: خط عرض ٢٣°	٣ × ٥	شرق – غرب

٥ - أقاليم الرمال الغربية

(يقال إنها بلا ماء)

جدة العويفة (ليست رمال)	---	جنوب جوب، غرب سنام؛ خط طول ٥٠°: خط عرض ٣٠´ ٢٢°	---	شرق - غرب
حباكى	---	جنوب غرب سنام؛ خط طول ٥٠°: خط عرض ٣٠´ ٢١°	٣ × ½	شمال غرب- جنوب شرق
بنى زينان	---	جنوب حباكة؛ خط طول ٥٠° خط عرض ٢١°	---	شمال - جنوب
أبو بحر (ليس رملا)	---	جنوب جابرين؛ خط طول ٣٠´ ٤٨°: خط عرض ٢٢	٥ × ١	شمال - جنوب
كرشة البعير	---	غرب بنى زينان؛ خط طول ٤٩°: خط عرض ٢١°	٧ × ٥	شرق - غرب
شويكيله (شمال)	---	جنوب كرشة البعير ، شمال شرق الحويّة؛ خط طول ٣٠´ ٤٩°: خط عرض ٢٠°	٣ × ١	أقصى الشمال الشرقى - أقصى الجنوب الغربى.
الحويّة	---	شمال غرب جامعيات؛ خط طول ٤٩°: خط عرض ١٩°	٥ × ٢	أقصى الشمال الشرقى - أقصى الجنوب الغربى.
شويكيله (جنوب)	---	جنوب غرب الحوية؛ خط طول ٤٨°: خط عرض ٣٠´ ١٨°	٤ × ١	أقصى الشمال الشرقى- أقصى الجنوب الغربى
الصُّمَّان	---	جنوب وغرب جابرين؛ خط طول ٣٠´ ٤٨°: خط عرض ٣٠´ ٢٢°	---	شمال - جنوب
حرايسان	---	غربى الصُّمَّان ؛ خط طول ٤٨°: خط عرض ٣٠´ ٢٢°	---	شمال - جنوب
السَّهامة (ليس رملاً)	---	غرب كرش البعير ؛ خط	٧ × ١	شمال - شرق

		طول ٤٨°: خط عرض ٢١°		
أويريق	---	غرب السّهامة؛ خط طول ٣٠´ ٤٧°: خط عرض ٢١°	٤ - ٥ ½ ٢	شمال - شرق
ريده (ليست رملاً)	---	جنوب حريسان وشمال غرب أويريق؛ خط طول ٣٠´ ٤٧°: خط عرض ٢١°	١٠ × ١ ½	شمال - شرق
رمال أخرى موجودة غرب هذه الرمال				
إقليم الرمال الشمال الغربى				
إضاوات الفارس، رميلة، أجونيس				
إقليم الرمال الجنوبى الغربى				
بنى معراض، عروق الجليدة، سبيتين، ريان، وُديعة، عروق أبو دعار، العراض، عروق الزّازه.				

المصطلحات الطبوغرافية

الحُوطة: مضيق أو وادٍ ضيق عميق بين جبلين أو تلال رملية ويصح فيه أيضًا "غور"، وغالبًا ما تكون الحُوطة عامرة بالحياة النباتية.

شجِّه أو ساروج: مضيق أو وادٍ عميق أو جوف، بين تلال رملية أو سلسلة من الجبال، وعادة ما يكون عامرًا أيضًا بالحياة النباتية.

مختوم: حائط رملى مُستعرض فى حُوطه من الحُوطات.

الرّدفة: منحدر مُنحنٍ انحناءً هينًا مكون من سلسلة من التلال الرملية فى حوطة من الحُوطات.

الرَّاكيب: سطح منبسط من رمال مرتفعة.

الرُّياض: جمعه رُبابيض، ويصح فيه أيضًا رُوبال، وجمعه رُبابيل، ويصح أيضًا أُرجاب، وجمعه أُراجيب، ومعناه: ضفاف رملية "أكوام رملية".

خَرابيم: ممرات سهوبية داخل رمال الحدود الجنوبية.

حَزْم: جمعهُ حزوم، الطبقة الصخرية البارزة على سطح الأرض.

نُخْدات: أحد تفريعات وادٍ من الوديان، يُصرِّف ماءه فى الرمال.

مَسِيله: مجرى وادٍ رملى هيّن فى سهب من السهوب.

رُقعة: بقع أرضية صغيرة من الجبس.

حِسًى: منخفَض فى طبقة صخرية بارزة على سطح الأرض يتجمع فيه الماء بعد سقوط المطر.

قُعْيده: كثيب رملى كبير.

قَعِيده: بفتح الفاء وكسر العين: أكبر كثيب رملى.

ترعوزه: "كلمة من كلمات قبيلة المُرَّه" : أكبر كثيب رملى.

سِنِين: كثيب رملى ذو قمة مخروطية الشكل.

حسانسوبة: كثيب رملى مرتفع.

حُفنه: تل رملى على شكل حدوة الفرس.

عُروق: سلاسل من الكثبان الرملية.

زِيارة: رمل قاسٍ "يصلح للسير عليه".

آث – آث أو بث- باث : الرمل الطرى "لا يصلح المشى عليه".

قارة: جمعهُ قرارْ : "فى الشمال": سلسلة من الصخور أو التلال.

بُرْقة: "فى الشمال": قمة.

الأفجة : "فى الشمال" أرض للرعى.

الرَّوضة: "فى الشمال" بقع رملية فى السهوب الصخرية القطرية.

السَّبخة: سهل ملحى.

أسفيلة: المنحدر الذى يختفى الوادى عنده فى الرمال الحدودية.

الملحق رقم (٤)

الحياة النباتية

الجبال: (١) أشجار البخور، ثلاثة أنواع

(١) النوع النجدى Negedi ويصح فيه أيضًا Nejdi ، النوع الشعابى (الصومالى)، وشجرة الشزارى أو شجرة المغور. وتعد الشجرة النجدية الأشهر بين هذه الأنواع الثلاثة. وهذه الشجرة تنمو على الجبال التى فى منحدرات الوديان، على ارتفاع يتردد بين ٢٢٥٠ قدمًا و٢٥٠٠ قدم. (٢) شجرة الملوخ: وهى تنمو فى السهول على امتداد وادى الأحواض المنخفضة على ارتفاع ٥٠٠ قدم. والصمغ ينبثق بشكل طبيعى من الأغصان وهو من النوع الصالح للأكل. (٣) شجرة التشجوت: وهى تنمو عند خط الانقسام Divide (أى على ارتفاع يتردد بين ٢٧٥٠ - ٣٠٠٠ قدم). وشجرة التشجوت، عبارة عن شجرة منخفضة، كثيرة الأوراق والأغصان، وهذه الشجرة تبدو من بعد شبيهة بالبساتين السورية. وصمغ هذه الشجرة يجرى فرده على شكل كعكات، ويجرى أحيانًا تصديره إلى الخارج.

الحياة النباتية فى الجبال التى يتردد ارتفاعها بين ٦٠٠ و١٠٠٠ قدم: هناك أشجار- المشتاه، وأشجار الثمار، واللاعلوب، والخيمور، والمغاليف والحيوروم، والميتان، (وهذه الشجرة تعطى خشبًا ثقيلاً يقال أنه لا يطفو على الماء وهو يستعمل فى صناعة (الغطاريف)، وأشجار السوباره وكذلك الخافوت.

وعند خط الانقسام (أى فى قطان)، على ارتفاع يتردد بين ٢٧٥٠ - ٣٠٠٠ قدم: تنمو أشجار التبكى داوهوت، وأشجار اللايفيت، والزرفيت، راعى زنتروت، التشجوت، الجوشار، الكرهاهور، وأشجار الضبضويوت.

السَّهب

هذا السَّهب يقع فى مسيله الوديان، وإن شئت فقل السهول: وفيه أشجار لسمر (السنط) وأشجار الشهيرى صدفا، وهذه الأشجار تمثل أهم الأعلاف عند الإبل. وهذا النوع من الأشجار هو السائد فى الحياة النباتية فيما بين الجبال على ارتفاع يتردد بين ٢٠٠٠ و١٢٠٠ قدم، وهذا النوع من الشجر لا ينمو على المسافات التى تقل عن ١٢٠٠ قدم. تعد أشجار الحرضاى، مهمة تمامًا مثل الاشجار التى تصلح علفًا للإبل، وتزداد أهمية هذه الأشجار لأنها توجد على

ارتفاع يقدر بقرابة ١٢٠٠ قدم، وتتواصل أهمية هذه الأشجار فى الطرق الوسيطة فيما بين الوديان التى بين وديان الجبال. وتجىء أشجار الداعوط، وأشجار الهايليما، وشجيرات الصَّاعة، وإن شئت فقل الأشجار الخفيفة، فى المرتبة الثانية، من حيث الأهمية، بعد الأشجار سالفة الذكر، وذلك على الرغم من أن هذه الأشجار لا تنجو من فترات الجفاف وذلك على العكس من الأشجار الثلاث سالفة الذكر. تزدهر أشجار السَّيح Sih على ارتفاع يتردد بين ١٥٠٠- ١٠٠٠ قدم. يضاف إلى ذلك أننا صادفنا أشجار الراجوس، الغاب، وأشجار، الإثل (التى يقال لها tamarisk باللغة الإنجليزية، ولأول مرة على ارتفاع ١٢٠٠ قدم، بعد أن خلَّفنا وراءنا أشجار السنط)، وأشجار القطوفة (فى منحدرات تل الوادى)، وأشجار الفسفة، الراكا، كلكاض، عراد، شجرة الجن، الكرارة والقريرة، دمدم، درعمة، هشام، جندره بالوك، إيجيل، أشجار الفانى، عُتيب، أشجار الهواى، وأشجار السابان (وادى الثيل)، ضانونا أو معانوم، آساف أو غواف، (هى شجيرات تعطى مادة تصلح لعمل الحبال)، ونجد أيضًا أشجار التنفيت، الكيثى، الضويلة، الحرمل، وأشجار الأشريك، أشجار السونام، وأشجار الرمرام. والأشجار السبعة الأخيرة من هذه الأشجار سالفة الذكر لها فوائد طبية. وهناك أيضًا أشجار الجهام، وأشجار الطرفاء (غالبًا ما تنمو هذه الأشجار عند رءُوس الوديان وسهول الملح)، وأشجار الحجوبة، الأراد، الشوخير، وأشجار الروسريس، أشجار- أطيلوه، أشجار الليبيد، الاسكود، وأشجار حريص- شابه.

فى التربة الرملية على حافة الرمال على ارتفاع ٥٠٠ قدم: نجد أشجار الغاف (السَّنْط)، أشجار الترثوث (الشبيه بالديس، ذلك العشب المائى من الفصيلة السَّعدية)، أشجار الباسول، وأشجار الأشيرة (شبيهة بأشجار الأشخيرة العمانية، وُجد أول مثال من هذه الأشجار على ارتفاع ١٠٥٠ قدمًا فى حيلة شيسور عند حافة الرمال، وهى تشكل حياة نباتية دائمة على ارتفاع ٥٠٠ قدم، وآخر مثال عثر عليه فى منطقة المهرة)، وكذلك أشجار الثورميد.

الرمل

أشجار الأبالة (التى يُطلق على ثمرتها اسم الخورى)، شجرة الزهارة، وأشجار البكانة، وأشجار الجوسيس، وأشجار الحفن، الغاضة، أشجار الشينان، أشجار العنقود، أشجار الترويقة، أشجار الثورميد، أشجار الحرم.

الملحق رقم (٥)

الأناشيد والأغانى الغربية

علامات الإبل

"كل عنق عبارة عن مترددة (*) مشعرة
(رت ت – تا – تا – تا! مترددة مشعرة)
وهذه هى أغنية مسيرنا".

رديارد كبلنج، كتاب الغابة

القائمة الكاملة

"ألحان الإبل الخاصة بنا
لتساعدنا على المضى قدمًا"
التى صادفتنى فى جنوب الجزيرة، وأنا أوردها فى الصفحات التالية.

(*) آلة موسيقية. (المترجم).

وشم الإبل الذى صادفناه فى وسط جنوب الجزيرة العربية

قبيله المُرَّه

قبيلة العوامير

قبيلة الرشايده

قبيلة المناصير

قبيلة العفار

قبيلة السَّعارين (across nose) (also clipped left ear)

قبيلة المناهيل

قبيلة الدواسر 100

قبيلة المهره (across nose as 3a ear)

قبيلة البراهمة

قبيلة بيت الشيخ

بنى حجر 100

قطر 18

وشم الإبل فى جنوب الجزيرة العربية

موجود على الجانب القريب من خد الجمل،

أو على العنق، أو على ربع الجسم

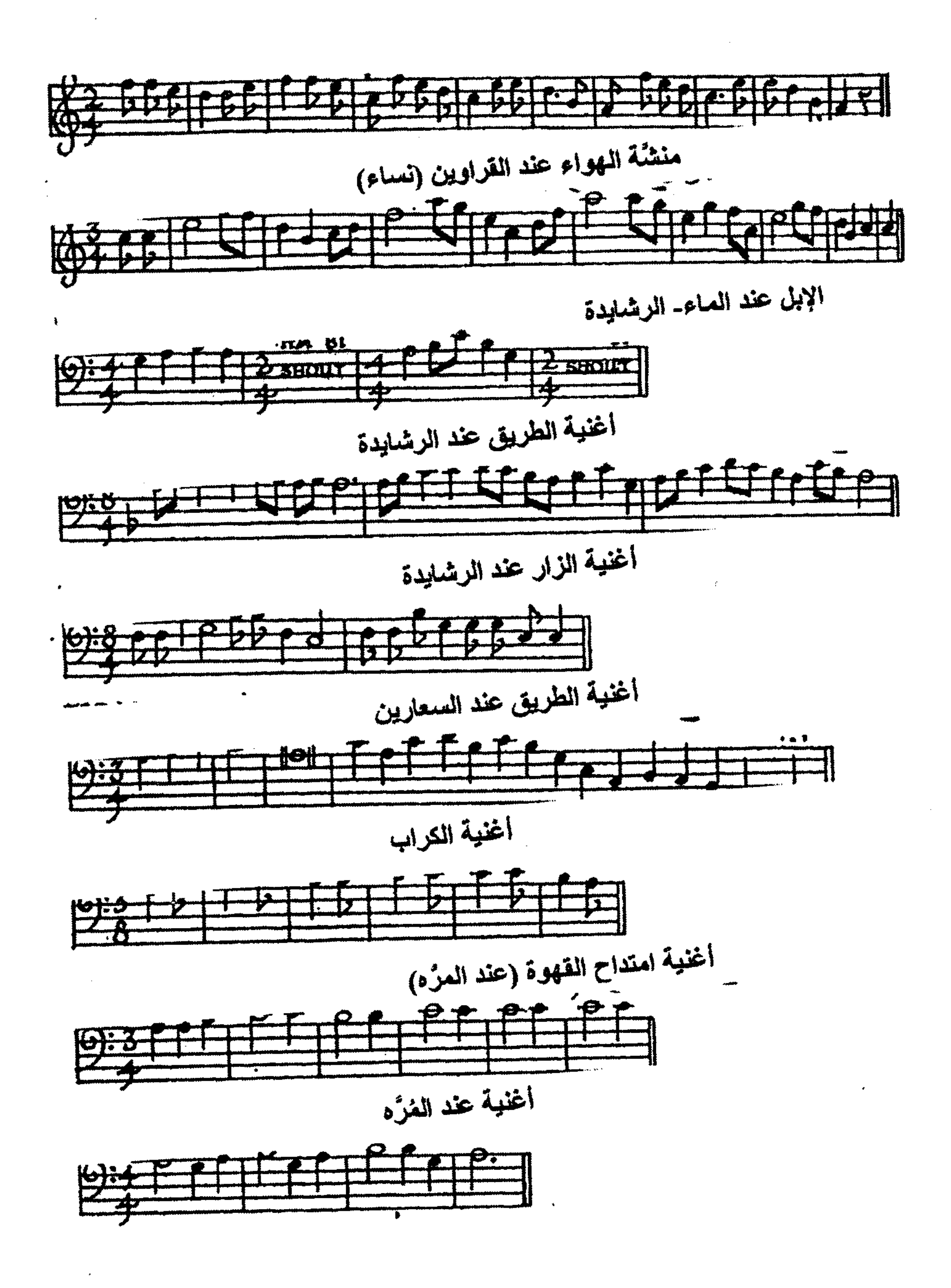
الملحق رقم (٦)

الأغانى والأناشيد العربية (جنوب الجزيرة والربع الخالى)




أغانى العود والطبول . مدينة ظفار
أغنية العبيد. ظفار
أغنية المُرَّه
أغنية التحميل (لرشايدة والمره)
رجارات قبيله المهره- دندون الملف
حيبوت القراوين
منشة الهواء عند القراوين (نساء)

أغنية الأولاد عند القراوين



صدر فى الألف كتاب الثانى(*)

- **أولاً: الموسوعات والمعاجم**

ليونارد كوتريل، **الموسوعة الأثرية العالمية**
ويليام بيتر، **معجم التكنولوجيا الحيوية**
ج. كارفيل، **تبسيط المفاهيم الهندسية**
ب. كوملان، **الأساطير الإغريقية والرومانية**
و.د. هاملتون وآخرون، **المعجم الجيولوجى المصور فى المعادن والصخور والحفريات**
حسام الدين زكريا، **المعجم الشامل للموسيقى العالمية (٢ج)**
خيرية البشلاوى، **معجم المصطلحات السينمائية**
دونالد نيكول، **معجم التراجم البيزنطية**
ر. س. زينر، **موسوعة الأديان الحية (٢ج)**
أمير العزب، **قاموس أشهر الأفعال المركبة**

- **ثانيًا: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر**

د.محمد نعمان جلال، **حركة عدم الانحياز فى عالم متغير**
إريك موريس،آلان هو، **الإرهاب**
د. ممدوح عطية، **البرنامج النووى الإسرائيلى والأمن القومى العربى (ط٢)**
د. لينوار تشامبرز رايت، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر**
إزرا .ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**
د.السيد نصر ، **إطلالات على الزمن الآتى**
بول هاريسون، **العالم الثالث غدا**
أقطاب العلماء الأمريكيين، **مبادرة الدفاع الاستراتيجى: حرب الفضاء**
و. مونتجمرى وات، **الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر**
بادى أونيمود، **أفريقيا الطريق الآخر**
فانس بكارد، **إنهم يصنعون البشر (٢ج)**
مارتن فان كريفلد، **حرب المستقبل**
ألفين توفلر، **تحول السلطة (٢ج)**
ممدوح حامد عطية، **إنهم يقتلون البيئة**
د.السيد أمين شلبى، **جورج كينان**
يوسف شرارة، **مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية**
د. السيد عليوة، **إدارة الصراعات الدولية**
د. السيد عليوة، **صنع القرار السياسى**
جرج كاشمان، **لماذا تنشب الحروب(٢ج)**
إيمانويل هيمان، **الأصولية اليهودية**
آلان أنترمان، **اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)**
د. ممدوح عطية وأخرون، **البرنامج النووى الإيرانى والمتغيرات فى أمن الخليج**
أنجيلو كودفيلا، **المخابرات وفن الحكم**
بريدراج ماتفيجيفتش، **تراتيل متوسطية**
نعوم تشومسكى، **مداخلات: آراء حرة فى السياسات الأمريكية المعاصرة**
هيكتور كوادرا- مونتيل، **العولمة نحو تنوع المنهج.**
دانتى أ. كابونيرا، **المياه فى الأنظمة التشريعية والإدارية العالمية والمحلية.**
ريتشارد هايدريان، **كيف خذلت الرأسمالية العالم العربى**
ولفريد هـ. وايتلى، **اللغة فى كينيا**

- **ثالثًا: العلوم والتكنولوجيا**

ميكائيل ألبى، **الانقراض الكبير**
فيرنر هيزنبرج، **الجزء والكل: محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية**

(*) قائمة مصنفة وموجزة بالكتب التى صدرت فى مشروع الألف كتاب الثانى، ولمزيد من البيانات يمكن الرجوع إلى قائمة المشروع بموقع الهيئة المصرية العامة للكتاب WWW.gebo.gov.eg

فريد هويل، **البذور الكونية**
ويليام بينز، **الهندسة الوراثية للجميع**
د. جوهان دورشنر، **الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد**
إسحق عظيموف، **الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)**
روبرت لافور، **البرمجة بلغة السى باستخدام تيربوسى (٢ ج)**
إدوارد إيه فايجينباوم،**الجيل الخامس للحاسوب**
د. محمود سرى طه، **الكمبيوتر فى مجالات الحياة**
د. مصطفى عنانى، **الميكروكمبيوتر**
ى.رادو نسكاياى،**الإلكترونيات والحياة الحديثة**
جلال عبد الفتاح، **الكون ذلك المجهول**
إيفرى شاتزمان، **كوننا المتمدد**
فرد س. هيس، **تبسيط الكيمياء**
كاتى ثير، **تربية الدواجن**
د. محمد زينهم، **تكنولوجيا فن الزجاج**
لارى جونيك ومارك هويليس، **الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير**
جينا كولاتا، **الطريق إلى دوللى**
دور كاس ماكلينتوك، **صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا**
إسحق عظيموف، **أفكار العلم العظيمة**
د. مصطفى محمود سليمان، **الزلازل**
بول دافيز، **الدقائق الثلاث الأخيرة**
ويليام هـ . ماثيوز، **ما هى الجيولوجيا؟**
إسحق عظيموف، **العلم وآفاق المستقبل**
ب.س. ديفيز، **المفهوم الحديث للمكان والزمان**
د. محمود سرى طه، **الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة**
بانش هوفمان، **آينشتين**
زافيلسكى فـ.س.، **الزمن وقياسة**

د. فاضل أحمد الطائى، **أعلام العرب فى الكيمياء**
ر.ج.فوربس، **تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)**
رولاند جاكسون، **الكيمياء فى خدمة الإنسان**
إبراهيم القرضاوى، **أجهزة تكييف الهواء**
ديفيد ألدرتون، **تربية أسماك الزينة**
أندريه سكوت، **جوهر الطبيعة**
إيجور إكيموشكين، **الإيثولوجى**
بارى باركر، **السفر فى الزمان الكونى**
ديمترى ترايفونوف، **ظلال الكيمياء**
بول ديفز، جونز جريبين، **أسطورة المادة**
جيفرى ماوسايف ماسون، **حين تبكى الأفيال**
ليونارد كول، **السلاح الحادى عشر**
و. جراهام ريتشاردز، **أسرار الكيمياء**
د. زين العابدين متولى، **وبالنجم هم يهتدون**
د.كامل زكى حميد،**الاستنساخ قنبلة بيولوجية**
فلاديمير سميلجا، **النسبية والإنسان**
د. محمد فتحى عوض الله، **رحلات جيولوجية فى صحراء مصر الشرقية**
ليونيد بونوماريف، **الاحتمالات المثيرة للنظرية الكمية**
جون جريبين، **الحياة السرية للشمس**
تيموثى جولد سميث، **الأصول البيولوجية للسلوك البشرى**
فيليب فرانك، **بين الفيزياء والفلسفة**
فريد هويل، شاندرا ويكراماسينج، **سحابة الحياة (أصل الحياة فى الكون)**
كيفن واريك، **أساسيات الذكاء الاصطناعى**
روبرت شيلدريك، **استحضار الماضى (تماثل الأشكال وعادات الطبيعة)**
اوليفييه اسلانجيه، **مقدمة فى علم الفلك.**
إى.آى بارنوف، **اللانهايات...... إلى أين؟**

• **رابعًا: الاقتصاد**

ديفيد وليام ماكدويل، **مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)**
د. نورمان كلارك، **الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا**
سامى عبد المعطى، **التخطيط السياحى فى مصر**
جابر الجزار، **ماستريخت والاقتصاد المصرى**
ولت ويتمان روستو، **حوار حول التنمية الاقتصادية**
فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**
ليستر ثورو، **مستقبل الرأسمالية**
د. ناصر جلال، **حقوق الملكية الفكرية**

• **خامسًا: مصر عبر العصور**

محرم كمال، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**
فرانسوا ديماس، **آلهة مصر**
سيريل ألدريد، **إخناتون**
موريس بيرابر، **صناع الخلود**
بكنت أ. كتشن، **رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار**
ألن شورتر، **الحياة اليومية فى مصر القديمة**
ونفرد هولمز، **كانت ملكة على مصر**
جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ فى مصر**
نفتالى لويس، **مصر الرومانية**
عبده مباشر، **البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ -١٩٧٣)**
د. السيد طه أبو سديرة، **الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية**
جابريل باير، **تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة**
عاصم محمد رزق، **مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية**
ت.ج.هـ. جيمز، **كنوز الفراعنة**
حسن كمال، **الطب المصرى القديم**
أ.أ.س. إدواردز، **أهرام مصر**
سومرز كلارك، **الآثار القبطية فى وادى النيل**
كريستيان ديروش نوبلكور، **المرأة الفرعونية**
بيل شول وأدبنيت، **القوة النفسية للأهرام**
جيمس هنرى برستيد، **تاريخ مصر**
د. بيارد دودج، **الأزهر فى ألف عام (ط٢)**
أ. سبنسر، **الموتى وعالمهم فى مصر القديمة**
ألفريد ج. بتلر، **الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ج) (ط٢)**
روز أليندم، **الطفل المصرى القديم**
ج. و. مكفرسون، **الموالد فى مصر**
جون لويس بوركهارت، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية**
سوزان راتييه، **حتشبسوت**
مرجريت مرى، **مصر ومجدها الغابر**
أولج فولكف، **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**
د. محمد أنور شكرى، **الفن المصرى القديم**
ت.ج. جيمز، **الحياة أيام الفراعنة**
ايفان كونج، **السحر والسحرة عند الفراعنة**
تشارلز نيمس، **طيبة (آثار الأقصر)**
رندل كلارك، **الرمز والأسطورة فى مصر القديمة**
ديمترى ميكس، **الحياة اليومية للآلهة الفرعونية**
محمد عبد الحميد بسيونى، **بانوراما فرعونية**
حمدى عثمان، **هؤلاء حكموا مصر (ط٢)**
ميكل ونتر، **المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى**
بربارة واترسون، **أقباط مصر (ط٢)**
إيريك هورنونج، **فكرة فى صورة**
بيير جرانديه، **رمسيس الثالث**
محسن لطفى السيد، **أساطير معبد أدفو**
د. نبيل عبيد، **الطب المصرى فى عصر الفراعنة**

بيتر فرانس، **أوربا والآثار المصرية**
ألبرت فارمان، **مصر وكيف غدر بها**

• سادسًا: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، **حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)**
أبوالقاسم الفردوسى، **الشاهنامة (٢ج)**
إدوارد جيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)**
ناصر خسرو علوى، **سفر نامة**
فيليب عطية، **ترانيم زرادشت**
جورج جاموف، **بداية بلا نهاية**
د.رمسيس عوض، **أبرز ضحايا محاكم التفتيش**

• سابعًا: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، **الموسيقى تعبير نغمى ومنطق**
ألويز جرايتر، **موتسارت**
شوكت الربيعى، **الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى**
ليوناردو دافنشى، **نظرية التصوير**
د. غبريال وهبه، **أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى**
روبين جورج كولنجوود، **مبادئ الفن**
مارتن جك، **يوهان سباستيان باخ**
ميخائيل شتيجمان، **فيفالدى**
هيربرت ريد، **التربية عن طريق الفن**
أدامز فيليب، **دليل تنظيم المتاحف**
حسام الدين زكريا، **أنطون بروكنر**
جيمس جينز، **العلم والموسيقى**
هوجولا يختنتريت، **الموسيقى والحضارة**
محمد كمال إسماعيل، **التحليل والتوزيع الأوركسترالى**
د. صالح رضا، **ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر**
إدموندو سولمى، **ليوناردو**

سيوناين ميرى روبرتسون، **الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة**

• ثامنًا: الحضارات العالمية

جاكوب برونوفسكى، **التطور الحضارى للإنسان**
س.م. بورا، **التجربة اليونانية**
جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**
أ.د. جرنى، **الحيثيون**
ل. ديلابورت، **بلاد ما بين النهرين**
ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية**
جوزيف نيدهام، **تاريخ العلم والحضارة فى الصين**
ستيفن رانسيمان، **الحضارة البيزنطية (ط٢)**
سبتينو موسكاتى، **الحضارات السامية**

• تاسعًا: التاريخ

جوزيف داهموس، **سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى**
هنرى بيرين، **تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى**
أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الإغريق**
بول كولز، **العثمانيون فى أوروبا**
جوناثان ريلى سميث، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**
د. بركات أحمد، **محمد واليهود**
ستيفن أوزمنت، **التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)**
و. بارتولد، **تاريخ الترك فى آسيا الوسطى**
فلاديمير تيسمانيانو، **تاريخ أوروبا الشرقية**
د.ألبرت حورانى، **تاريخ الشعوب العربية (٢ج)**
نويل مالكوم، **البوسنة**
جارى.ب. ناش، **الحمر والبيض والسود**
أحمد فريد رفاعى، **عصر المامون (٢ج)**
آرثر كيستلر، **القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم**
ناجاى متشيو، **الثورة الإصلاحية فى اليابان**
محمد فؤاد كوبريلى، **قيام الدولة العثمانية**

د. أبرار كريم الله، من هم التتار؟
ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية
آلبان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)
جوسيبى دى لونا، موسولينى
جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
هـ.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)
هـ. سانت موس، ميلاد العصور الوسطى
يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
هـ.ج. ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العرابية
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة
ألبرت براجو، ثورات أمريكا الإسبانية
برنابى روجرسون، ورثة محمد (جذور الخلاف السنى الشيعى)

- **عاشرًا: الجغرافيا والرحلات**

ت.و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام
ليستردبل راى، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)
د. مصطفى محمود سليمان، رحلة فى أرض سبأ

- **حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس**

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر (٣ج)
سوندراى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
د. توماس أ. هاريس، التوافق النفسى: تحليل المعاملات الإنسانية
د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وروبرت هاندلى،كيف تتخلصين من القلق؟
هـ ج. كريل، الفكر الصينى
د. السيد نصرالسيد، الحقيقة الرمادية
برتراند راصل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟
إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى
بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)
فرانكلين ل . باومر، الفكر الأوربى الحديث (٤ج)
هنرى برجسون، الضحك
أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية
و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر
إدوارد دو بونو، التفكير العملى

- **ثانى عشر: العلوم الاجتماعية**

د. محيى الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
م. و ثرنج، ضمير المهندس

رايموند وليامز، **الثقافة والمجتمع**
روى روبرتسون، **الهيروين والإيدز**
بيتر لورى، **المخدرات حقائق نفسية**
د. ليو بوسكاليا، **الحب**
برنسلاو مالينوفسكى، **السحر والعلم والدين**
بيتر ر. داى، **الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى**
بيل جيرهارت، **تعليم المعوقين**
أرنولد جزل، **الطفل من الخامسة إلى العاشرة**
رونالد د. سمبسون، **العلم والطلاب والمدارس**
كارل ساجان، **عالم تسكنه الشياطين**

• ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، **المرشد إلى فن المسرح**
برونو ياشينسكى، **حفلة مانيكان**
جلال العشرى، **فكرة المسرح**
جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى **مختارات من المسرح العالمى**
د. عبد المعطى شعراوى، **المسرح المصرى المعاصر: أصله وبداياته**
توماس ليبهارت، **فن المايم والبانتومايم**
زيجمونت هبنر، **جماليات فن الإخراج**
أوجين يونسكو، **الأعمال الكاملة (٢ج)**
آلان ماكدونالد، **مسرح الشارع**
نك كاى، **ما بعد الحداثية والفنون الأدائية**
بيتر بروك، **التفسير والتفكيك والإيديولوجية**
أندرية فيلبيه، **الممثل الكوميدى**
لى ستراسبرج، **تدريب الممثل**
جلال جميل محمد، **مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى**
أيوجينيو باربا، **زورق من الورق**
الكسندر استروفسكى، **من روائع المسرح الروسى**
رومان رولان، **مسرح الثورة**
أكبر رادى، **من خلف النوافذ**

• رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، **وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء**
د. جون شندلر، **كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة**
د. ناعوم بيتروفيتش، **النحل والطب**
م.هـ. كنج، **التغذية فى البلدان النامية**

• خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، **أحلام الأعلام وقصص أخرى**
ألدس هكسلى، **نقطة مقابل نقطة**
جول ويست، **الرواية الحديثة: الإنجليزية والفرنسية**
أنور المعداوى، **على محمود طه: الشاعر والإنسان**
جوزيف كونراد، **مختارات من الأدب القصصى**
تاجور شين ين بنج وآخرون، **مختارات من الآداب الآسيوية**
محمود قاسم، **الأدب العربى المكتوب بالفرنسية**
سوزان عبد الملك، **حديث النهر**
د. رمسيس عوض، **الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها**
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، **نظرية الأدب المعاصر**
نادين جورديمر وآخرون، **سقوط المطر وقصص أخرى**
رالف ئى ماتلو، **تولستوى**
والتر ألن، **الرواية الإنجليزية**
هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
لوريتو تود، **مدخل إلى علم اللغة**
د. جابرييل جارسيا ماركيز، **سيمون بوليفار أو (الجنرال فى المتاهة)**

ديلاسى أوليرى، **الفكر العربى ومكانه فى التاريخ**
د. على عبد الرءوف البمبى، **مختارات من الشعرالإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)**
ب. إفور إيفانز، **موجز تاريخ الدراما الإنجليزية**
ج. س. فريزر، **الكاتب الحديث وعالمه (ج٢)**
جورج ستاينر، **بين تولستوى ودستويفسكى (ج٢)**
ديلان توماس، **مجموعة مقالات نقدية**
فيكتور برومبير، **ستندال (مقالات نقدية)**
فيكتور هوجو، **رسائل وأحاديث من المنفى**
يانكو لافرين، **الرومانتيكية والواقعية**
د. نعمة رحيم الغزاوى، **أحمد حسن الزيات كاتبًا وناقدًا**
ف. برميلوف، **دستويفسكى**
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، **الدليل البيليوجرافى: روائع الآداب العالمية (ج١)**
محسن جاسم الموسوى، **عصر الرواية: مقال فى النوع الأدبى**
هنرى باربوس، **الجحيم**
ميجيل دى ليبس، **الفئران**
روبرت سكولز وآخرون، **آفاق أدب الخيال العلمى**
يانيس ريتسوس، **البعيد (مختارات شعرية)**
ب. إيفور ايفانس، **مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى**
فخرى أبو السعود، **فى الأدب المقارن**
سليمان مظهر، **أساطير من الشرق**
ف. ع. أدينكوف، **فن الأدب الروائى عند تولستوى**
د. صفاء خلوصى، **فن الترجمة**
بلدوميرو ليلو وآخرون، **قصص من أمريكا اللاتينية**
بورخيس، **مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا**
مايكل كانينجهام، **الساعات**
شيكسبير، **سونيتات شيكسبير**
ثريا عريان، **حديقة الياسمين**
د. عبد الغفار مكاوى، **النور والفراشة**
إميل فاجية، **مدخل إلى الأدب**
ألكساندر سولجينيتسين، **يوم فى حياة إيفان دينيسوفيتش**
لورانس فينوتى، **اختفاء المترجم**
عبد الرحمن الخميسى، **الحكايات الشعبية فى آسيا (ج١)**
أنطونيو تابوكى، **سيدة ميناء بيم**
جورج أورويل، **ابنة القس.**
جراهام جرين، **نهاية العلاقة الغرامية**

• سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، **الإعلام التطبيقى**
بيير ألبير، **الصحافة**
هربرت ثيلر، **الاتصال والهيمنة الثقافية**

• سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، **الهوية القومية فى السينما العربية**
ج. دادلى أندرو، **نظريات الفيلم الكبرى**
روى آرمز، **لغة الصورة فى السينما المعاصرة**
إدوارد مرى، **عن النقد السينمائى الأمريكى**
جوزيف م. يوجز، **فن الفرجة على الأفلام**
سعيد شيمى، **التصوير السينمائى تحت الماء**
دوايت سوين، **كتابة السيناريو للسينما**
هاشم النحاس، **نجيب محفوظ على الشاشة**
يوجين فال، **فن كتابة السيناريو**
دانييل أريخون، **قواعد اللغة السينمائية**
كريستيان ساليه، **السيناريو فى السينما الفرنسية**
تونى بار، **التمثيل للسينما والتليفزيون**
آلان كاسبيار، **التذوق السينمائى**
بيتر نيكولز، **السينما الخيالية**

بول وارن، **خفايا نظام النجم الأمريكى**
دافيد كوك، **تاريخ السينما الروائية**
هاشم النحاس، **صلاح أبو سيف (محاورات)**
جان لويس بورى وآخرون، **فى النقد السينمائى الفرنسى**
محمود سامى عطاالله ، **الفيلم التسجيلى**
ستانلى جيه سولومون، **أنواع الفيلم الأمريكى**
جوزيف وهارى فيلدمان، **دينامية الفيلم**
قدرى حفنى، **الإنسان المصرى على الشاشة**
مونى براح، **السينما العربية من الخليج إلى المحيط**
حسين حلمى المهندس، دراما الشاشة: **بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)**
جان بول كولين، **السينما الإثنوجرافية سينما الغد**
لويس هيرمان، **الأسس العملية لكتابة السيناريو للسينما والتليفزيون**
موريس إدجار كواندرو، **نظرات فى الأدب الأمريكى**
جوديث ويستون، **توجيه الممثل فى السينما والتليفزيون**
أحمد الحضرى، **تاريخ السينما فى مصر ج٢**

• ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنسانى

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ١٠ أجزاء.

• تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، **أعلام وأفكار**
د. مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى**
ت. كويلر ينج، **الشرق الأدنى**
جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، **رجال عاشوا للعلم**
ابن زنبل الرمال، **آخرة المماليك**
د. محمد عوض محمد، **نهر النيل**
يعقوب فام، **البراجماتية**
بلوطرخوس، **العظماء**
آرثر كريستنسن، **إيران فى عهد الساسانيين**
أوجست دييس، **أفلاطون**
آدم متز، **الحضارة الإسلامية(٢ج)**
تشارلز ديكنز، **مذكرات بكويك جـ١**
روبرت ديبوجراند وآخرون، **مدخل إلى علم لغة النص**
محمد كرد على، **بين المدنية العربية والأوروبية**
ولفرد جوزف دللى، **العمارة العربية بمصر**

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

- **مكتبة المعرض الدائم**
١١٩٤ كورنيش النيل ــ رملة بولاق ــ
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ت: /٢٥٧٧٥٣٦٧
- **مكتبة مركز الكتاب الدولى**
٣٠ ش٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨
- **مكتبة ٢٦ يوليو**
١٩ ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٨٤٣١
- **مكتبة شريف**
٣٦ ش شريف ــ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢
- **مكتبة عرابى**
٥ ميدان عرابى ــ التوفيقية ــ القاهرة
ت: ٢٥٧٤٠٠٧٥
- **مكتبة الحسين**
مدخل ٢ الباب الأخضرــ الحسين ــ
القاهرة ت: ٢٥٩١٣٤٤٧
- **مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى**
الزمالك ــ نهاية شارع ٢٦ يوليو من جهة أبو الفدا ــ القاهرة
- **مكتبة المبتديان**
١٣ ش المبتديان ــ السيدة زينب أمام دار الهلال ــ القاهرة
- **مكتبة ١٥ مايو**
مدينة ١٥ مايوــ حلوان خلف مبنى الجهاز
ت: ٢٥٥٠٦٨٨٨
- **مكتبة الجيزة**
١ ش مراد ــ ميدان الجيزة ــ الجيزة
ت: ٣٥٧٢١٣١١
- **مكتبة جامعة القاهرة**
بجوار كلية الإعلام ــ بالحرم الجامعى ــ الجيزة
- **مكتبة رادوبيس**
ش الهرم ــ محطة المساحة ــ الجيزة ــ
مبنى سينما رادوبيس
- **مكتبة أكاديمية الفنون**
ش جمال الدين الأفغانى من شارع محطة المساحة ــ الهرم ــ مبنى أكاديمية الفنون ــ
الجيزة ت: ٣٥٨٥٠٢٩١
- **مكتبة الإسكندرية**
٤٩ ش سعد زغلول ــ محطة الرمل
ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥
- **مكتبة الإسماعيلية**
التمليك ــ المرحلة الخامسة ــ عمارة ٦ مدخل (أ) ــ الإسماعيلية ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨
- **مكتبة جامعة قناة السويس**
مبنى الملحق الإدارى ــ بكلية الزراعة ــ الجامعة الجديدة ــ الإسماعيلية
ت: ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨
- **مكتبة بورفؤاد**
بجوار مدخل الجامعة ناصية شارع ١١، ١٤
بورسعيد
- **مكتبة أسوان**
السوق السياحى ــ أسوان
ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠
- **مكتبة أسيوط**
٦٠ ش الجمهوريةــ أسيوط
ت: ٠٨٨ /٢٣٢٢٠٣٢
- **مكتبة المنيا**
١٦ ش بن خصيب ــ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤
- **مكتبة المنيا (فرع الجامعة)**
مبنى كلية الآداب ــ جامعة المنيا ــ المنيا
- **مكتبة طنطا**
ميدان الساعة ــ عمارة سينما أمير ــ طنطا
ت:٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

- **مكتبة المحلة الكبرى**

ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً

- **مكتبة دمنهور**

ش عبد السلام الشاذلى ـ دمنهور

- **مكتبة المنصورة**

٥ ش الثورة ــ المنصورة
ت: ٢٢٤٦٧١٩ /٠٥٠

- **مكتبة منوف**

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية "جامعة منوف"

مكتبات ووكلاء البيع بالدول العربية

- لبنان

١ــ مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة ــ بناية الدوحة ــ بيروت ــ ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص.ب: ٩١١٣ ــ ١١ بيروت ــ لبنان

٢ ــ مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت ــ الفرع الجديد ــ شارع الصيدانى ــ الحمراء ــ رأس بيروت ــ بناية سنتر ماربيا ص. ب: ٥٧٥٢/ ١١٣
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

- **سوريا**

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع ــ سوريا ــ دمشق ــ شارع كرجيه حداد ــ المتفرع من شارع ٢٩ أيار. ص. ب:٧٣٦٦ ــ الجمهورية العربية السورية

- **تونس**

المكتبة الحديثة ــ ٤ ش الطاهر صفر ــ ٤٠٠٠ سوسة- الجمهورية التونسية

- **المملكة العربية السعودية**

١ ــ مؤسسة العبيكان ــ الرياض
(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ ــ
تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة
هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤- ٤١٦٠٠١٨

٢ ــ شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية ــ جدة ــ الشرفية ــ ش الستين ــ ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة: ٢١٤٨٧
ت مكتب: ٦٥١٤٢٢٢ ــ ٦٥٧٠٦٢٨ ــ ٦٥٧٠٧٢٢ ــ ٦٥١٠٤٢١

٣ ــ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ص. ب: ١٧٥٢٢ ــ الرياض ١١٤٩٤ ت: ٤٥٩٣٤٥١

٤ ــ مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية- الجوف ــ المملكة العربية السعودية ــ دار الجوف للعلوم ــ
ص. ب: ٤٥٨ ــ الجوف ــ
هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠
فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

- **الأردن ــ عمان**

١ ــ دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ ــ ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ ــ دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع
عمان ــ وسط البلد ــ شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ ــ عمان: ١١١٥٢ الأردن.